التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء التاسع





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العنكبوت
تفسير سورة الرُّوم
تفسير سورة لقمان
تفسير سورة السَّجدة

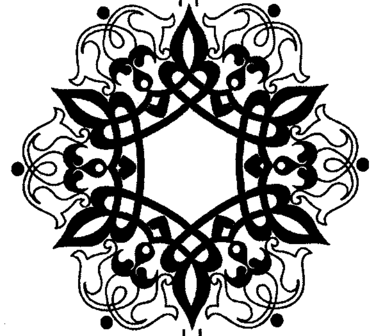


ALTABARI'S LIBERARY

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سنة الطبع :	١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
رقم الإيداع :	١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨
رقم الطبعة :	الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة العنكبوت

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]

التفسير

سورة العنكبوت مكية وهي تسع وستون آية[1].

والبسملة آية مستقلة بذاتها في ابتداء السور ما عدا سورة براءة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قال المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك] وهذا حق فيما ليس عنا، وهذه الكلمة لا معنى لها كذا قال مجاهد وغيره[2]؛ وذلك لأن القرآن نزل باللغة العربية، والحروف الهجائية ليس لها معنى ولكن هذه لها مغزى، وهو الإشارة إلى أن هذا القرآن الذي أعجز فصحاء العرب وأعجز غيرهم لم يأت بحروف جديدة لا يعرفونها وإنما أتى بحروف يعرفونها ويركِّبون منها كلامهم ومع ذلك أعجزهم؛ ولهذا لا تكاد تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدت بعضها فيه ذكر القرآن أو ما هو من خصائص القرآن مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١- ٣]، وقال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢] ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [ابراهيم: ١]، وكذلك: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢] وهكذا.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ما فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر من لازم القرآن وهو قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ فإن من آمن بالقرآن لابد أن يُفتن.

قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟﴾ هذا محل الاستفهام أَوَ يظن الناس أن يتركوا إذا قالوا آمنا بدون أن

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٣).

(٢) راجع «تفسير الطبري» (١/ ٢٠٥ – ٢١٣).

يختبروا؟! هذا أمر لازم، بل لابد من الاختبار وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان اختباره أكثر؛ فإن النبي ﷺ قال: «**أَكْثَرُ النَّاسِ ابْتِلَاءً الأَنْبِيَاءُ**[1] **ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**[2]»[3]، حتى يُنظر في دينه هل فيه قوة أم هو ذو دين ضعيف!

وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ (حسب) بمعنى ظن.

وقوله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، وذلك لأن قوله: إن المؤمن، يكون المؤمن حقًّا ويكون المنافق، والمنافق لا يصح أن يسمى مؤمنًا على الإطلاق ولكن يقال: مؤمن بلسانه كافر بقلبه.

وقوله: [﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾] يعني: يظن الناس أن يتركوا بلا فتنة إذا قالوا آمنا [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم]، وهذا الاستفهام التقريري للإنكار يعني: لا تظنوا هذا أنكم إذا قلتم آمنا تُركتم بلا فتنة، بل لابد من فتنة واختبار، والله سبحانه وتعالى يبتلي المرء تارة بأفعاله التي يفعلها به سبحانه وتعالى وتارة بأفعال غيره الذين يسلطون به عليه؛ أما بأفعاله، فإن الله تعالى قد يبتلي الإنسان بمصائب ليختبر بها إيمانه كمصائب مالية أو أهلية أو بدنية، فإن من الناس من إذا أصيب بمصائب ـ والعياذ بالله ـ عجز من أن يصبر وربما يرتد بعد إسلامه ويكفر، ومن الناس من يصبر ويحتسب، كذلك قد يبتلى المرء بأمر يسلطه الله عليه مثل أن يسلط عليه قوم يؤذونه بالقول أو بالفعل أو بهما جميعًا مثلما حصل للصحابة رضي الله عنهم، بل وحصل للنبي ﷺ فإن النبي عليه الصلاة والسلام أوذي إيذاء عظيمًا[4] من قومه ومن غير قومه، وكذلك أصحابه أوذوا إيذاء عظيما، ومع ذلك صبروا واحتسبوا، فإن عمار بن ياسر وآله حصل لهم إيذاء عظيم، وكذلك غيره من المؤمنين منهم من أوذي بالقول ومنهم من أوذي بالفعل ومنهم من أوذي بالقول وبالفعل.

قال المؤلف: [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم، ونزل في جماعة آمنوا فآذاهم المشركون].

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أي هم أشد في الابتلاء لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء، ولأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية، وليتوهن على الأمة الصبر على البلية. ولأن من كان أشد بلاء كان أشد تضرعا والتجاء إلى الله تعالى. «تحفة الأحوذي».

(٢) أي الأفضل فالأفضل على ترتيبهم في الفضل فكل من كان أفضل فبلاؤه أشد. «حاشية السندي على سنن ابن ماجه».

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٤٨١) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

(٤) «مستدرك الحاكم» (٥٦٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣١)، و«صحيح السيرة النبوية» (ص١٥٤).

[العنكبوت: ١٠]، ثم يرتد ـ والعياذ بالله ـ كذلك من الناس الآن من الشباب المتجه إلى الدين من يؤذيه أولئك الفَسقة ويسبونه، فهذا ابتلاء من الله سبحانه ليعلم الله سبحانه وتعالى هل يثبت هذا على دينه أو يعجز ثم يرجع خوفًا من أذية هؤلاء.

ومن الناس أيضًا من يؤذى بالتخلِّي عن أخلاق المؤمنين كحلق اللحية مثلًا فيبتلى بذلك ثم بالقول والاستهزاء والاستخفاف، وإما بالفعل فيضرب عليها أو يحبس فتجده يحلق لحيته خوفًا من هذا الأمر وهذا لا يجوز؛ لأن الواجب أن تصبر، نعم إن أُكرهت على هذا وغلت يدك وأوتي بالموسى، وحُلقت فالأمر ليس إليك، لكن ما دام الأمر إليك فإنك لا يجوز لك أن تفعل المعصية خوفًا من الناس المعاصي يجب الإنسان ألا يفعلها خوفًا من الناس يجب أن يصبر ويحتسب.

قال المؤلف: [﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم علم مشاهدة﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه].

وقوله: ﴿فَتَنَّا﴾ بمعنى :اختبرنا، ولقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن من فتنة من قبلنا أن الرجل يمشط بأمشاط الحديد ما بين عظمه وجلده(١)، ومع ذلك فإنه يصبر ويحتسب رغم أنه يمشط بأمشاط الحديد بين اللحم والعظم، فإذا كان هذا فيمن قبلنا فإن هذه الأمة أولى بالصبر على هذا الأمر العظيم، لاسيما إذا كان المقام مقام جهاد مثلما وقع للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في أيام المحنة فإنه كان يضرب بالسياط ويجر بالبغال ليقول: إن القرآن مخلوق، ومع ذلك أبى أن يقول: إن القرآن مخلوق؛ لأنه لو قال: إن القرآن مخلوق لاتبعته الأمة كلها على قوله وترتب على ذلك فساد الأمة؛ ولهذا من أُكرِهَ على الكفر وكان كفره يستلزم كفر غيره لفساد الملة فليس له أن يكفر ولو أُكره؛ لأن المقام في حقه مقام جهاد، والإنسان يجب أن يجاهد في سبيل الله ولو أدى إلى قتله.

أما إذا كانت المسألة إكراهه شخصيًا على الكفر، فإن هذا يجوز بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان فعلى هذا رجل مثلًا قدوة وإمام في الناس، أكره على أن يفعل معصية أو أن يفعل كفرًا فعله لها ليس بمجرد أن ينجو بنفسه، ولكن فعله فساد للأمة وللناس فهذا نقول له: لا تفعل فلا توافق ولو أكرهت؛ لأن المقام مقام جهاد في سبيل الله وإنسان آخر لا يُؤْبَه به وأكره على شيء كالكفر أو دونه، فله أن يفعل بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان مثل ما قال الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الصدق مطابقة القول للواقع أو مطابقة الفعل للواقع الذين صدقوا في قولهم إنهم مؤمنون، فمن كان صادقًا في إيمانه فإنه يسلم بذلك ومن كان كاذبًا فإنه ـ والعياذ بالله ـ ينخدع بهذه الفتنة وينقلب على وجهه فيخسر الدنيا والآخرة.

وقول المؤلف: [علم مشاهدة] يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ فإن قوله تعالى

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٦)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد في «مسنده» (٢١٠٩٥) من حديث خباب بن الأَرَتْ رضي الله عنه.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ مستقبل بدليل دخول نون التوكيد عليه وبدليل أنه جملة قَسَمية، والجملة القَسَمِيَّة تكون في المستقبل، فهو فعل مضارع واقع في جملة قَسَمية مؤكد بالنون فيكون للمستقبل، والله تبارك وتعالى يعلم ذلك قبل أن تحصل الفتنة فكيف الجواب عن قوله فليعلمن الله الدال على أن العلم لا يكون إلا بعد الفتنة؟ المؤلف قال: [علم مشاهدة] وذلك لأن علم الله تعالى بالأشياء ينقسم إلى قسمين:

فالأول: علم بما لم يكن، والثاني: علم لما كان وهذا هو الذي ننزل عليه مثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فالمراد علم المشاهدة فالعلم بالمجاهد علم، ولكن علم بما سيكون ومتعلق العلم الآن إما مستقبل يعلمه الله أنه سيكون وإما واقع علم الله بأنه قد كان، **هذا جواب.**

والجواب الثاني: أن العلم ينقسم إلى قسمين علم يترتب عليه جزاء، وعلم لا يترتب عليه جزاء؛ فعلم الله في الأزل قبل وقوع الشيء علم لا يترتب عليه جزاء، وعلم الله تعالى بعد الوقوع هو علم يترتب عليه الجزاء، فيكون العلم الذي يجعله الله تعالى مرتبًا على الوقوع المراد به علم المجازاة، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر فهذان جوابان عن مثل هذه الآية ولا يقال إن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه كما قال ذلك غلاة القدرية فإن غلاة القدرية يقولون: إن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه فنقول: هؤلاء في قلوبهم زيغ؛ لأنهم اتبعوا ما تشابه منه، ولو رجعوا إلى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛ لتبين لهم أن الله سبحانه وتعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون.

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: الكاذبين في قولهم: إنهم مؤمنون، فالله تعالى إذا فتن الخلق علم من كان صادقًا في قوله ومن كان كاذبًا، وفي هذا التحذير تحذير المرء عند وقوع الفتن بأن ارتد عن إيمانه فيكون بذلك كاذبًا.

اللام في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ هذه للتوكيد وهي أيضا موطئة للقسم فتكون جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

الفوائد:

١ـ في هذه الآيات الكريمة فوائد منها: الحكمة في ابتداء السور بالحروف الهجائية وقد تقدم لنا بيان ذلك.

٢ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يختبر المؤمنين؛ ليعلم بذلك صدق إيمانهم من عدَمِهِ.

٣ـ ومنها: أن هذا الاختبار ليس خاصًا بهذه الأمة، بل لهم ولغيرهم؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٤ـ ومنها: أنه كما قيل: (عند الامتحان يكرم المرء أو يُهانُ)، وأنه لا يعرف حقيقة المرء إلا

بامتحانه فإذا امتُحِنَ وثَبُتَ كان ذلك دليلًا على صدقه وإذا انحرف كان ذلك دليلًا على كذبه وعدم صدقه.

٥- ومنها: إثبات العلم لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.

٦- ومن فوائدها: انقسام الناس في الإيمان إلى صادق وكاذب، فالصادق هو الذي يثبت على إيمانه عند الامتحان، والكاذب الذي لا يثبت عليه.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤-٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يفوتونا فلا ننتقم منهم].

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أم هذه منقطعة؛ لأن (أم) تأتي في اللغة العربية على قسمين: متصلة ومنقطعة، والفرق بينهما أن المتصلة بمعنى (أو) وأنها تأتي بعد همزة التسوية وأنها تأتي بين متقابلين، لها ثلاث علامات، مثالها: قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] فهنا تجد أنَّ (أم) بمعنى أو يعني هذا وهذا سواء، وتجدها بعد همزة التسوية وأنها بين متقابلين، ومثلها قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

أما (أم) المنقطعة فهي التي تأتي: بمعنى بل ولا تقع بعد همزة التسوية ولا بين متقابلين فهنا ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بمعنى: بل أحسب وهذا الإضراب إضراب انتقالي وليس إبطالًا يعني: بعد أن ذكر الله تعالى وأنكر على الذين حسبوا أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

انتقل سبحانه وتعالى إلى صنف آخر من الناس وهم الذين لم يقولوا آمنا ولم يؤمنوا بل هم يعملون السيئات ويظنون أن الله تعالى لم يحيط بهم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون الأعمال السيئة والسيئ ما يسوء فاعله وكل عمل محرم فإنه سيء؛ لأنه يسوء صاحبه

بما يجد فيه من العقوبة الحاضرة والمستقبلة.

وقوله: [الشرك والمعاصي] أفادنا المعلق أن الشرك هنا تعم الصغائر والكبائر فالكبائر أعلاها الشرك والصغائر ما دون الكبائر والمعاصي فهي تشمل كل ما يسوء فاعله من الشرك وما دونه.

وقوله: [﴿يَسْبِقُونَا﴾ يفوتونا فلا نتنقم منهم] السبق بمعنى الفوات كما تقول: سبقت فلانًا يعني: فته فلم يدركني فهؤلاء يظنون الذين يعملون السيئات أن الله سبحانه وتعالى لا يدركهم وأن الله لا ينتقم منهم، وهذا بلا شك سوء ظن بالله تبارك وتعالى ولهذا قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم هذا وهو حسبانهم بأن الله تعالى لم يدركهم.

نقول: ساء بمعنى بئس، وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم فيحتاج إلى فاعل ويحتاج إلى مخصوص والمخصوص دائمًا يحذف استغناء عنه أو لدلالة الفاعل عليه؛ ولهذا قال المؤلف: [﴿سَآءَ﴾ بئس، ﴿مَا﴾ الذي] فهي اسم مخصوص، [﴿يَحْكُمُونَ﴾ـه]، وقد قدر المؤلف الهاء لتكون عائدًا إلى المخصوص.

إذنْ الذي فاعل والمخصوص: قال المؤلف: [حكمهم هذا]، وكل فعل من الأفعال الجامدة التي للذم أو المدح تحتاج إلى فاعل وتحتاج إلى مخصوص تقول مثلًا: نعم دار المتقين الجنة، الفاعل: دار، الجنة هي المخصوص بالمدح، والجنة هذه إعرابها لك فيه وجهان أحدهما: أن تجعلها مبتدأ مؤخرًا والجملة خبرًا مقدمًا، والثاني: أن تجعلها خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هي الجنة.

يقول: [بئس ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا]، ولا ريب أن ما حكموه وظنوه لا ريب أنه ظن سوء لا يليق بالله، فإن الله تعالى يقول في آيات كثيرة: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، فالذين يستمرون في عمل السيئات ويظنون أن الله تعالى لا يقدر عليهم ولا ينتقم منهم هؤلاء أضافوا -والعياذ بالله- شرًّا إلى شرهم.

قال المؤلف قال الله تعالى: [﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يخاف ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به ﴿لَأٓتٍ﴾ فليستعد له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم].

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ ﴿مَن﴾ هذه شرطية وجواب الشرط على رأي المؤلف محذوف تقديره: [فليستعد له].

قال المؤلف في تفسير [﴿يَرْجُواْ﴾ يخاف]، وهذا جرف للفظ عن ظاهره والرجاء غير الخوف؛ الرجاء يعني الأمل وهذا هو الصواب معنى ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يأمل أن يلقى الله عز وجل راضيًا عنه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وليس هناك ما يوجد فرق اللفظ عن ظاهره، بل إن المعنى: أي إنسان يرجو لقاء الله وأنه يلقاه وهو راضٍ عنه، فإن الأمر ليس ببعيد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: المدة التي جعلها الله سبحانه وتعالى حائلًا بينك وبين لقائه سوف

تأتي، ويحتمل قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: المدة التي قدرها للقائه وهذا أحسن؛ فالمدة التي قدرها الله لابد أن تأتي، [﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به] أي: باللقاء يعني أن اللقاء مؤجل فإن كل شيء مؤجل بأجل معلوم، ﴿لَأَاتٍ﴾ اللام هنا للتوكيد؛ لأنها واقعة في خبر إن ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ فهي للتوكيد وقد بينا في شرح «**الألفية**» أن محلها أن تكون في أول الجملة ولكنهم أخَّروها؛ لأن (إن) للتوكيد وكره أن يجتمع توكيدان متواليان وزحلقوا اللام إلى مكانها في الخبر.

وقوله: ﴿لَأَاتٍ﴾ خبر (إن) ومع ذلك فهي مكسورة والمعروف أن خبر إن مرفوع فكيف صح ذلك؟ نقول إن (آت) اسم منقوص؛ لأن الاسم إما منقوص أو ممدود أو مقصور أو صحيح الآخر فهنا لأنها اسم منقوص أصلها لآتي بالياء، فحذفت الياء وعوِّض عنها بالتنوين فصارت ﴿لَأَاتٍ﴾، وعلى هذا نقول: (آت) خبر إن مرفوع بها وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره ـ الياء المحذوفة ـ؛ لالتقاء الساكنين.

وقوله: ﴿هو﴾ أي: الله سبحانه وتعالى [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم].

نعم السميع لأنه ذو السمع الذي لا يخفى عليه شيء، كل شيء من المسموعات فإن الله تعالى مدركها كما أن السمع، وقد مر علينا أن السمع ينقسم إلى قسمين سمع إدراك وسمع إجابة، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، والثاني مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومثل قول المصلى: سمع الله لمن حمده بمعنى: أنه استجاب وذكرنا فيما سبق أن سمع الإدراك ينقسم إلى أقسام:

منها: ما يقتضي التهديد.

ومنها: ما يقتضي النصر والتأييد.

ومنها: ما يقصد به مجرد الإدراك.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ومثال الثاني: قوله تعالى ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ومثال المقصود به مجرد الإدراك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ .

وكونه تعالى سميعًا هل يلزم منه إثبات الأذن؟ الجواب: لا يلزم كما أن كونه بصيرًا لا يلزم منه إثبات العين، ولكن العين ثبتت بدليل آخر، ولولا أن الله أثبت العين في دليل آخر ما أثبتناها نقول: لا يلزم من كونه سميعًا أن يكون له أذن كما لا يلزم من كونه متكلمًا أن يكون له أذن ولسان وشفتان وما أشبه ذلك فإننا نعلم أن الأرض تحدث أخبارها ولا تحدث إلا بعد سماع وهل لها أذن؟ ما لها أذن حينها نعلم أنه ليس لها أذن، وهل لها لسان؟ ما نعلم أن لها لسان وعلى هذا نقول: لا يلزم من إثبات السمع إثبات الأذن .

فإذا قال قائل: قد ثبت في الحديث الصحيح: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى

بِالْقُرْآنِ[(١)]»[(٢)]. الجواب أن نقول: ما أذن له أي: ما استمع له ولا يلزم من هذا أيضًا إثبات الأذن؛ لأنه ما هو صريح والصفات ما يمكن أن نثبتها بالاحتمال لكن لابد أن تكون المسألة واضحة وصريحة.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول المؤلف: [بأفعالهم]، والحقيقة أن العلم يتعلق بالأفعال والأقوال أيضًا، فتخصيصه بالأفعال فيه نظر؛ لأن ما يختص بالأفعال إنما هو الرؤية، أما العلم فإنه أعم يتعلق بالأفعال ويتعلق بالأقوال ويتعلق بحديث النفس ويتعلق بكل شيء.

أما جواب ﴿مَن﴾ في قوله : ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ المؤلف قدَّره بقوله: [فليستعد له] وجعله محذوفًا، وعندي لا بأس أن نقول: إن جواب الشرط هو قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ ويكون بهذا المعنى أن الذي يرجو لقاء الله فإن سيأتي له ولا حاجة لنا أن نقدر لشيء محذوف؛ لأن الأصل عدم الحذف، وهذا الذي قدَّره المؤلف مثل ما قدره في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، قد تقدم أن المؤلف قدره بقوله: [فليمت غيظًا] وقد بينا هناك أنه لا حاجة للتقدير.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية الكريمة:** تكريم أولئك الذين يرجون لقاء الله؛ لأن ما رجوه فسيأتي.

٢ـ **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء.

٣ـ **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة لقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله جل وعلا وهما: السميع العليم.

٥ـ **ومنها:** إثبات ما تضمناه من صفة، فالأول تضمن صفة السمع والثاني تضمن صفة العلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

قوله: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾ قال المؤلف: [جهاد حرب أو نفس] أفادنا المؤلف بهذه العبارة أن الجهاد ينقسم إلى قسمين: جهاد حرب وذلك بجهاد الأعداء وجهاد نفس بأن تجاهد نفسك على فعل الطاعات وعلى ترك المحرَّمات.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ قال في معناها: [فإن منفعة جهاده له لا لله]، فالذي يجاهد ـ والجهاد بذل الجُهد في الشيء ـ لا يجاهد لله وإنما يعمل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] وقول المؤلف: [فإن منفعة جهاده له لا لله] نعم له لأنه مأجور سواء جاهد نفسه أو جاهد غيره مع أنه إذا جاهد غيره قد تكون المنفعة أيضًا للغير، فإن هذا الغير في

---

(١) أي يحسن صوته به حال قراءته أو هو الجهر وقوله يجهر به تفسير له أو يلين ويرقق صوته ليجلب به إلى نفسه وإلى السامعين الحزن والبكاء وينقطع به عن الخلق إلى الخالق جل وعلا. «حاشية السندي على النسائي».

(٢) رواه البخاري (٧١٠٥)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

الجهاد ربما يدخل في دين الله وحينئذ يكون له منفعة، المهم: أن الله سبحانه وتعالى لا ينتفع به - أي بالجهاد - ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، فالله تعالى غني عنه لا ينتفع بطاعته ولا يتضرر بمعصيته.

وقوله: ﴿لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ معنى ﴿غني﴾ أي: الذي لا يحتاج إليهم بما عنده من الجود والسعة والتدبير للأمور فهو لا يحتاج إلى العالمين كلهم.

قال المؤلف: [﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الإنس والجن والملائكة وعن عبادتهم] فهو غني عنهم لا يحتاج إليهم قال تعالى :﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، كذلك غني عن عبادتهم؛ لأن عبادتهم إنما عبادتهم تكون لهم، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينتفع بطاعة الطائعين ولا يتضرر بمعصية العاصين.

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ الجملة هنا مؤكدة بمؤكدين اثنين وهما: إن واللام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أن الإنسان لابد أن يحصل له مشقة في القيام بما يجب عليه، لأن الجهاد معناه بذل الجهد لأدراك أمر شاق.

٢- ومن فوائدها: أن من جاهد في العمل الصالح فإن جهاده لنفسه لا ينتفع الله به.

٣- من فوائدها: إثبات غنى الله سبحانه وتعالى عن خلقه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤- ومن فوائدها: أن من لم يجاهد فإن ضرره على نفسه؛ لأن إن كان منفعة الجهاد لك فعدم الجهاد ضرره عليك.

ثم قال الله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

قال المؤلف: قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعمل الصالحات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ بمعنى: حسن ونصبه بنزع الخافض الباء ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الصالحات].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾هذا في مقابل ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، أما هناك فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، والإيمان كما تقرر كثيرًا هو: التصديق مع القبول والإذعان وليس مجرد التصديق.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هذا في أعمال الجوارح فالإيمان في القلب وعمل الصالحات في الجوارح، و(العمل) يتناول الفعل والقول وبهذا ليس قسيمًا للقول كما يقول بعض الناس فيقول:

قول وعمل بل إن قسيم القول هو الفعل، أما العمل فإنه يشمل القول ويشمل الفعل؛ فقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إذنْ يتناول الفعل والقول، مثل الركوع والسجود والصلاة والقيام والقعود فيها ويتناول الأقوال كقراءة القرآن والتكبير والتحميد وغير ذلك وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهو صفة لموصوف محذوف تقديره الأعمال الصالحات، والعمل الصالح هو الذي جمع شرطين هما: الإخلاص والمتابعة، الإخلاص أن يقصد بعمله وجه الله، والمتابعة أن يكون في ذلك متَّبعًا للنبي ﷺ، وضد الأول الإشراك وضد الثاني البدعة فلا تكون مشركًا ولا مبتدعًا.

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ هنا قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ والجملة جواب لقسم مقدر تقديره: والله لنكفرن فهي إذن مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم واللام والنون.

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التكفير بمعنى الستر ومنه الكُفُرَّى وهي القشرة على طلع النخلة فمعنى ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: نسترها والمراد بالستر لازِمُه وهو العفو، لكن نكفر عن سيئاتهم بإيمانهم وعملهم الصالح؛ لأن الإيمان يهدم ما قبله والعمل الصالح يقول الله فيه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قال المؤلف: [بعمل الصالحات] فأعمالهم الصالحة تكون مكفِّرة للسيئات قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»(١).

وقال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا(٢)»(٣)، فالأعمال الصالحة تكون بمنزلة الكفَّارة للأعمال السيئة.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ الجزاء بمعنى المكافأة على الشيء، وهذه يقال فيها بالنسبة للتوكيد ما قيل في قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ﴾ قال المؤلف: [بمعنى حسن] وكأنه فرَّ من إشكال قد يورد، الآية تدل على أنهم سيجزون أحسن ما كانوا يعملون، فالعمل الصالح حسن وأحسن فإذا كانت الآية أحسن ما كانوا يعملون معناه: أن الحسن لا يجازَوْنَ عليه؛ ولهذا أوَّل المؤلف أحسن بمعنى: حسن ما كانوا يعملون، ولكن نحن نرى أنه لا حاجة إلى التأويل وأن ما ما دلت عليه الآية أولى مما قدَّره المؤلف وهو أن الله يقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ جزاء الذي كانوا يعملون فهو على تقدير محذوف لنجزينهم أحسن جزاء، وأحسن الجزاء بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣)، وأحمد في «مسنده» (٧١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لما وقع بينهما من الذنوب الصغيرة.

(٣) رواه البخاري (١٦٨٣)، ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ البخاري (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا أحسن الجزاء؛ لأن الجزاء غايته أن يكون مثلما فعل الفاعل، لكن هنا يجازى بأحسن وأعظم وعلى هذا فيكون أحسن ليس منصوبًا بنزع الخافض كما قال المؤلف: [وهو الباء]، بل هو مفعول ثانٍ؛ لقوله ﴿نَجْزِى﴾ والمفعول الأول (هم) والنون في قوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، للتوكيد هذا هو معنى الآية الكريمة، أي أن الله وعدهم بأمرين: بتكفير السيئات بالأعمال الصالحة وبالجزاء على هذه الأعمال أحسن جزاء يُعْطونه وذلك أن تكون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[(١)].

وقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول المؤلف : [وهو الصالحات] فهذه الأعمال الصالحة التي يعملونها يجازيهم الله عليها أحسن جزاء.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح.

٢- **ومنها:** أنه تُكَفَّر السيئات بالعمل الصالح والمراد بالسيئات الصغائر؛ لقول النبي ﷺ «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»[(٢)].

٣- **ومنها:** أن جزاء الله تعالى أفضل من عمل المؤمن وأحسن؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٤- **ومنها:** أنه لا بد في العمل من أن يكون صالحًا والصالح ما جمع شرطين: الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ، فإذا لم يكن مخلَصًا فهو فاسد وإذا لم يكن على وجه الشريعة أيضًا فهو فاسد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٣)].



قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

بِأَللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:٨-١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ لما ذكر سبحانه وتعالى مجمل حقه وما توعد به المخالفين وما وعد به المنافقين قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وصيناه بهما أي: عهدنا إليه بهما والوصية إنما تكون في الأمور الهامة.

وقوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: أمه وأبيه.

وقوله: ﴿حُسْنًا﴾ قال المؤلف: [أي إيصاء ذا حسن بأن يبرها]، فعلى رأيه يكون قوله ﴿حُسْنًا﴾ وقفًا بمحذوف أي إيصاء حُسنًا.

و(حسن) معلوم أنها مصدر وليست حسنًا، فإذا كانت مصدر فإنه يجب أن يقدر لها مضاف وهو ذا حسن هكذا قال المؤلف، ويحتمل احتمالًا قويًا أن حسنا هذه منصوبًا بنزع الخافض أي: عهدنا إليه بحسن وأن الحسن هنا بمعنى الإحسان كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وهذا أقرب من تقدير المؤلف.

والمؤلف يريد به أن يكون الحسن وصفًا لإيصاء الله والصواب أنه وصف للموصى به أي وصيناه بأمر ذي إحسان كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

وقول المؤلف: [بأن يبرهما]، البر هو الإحسان بأن يحسن إليهما بالقول وبالفعل وبالمال والمال حقيقة من الفعل فيحسن إليهما بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وبالفعل لقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وبالمال ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء: ٢٦] فمثلًا إذا كان الإنسان يحسن على والديه بالمال وقد أغرقهما إغراقًا بالمال لكنه جاف معهما في الكلام فهذا لا يكون بارًا حتى ولو أغدق عليهما بالمال، كذلك من كان معهما رءوفا لينًا بالقول مغدقًا لهما بالمال لكن لا يخدمهما بنفسه إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه ليس ببارٍّ فالبر لابد أن يكون بالقول والفعل والمال.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: بذلا جهدهما ومعناها الإلزام والإرغام والإحراج.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ [لقمان: ١٥] يعني: أمراك بالشرك وبذلا الجهد في ذلك بالإلزام عليه والإحراج تارة بمدح الشرك وتارة بذم التوحيد وتارة بالإلزام والإرغام وتارة بالتعهد بالقطيعة، إذا جاهداك على هذا يقول الله تعالى ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لماذا؟ لأن حق الخالق مقدَّم على حق المخلوق

والإشراك بالله ظلم في حق الخالق كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فلا يجوز أن تفرِّط في حق الله من أجل حق هؤلاء.

وقوله ﴿لِتُشۡرِكَ بِي﴾ هي مثل قوله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾.

وقول المؤلف: ﴿أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ﴾ [أي بإشراكه ﴿عِلۡمٌ﴾ موافقة للواقع] هذا لا مفهوم له.

قد يقول قائل: قوله تعالى: ﴿أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ فإن جاهداك على أن تشرك بي ما لك به علم فأطعهما؟

نقول: ظاهر الآية تدل على أن الإشراك تدل على قسمين: إشراك ليس به علم وإشراك به علم، فالإشراك الذي به علم يجوز والإشراك الذي ليس به علم لا يجوز!! قلنا: ليس الأمر كذلك، ولكن هذا بيان للواقع أن كل شرك بالله فإنه لا علم به عند الإنسان قال الله تعالى: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومعلوم أن الله ما جعل شركًا فيه سلطانًا، فكل الشرك ليس فيه سلطان، بل إن الشرك قد أقام السلطان والعلم الصحيح على أنه باطل، فصار معنى قوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أنه موافق للواقع فيكون كالتعليل لتحليل الشرك كأنه يقول على أن تشرك بي والحال أن الشرك ليس لك به علم، فإن الشرك قطعًا لا يمكن أن يقوم الدليل على وجوده، بل إن الدليل الصحيح على انتفائه فإن الله تعالى لا شريك له فلا تطعهما في الإشراك، لو قال الوالد والوالدة مثلًا: إذا لم تشرك فإننا نقاطعك ولا نكلمك ولا نأتي إلى بيتك ما تقولون في هذا؟ لا تطعهما مهما كان الأمر فهذا معنى قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾.

قوله: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: أنت وهما، والمعنى: ولا تظن أنك بمعصيتك لهما يلحقك إثم في هذا فإن مرجعكما إليَّ يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ والمراد بالإنباء هنا لازمه وهو المعاقبة والمؤاخذة فأنت بقيت على التوحيد فتجازى جزاء الموحد وهما بقيا على الشرك فيجازيان جزاء المشرك بل أبلغ من ذلك يجازيان جزاء المشرك الداعي إلى الشرك؛ لأنهما ما جاهداه على الإشراك إلا وهما مقيمان عليه ومصرَّان عليه فيكون في هذا جزاءان فيكون عليهما عقوبتان إحداهما عقوبة على إشراكهما، والثاني عقوبة على دعوتهما إلى الشرك بل ليس دعوة فقط بل مجاهدة الولد على أن يشرك.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ المراد بالإنباء لازمه؛ ولهذا قال المؤلف: [فأجازيكم به].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب الإحسان إلى الوالدين بالقول والفعل والمال.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى؛ حيث وصى الإنسان بوالديه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن للوالدين حقًّا وإن كانا كافرين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1]؛ لقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب طاعتهما في غير معصية؛ لأنه إنما نهى عن طاعتهما في المعصية حيث إنه نهي المرء عن طاعة الوالدين في الشرك وأمر بطاعتهما في غير الشرك، ومعلوم أن المنهي عنه طاعتهما في المعصية وهي أعم من طاعتهما في الشرك، ونرى أن طاعتهما في الواجب واجب؛ لأن الله أوجبه مثل لو قال لك الأب: قم صل مع الجماعة وجب عليك أن تصلي، طاعتهما فيما ليس فيه طاعة ولا معصية هل تدل الآية على الوجوب أم لا؟

ما تدل على الوجوب ولكن تدل على الوجوب إن كان في طاعتهما إحسان إليهما، فإن الآية تدل على الوجوب؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فإن لم يكن في طاعتهما إحسان فالآية لا تدل على الوجوب؛ ولهذا قال شيخ الإسلام: إن طاعة الوالدين إنما تجب فيما لهما فيه منفعة وليس عليهما فيه مضرة، والآية تدل على ما قاله الشيخ لأن الله نهى عما لو كانت الطاعة في معصية وسكت عن طاعتهما في غير معصية بحيث إن كانت تتضمن الإحسان إليهما فهي واجبة؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فإذا أمرك أبوك مثلًا وقال لك: اذهب واشترِ من السوق شيئًا كان ذلك واجبا عليك؛ لأنه من الإحسان إليه فيجب عليك أن تفعل، وإذا أمرك أبوك ألا تصاحب فلانًا لأنه مستقيم فلا يجب عليك طاعته؛ لأن في ذلك مضرة أو على الأقل عدم الانتفاع منه ولكن ليس فيه منفعة له. لكن لو قال لك: لا تصاحب فلانًا لأن فلانًا بينه وبين أبيك عداوة شخصية وأنت ما عندك منه مصلحة أو منفعة ولا عليك مضرة يجب طاعته؛ لأن مصاحبتك لعدو أبيك يغيظ أباك فيكون في ذلك منفعة.

فالمهم الآن: أننا نقول القاعدة في هذا الأمر أنهما إذا أمراك بمعصية لا تطعهما، لكن لو قال لك أبوك: لا تحج هذا العام وأنت قادر على الحج بمالك وبدنك ولم تؤدِ الفريضة لا تطعه فيجب عليك أداء الحج ولو لم يرض أبوك، لكن إذا أمرك ألا تحج هذا العام حج نفل وما له مصلحة في هذا ننظر إلى حال الوالد فلعله ليس معه من يخدمه إلا ولده ولهذا نقول: يجب عليه طاعة والده.

مسألة: لو قال لك أبوك: طلق زوجتك، لا يجب عليك أن تجيب إلا إذا كان هناك مصلحة شرعية مثل أن يكون الزوج اطلع على أمر ما لا يتحمل أن تبقى زوجته معه، أما فعل ابن عمر مع أبيه، فالإمام أحمد لما سأله الرجل عن الرجل يأمر أو أن أباه أمره بأن يطلق زوجته قال: لا تطلقها قال: أليس عمر أمر ابنه أن يطلق زوجته فأمره النبي ﷺ بتطليقها[2] قال: نعم حصل هذا ولكن

---

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥١٣٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٨٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٢٥٣)،

هل أبوك عمر؟!

إذن الآية الكريمة تدل على تحريم طاعة الوالدين في المعصية ويجب طاعتهما في غير معصية، وعلى هذا فلا تجب طاعتهما إلا إذا كانا داخلا في أول الآية إذا كان في ذلك إحسان إليهما كانت واجبة لقوله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

٦ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أن حق الله أعظم من جميع الحقوق وهل يدخل في ذلك حق نبيه؟ نعم يدخل فيه، فحق النبي ﷺ عليك أعظم من حق والديك.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الإشراك بالله لا يمكن أن يقوم عليه دليل، فالأدلة كلها على خلافه وبطلانه.

٨ ـ **ومنها:** إثبات البعث والرجوع إلى الله، لقوله: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٩ ـ **ومنها:** أن الإنسان مجازىً بعمله لقوله ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٠ ـ **ومنها:** إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ لأن الإنباء هو الإخبار ولا يكون الإخبار إلا عن علم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بيَّن الله فيما سبق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يكفِّر الله عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، هنا جزاء آخر وهو أنه يدخلهم في الصالحين واللام في لندخلنهم موطئة للقسم والنون للتوكيد فالجملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات.

وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أليسوا هم صالحين؟ بلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن المراد بالصالحين هنا الذين سبقوهم ودلوهم إلى خير وهم الأنبياء والأنبياء لا شك أنهم من الصالحين وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقابلون النبي ﷺ في المعراج وكانوا يقولون: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح(١) فوصفوه بالصلاح وكذلك أيضًا في سورة الأنبياء قال: ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦] ولا شك أن أخص الناس في وصف الصلاح الأنبياء لأنهم صالحون مصلحون عليهم الصلاة والسلام.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الأنبياء والأولياء بأن نحشرهم معهم] قوله: [والأولياء] فيه نظر؛ لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأولياء قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ

والبيهقي في «الكبرى» (١٤٦٧٠)، ولفظ أبي داود: (حدثنا مسدد ثنا يحيى عن ابن أبي ذئب قال حدثني خالي الحارث عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال كانت تحتي امرأة وكنت أحبها وكان عمر يكرهها فقال لي طلقها فأبيت فأتى عمر النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال لي النبي ﷺ: «طلقها». وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٨٧).

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال سبحانه وتعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥]، لكن قلنا الأنبياء؛ لأن مرتبة الأنبياء أعلى من الأولياء.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: فضيلة الإيمان والعمل الصالح.

٢- ومنها: أنه يتوصل بهما - أي بالإيمان والعمل الصالح - إلى اللحوق بالصالحين؛ لقوله: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٣- من فوائد الآية الكريمة: أن الإيمان وحده لا يكفي للحوق بالصالحين.

٤- ومنها: أن العمل لا ينفع ألا إذا كان صالحا وهو ما جمع شرطين: الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ﴿من﴾ هنا للتبعيض وهي خبر مقدم و﴿مَن﴾ مبتدأ مؤخر من ﴿يَقُولُ﴾.

وقوله ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ معناه: أنه يقوله بلسانه ولكنه لم يترسخ الإيمان في قلبه ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، فهو يقول بلسانه آمنا بالله.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: لحقته أذية ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في دين الله الذي كان يعتنقه ويحتمل أن تكون (في) للسببية أي بسبب الله أي: بسبب قيامه بدين الله، والمعنى واحد سواء كانت للظرفية أو للسببية، ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ هذا شرط والجواب: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ [أي: أذاهم له] ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوف منه فيطيعهم فينافق] فيجعل فتنة الناس أي: إيذاءهم له؛ لأن إيذاء المؤمن من غيره فتنة، فإن بعض الناس - نسأل الله العافية - إذا أوذي ما يصبر بعض الناس إذا كان مؤمنًا وحصل له أذية ما صبر وارتد وبعض الناس الذين فيهم قوة لو أُوذي يصبر ويزداد قوة في إيمانه، لكن الذي قال: أنا أومن بالله ما آمن إيمانًا راسخًا في قلبه.

وقوله: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيجعل هذا عذابًا في الخوف منه، ماذا يقول له يرتد بسبب هذا الإيذاء يقول: هذه عقوبة فأنا أرجع عما أنا عليه، وحينئذ ينافق ولكنه مع هذا يدعي أنه مؤمن متى يدعي أنه مؤمن ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾.

يلاحظ في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ يقول المؤلف: [لام القسم] وإن شرطية و﴿جَآءَ﴾ فعل الشرط

وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسم، فإذا اجتمع قسم وشرط فابن مالك يقول:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَه فَهُوَ مُلْتَزَم (١)

وهنا الذي تأخَّر الشرط فحذف جوابه؛ لدلالة جواب القسم عليه.

قال المؤلف: [﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ﴾ للمؤمنين ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فغنموا] ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هذه جماعة فعاد الضمير على ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] باعتبار المعنى، وعاد وعاد على ﴿مَن﴾ في قوله ﴿مَن يَقُولُ﴾ ولم يقل من يقولوا باعتبار اللفظ، وقد مرت علينا هذه القاعدة غير مرة وقلنا: إنه إذا جاء اسم الموصول أو اسم الشرط العام للواحد والجماعة فإنه يجوز في ضميره أن يكون مجموعًا وأن يكون مفردًا فإن كان مجموعًا يعني أن يُراعى فيه اللفظ والمعنى فإذا كان اللفظ صار مفردًا وإذا كان المعنى صار بحسب ما يُراد به في المعنى وسواء ذلك كان في أسماء الشرط أو في الأسماء الموصولة، وعندنا الآن اسم موصول، أما أسماء الشرط فقد قال الله تعالى في سورة الطلاق ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التغابن: ٩] وهنا راعى اللفظ، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ راعى المعنى ﴿أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الطلاق: ١١]، راعى اللفظ، ففي هذه الآية مراعاة اللفظ ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ مرة ثانية.

قال تعالى:[﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين]، وبقيت الضمة في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ دالة على الواو المحذوفة، [﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ في الإيمان فأشركونا في الغنيمة] هؤلاء - والعياذ بالله - إذا أوذوا في الله ارتدوا على أدبارهم ووافقوا من آذاهم، ولكنهم إذا أصاب المؤمنين نصر قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ يعني: نريد أن يحصل لنا ما حصل لكم من الغنيمة

قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الجواب؟ بلى .

قال الله: ﴿بِأَعۡلَمَ﴾ قال المؤلف: [أي: بعالم] وسبق لنا هذا لا يعتبر تفسيرًا ولكنه تحريف؛ لأن ﴿بِأَعۡلَمَ﴾ أبلغ من العالم فكيف يردها إلى عالم وهو أنقص؟!

وقوله: ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المراد بما في صدورهم أي: قلوبهم، يعني: أعلم بقلوب الناس أن القلب محله الصدر والقلب محل الإرادة وفي هذا دليل على أن محل التصديق والتكذيب هو القلب.

وقوله:﴿بِمَا فِي صُدُورِ﴾ من الإيمان والنفاق الجواب بلى وعلى هذا فنقول لهذا الذي قال إني معكم لست معهم في الحقيقة وذلك بأنك كافر بالله عز وجل حينما ارتددت حينما أوذيت.

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ٤٣).

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن الإيمان باللسان لا ينفع.

٢- **ومنها:** حكمة الله تعالى في ابتلاء المرء في أذية الناس له بإيمانه.

٣- **ومنها:** أن الابتلاء هو الامتحان الذي يتبين به الصادق من غيره وإلا لكان كل واحد يقول: أنا مؤمن.

٤- **ومنها:** أن من لم يرسخ الإيمان في قلبه رجع عنه إذا أوذي فيه.

٥- **ومنها:** أن المنافقين يدَّعون مشاركة المؤمنين عند الرخاء ويفارقونهم في الشدائد.

٦- **ومنها:** أن النصر من عند الله.

٧- **ومنها:** التحذير من النفاق؛ لقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال بعد ذلك: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾

قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وليعلمن الله في المستقبل لا في الماضي؛ لأن المضارع إذا دخلت عليه نون التوكيد جعلته في المستقبل، والجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي: القسم واللام ونون التوكيد والمراد بالعلم هنا الذي أكده الله وجعله مستقبلًا في قوله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ المراد به علم المشاهدة والمجازاة؛ لأن الله تعالى عالم بالمنافق وبالمؤمن من قبل، هذا لكن علمه السابق علم بأن هذا سيقع وعلمه اللاحق علم بأنه واقع، وعلمه السابق لا يترتب عليه مجازاة فلا مجازاة إلا بعد الاختبار وعلمه اللاحق يترتب عليه المجازاة، فإذن كلما رأينا أن الله عبر عنها في القرآن عن علمه في المستقبل فإننا نحمله على علم المشاهدة والمجازاة وليس على العلم السابق في الأزل؛ لأن العلم السابق في الأزل هذا سابق من قبل أن يخلق الناس فضلًا عن كونه فضلًا عن قبل ما يعملون ولكن العلم الذي يترتب عليه المجازاة والمشاهدة ما كان بعد ذلك ووقع.

قال تعالى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال المؤلف: [بقلوبهم]، يعني: لا بألسنتهم والذي سبق ذكره ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا إيمان باللسان، ولكن هذا الإيمان باللسان لا ينفعهم عند الله، صحيح أنه ينفع في الدنيا ولهذا لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين مع علمه بهم، ولكنه امتنع عن ذلك؛ لأن ظاهرهم الإسلام ولو أنه قتلهم لكان في ذلك وسيلة إلى أن يُقْتَل المسلم بحجة أنه منافق مع أن قلبه لا يعلمه إلا الله؛ ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**(١)»(١)، والحمد لله أن هذا هو الشرع؛ لأنه لو

---

(١) **قال النووي في «شرحه على مسلم»:** (فيه ما كان عليه ﷺ من الحلم، وفيه ترك بعض الأمور المختارة، والصبر على بعض المفاسد خوفا من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة، ويرغب غيرهم في الإسلام).

كان الأمر كذلك لكان كل واحد من الولاة الظلمة في عصرنا هذا يرى شخصًا متدينا يقول: إنه منافق مراءٍ وهو كافر بالباطن ثم يقتله، ولكن من نعمة الله تعالى أن الشرع جعل الحكم في هذه الدنيا على الظواهر أما في الآخرة فعلى السرائر.

قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [فيجازي الفريقين] فالمؤمن يجازيه جزاء المؤمن والمنافق يجازيه جزاء الكافر وجزاء المنافق أنه في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قال المؤلف: [واللام في الفعلين لام قسم] والفعلان هما في قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فهي لام قسم والجملة على هذا مؤكدة بثلاث مؤكدات.

الفوائد:

١- من فوائد قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ أن الحكمة من الامتحان إظهار المؤمن من المنافق.

٢- ومنها: إثبات النفاق؛ لقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

٣- ومنها: أن المنافقين ليسوا بمؤمنين؛ حيث جعل الله المنافقين قسيمًا للمؤمنين، وقسيم الشيء خلاف الشيء.

٤- ومنها: إثبات علم الله سبحانه وتعالى بما في القلوب.

٥- ومنها: أن الإيمان محله القلب وليس الجوارح؛ إذ لو كان في الجوارح لكان المنافقون مؤمنين فالإيمان محله القلب.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾. ﴿سَبِيلَنَا﴾ [ديننا] وهذه من الدعايات والدعوى من الباطل يقول الكفار للمؤمنين الذين آمنوا بالرسول ﷺ اتبعوا طريقنا وهو الشرك.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ اللام لام الأمر والمراد به الخبر يعني ونحن نحمل خطاياكم وإنما جعلوا الخبر بصيغة الأمر لإظهار الالتزام لهم بذلك يعني: بدلا من أن يقولوا ونحن نحمل فكأنهم يقولون نلزم أنفسنا بذلك فنوجه الأمر إليها ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ والخطايا جمع خطيئة وهي ارتكاب الإثم يعني: ارتكابكم للإثم نحن نتحمله.

قال المؤلف: [في اتباعنا إن كانت، والأمر بمعنى الخبر] قوله: [إن كانت] إنما قدَّرها المؤلف؛ لأن هؤلاء المشركين الذين دعوا إلى متابعتهم لا يعتقدون أنهم على خطأ فهم يقولون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا وإن كان لكم خطايا في هذا الاتباع فإننا نتحملها فالتقدير الذي ذكره المؤلف واضح من الآية؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون أنهم إذا رجعوا إلى الشرك أو إذا دخلوا في الشرك كانوا مخطئين ما دعوا إلى ذلك فقولهم ونحمل خطاياكم يعني إن كان لكم خطايا بدخولكم في الشرك فإننا نتحمله، تضمن هذا الكلام دعوة ودعاية، أما الدعوة فقولهم اتبعوا سبيلنا والدعاية بتزيين هذا الأمر لهم بقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ يعني ما عليكم شيء قال الله تعالى مكذبًا لما دعوه:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ ما نافية وهي هنا حجازية ودخلت الباء في خبرها على حد قول ابن مالك في «الألفية»:

وَبَعْدَ مَا وَلَيْسَ جَرَّ ذَا الخَبَرْ (١)

فهنا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ وإنما أتى بالباء الزائدة إعرابًا لتأكيد النفي أي أن هذا أمر مؤكد.

وقوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ (من) حرف جر زائد أيضًا وفائدة زيادتها تأكيد العموم سواء كان هذا الشيء قليلًا أو كثيرًا، أما قوله: ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ فإنها في موضع نصب على الحال من شيء، لأن الوصف إذا سبق النكرة صار حالًا منه وإن تأخر صار نعتًا.

يقول: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما هم حاملين شيئًا من خطاياهم وهل هذا خبرا عن حكم شرعي أو عن حكم شرعي قدري؟

أما كونه عن حكم شرعي فنعم ما يمكن أن يحمل هؤلاء من خطايا هؤلاء شيئًا لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، أما عن كونه حكم قدري أيضًا، فلأن هؤلاء لو قالوا لهم فهم كاذبون لو قالوا نحن نحمل خطاياكم فإنهم كاذبون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] فهم لو قالوا ما هم بحاملين فكأن الله تعالى يكذبهم يقول: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ أنهم ما يصدقون فيما قالوا فصارت هذه الآية الآن متضمنة للنفي حكمًا شرعيا وللنفي حكمًا واقعيًا فهم في الشرع لا يحملون أوزارهم وهم في الواقع لا يحملون أوزارهم

---

(١) «شرح ابن عقيل» (١/ ٣٠٨).

أيضًا لو قالوا ما صدقوا ما هم بحاملين من خطاياهم شيئًا ولكن يريدون أن يخدعوهم ويغروهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ لو قالوا ما يُصدَّقون كما أنهم بالنسبة إلى الله عز وجل ما يمكن أن يحمل أوزار هؤلاء لهؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ولما كان قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قد يوهم أنهم لم يحمَّلوا شيئًا من أوزارهم أي: أن الدعاة لا يتحملوا شيئًا من أوزار المدعوين قال:

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ الفاعل الدعاة والمدعوون والجملة هذه مؤكَّدة بالقسم واللام والنون، ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أوزارهم يعني: عقوبة الذنوب وسميت الأوزار أثقالًا؛ لأنها تثقل - والعياذ بالله - صاحبها.

وفي قوله: ﴿أَثْقَالِهِمْ﴾ الضمير في (هم) يعود إلى الداعين يعني: ليحملن هؤلاء الدعاة أثقال أنفسهم وأيضًا: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أثقالًا أخرى مع أثقالهم وما هي الأثقال الأخرى؟ أثقال دعوتهم، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل: ٢٥]، فهم يحملون أثقالهم كاملة، أما أثقال المدعوين لا يحملونها كاملة ولو حملوها كاملة ما بقي للمدعوين شيء؛ ولهذا هنا قال: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أثقالا بالنكرة وفي الآية الثانية قال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وذلك لأن الداعي لا يتحمل وزر المدعو كاملًا لو تحمله كاملة ما بقي للمدعوِّ شيء ولكنه يكون لهذا ولهذا عياذًا بالله.

وقوله: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لدعوتهم إلى الضلال وكل من دعا إلى ضلالة فله مثل وزر من عمل بها من غير أنه ينقص من عملهم شيء.

قال المؤلف: [﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بقولهم للمؤمنين: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ وإضلالهم مقلديهم]، والمقلدون هم الذين اتبعوهم؛ لأن الكفار مجتهدون ومقلدون يعني: رؤساء ومقلدون قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[القصص: ٤١]، والإمام له مأموم أي: له مؤتم به يدفعه، فالكفار لهم رؤساء ولهم مقلدون فهؤلاء المقلدون يحمل الرؤساء من أوزارهم ما يتحملون كذلك من أوزار الذين يضلونهم بغير علم، لكن إذا دعا شخصًا ولم يقتد بهم فإنهم يحملون أوزار الدعوة فقط دون وزر العمل والسبب؛ لأنه ليس هناك عمل.

قال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يسألهم الله سبحانه وتعالى فهو الذي يسألهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: في الآخرة وقد تقدم أنه سمي بذلك لأمور ثلاثة وهي:

١- قيام الناس من قبورهم.

٢- إقامة العدل.

٣- قيام الأشهاد فإن الأشهاد يقومون في ذلك والأشهاد هم الرسل عليهم السلام وكذلك غير الرسل من العلماء وكذلك الجنود.

قال المؤلف: [﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون على الله] ؛ لأنهم قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ وهم كاذبون في هذا فسيُسألون عن هذا الكذب وكذلك كل دجال يدعو إلى باطله في الكذب سيسأل عن هذا.

قال المؤلف: [سؤال توبيخ].

هل هذا سؤال توبيخ أو سؤال استنكار؟ هو سؤال توبيخ لأجل أن يقروا ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨- ١١].

قال المؤلف: [واللام في الفعلين لام قسم وحذف فاعلها الواو ونون الرفع].

أين اللام في الفعلين؟ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ والثاني: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ﴾ فاللام لام القسم والقسم مقدر والنون للتوكيد فصار التوكيد بثلاثة فحذف فاعلها: الواو ونون الرفع ونون الرفع حذفت لتوالي الأمثال؛ لأن ثلاثة مجتمعة كلهن زائدات ما يصير فحذفت النون الأولى لتوالي الأمثال، ولم تحذف نون التوكيد لأنه جيء بها لمعنى فكان الحذف لنون الرفع الذي جرت في العادة أن تحذف، ومعلوم أن الأفعال خمسة تحذف نونها وجوبا في حال النصب والجزم وجوازًا بكثرة في حال النفي وجوازًا بقلة في حال الإثبات.

لماذا حذفت الواو؟ حذفت الواو لالتقاء الساكنين على حد قول ابن مالك في «**الكافية**»:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة**: حرص الكافرين على إغواء المؤمنين؛ لقولهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾.

٢- **ومنها**: أن أولئك الضالين يستعملون أساليب الدعاية الباطلة؛ لقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ فإن هذا من الدعاية الباطلة.

٣- **ومنها**: أن هؤلاء الدعاة إلى الضلال كاذبون فيما جزموا به من حمل الخطايا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٤- ومنها: أن من كَفَرَ هان عليه ما دون الكفر، فهؤلاء كفروا فهان عليهم الكذب أن يقولوا: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

٥- ومن فوائد الآية: الحذر من دعوة أهل الضلال ودعايتهم - أقصد بالدعاية تزيين ما دعوا إليه وتسهيله في نفوس المدعوين - فيجب علينا أن نحذر من هؤلاء.

٦- ومن فوائد الآية: تقرير قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾.

٧- ومن فوائد الآية: الإقناع قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٨- ومن فوائد الآية: إثبات علم الله لقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنه خبر عن واقع في المستقبل.

٩- ومن فوائدها: إثبات عدل الله؛ حيث لا يحمِّل أحدًا خطيئة أحد.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

١ - ففيها دليل على: أن الدعاة إلى الشر عليهم من أوزار المدعوين؛ لقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

٢ - ومنها: أن الدعاة من الخير لهم مثل من أجر مثل ما المدعوين؛ لأن الداعي إلى الشر يناله من العقوبة - وهذا من العدل - فإن الداعي إلى الخير يناله من الأجر؛ لأن الله تعالى ذو الفضل العظيم.

٣ - ومنها: خطورة الدعوة إلى الضلال؛ حيث إن كل من تأثر بهذه الدعوة فإن على الداعي مثل وزره أو من وزره كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

٤ - ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾.

٥ - ومنها: إثبات سؤال هؤلاء عن أعمالهم السيئة؛ لقوله: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٦ - ومنها: أن الكذب يعاقب عليه المرء؛ لقوله: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي الذي كانوا يفترونه إلا الكذب المباح فالكذب المباح ما عليه عقوبة، لكن الكذب غير المباح عليه عقوبة وهناك من يقول من الناس إن الكذب نوعان: أبيض وأسود فالأسود هو الذي عليه العقوبة والأبيض لا عقوبة عليه، والحقيقة أن الكذب كله أسود ما فيه أبيض، هم يقولون: إن الأسود فيه أكل مال للغير أو اعتداء عليه أو انتهاك لعرضه يعني ما فيه مضرة على الغير، أما ما فيه ترويح على النفس وما أشبه ذلك فهو أبيض، وهذا غير صحيح، بل ورد الوعيد على من كذب ليضحك به القوم، فالإنسان يجب عليه أن يتجنب الكذب كله لأن الأصل أنه حرام.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (اللام) هنا للقسم و(قد) للتحقيق فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات وإنما أكد الله ذلك وإن كان الخطاب لغير منكر، لكن تقدم لنا أن الأمور الهامة تؤكد وإن لم يخاطَب بها منكر أو متردد.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: بعثناه برسالة وكان هذا بعد مدة طويلة من آدم؛ إذ كان الناس بعد آدم على ملة واحدة بدون رسالة؛ لأن آدم نبي وليس برسول، إذ إنه ليس هناك أحد يرسل إليه وإنما أوحي إليه بشرع وجعل يتعبد به واتبعه بنوه على ذلك، ولكن لما كثر بنوا آدم اختلفت آراؤهم قال الله تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فبين الله سبحانه وتعالى أن الرسل أُرسلوا بعد أن اختلف الناس؛ ولهذا في قراءة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهذه القراءة دلت عليه آخر الآية ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فأرسل الله نوحًا وهو أول رسول أرسل إلى البشرية.

قال المؤلف: [وعمره أربعون سنة أو أكثر] ونحن لا نعلم بالتحديد كم عمره، لكن نعلم علم اليقين أن الله أرسله وعمره قابل لأن يكون أهلًا للرسالة سواء كان أربعين سنة أو أكثر ولا أظنه يكون أقل من ذلك.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هذا فيه شاهد للحديث الصحيح: «**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

قال المؤلف: [﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى توحيد الله فكذَّبوه].

قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي: في دعوتهم إلى دين الله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يعني: تسعمائة وخمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله، عمر طويل وهو معهم في صراع، وفي سورة نوح يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه .

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [نوح: ٢-٧]؛ لئلا يسمعوا ما أقول ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ فغطوا بها لئلا يروني أعوذ بالله يعني معناه أنهم يسدون كل منافذ الوعي: السمع والبصر ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على ما هم عليه من المعاصي، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الواجبات ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨، ٩] انظر إلى مراحل الدعوة العظيمة ومع ذلك ما استفادوا شيئًا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] فالمدة طويلة والدعوة متنوعة والمضادة والمحادة شديدة عظيمة يمرون به وهو يصنع سفينة فيسخرون منه لكنه مؤمن بالله عز وجل فكان يقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩] هذه المدة الطويلة يقول الله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ حتى إن أحد أولاده ما آمن، وهذا يوجب لنا أن نصبر ونحتسب، فالإنسان منا إذا دعا الناس لمدة ساعة ولم يستجب له أحد غضب وترك الدعوة وقال: ما في فائدة لكن نوح عليه السلام لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ هنا ذكر فيها السبب والأثر، إرسال ومكث طويل، وبعد ذلك أخذهم الطوفان، لكن أخذٌ بسبب؛ وهو قوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ وهذا أبلغ من قوله: فأغرقهم، والأخذ يكون في مقابلة عمل فهو جزاء.

قال المؤلف: [﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: الماء الكثير طاف بهم وعلاهم فغرقوا]، طاف بهم من كل جانب - والعياذ بالله - وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر فقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] فتح الله كل أبواب السماء، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يعني: نازل بشدة وقوة ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ الأرض كلها حتى قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وهو موضع النار البعيد عن الرطوبة وعلت الماء فوق قمم الجبال وهكذا كان بإذن الله، فالأرض كلها تبث العيون والسماء منهمرة بالماء العظيمة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ماء الأرض وماء السماء ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

ورد في الحديث: «لَوْ أَنْجَى اللهُ أَحَدًا لَأَنْجَى أُمَّ الصَّبِيِّ»[1] وهي امرأة معها صبي كلما وصلها الماء صعدت في الجبل وكلما وصلها صعدت حتى وصلت إلى قمة الجبل فلما ألجمها الماء حملت ولدها فوق رأسها لأجل أن تغرق قبل ابنها ولكن - والعياذ بالله - ما أدركت رحمة الله الكافرين

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣١٠) بلفظ (لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٩٨٥).

بعد أن رأوا العذاب ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ يعني: أخذهم حال أنهم ظالمون أي مقيمون على الظلم ما آمنوا لأن ما آمن مع نوح إلا نفر قليل.

وقوله: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا] من هذا الطوفان العظيم ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوفة على الهاء في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ وأنجينا أيضًا أصحاب السفينة أي: أهل السفينة أي الذين كانوا معه فيها وهم المؤمنون أهل نوح كلهم إلا ابنه الكافر، والمؤمنون من قومه أنجاهم الله كذلك وكذلك الحيوانات ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فكل هؤلاء الذين ركبوا السفينة نجوا.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعلناها عبرة للعالمين، والضمير أي: القصة أو جعلناها أي: السفينة ويؤيد أنها السفينة أنها تعود إلى أقرب مذكور ويؤيد العموم أن العبرة ليست السفينة فقط بل السفينة والقصة حيث إنه بقي هذه المدة الطويلة ولم يؤمن معه إلا قليل وحصل هذا الغرق العظيم الذي لا نظير له فيما نعلم، فهي آية للعالمين، وأما أنها السفينة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢] أي: مثل سفينة نوح فصار أول من صنع السفن هو نوح عليه السلام ومنه أخذ الناس هذه الصنعة وتأمل الحكمة في قوله تعالى ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] ولم يقل وحملناه على السفينة تنبيهًا على المواد التي يسمونها المواد الخام في صنع السفينة والألواح معروفة وهو الخشب، أما الدسر فهي المسامير وقال رب العزة ذلك حتى يعرف الناس هذا وهذا وهو الواقع فإن الناس عرفوا بها وتطورت أيضًا صنع السفن الآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بعض العلماء يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة عينًا وأن هذه السفينة بقيت في الأمم حتى أدركتها آخر الأمم وهم أول هذه الأمة فيقال: إن أجزاء هذه السفينة بقيت إلى أن أدركها أول هذه الأمة على الجودي التي استوت عليه، وهذا فيه نظر.

والقول الثاني في الهاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعود على السفينة باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص والضمير يعود عليها باعتبار جنسها فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا﴾ [الملك: ٥] أي: الشهب التي تخرج من هذه المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿ولقد وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] جعلناه باعتبار جنسه ولا يصح أن يكون باعتبار الشخص؛ لأن آدم ليس في الأرحام فآدم الذي خلق من سلالة من طين لا يكون في الأرحام وهل يكون في قرار مكين؟ لا، ولكن ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الإنسان باعتبار جنسه فالضمير يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة باعتبار الجنس.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ العالمين المراد بالعالمين هنا قال المؤلف: [لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسلهم] فسيحل بهم العقوبة كما حل بقوم نوح .

[وعاش نوح بعد الطوفان ستين سنة أو أكثر] وقبل البعثة أربعين سنة، وفي الدعوة ألف سنة إلا خمسين سنة فهذه ألف وخمسين سنة لكن المؤلف قال: [ستين سنة أو أكثر حتى كثر الناس]، لكن ما نجزم بأنه عاش ستين سنة بعد الطوفان لأننا نقول: لا فائدة من معرفة كم لبث قبل الرسالة ولا معرفة كم لبث بعد الطوفان؛ لأن المهم من القصة بأن هذا هو أول الرسل عليهم السلام ومع ذلك وجد من قومه من المعارضات ومن الاستكبار ورد دعوته ما لم يجده نبي مثله؛ لأننا ما نعلم بأن نبيًّا بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا إلا نوحًا.

مسألة: في قصة نوح قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ومعروف أن الذي أُرسل إلى قوم نوح واحد وهو نوح فما معنى الآية الأولى؟

نقول: إن المكذب لواحد مكذب للجميع؛ لأن ما هناك فرق بين النبي نوح وشعيب وصالح وهود، فكلهم من بني آدم، مثل من آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فكأنما كفر بالجميع، كمن يقول: إن الصلاة مفروضة ولكن ما أومن أن الزكاة فرض نقول له: كذَّبت بهذا وبهذا؛ لأن إيمانك بأن الصلاة مفروضة دون الزكاة فهذا عن هوى فهو لا يؤمن بهذا ولا بهذا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، والفائدة من حذف العامل هو الاختصار وبيان الاهتمام بالمعمول، فهنا حذفت اذكر اختصارًا واهتمامًا بالمعمول وهو إبراهيم، ليبدأ به أولاً، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام كلنا يعرف أنه ثاني أولي العزم من الرسل، وأولهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى واختلفوا أيهما أفضل، والأولى أن يقال: لكل منهما مزية، أما الثلاثة محمد ثم إبراهيم ثم موسى، فهذا متفق علي التفضيل، وقد ابتلاه - أي إبراهيم - الله تعالى بأمرين: أحدهما: بالدعوة إلى الله، والثاني: في أعز محبوب إليه.

أما في الدعوة إلى الله: فإن الله ابتلاه بأن سلط عليه قومه ليحرقوه، والنتيجة قد أنجاه الله من النار، وقال للنار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وأما الأمر الثاني فهو في أعز الأشياء إليه وهو ابنه حين بلغ معه السعي وهو وحيده وأول أولاده، وهو إسماعيل على

القول الصحيح، ابتلاه الله تعالى بأن أمره بذبحه، أمره بأن يذبحه هو، واستسلم ووافق - والقصة معروفة - وأنجاه الله سبحانه وتعالى منه حين قال له: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] إلى آخره، وسمي خليلاً حيث اتخذه الله خليلاً بسبب هذا الأمر حيث قدم على محبة الله تعالى أحب شيء إليه، وقد نبهنا من قبل على أن بعض الناس الجهال في الواقع يصفون النبي ﷺ بأنه حبيب الله وأن إبراهيم خليل الله وهذا خطأ، فإن محمدًا ﷺ خليل الله أيضًا كما ثبت ذلك عنه[1]، والذي يقول: إن محمدًا حبيب وإبراهيم خليل قد تنقص من قدر النبي ﷺ لأن درجة المحبة أدنى من درجة الخلة.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ (إذ) هذه ظرف وهي في موضع نصب على الحال أي: حال كونه قائلاً لقومه، وقوله ﴿لِقَوْمِهِ﴾ والقوم: هم الجماعة الذين ينتسب إليهم الإنسان في نسب أو هدف، كل من ينتسب إليه الإنسان بنسب فهم قومه، أو بهدف بأن يكون دعواهم واحدة وطريقهم واحدة يسمى أيضاً قوماً، والمراد بقومه هنا من ينتسب إليهم قرابة لقومه.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ قال المؤلف: [خافوا عقابه] ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أصل العبادة مأخوذة من الذل، ومنه قولهم: طريق معبَّد، أي مذلل، لأن العبد يذل لمعبوده، فالعبادة إذنْ التذلل لله عز وجل، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهذا حد لها في الواقع باعتبار ميدان العبادة، أما أصلها فإنها الذُّل، لأن هذا مقتضاها في اللغة: أن يتذلل الإنسان لله سبحانه وتعالى بطاعته فعلاً للأوامر وتركًا للنواهي.

واعلم أن العبادة تنقسم إلى قسمين: أولًا: الخضوع للأمر الكوني، وهذه عامة لكل أحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، كل من في السماوات والأرض من مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر، كلهم يأتون الله تعالى بهذا الوصف ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾؛ وهل من ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؟

ذكرنا أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة وهي: الخضوع للأمر الكوني وهذه لا يُستثنى منها أحد كل الناس كل الخلق خاضع لأمر الله الكوني، لا أحد يقدر يرفع المرض أو الموت عن نفسه، مثاله قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ هل من هذا قوله تعالى يخاطب إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾؟

الجواب: إن جعلنا الاستثناء متصلًا فإن المراد بالعبودية: العامة، وإن جعلناه منقطعًا فالمراد

---

(١) كما عند مسلم (٢٣٨٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، وأحمد في «مسنده» (٣٥٨٠) من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

بالعبودية الخاصة، والعبودية الخاصة: هي التذلل لأمر الله الشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هؤلاء تذللوا للأمر الشرعي، وهنا في الآية الكريمة قال إبراهيم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي الأمرين يريد؟ الجواب: التعبد لله بالعبادة الشرعية.

وقوله ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عطفًا على قوله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والعطف كما قيل: يقتضي المغايرة، ونحن ذكرنا أن العبادة: التذلل لله سبحانه وتعالى بالطاعة، والتقوى اتخاذ وقاية من عذابه بطاعته، لأن أصلها من الوقاية، فيتقي الإنسان عذاب الله بطاعته، على هذين التفسيرين يكون عطف التقوى على العبادة من باب عطف الشيء على نفسه، والمعروف أن بلاغة القرآن تأبى أن يعطف الشيء على نفسه؛ لأن ذلك من باب التكرار، فما هو الفرق الذي يكون به العطف مقتضيًا للمغايرة، يعني: لو قلنا التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بطاعته، والعبادة التذلل لله تعالى بطاعته، صار معناهما واحدًا، والعطف يقتضي المغايرة، فكيف يمكن أن نفسر العبادة بمعنى يغاير معنى التقوى؟

نقول: الجواب هذا من أحد وجهين: إما أن يراد بالعبادة هنا في هذه الآية فعل الأوامر، وبالتقوى ترك النواهي، يعني: أن تتقي المعاصي وأن تفعل الطاعات، وهذا الوجه ـ أعني أنه إذا كانت الكلمتان كل واحدة منهما تشمل معنى الأخرى عند الانفراد وتغايرها عند الاجتماع ـ له أمثلة كثيرة: مثل الفقير والمسكين: هما شيء واحد عند الانفراد، ويختلفان عند الاجتماع، والبر والتقوى هما شيء واحد عند الانفراد، وشيئان عند الاجتماع، وهنا نقول: العبادة والتقوى: هما شيء واحد عند الانفراد، وعند الاجتماع تفسَّر العبادة بفعل الأوامر والتقوى باجتناب النواهي، هذه واحدة.

الوجه الثاني: أن نقول: أن يراد بالعبادة: مطلق الالتزام والتذلل، والتقوى المراد بها: اتقاء العمل المعين، لأنه ليس كل من قام بمطلق العبادة يقوم بالتقوى، فكثير من المسلمين الآن يعبدون الله لكن هل يتقونه في كل شيء؟ لا، الصوم عندنا الآن نصوم لكن هل الصائم يتقي الله في كل شيء بحيث يترك الكذب والغيبة والشتم والمحرم وقول الزور والعمل به؟

الجواب: ليس كل صائم هكذا، وعلى هذا فنقول: المراد بالعبادة مطلق الالتزام والتذلل، وبالتقوى: أن يتقي الإنسان ربه في كل فرد أو في كل جنس من جنس المعاصي وأفرادها.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ يقول المؤلف: [خافوا عقابه] ولو أن المؤلف فسر الآية بما يطابق اللفظ لكان أولى.

[وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه: العبادة والتقوى.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** فضيلة إبراهيم، حيث أمر أهله بها ذكر.

٢- **ويستفاد منها:** أنه ينبغي ذكر الدعاة إلى الله سبحانه تعالى بما يرفع من شأنهم، لأننا قدرنا ﴿إبراهيم﴾ مفعولًا لفعل محذوف تقديره: اذكر إبراهيم.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب عبادة الله وتقواه، يؤخذ من قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٤- **ومن فوائدها:** أن خير ما يحصل عليه العبد عبادة الله وتقواه، لقوله ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أنه لا يعقل هذه الأشياء إلا أهل العلم، تؤخذ من قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]

الفوائد(١)**:**

١- **من فوائد هذه الآية:** أن كل ما يُعبد من دون الله فإنه وثن لا ينفع ولا يأتي بالرزق.

٢- **ومن فوائدها:** أن تسمية هذه الأوثان بالآلهة كذب، لقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن ذكر حكمًا أن يذكر علَّته، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي الاستدلال بالمحسوس على المعقول، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ وهذا دليل محسوس، ووجه الاستدلال بالمحسوس على المعقول أن المحسوس لا ينكره أحد، لكن المعقول قد لا يتصوره الإنسان فضلًا عن كونه يقر به، فإلزام الإنسان بالشيء المحسوس على المعقول هذه من طرق المناظرة وإقامة الحجة والإلزام.

٥- **ومن فوائدها:** أن الذي يجب أن يُلجأ إليه هو الله عز وجل، وهذه تؤخذ من قوله ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

---

(١) هذه الآية والتي تليها تفسيرهما غير واضح.

٦- **ومن فوائدها:** أن الله ذكر فيها سبب الرزق وسبب بقاء الرزق، سبب وجوده وسبب بقائه، سبب وجوده طلبه من الله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾، أما سبب بقائه فعبادة الله سبحانه وتعالى أو نقول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا سبب الرزق، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سبب البقاء.

٧- **ومنها:** وجوب شكر النعمة، لقوله ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هنا الفعل متعد أي: اشكروا نعمته مخلصين له، هذا على القول بأنه متعد، أما على القول بأنها لازمة فإن شَكَرَ تكون لازمة تقول: شكرت له، ومتعدية تقول: شكرته، ويكون المفعول هو الهاء وليس محذوفًا.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وهذا يكون يوم القيامة بعد البعث.

٩- **ومنها:** إثبات الجزاء على الأعمال، يؤخذ من قوله ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأن الفائدة من هذا الإخبار بأنهم سيبعثون ويجازون وليس مجرد البعث بدون جزاء، بل لابد فيهم من جزاء.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** تهديد المكذبين للرسول ﷺ، لقوله ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾، وقد علموا ما جرى لهم، لعل هذا يكون فيه تهديد لهؤلاء المكذبين للرسول ﷺ.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الرسل يجب عليهم الإبلاغ، لقوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ وعلى تفيد الوجوب، قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] يعني: واجب، فعلى إذا قيل على فلان كذا وكذا فإنها تفيد الوجوب، فإذنْ يستفاد من الآية وجوب الإبلاغ على الرسل.

٣- **ومن فوائدها:** أنه لا يجب عليهم هداية الخلق، وما عليهم إلا البلاغ أما الهداية فإلى الله عز وجل وكذلك الحساب على الله عز وجل، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الإبلاغ على أهل العلم، وهذه تؤخذ من ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ والعلماء ورثة الأنبياء، فيجب عليهم الإبلاغ كما يجب على الرسل.

٥- **ومنها:** أن القرآن متضمن لجميع الأحكام العقائدية والعملية، وأنه أتى بذلك على أكمل وجه وأبينه، لقوله ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ لكل ما أُرسل به، لأنه رسول فعليه البلاغ المبين لكل ما أرسل به، والرسول ﷺ أرسل بعقائد صحيحة سليمة، وبأعمال قويمة وبأقوال مستقيمة، وعلى

هذا فنقول نستدل بهذه الآية على أن جميع الشريعة بيِّنة مكملة واضحة، فنرد به على جميع أهل البدع، كل أهل البدع نرد بذلك عليهم، لأن أهل البدع يستلزم قولهم ألا يكون النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، مثلًا الذين ينكرون حقيقة استواء الله على عرشه، ويقولون: معنى الاستواء الاستيلاء على العرش، هؤلاء تكذبهم هذه الآية، لو كان المراد بالاستواء الاستيلاء لكان يأتي هذا المعنى ولو في آية واحدة، وآيات الاستواء في القرآن سبع آيات، وما جاءت آية واحدة يقول الله فيها استولى على العرش، فنقول: أنتم كاذبون تكذبكم هذه الآية.

وكذلك بقية الشبهات التي يحتج بها أهل التعطيل أو أهل التمثيل أيضًا، حتى أهل التمثيل الذين يقولون نعم إن الله استوى على عرشه حقيقة، لكن استواءه كاستواء المخلوق على المخلوق، كاستواء الملك على عرش الملك وما أشبه ذلك، نقول: هؤلاء أيضاً يكذبهم قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأن الرسول بلغ البلاغ المبين وقد أتانا من بيانه قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لو قال قائل: يوجد وقائع الآن تقع ما نرى لها ذكراً في القرآن ولا في السنة، فما هو الجواب على هذه الآية؟

نقول: هي مبينة ببيان الجنس يعني ما هو بلازم أن القرآن يأتي في كل فرد أو السنة تأتي في كل فرد، لأن أفراد القضايا ما لها حصر، ما ظنكم لو أن الله تعالى ذكر في القرآن كل قضية تأتي إلى يوم القيامة كم يكون القرآن من مجلد؟ مجلدات ما لها حصر، لكننا نقول هذه الأفراد - أفراد هذه المسائل - موجودة بأجناسها وعللها وقواعدها، يعني إما أن تكون بالقياس وإما أنها مسكوت عنها، والسكوت في مقام البيان بيان، كما قال النبي ﷺ، «**مَا سَكَتَ عَنْهُ**[١] **فَهُوَ عَفْوٌ**[٢]»[٣].

المهم أننا نقول ما من قضية تقع، إلا وحكمها موجود في القرآن أو السنة، باعتبارها جنسًا، فنجس هذه القضية موجود في القرآن إما بقاعدة عامة أو بقياس صحيح أو ما أشبه ذلك، لكن الخلل والنقص يأتي من واحد من أمور:

السبب الأول: إما قلة في العلم، يكون الإنسان ما عنده علم، والخلل هنا من الإنسان، فالإنسان ما أحاط بالسنة، والقرآن يحيط به الإنسان، لكن السنة ما يمكن أن يحيط بها الإنسان، يوجد أحاديث تأتي على الإنسان ما كانت تدور في ذهنه.

السبب الثاني: وإما لقصور في الفهم، يكون الإنسان عنده علم ولكن فهمه قاصر، أو يكون به نوم أيضًا مثل بعض الناس أيضًا الذين ينامون في الدرس، يكون عنده قصور في الفهم،

---

(١) أي لم يبين حكمه.

(٢) أي متجاوز عنه لا تؤاخذون به.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في «غاية المرام» (٣٤).

ولاحظوا أن اختلاف الناس في الفهم أكثر وأعظم من اختلافهم في العلم، يوجد بعض الناس يستنبط من دليل واحد عدة مسائل، وآخر ما يستنبط إلا مسألة أو مسألتين.

السبب الثالث: من أسباب عدم الوصول أو عدم معرفة الحق من الكتاب والسنة: أن يكون عند الإنسان سوء قصد بحيث لا يريد الحق، ما يريد إلا أن ينتصر قوله، فإن هذا ـ والعياذ بالله ـ يُحال بينه وبين الوصول إلى الصواب ومعرفة الحق، لأنه لا يريده، فهذه أسباب ثلاثة.

السبب الرابع: المعاصي فإن المعاصي ظلمة توجب أن يُحال بين الإنسان وبين الوصول إلى الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل إن المعاصي توجب نسيان الموجود كما تمنع وجود المفقود، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

إذن هذه أسباب أربعة كلها تحول بين الإنسان وبين الوصول إلى معرفة حكم الله الذي في الكتاب وفي السنة، أما نفس الكتاب والسنة فإنها لا شك أنها محيطة بجميع القضايا إلى يوم القيامة، لأن هذا الكتاب إلى يوم القيامة، وأما قول من قال من أهل العلم ـ وهو من أعجب ما يكون ـ إن الكتاب والسنة ليس فيها إلا حكم القليل من القضايا، حتى إن بعضهم يزعم أنه ما في القرآن والسنة إلا نحو عُشر القضايا هذا خطأ عظيم، ولهذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٦- **ومن فوائد الآية**: أن الرسل أفصح الخلق، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ سواء قلنا: إن المبين بمعنى بيِّن، أو بمعنى مُظْهِر، والصواب: أنها بمعنى مظهر.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بالياء والتاء يَنظروا] بالياء والتاء يعني: يروا والثانية: (تروا)، فهما قراءتان سبعيتان، الرؤية هنا فسرها المؤلف بمعنى النظر، فهي رؤية عين، ويحتمل أن تكون رؤية قلبية أي: علمية، بمعنى: أولم يعلموا، وننظر أيهما أولى في سياق الآية.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول المؤلف: [هو بضم أوله وقرئ بفتحه

من بدأ وأبدأ بمعنى: أي يخلقهم ابتداءً]، عندنا يبدئ الآن فيها قراءة سبعية، وقراءة شاذة، فالقراءة السبعية هي: ﴿يُبْدِئُ﴾، من الماضي الرباعي: أبدأ والقراءة الشاذة بفتح أوله من أين؟ من بدأ، كيف عرفنا أن هذه القراءة شاذة؟ لأن اصطلاح المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا قال قرئ فهي شاذة، لكن المؤلف يقول من بدأ وأبدأ هذا اللفظ والنشر مركب أو مشوش؟ مشوش يعني: له شوشة، أو مشوش يعني: غير مركب، انظر الآن من بدأ هذه على أي القراءتين؟ الشاذة الذي يبدأ، وأبدأ على القراءة السبيعة التي هي يبدئ، والحقيقة: أن المؤلف ليته ما فعل هذا، لأنه قد لا يفهم الإنسان أن هذا من باب اللفظ النشر المشوش، ولا داعي إليه، لو قال المؤلف: من أبدأ وبدأ لكان أوضح للإنسان الطالب.

وقوله [بمعنى] يعني: بمعنى واحد، يعني بدأ وأبدأ معناهما واحد، أي: [يخلقهم ابتداءً]، يعني: كيف يخلقهم سبحانه وتعالى ابتداءً.

وقوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ الخلق: هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: المخلوق، كيف يبدئه ثم يعيده.

والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول كثيرًا في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق: ٦] الحمل الذي في البطن بمعنى المحمول، وقوله ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(١)] بمعنى: مردود، وهنا خلق بمعنى مخلوق، ومثلها قوله تعالى ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه.

وقوله: [﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: الخلق كما بدأهم] المؤلف يقول: [أي: الخلق كما بدأهم] إشارة إلى أن الخلق هنا بمعنى المخلوق الذي يعم كل الناس، وقوله [ثم هو يعيده] قدر هو لتكون الجملة استئنافية، لماذا؟ لأن إعادة الخلق لا يمكن أن ينظروا إليها، متى تكون إعادة الخلق؟ يوم القيامة في المستقبل، لكن ابتداء الخلق يمكن ينظرون إليه، هذا مثلًا ينظر إلى مخلوقات الله عز وجل كيف تتوالد وكيف تتنامي وكيف تكبر إلى آخره، لكن إعادة الخلق ما يمكن فلهذا قدر المؤلف رحمه قوله: [ثم هو يعيده]؛ لئلا يتوهم إنسان أنها معطوفة على ﴿يُبْدِئُ﴾ فلا يصح عطفها على يبدئ؛ لأنه لو كانت معطوفة عليها لكان المعنى كيف يبدئ الخلق ثم كيف يعيده؟!، وهنا النظر لكيفية الإعادة متعذرًا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يحتمل أن تكون علمية ويحتمل أن تكون بصرية، والمؤلف مشى على أنها عينية بالبصر، ولكن أيهما أشمل؟ الظاهر أن القلبية أشمل، لأنها تشمل ما رآه الإنسان بعينه وما علم به من غيره، فهي إذن أشمل، واعلم أن الآية إذا احتملت معنيين أحدهما أشمل فالأولى

---

(١) تقدم تخريجه.

حملها على الأشمل، لأن الأخص داخل فيه، بخلاف ما إذا حملت على الأخص فمعناه أنا أخرجنا بعض دلالتها، فعليه نقول إن الأولى أن نحملها على الرؤية العلمية التي تحصل بالبصر وبالسمع أيضاً كما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [السجدة: ٩] السمع والأبصار طريق العلم، والأفئدة محل الوعي، وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول المؤلف [إن ذلك المذكور من الخلق الأول والثاني على الله يسير أي سهل] إن ذلك ابتداء الخلق سهل على الله، واقرأ قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] سهل على الله، إعادة الخلق أيضاً سهلة لقوله ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] زجرة واحدة فقط ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] وأعم من ذلك قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] بدون تأخر، واحدة يأمر الله الشيء فيكون مثل لمح البصر، وهذا دليل على كمال قدرته جل وعلا، وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ في آية ثانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فإننا نقول لهؤلاء المنكرين للبعث: هل تقرون بأن الله خلقكم ابتداءً؟ ماذا يقولون؟ يقولون: نعم، الكلام على المنكرين المقرين بابتداء الخلق، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مقرين بهذا الشيء، نقول لهم: أيهما أهون الابتداء أم الإعادة؟

الجواب: الإعادة أهون فكيف تقرون بالأصعب ثم تنكرون الأهون؟ وأقول بالأصعب لا باعتبار ذلك منسوبًا إلى الله عز وجل، لأنه كله يسهل عليه، لكن نقول لهؤلاء ما دام الابتداء أشد وأشق فالإعادة من باب أولى أن تقروا بها، لكن هم يقرون بالابتداء؛ لأنهم لا يستطيعون إنكاره، فما يستطيعون أن يقولوا ما خلقنا الله ونحن الذين خلقنا أنفسنا أو الزوج هو الذي خلق الولد في رحم الأم هذا أن لا يمكن أن يقولوه، فلهذا احتج الله عليهم بالابتداء؛ ليقروا بالإعادة.

وقوله: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فكيف ينكرون الثاني].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ هذه الآية مع التي قبلها ربما يظهر منها الإشكال؛ لأن الأولى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقرير لهم بأنهم يرون ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وهنا يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيقتضي أنهم حتى الآن لم يعلموا كيف بدأ الله الخلق.

نقول الجواب على ذلك: إنهم وإن كانوا يرون كيف بدأ الله الخلق لكنهم قد ينكرونه فأمر الله تعالى نبيه أن يأمرهم بالسير في الأرض بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: امشوا في الأرض انظروا مثلاً إلى الوحوش انظروا إلى الحشرات انظروا إلى مخلوقات الله

سبحانه وتعالى، كيف تنشأ هذه الأشياء بدون أن نرى لها خالقًا سوى الله عز وجل؟! فهذا من باب إلزامهم ولاسيما إذا قلنا: إن الرؤية الأولى علمية، من باب إلزامهم بما يشاهدونه في الأرض بعد أن يسيروا فيها.

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المراد السير بالبدن أو السير بالقلب أو بهما معًا؟

الجواب: هما جميعًا، لأن الإنسان قد يسير ببدنه ويطلع على مخلوقات الله، وقد يسير بقلبه فيقرأ ما كتب عن مخلوقات الله، وربما تقرأ كتابًا عن الحيوانات وغيرها وأنت في مكانك في حجرتك، وتكون قد اطلعت على مشارق الأرض ومغاربها ويكون السير حينئذٍ بالقلب، فهو شامل للأمرين جميعًا، ثم اعلم أيضًا أن السير بالقدم لا ينفع إذا لم يكن هناك سير بالقلب واعتبار، فلو أن الإنسان سار في فجاجَ الأرض كلها وهو غافل ما استفاد من ذلك السير شيئًا، بل لابد أن يكون هناك تيقظ واعتبار، لأن الآن لو نظرنا إلى السير في الأرض إلى واقعه أيهما أكثر بالقلب أو بالقدم؟ بالقلب ما فيه إشكال، بل إن السير بالقدم إذا لم يقصد به الاعتبار فإنه لا فائدة منه، فإذا قصد به الاعتبار عاد إلى كونه سيرًا بالقلب إلا أنه اجتمع السير بالقلب والبدن.

وقوله: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ هنا قال: ﴿فَانْظُرُوا﴾ وفي الأول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ﴾ ومعلوم أن (انظروا) ويروا أفعال متعدية، مفعولها ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ و﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ الفعل الذي قبله يحتاج إلى مفعول، وهو معلق بالاستفهام، وإذا جاء الاستفهام فهو يعلق الفعل، مثلًا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ كلمة ﴿كَيْفَ﴾ هنا في موضع نصب على الحال وهي معلقة الفعل عن العمل، وقد مر علينا هذا في ألفية ابن مالك في باب ظن وأخواتها قال ابن مالك:

وَالْتَزِم التَّعْلِيقَ قَبْلَ نَفْيِ مَا وَإِنْ ... إلى آخره

قال المؤلف: [﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ لمن كان قبلكم وأماتهم].

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم الله ينشئ، الأول أتى بالصيغة الفعلية وهنا أتى بالجملة الاسمية ليفيد تقرر هذا الأمر وتأكده.

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ الله هنا عَلَمٌ على الباري جل وعلا، وأصلها الإله وحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما حذفت من الناس، والإله معناه المعبود بحق أو بغير حق، وعلى هذا فيكون الله هنا هو المعبود بحق بدليل قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥] يعني: لا معبود حق إلا الله سبحانه وتعالى، فعلى هذا نقول: الله علم على الباري جل وعلا، وأصله الإله بمعنى المألوه أي: المعبود، والأصل أن الإله بمعنى المعبود بحق أو بباطل ولكن إذا قلت: لا إله إلا الله فالمعنى: لا إله حق يعني لا إله هو حق إلا الله عز وجل.

في قوله: ﴿يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يقول المؤلف: [مدًّا وقصرًا مع سكون الشين] مدًّا (النشاءة)

﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشَاءَةَ الآخِرَةَ﴾، وقصراً مع سكون الشين: (النشأة) ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡآخِرَةَ﴾.

وقوله: ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ﴾ يحتمل أن تكون مصدراً كما تقول: يضرب الضربة، ويحتمل أن تكون بمعنى اسم المفعول، أي ينشئ المنشأة الآخرة، والمعنى واحد أن الله سبحانه وتعالى ينشئ الخلق مرة ثانية.

فإذا قال قائل: كيف نسميه نشأة وهو إعادة؟

قلنا الجواب على ذلك: أن هذه الإعادة تختلف عن سابقتها اختلافاً كثيراً، فهي بالنسبة إليها نشأة، لأن الحياة الآخرة ما هي مثل الحياة الدنيا، الحياة الآخرة حياة أبدية، الحياة الدنيا حياة فناء، ولذلك تجدها ناقصة يُخلق الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف، أما الإعادة فإنه يخلق للأبد فلذلك سُميت نشأة وإن كانت هي إعادة لاختلاف الحالَين، انظروا إلى الجنين في بطن أمه قال الله فيه بعد أن ذكر أطواره: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وهل هو إنشاء أم تطوير؟ تطوير، ولكنه لما كان التطوير الأخير الذي فيه نفخ الروح يختلف عن الأول، فالأول وهو في بطن أمه جماد ثم تنفخ فيه الروح فيكون نشأة جديدة غير الأولى، فسُمي نشأة وإن كان تطويراً من حال إلى حال.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قال المؤلف:[ومنه البدء والإعادة]، هذه الجملة تعليل لما سبق، من كونه ابتدأ الخلق ثم أعادهم؛ لأن الله على كل شيء قدير، والقدرة: هي وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز، وهل هي القوة أو غيرها؟

غير القوة، فالقوة يقابلها الضعف، وهذه يقابلها العجز، ويظهر ذلك بالمثال مثلاً: أنا حملت هذا الكتاب لكن بمشقة ماذا أُوصف به؟ قادر ولكن لست قويًّا، وآخر أراد أن يحمل هذا الكتاب وعجز عنه، هذا عاجز، والثالث أخذه كأنه ريشة في يده، هذا قادر قوي، فتبين بهذا أن القدرة غير القوة، كذلك أيضاً القدرة يُوصف بها ذو الشعور ولا يُوصف بها غيره، فهل أنت تقول للحديد إنه قادر؟ لا، القوة يوصف بها ذو الشعور وغيره، فتقول للحديد قوي وتقول للإنسان قوي، والله سبحانه وتعالى موصوف بالقدرة وموصوف بالقوة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ هذا على عمومه لا يخصص بشيء، وقال صاحب الجلالين وهو السيوطي قال: [وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر] (١) خص العقل ذاته يعني ذات الله فليس عليها بقادر، قال هذا في سورة المائدة، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة:١٢٠] قال إن العقل يخصص هذه العموم، ونحن نقول: لا يخصص هذا العموم من العقول إلا العقل الفاسد الذي يرى امتناع قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، أما العقل

---

(١) «تفسير الجلالين» (ص١٦١).

الصحيح السليم فهو يرى أن الله يفعل ما شاء، ينزل ويستوي على العرش، ويستوي إلى السماء ويضحك، ويعجب وغير ذلك من الأفعال الاختيارية التي تليق بجلاله سبحانه وتعالى، فقوله [خص العقل ذاته فليس عليها بقادر] هذا خطأ عظيم، إذا كان ما يقدر على نفسه كيف يقدر على غيره؟ هذا من أكبر المحال ومن أكبر الغلط.

لكن لو قال قائل: لعل المؤلف يريد أنه لا يقدر على إفناء نفسه مثلاً أو على خلق مماثل له.

قلنا: هذا لا تتعلق به القدرة أصلًا، فالقدرة لا تتعلق أصلاً بالشيء المستحيل إطلاقاً فهو غير داخل في العموم، من الأصل فليس بمخرج منه، هنا عبارة يقولها بعض الناس يقول: إنه على ما يشاء قدير، هذا التعبير خطأ، لأن الله يقول ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء فهو قادر على ما يشاء وما لا يشاء، حتى الذي لا يشاؤه قادر عليه فلو شاءه لفعله، ليس على الذي يشاءه فقط، ثم إن هذه العبارة (على ما يشاء قدير)، مخالفة لما جاء به القرآن، في القرآن ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأيضًا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ثم إن بعض أهل العلم يقول: إن هذه العبارة توحي بمذهب المعتزلة الذين يقولون إن الإنسان مستقل بعمله فقالوا: إنه إذا كان الإنسان مستقل بعمله لا دخل لمشيئة الله فيه، فمعناه أن الله عاجز عن عمل الإنسان، وهذا خطير ـ كما هو معروف ـ، فالذي ينبغي أن نقول: إنه على كل شيء قدير على الإطلاق.

فإذا قال قائل: ألا ينتقض علينا هذا بقوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]؟

قلنا: المشيئة هنا عائدة على الجمع أم على القدرة؟ على الجمع لا على القدرة، المعنى: أنه إذا شاء أن يجمعهم جمعهم بدون عجز سبحانه وتعالى فلا تُنافي ما قلنا.

يقولون: إن الشيطان جمع جنوده أو هم اجتمعوا إليه فقالوا له إنك تفرح بموت العالم ولا تفرح بموت العابد، قال: نعم العابد إذا مات ما يهم يموت عن نفسه، لكن العالم إذا مات يموت عن عالم، وإذا بقي يفسد علينا الأمور، فالمراد بالعلماء الحقيقيين الذين يعملون ويدعون، قال هيا بنا نذهب أنا وإياكم إلى عالم نسأله وإلى عابد، يقولون إنهم ذهبوا إلى العابد وقالوا له هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه؟ قال: نعم يقدر يخلق مثل نفسه، والدليل قال: لأن الله على كل شيء قدير، ماذا حصل لهذا الرجل؟ كفر، فأي إنسان يعتقد هذا الاعتقاد فهو كافر وهو أيضاً غير صحيح مهما كان ما يمكن، لو لم يكن من الفرق، فالفرق عظيم جدًّا، لكن لو لم يكن إلا أن هذا الإله لو قُدر مخلوق ـ والإله الحق غير مخلوق ـ، وجاءوا إلى العالم وقالوا له: هل يقدر الله أن يضع السماوات والأرض كله في بيضة واحدة؟ فقال ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لو أراد ذلك لفعله، فتخلص منه، مع أن

الأخير يمكن ينكر حسب ما يبدو للناس أكثر من الأول.

والحاصل أن نقول: إن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يجوز أن يقع في نفسه استثناء شيء من هذا العموم، بل يكون على عمومه بدون تفسير.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمستدل أن يستدل بالمشاهد على الغائب ليقتنع بذلك الخصم.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾

٣- **ومنها:** إثبات قدرة الله عز وجل، لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٤- **ومنها:** عموم هذه القدرة، وهذا يؤخذ العموم من قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، فإنها من تمام قدرته، مثل المجيء والنزول والاستواء على العرش، والضحك والعجب وما أشبه ذلك.

٦ـ **ومنها أيضًا:** خطأ من قال: [خص العقل ذاته فليس عليها بقادر]، وهذا بينا أنه ليس بصحيح، وقلنا: إن هذا فيمن ينكرون قيام الأفعال الاختيارية في الله عز وجل، يقولون: ما يقدر الله سبحانه وتعالى أن يفعل، وهذا لا شك أنه يُردُّ عليهم الكتاب والسنة وإجماع السلف.



قال الله تعالى:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]

التفسير

قال الله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني: بعد البعث ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ويجوز أن يكون يعذب حتى في الدنيا، لأن العذاب يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، فالعقوبات التي رتِّبت على الجرائم هذه من العذاب؛ لقول النبي ﷺ في المتلاعنين: «عَذَابُ الدُّنْيَا[1] أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»[2] وكذلك ما يصيب الإنسان من المصائب في بدنه وأهله وماله أيضًا من العذاب، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾ جاءت بالفعل المضارع الدال على أن هذا أمر من أفعاله مستمر، ليس أمرًا

---

(١) وهو حد القذف.

(٢) رواه مسلم (١٤٩٣)، وأبوداود (٢٢٥٦)، والترمذي (١٢٠٢)، والنسائي (٣٤٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مضى وانقطع كما أنه أيضًا يكون في الحاضر يكون أيضًا في المستقبل، العذاب: هو العقوبة أن يعاقب.

وقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مر علينا كثيرًا بأن الله تعالى إذا أضاف الفعل إلى المشيئة فإنه مَقْرُونٌ بالحكمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا لمجرد المشيئة، بل كل ما فعله فهو بمشيئته المقرونة بحكمته، وهذا أمر واضح؛ فإن من يعذِّب لابد أن يكون قد أتى ما يستوجب التعذيب، وحينئذٍ تكون الحكمة في تعذيبه، وليس الله تعالى يعذب من شاء بدون ذنب أبدًا، لأن حكمته تأبى ذلك ورحمته تأبى ذلك، خلافًا لمن قال:

وَجَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الوَرَى مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ وَلَا جُرْمٍ جَرَى

ثم علل ذلك بقوله:

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ

هذا ليس بصحيح هو إن جاز عقلاً لكنه ممتنع شرعاً، لأن الله يقول في الحديث القدسي «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»(1)، وقال تعالى في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

المهم: أن قوله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ قلت: إنه مقرون بالحكمة، إذنْ فلا يعذب إلا من يستحق التعذيب، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ والرحمة صفة من صفات الله عز وجل وهي تقتضي الإنعام والإحسان سواء كان الإحسان بإيجاد محبوب أو بدفع مكروه، فإن رحمة الله عز وجل تكون للإنسان إما بجلب ما ينفعه وإما بدفع ما يضره.

وقوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿يَرْحَمُ﴾ فعل مضارع مشتق من الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله عز وجل ثابتة على وجه الحقيقة، ومن آثارها: الإنعام والإحسان أو إرادة الإنعام والإحسان، وليست هي الإنعام أو الإحسان أو الإرادة، خلافاً لمن قال بذلك، وممن قال بذلك الأشاعرة ومن وراءهم من المعطلة المحضة أشد وأشد، فهم يقولون: إن الرحمة معناها إرادة الإنعام وبعضهم يقول: أو الإنعام، والصواب خلاف ذلك، لأن الإرادة ناشئة عن الرحمة، يرحم فيريد أن يحسن أو ينعم، هذا الذي عليه مذهب أهل السنة والجماعة أن الرحمة صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة وقال الذين احتجوا بمنعها أن تكون حقيقية: لأن الرحمة خور وضعف في الراحم، تجد نفسه تنكسر حتى ترحم، جوابنا على هذا بسيط، أن نقول من وجهين: أحدهما أن نمنع أن يكون ذلك من باب الخور والضعف، فإننا نجد الملوك الجبابرة قد يرحمون وهم ليس فيهم خور ولا ضعف، وثانيًا لو

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والطيالسي في «مسنده» (٤٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٨٨) من حديث أبي ذر ﵁.

فرض أن هذا المعنى لازم للرحمة في الإنسان فليس بلازم بالنسبة لله كغيره من الصفات التي تثبت حقيقة للمخلوق وتثبت للخالق أيضًا، فإن اللوازم والعوارض التي تكون لصفة المخلوق لا يمكن أن تكون لصفة الخالق؛ لما بينهما من الفرق العظيم في الذات والصفات، فكما أن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا مثيل له في ذاته فكذلك لا شبيه ولا مثيل له في صفاته.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون] أي: إليه لا إلى غيره، فتقديم المعمول يفيد الحصر، فالانقلاب أو القلب إلى الله عز وجل ما نقلب إلى غيره، وهذا عام لكل أحد مهما كان الناس إلى أين مرجعهم؟ إلى الله سبحانه وتعالى ومهما فروا، فالقلب - يعني الرد - إلى الله سبحانه وتعالى وإذا كان مردنا إلى الله صار هو الحكم بيننا، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، ويحكم بين عباده فيما بينه وبينهم، لأن حكم الله في العباد يشمل الحكم فيما بينه وبينهم والحكم فيما يختلفون فيه، فالمؤمنون مع الكفار مختلفون فيحكم الله بينهم يوم القيامة، وكذلك المعتدون مع المعتدى عليهم مختلفون فيحكم الله بينهم يوم القيامة.

الفوائد:

١- في الآية الكريمة فوائد منها: إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل من قوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والأئمة - إثبات الأفعال الاختيارية لله -، أي أنه يفعل ما يشاء.

وخالف في ذلك الأشاعرة وغيرهم، فقالوا: إن الله تعالى لا يتعلق به فعل حادث، وعللوا ذلك: بأنه لا يقوم الحادث إلا بحادث، وأننا لو أثبتنا حدوث الأفعال لله لزم من ذلك أن يكون الله تعالى حادثًا ولا ريب أن هذا قول باطل، لأننا نقول لهم: من قال لكم أن الحادث لا يقوم إلا بحادث؟ من أين جاءت هذه القاعدة هل هي في القرآن، هل هي في السنة، هل هي في العقل؟ ثم إننا نرد على هذه القاعدة الفاسدة بقاعدة أكمل منها وأوضح وهو أن الفعال لما يريد أكمل من الذي لا يفعل، فأنتم إذا عطلتم الله عز وجل عن أفعاله الاختيارية معنى ذلك وصفتموه بأنقص ما يكون، فإن هذا أمر معلوم لجميع العقلاء، أما الفاعل لما يريد أكمل من الذي لا يفعل أو الذي يُجبر على الفعل أيضًا.

٢- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله عز وجل، لقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في الموضعين.

٣- ومن فوائدها: أن الرحمة لا تُطلب إلا من الله، لقوله ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقام التقسيم يدل على الاختصاص، يعذب ويرحم، فلا تطلب الرحمة إلا من الله، حتى الذين يرحمون من الخلق، ينبغي عندما تطلب رحمتهم أن تجعل ذلك متعلقًا في الله؛ لأن الله عز وجل لو شاء ألا يرحموك لم يرحموك.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** التحذير من المخالفة، لأنه إذا كان المرجع إلى الله فاحذر من مخالفته، فإن هذا يشبه التهديد والوعيد من المخالفة.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ الخطاب إما أن يكون للكافرين، وإما أن يكون لعموم الناس، فكونه لعموم الناس أولى، يعني: وما أنتم أيها الناس، وكونه للمكذِّبين المعاندين أبلغ لأنهم يظنون أنهم أعجزوا الله.

وقوله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿مَا﴾ هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة الحجاز، بل بلغة قريش، اسمها ﴿أَنتُم﴾ الضمير، وخبرها ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، والباء هنا زائدة للتوكيد، قال ابن مالك:

وَبَعْدَ مَا وَلَيْسَ جَرَّ البَا الْـخَبَرْ

فنعرب ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: الباء زائدة للتوكيد، ومعجزين: خبر (ما) منصوب وعلامة نصبه ياء مقدرة على الياء منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ هذه من أعجز فهو متعدٍّ؛ لأن عجز لازم وأعجز متعد، إذا كانت متعدية وهي اسم فاعل فتحتاج إلى مفعول، أين المفعول؟ قال المؤلف: [﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم] فيكون المفعول محذوفاً تقديره: بمعجزين ربكم، أو بمعجزين الله مثلاً ما في مانع، والمعجز هو من فعل ما يعجز به غيره، ولهذا قال بعض أهل العلم عن آيات الرسل أنها معجزات، لأنها تعجز أعداء الرسل عن معارضتها.

وقوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا الجار والمجرور حال من ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، يعني: حال كونكم في الأرض أو في السماء ما تعجزون الله، سواء كنتم في الأرض أو في السماء، ولهذا قال المؤلف: [لو كنتم فيها] فيكون قوله: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ على سبيل التقدير وليس على سبيل الحقيقة، لأن الناس

في الأرض وليسوا في السماء، ولا في السماء لو كنتم فيها، أي: على تقدير أنكم فيها لا تعجزون الله، وقيل: إن المعنى على سبيل المبالغة، يعني: لا تعجزون الله سواء كنتم في أعماق الأرض أو في أجواء السماء فإنكم لا تعجزون الله، فيكون المعنى: لا تعجزونه في أي مكان كنتم.

وقيل إن قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني به أهل السماء، يعني أن الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، فأهل السماء لا يعجزونه، وأهل الأرض لا يعجزونه فيكون على هذا الوجه: وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السماء معجز الله، على حد قول الشاعر حسان بن ثابت:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاء

ومعلوم أن الأول غير الثاني، لأن الذي يهجوه ما يمكن أن يمدحه وينصره، فيكون على تقدير: ومن يمدحه وينصره سواء، فهذه مثلها.

على كل حال يظهر لي: أنه على معنى أنكم لا تعجزون الله في أي مكان كنتم، سواء كنتم في السماء أو في الأرض، وهذا وقت نزول القرآن لا يمكن أن تكون السماء حقيقة، إلا أن يراد بالسماء ما علا ولو على قمم الجبال، وفي وقتنا الآن يمكن أن يكون الإنسان في السماء أي: في العلو أما هي السماء الدنيا، السماء الدنيا ما أحد يصل إليها ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] حتى النبي ﷺ وجبريل ما استطاعا أن يدخلا هذه السماء إلا بعد الاستفتاح والاستئذان(١).

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾ قال المؤلف في تفسيره الإجمالي: [أي لا تفوتنه] أي: لا تفوتون الله بل إذا شاء أن يعذبكم أدرككم فإن الله تعالى لا يفوته شيء، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] واعلم أن عقوبة الله عز وجل وإدراكه للإنسان تارة يكون بأمور حسية، يقدر الله أسبابًا معلومة لنا نشاهدها، وتارة يكون بأمور لا ندركها نحن، تأتيه العقوبة من الله بدون أي سبب معلوم لنا، فالآن مثلاً أسباب نصر الرسول ﷺ، أحيانًا يكون بأسباب غير معلومة، وأحيانًا تكون بأسباب معلومة، فمثلاً نصر الله تعالى للرسول ﷺ في غزوة الخندق أسبابها معلومة مشاهدة أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لا نراها، فالجنود التي لا نراها هي من الأمور التي غير معلومة إلا بالإخبار بالشرع، لكن الريح التي أقلقتهم وأقفأت قدروهم وهدمت خيامهم هذه محسوسة معلومة، لكن الجنود التي لم نرها، لولا إخبار الله إيانا عنها ما كنا نعلمها.

فالله عز وجل يدرك الإنسان إما بأسباب معلومة تظهر للعيان، وإما بأسباب خفية لا تظهر

(١) كما في حديث المعراج الذي رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

للعيان، ثم قد نعلمها بطريق الوحي وقد لا نعلمها.

قال المؤلف: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم من عذابه].

قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ (ما) هنا هل هي نجدية أو حجازية؟ هذه اتفقت فيها اللغتان ـ النجدية والحجازية ـ، وذلك لعدم الترتيب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ لأن ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ هو المبتدأ، و﴿لَكُم﴾ هو الخبر، يعني: لا ولي لكم من دون الله، وقول المؤلف: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره] صحيح، وعبر عن الغير بالدون لانحطاط رتبته، وقوله سبحانه وتعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ قال المؤلف: [يمنعكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم من عذابه] ولا أعلم إلا أن النصر بمعنى المن والعون، لكن الصحيح أن قوله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أن الولي من يتولى الإنسان في جميع أحواله، فينصره في مقابل عدوه، ويأتي إليه بالخير ولو في غير مقابلة العدو، فالولي هو الأعم فهو الذي يتولاك في جلب الخير ودفع الشر، والنصير: هو الذي يدفع عنك فقط قد لا يكون من أوليائك لكن يدفع عنك في الحال المعينة التي تحتاج فيها إلى ناصر، والنصرة تكون في دفع المكروه، فيكون الولي هنا أعم، يعني: ما أحد يكون يتولاكم فيجلب لكم الخير ويدفع عنكم الشر ولا أحد أيضًا ينصركم من دون الله فيمنع عنكم العقاب، وهذا أمر واقع فإن بأس الله إذا نزل بقوم ما يستطيع أحد أن يدفع عنهم هذا البأس ولا أن يمنعهم منه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه لا مفر للمرء من قدر الله سواء كان في السماء أو في الأرض لقوله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** ضعف البشر بالنسبة إلى الخالق، لأن الخطاب: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ للعموم، فالبشر مهما بلغوا من القوة فهم بالنسبة إلى الخالق عاجزون ضعفاء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ ما قال: أن الله هو أشد، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ [فصلت: ١٥] فإذا كانوا مخلوقين فإن الخالق أقوى بلا شك، فأتى بهذا الجملة بالموصول وصلته كالتعليل والدلالة على ضعفهم أمام الله عز وجل.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا ملجأ للبشر في جلب المنافع ودفع المضار إلا إلى الله، وأنهم مهما

استغاثوا بغيره فإنهم خائبون، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

٥- **ومنها**: وهي فائدة بلاغية: وهي أن من أدوات التوكيد الزيادة - زيادة الحروف - لقوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يعني: ﴿مِّن﴾ هنا زائدة لإفادة العموم أو التنصيص على العموم.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي: القرآن والبعث].

قوله: ﴿الذين﴾ مبتدأ، وخبره الجملة الاسمية في قوله ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا﴾ فهذه الجملة كبرى وصغرى، أين الكبرى؟ إذا كانت الجملة خبرًا يسمونها جملة صغرى، وإذا كانت مكونة من مبتدأ وخبر تسمى كبرى، فعندنا الآن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الجملة نسميها جملة كبرى، ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا﴾ هذه جملة صغرى؛ لأنها جزء من الجملة، كيف ذلك؟ لأنها خبر، هي مبتدأ وخبر ولكنها خبر، فهي جزء جملة، وأتى بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستقرار.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ﴿آيَاتِ﴾ جمع آية، والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالكونية ما خلقه الله سبحانه وتعالى في الأرض، فهي آيات كونية، لدلالتها على خالقها، فهي دالة على الخالق، وكل شيء منها يدل على صفة تناسبه، يعني: الآيات كلها على سبيل العموم تدل على الخالق، كل آية منها تدل على صفة معينة من صفاتها، فإذا كانت الآيات عظيمة دلت على وجود الخالق وعلى قدرته، وإذا ظهر فيها إحكام وإتقان دلت على الحكمة، وهكذا.

فالمهم: أنها آيات هي بعمومها دالة على وجود الخالق ثم كل آية منها لها دلالة خاصة تدل عليه من هذه الصفات الخاصة، وهذه الآيات الكونية مثل قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] وفي سورة الروم عدة آيات ذكرها الله عز وجل، النوع الثاني من الآيات: الآيات الشرعية: وهي ما جاءت به الشرائع، الآيات الكونية أظنها واضحة أنها علامة على الله جدًّا واضحة، الآيات الشرعية أيضًا علامة على الله عز وجل وعلى حكمته لماذا؟ لأنه يعجز البشر عن أن يأتوا بمثلها، لأنها كلها إصلاح ودرء للمفاسد، وكل الشرائع جاءت للإصلاح - هذه فائدة - لكن الإصلاح يكون في كل أمة بحسبها، فالشدة على اليهود مناسبة،

والتخفيف على النصارى مناسب، والجمع بينهما في هذه الأمة غاية المناسبة، وإن كان هذا الدين من حيث هو يسر - دين الإسلام يسر ما فيه حرج - لكنه بالنسبة إلى دين النصارى دين النصارى فيه أشياء كثيرة مسامح كثيرة لأن حالهم تناسب ذلك، ودين اليهود فيه غلظة وشدة وآصار وأغلال حطها الله عنا بهذا النبي الكريم، فهذه الشرائع كلها آيات تدل على كمال من شرعها وسنَّها لعباده.

ولكن النوع الأول من الآيات الإيمان به سهل والوصول إلى حقيقته سهل، لكن الثاني هو الذي يكون فيه نوع من الصعوبة؛ لأنه لا يعرف كمال الشريعة ودلالتها على من شَرَّعَهَا إلا من تعمق فيها وعرف الحكم والأسرار التي تتضمنها هذه الأحكام، ولهذا ينبغي لنا التعمق في معرفة حِكَمِ التشريع، يعني: كوني أعرف أن هذا حلال وهذا حرام هذا قد يكون سهل لكن كوني أعرف لماذا حلل أو لماذا حرم هذا هو المهم جدًّا، وهو الذي يتبين به كون الشرع من آيات الله عز وجل.

وقوله ﴿وَلِقَآيِهِۦٓ﴾ يوم القيامة، يعني: كذبوا باللقاء اللازم منه البعث؛ لأن البعث لازم من لوازم اللقاء، لا لقاء إلا ببعث، ولقاء الله عز وجل ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] يعني: فأنت ملاقيه فيجازيك على هذا الكدح إما خير وإما شر.

وقوله: ﴿وَلِقَآيِهِۦٓ﴾ يعني: البعث، لأن المنكرين للبعث لا يؤمنون بلقاء الله، لأنهم يقولون: إنه - والعياذ بالله - إذا كانوا عظامًا ورفاتًا ما يمكن يبعثون خلقًا جديدًا فكذبوا بهذا.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ هذا جزاؤهم، جزاء هذا التكذيب اليأس من رحمة الله، قال المؤلف: [أي جنتي]، فأولها إلى الرحمة المخلوقة لا إلى الرحمة التي هي صفة الله عز وجل؛ وذلك لأن الرحمة المضافة إلى الله قد يراد بها دار رحمته فتكون مخلوقة كما في الحديث القدسي: «أَنَّ اللهَ قَالَ لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وتطلق على الرحمة التي هي وصف الله عز وجل وحينئذٍ تكون صفة من صفات الله غير مخلوقة، ومنه قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فما المراد بالرحمة في هذه الآية؟ هل المراد بها النوع الأول، الرحمة المخلوقة التي هي موضع الرحمة، أو الرحمة التي هي صفته؟

الظاهر: أن المراد بها الرحمة التي هي صفته، لأنه إذا أطلقت الرحمة مضافة إلى الله فالمراد بها الصفة ما نحملها على أنها موضع الرحمة إلا إذا وجدت قرينة، إذا وجدت قرينة عملنا بهذه القرينة وإلا فالأصل أنها صفة من صفات الله، إذن ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ معناه يئسوا من أن أرحمهم، وإذا

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لم يرحمهم الله ما دخلوا الجنة، هذا هو المعنى الصحيح للآية، وما ذكره المؤلف فهو محتمل، يعني: ما ننكر عليه إنكارًا شديداً لا، لأن الرحمة كما تطلق على الصفة تطلق على موطن الرحمة.

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه أيضاً جملتان كبرى وصغرى، ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر، كل هذا لكمال التهديد لهم، فهم حرموا من الخير ووقعوا في الشر، ولهذا قال: [﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم]، والعذاب معناه: العقوبة، يعني لهم عقوبة أليمة أي: شديدة مؤلمة والعياذ بالله وذلك في النار، ولا حاجة إلى شرح ما في هذه النار من العذاب لأنه معلوم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الكفار لا يدخلون الجنة، تؤخذ من قوله ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات الآيات لله عز وجل الكونية والشرعية، لقوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** رحمة الله تعالى بالعباد حيث أظهر لهم من الآيات ما يؤمنون على مثله، هذه من نعمة الله أن الله تعالى أرى عباده من آياته ما يؤمنون على مثله، ولهذا كلما ظهر للإنسان من آيات الله شيء كان أشدَّ شكرًا لنعمة الله عليه وأشد في رسوخ إيمانه، ومن ذلك: الكرامات التي حصلت لبعض أولياء الله فإنها تزيد في إيمانه وتؤيد ما كانوا عليه من الحق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : وكثرت الكرامات في زمن التابعين دون الصحابة لأن عند الصحابة من الإيمان ما ليس عند التابعين فليسوا في حاجة إلى كرامات تقوِّي إيمانهم كحاجة التابعين، ذكر هذا في كتاب الفرقان، وهذا حق فإنك إذا تأملت الكرامات التي ذُكرت وجدتها في التابعين أكثر، المهم أن إظهار الآيات للإنسان سواء كانت شرعية أو قدرية أنها من نعمة الله عليك، لأنها تزيد في إيمانك ورسوخه في القلب.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات رؤية الله، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلِقَائِهِ﴾ فإن أهل السنة والجماعة استدلوا بذلك على إثبات الرؤية، لأن الملاقاة إذا لم يكن منها مانع لابد فيها من الرؤية ولا مانع يمنع.

وهذه المسألة فيها خلاف كثير بين أهل السنة وأهل البدع، والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة إثبات رؤية الله تعالى بالعين وأنه في الآخرة يرى، أما في الجنة فيراه المؤمنون، ولا يراه غيرهم لأنهم ليسوا فيها، وأما في عرصات القيامة فالصحيح أنه يراه المؤمنون ويراه المنافقون لكن المنافقين يرونه ليس رؤية تنعيم بل هي في الحقيقة رؤية تنديم، لأن الله تعالى يظهر لهذه الأمة وفيها منافقوها فيكشف لهم عن ساقه تبارك وتعالى ويأمرهم بالسجود، فمن كان يسجد لله سجد، ومن

كان لا يسجد إلا رياءً وسمعة يعجز ولا يسجد، لكن المؤمنون يرونه رؤية تكريم وهؤلاء رؤية تنديم؛ لأنه إذا حجبوا عنه بعد ذلك صار أشد وقعًا في نفوسهم، مثل ما أن المنافقين أيضًا يعطون نورًا يوم القيامة ثم يحجب عنهم هذا يكون أشد من الذين لم يعطوا نورًا من الأصل.

وهذه الرؤية إذا قال قائل: كيف تقرونها فتؤمنون بها مع أن الله جل وعلا يقول لموسى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ويقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟

فالجواب: أما قوله لموسى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإنه جواب على قول موسى: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهو يريد الآن؛ ولهذا قال ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فدل هذا على أن نفي الرؤية في ذلك الوقت لا يتعدى إلى غيره، وهذا لأن الله تعالى لا يرى في الدنيا لعجز الإنسان عن تحمل ذلك، وقد ضرب الله تعالى لرسوله موسى ﷺ مثلاً بالجبل وعجز الجبل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فهي إلى الدلالة على ثبوت الرؤية أقرب من الدلالة على نفي الرؤية، لأن الله لم يقل: لا يرى، بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾؛ لأن الإدراك أخص من مطلق الرؤية، نفي الأخص لا يدل على نفي الأعم، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم، أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فهنا نحن نقول: إن هذا يدل على أنه يرى، لأنه لو لم يكن يُرى لقال: لا تراه الأبصار، فلما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ علم أنه يرى لكن لا يدرك، ونحن نقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ حتى في الآخرة فإنه لا يمكن الإحاطة بالله عز وجل، لكنه يرى وضرب المثل لا بأس به لكن مع الفرق، ألسنا نرى الشمس ولا ندركها، بل إننا نرى أصغر شيء مثل أن ترى حيوانًا صغيرًا لعلك تراه بالعين ومع ذلك لا تدرك ما فيه مما خلق الله عز وجل في جوفه أو في جلده ما تدركه.

فالحاصل: أنه لا يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية، بل هو دليل على ثبوت الرؤية ولهذا استدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على ثبوت الرؤية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بلقاء الله، لأن الله تعالى عاقب الذين لا يؤمنون بذلك باليأس من رحمته.

٦- **ومن فوائدها:** ثبوت الرحمة، لقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ والإضافة هنا إن قلنا: إن المراد بالرحمة الجنة فهي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا وتكريمًا، وإذا قلنا: إنها صفة الله، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العقوبة للكافرين وأنها عقوبة شديدة، لقوله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والآيات في هذا كثيرة جدًّا ولا حاجة للكلام فيها؛ لأنها واضحة الحمد لله.

مسألة: هل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يفيد الرد على

القدرية؟

الجواب: نعم فيها رد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله وأنه لا دخل لمشيئة الله فيه، لأننا إذا قلنا بذلك فإنه يلزم أن يعجز الله، وقد نقول: إن هذا فيه دليل عليهم؛ لأنهم يقرون بأن الله قادر على إهلاكهم إذا خالفوا وعلى استئصالهم بالعذاب.



قال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤]

التفسير

[قال الله تعالى في قصة إبراهيم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾] لأن الجملة على رأي المؤلف معترضة من قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨] قيل: هذا جملة معترضة، هذا ما ذهب إليه المؤلف وابن جرير وأكثر المفسرين، وقال بعض المفسرين: إن الكلام كله من كلام إبراهيم، وليس فيه شيء معترض، واختار هذا ابن كثير، وقال إنه كله من كلام إبراهيم.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

(أو) هذه للشك أو للتنويع أو للتخيير؟ هي للتنويع وليست للتخيير؛ لأن الله قال في سورة الأنبياء: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ...﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فـ (أو) ليست للشك؛ لأن كلام الله لا يقع فيه الشك لكمال علمه سبحانه، ولا للتخيير أيضًا لأنه خلاف ظاهر القرآن في سورة الأنبياء. بل للتنويع هو الصحيح، أي أن بعضهم قال: اقتلوه وبعضهم قال حرقوه، وكان الرأي على التحريق.

وقوله: ﴿جَوَابَ﴾ إعرابها خبر مُقدم.

فإذا قال قائل: أليس الحرق يحصل به القتل؟

قلنا: بلى، ولكن لحمقهم وشدة ما في صدورهم على إبراهيم رأوا أن يُعذبوه بالنار، والله حكيم جل وعلا تجري الأمور على مُراده، فلعلهم لو قتلوه ما حصلت هذه الآية العظيمة، وهي أن تكون النار بردًا وسلامًا عليه، لكن الله تعالى حكيم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فالآية فيها حذف والتقدير: فحرقوه فأنجاه الله من النار.

أنجاه الله أي: خلصه ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قال المؤلف: [التي قذفوه فيها بأن جعلها عليه بردًا

وسلامًا]، وذلك بأمره بأن قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا.

قال أهل العلم: لو قال الله كوني بردًا فقط لكانت ثلجًا عليه، ولكنه قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ وذلك من أجل يسلم، فالبرد يقتل كما أن الحر يقتل، ولولا أن البرد لا يقتل ما احتيج إلى قوله: ﴿وَسَلَامًا﴾.

وقوله: [﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: إنجائه منها ﴿لَآيَاتٍ﴾] معلوم أن (إن) تنصب المبتدأ وترفع الخبر، فاسمها ﴿لَآيَاتٍ﴾، واللام فيها للتوكيد. والخبر ﴿فِي ذَلِكَ﴾

فـ(إن) تنصب آيات لكنها هنا مجرورة وذلك لأنها جمع مؤنث سالم، وهو يكسر في النصب والجر معًا.

وقوله ﴿لَآيَاتٍ﴾ جمع آية وهي العلامة، والمقام هنا هل يعني فيه الآيات الكونية أو الشرعية؟ الجواب: يقصد الكونية.

وقال المؤلف: [﴿لَآيَاتٍ﴾ هي عدم تأثيرها فيه مع عظمها وإخمادها وإنشاء روض مكانها في زمن يسير] هكذا بيَّنَ المؤلف الآيات:

أولًا: أنها لا تؤثر مع عظمها؛ لأنهم جمعوا حطبًا عظيمًا، وأضرموا نارًا عظيمة حتى إنه ذكر أنهم ما استطاعوا أن يُقربوها، وأنهم ألقوه بالمنجنيق من بُعد - والله أعلم -.

ثانيًا: وقوله: [وإخمادها] يعني: كونها تخبو وتهدأ من اللهب في لحظة هذا من آيات الله عزَّ وجلَّ.

ثالثًا: أنها كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وعندي: أن الآيات أكثر مما ذكره المؤلف فإن من الآيات إبطال كيد الأعداء.

ومنها: صبر إبراهيم وتحمله، وحقيقة الأمر: أن هذا شيء ما يقوى عليه إلا أمثال إبراهيم من أولي العزم.

ومنها أيضًا: امتداد هذه الحرارة إلى البرودة.

ومنها: امتداد كون هذه الحرارة سببًا للهلاك إلى أن كانت سلامًا عليه.

والظاهر من القرآن أن النار بقيت وأمرها الله أن تكون بردًا وسلامًا عليه وما أمرها الله أن تخبو بل قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، وعلى هذا فيكون في كلام المؤلف نظر.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال المؤلف: [يصدقون بتوحيد الله وقدرته لأنهم المنتفعون بها].

هذه الآيات أيدها الله جل وعلا بأنها لقوم يؤمنون، أما القوم الذين لا يؤمنون وإن كانت الآيات أمامهم فإنهم لا ينتفعون بها فليست لهم آيات ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] هل هناك في الكلام شيء أعظم آية من كلام الله؟

الجواب: لا نعلم ذلك وهو الواقع، ومع ذلك من ليس بمؤمن إذا تُلي عليه القرآن قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

ولذلك إذا رأيت من نفسك أنك لا تتأثر بالقرآن فاتهم نفسك، لأن الله ما قال عن أحدٍ لا ينتفع بالقرآن إلا المُكذبين الذين لا يرون في القرآن شيئًا يأخذ بِلُبِّهم وروعهم وهذه المسألة - نسأل الله لي ولكم النجاة منها - ؛ لأن كثيرًا من الناس يقرؤون هذا القرآن ولكنه لا يهزُّ مشاعرهم، وهذا خطير جدًّا على الإنسان ويجب عليه أن يتهم نفسه بهذا الأمر حتى يعدِّل ما اعوج منه ويقويه.

وعلى هذا نقول: إن الآيات الكونية والشرعية لا ينتفع بها إلا المؤمن، وغير المؤمن لا ينتفع بها لأنها تمر عليه وكأنها إن كانت آيات كونية أمرٌ عادي، أو بمقتضى الطبيعة فالزلازل التي تصيب الناس في شغلهم يقول: هذه البراكين عادية، وهذه الرياح العاصفة التي تُدمر المحاصيل والأشجار، وكذلك الأمطار كل هذه الآيات يقولون: إنها ظواهر طبيعية لا كأنها عقوبة من الله عز وجل.

إذن هؤلاء المكذبون لم ينتفعوا بها، حتى الآن بدأ الناس في الكسوف يقولون: هذه أسباب ظاهرة - نسأل الله السلامة - وينشرونها قبل أن تقع لأجل أن تأتي إلى الناس وقد اطمأنوا إليها، وقد استقرت في نفوسهم ولا ترعبهم ولا تخيفهم، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ» وهؤلاء جعلوها كأنها هلال عيد حتى إن بعض الناس خاطبنا بهذا وقال: إننا نخبر الناس لأجل أن يتهيأوا ويترقبوا لذلك، حتى يأتي الكسوف وهم مستعدون، كأنه هلال عيد فيخرجون لكي يُصلوا - وهذا خطأ -.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ تعبدونها و(ما) مصدرية ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خبر إن وعلى قراءة النصب مفعول له وما كافة والمعنى: تواددتم على عبادها].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بين لنا أن قوله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: قراءة الرفع (مودةُ بينكم)، وعلى هذه القراءة المؤلف أعرب ما مصدرية والتقدير: إن اتخاذكم من دون الله أوثانًا مودة بينكم فيكون المصدر المنثبت من (ما) اسم إن و﴿مَّوَدَّةَ﴾ خبر إن، وعلى قراءة النصب مفعول له ـ أي: لأجله ـ يعني: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا لأجل المودة بينكم ولكن على هذه القراءة ما كافة وتكون داخلة على إن، وما الكافة إذا دخلت على إن تفيد الحصر يعني: ما اتخذتم الأوثان إلا لأجل المودة بينكم.

وقيل: إن ما اسم موصول على قراءة الرفع وأن العائد محذوف والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثانًا مودة بينكم، وعلى هذا التقدير يكون مفعول اتخذ الأول محذوف، ومفعولها الثاني ﴿أَوْثَٰنًا﴾، وعلى هذا فنقول: إن أداة توكيد ونصب تنصب الاسم وترفع الخبر، وما اسمها بمعنى الذي و﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ صلة الموصول والعائد محذوف، والتقدير: واتخذتموه، و﴿أَوْثَٰنًا﴾ مفعول ثانٍ لاتخذ، لأن اتخذ تنصب مفعولين، مثل قول الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فيكون المعنى: إن الذي اتخذتموه أوثانًا لا يجمعكم عليه إلا المودة، لا ينفعكم اتخاذكم إياها، ولهذا قال المؤلف: [والمعنى تواددتم على عبادتها]؛ لأن والعياذ بالله أهل الشر يتوادون على فعل الشر، كما أن أهل الخير يتناصرون أيضًا على فعل الخير، فكذلك أهل الشر.

وقوله: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى﴾ هنا يجوز في كلمة (بين) أن يضاف إليها ما قبلها، ويجوز أن يقطع عن الإضافة فيجوز مثلاً في غير القرآن: مودةً بينكم، ويجوز: مودةَ بينِكم، وهي هنا على هذا الوجه.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقة بما قبلها، يعني: أنها مودة في الحياة الدنيا فقط فهؤلاء المشركون يتوادون في الشرك، في الدنيا فقط، وتجدهم متناصرين متعاونين لكن ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: ينكره، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، وهذا لا شك أنه نفاق وكفر ببعضهم لبعض.

وقوله: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] ومجادلة الأتباع للمتبوعين في عدة آيات من القرآن ليست في آيات البقرة فقط، في ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٧٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبأ: ٣٣] وما أشبه ذلك، و﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

فالحاصل: أن هذه المودة بين المشركين في الدنيا فقط، أما يوم القيامة فإن كل واحد منهم يتبرأ من الآخر وينكره ويلعنه أيضاً، وهذا لا شك أنه من أشد ما يكون من العقوبات، لكن المتقون

خلتهم باقية إلى يوم القيامة ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وأما هؤلاء فإن المودة فيما بينهم تزول بالموت.

قال المؤلف: [﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع، ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ يلعن الأتباع القادة].

والآية عامة أنه يتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة وكذلك أيضًا يلعن بعضكم بعضاً.

وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال المؤلف: [﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾ مصيركم جميعاً]، فالمأوى بمعنى المصير، لأنه من أوى يأوي إذا سار إلى الشيء واتجه إليه.

وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وهذه النار قد أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين، وهي الآن موجودة ورآها النبي ﷺ ليلة أسري به، وهي نار لا يستطيع الإنسان أن يدرك في الدنيا ما فيها من العذاب فإنها فضلت على نار الدنيا بتسع وستين جزءًا، أضف إليها الجزء المتمم للسبعين، والرسول النبي ﷺ يقول: «عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ» أو نار الدنيا، ونار الدنيا ومعلوم أن فيها نار شديدة الحرارة وفيها نار متوسطة وفيها نار باردة بالنسبة لغيرها، ومع ذلك فإنها تقاس بأعلى نار في الدنيا تتفضل عليها بتسعة وستين جزءاً.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ قال المؤلف: [مانعين عنها]. وهذه فيها ﴿مِّن﴾ الزائدة للتوكيد؛ لأن ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ أصلها مبتدأ وخبره قوله: ﴿لَكُم﴾ يعني: لا أحد ينصركم فيمنعكم من دخول النار، هذا كلام إبراهيم؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، هذا من كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن الأصنام لا تنفع عابديها.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن غاية ما يحصل لهم من هذه الأصنام: الموادة بينهم في هذه الحياة الدنيا على الباطل.

٣- **ومن فوائدها:** أن أهل الباطل قد يقع بينهم مودة لحماية باطلهم وللانتصار على الحق، ولكن هذا لا يدوم.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين اجتمعوا على الباطل إذا كان يوم القيامة فإن بعضهم يتبرأ من بعض ويلعن بعضهم بعضًا، لقوله ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾ وسمي يوم القيامة لوجوهٍ ثلاثة:

أولًا: أن الناس يقومون فيه من قبورهم إلى رب العالمين.

وثانيًا: أنه يقوم فيه الأشهاد كما قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

والأشهاد أي: الذين يشهدون على الرسل بأنهم بلغوا وعلى الأمم بأنهم بُلغت، وكذلك الجوارح تشهد على الإنسان بما عمل.

وثالثًا: أنه يقام فيه العدل قال الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٦- **ومن فوائدها:** إثبات النار، لقوله ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن بدليل قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المشركين لا يجدون من يمنعهم من عذاب الله، لقوله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ فلا أحد يمنعهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

٨ ـ **هل يؤخذ من الآية:** أن المتقين في يوم القيامة تبقى مودتهم؟

ربما يؤخذ بما يسمى قياس العكس الذي أثبته النبي ﷺ؛ لأن القياس قياسان: قياس مماثلة وموافقة، وقياس عكس، فقياس العكس أثبته النبي ﷺ في قوله لما قال «**وَفِي بُضْعِ**[1] **أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**» يعني: الإنسان إذا جامع زوجته فهو صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟**» الجواب: نعم يكون عليه وزر، قال: «**فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[2]، هذا يسمى قياس العكس.

ممكن أن نقول: إذا كان هؤلاء المشركون يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضًا، فالمتقون الموحدون المخلصون على عكس ذلك، وأنا أريد هل تؤخذ من هذه الآية؟ ولست أريد إثبات الحكم نفسه فإن الحكم ثابت في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنهم اختلفوا ماذا يصنعون به ثم قرروا أن يحرقوه وهذا إجماع منهم على ذلك ويدل لذلك ما في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

١٠ـ **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله عز وجل بأن جعل هذه النار المحرقة بردًا عليه وهذا علامة من علامات الله الدالة على قدرته.

---

(١) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف زوجته ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

١١- ومنها: أن كل من قام لله فإن الله ينجيه بمفازته، يعني: ينجيه في موضع العقوبة، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ صدَّق بإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هاران] وقال إبراهيم إلى آخره، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ الإيمان في اللغة التصديق، ولكنه ليس مطلق التصديق، بل هو تصديق بطمأنينة، لأن مادة آمن هي مادة الأمن يعني: فيها الهمزة والميم والنون، وعلى هذا فليس الإيمان هو مطلق التصديق، بل هو تصديق خاص، متضمن للطمأنينة في الشيء، وهو يتعدى باللام كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٣٧] وكذلك ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] وعدة آيات من هذا، ويتعدى أيضًا بالباء وهو كثير ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وما أشبه ذلك، فهل هذا من باب الترادف أي أن اللام بمعنى الباء، والباء بمعنى اللام؟ أو هناك فرقاً بينهما؟ يمكن أن نقول إنه من باب الترادف، وأما كل واحدة منهما أي من اللام والباء تأتي محل الأخرى، لكثرة استعمال هذه وهذه، ويمكن أن نقول بالتغاير، وأن اللام تدل على استسلام، وأما الباء فتدل على طمأنينة القلب، فاللام للاستسلام: آمن له، فيضمن معنى انقاد، وأما الباء فإنها تدل على طمأنينة القلب، فآمن به: اطمأن به، والله سبحانه وتعالى فرَّق بينهما في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] في آية واحدة، فالظاهر والله أعلم: مما هو وارد في القرآن الكريم أنهما ليستا مترادفتين، لأن بينهما فرقًا فما يجب فيه الطمأنينة، أو ما كان فيه معنى الطمأنينة فهو بالباء، وما كان مضمنًا لمعنى الانقياد ولو ظاهرًا فإنه يأتي باللام.

سحرة فرعون قال لهم فرعون مرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [طه: ٧١] وقال مرة أخرى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١] فهل القولان معناهما واحد؟

لا، بناءً على ما قلنا، ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: صدقتم به بطمأنينة واطمأنتم قلوبكم بصدقه، و﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ تابعتموه واستسلمتم له ولهذا قال لهم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتنزل كل آية على معنى.

وهنا قال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ نحن نعلم أن لوطًا عليه الصلاة والسلام آمن لإبراهيم وبه، فهو آمن به بقلبه، واطمأن إلى صدقه، وكذلك انقاد له فتضمن هنا الإيمان معنى الانقياد ومعنى

الطمأنينة.

فإن قال قائل: لو اجتمعا افترقا في المعنى، ولو أفرد أحدهما دل على ما يدل عليه الآخر﴾ ألا يظهر هذا؟

نقول: ما يظهر، لأنه في الحقيقة كلما تتبعت اللام وجدتها في أمرٍ ليس يقتضي الطمأنينة كمالًا، فما تأتي آمنت لله، أبدًا.

وقول المؤلف في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [صدق بإبراهيم] يدل على أنه يرى أن اللام بمعنى الباء، يرى أن آمن له: أي آمن به، فصدق تفسير (آمن)، بإبراهيم: تفسير (له).

وقوله:﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هاران، يعني: أن إبراهيم له أخ اسمه هاران ابن آزر، وهاران له ابن اسمه لوط.

قال المؤلف: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ حيث أمرني ربي، وهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام].

قوله: ﴿وَقَالَ﴾ قال المؤلف: إن الضمير يعود إلى إبراهيم، وعلى هذا ففي التلاوة تقف على ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولا تقل ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾؛ لأنك لو وصلت لأوهمت أن القول من لوط.

وقال بعض العلماء: إن الضمير يعود على لوط بناءً على ظاهر السياق، وأن لوطًا عليه الصلاة والسلام آمن وهاجر فجمع بين الإيمان والهجرة.

وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هنا مُفَاعِل في اللغة العربية ترد بمعنى ما اشترك فيه اثنان فصاعدًا، كما يقال مقاتل، وترد على معنىً ليس فيه إلا طرف واحد، كما يقال: مسافر، كلمة مهاجر من أيهما؟ مما هو مشترك بين طرفين، أو مما هو خاص بطرف واحد؟ يعني: هاجر بمعنى هجر، أو هاجر معناه أنه هجرهم ثم هجروه، أم في احتمال أن المعنى مهاجر أني هجرتهم وهجروه بمفارقتهم؟

ويحتمل أنه من باب ما فيه طرف واحد فقط.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قال المؤلف: [أي: إلى حيث أمرني] يعني: إلى الجهة التي أمرني الله سبحانه وتعالى أن أسافر إليها، هذا ما فسره به، والغريب أن بعض المُحَشِّين قال: إن المؤلف قال: [إلى حيث أمرني ربي] فرارًا من إثبات الجهة لله، لأننا لو أخذنا بظاهر الآية ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لكان متجهًا إلى الله ذاته، وهم يرون أن الله تعالى ليس في جهة، وهذا رأي الأشاعرة وكذلك معطلة الجهمية، فإن الجهمية انقسموا في مسألة الجهة إلى قسمين:

الأول: قسم حلولية يرون أن الله سبحانه وتعالى بذاته في كل مكان، وهؤلاء القدماء منهم.

الثاني: قسم آخر أهل تعطيل محض يرون أن الله سبحانه وتعالى ليس في مكان وليس في جهة، فيقولون: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولا مباين ولا محايد ـ

نسأل الله العافية ـ هذه الجهة يتوصل بها من ينكرون علو الله عز وجل بذاته، يقولون: لأنك إذا قلت: إن الله عالٍ بذاته على عرشه لزم من ذلك أن يكون في جهة، وإذا كان في جهة لزم أن يكون متحيزًا، والمتحيز مخلوق.

أما نحن فنقول في مسألة الجهة: لا ننكرها في المعنى لكننا ننكر جهة تحصر الله عز وجل أو تحيط به، لأن الله محيط بكل شيء، لكننا نثبت بأن له جهة وهي العلو، فالجهات ثلاث: جهة سفل، وجهة علو محيطة بالله، وجهة علو لا تحيط به، أيها المثبَتُ؟

المثبت جهة العلو التي لا تحيط به، أما جهة السفل فهي ممتنعة، وأما جهة العلو التي تحيط به فهو ممتنع أيضًا، لأن الله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، إذن كيف نؤول ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على القول الراجح؟

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى ديني كقوله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠] أي: من ينصر دينه، والإنسان المهاجر إلى دين الله يلتمس المكان الذي يقيم فيه دينه، فلهذا يقول العلماء في الهجرة: هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام؛ حيث يقيم في ظل دين الله عز وجل.

وقوله: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ﴿إِلَىٰ﴾ للغاية، وفيها الإشارة إلى حسن نيته وقصده، قال النبي ﷺ: **«وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**[1].

قال المؤلف: [وهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام] ما هو سواد العراق؟ العراق نفسه أرض العراق، وسمي سوادًا لكثرة نخيله وأشجاره، وقوله: [إلى الشام] معروف.

قال المؤلف: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه] هكذا يجري المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذين الاسمين، يقول [العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه] وهذا فيه شيء من القصور، فهو سبحانه وتعالى عزيز بذاته وبصفاته، وعزته ثلاثة أنواع:

الأول: عزة القدر.

والثاني: عزة القهر.

والثالث: عزة الامتناع.

أما عزة الامتناع: فمعناها أنه يمتنع أن يناله سبحانه وتعالى نقص في جميع صفاته وأفعاله.

وأما عزة القدْر: فهو المنزلة والجلال والعظمة.

وأما عزة القهر: فهو القوة والسلطان، إذن فلا أحد يغلبه، فهو الغالب ولهذا فسرها كثير من العلماء بأنه الغالب وكذلك لا أحد يناله بسوء، وكذلك لا يناله نقص في صفاته، فلذلك تكون العزة ثلاثة أنواع. وأصل هذه المادة تدل على القوة، ومنه قولهم للأرض الصلبة: أرض عزاز:

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

يعني قوية صلبة.

وقوله: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه] فيه قصور، لأن حكمة الله عز وجل لا تختص بصنعه في خلقه، بل هي في صنعه وشرعه، فهو حكيم فيما صنع، حكيم فيما شرع، والحكيم ليست أيضًا من الحكمة فقط، لأن الحكيم من الحكمة بمعنى المتقن، لكنها من الحكمة ومن الحُكم أيضًا، و(فعيل) تأتي بمعنى الفاعل في المبالغة، ومن أمثلة المبالغة: فعَّال أو مِفْعَال أو فَعُول أو فَعِيل أو فَعِل - هذه خمسة صيغ للمبالغة -، فهي إذن فعيل، من حَكَمَ فهو حاكم لكن صارت بمعنى حكيم للمبالغة، أو لكونه صفة مشبهة، فهي إذن من الحكم، وحكم الله عز وجل ينقسم إلى قسمين:

النوعان هما: الكوني والشرعي، مثال الكوني: قول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠] هذا الكوني، ولهذا ما قال: يحكم علي، قال ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ يعني: يقدر لي.

والحكمة تكون في الشرع وتكون في القدر، وهي مشتقة من الإحكام بمعنى الإتقان، تكون في الشرع بمعنى أن جميع ما شرعه الله عز وجل فهو موافق للحكمة، وتكون في القدر بمعنى أن كل ما قدَّره الله فهو لحكمة، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، الفساد من حيث هو فساد وجوده حكمة أم لا؟ ليس بحكمة؛ لأن الله لا يحب الفساد، لكن للغاية التي يكون هو حكمة، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] هذه هي الحكمة، فإذنْ كون الأمور أو كون أمور الخير حكمة ظاهر جدًّا للجميع، يعني وجود ما فيه الخير للعباد حكمته ظاهرة، وجود ما فيه الشر للعباد هذا ما يمكن أن يقع من الله عز وجل إلا لحكمة، ولهذا قال النبي ﷺ «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١) ولم يقل: ليس منك، فهو لا ينسب إلى الله لكن كل ما وقع فهو من الله، من خير ومن شر، وهو الذي قدره لكن الشر لا يقدره الله عز وجل إلا لمصلحة أعظم منه، وإذا كان لمصلحة أعظم منه يكون حكمة أم لا؟ يكون حكمة، فتجد الإنسان الذي هو أرحم الخلق بابنه يأتي به إلى الطبيب ليشق جلده فيسيل دمه، هذا شر؛ لأنه يؤلم الصبي، لكنه لمصلحته فالعاقبة حميدة، ويأتي به إلى الطبيب ويقول: احم هذه الحديدة على النار واكوه بها، والكيُّ شر في حد ذاته، لكن غايته حميدة، وكذلك في الختان يأتي به إلى الخاتن ويقول: خذ واقطع جلدة من ذكر ولدي - موضع حساس ويقطع من جلده! -، إذن نقول: الشر قد يكون خيرًا باعتبار ما يؤول إليه، وإن كان هو في حد ذاته شر.

المهم: أن ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ صار معناه مشتق من الحُكم والحكمة أو الإحكام، فالإحكام بمعنى الحكمة، والحكمة تكون في الشرع وتكون في القدر، والقدر: كل ما قدره الله فهو لحكمة، سواء

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٨٠٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان خيرًا أو شرًّا، أيضاً الشرع كل ما شرعه الله فهو لحكمة، شرع الله عز وجل في الزاني المحصن أن يرجم بالحجارة، فلو قتل بالسيف لكان أهون، لكن كونه يرجم بالحجارة ويشهر به ويعلم، هذا له حكمة عظيمة وهي ردع غيره أن يقع في مثل هذا المحظور، ثم من أجل أن هذا البدن الذي تلذذ كله في الشيء المحرم ينبغي أن يناله ألم من العقوبة.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن لوطاً عليه الصلاة والسلام كان من أتباع إبراهيم مع أنه نبي، لقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ مع أنه نبي.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمهاجرة، فإن الهجرة من أفضل الأعمال، لأن الإنسان يدع فيها المألوف من الأهل والوطن، حتى يقيم دين الله.

٣- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى الإخلاص، لقوله ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمَّناه من الصفة، لأن كل اسم من أسماء الله، فهو متضمن لصفة، وليست كل صفة متضمنة لاسم، يعني: كل اسم هو متضمن لصفة ولا عكس، بمعنى أنه لا يشتق من الصفات أسماء لله، لكن أسماء الله كلها متضمنة للصفات.

فمثلاً من صفات الله تعالى المكر بمن يستحق المكر، فلا نسميه بالماكر، ومن أسمائه: أنه عزيز ذو انتقام، فذو انتقام هذا صفة فلا نسميه المنتقم كما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وإن كان ظاهر كلام ابن القيم في البدائع[1] إثبات اسم المنتقم، وقال: إنه من الأسماء المزدوجة التي ما تذكر مفردة، ما يقال: المنتقم فقط، بل يقال: العفو المنتقم.

إذن إثبات ما تضمنه اسم العزيز من الصفة وهي صفة العزة، وهي كما قال أهل العلم ثلاثة أقسام، والحكيم الصفة التي يضمنها: الحكمة والحكم وقد سبق شرحه.

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** الرد على القول بالجبر لقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وفي قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أيضًا، فإن الهجرة من الأفعال وهو نسبها إلى نفسه، والحمد الرد على الجبرية واضح، والمشكلة عندنا الآن في مسألة القدرية، هي التي عند كثير من أهل الجهل قد يميلون إلى مذهب القدرية؛ لأنهم يرون أن الإنسان مستقل يعمل بحرية، فربما ينكرون القدر، والجبرية ما يحتاجون إلى الانتماء إلى مذهبهم أو الاحتجاج به إلا أهل المعاصي والكسل يحتجون بمذهب الجبرية، أهل المعاصي يكثرون لكن أهل الصنائع والحِرف وما أشبه ذلك هم إلى القدرية أميل، لكن أهل الحق الذين يأخذون بكل دليل لا يوافقون هؤلاء ولا هؤلاء.

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧١).

٥- **ومن فوائدها:** إثبات حكمة الله، وهذه مأخوذة من قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، والإيمان بالحكمة يستلزم التسليم التام للقضاء والقدر وللشرع أيضًا، فإذا آمنت بحكمة الله لزم من هذا: الاستسلام التام للقضاء والقدر وللشرع، لأنك إذا علمت أنه ما من شيء يفعله الله أو يشرعه الله إلا لحكمة، فإنك لا شك أنك ترضى بهذا وتقتنع، ولهذا أحياناً يقول لك القائل: ما الحكمة من وجوب كذا؟ ما الحكمة من تحريم كذا؟

نقول: هو الحكمة لأنه شرع الله، ولهذا عائشة لما قيل لها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ ما الذي استدلت به؟

قالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) (١)، فهذه من الحكمة.

مسألة: بالنسبة للأنبياء هل يجوز عليهم قبل النبوة أن يفعلوا شيئًا من الذنوب كالشرك كغيرهم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؟

الجواب: لا يدل على هذا، لأن بعض المفسرين قال: آمن له مع إيمانه من قبل، واللام هذه تدل على الاتباع، والأنبياء قبل النبوة معصومون مما يخل بالشرع والمروءة، كالزنا واللواط والسرقة وما أشبه ذلك، وأما الشرك فلا أعلم أنهم وقعوا فيه أبدًا، وإن كانوا يعيشون في بيئة مشركة، فالنبي ﷺ ما عبد الأصنام أبدًا.



قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ﴾]، الهبة معناها الإعطاء بدون فوائد أو بدون عوض، فكل ما تفضل الله به على عباده بدون عوض تفضلًا منه، [﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بعد إسماعيل]، وإنما جعل الله يعقوب هبة لإبراهيم؛ لأنه ابن ابنه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أن هذا دليلاً على أن الجد أبٌ، لأن الله جعل ابن الإبن هبة لجده.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ذرية إبراهيم، وهنا خالف القاعدة في

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، وأبو داود (٢٦٣)، والنسائي (٢٣١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٩٩٣) من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

الضمير، فعاد إلى المذكور الأول، والغالب أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، لكنه قد يخرج عن هذه القاعدة بحسب السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨] ﴿هُوَ﴾ يعود على الله لا على إبراهيم مع أن إبراهيم أقرب مذكور.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ قدم الجار والمجرور وهو الظرف على المظروف وهي النبوة والكتاب؛ إشارة إلى الحصر، فلهذا قال أهل العلم: ما من نبي بعد إبراهيم إلا وهو من ذرية إبراهيم، ويُكنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأبي الأنبياء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ قال المؤلف: [فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، ﴿وَالْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب]، فهو مفرد يراد به الجنس، [أي: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان]، فالتوراة نزلت على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داوُد، والفرقان على محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: [وهو الثناء الحسن في كل أهل الأديان]، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه، فهي تنصب مفعولين: أحدهما الهاء في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ والثاني: ﴿أَجْرَهُ﴾.

وقوله: ﴿أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ الأجر هو: العوض - عوض الشيء يسمى أجرًا - ومنه الأجرة عوضًا للعامل عن عمله، وما هو أجره في الدنيا؟ هل نقول: إنه ما قاله المؤلف: [الثناء الحسن في كل أهل الأديان] أو هو ما أعم من ذلك؟

الصواب: أنه ما هو أعم من ذلك، من قرة عينه بأولاده وانتشارهم وكثرتهم، وكذلك الثناء الحسن، فكل الأديان ينتمون إليه ويريدون أن يكون منهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كما ادعت اليهود، ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما ادعت النصارى، ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ثم حكم الله تعالى بين الطوائف فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقوله ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بإن واللام.

قال المؤلف: [﴿الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى]، والمراد هنا أعلى أنواع الصالحين، وهم الأنبياء أو الرسل، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح.

وقوله: ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إذا جاءت الصالحون وحدها شملت كل الأجناس الأربعة: وهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والله أعلم.

الفوائد:

١- يستفاد من الآية هذه: أن الذرية التي يَمنُّ الله بها على العبد من منح الله عز وجل، لقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن ابن الابن ابنٌ، لأن يعقوب ابن ابن إبراهيم، وجعله الله تعالى موهوبًا لإبراهيم، ويدل لذلك قول النبي ﷺ في الحسن بن علي بن أبي طالب «إِنَّ ابْنِي[1] هَذَا سَيِّدٌ»[2]، والعلماء أجمعوا في باب الميراث أن ابن الابن بمنزلة الابن عند فقده، وهل يؤخذ من ذلك، أن أب الأب أبٌ؟ نعم لأن هذا هو قياس الطرد، وقلنا إذا كان ابن الابن ابنًا لزم أن يكون أبُ الأبِ أبًا، ولهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في زيد بن ثابت: (ألا يتقي الله زيد يجعل ابن الابن ابنًا ولا يجعل أب الأب أبًا)، وهذا هو الصحيح، أنه إذا كان ابن الابن ابناً فإن أب الأب أبٌ، هذا هو الصحيح، فيكون على هذا فيه دليل على سقوط الأخوة بالجد في باب الميراث.

٣- ومن فوائد الآية: بل مناقشة فيها، لماذا ذكر الله تعالى أن يعقوب موهوب لإبراهيم؟ قال المفسرون: لأنه ولد في حياته، فأقر الله عينه به وهو حي، كما قال الله تعالى عن امرأته: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

٤- ومن فوائد الآية: فضيلة إبراهيم وبركته، من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذا هو النسل المبارك، أن يكون في ذرية الإنسان من يعطيه الله النبوة والكتاب، والنبوة بعد محمد ﷺ متعذرة مستحيلة، لكن الكتاب الذي هو العلم ممكن، فربما يجعل الله سبحانه وتعالى في ذرية الإنسان بركة في العلم ونشره، ومن ذلك قصة عبد الله بن أبي طلحة؛ حيث دعا النبي ﷺ أن يبارك الله لأبي طلحة في ليلته مع أهله، يقولون: إنه صار لعبد الله هذا عشرة من الأولاد كلهم يحفظون القرآن، وحفظ القرآن عند السلف ما هو بالأمر الهين، وليس كما هو عندنا الآن، أن الإنسان يحفظ القرآن ولكنه لا يرى عليه أثره، أما عند السلف إذا حفظ الإنسان القرآن ظهر عليه أثره بالسمت والآداب والأخلاق والأعمال الصالحة.

٥- ومن فوائدها: إثبات الجزاء، لقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وأنه قد يعجل للإنسان، إثبات الجزاء هذه واحدة، والثانية: أنه قد يعجل للإنسان، وتعجيل الجزاء للإنسان في الحقيقة لا يعد حرمانًا له من أجر الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وتعجيل الثواب للإنسان في الدنيا من نعمة الله على العبد، لأن الإنسان يرى أثر عمله فينشط على العمل، ويعتبر هذا من نعمة الله على العبد أن يريه أثر عمله، سواء كانت هذه الإراءة في أشياء خارجية أو

(١) المراد ابن ابنته ويطلق على ولد الولد أنه ابن.

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٧)، وأبوداود (٤٦٦٢) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

في أشياء في نفس الإنسان أو في باطنه، من ذلك مثلاً من ثواب الأعمال الصالحة: أن يجد الإنسان في قلبه السرور والنور والارتياح للعمل الصالح، وهذه لا شك أنها من الثواب العاجل.

٦- ومنها: من الأشياء الخارجية أن ترى له مراءٍ سارة كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن ذلك عاجل بشرى المؤمن، أن الرؤية الصالحة يراها الرجل أو ترى له، قال النبي عليه الصلاة والسلام «**إِنَّهَا مِنْ عَاجِلِ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[١] وقال الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[يونس: ٦٣].

إذن يستفاد من هذه الآية: تعجيل الثواب في الدنيا، وينبني على هذه الفائدة فائدة أخرى: أن تعجيل الثواب في الدنيا من نعمة الله على العبد لما فيه من تنشيط الإنسان على العمل واستمراره فيه.

٧- ومن فوائدها: أن وصف الصلاح وهو أعم من وصف النبوة، يجوز أن يُوصف به النبي، يعني أنه يجوز الوصف بالمعنى الأعم دون الأخص، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والأنبياء في ليلة المعراج يقولون للرسول ﷺ مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح[٢].

٨- ومن فوائدها: الثناء على إبراهيم، مؤكدًا بإن واللام في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فائدة: نحن ذكرنا أن عطية الأبناء منحة من الله، لكن في الحقيقة هذه المنحة قد تكون محنة إذا أضاع الإنسان حق الله فيهم، لكن إذا قام الإنسان بما يجب لله في أولاده فهم منحة بلا ريب.

إيراد: بالنسبة للمرأة التي كانت تصرع فقال لها النبي ﷺ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ لَكِ**»، هذا ما فيه شيء بالنسبة للجزاء في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الرسول ﷺ فَهِمَ من هذه المرأة أن عندها نوعًا من الجزع، فلهذا وطَّنها على أن تصبر، والصبر درجة عالية ما تنال بمجرد أن تصبر، فهذا هو السبب أن الرسول قال: «**وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ**[٣] **وَلَكِ الْجَنَّةُ**[٤]»[٥]، وهذه بشرى للصابرين.



(١) رواه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وأحمد في مسنده (٢١٤١٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) على هذا الابتلاء.
(٤) أي درجة عالية فيها بمقابل صبرك.
(٥) رواه البخاري (٥٣٢٨)، ومسلم (٢٥٧٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قال المؤلف: [واذكر لوطاً] فعليه يكون مفعولاً لفعل محذوف، والأمر بذكر هؤلاء الفضلاء من الأنبياء ليس لمجرد الثناء عليهم وإعلاء رُتبتهم بين الناس، ولكن لهذا الغرض ولغرض آخر وهو الاقتداء بهم واتباعهم والصبر كما صبروا.

وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءِإِنَّكُمْ﴾ قال: [بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما على الوجهين في الموضعين]

قوله: [بتحقيق] إلى آخره هذه في قراءة، تحقيق الهمزتين أن تقول: أَإِنكم، هذا التحقيق، والثاني يقول: [تسهيل الثانية] أَينكم، [إدخال ألف بينهما على الوجهين] أاإنكم هذا على التحقيق، [وعلى التسهيل] أاينكم، وقوله: [في الموضعين] في قوله: ﴿أإنكم لتأتون الرجال﴾.

هذه القصة كغيرها من القصص ترد في القرآن الكريم على وجوه متنوعة، فكيف نجمع بينها وهي قصة واحدة؟

نقول في الجمع: إن كان مما يمكن أن تتكرر فإنها تكون قد تكررت على الوجهين، وإن كان مما لا يمكن فإن الله تعالى يحكيها بالمعنى تارة كذا وتارة كذا، ولوط عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية، يقول الله عز وجل إنه قال: ﴿أإنكم لتأتون الفاحشة﴾ وفي آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] أو ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] هذا اختلاف كيف نجمع بينهما؟

نجمع بينهما بالوجه الأول، وهو: تعدد القول، فمرة يقول لهم كذا ومرة يقول كذا، وهذا لا إشكال فيه، ففي قصة فرعون قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] كيف نجمع؟

نقول: كلهم قالوا هذا وهذا، فإذا أمكن التعدد سواء من القائل أو بالقول حُمل عليه، وإذا لم يمكن فإنه يكون من باب نقله بالمعنى والله سبحانه وتعالى يتكلم به في كل موضع بما يناسبه وبما تقتضيه البلاغة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اللام في قوله ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لام التوكيد، وتأتون: بمعنى تجيئون، وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (أل) هي هنا للعهد يعني: الفاحشة المعلومة لديكم، ودخلت عليها (أل) لعظمها وقبحها، ولهذا جاءت في هذا المكان: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وقال أيضًا ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال أيضًا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]. فهذه ثلاث تعبيرات، في اللواط وصفه الله بالفاحشة بما نقله عن لوط، وفي باب الزنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفي نكاح المحارم قال: ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [النساء: ٢٢]، إذن نكاح المحارم أعظم من الزنا، لأنه وصف بوصفين سيِّئين: الفاحشة، والمقت، واللواط: أقبح منهما من حيث الوصف، فإنه الفاحشة التي تُستفحش عند جميع الناس.

قال: [﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: أدبار الرجال]، ـ أعوذ بالله ـ أدبار الرجال هذه لا شك أنه فاحشة كلٌ يستفحشها، فكل ذو عقل سليم فإنه يستفحشها، أما من نكس قلبه فلا تستغرب إذا قال: إنه ليس بفاحشة، كما أن الذين يعبدون الأصنام يرون أن ذلك منقبة وحسنة، هذا أيضًا نفس الشيء، فهم والعياذ بالله يستحسنون هذا الأمر، ومن عجب أن واحدًا منهم يأتي الذكر في حال شبابه، وهذا المأتي إذا كبر أتاه غيره، فيكون فاعلًا مفعولًا به، والاستفهام في قوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ [النمل: ٥٥] للإنكار والتوبيخ، وأكد هذا الإنكار باللام.

وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فاعل (سبق) لكنه بزيادة حرف الجر للتوكيد، أي: ما سبقكم بها أحدٌ، وقوله ﴿بِهَا﴾ هل نقول: إن الباء هنا بمعنى على؟ ما سبقكم عليها؟ لا، نقول: الباء على معناها، أي أنكم لم تسبقوا بها، بخلاف لم تسبقوا عليها، لو قال: عليها لكان هذا فيمن أدرك زمانهم وكانوا هم أسبق إلى هذا منه، أما إذا قال: من سبقكم بها، فهذا يقتضي السبق الزمن.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المؤلف: [الإنس والجن] الإنس لا شك فيهم، أما الجن ففيه مشكلة، لكن لو أخذنا بالعموم قلنا بعده والملائكة.

على كل حال: يجوز أن تكون العالمين عامة أريد به الخاص، أي: من بني آدم، ويجوز أن تكون عامة إلا فيما يخصصه العقل كما في الملائكة، ونقول: يشمل الجن والإنس، أما البهائم فهي ليست من العالمين؛ لأنها غير مكلفة.

هذا في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد زيادة التشنيع عليهم،

يعني: أنتم الذين سننتم هذه الطريقة، «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»(١)، كأنه يقول لهم: لو كنتم قد سُبقتم بهذه الفاحشة لكان لكم نوع من العذر، لكنكم ما سُبقتم بها فأنتم القدوة فيها والعياذ بالله.

الفوائد:

١- رفع ذكر هؤلاء الدعاة إلى الله، لأن قوله ﴿اذْكُرْ﴾ يعني: اذكره في موضع الثناء، رفع ذكر الدعاة إلى الله عز وجل من الأنبياء وغيرهم؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن في قصة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾[مريم: ١٦].

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة لوط عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائدها:** التركيز على الأمر الذي انغمس فيه الناس، وإن كان غيره أولى منه، فلوط الآن ما ركَّز على التوحيد في هذه القصة، وإلا ما من رسول إلا وهو يدعو إلى التوحيد، لكن ركز على هذا العمل السائر السائد بين الناس، وينبني عليه فائدة: وهي أن بعض الناس إذا رأى بعض الدعاة ينكر شيئًا معينًا انغمس الناس فيه، قال الناس أشد من هذا لماذا تتكلم على هذا، الناس في الفخ أكبر من العصفور، يعني: تتكلم مثلاً عن الملاهي أو عن الميسر أو عن الربا، يقول لك: لا تتكلم بهذا هناك ناس لا يصلون، لماذا لا تتكلم عن هذا الشيء؟

نقول: لا مانع أن يركز الدعاة على ما انغمس فيه الناس ولو كان غيره مما لم ينغمسوا فيه أهم منه؛ لأن المقصود علاج هذا الداء الذي استشرى في الناس.

٤- **ومن فوائدها:** فحش اللواط ـ والعياذ بالله ـ، وهو إتيان الذكر الذكر، ولا ريب أنه من أعظم الفواحش.

وفي الآية الكريمة هنا ما ذكر حده، وكذلك السنة ما فيها أحاديث صحيحة صريحة في هذا الأمر ـ في حد اللوطي ـ، ولذلك اختلف فيه أهل العلم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن حده القتل بكل حال، يعني: سواء كان الفاعل والمفعول به محصنًا أو غير محصن، والمحصن: هو الذي تزوج وجامع في نكاح صحيح.

القول الثاني: قال بعض العلماء: إن حده كحد الزاني، يعني أنه إذا كان محصناً رُجم، وإن كان غير محصن فإنه يجلد ويغرب.

القول الثالث: وقال بعض أهل العلم: إنه لا حد فيه، وأنه يُكتفى بالرادع النفسي، وما كان خبيثًا في النفوس فإنه لا يكون عليه الحد، يكتفى فيه بالرادع، مثل البول، فالبول أخبث من الخمر

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

والخمر فيه حد، والبول ما فيه حد؛ لأن النفوس تنفر منه، وتستقذره، فاكتفي بالرادع الطبيعي عن الرادع التأديبي، هذه ثلاثة أقوال.

أما القول الأول: فاستدلوا بالحديث الذي جاء فيه هذا المعنى وهو قول النبي ﷺ «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمفْعُولَ بِهِ**»[١] وهو حديث أدنى أحواله أن يكون حسنًا، ثم إن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على قتل اللوطي الفاعل والمفعولِ به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار، وقال بعضهم: إنه يُرجم بالحجارة، وقال آخرون: يُلقى من أعلى مكان في البلد، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنه يُقتل الفاعل والمفعول به للحديث والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم وللمعنى وللقياس الصحيح؛ لأن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ ما يمكن التحرز منها، فإذا لم يكن لها رادع قوي استشرت في الناس ـ والعياذ بالله ـ وغلبت، هذه واحدة؛ ولأنها قتل للمعنى والرجولة، فإن الإنسان يكون بمنزلة المرأة، حتى إن بعضهم ـ والعياذ بالله ـ المبتلى بهذا الأمر يتجمل ولا يمكن أن يسلم الناس إلا بهذا الأمر.

أما القول الثاني: أن حده حد الزاني فهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وقالوا في ذلك: إن الحديث عندهم ما تقوم به الحجة، بمعنى أنه لا يصل إلى درجة يُستباح بها دم المسلم، إذن هو فاحشة بنص القرآن، فيجب أن يُلحق بالفاحشة بنص القرآن، ما الفاحشة بنص القرآن؟ الزنا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فعليه يكون هذا طريقه طريق الزنا، فيُرجم المحصن ويجلد غيره ويغرَّب.

أما القول الثالث فإنه حُكي عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنه قول ضعيف جدًّا، وكونه مستقذر لا تألفه الطباع هذا حقيقة بالنسبة للطباع السليمة، لكن بالنسبة للطباع المهينة فإنها تألفه، هؤلاء أمة قوم لوط كلهم على هذا الأمر، فكيف أننا نقول الذي يستقذر في الطباع السليمة لا يردع بالتأديب، فهذا القول ضعيف جدًّا ولولا أنه قيل ما حكيناه، لكنه ضعيف للغاية.

٥- ومن فوائد الآية: أنه ينبغي ذكر ما ينفر عن العمل السيئ، لقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ووجه كونه منفرًا أنهم ليس لهم قدوة، فهم أول من ابتدعوه، وأيضًا: وآثام مَنْ بعدهم تكون عليهم، فهم ما لهم قدوة حتى يعذرون بها وكذلك آثام من بعدهم تكون عليهم.

ونحن نتكلم عن الفائدة هذه ما هو بالنسبة لهم هم، بل نحن نقول: إنه ينبغي ذكر ما ينفر عن العمل السيئ، فمثلاً نقول لهؤلاء القوم: أي ناس عملوا عملاً جديدًا نقول: هذا ما سُبقتم عليه، لِنوبخهم على أنه لا قدوة لهم ونحذرهم من أن يقتدى بهم.

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣٢) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٨٩).

٦- **ومن فوائدها:** تأكيد الأمر المنكَر بما يقتضيه الأسلوب في اللغة العربية، لقوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، وذلك مثل قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل: ٥٥] وإن: للتوكيد، واللام: للتوكيد، ولكن لابد هنا أن نطرح سؤالًا: كيف يؤكد هذا الأمر مع أنهم معترفون به؟ ذلك لأن التأكيد هنا للإنكار والتوبيخ، فالهمزة هنا للتوبيخ والإنكار، لكن كلامنا على التأكيد والمعروف في علم البلاغة أنه ما يؤكد إلا إذا كان منكِرًا أو مترددًا.

مسألة: قلنا إن الصحيح أن الخطاب يؤكد مراعاة لحال المخاطب وذلك لماذا؟

نقول: لأهمية الخبر، فمراعاة حال المخاطب أن يُجعل غير المنكر كالمنكر، فإن ممارستهم لهذا الفعل مشقة لأنهم ينكرون كونه فاحشة أم لا؟ حالهم تقتضي أنهم يستبيحون ذلك ولا يرونه منكرًا، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] إن واللام مؤكدة، الموت هل هو فيه شك؟ ما فيه شك، لكن قال ذلك من أجل أن فعل هؤلاء المشركين فعل المنكِر للموت، لأن من أقر بالموت فلابد أن يستعد له، فهؤلاء الذين قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ فكونهم يمارسونها ولا يبالون بها ويرونها أمرًا سائغًا كالمنكرين لكونها فاحشة.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ هذه الجملة كالتقرير لما سبق في الجملة السابقة والتفصيل لها، قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾، وظاهر الآية الكريمة أنه حتى الكبير - والعياذ بالله - يأتونه، والذكر إذا بلغ سمي رجلاً، وهذا فيه كناية عن الجماع، لأن القرآن يُكنى بل هو في اللغة العربية يكنى عما يستقبح ذِكْره بما يدل عليه، فيقال مثلاً: قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فعبر عن الجماع بالإتيان، وهنا عبر عنه أيضًا بالإتيان.

ثانيًا: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ السبيل: الطريق، وقطعهم الطريق له صفتان: الصفة الأولى قطع الطريق المعروف وهو أنهم يتعرضون للناس بالسَّلب والنهب والقتل، ويسمى عندنا في اللغة العامية: الحنشلة، الثاني قطع الطريق: أنكم تتسببون لعدم سلوك الطرق فيما تفعلون بأهلها، ولهذا قال: [طريق المارة بفعلكم الفاحشة بمن يمر بكم فترك الناس الممر بكم]، هذا أيضاً قطع طريق، فإذا مر أحد والعياذ بالله من الطريق تعرضوا له بالفاحشة، ما هو بأخذ المال والقتل والسلب والنهب لكن يفعلون الفاحشة فيه.

الثالثة: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ ناديكم: أي متحدثكم، فالنادي والمنتدى والندي، كلها أسماء لمكان الحديث والاجتماع بين الناس، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: [فعل الفاحشة بعضكم في بعض].

قوله: ﴿الْمُنكَرَ﴾ المؤلف فسره بفعل الفاحشة، وعلى هذا يكون فيه تكرار، والأصح أن المنكر أعم من فعل الفاحشة وهو كل ما ينكر عرفًا أو شرعاً، ذكروا من ذلك أنهم يتلاكزون، يعني بعضهم يلكز بعضهم مع عجيزته، وذكروا من ذلك أنهم يتضارطون الضرطة المعروفة،

وذكروا من ذلك أيضاً أنهم يحلون أزرَّتهم، يعني: يدلِّعون لكن هذه منكرة.

فالمهم: أن نطق الآية على ما هي عليه، فـ ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كل ما ينكر عرفاً أو شرعاً، وكذلك الرمي حذف الحصى وما أشبه ذلك، وأنا عندي عام في كل شيء حتى أيضًا في الكلام الذي يتضمن السخرية والاستهزاء فهذا منكر، هل وجد في هذه الأمة ما يشبه ذلك؟

نقول: نعم وجد، لأن في هذه الأمة من عمل عمل قوم لوط، ومن هذه الأمة من إذا سألت عن مجتمعاتهم وجدتهم يفعلون مثل فعل لوط، منها السخرية والاستهزاء واللغط واللهو وغير ذلك، والنبي ﷺ يقول: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ[1] مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2].

ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ انظر ـ والعياذ بالله ـ بعد هذا التوجيه والإرشاد والإنكار عليهم كان هذا الجواب ـ جواب المستكبر المتحدي ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ جوابَ بالنصب على أنها خبر كان مقدمًا و﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ اسمها مؤخر، يعني: إلا قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه توعدهم بالعذاب فـ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ائتِ: فعل أمر والمراد به هنا التعجيز والتحدي، يعني: نتحداك أن تأتي بالعذاب الذي وعدتنا به.

وقوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال المؤلف: [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباح ذلك وأن العذاب نازل بفاعليه]، وهذه الجملة الشرطية جوابها قيل: إنها لا تحتاج في مثل هذا التركيب إلى جواب؛ للعلم به مما سبق، وقيل: إنه محذوف دل عليه ما سبق، والأصح: الأول وهو الذي اختاره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: إنه إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف فلا حاجة إلى تقديره؛ لأن تقديره نوع من العبث.

وقولهم له: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغ من قوله: إن كنت صادقًا، لأن كل إنسان يجب أن يكون من الصادقين، لكن لو قال:إن كنت صادقاً كان المعنى صادقًا في هذه المسألة بخصوصها، أما من الصادقين أي: الموصوفين بالصدق، وهذا أشد في التحدي، فكأنهم يقولون: إنك من عداد الكاذبين ولست من عداد الصادقين فإن كنت من عدادهم فأتنا بما تعدنا، ماذا كان جواب لوط؟

كان جوابه أن لجأ إلى الله عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿رَبِّ﴾ هذه منادى حذفت منها ياء النداء، وهي منصوبة؛ لأن أصلها ربي بالياء وحذفت الياء تخفيفًا.

مسألة: كلام المؤلف هنا خصه بكونه صادقًا فيما يدعيه أن هذا فاحشة، أو المعنى: إن كنت

(١)السنن هو الطريق .

(٢) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ (لتتبعن سنن) من حديث أبى سعيد الخدري رضي الله عنه .

صادقًا في رسالتك على العموم؟

الجواب: كلام المؤلف ما فيه مانع، لكن الأقرب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعيدك إيانا، لأنهم هم قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تواعدتنا به.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** بيان عتو هؤلاء القوم واستكبارهم.

٢- **في هذه الآية دليل على:** أن الداعية ينبغي أن يذكر جميع الأوصاف السيئة التي عليها المدعو ليكون ذلك أبلغ في توبيخه وردعه، لأنه ذكر عدة أوصاف.

٣- **ومن فوائد الآية:** ما كان عليه قوم لوط من الشر والفساد غير الفاحشة التي هي اللواط، وهي قطع السبيل وإتيان المنكر في ناديهم.

١- **يستفاد من هذه الآية:** بيان عتو هؤلاء القوم واستكبارهم.

٤- **ومن فوائدها:** الدلالة على أن لوطًا قد حذرهم من عذاب الله، لقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يدعو مبشرًا ومنذرًا، ولا يقول: إني إذا أنذرت **نفَّرت**، لأن الإنذار قد يكون لابد منه.

٦- **ومن فوائدها:** أن مجرد الإقرار بالله لا يدخل الإنسان في الإيمان فإن هؤلاء كانوا مقرين بالله، لقولهم: ﴿بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ وليس مجرد كون الإنسان يؤمن بأن للخليقة ربًّا مدبرًا لا يدخله هذا في الإيمان.

٧- **ومن فوائدها:** أنهم مكذبون له، لأنهم قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أولًا: أن مادة نصرَ تتعدى أحيانًا بمن وأحياناً تتعدى بعلى، فإن تعدت بمن فمعناها المنع، كما في قوله الله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ نصرناه منهم، أي: منعناه منهم، وإن تعدت بعلى صار معناها الظهور والغلبة، وأحيانًا ما تتعدى بمن ولا بعلى، فتشمل المعنيين كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٦] نصرناهم ما قال من ولا على، فلها ثلاث استعمالات الآن: تارة تتعدى بمن، وتارة تتعدى بعلى، وتارة تأتي مطلقة، فإذا تعدت بمن فمعناها: المنع والإنجاء، وإذا تعدت بعلى فمعناها: الغلبة والظهور، وإن أُطلقت: شملت الأمرين، وهو كثير في القرآن هذا وهذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

وأمثلتها كثيرة.

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٧] الظاهر: أنه يشمل الثلاثة، يعني يشمل ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تمنعوا دينه من الاعتداء عليه، وكذلك تنصروه بمحاولة إعلاء هذا الدين، وقال الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] هذا المنع، وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] هذا الظهور..

وقوله: ﴿ٱنصُرْنِي﴾ قال المؤلف: [بتحقيق قولي في إنزال العذاب ، ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ العاصين بإتيان الرجال فاستجاب الله دعاءه].

قوله: ﴿ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ذكر حال المدعو عليهم من باب التوسل، لأن كل وصف يستوجب الإجابة فإنه يعتبر وسيلة، وقد ذكرنا فيما سبق أن التوسل إلى الله أنواع:

منها: التوسل بذكر حال الداعي كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وهنا بحال المدعو عليه قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن إفسادهم يقتضي إهلاكهم، والذل والغلبة عليهم والظهور عليهم.

وقوله ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بأي شيء هم مفسدون؟ يقول المؤلف: [العاصين] وهذا تفسير للشيء بسببه، لأن المعصية سبب الفساد، قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] ولا شك أن فعل قوم لوط من أعظم الفساد في الأرض.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** ضرورة لجوء الإنسان - مهما علت منزلته - إلى ربه.

٢- **ثانياً:** إثبات ما يستلزمه الدعاء، ودعاء الله يستلزم أمورًا فيستلزم علمه؛ لأن من لا يعلم لا يدعى ولا يستطيع أن يأتي بما دُعي.

ويستلزم **أيضاً:** إثبات السمع.

ويستلزم **أيضًا:** إثبات القدرة؛ لأن من لا يقدر لا يُدعى، لو رأيت شخصًا مريضًا أو أشل لا يمكن أن تقول: ساعدني جزاك الله خيرًا على حمل هذه الحمولة على رأسي؛ لأنه مريض.

ويستلزم **أيضًا:** الرحمة؛ لأن من لا يرحم لا يُدعى بل يُخشى منه.

ويستلزم **كذلك:** الكرم لأن من ليس بكريم لا يؤمل فلا يدعى.

يكفي ما ذكرنا وربما يظهر للإنسان عند التأمل أكثر من ذلك.

٣- **ومن فوائدها:** أن اللُّواط من الإفساد في الأرض، لقوله ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** ظهور التبرؤ منهم، أن لوطاً تبرأ، تؤخذ من قوله ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يقل على قومي، مع أنه بالأول مضاف إليه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ لكن هو عليه الصلاة والسلام قال: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يضفهم إلى نفسه، وهذا ظاهر منه التبرؤ.

٥- **ومن فوائدها:** في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ أنه ينبغي للداعي أن يبدأ باسم الله ويحذف ياء النداء، ولا يصلح أن تقول: يا ربي. قال الرسول ﷺ «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ**»(١).

٦- **يستفاد منه أيضًا وهذه فائدة مهمة:** جواز الدعاء على القوم إذا أيس من صلاحهم وتمردوا تمردًا بالغًا، ولهذا لما قالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تحدوه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠]، وأيضًا نوح عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] والنبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ**(٢)»(٣)، لكن الرسول ﷺ قيد، لأن سني يوسف سبع سنوات، مع أن قوله ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هو ظاهر في الدعاء عليهم، لكنه إذا تأملنا الآية وجدنا أنه يقصد النصر عليهم بما تحدُّوه به، وهو قولهم: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن مجرد قوله: ﴿ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لا تدل على أنه دعا عليهم، لكنه لما كانوا قالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فهذا هو النصر عليهم، قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فالنصر عليهم أن يظهر صدقه فيما توعدهم به.



❀ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١]

❀ التفسير ❀

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ (لما) هذه من أدوات الشرط غير الجازمة، وهي تجزم الفعل إذا كانت للنفي وليست للشرط كما في قوله تعالى ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي: لم يذوقوا لكنه العذاب قريب منهم، لأنها هي تنفي الفعل، لكن تدل على توقعه، وهذا من الفروق بينها وبين (لم)، المهم أنها لا تجزم إلا إذا كانت للنفي، أما إذا كانت شرطية فإنها لا تجزم مثل إذا ولو وغيرها، وجواب الشرط في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الباء هنا للمصاحبة، أي: مصطحبين

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٧٢١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في القحط والمحنة والبلاء.

(٣) رواه البخاري (٧٧١)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للبشرى، والبشرى بمعنى البشارة، والبشارة: هي الإخبار بما يسرُّ، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١] واستعمالها فيما يسوء، قيل: إنه من باب التهكم بالمبشَّر، ولكنه ضعيف، ولكن وجه كونه بشارة هو أنه يؤثِّر على بشرة المخاطَب به، كما يؤثر الخبر السار عليه.

قال المؤلف: [﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب بعده]، ما الدليل على أن المراد بالبشرى خصوص هذه المسألة؟

نقول: الدليل قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، ولهذا لا نقول: إن المراد بالبشرى هنا البشرى بالوَلَدَيْنِ وبالعقاب، لأن ظاهر الآية ينافي أن يكون العقاب مما بُشِّر به إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ هذه الجملة مؤكَّدة، و﴿مُهْلِكُوا﴾ خبر إن وحذفت النون من أجل الإضافة.

قال المؤلف: [﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: قرية لوط]، وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ الإشارة للتعيين، وكأن القرية قريبة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا أشاروا إليها باسم الإشارة، والقرية تطلق على مكان القوم ومساكنهم، وكذلك تطلق على نفس القوم الساكنين، يعني تطلق على هذه وهذه، كما جاء في القرآن العظيم مرادًا به ذلك هذا وهذا، والذي يعين أحد المعنيين السياق، فمثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ما المراد بالقرية؟ مكان القوم، ومثل قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[الحج: ٤٨] المراد أهلها.

وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] ليس فيه مجاز، بل المراد أهلها؛ لأن السؤال لا يتوجه إلا إلى عاقل يدرك ويجيب.

هنا يقول: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ما المراد بالقرية هنا؟ المكان لأنه قال: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ والقرية ليست كالمفهوم العرفي هنا في عرفنا أنها اسم للبلد الصغير، بل القرية في اللغة العربية تشمل حتى أكبر المدن، فمكة سماها الله قرية، وما هو أعظم من مكة سماه الله قرية، قال الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد:١٣].

فعلى هذا إذا سميت بلدك بالقرية تجزع وتصيح أم لا؟

نقول: حسب العرف نعم أجزع، أما إذا كان الذي يخاطبنا أناس من أهل اللغة العربية يفهمون ما همنا، ولذلك عندنا الآن يقال: المدن والقرى، ويقال: المدينة وما يتبعها من القرى.

نقول: أهل هذه القرية أي قرية لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أخبروا وعللوا، فقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ وعللوا هذا الإهلاك بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال المؤلف: [كافرين] فالظلم هنا ظلم كفر مع أن الظلم قد يكون كفراً وقد يكون

غير كفر، من كون الظلم كفراً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ومن كون الظلم غير كفر: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] هذه في سياق صفة المتقين؛ فإذن الظلم تارة يُراد به الكفر وتارة يراد به ما دونه، والذي يعين المراد هو السياق، ولهذا في الحقيقة قد يُشكل على بعض الناس إنكار شيخ الإسلام وابن القيم أن يكون في اللغة العربية مجاز، وقالوا: هذا غير معقول لأن اللغة العربية مملوءة بالمجاز، لكن من تدبر أن الألفاظ ما يتحدد معناها إلا بالسياق وأن السياق هو الذي يحدد المعنى عرفوا وجه كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وابن القيم وغيرهم، والناس في هذه المسألة كما ذكرنا لكم سابقًا على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه ما في مجاز في اللغة العربية أبداً.

والقول الثاني: في مجاز في اللغة العربية لكن لا مجاز في القرآن خاصة.

والقول الثالث: في مجاز في القرآن وفي اللغة العربية، حتى إن بعض العلماء - من علماء اللغة لا أذكر اسمه - قال: إن اللغة كلها مجاز، فإنك إذا قلت: قلتُ قولاً، فإن قولًا نعربها على أنها مفعول به، والمفعول به لابد أن يكون شيئًا يرى حتى يقع عليه الفعل، والقول ما هو يرى، فيكون قلت قولًا مجاز، ويصرفون كل الكلام يقولون كله مجاز، وليس في اللغة شيء حقيقة - أعوذ بالله - وهذا مبالغة.

فالصواب في هذه المسألة: ما اختاره شيخ الإسلام وأن الكلمات ليس لها معنى ذاتي خلقت له بل لا يتحدد معناها إلا بالسياق.

الفوائد:

١- هذه الآية دليل على أن الله أجاب دعاء لوط يؤخذ من قول الرسل: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

٢- ومن فوائدها: إثبات أن الملائكة رسل، لقوله ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ وفي القرآن في سورة فاطر ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وهل المراد أن كل ملك فهو رسول، أو أن منهم رسلاً؟

الظاهر: أن منهم رسلًا؛ لأن من الملائكة من هو قائم، راكع لله، ساجد، ومنهم من يرسلهم الله.

٣- ومن فوائدها: أن الرسول يطلق على البشر والملك، بخلاف النبي فإنه لا يطلق إلا على البشر، فيكون الرسول أعم من حيث متعلقه، يعني: يكون للبشر وللملك، وفي القرآن الكريم قال الله عز وجل عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فالرسول

الأول في سورة التكوير جبريل، والثاني محمد ﷺ.

٤ـ ومن فوائدها: أن من طبيعة البشر الفرح بالولد، تؤخذ من قوله ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[هود: ٦٩].

٥ـ ومن فوائدها: أن الفرح بالولد لا ينافي كمال المرتبة، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام من الكُمَّل من الرسل، ومع ذلك استبشر بالأولاد وفرح بهم، فلا يقال إن الفرح بالأولاد ينافي الكمال.

٦ـ ومن فوائدها: إثبات أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحًا أو عقولًا كما ادعاه بعضهم، فكيف نقول: إنهم أرواح وعقول وهم لهم أجنحة ويأتون ويذهبون ويقولون، جبريل رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح[١] قد سدَّ الأفق[٢]، ولكن نعم هذه الأجسام ليست كأجسام بني آدم، فإن فيها من الخفة والقوة ما ليس لبني آدم والله سبحانه وتعالى قد يجعلهم على صور غير الصورة الأصلية، مثلما جاء جبريل بصورة دِحْية الكلبي وبصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر إلى آخره.

كذلك الجن قال بعض الناس الذين يقرون بهم؛ لأن من الناس من أنكر الجن، وإنكار الجن كفر بلا ريب، ومن الناس من أقر بالجن لكن قال: إنهم أرواح وليسوا أجسامًا وهذا أيضاً خطأ، والصحيح: أنهم أجسام في المتعين لأنهم يأكلون كما ثبت في الحديث: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً**»[٣].

إذن من هذه الآية نستفيد: أن الملائكة أجسام وليسوا مجرد أرواح ومعانٍ وعقول.

٧ـ ومن فوائد الآية: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعظم منزلة من لوط، ولهذا جاءت الملائكة إليه أولاً وأخبروه بأنهم مهلكو أهل هذه القرية.

٨ ـ ومن فوائدها: أن الهلاك في الأصل إذا جاء يشمل الصالح وغير الصالح، لقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فلولا أنه يشمل الجميع ما نبههم على هذا، بل إن الله تعالى ذكر ما يدل على ذلك صريحاً فقال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤].

٩ ـ ومن فوائدها: أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما أخبروه بأنهم سيهلكون أهل هذه القرية بينوا السبب من أجل أن يطمئن إبراهيم، في قولهم: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

١٠- ومن فوائدها: جواز إضافة الحكم إلى سببه، لقوله: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ لأن الذي يهلكهم حقيقة هو الله كما قال الله تعالى ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٧٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١٧٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم (٤٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٣٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ظَالِمَةٌ ﴾[الحج: ٤٥].

لأن إضافة الشيء إلى سببه المعلوم حسًّا وشرعًا جائز مثل ما في هذه الآية وآيات كثيرة وأحاديث كثيرة تضيف الأشياء إلى أسبابها.

حتى قال الرسول ﷺ في عمه أبي طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ[1] الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[2].

(لولا أنا)، إذا أضيف الشيء إلى سببه المعلوم حسًّا أو شرعًا، لكن مع الله بحرف يقتضي التسوية كان ذلك شركًا: شركًا إما أصغر، وإما أكبر قد يصل إلى حد الأكبر إذا اعتقد أن له تأثيرًا كتأثير الله - عز وجل - وإذا أضافه إلى الله وإلى غيره بحرف يقتضي الترتيب، فإن كان (ثُمَّ) فهو جائز؛ لقول النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئتَ، قال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[3].

وإن قرنه بحرف يقتضي الترتيب والتعقيب كالفاء مثلًا: لولا الله ففلان. فهل هذا صواب ؟

عندنا ثلاثة حروف: الواو واضح أنها حرام وشرك، وثمَّ جائزة، والفاء الحقيقة الفاء يتنازعها أمران: إذا رأينا أن الترتيب موجود فيها قلنا بالجواز، وإذا رأينا الفرق بينها وبين ثُمَّ التي دلت النصوص على جوازها وأن ثم تدل على التراخي والمهلة وبُعد الثاني عن الأول قلنا: إنه ينبغي ألا نجوزها ، ولا ريب أن الاحتياط التورع عنها أحسن، وإن كانت لا شك أن تفيد الترتيب، ولكن بينها وبين ثم فرق.

والحمد لله ما من شيء محرم إلا والمباح أكثر منه وأضعافه، ولكن يحتاج الناس إلى تنبيه من الداعي.

فائدة: بعض الناس يقول للناس مثلًا وهو يعظهم أو يرشدهم: هذا حرام، ولا يجوز، لكن لا يفتح لهم بابًا يسلكونه، وهذا خلاف الدعوة الصحيحة، ونحن ذكرنا أن الإنسان إذا ذكر الباب الممنوع للناس فإنه من تمام الدعوة والإصلاح أن يذكر لهم الباب المتاح المفتوح وقلنا: إن هذا هو ما دل عليه الكتاب والسنة.

ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ هذا ممنوع، ولكن: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤] ففتح لهم بابًا.

وفي السنة قال الرسول - عليه الصلاة والسلام لبلال: «بِعِ الجَمْعَ[4] بِالدَّرَاهِمَ» لما منعه شراء

(١)طبق من أطباق جهنم وأسفل كل شيء ذي عمق ويقال لما انخفض درك كما يقال لما ارتفع درج .

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٠٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٤) الرديء أو الخليط من التمر .

الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة قال: «ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمَ جَنِيبًا[(١)]»[(٢)].

فكون أننا نقول للناس: هذا الشيء محرم ثم لا نفتح لهم بابًا هذا في الحقيقة نقص في الدعوة.

١١- ومن فوائد الآية: أن كلمة: ﴿أَهْلِ﴾ في هذه الآية من الناحية اللغوية تعم الذكور والإناث.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، ﴿لُوطًا﴾: هذه منصوبة؛ لأنها اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾.

قوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ كلمة: ﴿أَعْلَمُ﴾ ظاهرها أنها اسم تفضيل و﴿أَعْلَمُ﴾ وإن كانت اسم تفضيل فالمفضل عليه قطعًا من إبراهيم، لكن ما وجه ذلك؟

وجه ذلك: أن مثل هذا التعبير يُخاطب به من يراد إعلامه بما عند المتكلم، كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «نَحْنُ أَوْلَى بالشَّكِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[(٣)]؛ فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «نَحْنُ أَوْلَى بالشَّكِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[(٤)] اسم التفضيل هنا باعتبار المفضل والمفضل عليه هل فيه شك؟ لا، لكن المعنى: أنه لو كان في إبراهيم شك كنا أولى منه، فكما أننا نحن لا نشك فإبراهيم لا يشك، فالمعنى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ يعني: كما أنك أنت عالم فنحن عندنا علم بذلك.

وهنا ليس فيها محظور إذا كانت على سبيل العموم، يعني معناه: أن إبراهيم قد لا يعلم كل ما فيها، لكن لوطًا هو مخاطب عنه، فإذا قلنا باعتبار المكنون لوط وقومه فلا مانع أن تكون الملائكة أعلم من إبراهيم؛ لأن إبراهيم لا نجزم بأنه يعلم بكل من فيها، لكن إذا قلنا المراد ما وقع عنه أو

---

(١) نوع جيد من أنواع التمر.

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٩)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١) بلفظ (نحن أحق بالشك) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هو سابقه.

ما وقع فيه الاعتراض وهو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ صار المعنى على بابه: فيكون المعنى: إننا نحن عالمون كما أنت عالم.

وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ يعني: يشمل لوطًا وغيره؛ لأن (من) اسم موصول من صيغ العموم.

وقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾: بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان: (نُنَجِّي) من المضعَّف (نَجَّى)، (نُنْجِي) من المزيد بالهمزة من (أَنجى) وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ النجاة معناها الإنقاذ من الهلكة، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ معطوفة على الضمير.

وجملة ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر واللام، ونون التوكيد.

وقوله: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستثنى من قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾، والمراد بها هنا: الزوجة، ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي الباقين في العذاب.

وقوله: ﴿كَانَتْ﴾ نقول: فعل ماضٍ مسلوب الزمنية، كما قلناه في عدة آيات مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤].

فقدمنا أن: ﴿وَكَانَ﴾ في مثل هذه الآيات مسلوبة الزمنية، والمراد اتصاف اسمها بخبرها، هنا: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ هل نقول: إن المراد بين أنها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فقط أي: أنها مسلوبة الزمن، أو نقول: إن كانت دالة على الزمن، والمراد: ﴿كَانَتْ﴾ في علم الله ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؟

نقول: كلاهما محتمل؛ فإن شئت تقول: كانت في علم الله من الغابرين، وإن شئت فقل: كانت أي أنها اتصفت بكونها من الغابرين أي: الباقين في العذاب يعني: فليست ناجية.

مسألة: يقال: امرأة فلان أو زوجه فما الفرق؟

الجواب: لا فرق في المعنى، يقال: امرأة فلان يعني: زوجته.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: رأفة إبراهيم وحلمه؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وكأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد ألا تُهلك هذه القرية؛ لوجود هذا الرجل الصالح ـ هذا احتمال ـ، واحتمال أنه أَورد هذا الإيراد ليعرف ماذا تكون حال لوط وأيهما أرجح؟

الإيراد الآن يحتمل أنه قال ذلك ليرفع العذاب عنهم بسبب هذا الرجل الصالح، ويحتمل أنه أورد هذا ليظهر كيف تكون حال لوط؟

الجواب قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ هذه الآية عندي أنه يرجح الثاني، ماذا تفعلون بهذا الرجل؟!

وهناك دليل منفصل يؤيد القول الأول وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤].

إذن نقول: إنه أراد هذا وهذا فما يمنع أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال هذا لغرضين وعلى كل ففيه دليل على رأفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا مشهور عنه حتى إنه قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

٢ـ ومن فوائد الآية: إثبات القول والعلم للملائكة مما يدل على أنهم ذوو عقول ونطق خلافًا لمن قال: إنهم لا عقول لهم، وهذا من أغرب ما يكون أن يكون هؤلاء الملائكة الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، والذين يصفهم الله بأنهم عباد مكرمون يقول: إنهم لا عقول لهم فمن له عقل بعد ذلك؟! وخلافًا أيضًا لمن قال: إنهم أرواح ليسوا أجسادًا؛ لأن ظاهر الحال أنهم أجساد يتكلمون وينطقون ولهم عقل ونطق.

٣ـ ومن فوائد الآية: جواز إضافة الشيء إلى سببه كقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ومعلوم أن الإنجاء من الله لكن لما كانت هؤلاء الرسل رسل الله أضيف إليهم فعل الله، أي أن ما قدره الله فهو فعلهم، ففيه إضافة الشيء إلى سببه وقد تقدم لنا أن إضافة الشيء إلى سببه له أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن يضاف إلى السبب بدون ذكر الله.

والثاني: أن يضاف إلى السبب مع الله بالواو.

والثالث: أن يضاف إلى السبب مع الله بـ (ثُمَّ).

والرابع: وأن يضاف إلى السبب مع الفاء.

القسم الأول جائز والدليل على جوازه: قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أبي طالب: **«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**(١).

والحقيقة: أن الذي منعه أن يكون في الدرك الأسفل من النار الله ـ عز وجل ـ، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبب.

وإذا أضيف السبب مع الله بالواو لا يجوز و الدليل: قول الرجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: **«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟»**(٢) وهذا يحتمل أن يحمل السبب مساويًا لله ـ عز وجل ـ إذنْ هذا الحكم لا يجوز، لكن ما يكفي أن نقول: لا يجوز، فإنه قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون أصغر بحسب ما يقوم بقلب هذا المتكلم.

فإذا كان مضافًا إلى سببه مع الله بثمَّ جاز، والدليل فيها حديث قتيلة عن الرؤيا التي رآها رجل من المسلمين مع رجل، وحديث ابن عباس أظهر كما نقول هذا دل عليه حديث قتيلة وفي سنده نكشف عن صحته من عدم صحته وكذلك أثر ابن عباس، وهو مشهور في قول الله تعالى: ﴿فَلَا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

ثم التعليل: أن ثم دل على تأخُّر المعطوف عن المعطوف عليه تأخرًا كثيرًا، يعني: ثم تدل على الترتيب بمهلة.

وإذا قرنه مع سببه بالفاء فهي تخالف الواو، وتخالف ثم، فـ(ثمَّ) ورد جوازها والواو ورد منعها، أما هذه فقد قلنا: الأولى للإنسان تركها وأن يعدل عنها.

٣- ومن فوائد الآية: أن الزوجة داخلة في الأهل، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾.

وهذا من المستثنى المتصل لا المنقطع، ولولا ذلك ما احتيج إلى إخراجه، إذنْ ينبني على هذه الفائدة فائدة وهي: أن أزواج النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل بيته ولا شك خلافًا للروافض الذين يخرجون زوجاته من أهل بيته، وفي القرآن ما يدل على ذلك تصريحًا أن أزواج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل بيته، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

إلى قوله: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ وهذا واضح وصريح.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الاتصال بالصالح لا يستلزم منه أن يكون المتصل صالحًا، صحيح أن الاتصال بالصالح من أسباب الصلاح لكنه ليس بلازم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ فكانت من الهالكين أو الباقين في الهلاك مع أنها امرأة رجل صالح نبي من الأنبياء، فلا تُدل الزوجة على ربها بصلاح زوجها، وقد وردت مثل هذه المسألة في قصة التحريم في سورة التحريم وأنه يجب ألا تُدل زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الله بكونهن زوجات للنبي.

مسألة: هل امرأة لوط خرجت معه؟

الجواب: نعم ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] ليس مستثنى من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ﴾، بل مستثنى من الجملة التي قبلها، وهذه قد مرت علينا ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ وذكرنا اختلاف العلماء هل هذا مستثنى من الجملة الأخيرة أو هذه.

٥ ومن فوائد الآية: جواز القسم بدون استقسام، تؤخذ من قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

٦- ومن فوائدها أيضًا: اعتبار القسم المقدر بمعنى أنه لا يشترط في القسم أن تنطق به.

لو قال قائل: لأفعلن كذا هل يكون مُقْسِمًا؟

نعم يكون مقسمًا، لأنه معروف أن هذه الجملة تكون جوابًا لقسم مقدر فيكون مقسمًا، ولو قال: لئن آتاني الله من فضله لأصدقن يكون مقسمًا، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]

فجعلوا هذا نذرًا وذلك لأن النذر ليس له صيغ معينة، فكل ما دل على الالتزام فهو نذر بأي صيغة، وقد يكون نذرًا مقرونًا بالقسم فيفيد التوكيد.

مسألة: جملة: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ هل يفيد أن وجود الصالحين يمنع العذاب عنهم؟

الجواب: ربما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٣، ٣٤]

التفسير

نقول في: ﴿وَلَمَّآ﴾ ما قلنا فيما سبق، وقوله: ﴿أَن جَآءَتْ﴾، ﴿أَن﴾ هذه يقولون: إنها زائدة، ﴿أَن﴾ زائدة للتوكيد، وكل حرف زائد في القرآن فإنه للتوكيد حسب السياق ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ يعني: تحقق مجيئهم له: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قال: [حزن بسببهم].

قوله: ﴿سِىٓءَ﴾: هذه فعل ماضٍ مبني للمفعول، والمبني للمفعول يضم أوله إلا إذا كان معتلًا مثل: قيل، وبيع، يقول ابن مالك:

وَاكْسِرْ أَوِ اشْمِمْ فَاثُلاثي أُعِلّ عَيْنًا وَضَمٌّ جَا كَـ «بُوع» فَاحْتمل[(١)]

إنا نعرف أن ننطق بالكسر الخالص، وبالضم الخالص، فنقول: قول لكن الإشمام صَعْبٌ علينا.

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ١١٤).

وقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أفاد المؤلف في قوله: [بسببهم] أن الباء للسببية: أي لحقه السوء بسببهم - والله أعلم -.

إذا كان (أن) أو غير (أن) حذفت واستقام الكلام فهي زائدة، هي الغالب إذا حسب ما في القرآن أنها تأتي زائدة.

إذن قوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ هو جواب لـ (ما) و ﴿سِيٓءَ﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول ونائب الفاعل يعود إلى لوط أي: حصلت له المساءة، وقوله: ﴿بِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسببهم.

وإذا جعلت الجار والمجرور نائب فاعل فقد عديته؛ لأن نائب الفاعل معناه في الأصل مفعول به فمعنى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: هو ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾، أي: حصلت له مساءة، أو إصابة السوء، أما ساء في الأصل فتكون متعدية إذ تقول: ساءني هذا الشيء، وساءني في هذا الخبر، كما تقول سرني.

وقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ إعراب ﴿ذَرْعًا﴾ هذا تمييز محول عن الفاعل، والتمييز كما مر علينا يكون محولًا عن الفاعل وعن المفعول به، مثال المحول عن المفعول به قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]. فهذا تمييز محول عن المفعول، وأصله: وفجرنا عيون الأرض.

ومثال المحول عن الفاعل: هذه الآية أو أن تقول مثلًا: انشرح بهم صدرًا، أي: صدره، وهنا: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أصله ضاق ذرعه بهم وما هو الذرع؟

فسره المؤلف بالصدر، قال: [﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ صدرًا]، أي: ضاق صدره بهم ولم ينشرح بل حصل له همٌّ وغمٌّ بذلك.

وقيل وهو الصحيح: إن الذرع بمعنى: الطاقة. أي: ضاق بهم طاقة، فصار غير متحمل لهم وهذا موجود في اللغة العربية، فسميت الطاقة ذرعًا من الذراع لأن الذراع محمل الحمل، والطاقة هي التي بها يستطيع المرء أن يحمل أو لا يحمل.

قال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ العلة لأنهم كانوا حِسان الوجوه في صورة أضياف فخاف عليهم قومه فأعلموه أنهم رسل ربه؛ وهذا هو السبب أنه ضاق بهم؛ لأن قومه - كما ذكرنا في السابق في آية أخرى - لما سمعوا بذلك: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود:٧٨] يعني: مسرعين - والعياذ بالله - يريدون هؤلاء الأضياف، وهذا من فتنة الله - سبحانه وتعالى - للعبد أن يجعل الأمور المحرمة عليه في صورة تهواها نفسه؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب، فهم - والعياذ بالله - لما جاء هؤلاء، جاءوا إلى لوط يريدونهم فكان يقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨].

فهو ضاق بهم خوفًا عليهم من قومه؛ لأن قومه كما قال الله تعالى - أهل خبث - ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤].

لكنهم قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ فالخوف عما يُتوقع حدوثه في المستقبل، والحَزَن عما وقع في الماضي، قالوا: وقد يطلق الحَزَن على المستقبل ومثلوا لذلك بقول النبي ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١) فكلام النبي معناه: لا تخف على أنه يحتمل أن تكون على بابها وأنه لا تحزن مما حصل من خروجنا ودخولنا إلى الغار.

أو أنه خشي أن يشمله العذاب فخاف: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[هود:٧٧]، بمعنى: هل ما حصل له من كونه: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ هل السبب الخوف عليهم من قومه، أو السبب أنه خاف أن يعمه العذاب؟ الأول.

على كل حال: يصلح أن تكون استئنافية وتعليلية وما المانع أن يكون يخاف هذا وهذا؟

وقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ قراءتان.

يعني: مُنْجُوك ومنَجُّوك، مُنْجُوكَ من الفعل الماضي أنجا، ومنَّجوك: نجَّا.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ هنا بالنصب عطفًا على الضمير في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، وهنا إشكال بأن الضمير في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ محله الجر بالإضافة، وهنا جاءت: (أهلَ) منصوبة، فما وجه النصب فيها؟ إذا قلنا: إنها معطوفة على الكاف في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾

لأن اسم الفعل تارة يعمل عمل الفعل وتارة يكون مضافًا؛ لهذا قال ابن مالك.

وَاجْرُرْ أَوِ انْصُبْ تَابعَ الَّذِي انْخَفَضْ كَمُبْتَغِي جَاهٍ وَمَالًا مَنْ نَهَضْ(٢)

ويجوز كمبتغي جاهٍ ومالٍ من نهض، إذنْ: هذه مثل مالًا.

ويجوز أن تكون الواو للمعية، وقد قال ابن مالك:

يُنْصَبُ تَالِي الوَاوِ مَفْعُولًا مَعَه

إذن نقول نصب ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يكون عطفًا على محل الكاف.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤].

قوله: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قال: [بالتخفيف والتشديد] فـ ﴿مُنزِلُونَ﴾، و ﴿منزِّلون﴾.

[﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَآءِ﴾].

قوله: ﴿رِجْزًا﴾ قال المؤلف: [عذابًا]، والرجز غير الرجس، فالرجز: العذاب، والرجس: النجس.

وقوله: ﴿مِّنَ السَّمَآءِ﴾ هل المراد بالسماء السقف المحفوظ أو العلو؟

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) شرح ابن عقيل (٣/ ١١٨).

سواء قلنا: إنه السقف المحفوظ وأن هذا العذاب نزل من السماء الدنيا، أو قلنا: إنه المراد به العلو، فعلى كل حال قد أتاهم من فوق، وكونه يأتي من فوق أشد وأبلغ؛ لأن ما يأتي من فوق يكون عاليًا ومحيطًا ـ والعياذ بالله ـ بخلاف الذي يأتي من أسفل فإنه لا يكون كذلك.

قال: [﴿بِمَا﴾ بالفعل الذي ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ به، أي: بسبب فسقهم].

كلام المؤلف غريب وفيه شيء من التنافر، الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية لا شك، و(ما) أعربها على أنها اسم موصول، ثم قدَّرها بالمصدر مما يدل على أنه جعلها مصدرية وهذا من الغرائب.

وقوله: ﴿بِمَا﴾ قال: [بالفعل الذي]، فتكون (ما) اسمًا موصولًا صفة لموصوف محذوف تقديره: بالفعل.

والاسم الموصول يحتاج إلى جملة تكون صلة ويحتاج إلى عائد يربط الجملة به، فجملة الصلة قوله: ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، والعائد قدره بقوله: به، بما كانوا يفسقون به، وهذا خلاف المشهور عند النحويين من أنه إذا كان العائد مجرورًا فلابد أن يكون موافقًا لاسم الموصول في نوع العامل وفي نوع حرف الجر.

ما هو الشاهد من كلام ابن مالك في اشتراط هذا الشيء؟

كَذَا الَّذِي جُرَّ بِمَا المَوْصُولَ جُر   كَمُر بِالَّذِي مَرَرت فَهُو بَر[1]

وهنا اختلف العامل، فالصحيح فيه أن: (ما) هنا مصدرية، أي: بكونهم يفسقون، فـ (ما) مصدرية وليست موصولة.

وقوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفسق في الأصل الخروج عن الطاعة ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها. وينقسم الفسق إلى قسمين:

فسق أكبر مخرج من الملة، وفسق أصغر لا يُخرج من الملة.

والمصطلح عليه عند أهل العلم: الثاني إذا أطلقوا الفسق فإنهم يريدون به ما لا يخرج من الملة، لكنه في القرآن ينقسم إلى هذين القسمين.

أي أن الفسق يكون فسقًا أكبر مخرجًا عن الملة ويكون فسقًا دون ذلك أصغر لا يخرج عن الملة، لكنه بقسميه مخرج من العدالة؛ فالفاسق ليس يعدل والشاهد من القرآن للفسق المخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠] هذا فسق مخرج عن الملة، أما الفسق الذي لا يخرج من الملة فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].

أما سبب الفسق وهو الخروج عن الطاعة فإنه قد يكون سببه ترك واجب، وقد يكون سببه

---

(١) شرح ابن عقيل (١/ ١٧٢).

فعل محرم.

قد يكون سببه ترك واجب كما لو ترك الإنسان صلاة الجماعة فإنه يكون فاسقًا؛ لأن الجماعة واجبة، وقد يكون سببه فعل محرم كما لو حلق الإنسان لحيته؛ لأن حلق اللحية محرم، إلا أن العلماء يقولون في المحرم: إن كان كبيرة فسق بمجرد فعلها إن لم يتب منها بمجرد الفعل، وإن كان صغيرة لم يفسق إلا بالإصرار عليها.

هل حلق اللحية يفسق به إذا فعله مرة واحدة؟ لا، لكن إذا أصر وصار كلما نبتت حلقها صار فاسقًا.

سؤال: وما الحكم إذا حلق نصفها، يحلق الذقن ويبقي العوارض؟

الجواب: نعم أنا رأيت إنسانًا حالقًا للذقن تاركًا العوارض فهذا حرام سواء حلق العوارض وأبقى الذقن أو حلق الذقن وأبقى العوارض؛ لأن كثيرًا من الناس يظنون أن اللحية هي الذقن والذقن هو اللحية!

الذقن مجمع اللحيين؛ لأن اللحية هي منبت الأسنان وقد ذكر في القاموس أيضًا أن جميع شعر الوجه من اللحية يعني: شعر الخدين من اللحية.

سؤال: ما حكم من يقصرها، يعني يقصها؟

الجواب: على كل حال ليس كالحلق، ولكنه معصية، لأن الرسول ﷺ قال: «**أَعْفُوا اللِّحَى**»(١)، والأصل في الأمر الوجوب، فإذا أصر عليه صار فاسقًا.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣]

١- من فوائد الآية الكريمة: إطلاق الرسل على الملائكة في قوله: ﴿رُسُلُنَا﴾، وقد ذكرنا فيما سبق الدليل أن الملك يسمى رسولًا.

٢- ومن فوائدها: تشريف هؤلاء الرسل بإضافتهم إلى الله - سبحانه وتعالى - فإن الشيء يشرف بما يضاف إليه.

٣- ومن فوائدها: أن الأنبياء كغيرهم من البشر يلحقهم المساءة والأحزان والسرور والفرح لقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ فالعوارض البشرية ليس لا تنقص من كمال الرسالات، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما نسي في الصلاة: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**»(٢)، وهو أيضًا يبرد ويفتر

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٤)، ومسلم (٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٣٩٢)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ويجوع ويعطش.

٤- ومن فوائدها: شدة احتراز لوط - عليه الصلاة والسلام - من قومه؛ لأنه إنما ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ خوفًا عليهم من قومه؛ لأنهم جاءوا في صورة شباب ذوي جمال وحسن وهذه فتنة من الله - عز وجل -.

٥- ومن فوائد الآية أيضًا: أنه ينبغي الاستدلال على الأحوال من الملامح الظاهرة، لقولهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾؛ لأنهم رأوا منه العلامات، فيمكن أن يؤخذ من هذا فائدة تنبني عليها وهي: العمل بالقرائن، والعمل بالقرائن ثابت في قصة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]. وهذه قرينة وليست بينة.

وكذلك أيضًا في قصة سليمان في المرأتين في غلامهما[1]، لأنه تنازعت المرأتان الصغرى والكبرى وقال - عليه الصلاة والسلام - سآتي بالسكين، أو جاء بالسكين ليشقه نصفين، فأما الكبيرة فوافقت، لأن ولدها قد أكله الذئب، وأما الصغيرة فقالت له: يا نبي الله هو لها؛ لأنه أدركها الحنان فعلم بهذه القرينة أنه الاستغراق فحكم به لها وهذه من القرائن.

كذلك أيضًا من هذه الشريعة: فالنبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة ذَهَبِ حيي بن أخطب لما سأل النبيُّ عن ماله أين هو؟ فقالوا: يا محمد أنهته الحروب والسنون؛ قال: «**مَا يُمْكِنُ الْمَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ**»، ثم دفع الرجل إلى الزبير بن العوام وقال: مِسَّه بعذاب فلما أحس بالعذاب قال: انتظر أنا أرى حيي بن أخطب يحوم أو يدور حول هذه الخلدة فلا أدري لعله دفنه في هذا فوجدوه. وهذا من العمل بالقرائن ولها أمثلة كثيرة.

المهم: أن هذا يدلنا أن كوننا نستدل على حال المرء بملامحه هو من العمل بالقرينة.

٦- ومن فوائد الآية أيضًا: أنه ينبغي طمأنة الخائف؛ ليزول عنه الخوف؛ لقوله: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ ومنها ما يُستعمل الآن في الطب أن الطبيب يقول للمريض هذا أمر سهل وهين ويطمئنه لأجل أن ينشرح صدره.

٧- ومنها أيضًا: أنه ينبغي إزالة المؤذي قبل حصول السارِّ لقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ فبدأوا بنفي الخوف والحزن ثم أعقبوه بالبَشارة، ولهذا من الكلمات المشهورة عند أهل العلم يقولون: (التخلية قبل التحلية)؛ يعني: جرد الشيء مما يشوبه من نقص ثم بعد ذلك كمِّله بالتحلية، ومنه كلمة الإخلاص أيهما أسبق النفي أو الإثبات؟ النفي؛ لا إله إلا الله.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن للاتصال بالصالح لا يلزم منه الصلاح يؤخذ من قوله:

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (١٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾؛ لأن امرأته متصلة به ومع ذلك لم تصلح؛ لكن هل الاتصال بالصالح سبب للصلاح؟

نعم سبب للصلاح؛ ولهذا حثَّ النبي - عليه الصلاة والسلام - على الجليس الصالح(١).

فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤]

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأن الباء للسببية.

٢- **ومن فوائدها:** أن الفسق سبب للعقوبات والدمار؛ ولهذا جعل الله المعاصي من الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وفي إثبات الأسباب رد على طائفة من المبتدعة وهم الجهمية، لأن الجهمية فيهم ثلاث جيمات أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فما هي هذه الجيمات عندهم؟

جبر وإرجاء وجيمة جهم

وهم يقولون: لا يوجد شيء فيه أسباب مؤثرة حتى إنك إذا رميت بالحجر على الزجاجة فانكسرت كان الحجر ما كسرها، بل انكسرت عنده لا به - طبعًا هذا غير معقول - وعندما تضع ورقة في النار تحترق يقولون: النار ما أحرقتها فلا يوجد أسباب تؤثر، ولكن هذا حصل عند النار لا بها فأنت وضعتها عند النار فاحترقت.

على كل حال: هذا قول تصُّوره كافٍ لرده؛ لكن هم يريدون أن يتوصلوا إلى شيء وراء ذلك وهو أن الإنسان مجبر على العمل، فإذا عذبه الله - تعالى - وهو عاصٍ لله فإن تعذيبه إياه ليس حجة؛ لأن الله - تعالى - قد يعذب بدون سبب، والأسباب عندهم غير فاعلة ونحن نوافقهم على أنها غير فاعلة بنفسها؛ بدليل أن النار المحرقة صارت على إبراهيم بردًا وسلامًا، لكننا نقول: إنها فاعلة بتقدير الله - عز وجل -، فالله الذي جعلها تحرق فأحرقت، إذنْ فيه شاهد على هذا.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ

---

(١) فقد روى البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة».

الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥-٣٧]

التفسير

الجملة في قوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم واللام وقد.

وقوله: ﴿تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي: أبقينا منها الترك هنا بمعنى الإبقاء وهو ظاهر في اللغة العربية، تقول: أخذت هذا وتركت هذا، يعني: أبقيته.

﴿تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ يعني: أبقينا من هذه القرية آية بينة، و ﴿آيَةً﴾ بمعنى: علامة، و﴿بَيِّنَةً﴾ بمعنى: ظاهرة وواضحة.

قال المؤلف: [ظاهرة هي آثار خرابها]، قال الله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧ـ١٣٨].

فكان العرب يمرون على هذه القرى ذاهبين وجائين إلى الشام فيرون من آثار العذاب ما هو ظاهر لكنهم لا يستفسرون، ولهذا قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال المؤلف:[يتدبرون].

إذنْ: ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلقة بـ ﴿تَّرَكْنَا﴾ أم بـ ﴿بَيِّنَةً﴾؟ يجوز الوجهان.

يجوز أن يكون المعنى بيِّنة للعاقلين، ويجوز بمعنى تركناها للعاقلين.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العقل سبق لنا أنه ينقسم إلى قسمين:

عقل يُراد به الإدراك، وعقل يراد به الرُّشد.

العقل الذي يراد به الإدراك: هو مناط التكليف، والذي يقول الفقهاء من شروط هذه العبادة مثلًا: التمييز والعقل.

وعقل الرشد: هو مناط المدح والذم، يعني: الذي يُمدح عليه الإنسان ويُذم، والذي يوجد في القرآن غالبًا هذا وليس الأول؛ لكن في كلام أهل العلم يرد بالفعل المعنى الأول الذي هو الإدراك.

أقول: إن العقل الثاني الرشد وهو مناط المدح والذم، ومعنى ذلك: أن يكون الإنسان حسن التصرف بحيث يعقله ما معه من الإدراك عما يضره إلى ما ينفعه، هذا هو الذي يراد هنا في هذه الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ المراد به عقل الرشد الذي يحجزك عما يضرك إلى ما ينفعك.

وقول المؤلف: [يتدبرون]، هذا في الحقيقة ليس تفسيرًا مطابقًا للَّفظ؛ لأن التدبر هو سابق على العقل، فالإنسان يتدبر أولًا ويعرف النافع والضار، ثم يعقل فيتبع ما ينفعه ويدع ما يضره.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني: وأما من لا يعقلون فإنهم لا ينتفعون بالآيات ولا يتعظون

بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

يقول المؤلف: [﴿و﴾أرسلنا ﴿إلى مدين﴾].

فعلى هذا يكون: ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: (أرسلنا)، وقال: ﴿أَخَاهُمْ﴾ ولم يقل: (أخوهم)؛ لأنه اسم من الأسماء الخمسة كما في «الآجرومية» أو الستة كما في «الألفية».

إذنْ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأخوة هنا ليست في الدين قطعًا؛ لأن الكفار ليسوا إخوة للمؤمنين.

إذنْ: فهما إخوة طين وعند بعض الناس إخوة إنسانية، وقالوا: إن الكافر والمؤمن أخوان في الإنسانية؛ لأن هذا ليس حِمارًا وهذا بشر كلهم بشر، فالمراد بالأخوة: الإنسانية.

وقال: إنه يجوز أن تقول: إن هذا أخ للكافر؛ لأنك مشترك معه في الإنسانية.

المهم على كل حال: يعني بدون عاطفة نريد أن نبحثها بعقل، العاطفة لا شك أننا ننكر هذا من أول وهلة، لكن لو قال: أخي في الإنسانية؛ لأننا سمعنا واحدًا يتكلم في مسجد من المساجد يعظ الناس ويقول: هؤلاء إخوتنا في الإنسانية، فما ينبغي لنا يعني أن نغلظ عليهم ونفعل ونفعل؛ فالمقصود إذن مطلق الموافقة والمشابهة.

على كل حال: نرد عليهم فنقول: هذا شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى هنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء:١٧٦ ـ ١٧٧] ما قال أخوهم، ﴿قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾.

قال أهل العلم: لأن أصحاب مدين كان شعيب منهم فهو أخوهم في النسب وأصحاب الأيكة ليس منهم بل هي قرية حول مدين أرسله الله إليهم، ولهذا لم يقل: أخوهم، بل قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولو كانت الأخوة هي الإنسانية في مثل هذا المقام لاختلف السياق، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:٧٣] وما أشبه ذلك.

لو كان المراد بالأخوة: الإنسانية، لكان يقال أيضًا في أصحاب الأيكة؛ لأنه أخوهم.

ثم إن الأخوة في اللغة العربية إذا تتبعناها وجدناها إما في النسب فيكون الأصل الجامع بينهما نسبًا وهذا واضح، وإما أن يكون الأصل الجامع بينهما هدفًا واحدًا، يسعى إليه الجميع.

ومعلوم أن الكافر والمسلم مختلفان في الهدف ولا يمكن أن يكون أحدهما موافقًا للآخر في الهدف فإننا لا نوافق على هذا القول مهما كان الأمر؛ لأنه في الحقيقة يؤدي إلى أن أي إنسان يقول: إن هذا الكافر أخوه يحصل له رقة ولين ومنافقة ويسهل ما في النفوس من بُغض الكفار، ثم كما يعرف الكثير منهم إذا قيل نصراني ويهودي يقف الشعر ويتخوف الإنسان ويتهيب، لكن الإنسان

الآن صارت المسألة تمر على القلب مرور الماء البارد ولا أحدَ يتأثر إلَّا من شاء الله وهذا له خطره العظيم.

وهل شعيب أخٌ للبلد؟ هو ما قال: قرى مدين، فهل يكون أخاهم؟

نقول: هذا من باب إطلاق القرية وإرادة الأهل، يعني: مثل إطلاق القربة وإرادة الأهل، وكذلك في الآية التي تقول: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٢].

قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ مع أنها نية صريحة تلقاء مدين، فالإنسان يتوجه تلقاء القوم، وإذا قلنا بهذا ينتهي الإشكال.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا: هذه نداء، وقوم: منادى معرب، فيكون منصوبًا على النداء وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين. إذنْ: فتحة مقدرة على ما قدره المتكلم المحذوفة لالتقاء الساكنين، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي تذللوا له بالطاعة، يعني: العبادة. وهي مأخوذة من التذلل، ومنها قولهم: طريق معبَّد أي: مذلل للسالكين، فالعبادة إذن هي التذلل لله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعته، والطاعة هي: امتثال الأمر واجتناب النهي عند الإطلاق، أما إذا قرنت فقيل طاعة ومعصية صارت الطاعة في الأوامر والمعاصي في النواهي.

قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمراد هنا بالعبادة أي: إخلاص العبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ قال: [اخشوه، وهو يوم القيامة].

والرجاء: يطلق على الطمع في المحبوب، وهذا هو الأصح، ولهذا يقال: التمنى والرجاء، ويطلق الرجاء بمعنى الخوف.

فهو إذنْ من باب الأضداد، لأن في اللغة العربية كلمات تدل على المعنى وضده تسمى الأضداد، وألَّف علماء اللغة في هذا كتبًا، تجد كلمة واحدة تصلح لهذا ولهذا، للشيء وضده.

قال: هل هنا الرجاء بمعنى الخوف أو بمعنى الطمع؟

الرجاء بمعنى الطمع في المحبوب، والمؤلف حملها على المراد بها: الخوف؛ وذلك لأن المقام هنا مقام إنذار.

ويحتمل أن يكون المراد بها الرجاء الذي هو الطمع في المحبوب، لأن فيه المحبوب وفيه المكروه.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٥ ـ ١٠٨].

لو قال لنا قائل: ألا يجوز أن نحمله على المعنيين جميعًا: وارجوه خوفًا من العقاب وطمعًا في الثواب؟

نقول: نعم يصلح أن يكون شاملًا للأمرين، وقد تقدم أن القول الراجح عندي وهو قول لبعض العلماء هو: جواز استعمال المشترك في معنيين إذا لم يحصل تنافٍ، بحيث يكون اللفظ المحتمل لهما لا يتناقض في المانع من أن يستخدم في معنيين ـ والله أعلم ـ.

وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من التلطف ما هو ظاهر؛ لأن قوم الرجل لابد أن ينصروه ويقبلوا ما جاء به.

وقوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ قال: [اخشوه]، ويحتمل المعنى: واطمعوا بما فيه من الأجر والثواب فهو صالح لهذا وهذا، وهو من أسماء الأضداد الذي يدل على الشيء وعلى ضده.

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ هو يوم القيامة وسمي بالآخر؛ لأنه لا يوم بعده إذ إن الناس لهم أربع مراحل: مرحلة أولى في البطن، والمرحلة الثانية في الدنيا، والمرحلة الثالثة في القبور، والمرحلة الأخيرة يوم القيامة؛ ولهذا سُمي باليوم الآخر، إذ إنه آخر مرحلة تكون للإنسان هو هذا اليوم، فلذلك سمي باليوم الآخر.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ لا تفسدوا وعلى هذا فمفسدين قال المؤلف فيها: [حال مؤكدة لعاملها]، ما معنى مؤكدة له؟ أي: بمعناه وهذا التوكيد معنوي لأنه ليس من مادة الفعل؛ فلو قال: لا تعثوا في الأرض عاثين لكان لفظيًّا، أما هنا فإنه معنوي؛ لأنه أكده بمعنى إذ إن العثو يقول المؤلف: [من عثي بكسر المثلثة أفسد]، يُقال: عَثِي: يعثى، كفَرِح يفرح، والأبواب على وجه التفصيل ستة، منها باب فَعِلَ يَفْعَلُ، كفَرِحَ يَفْرَحُ، رضي يرضى، وعثي على رأي المؤلف يعثى، ويجوز أن تكون من باب: فَعِلَ يَفْعُلُ، عثى يعثو، وكلاهما بمعنى أفسد، ولهذا قال المؤلف: [أفسد].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ النهي هنا واضح، ولهذا جزم الفعل بحذف النون لا تعثوا، بماذا يكون الإفساد؟ هل المراد الإفساد الحسي هدم البناء وإفساد الأنهار وقطع الأشجار ونحو ذلك، أو أن المراد الإفساد المعنوي، أو كلاهما؟

كلاهما؛ فلا يجوز الإفساد حتى في الأمور المادية ولهذا نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال[1].

(١) رواه البخاري (١٤٠٧) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أقول: إن الإفساد في الأرض يشمل الإفساد بالمعاصي والإفساد الحسي المادي، والدليل على هذا أن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال، وروى أبو داود: أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فنزلوا أرضًا فنهاهم عن قطع أشجارها؛ لأنها للاستغلال فهو إفساد لها.

ما هي مقابلة هؤلاء القوم لهذه الدعوة التي تدعو إلى الخير وتنهى عن الشر؛ تدعو إلى الخير كمثل قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ وتنهى عن الشر في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؟.

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٧]

الرد: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ هنا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع التكذيب إنما يكون في الخبر وهو قال: اعبدوا الله وارجوا ولا تعثوا وكل هذه الجمل الثلاث إنشائية وليست خبرية وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فعصوه، وهنا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾.

الجواب أن يقال: إنه قال لهم هذه الأوامر أو هذين الأمرين والنهي باعتباره رسولًا من عند الله ﴿فكذبوه﴾ أي: بدعوى الرسالة، وهذا أبلغ من العصيان؛ لأنهم أنكروا رسالته رأسًا، ما أقروا بالرسالة ثم قالوا: إنا نعصيك في هذا الشيء بل كذبوا بالرسالة رأسًا فكان هذا أبلغ من قوله: فعصوه.

قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، الفاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ للتعقيب، وفي قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ يحتمل أن تكون الفاء للتعقيب ويحتمل أن تكون سببية فإن قلنا: للتعقيب فهو دليل على أنه بمجرد تكذيبهم عوقبوا، وإن قلنا: إنها للسببية فإنه لا يلزم من ذلك أن تكون عقوبتهم قريبة من تكذيبه؛ لأنه يجوز أن الله أمهلهم بعد التكذيب ثم أخذهم، على أننا إذا جعلناها للسببية لا تنافي أو لا تمنع أن تكون العقوبة مباشرة، وعلى هذا فنقول: إن الأولى أن تكون للسببية، فتكون للسببية أولى من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: دلالتها على حكمة العقوبة وهي التكذيب.

والوجه الثاني: أنها أوسع دلالة من أن تكون الفاء للترتيب؛ لأنها تشمل ما أعقب الترتيب وما تأخر عنه.

والوجه الثالث: أننا نسلم من دعوى أن الله - سبحانه وتعالى - لم يمهلهم وليس عندنا علم بذلك، فيكون اختيار أن تكون الفاء هنا للسببية أولى.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، (أخذتهم) أبلغ من قوله: أصابتهم؛ لأن الأخذ دليل على أنه لا هوادة فيه، وأنه مدمر، والرجفة يقول: الزلزلة الشديدة، ما في آية ثانية تدل على أخذتهم الصيحة.

إذن: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، وأخذتهم الصيحة لا تنافي بينهما فبالإمكان اجتماعهما؛ إذ يكون العذاب صيحة صيح بهم فسمعوا، ورجفت بهم الأرض فيكونون عوقبوا بالصوت، وعوقبوا بالفعل بالأمرين جميعًا.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾: والفاء هنا نقول إنها عاطفة أو سببية تصلح هذا وهذا، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بالنصب خبرًا لأصبح وقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود:٦٧] ولا منافاة، وذلك لأن (دار) مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

فـ ﴿نِعْمَةَ﴾ مفرد لكن المراد هنا الجمع لقوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ لأن الواحد يحصى.

إذن دار وديار لا فرق بينهما من حيث المعنى.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قال المؤلف: [باركين على الركب ميتين]، أعوذ بالله هذا الجاثم من شدة ما نزل بهم بركوا على ركبهم ثم همدوا فصاروا ﴿جَٰثِمِينَ﴾.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥].

١- **من فوائد هذه الآية:** حكمة الله - سبحانه وتعالى - في إبقاء آثار الآيات: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ يعني: المراد إبقاءها.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا ذوو العقول؛ لقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣ - **ومنها:** فائدة العقل، فكلما أوتي الإنسان عقلًا، فإنه من نعمة الله عليه كلما كان أعقل فهو من نعمة الله من كون صاحبه ينتفع به في الآيات التي تركها الله - عز وجل -.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات رحمة الله وحكمته في إرسال الرسل؛ لأن إرسال الرسل يدل على الرحمة والحكمة، أما الرحمة فظاهر؛ لأنه لا يمكن للعباد أن ينتفعوا بعقولهم في التعبد لله - عز وجل -، ولهذا يقول العلماء: إن العبادات توقيفية، وأما الحكمة فلئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن النبي - غالبًا - يكون من قومه؛ لأن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن كل واحد ذكر بـ قوله: (إلى قومه)، (وأخاهم)، وما أشبه ذلك، والحكمة من هذا أنه يتولد منه فائدة أخرى وهي: أنه ينبغي أن يكون الرسول معروفًا بين قومه؛ لأجل أن يساعدوه ويعينوه ولا يكذبوه.

٣ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** وجوب عبادة الله؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

٤ - **ومنها:** وجوب الاستعداد لليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

٥ - **ومنها:** إثبات اليوم الآخر.

٦ - **ومنها:** تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ والأصل في النهي التحريم.

٧ - **ومنها:** أن الشرائع تجمع بين الأمرين: الإيجاب والسلب، فالإيجاب بالأوامر والسلب بالنواهي، يعني: أن الشرائع أفعال وتروك، ولا يصلِح العباد إلا هذا، لأن الإنسان قد تناسبه الأوامر ولا تناسبه النواهي، وقد تناسبه النواهي ولا تناسبه الأوامر، وجمع الله - سبحانه وتعالى - في شرائعه بين الأمر والنهي.

٨ - **ومنها:** قلنا تحريم الإفساد في الأرض، وذكرنا في التفسير أن هذا الإفساد يشمل الإفساد المعنوي بالمعاصي، والإفساد الحسي بالتدمير والإتلاف.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٧].

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان ما يعانيه الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من أقوامهم؛ لقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ولا ريب أن تكذيب الإنسان الذي على حق يبلغ في نفسه كل مبلغ، فالإنسان على حق والآيات وجاء بمصلحة الخلق فلم يكذبونه؟ هذا أمر ليس بهين على النفس.

٢ - **من فوائد الآيات أيضًا:** تسلية الدعاة إلى الله - عز وجل - إذا عُورضوا في دعوتهم. وكيف هذه التسلية؟

أن الرسل كُذبوا فهم من باب أولى ولهذا يسلي الله النبي - عليه الصلاة والسلام - بمثل هذا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [فاطر:٤]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤] فالداعي إلى الله لا ينبغي أن يقنط من أن يكذب؛ لأن هذا هو طريق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم سيكونون مثلهم.

٣ - **ومن فوائد الآية:** التعجيل بالعقوبة للمكذِّب إذا قلنا: إن الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ عاطفة، أما إن قلنا: إنها سببية فلا تدل؛ لأن المسبَّب قد يتأخر عن السبب.

٤ - **ومن فوائد الآية:** حكمة الله - عز وجل - في عقوبة المكذبين لرسلهم.

٥ - **ومنها:** أن العقوبة ليست جورًا ولا ظلمًا؛ لأن الله - تعالى - منزَّه عن الظلم، ولا يظلم أحدًا، فلولا أن هؤلاء يعاقبون بحق ما عاقبهم الله.

٦ - **ومنها:** قدرة الله - سبحانه وتعالى -؛ لقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهم قبيلة كبيرة أبادهم الله - تعالى - في لحظة، وهذا دليل على قدرته وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

٧ - ومنها: أن الملاجئ لا تنفع من الله، تؤخذ من قوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾؛ فالدار: ملجأ للإنسان يلجأ بها من عدوه لكنها بالنسبة إلى الله لا تمنعه، فلا تمنعه من إيقاع مراده؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨، ٣٩]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿وَ﴾ أهلكنا (عادًا وثمودًا) بالصرف وتركه بمعنى الحي والقبيلة]

ما هو الصرف؟ الصرف التنوين قال ابن مالك:

الْصَّرْفُ تَنْوِينٌ أَتَى مُبَيِّنَا مَعْنًى بِهِ يَكُونُ الْاسْمُ أَمْكَنَا[1]

فهنا يجوز الصرف ﴿وَثَمُودًا﴾، ويجوز ترك الصرف ﴿وَثَمُودَا﴾ وهما قراءتان، وهكذا كل أسماء القبائل يجوز فيها من حيث الأصل الصرف وعدمه، فالصرف باعتبار الحي وهو مذكر، وعدم الصرف باعتبار القبيلة وهي مؤنثة.

فعليه إذا قلنا: ﴿وَثَمُودَا﴾ بدون صرف نقول: معطوف على عادًا والمعطوف على المنصوب منصوب، ولم ينون؛ لأنه لا ينصرف والمانع له من الصرف: العلمية والتأنيث باعتباره قبيلة، وعلى ﴿ثمودًا﴾ تكون ثمودًا معطوف على ﴿عادًا﴾ والمعطوف على المنصوب منصوب ونون لأنه مذكر باعتباره حي.

وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ مفعولان لفعل محذوف والتقدير كما قال المؤلف: [أهلكنا].

أهلكنا عادًا وثمودًا، وعاد محلهم في الأحقاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١] وثمود قوم صالح في الحجر وديار ثمود معروفة.

قال المؤلف: [﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ إهلاكهم ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحجر واليمن].

قوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ ظهر لكم، والخطاب لقريش؛ لأنهم تبين لهم ويعرفونه.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ٣٢٠).

وقوله: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾، ﴿مِّن﴾ على تقدير المؤلف: تكون سببية، أي: تبين لكم من إهلاكنا إياهم بسبب رؤيتكم مساكنهم.

أفلا يجوز أن نجعل ﴿مِّن﴾ للتبعيض ويكون المعنى: تبين لكم من مساكنهم، أي: بعض مساكنهم؟

ممكن، لكني ما رأيت أحدًا أعربها بهذا الإعراب، أي: ممكن أن نجعل ﴿مِّن﴾ تبعيضية أي: تبين لكم بعض، والبعض قد زال فإن المشاهد الآن بعض المساكن والآثار.

أما على تقدير المؤلف فيقول: إن فاعل تبين محذوف والتقدير: ﴿تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ فاعل تبين محذوف والتقدير: إهلاكهم فسيَّان أن نقول: الفاعل محذوف وأن نقول الفاعل مستتر.

فمن قال يحذف قال لا يكون إلا في مكان لا يمكن أن يقدر فيه كالمصدر مثلًا كما قالوا في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٤ـ١٥].

قالوا: إن الفاعل هنا محذوف؛ لأنه ما يمكن استتاره بمصدر، أما إذا كان ممكن استتاره فإنه يقال: مستتر، يقال: مستتر، والمحذوف قد يكون عمدة وقد يكون فضلة، لكن الحقيقة أن المؤلف كلامه يوهم بأنه محذوف، فلو قال المؤلف: وقد تبين أي: إهلاكهم وجعلها مفسرة لمحذوف لكان أولى.

وقوله: [﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحجر واليمن]، هذا بالحجر واليمن ترتيب مشوش؛ لأن بالحجر يعود على ثمود وهو متأخر في القرآن واليمن يعود على عاد، ومثل هذا لا ينبغي، يعني: لا ينبغي للمفسر أو الشارح لكلام أحد، أن يشرح هو على هذا الترتيب؛ لأن الجاهل الذي لا يدري، نحن إذا كنا لا ندري عن مكانهم لقلنا: إن الحجر للأولى لِعَادٍ، وقلنا إن اليمن لِثَمُودِ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هذه على تقدير قد، يعني: وقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الكفر والمعاصي، ﴿وَزَيَّنَ﴾ بمعنى حسَّن وجمَّل، فحسَّن لهم ـ والعياذ بالله ـ الأعمال من الشرك والمعاصي، وقال: إن الشرك حسن؛ لأنكم تعبدون هذه الأصنام لتقربكم إلى الخالق: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

ثم إنكم ترجونها وتدعونها فيحصل لكم المقصود؛ لأن الله تعالى قد يبتلي العابدين فيحصل لهم مقصودهم عند هذا الشيء لا به، يعني: قد يدعو الصنم، وقد يدعو النبي ﷺ، وقد يدعو ملكًا من الملائكة فيقدر الله ابتلاءً وامتحانًا أن يكون هذا السبب عند دعائه لهم، ونحن مؤمنون بأنه ما حصل به لكنه حصل عنده امتحانًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يبتلي الإنسان بالامتحان بالمعصية فتُسهل له وتُزين له، وقد مر علينا أن الله امتحن اليهود بالحيتان، تأتي يوم السبت ولا تأتي في غيره، وابتلى الله الصحابة ﵃ بالصيد تناله أيديهم ورماحهم وهم مُحْرِمون، وهكذا أيضًا، قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي**

أَخَافُ اللهَ »، فهما ليس عندهما أحد؛ لأنه لو كان عندهم لقال: أخاف من الناس، لكن قال: أخاف الله، فالإنسان قد يبتلى بالمعصية امتحانًا، كذلك أيضًا يقول الشيطان لهم: هؤلاء الأصنام إذا عبدتموها تقربكم إلى الله وتكون وسيلة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

أما المعاصي فكذلك أيضًا يزينها الشيطان للإنسان ويسهلها عليه ويقول: أنت اعمل والرب غفور رحيم، واعمل وتب والدنيا أمامك ما دمت لم يتم لك أربعون سنة فإنه لا تجب عليك الصلوات ولا الصيام، وإذا بلغت أربعين سنة وبلغت أشدك حينئذ تجب عليك الصلاة، والصيام، وهذا موجود الآن عند بعض المسلمين الجهال.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وما هو وزن الشيطان؟

بعضهم يقول: هو من شطن على وزن فعلان، وبعضهم يقول: من شاط.

إذا جعلتها من شطن فهي على وزن فيعال، أما إذا كان أصلها شاط فهي على وزن فعلان بالنون.

على كل حال: إن الذي يظهر أن الشيطان من شطن إذا بعُد.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هنا أضاف التزيين إلى الشيطان، وفي آية أخرى أضاف التزيين ـ سبحانه وتعالى ـ إليه نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فكيف نجمع بين الآيتين أن يضيف الله سبحانه وتعالى التزيين مرة إليه ومرة إلى الشيطان؟

الجواب: هذا باعتبار السبب وباعتبار الفاعل الحقيقي، فالفاعل الحقيقي هو الله والسبب هو الشيطان، فهو يضاف إلى الله تعالى خلقًا وتقديرًا ويضاف إلى الشيطان مباشرة.

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم، وهذا من استعمال صدَّ متعديًا؛ لأن (صد) يكون لازمًا ومتعديًا، فإذا قلت: صد الرجل عن سبيل الله فضلَّ هذه لازمة.

ومثل هذه الآية: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ صرفهم هذه متعدية.

قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١] ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ المصدر العام على وزن فعول.

قال ابن مالك:

وَفَعَلَ اللَّازِمُ مِثْلَ قَعَدَا　　　لَهُ فُعُولٌ بِاطِّرَادٍ كَغَدَا[1]

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ١٢٣).

لكن صد المتعدي مصدره صدًّا، لقول ابن مالك:

فَعْـلٌ قِيَـاسُ مَـصْدَرُ المُعَـدَّى ... مِـنْ ذِي ثَلَاثَـةٍ كَـرَدَّ رَدَّا (١)

على كل حال: (صد) تأتي لازمة ومتعدية ماذا عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١] هل هذا من اللازم ولا من المتعدي؟

هي متعدية؛ لأن الذين كفروا هذا صدهم، اللازم يدل عليه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، صدوا عن سبيل الله أي: غيرهم، هذا هو الأقرب.

يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (أل) في قوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهد الذهني المعلوم وهو سبيل الحق ولهذا قال المؤلف: [سبيل الحق]، وسُمِّيَ سبيل الله؛ لأنه يوصل إليه ولأنه هو الذي وضعه لعباده كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

وقد يضاف إلى المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١١٥].

قال: [﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ذوي بصائر].

يعني: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعطاهم من العقول والبصائر ما يمكنهم الاهتداء به وقد ذكر الله ذلك في قوم صالح صريحًا فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، فهم عندهم بصائر، وعندهم علم لكنهم كانوا مستكبرين ـ والعياذ بالله ـ فهم صدوا عن السبيل مع أن الله أعطاهم ما يتمكنون به من مدافعة الشيطان ولكن غُلبوا على أمرهم بما زين لهم الشيطان.

إذن فهم مستبصرين بمعنى أن عندهم بصيرة وعندهم عقول يدركون بها لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها، يعني بمعنى أنهم اهتدوا بها، ما انتفعوا بها، فهم عندهم بصائر، ومعرفة لكنهم ما انتفعوا بها، فيكون عندهم بصيرة، لكن ما عندهم اهتداء بهذه البصيرة، فيكون بمعنى أنهم عندهم علم وبصر يدركون به الأشياء ولكن ما انتفعوا بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

قال المؤلف:[﴿و﴾ أهلكنا (قارون وفرعون وهامان)]، وهذا التقدير باعتبار السياق، يعني: أن السياق يدل على أن هناك شيئًا مضمرًا هو [أهلكنا].

قارون رجل تاجر من بني إسرائيل ولكنه كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿فبغى عليهم﴾، وقد

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ١٢٣).

أعطاه الله - عز وجل - مالًا عظيمًا حتى إن مفاتحه تثقل بالجماعة من الناس هذه المفاتح - مفاتح الخزائن -، ولهذا ما آمن بموسى، اغتر بماله - والعياذ بالله - فلم يؤمن بربه.

وفرعون معروف هو ملك مصر الذي ادعى أنه الرب، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وهامان وزيره، وإنما قدم قارون لعلو نسبه لأنه من بني إسرائيل وهم أشرف من الأقباط، وقدم فرعون على هامان؛ لعلو مرتبته عليه.

وقوله: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ لو قال قائل: أليس هذا الترتيب من باب ترتيب البداءة بالأدنى؟

الجواب: لا، لو كان من باب الأدنى لقال: (قارون وهامان وفرعون).

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾، كل هذه الأسماء: قارون وفرعون وهامان: لا تنصرف، والمانع من الصرف: العلمية والعجمة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ قال المؤلف: [بالحجج الظاهرات] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ هذه الجملة كثير ما تمر علينا مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، وقد.

وقوله: ﴿مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: الباء هنا للمصاحبة يعني أتاهم إتيانًا مصحوبًا بالبينات؛ لأن الله تعالى لا يرسل رسولًا إلا أعطاه من البينات ما يؤمن على مثله البشر لأنها الحكمة والرحمة تقتضي هكذا، إذ ليس من المعلوم وليس من الحكمة أن يرسل رجل من الناس إلى الناس ويقول: إني رسول الله بدون بينة، فلا بد من بينة آية واضحة تدل على أنه رسول، ولهذا قال: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، قال المؤلف: [الحجج الظاهرات]، منها مثلًا: العصا، ومنها اليد، وكذلك السنين التي أُخذوا بها، ولكن مع هذا ما انتفعوا - نسأل الله العافية -

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استكبروا بمعنى: تكبروا وعلوا وارتفعوا على الحق ولم يقبلوه، ومعلوم ما جرى لموسى مع فرعون من المناظرة والتهديد حتى وصل به الحال أن قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [فائتين عذابنا]، يعني: ما كانوا سابقين لنا، لم يسبقونا، والسبق بمعنى الفوات، فأنت إذا سابقت إنسانًا فسبقك أو فاتك عجزت عنه، هؤلاء مع استكبارهم وعظمتهم وعتوهم ما سبقوا الله - عز وجل - أبدًا، أما قارون فخسف الله به وبداره الأرض وبقي فيها إلى يوم القيامة وما نفعه لا بيته الذي احتمى به ولا ماله الذي كَنزه، وأما فرعون وهامان فأغرقهما الله - عز وجل - بما كان فرعون يفتخر به حيث قال لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]. فأخرجه الله من مصر وأهلكه بمثل ما افتخر

به، فقد افتخر بالأنهار فأهلك بالماء، فما فاته الله ـ عز وجل ـ، مع أن فرعون حين إهلاكه كان يظن أنه منتصر؛ لأنه أرسل في المدائن حاشرين، فجمعوا الناس واتبعوا موسى وقومه على أنهم أمرهم يسير في القضاء عليهم؛ لأنهم قالوا: ما لهم إلا البحر إما يسقطوا في البحر وإما أن نأخذهم أخذًا لا هوادة فيه فكان الأمر ـ والحمد لله ـ بالعكس أهلك الله فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

١ ـ في هذه الآية من فوائد منها: أنه ينبغي الاعتبار بأخبار من مضى، هذه تؤخذ من قوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني: فاعتبروا واتعظوا.

٢ ـ ومنها: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن عادًا من أقوى عباد الله؛ حتى إنهم قالوا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥] ومع ذلك أهلكهم الله بألطف الأشياء. وهي الريح، التي هي من ألطف الأشياء أهلكهم الله بها، فدل هذا على كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه مهما بلغ الناس من قوة فليست قوتهم بشيء بالنسبة لقوة الله.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن الشيطان قد يُسلَّط على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: التحذير من تزيين الأعمال وأظننا نفهم أن قوله: (زين أعمالهم) تدل أن هذه الأعمال أصلها قبيح لكنها زينت فيجب الحذر من تزيين الشيطان.

إذا قال قائل: ما هو الضابط لتزيين الشيطان، قد أهوى هذا العمل فيزين في نفسي فأفعله فلا أدري هل هو من تزيين الشيطان أو من تزيين الله ـ عز وجل ـ فما هو الضابط؟

الضابط: إذا كان هذا العمل خلاف شريعة الله فهو من تزيين الشيطان، وإن كان موافقًا لشريعة الله فهو من هداية الله، وليس من تزيين الشيطان.

٥ـ ومنها: إثبات الشياطين وتأثيرها على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٦ ـ ومنها: الرد على الجبرية في نسبة الأعمال إليهم، فإذا نسب إليهم فمعنى ذلك أنهم فاعلون حقيقة.

٧ ـ ومن فوائد الآية أيضًا: أن الأعمال السيئة قد تكون سببًا لضلال العبد لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ﴾، ولا ريب أن الأعمال السيئة سبب لضلال العبد قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، فالأعمال السيئة يجر بعضها بعضًا حتى يعمى الإنسان

ويبعد عن الحق بسبب معصيته.

٨ - **ومن فوائد الآية:** بشاعة الصد عن السبيل مع البصيرة وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، فإن الجملة هنا حالية على تقدير «قد» يعني: فصدهم وقد كانوا مستبصرين، والمستبصر كان بصدد ألا يصد، لكن - والعياذ بالله - قوة السبب وضعف المانع هو الذي أوجب لهم أن يصدوا عن سبيل الله.

٩ - **ومن فوائد الآية:** اعتبار دلالة الألفاظ بما يفهمه المخاطب، أعني: أن (أل) في قوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهد الذهني، ففيه دليل على أن المخاطَب قد يحال على ما يفهمه في ذهنه من دلالة الخطاب وهو كذلك.

فلو قال قائل: هذه الآية فيها إبهام عن السبيل ما ندري ما هو السبيل؟

قلنا: لا إبهام فيها ما دام هناك شيء معهود للمخاطب فإنه ليس فيها إبهام.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

١ - **من فوائد هذه الآية:** ذم هؤلاء الثلاثة أشخاص: قارون وفرعون وهامان.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن سبب الطغيان قد يكون المال وقد يكون الجاه والرئاسة، ففي قارون سبب طغيانه المال، وفي فرعون وهامان الجاه والرئاسة، وهذان السببان هما سببا استكبار الإنسان عن طاعة الله - سبحانه وتعالى -.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات رسالة موسى ﷺ، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن موسى رسول إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، وفرعون ليس من بني إسرائيل بل هو من الأقباط.

أترى كيف نجمع بين هذا وبين قول رسول الله ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»(١)، وقوم موسى هم بنو إسرائيل، وموسى أرسل إلى فرعون وإلى بني إسرائيل؟

أنا عندي والله أعلم أن الجواب من أحد وجهين:

الوجه الأول: أن قوله ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة**» ليس أول عموم يخصص، ممكن أن نقول: هذا باعتبار الأكثر والأعم، ونقول: إن موسى دل الدليل على أنه بعث إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، وهذا الجواب ليس فيه تكلف.

والوجه الثاني: يمكن أن نقول: إن الرسالة إلى فرعون؛ لأنه لا يمكن لبني إسرائيل أن يستقلوا

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وأن يقوموا بواجب الرسالة واتباع موسى إلا إذا اهتدى فرعون ولذلك ما كان لهم دور أو سلطة إلا بعد أن أهلك الله فرعون فيكون هذا قصد فرعون أولًا؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى بني إسرائيل واستقلال الدعوة فيهم إلا بعد أن يسلم هذا الرجل أو يهلك كما هو الواقع فتكون رسالته هنا من باب الوسائل إلى المقصود، ويكون موسى - عليه الصلاة والسلام - أُرسل إلى بني إسرائيل لكن لا يمكن تحقيق الرسالة في بني إسرائيل حتى يهتدي هذا الرجل أو يقضي الله عليه وهذا هو الذي حصل أن قضى الله عليه بعدما حصل من الآيات والبينات إلى آخره.

وإذا قلنا: إن المراد بالقوم من بُعث فيهم صار لما بعث النبي إلى جميع الناس صاروا قومه فيدل دلالة آخر الحديث ومر علينا في قصة شعيب أنه أيضًا أرسل إلى أصحاب الأيكة وليسوا من قومه بدليل أنه ما قال: أخاهم.

والأرجح أن نقول: إن هذا العموم قد خُصص ولغى الأدلة على أن بعض الرسل أرسل إلى قومه وإلى غيرهم، لكن ما فيه أي رسول أرسل إلى الناس عامة إلَّا محمد ﷺ.

٥ - **ومن فوائد الآية:** قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أن الرسل يؤيدون بالآيات البينة؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ**[١] **إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ**[٢]»[٣].

٦ - **من فوائدها أيضًا:** إثبات الرحمة والحكمة في آيات الأنبياء؛ لأن الآيات التي مع الرسل رحمة بالخلق وحكمة رحمة؛ لأجل أن تكون سببًا لاهتدائهم وحكمة لإقامة الحجة عليهم حتى لا يقول قائل: إن هذا الرسول ما أتانا بآية فهو كاذب، فإذن إثبات الآيات للأنبياء فيها متضمنة للرحمة والحكمة.

٧ - **ومن فوائد الآية:** بشاعة كفر هؤلاء الثلاثة: (قارون وفرعون وهامان) وذلك بالاستكبار عن الحق والإعراض عنه، ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى -؛ حيث لا يفوته أحد من خلقه؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ مع عظمتهم وكبريائهم وأموالهم ما يسبقون الله، وهذا تحقيق

---

(١) هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة. (من الآيات) أي المعجزات الخوارق .

(٢) المعنى أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، وعليه بمعنى اللام أو الباء الموحدة، والنكتة في التعبير بها تضمنها معنى الغلبة، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه .

(٣) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله ﷺ في أذكار الصلاة: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد(١)»(٢)، فإن الإنسان مهما عظم وكثر ما ينفعه عظمته وكثرته.



قال الله تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]

التفسير

قال المؤلف: [﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾].

قوله: ﴿فَكُلًّا﴾ قال المؤلف: [من المذكورين]، ومعروف المقدَّر فكل أحد، ولكن المؤلف منعه من تقدير أحد أن (كلًّا) منونة وهو لا يحب أن يغير لفظ القرآن؛ ولهذا قال: [من المذكورين]، والتنوين في (كلًّا) هنا يقول النحويون: إنه تنوين عوض من كلمة أحد، فكل واحد أو فكل أحد، والتنوين يكون عوضًا عن كلمة مثل (كلًّا) هنا، وقد يكون عوضًا عن حرف كما في جوارٍ وغواشٍ وحينئذٍ ويومئذ وما أشبهها.

قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ أي: فكلًّا من هؤلاء أخذه الله ـ عز وجل ـ بذنبه، والباء في قوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ تكون سببية ومعاوضة ومقابلة يعني: أنهم بسبب ذنوبهم أُخذوا وعلى قدر ذنوبهم أخذوا أيضًا، والباء هنا سببية وعوضية، أي: أنهم أُخذوا بسبب الذنب، ولكن ما تجاوز الله بهم أكثر مما يستحقون بل بالسبب والقدر.

وقوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ في القرآن الكريم جاءت أيضًا بذنوبهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام:٦] والجمع بين الجمع والإفراد يصير أن يقال: إن الإفراد هنا أن يضاف فيعم أي: بذنوبهم، والذنوب هي المعاصي سواءً كانت كبيرة أو صغيرة وهي هنا بلا شك من أكبر الكبائر.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ هذا التفصيل يعني قوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ مجمل فصل بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أرسلنا عليه ولم يقل: إليه؛ لأنه هنا إرسال عذاب فهو عالٍ عليه وليس إرسال خطاب حتى نقول: إن غاية هذا الخطاب أن يرسل إليهم فهو إرسال عذاب ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

---

(١) لا ينفع صاحب الغنى غناه عندك وإنما ينفعه عمله الصالح.

(٢) رواه البخاري (٨٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه.

حَاصِبًا﴾ قال المؤلف: [ريحًا عاصفة فيها حصباء كقوم لوط].

والمفهوم من قوم لوط أن الذي أرسل عليهم ﴿حَاصِبًا﴾ من السماء وهي حجارة من سجيل مثل الذي أرسل على أصحاب الفيل، وليست هي من الحصباء التي تديرها الرياح ولا علمنا أن الله ـ تعالى ـ أرسل الرياح على قوم لوط ولو كانت رياحًا تحمل الحصباء لبين الله ـ عز وجل ـ ولو قال أرسلنا عليهم حاصبًا كقوم لوط لصح فإن الله ـ تعالى ـ أرسل عليهم حاصبًا من السماء تحصبهم حجارة من سجيل.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ مثل قوم صالح وشعيب وأصحاب مدين.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ مثل: قارون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه هؤلاء أهلكوا بالغرق، أما فرعون وقومه فغرقوا بالبحر الأحمر، وأما قوم نوح فبالطوفان العظيم الذي أمر الله ـ عز وجل ـ السماء ففتّح أبوابها بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، انظر إلى التعبير ـ سبحان الله ـ، ما قال: فجرنا عيون الأرض، لو كان التعبير: فجرنا عيون الأرض لكان فيه شيء كثير من اليابس ما تفجر، وإنما تفجرت العيون فلو كان التعبير: فجرنا عيون الأرض؛ لكن: ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ [القمر:١٢] كأن الأرض كلها صارت عيونًا حتى إن التنور الذي هو محل إيقاد النار وأبعد ما يكون عن ظهور الماء فيه صار يفور عيونًا ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢] حتى علا قمم الجبال واستوت السفينة على الجودي، والجودي وهذا جبل رفيع جدًا على أن الماء حملها حملًا إلى أن رست على هذا الجبل مما يدل على كثرة هذه المياه ـ الله أكبر ـ الإنسان لو تصور أن المطر يرتفع أربعة أمتار لتهول من ذلك، لكن هذا الذي بقدرة الله ـ عز وجل ـ علا إلى مئات الأمتار والله على كل شيء قدير.

قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [فيعذبهم بغير ذنب] والله ما كان، هذه اللام هنا يسمونها لام الجحود؛ لأن لام الجحود هي المسبوقة بكون منفي، ولأصحاب الآجرومية: ما سبقها ما كان أو لم يكن، وهنا الذي سبقها ما كان ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ .

ولما نفى أن يكون الله ظلمهم بيَّن من أين وقع هذا الظلم، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: خبر كان، والواو اسمها.

وقيل: الجملة الفعلية خبر كان، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول يظلمون فتكون: (كانوا يظلمون أنفسهم).

نقول: اسم كان الواو: ﴿كَانُوٓا۟﴾، إذنْ: لو كانت ـ أي أنفسهم ـ تأكيدًا لكانت مرفوعة وهي هنا منصوبة.

وقيل: إن ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ منصوبة من باب الاشتغال، فبذلك تكون مفعولًا مقدمًا ليظلمون،

ولكن الاشتغال ليس بصحيح يقول ابن مالك:

إِنْ مُضْمَرَ اسْمٍ سابقٍ فِعْلًا شَغَل عَنْهُ بِنَصْبِ لِفِعْلِهِ أَوِ المَحَل[1]

فالاشتغال لابد وأن يكون ضمير في الفعل المشغول، ولهذا سميناه اشتغالًا، أما هنا فأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون، وتقديمها له فائدتان: فائدة لفظية وفائدة معنوية.

الفائدة اللفظية: مراعاة الفواصل، يعني: أواخر الآيات هذه فائدة لفظية؛ فلو قال: لكن كانوا يظلمون أنفسهم، ما تناسبت مع ما قبلها وبعدها.

الثانية الفائدة المعنوية: الحصر والاختصاص يعني: ما ظلموا إلا أنفسهم، فهم في الحقيقة الذين ظلموا ولكن كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، أما نحن فما ظلمناهم.

أما فوائد قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

١ - من فوائد هذه الآية: تمام قدرة الله في إرسال هذه العقوبات: لأن كلها عقوبات تدل على القدرة.

٢ - ومنها: إبطال قول هؤلاء الملحدين حينما تأتي مثل هذه الآيات في الوقت الحاضر يقولون: هذه من الكوارث الطبيعية، تأتي الزلازل التي هي الرجفة ويقولون: هذه مسألة طبيعية، وتأتي الفيضانات العظيمة التي تدمر ويقولون: هذه كوارث طبيعية، ما يعتبرون بها ويرون أنها نوع من العقوبات التي جرت على الأمم السابقة، وكذلك الرياح الشديدة وهذا من موت القلوب - والعياذ بالله - أن الإنسان يعرض عن التأمل والتدبر في هذه الآيات ويضيفها إلى أمور طبيعية وكأنها - على زعمهم - أن الطبيعة هي تخلق وتفعل من دون الله.

٣ - ومن فوائد الآية: إثبات حكمة الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ سواء قلنا: إن الباء للسببية أو للمقابلة.

٤ - ومنها: إثبات الأسباب في كل ما جاء في القرآن من لام للتعليل أو باءٍ للسببية فإنها تدل على إثبات الأسباب والحكم.

٥ - ومنها: الرد على الجبرية الذين ينكرون الأسباب ومن وافقهم من الأشعرية؛ فإننا نحن - أهل السنة والجماعة - نؤمن بالأسباب لكننا لا نقول: إن هذه الأسباب مؤثرة بنفسها ولكن بخلق الله - سبحانه وتعالى - التأثير فيها.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ١٢٩).

٦ - **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ واعلموا أن الجزاء من جنس العمل في الجزاءات الشرعية وفي الجزاءات الكونية.

فالجزاءات الشرعية مثل: الحدود، وهي العقوبات المقدرة من قبل الشرع فكلها في الواقع عقوبات فقطع اليد بالسرقة لا شك أنه موافق للحكمة؛ لأن اليد بها يأخذ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف في قطاع الطريق موافق للحكمة؛ لأن قطَّاع الطريق يعتدون على الناس بأيديهم وأرجلهم، ورجم الزاني بالحجارة دون قتله بالسيف موافق للحكمة أيضًا، وهكذا كل العقوبات الشرعية والكونية فإنها موافقة للحكمة ويدل على هذا قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ و ﴿الصَّيْحَةُ﴾ و ﴿خَسَفْنَا﴾ و﴿أَغْرَقْنَا﴾ هذه الأنواع الأربعة من العقوبات ذكرها له حكمة؛ لأن قوله: ﴿مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاك جاء من فوق، و﴿مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ من تحت، ﴿مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاك بالقول والصوت، وقوله: ﴿أَغْرَقْنَا﴾: إهلاك بالماء من أجل أن يتبين للناس أن العقوبات لا تأتي من نوع واحد؛ بل تأتي من أنواع متعددة بحسب حال المعاقب.

٨ - **ومنها:** بيان كمال عدل الله، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذه الصفة من الصفات السلبية، وقد مر علينا عدة مرات أن الصفات السلبية لا تكون مدحًا إلا إذا تضمنت ثبوتًا فمجرد النفي ما فيه مدح حتى يتضمن ثبوتًا.

إذن نفي الله الظلم عن نفسه ليس معناه أنه لا يظلم فقط بل لكمال عدله لا يظلم، وليس معناه أنه غير قادر على الظلم، بل هو قادر - سبحانه وتعالى - على أن يظلم لكنه لكمال عدله لا يظلم ولو كان غير قادر على الظلم لم يكن نفي الظلم عنه مدحًا.

ولهذا قالوا في قول الشاعر(١):

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

نفي الظلم عن هؤلاء الجماعة هو فيه ذم، يعني: لأنهم لعجزهم لا يظلمون.

وكذلك قول الشاعر(٢):

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

---

(١) ينسب هذا البيت إلى النجاشي الحارثي، قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وهدده عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع لسانه وضربه عليٌّ رضي الله عنه على السكر في رمضان. قال البكري: النجاشي من أشراف العرب إلا أنه كان فاسقاً وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

(٢) ينسب هذا البيت إلى قريط بن أنيف العنبري.

يعني: ما هم من الشر في شيء ولا يفعلون الشر ولا فيهم شر أبدًا بل أبلغ من هذا أنهم:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

إذا ظلمهم أحد قابلوه بالمغفرة والسماح وكذلك أيضًا إذا أساء إليهم أحسنوا، هذا ظاهره أنه مدح لكنه في الحقيقة ذم؛ لأنه يحتقرهم ويقول: إنهم ما يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم أو ينتصروا لأنفسهم ولكن إذا أسيء إليهم قابلوه بالإحسان خوفًا من إساءة أعظم وإذا ظلموا غفروا، ولهذا قال نفس الشاعر:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

تمنى أن الله يعطيه بدلهم.

المهم: أنه بمجرد النفي لا يدل على الكمال حتى يتضمن مدحًا حتى يتضمن ثبوتًا.

٩ - ومن فوائد الآية: أن الإنسان هو الظالم لنفسه بفعل المعاصي؛ لقوله: ﴿وَلَكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذن فأنت حرام عليك فعل المعاصي؛ لأنه ظلم لنفسك وأما الله تعالى فلا يظلم.

إذن عندنا نفي الصفات من حيث العموم قد يتضمن الكمال وقد يتضمن النقص وقد يكون لعدم القابلية فالذي لله الكمال، قد يكون للكمال مثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] وقد يكون نفي النقص؛ لعدم القابلية مثل أن تقول: إن هذا الجدار لا يتعب، هذا الجدار ما يتعب وهذا الجدار ما يظلم؛ لعدم القابلية فهل هذا مدح له؟ لا؛ لأنه أصلًا ما يقبل هذا الوصف حتى يُنفى عنه، وقد يكون النفي للعجز، مثل:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

ولا يكون لله من هذه الأقسام الثلاثة إلا القسم الأول وهو ما تضمن كمالًا ومدحًا، ولهذا يقول أهل العلم: إن الله تعالى إذا نفى عن نفسه صفة فإن المراد بها أمران: نفي تلك الصفة، والثاني إثبات كمال ضدها.

فائدة: قول الجبرية: إن الظلم أن يتصرف الإنسان في ملك غيره والله تعالى إذا تصرف في ملكه فليس بظالم فيجوز - على زعمهم - أن يعاقب الله المطيع الذي أمضى ليله ونهاره في طاعة الله فيعاقبه عقوبة الكافر، وعندهم أن هذا ليس بظلم؛ لأن الله ما يتصرف إلا في ملكه.

وعلى هذا قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ:

جَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الْوَرَى مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ وَلَا جُرْمٍ جَرَى

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ[١]

---

(١) العقيدة السفارينية (ص٦٢).

فصفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية: الثبوتية ما أثبته الله لنفسه ولا تكون إلا صفة كمال، والسلبية: ما نفاه الله عن نفسه ولا تكون إلا صفة نقص وهي تدور على شيئين: أحدهما النقص، والثاني: مشابهة المخلوقين. ولو قلنا: إن مشابهة المخلوقين نقص وحصرنا هذين الشيئين في شيء واحد لم يكن ذلك بعيدًا؛ لأن مشابهة الناقص تعتبر نقصًا.

١٠ ـ ويستفاد من الآية: في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أن العاصي ظالم لنفسه، وذلك أن النفس عندك أمانة فكما أنك ممنوع من نقصها نقصًا حسيًّا فأنت ممنوع من نقصها نقصًا معنويًّا بمعنى: أن الإنسان لو أراد أن يقطع يده أو أصابعه أو يسيء إلى بدنه كان ذلك محرمًا، ولهذا: «**من قتل نفسه بشيء عذب به في جهنم خالدًا مخلدًا**»[(١)] فجعل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاتل النفس كقاتل الغير في التخليد في النار والتعذيب بما قتل به.

وعلى هذا نقول: كل من عصى الله فإنه ظالم لنفسه ومن هنا نعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وأن العدول عن ملة إبراهيم سفه؛ لأنه ظلم للنفس من حيث لا يشعر الإنسان.



قال الله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١]

التفسير

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ مَثَل، ومِثْل، كشَبَه، وشِبْه وزنًا ومعنًى، والمثل بمعني الشبه وهو عبارة عن تشبيه شيء معقول بشيء محسوس؛ لأن ذلك يزيدها وضوحًا وبيانًا وتصورًا، وإن كانت لا تتساوى من كل وجه لكنها من هذا الوجه الذي شبهت به تتساوى.

وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: جعلوا أولياء، والمراد بالأولياء: الأصنام وسموا أولياء لأن عابديها يرجون نفعها كالولي الذي ينفعك في النصرة والدفاع وجلب الخير وما أشبه ذلك.

ولهذا قال قوم إبراهيم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨].

---

(١) رواه مسلم (١٠٩)، والترمذي (٢٠٤٣)، والنسائي (١٩٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهم ينصرونها ويرجون النصر منها ولهذا سميت هذه الأصنام بأولياء.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره والدليل أن المراد من غير: أن ذلك جاء في آيات متعددة كقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] والتعبير بالدون لدنو مرتبته بالنسبة إلى الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مثلهم، والمراد بالذين اتخذوا من دون الله أولياء؟ المشركون، مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي: كشبه العنكبوت، فالعنكبوت معروفة تتخذ لها بيتًا من العشب وهذا البيت من العشب هي التي تنسجه يخرج منها والله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير، وهذه العنكبوت إذا سقطت من أعلى فورًا تفرز هذا العشب فتتعلق به حتى لا تقع على الأرض ثم بعد ذلك تفرزه وتتعلق به وتجده متدليًا هذا الخيط وإذا شاءت أن تصعد به صعدت تنقلب وتجعل رأسها لأعلى وتصعد مع هذا الخيط الذي أفرزته هي في الحال، ثم هي أيضًا عند صيدتها وأكثر ما تصيد الذباب، ماذا تصنع به؟ تقيده بهذه الخيوط حتى تقضي عليه، وهذا بعض من قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] فهدى هذا الخلق لما فيه مصالحهم.

الشاهد أن هذه العنكبوت اتخذت بيتًا أي: جعلت لها بيتًا من العشب الذي تنسجه، قال المؤلف: [﴿اتخذت بيتًا﴾ لنفسها تأوي إليه]، وهذا شاهد.

وقال: [﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾] هذا كلام الله ـ عزوجل ـ وهو العالم بما لم نحط به علمًا، فما أكثر مخلوقات الله ـ تعالى ـ التي لها بيت ونحن لا نعلم عن هذه البيوت إلا ما نشاهده منها، وما أكثر الغائب عنا، والله ـ عز وجل ـ يقول: أوهن البيوت بيت العنكبوت، وأكد هذه الجملة ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ بـ (إن واللام) من أجل تأكيد ضعف هؤلاء الأولياء كما أن هذه البيوت التي تأوي إليها العناكب ضعيفة فهي أوهن البيوت وأضعفها فإن هؤلاء الأولياء أيضًا أضعف ما يكون من الأولياء فإنها لا تنفع عابديها بل إن الله يقول في القرآن: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ لو كان هؤلاء آلهة﴾ حقًا ﴿مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] أي: الآلهة أو المتألهين لها؟ تشمل هذا وهذا، فهم لو كانوا آلهة حقًّا لمنعوا أنفسهم من دخول النار ولمنعوا عابديهم من دخول النار ولكنها آلهة باطلة ما تنفع فهذا وجه المشابهة في قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ هذا التشبيه تشبيه يسميه البيانيون يسمونه التشبيه التمثيلي: يعني أنه مكون من جملة فأنت إذا قلت: فلان كالبحر في الكرم، هذا تشبيه لكنه تشبيه إفرادي حيث شبهت فردًا بفرد، إنما لو أتيت بشيء كأن تشبه قصة بقصة أخرى أو قضية بقضية فإن التشبيه هنا تمثيلي مركب من عدة أوجه، من مشبه ومشبه به متعدد وأوجه شبه متعددة أيضًا، هذا التشبيه نسميه

تشبيهًا تمثيليًّا؛ لأنه مركب من قصة متكاملة، يعني: ما قصد أن يشبه العابدون بالعنكبوت وحدها، والمعبدون بالبيوت وحدها، بل قصد أن تشبه القضية كاملة بالقضية كاملة حتى تتضح الصورة أمام المخاطب.

وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال المؤلف في بيان هذا الوهن: [لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا] نعم لا يرفع الحر ولا البرد ولا يقيها أيضًا من الآفات كأن يسقط عليها شيء أو نحو ذلك. فهذا البيت أوهن البيوت؛ إذن يكون هذه الأصنام لا تنفع عابديها.

فعلى هذا نقول: إن هؤلاء الذين عبدوا هذه الأصنام ما لجأوا إلى ملجأ نافع بل إلى ملجأ ليس بنافع ولا مانع، ولا دافع؛ ولهذا شبه الله ذلك ببيت العنكبوت، وفي آية أخرى شبه هذه الأصنام ودعاءها برجل باسطٍ كفيه إلى الماء ليبلغ فاه هل يبلغه؟ إنسان أمامه الماء وهو عطشان فبسط كفيه إلى الماء يريد أن يصل إلى الفم يمكن أن يصل؟ لا يمكن أن يصل أبدًا، وهذه أيضًا الأصنام لا تنفع عابديها كما لا يصل هذا الماء إلى فم هذا العطشان.

قال الله ـ عز وجل ـ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما عبدوها]، ﴿لَوْ﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿كَانُوا۟﴾ وجوابه مقدر على كلام المؤلف [ما عبدوها]، ولا ينبغي أن تُوصَل هذه الجملة بالتي قبلها؛ لأنك لو وصلتها بما قبلها لكان وهن بيت العنكبوت مشروطًا بعلمهم مع أنه أوهن البيوت سواءً علموا أم لم يعلموا، ولهذا ينبغي أن نقف على قوله: ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ ثم نقول: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فلو كانوا يعلمون، كما قال المؤلف:[ما عبدوها].

ويحتمل أن يكون الجواب: لو كانوا يعلمون أي لو كانوا من ذوي العلم النافع ما خفي عليهم هذا الأمر فإذا لم يخف عليهم هذا الأمر ما قاموا بهذه العبادة.

وعلى كل حال: فإن هذا يدل على جهل هؤلاء العابدين مهما بلغوا من الذكاء ومن حسن التصرف في الدنيا فإنهم ـ من هذه الناحية ـ سفهاء، ليس عندهم علم ولا عقل، هذه الآية تذكرنا بآية يغلط فيها كثير من الناس أيضًا في سورة التكاثر: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥] بعض الناس يقول: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ وهذا خطأ؛ لأن المعنى يفسد به فسادًا واضحًا؛ لأنك لو وصلت لكان ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ جواب ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ والأمر ليس كذلك، بل ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ جملة مستأنفة مستقلة أخبر الله تعالى بها أننا سنرى الجحيم فيجب الوقوف على قوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** ضرب الأمثال للناس.

٢ ـ **وفي هذه الآية الكريمة:** دليل على سفه المشركين؛ حيث اعتمدوا على ما لا معتمد

عليه بعبادة الأصنام، يؤخذ من قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

٣ـ ومن فوائدها أيضًا: تقبيح هؤلاء المشركين وتنزيل مرتبتهم؛ حيث شبهوا بالعناكب، لأن هذا بلا شك أن تشبيه الإنسان بالحيوان أنه إذلال له وتنزيل له عن مرتبته لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها أبدًا ولا تدفع عنهم فهي لا تأتي بخير ولا تدفع الضرر تؤخذ من حيث تشبيهها ببيت العنكبوت.

٥ ـ ومنها: جواز ضرب المثل بالدُّون حسب ما تقتضيه الحال أخذناه من قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ لأنها من أدنى ما يكون من المخلوقات. وقد قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وقد ضرب لهم مَثَل بالذباب وبالحمار وبالكلب وبالبعوضة وبالعنكبوت. كل هذا حسب ما يقتضيه المقام.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن أوهن البيوت وأضعفها بيت العناكب ومن هنا نأخذ أنه لا ينبغي أن يقال: هذا أوهى من بيت العنكبوت؛ لأنه قال: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، فأنت لا تقول أوهى من بيت العنكبوت لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، لكن إذا كان غير بيت كأن نقول: حصة هذا الرجل أوهى من بيت العنكبوت هذا لا بأس وما فيه تكذيب للقرآن، أما الذي فيه معارضة للقرآن أن تقول عن بيت إنه أوهى من بيت العنكبوت.

٧ ـ هذه الآية فيها: أن الله لم يحكم على هؤلاء المشركين بمشابهتهم للعنكبوت إلا عن علم، وهذه الآية تعليل لما قبلها، يعني: أن الله سبحانه وتعالى ما قال كمثل العنكبوت إلا عن علم وهو يعلم حقيقة هذه الأصنام وأنها لا تنفع ولا فائدة منها.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٢، ٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَا﴾ يقول المؤلف: [بمعنى الذي] فتكون اسمًا موصولًا وهذا الإعراب الذي سلكه المؤلف هو المتبادر من الآية وبعض المعربين يقول: (ما) استفهامية والوقف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَعْلَمُ﴾ ما الذي ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ هل يستفيدون؟

ولكن هذا بعيد فإعراب المؤلف هو الصواب ﴿يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يبقى على إعراب المؤلف أن نقول أين عائد الموصول؟

الجواب: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الهاء في ﴿دُونِهِۦ﴾ تعود على الله لكنها لا تعود على (ما)، إذن العائد محذوف والتقدير: إن الله يعلم ما يدعونه من شيء.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ قال: ﴿يعبدون﴾ فالدعاء هنا دعاء عبادة، وكما يكون الدعاء دعاء عبادة فهو دعاء مسألة.

أما دعاء المسألة ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] مثل أن تقول: يا رب اغفر لي، يا رب ارحمني وما أشبه ذلك، ودعاء العبادة معناه أن تتعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أمرك به وإنما كان ذلك دعاءً؛ لأن حقيقة حال العابد طلب مغفرة الله ورحمته،ودليله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وقوله: [﴿مَا يَدْعُونَ﴾ يعبدون] ينبغي أن نجعل الدعاء هنا شاملًا للعبادة ولدعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، وأيضًا يسألونها، وشبيه بهذا أولئك الذين يشركون بالأنبياء والأولياء؛ لأنهم يدعونهم دعاء مسألة يقولون: يا رسول اغفر لي، يا رسول الله يسر أمري، وما أشبه ذلك.

وقوله: [بالياء والتاء]. كيف بالياء والتاء؟ يعني: ﴿يَدْعُونَ﴾ و﴿تَدْعُونَ﴾، قراءتان سبعيتان، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ [غيره]، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ هذا بيان لـ ﴿مَا﴾ يعني: أي شيء يدعون فإن الله تعالى عالم به، لكن ما هو معنى علمه؟ أنه يعلم حال هذا المدعو المعبود، وهو كالتعليل لقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾.

تؤيد أن هذا المثل مطابق للواقع؛ لأنه صادر عن علم، أي: أن الله يعلم، لأنه لما ذكر أنهم كالعنكبوت بين أن هذا عن علم من الله، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وأن هذا الشيء الذي يدعى لا ينفع.

وقوله: [﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه].

لو قال قائل: إن المناسب أن يقال: وهو السميع العليم؛ لأنه يقول: يعلم، فمقتضى الظاهر أن تختم الآية بالعلم.

قلنا: هذا حق بالنسبة لظاهر الكلام، لكن عند التأمل نجد أن ختامه بالعزة والحكمة أبلغ؛ فإنهم يريدون الاستنصار بهذه الأصنام، والغلبة والظهور وأكبر شاهد لذلك قول أبي سفيان يوم أُحد حيث قال: (أعلُ هبل)، فهذه الأصنام لاعتزازهم بها يقابل بعزة من لا يُغْلَب وهو الله، ولهذا

قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب لهذه الأصنام ولعابدي هذه الأصنام، إذن مناسبة العزيز أبلغ من مناسبة العليم؛ لأن هؤلاء يستنصرون بأصنامهم ويريدونها أن تظهر وأن تغلب، فبين الله أنه هو صاحب العزة وسبق لنا أن العزيز من أسماء الله ـ عز وجل ـ وأنه يتضمن العزة من ثلاثة وجوه:

عزة القدْر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

أما عزة القدر: فمعناه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يشبهه أحد في عظمته وجلاله وقدره.

وأما عزة القهر: فمعناه أنه لا أحد يشبه الله ـ عز وجل ـ في قهره وسلطانه ومُلكه.

وأما عزة الامتناع: فمعناها أنه ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن كل نقص وعن كل عيب فهو عزيز أن ينال بعيب أو نقص.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ دائمًا يقرن الله ـ سبحانه وتعالى ـ العزة بالحكمة؛ لأن بعض الأعزاء من الخلق تحملهم العزة على التهور وعدم التثبت، وعدم تنزيل الأشياء منازلها واذكروا قول الله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة:٢٠٦] وكون العزة تأخذه بالإثم، خلاف الحكمة، ولهذا يقرن الله ـ تعالى ـ دائمًا العزيز بالحكيم إشارة إلى أن عزته تبارك وتعالى مقرونة بالحكمة فهو وإن كان عزيزًا غالبًا قاهرًا له السلطان الكامل فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يدبر الأمر إلا على وجه الحكمة البالغة، ثم إنه أيضًا على تفسيرنا فيما سبق الحكيم بأنه ذو الحُكم والحكمة ظاهر جدًّا أن عزته مقرونة بحكمة وأن له الحكم المطلق في عباده ـ سبحانه وتعالى ـ فلهذا يُقرن هذا الاسم بهذا الاسم دائمًا.

واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لها معانٍ عند إفرادها وإذا قرنت مع غيرها تركب من هذا الاقتران معنًى آخر فوق المعنى الإفرادي لكل اسم، وهذه المسألة تأملوها، فمثلًا العزيز له معنًى عند انفراده والحكيم له معنى عند انفراده، لكن إذا اقترنا جميعًا حصل منهما معنًى ثالث زائد عن المعنى الانفرادي، وهو ما يحصل باجتماع هذين الاسمين من المعنى الكامل، وسبق لنا أن الحكيم ذو الحُكم والحكمة وأن الحكم ينقسم إلى كوني وشرعي ومثلنا للكوني بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠].

وللشرعي بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] ولما يشملهما جميعًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] وما أشبه ذلك، أما الحكمة فإنها ثابتة لله ـ عز وجل ـ، وهي تنزيل الأشياء في منازلها، وتكون في الحُكم الكوني، والحكم الشرعي، هذا باعتبار موضعها وتكون أيضًا حكمة غائية وحكمة صورية، صورية بمعنى أن كون الشيء على هذه الصورة المعينة موافق للحكمة، ثم الغاية منه حكمة أيضًا فتكون حكمة في الغاية وفي الهيئة التي كان عليها هذا الأمر، وهذا شامل لجميع أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكونية والشرعية.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قال المؤلف: [﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ في القرآن ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نجعلها ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي يفهمها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ المتدبرون].

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ أتى بـ (تلك) الدالة على البعد، لأنه لم يقل: وتلك المثل حتى نقول: إنه عَدَلَ بالكلام عن ظاهره، أو عن مقتضى سياقه؛ لأن المثل المضروب الآن قريب، لكن قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾، والأمثال الأخرى غير مثل متخذي الأصنام، بعيدة بالنسبة لهذا المكان. يعني أنها متنوعة في القرآن، ولهذا جاءت الآية بتلك الأمثال، ولم يقل هذا المثل، فهو شامل لكل الأمثال الواردة في القرآن، والأمثال الواردة في القرآن كثيرة متعددة، وقد أُلِّف فيها بعض أهل العلم الكتب المستقلة، وأفردها السيوطي في: «الإتقان» في فصل مستقل، وبيَّن فوائد الأمثال التي يُضرب المثل من أجلها، والفائدة الملموسة القريبة جدًّا هو تقريب المعقول إلى الأذهان؛ إذ إن المثل هو ضرب شيء معقول قد يبعد عن الإنسان تصوره بشيء محسوس يسهل تصوُّره، قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

إذا قلت: ضرب ذلك مثلًا، فالمعنى: جعل ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: جعل لكم، فالضرب إذنْ يأتي بمعنى الجعل، إذا أُضيف إلى المثل، كلما وجدت ضرب الله مثلًا وما أشبهه فاعلم أن المراد بالضرب هنا الجعل، فمادة (ضرب) ليست خاصة بالضرب الذي هو الضرب باليد، بل تشمل الضرب بمعنى الجعل، وتشمل الضرب بمعنى تحويل النقود من سكة إلى سكة، وغير ذلك حسب السياق الذي بينهما.

وقوله: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها أمثالًا للناس عمومًا فالله تعالى ضرب المثل لجميع الناس في التوراة والإنجيل والقرآن، ولكن من الذي يعقلها وينتفع بها؟ الجواب: ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

إذنْ: ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ذوو العلم والفهم الذين ينتفعون بفهمهم وعلمهم، ولهذا قال المؤلف: [المتدبرون]. وهذا التفسير فيه نظر؛ لأن العلم بعد التدبر، لكن لما كان العلم لا يحصل إلا به فسره المؤلف به، والحقيقة أن المراد بالعالمين، ذوو العلم والفهم الذين يعقلون الأشياء ويفهمونها؛ احترازًا من أهل الجهل المعرضين الذين لاينتفعون بما أعطاهم الله ـ تعالى ـ من الفهوم فإنهم لا يعقلون هذه الأمثال وإذا لم يعقلوها، ما ينتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الله تبارك وتعالى عمَّم في ضرب المثل، وخصص في عقل المثل، أين التعميم في ضرب المثل قال: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، والتخصيص قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وهذا أسلوب كثير في القرآن، التعميم ثم التخصيص قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فعمم في الدعوة وخصص في الهداية.

الفوائد:

١- منها: إثبات العلم لله فيما يتعلق بالخلق، ويكون فيه رد على غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله لا يعلم الأشياء المتعلقة بالخلق إلا بعد وقوعها، لكن هؤلاء الغلاة يقول شيخ الإسلام - في وقته -: إنهم كانوا قليلين، قالوا: لأنهم رأوا أن إنكارهم للعلم نداء على أنفسهم بالكفر فتركوا هذا وصاروا ينكرون الكتابة والمشيئة.

٢- ومن فوائد الآية: إثبات هذين الاسمين الكريمين: العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمناه من صفة وهي العزة والحكمة، وكذلك ما تضمناه من صفة على سبيل دلالة الالتزام؛ لأن دلالة اللفظ على معناه تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام وما يستلزمه هذان الوصفان من الصفات فإنه ثابت.

نضرب مثالًا كلمة (دار) تدل على هذه الكتلة من البناء المتضمنة للغرف والحجر والسطوح والرحبات تدل على ذلك بالمطابقة، وتدل على كل حجرة بمفردها أو غرفة بمفردها أو سطح بمفرده أو رحبة بمفردها تدل عليها بالتضمن، يعني: أنها متضمنة لكذا وكذا، تدل على أن لها بانيًا بالالتزام يعني: ما تكون الدار إلا ببانٍ هذا معنى قولهم: إن الدلالة مطابقة وتضمن والتزام.

فمثلًا العزيز يدل على العزة دلالة مطابقة؛ من لازم العزة أن يكون العزيز عالمًا قادرًا قويًّا دلالته على هذه المعاني دلالة التزام، ودلالة العزيز على الذات والصفة دلالة مطابقة وعلى الذات وحدها أو الصفة وحدها دلالة تضمن، إذنْ: لهذا اسم الحي القيوم تضمن جميع الصفات؛ لأن الحي مستلزم لجميع صفات الكمال، والقيوم مستلزم لجميع صفات السلطان والملك والتدبير وما إلى ذلك؛ ولهذا ورد في الحديث أنهما اسم الله الأعظم.

إذنْ: العزيز الحكيم قلنا فيها إثبات العزة، والحكيم إثبات الحكم والحكمة، وفي الجمع بينهما يظهر صفة ثالثة وهي أن عزة الله مقرونة بالحكمة وليست كعزة عزيز غيره فإنها قد تكون خالية من الحكمة.

٣ - ومن فوائد الآية: أنه ينبغي التأمل إذا خُتمت الآيات بما يكون مخالفًا لظاهر الحال يعني: فلا تردها، فإذا وجدت آية مختومة بخلاف ما يقتضيه ظاهر الحال أو السياق فتأمل فيها فإن الخطأ منك: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] مقتضى ظاهر السياق أن يقول: فإنك أنت الغفور الرحيم. لكن عدل عنه، فلا تقل: إن هذا خلل أبدًا، خلل منك أنت؛ لأن هذا كلام الله عز وجل ما فيه خلل، فالآيات الكونية ليست فيها خلل والآيات الشرعية كذلك فيجب أن تتأمل وتتيقن وهنا في الآيات التي معنا قد يتبادر للإنسان أنها تختم بالعلم ولكن عند التأمل يكون ختمها بالعزة والحكمة أولى.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

[العنكبوت:٤٣].

١ ـ **في هذه الآية الكريمة**: فائدة ضرب الأمثال، وأنه نوع من التعليم والتوجيه لقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: إثبات عظمة الله عز وجل تؤخذ من قوله: ﴿نَضْرِبُهَا﴾ بنون العظمة، نضربها للناس واعلم ـ إن كنت لا تعلم من قبل ـ أن ما أضافه الله تعالى إلى نفسه بلفظ العظمة فإنه يدل على عظمة نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ وقد يُراد به ملائكته لا نفسه وهذا في القرآن كثير وكذلك الأول في القرآن كثير، فمما أراد الله به ملائكته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، فالضمير هذا يعود على جبريل؛ لكن إضافة الله إلى نفسه، لأن جبريل رسوله، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، هو لا يجادلهم الله إنما يجادل الرسل؛ لكن حمل ما أضيف إلى الله في سياق العظمة على رسله وملائكته لابد له من دليل وإلا فالأصل أنه يعود إلى الله، أما ما أضافه الله ـ تعالى ـ إلى نفسه بصيغة الإفراد فهو له نفسه، ونضرب لهذا مثلين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] هذه الضمائر كلها بصيغة الإفراد، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ المراد قربه نفسه من داعيه، ولكن هذا القرب لا يلزم منه أن يخلو منه العرش أو ينتفي عنه العلو، كما أنه ينزل إلى السماء الدنيا ولا يلزم منه أن يخلو منه العرش أو أن ينافي ذلك علوه لكن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣ ـ ٨٥] فإن ﴿أَقْرَبُ﴾ فيها ضمير يعود على نحن، ونحن الضمير لله، لكنه أقرب إليه منه بملائكته، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ فإن الملائكة تحضر إلى الميت لقبض روحه وتجلس منه مد البصر لكن ما نبصرها نحن، فهنا القرب للملائكة، لأن الله أضافه إلى نفسه بصيغة العظمة ووُجد الدليل، وهذه الفائدة مهمة جدًّا تنفع في باب الصفات وغيرها: أن ما أضافه الله إلى نفسه بصيغة الإفراد فهو له، وما أضافه إلى نفسه بصيغة الجمع فهو له، لكن قد يكون للملائكته بقرينة، وهذا غير ممتنع.

إذنْ هنا قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا﴾ له لا للملائكة؛ لأنه ما فيه قرينة تدل على أنه للملائكة. إذن كلمة (نضرب) تفيد فائدة ضرب الأمثال.

٣ ـ **وفيها أيضًا من الفوائد**: رحمة الله تعالى بالخلق بضرب الأمثال لهم، لأن ضرب الأمثال ـ كما قلنا ـ يقرب المعقول إلى الأذهان، وتصور الإنسان للمحسوس أقوى من تصوره للمعقول. الآن لو أشرح لكم صفة الحج شرحًا بيِّنًا واضحًا وافيًا أو أذهب بكم إلى المناسك أيهما أبلغ؟ الأخير أبلغ؛ لأنكم تحسونه بأعينكم لكن الأول تتصورونه بقلوبكم ولا تدركونه جيدًا؛ فإذن

ضرب الأمثال فيه رحمة بالخلق حيث إن الله - سبحانه وتعالى - يقرب لنا المعقولات بالمحسوسات.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي التأمل في الأمثال، لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، فالعالم هو الذي يتأمل وينظر حتى يعقل.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الثناء على العقل؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد. فالعقل الذي ينفع هو الذي يُثنى عليه.

٦ - **ومنها أيضًا:** فضيلة العلم؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ الذي غير عالم بالله - سبحانه وتعالى - وآياته ما يعرف هذه المعاني يقول: هذه أشياء ليس لها معنى، لكن العالم هو الذي يعقلها ويعرف مغزاها ومعناها وأوجه الشبه بينها حتى يصل إلى درجة الكمال.



❁ قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ دالة على قدرته تعالى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾].

إذن ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معنى: ﴿خَلَقَ﴾: أي أوجدها، والله تعالى خالق السموات والأرض وبديع السموات والأرض، قال أهل العلم: بديع بمعنى: مبدع، والإبداع إيجاد الشيء على غير مثال سبق، ومنه البئر البدع التي حُفرت الآن جديدة، فالخلق أعم من البدع، لكن قد بيَّن الله - عز وجل - في آية أخرى أنه خالق وبديع، فهو الذي أوجد السموات والأرض وهو بديع السموات والأرض.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني: بما فيها، والذي فيها بالنسبة لبني آدم منها، وكذلك النبات فإن الإنسان خُلق من طين من الأرض والنبات أيضًا من الأرض كما هو ظاهر.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال المؤلف: [أي محقًا]، فالجار والمجرور في موضع نصب على الحال من فاعل خلق، ويجوز أن يكون مفعولًا لأجله يعني: خلقها للحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾ [ص:٢٧] وإنما هي حق، وتفسير المؤلف يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، فإذا لم يكن لاعبًا - سبحانه وتعالى - كان محقًا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الخلق فيشمل كل ما تطور من خلق السموات والأرض فإنه آية، فنفس السموات والأرض خلقهما آية دالة على الله؛ لأن آية الشيء ما كان دالًّا عليه دون غيره، هنا السموات والأرض دالة على الله؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق مثل هذه السموات والأرض.

إذن: فهي آية له، فوجود هذه السموات والأرض دالٌّ على القدرة وما فيهما من الانتظام وعدم الاضطراب والتناقض دالٌّ على الحكمة، ولو تأملت أشياء من حوادث السموات والأرض لوجدت كل واحد منها يدل على القدرة وعلى العلم قال الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] وعلى الحكمة وله أيضًا دلالة خاصة على ما يدل عليه بنفسه وهذا شيء إذا تأملته يظهر لك آيات كثيرة.

وقوله: ﴿لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [دالَّة على قدرته تعالى] بل وعلى علمه وعلى حكمته وعلى رحمته وعلى قوته.

وكل حوادث السموات والأرض كل شيء منها يدل على تلك الصفة الخاصة به.

وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال المؤلف: [خُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين]، صحيح الآيات الكونية لا ينتفع بها إلا المؤمن والكافر ما ينتفع، الكافر يقول: هذه طبيعة تُدبِّر بنفسها وتنتقم من الناس بنفسها وتجلب الخير للناس بنفسها ولا ينتفعون، والمؤمن ينتفع بذلك، كذلك أيضًا الآيات الشرعية المؤمن ينتفع بها وغير المؤمن لا ينتفع قال الله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤ ـ ١٢٥]. فالآيات إذن الكونية والشرعية ما تنفع إلا المؤمن.

فإذا قال قائل: المؤمن مؤمن كيف ينتفع؟

قلنا: نعم ينتفع بزيادة الإيمان لا شك أنه نفع عظيم؛ لأن الإيمان إما أن يزيد وإما أن ينقص وإما أن يبقى على ما هو عليه والأخير هذا قد يكون نادرًا، أن يكون الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهو إما في زيادة وإما في نقصان هذا في الغالب، فالغالب الكثير على أن التقسيم الحاصل هذا أنا لا شك في وجود القسم الثالث منه وهو أن يكون لا يزيد ولا ينقص؛ لأن عدم زيادة الإيمان يؤدي إلى نقصه؛ إذ إن الإيمان يزيد بالطاعة كما هو مفهوم للجميع إذا فقدت الطاعة حصل النقص، إنما القسمة العقلية هو أن يكون إما زائد أو ناقص أو باق على حاله وتصور أو وقوع القسم الثالث الله أعلم به.

سؤال: ما دليل الذين يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؟

الجواب: ما عندهم دليل؛ لأن عندهم تعليل عليه، الذين يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص هم المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو إقرار القلب والإقرار لا يتفاوت أو المعتزلة والخوارج

الذين يقولون: الإيمان ما يتبعض إما أن يوجد كله كاملًا وإما أن يعدم كله.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أن الخالق للسموات والأرض هو الله، خلق الله السموات والأرض.

لو قال قائل: ما في الآيات حصر حتى تقولون: إن الخالق هو الله.

نقول: نعم ما فيها حصر بالطرق المعروفة، لكن فيه حصر من حيث إنه لا يوجد إلا سموات وأرض واحدة إذا كان الخالق لها هو الله انتفى أن يكون غيره خالقًا لها.

٢ - **ومنها:** الرد على أهل الطبيعة - والعياذ بالله - الذين يقولون: إن السموات والأرض ليس لها خالق بل إنها أشياء تتفاعل وتتحول وتتقلب وأن الخالق لا أول له ولا نهاية.

٣ - **ومنها:** إثبات حدوث السموات والأرض وأنها ليست قديمة تؤخذ من قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي موجدة بعد العدم فكل ما سوى الله فهو موجود بعد العدم.

٤ - **ومنها:** أن السموات عدة وأنها سبع.

٥ - **ومنها أيضًا:** أن الأرض واحدة والمراد الجنس، إذنْ: في القرآن ما جمعت الأرض أبدًا لكن أشير إلى جمعها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]. المماثلة هنا في الوصف متعذرة؛ لأنه ما فيه مقارنة بين السموات والأرض، وإذا تعذرت المماثلة في الوصف رجعنا إلى المماثلة في العدد وقد جاءت السنَّة صريحة في ذلك مثل قوله ﷺ: «طُوِّقَهُ(١) مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(٢).

٦- **ومن فوائد الآية:** أن هذه السموات والأرض خلْقها بالحق وليس عبثًا ولا لهوًا ولا باطلًا؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٧ - **ومنها أيضًا:** أنها مشتملة على الحق، فخلقها وأصل إيجادها بالحق وهي أيضًا مشتملة على الحق، ما يمكن أن يحدث في السموات والأرض شيء إلا بحق.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** اطمئنان الإنسان لما يحدثه الله في السموات والأرض أو بعض الاطمئنان، وجه ذلك: أنها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فكل شيء يحدث ما دام عرفت أنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أطمئن ولا أقول لماذا حدث، ولماذا ما يكون حدث، فلو حدث على الناس جوع، ومرض، وزلازل، وفيضانات. فأعرف أن ذلك بالحق فأطمئن وأرضى وأسلم ولا راحة - في الحقيقة - للإنسان إلا بهذا، فما يمكن أن يستريح

---

(١) أي جعله طوقا في عنقه.

(٢) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٥٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٣١٢) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

الإنسان إلَّا إذا آمن بقضاء الله وقدره وأنه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فيطمئن تمامًا وإلا فإنه يستكدر؛ لأنه ما من ساعة إلا ويجد فيها ما يسوؤه إما في نفسه أو أهله أو صحبه أو بلده أو البلاد الإسلامية عامة، ولا يمكن أن يطمع الإنسان أن يستقر حتى يؤمن بأن هذه الأشياء كلها حق.

سؤال: ما حكم منازعة الأقدار؟

الجواب: منازعة الأقدار بالشرع هذه واجبة.

أي: إذا جاءنا من القدر ما يسوؤنا تنازعه بما يقتضيه الشرع وذلك بالصبر فإذا صبرنا ما ساءنا ذلك، وهكذا فمنازعة القدر بالشرع هذا شيء واجب، وهي أن تقابل القدر بما يقتضيه الشرع لكن منازعة القدر بالقدر هنا ما يجوز، وبعض الناس ينفر من كلمة منازعة والمراد بالمنازعة المقابلة.

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** أن خلق السموات والأرض آية دالة على ما يقتضيه هذا المخلوق من صفات الله ـ عز وجل ـ، وقد ذكرنا أن منه ما يقتضيه الدلالة على قدرة الله والدلالة على حكمة الله والدلالة على عزته حسب ما تقتضيه الآية.

١٠ ـ **ومنها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون لقوله: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ونستفيد من هذه الفائدة، فائدة تتفرع: أنه كلما كمل إيمان العبد ازداد انتفاعًا بالآيات، وهذه الفائدة الطريق إلى الحصول عليها هو ما سبق لنا غير مرة من أن الحُكم إذا عُلِّق بوصف ازداد قوة بقوته وضعفًا بضعفه، كل حكم يعلق على وصف فإنه يزداد قوة بقوة هذا الوصف وضعفًا بضعفه. فنقول إذن: كلما كان الإنسان أكمل إيمانًا ظهر له من آيات الله في هذه المخلوقات ما لم يظهر لمن دونه.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥-٤٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿ٱتۡلُ﴾ يتضمن التلاوة اللفظية والتلاوة الحُكمية، التلاوة اللفظية أن تقرأ القرآن،

التلاوة الحكمية أن تأخذ بأحكامه وهي تلاوة الاتباع من قولهم: تلا فلانٌ فلانًا أي تبعه. فالأمر هنا بالتلاوة يشمل هذا وهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس موجهًا لكل من يصح خطابه؛ لأنه قال: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وهذا يخصصه بالرسول ﷺ لأن غيره لم يوح إليه، ولكن مع ذلك الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خطاب له وللأمة بدليل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] إلا ما قام الدليل على اختصاصه به، فإنه يؤخذ بالدليل: كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ لو وقفت الآية على هذا لكان يجوز للأمة أن تفعل؟ نعم، لكن قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٠].

يدل هذا على أن الخطاب إلى الرسول ﷺ له ولأمته ما لم يوجد دليل على اختصاصه به.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مَآ﴾ اسم موصول يفيد العموم، وقوله: ﴿أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الوحي في اللغة هو الإعلام بسرعة وخفاء، أما في الشرع فهو إعلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالشرع لأحد أنبيائه أو رسله وهذا هو الوحي شرعًا، وله مراتب ذكرها الله تعالى في سورة (حم عسق) الشورى.

قال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مِنَ﴾ هنا: بيانية، بيان لقوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به القرآن وسمي كتابًا؛ لأنه يُكتب في المصاحف؛ ولأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ ولأنه مكتوب في أيدي الملائكة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١ـ١٦].

وكتاب على وزن (فعال) بمعنى: مفعول، وقد مرت علينا كثيرًا في اللغة العربية، مثل: غراس، مغروس، وبناء، مبني.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتي بها على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قويمًا، ليس به اعوجاج ولا نقص.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ومعلوم أنه يقيم الصلاة، وأنه أقوم المصلين صلاة فكيف وجِّه إليه الخطاب بأقم الصلاة؟

قلنا: توجيه الخطاب إلى من يتصف به المراد به الاستمرار عليه، لا تجديده؛ لأنه موجود لكن للاستمرار عليه مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فالخطاب ليس عبثًا حتى نقول: إن هذا تحصيل حاصل، فالمؤمن مؤمن نقول: المراد الاستمرار على ذلك، فإذا وجِّه الخطاب أو الأمر لمن يتصف به فالمراد الاستمرار عليه.

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قبل قليل قلنا: إن التلاوة تشمل الاتباع والعمل بأحكامه أليس إقامة الصلاة من اتباعه والعمل بأحكامه؟ بلى. إذن عطفها على قوله: ﴿ ٱتْلُ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام هو إيذان برفعة شأنه، ولا شك أن الصلاة أفضل أعمال البدن؛ فلهذا خُصَّت بذكرها، ثم إن عطف الخاص على العام هل معناه ذكره مرتين، أو معناه أنه أفرد بالذكر من بين العموم؟

في هذا رأيان لأهل العلم، فمنهم من يقول: إن ذكر الخاص بعد العام معناه أنه سلبت دلالة العموم بالنسبة إليه، ثم أُفرد بالذكر.

ومنهم من قال: إنه داخل في العموم الأول ثم أُفرد بالذكر فيكون ذُكر مرتين وكلاهما يدل على شرفه هذا المفهوم، لكن أيهما أقوى؟

الأخير أن يكون ذكر مرتين مرة لذكر العموم ومرة في الخصوص، تظهر الفائدة مثل لو قلت: أكرم الطلبة ومحمدًا، ومحمد من الطلبة على القول أنه داخل في العموم ثم خص بالذكر نكون قد عرفنا أن هذا الرجل طالب واسمه محمد، أما لو قلنا: نزع من العموم وخص بالذكر فحينئذٍ نبحث عن محمد هذا من هو طالب أم أنه غير طالب ويحتاج إلى قرينة تدل على أنه من الطلبة؟

والصحيح: أن ذكر الخاص بعد العام معناه ذكره مرتين.

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: معللًا الأمر بإقامة الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهذا التعليل هل هو تعليل بالنسبة للمخاطب أو بالنسبة للمخاطب به؟المخاطب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمخاطب به الصلاة، خاطبه بإقامة الصلاة، فهل هذا التعليل لإقامة للصلاة من حيث هي إقامة، أو هي تعليل للمخاطب أو المتصل بالمخاطب، إذا قلنا: إن المتصل بالمخاطب صار المعنى: إن الصلاة تنهاك عن الفحشاء والمنكر، وهذا يقتضي جواز وقوع الفحشاء والمنكر من الرسول ﷺ، وإذا قلنا: إنه تعليل للمخاطب به يتصل بالمخاطب به وهو الصلاة قلنا: إن الصلاة من حيث هي صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويكون هذا وصفًا صادقًا بالنسبة لغير الرسول ﷺ، ويكون هذا التعليل بالنسبة للمخاطب به وهي الصلاة لا المخاطب بذلك وهو الرسول ﷺ، لِعلمنا أنه معصوم من الفحشاء والمنكر. وهذا هو المتعين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الصلاة هنا والتي قبلها المراد الصلاة الفريضة أو الفريضة والتطوع؟ الكل: عام.

وقوله: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، ﴿تَنْهَىٰ﴾ أي: تمنع، لكن التعبير بالنهي أبلغ من التعبير بالمنع؛ فإن المانع قد لا يكون محذّرًا لكن في النهي تحذير، فكأن الصلاة فيها سر يقتضي أن يُبعد الإنسان عن الفحشاء والمنكر كأنها تؤنب ضميره تقول له: لماذا تفعل هذا؟

وقوله: ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ كل ما يُستفحش من المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وما أشبهها، أما المنكر ما دون ذلك. وعطف المنكر على الفحشاء من عطف العام على الخاص؛ لأن كل فحشاء منكر وليس كل منكر فحشاء.

قال المؤلف: [﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ شرعًا أي: من شأنها ذلك ما دام المرء فيها]، قوله: [أي من شأنها ذلك] هذا صحيح، لكن ما دام المرء فيها ليس بصحيح، بل هي تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها وما لم يدم فيها، يعني: ليس نفعها هذا النفع خاصًا بها إذا كان الإنسان متلبسًا يصلي الذي يصلي معلوم أنه لن يفعل الفحشاء والمنكر، لكن الفائدة العظيمة أنها تؤثر في قلبك ما يقتضي إبعادك عن الفحشاء والمنكر، وهذا في الحقيقة هو الثمرة والنتيجة لا أن الثمرة والنتيجة أنك إذا كنت تصلي ما عدت تفعل الفحشاء والمنكر، فتقييد المؤلف بقوله: [ما دام فيها] ففيه نظر، وليس بصواب، بل هي مطلقًا ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بمعنى أن ما يحدث منها يوجب للقلب البعد عن الفحشاء والمنكر ووجه ذلك: أن الإنسان المصلي يناجي ربه كما قاله رسول الله ﷺ فبينه وبين ربه صلة، وهذه الصلة تكسب القلب إيمانًا ونورًا، ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الصَّلَاةُ نُورٌ[(١)]»[(٢)] ومعلوم أن القلب الذي يكتسب النور لا يميل إلى الفحشاء والمنكر، كلما همَّ أن يفعل ذكر أنه قبل ساعات كان واقفًا بين يدي الله ـ عز وجل ـ فيخجل ويبتعد، وهذا أمر مشاهد، إن الإنسان أحيانًا ليذكر وقوفه في صلاة لها عشرون سنة أو أكثر صلى في يوم من الأيام صلاة كأنه يرى ربه، «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، يعني في غاية الإحسان، يجد طعم هذه الصلاة بعد حين طويل، يذكرها ما تغيب عن قلبه، وهذه الذكرى لابد أن تؤثر في نفس الإنسان عن الفحشاء والمنكر، وهذا وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ لكن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلاة المقامة، ما هي كل الصلوات تنهى عن الفحشاء والمنكر، والله لو صلاتنا تنهانا عن الفحشاء والمنكر، كلنا كنا سالمين، لكن الآن ـ نسأل الله أن يعاملنا بعفوه ـ، يدخل الإنسان في الصلاة بقلب ويخرج بنفس القلب أو

---

(١) معناه أنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب كما أن النور يستضاء به .

(٢) كما ورد عند مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) .

أسوأ، يعني لاحظوا أن العبادات إن لو تؤثر على قلبك حسنًا فهي ضرر، الذي ما تنفعه الآيات تضره، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[(١)].

ثم إنه قد يشك بعض الناس في هذا الخبر وهو خبر الله - عز وجل - صادق، فيقول: أنا أصلي ولكن ما أرى أنها تنهاني عن الفحشاء والمنكر، فأصلي مع الجماعة في الروضة ثم أخرج إلى دكاني وأبيع بالربا، وأبيع بالغش، وأبيع بالكذب، أصلي مع الإمام في الروضة ثم أجد في نفسي غلًا وحقدًا على المسلمين وكراهة لبعض شرع الله وما أشبه ذلك، وأين هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؟

نقول له: البلاء ما هو في الصلاة، البلاء في المصلي وإلا فكل مؤمن يعلم علم اليقين أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأن هذا خبر الله - عز وجل - وهو صدق؛ لأنه عالم - جل وعلا - بكل شيء وهو - سبحانه وتعالى - قال ذلك عن علم وكلامه أصدق الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال المؤلف: [﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من غيره من الطاعات]، أولًا: اللام في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ اللام للابتداء، لأن الجملة ما هي قسمية، وقوله: (ذكر الله) ذكر مصدرٌ مضاف إلى اسم الله فهل هو مضاف إلى فاعله أو مضاف إلى مفعوله؟ يعني: ولذكرك ربك أكبر، أو ولذكر الله إياك في الصلاة له أكبر من نهيه عن الفحشاء والمنكر؟

والثاني يصح والشأن بذكر الله لك لا ذكرك الله، كما أن الشأن بمحبة الله لك لا بمحبتك الله، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ولم يقل فاتبعوني تحبون الله، ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالشأن أن تُذكر، وكما أن هذا بالنسبة للمخلوق مع الخالق هو أيضًا بالنسبة للمخلوقين مع بعضهم، فكونك تحب فلانًا أو تذكر فلانًا ماذا نستفيد إذا كان فلان معرِضًا عنك؟ ما تستفيد إلا العناء والبلاء، نعم ولذلك: قصة بريرة مع زوجها مغيث هو يذكرها لكن هي لا تذكره ولا تريده وهو يحبها حبًّا شديدًا، فالشأن إذن بذكر الله لك ولكن ثق بأنك إذا ذكرت الله من قلبك فإن ذكر الله لك أعظم من ذكرك له: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي» ونفس الله تعالى أعظم من نفسك بلا شك «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُه فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ[(٢)]»[(٣)].

فأنت اذكر ربك حقيقة فالله - عز وجل - يذكرك ذكرًا أعظم وأجل من ذكرك إياه، إذن: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ نقول: إنه صالح لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من غيره من الطاعات، هل المراد هنا الذكر المنفصل عن الصلاة أو الذكر الذي في الصلاة؟ نرى كلام المؤلف: كلام المؤلف ماذا يرى؟ المنفصل، ظاهر

---

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) جماعة من الملائكة المقربين وهم أفضل من عامة البشر.

(٣) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلام المؤلف أنه الذكر المنفصل، يعني أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله أعظم نهيًا عن الفحشاء والمنكر وأكبر، ويحتمل أن يكون المراد: ولذكر الله الموجود في الصلاة والموجود بها أين الفرق؟ بينهما فرق: فذكر الله الموجود فيها مثل التسبيح والتكبير والقراءة وذكر الله بها يعني ما يحصل بسببها.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ قال المؤلف: [فيجازيكم به] هذه جملة خبرية له معنى عظيم ليس المقصود من هذه الجملة أن نعلم بأن الله يعلم ما نصنع ولكن المقصود منها التحذير من أن نصنع ما يخالف شريعتنا وقوعًا في المنهي أو تركًا للأمر.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول دال على العموم يشمل كل ما نصنع من قول أو فعل فيما يتعلق بحقه وفيما يتعلق بحق عباده ﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾، قال: [فيجازيكم به] هذه النتيجة واضحة وتكون المجازاة عليه في الدنيا ويوم القيامة والمجازاة عليه على ما نسمع قد تكون شرعية بفعل العبد وقد تكون كونية بفعل الله، المجازاة عليه شرعية بفعل العبد مثل الحدود؛ لأن الحدود عقوبة شرعية بفعل العبد، وتكون كونية قدرية بفعل الله كما لو أصيب الإنسان بأمراض وتلف أموال وما أشبه ذلك.

سؤال: هل الابتلاء عقوبة؟

الجواب: قد يكون عقوبة وقد يكون ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

قد يكون اختبارًا وقد يكون عقوبة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٩].

فالإنسان قد يُبتلى عقوبة على معصية أو امتحان، فالمصائب التي تأتي للرسول ﷺ هذه من باب الامتحان حتى يصل الإنسان إلى درجة الكمال؛ لأن الصبر ـ كما هو معلوم ـ منزلة عالية عظيمة في الدين ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]؛ لكن الصبر بدون أن يُصبر عليه ما يمكن فهناك أشياء ترد على الإنسان من قضاء الله فيصبر عليها. ونقول: الفتنة بالنسبة للخير فتنة الشكر وبالنسبة للشر فتنة الصبر.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾: الخطاب هنا للأمة جميعًا وهو نهي، وقوله: ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾

المجادلة: منازعة الخصم لأمرين: للظهور عليه وإبطال حجته، هذه هي المجادلة تنازع خصمك من أجل أن تعلو عليه وتظهر عليه وتبطل حجته مأخوذة من فتل الرأس وفتل الحبل؛ لأن الجدْل الذي هو فتل الحبل المقصود به إحكامه وتقويته؛ كأن المنازع يريد أن يقوي حجته على

خصمه وأننا نعرف باللغة العامية ما يسمى بقرون المرأة فتايل؛ لأنها تفتله وتقويه.

وقوله: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ يعني: الذين أوتوه، وأهل الشيء يراد به من أوتيه وإن لم يعمل به، ويراد به من أوتيه وعمل به ومحل الثناء الثاني، فأهل القرآن من هم الذين حفظوه فقط تلاوة أم حفظوه وعملوا به؟ كل هذا يقال له أهل، فالأولون أهل والآخرون أهل، لكن حقيقة الأمر أن الثناء والمدح على من كانوا أهله تلاوة وعملًا، فأهل الكتاب هم الذين أوتوه، إن عملوا به صاروا أهله حقًّا وإن لم يعملوا لم يكونوا أهله حقًّا، وأهل الكتاب المراد بالكتاب هنا الجنس وإلا فهما كتابان، التوراة والإنجيل، التوراة لليهود والإنجيل للنصارى.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هذا الاستثناء مفرَّغ من عموم الأحوال، يعني: في أي حال من الأحوال لا تجادلوهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، ﴿بِٱلَّتِي﴾ لم يقل: بالذي قال: ﴿بِٱلَّتِي﴾ والتي كما نعرف جميعًا: مؤنث.

أي: إلا بالطريقة التي هي أحسن، لأن المجادلة ما هي كلمات تقال، بل هي طرق ولذلك عندهم في الأدب والمناظرة عندهم للمناظرة طرق يتمكن بها الإنسان من الوصول إلى إقناع الخصم وإقامة الحجة عليه؛ ولهذا قال: ﴿بِٱلَّتِي﴾ أي بالطريقة التي ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هنا أتى باسم التفضيل مطلقًا ليعم الحكم في سياق الأدلة مثلًا في سياق المجادلة والحسن أيضًا في كيفية هذه المجادلة؛ لأنه لابد من أمرين:

لابد من حسن الطريق، نأتي بأقرب الطرق لإقناع الخصم، ولابد أيضًا من كيفية وضع هذه الطريقة وكيفية إلقائها.

نضرب مثلًا للأمرين: إنسان عنده قوة في المناظرة وإيراد الحجج لكن إذا جاء يجادل قال: أنت بليد، أنت حمار ما تعرف، القضية كذا وكذا وكذا، أنا الحقيقة مخطئ أني أجادل مثل هذا الحمار. هذا أحسن أم لا؟ ليست أحسن وإن كان عرض الطريقة جيدًا لكن كيفية إلقاء هذا ليس بجيد.

إنسان آخر لين الكلام مهذب، لكن ما يحسن أن يناظر هذا أيضًا ليس داخلًا في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

انظر إلى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما حاجه الرجل في ربه: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] ما راح ينازع إبراهيم ويقول: أنت ما تحيي ولا تميت، إنما تبقي الحياة أو تفعل السبب الذي يكون به الموت، لأن الحقيقة أن الإنسان لا يحي ولا يميت، لكنه يفعل السبب الذي به يموت أو يستبقي الحياة من غيره، فما راح ينازع هذه المنازعة، بل أتى له بدليل آخر: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾

بسيطة، لكن لا يقدر، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ ما استطاع أن يتخلص من هذا الإيراد أبدًا هذا أيضًا من الأحسن في المناظرة أنك إذا رأيت أنك بسلوكك هذا الطريق ينفتح عليك باب المعارضة فاسلك الطريق الآخر، قد يقول الإنسان في نفسه: أنا ما أريد أن أنهزم بل أريد إثبات هذه الحجة التي أدليت بها، قد يقول الإنسان في نفسه: أنا أحب أن أبقى على الحجة التي أدليت بها ولا أورد الأخرى؛ لأني أخشى أن يكون ذلك انهزامًا أليس هذا واردًا؟

هذا وارد، فقد يصير الإنسان يدلي بحجة ينازع فيها لأجل يحققها ويثبتها وقد يفتح عليه أبواب النقد بدلًا من هذا ما دام عندك حجة واضحة تبطل بها الخصم، فإن المقصود الأول إبطال حجة الغير المنازع، فما دام عندي حجة أستطيع أن أنازع بها أترك الذي أدليت به.

أولًا أقول: دعنا من كذا، وافعل كذا، أو وما تقول في كذا لأن هذا أولًا يكشف حال الخصم بسرعة، وثانيًا: لئلا يقوم بالمنازعة في الأولى فيقهر عليك؛ لأن الإنسان قد يكون عند الخصم استعدادًا للمناظرة في مسألة من المسائل وعنده دليل واضح، وعند المجادلة يغلبك بينما يكون عندك أنت دليل أقوى منه لكن لو سلكت طريقًا آخر وصلت إلى مقصودك، المهم أنني قلت: إن المجادلة بالتي هي أحسن يشمل الطريقة التي بها تندفع حجة الخصم، وتقوم عليه الحجة، ويشمل كذلك كيفية إلقاء هذه الحجة في المجادلة فهو شامل لهذا وهذا.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ عندنا أحسن وحسن فالإنسان عند المجادلة تجده يدلي بالشيء الذي يدحض به حجة الخصم، ومع ذلك أمر الله ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ لأن المقصود الوصول إلى الحق لا مجرد الغلبة الذي يقصد بالمجادلة مجرد الغلبة لا لله ولكن لنفسه، هذا في الحقيقة خاسر وإن نجح، نعم من قصد الظهور والغلبة على خصمه لله؛ لأنه يعتقد أن الحق معه فيريد أن يعلو هذا الحق فهذا لا شك أنه حسن ولا يلزم عليه المرء، لكن أعلى منه من قصد إظهار الحق بقطع النظر عن كون ذلك انتصارًا لنفسه أو لا.

فالمراتب إذن ثلاثة عند المناظرة: من الناس مَنْ يناظر من أجل ظهوره هو وغلبته فقط هذا خاسر، وهذا يعني أنه سيناظر على قوله وإن كان باطلًا.

ومن الناس من يناظر ويريد الغلبة أو الانتصار لنفسه؛ لأن قوله يرى أنه حق فهذه مرتبة الإنسان فيها سالم وناجٍ.

المرتبة الثالثة أعلاها من يقصد بذلك إظهار الحق بقطع النظر عن كونه انتصر أو ما انتصر ما يهم، ولذلك قد يرى من نفسه مثلًا أنقص مرتبة لكن ما يهمه أن يكون ناقص المرتبة، إنما يريد ظهور الحق فهذا لا شك أنه أعلى المراتب.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال المؤلف: [كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه]، الدعاء إلى الله بآياته الشرعية والكونية، لأن الله تعالى يقيم الحجة بها جميعًا قال الله تعالى: ﴿فَلَا

تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

والمجادلة بالآيات الكونية وبالآيات الشرعية بأن أبين ما في شريعة الله من الحكم والأسرار؛ لأن هذه الشريعة إذا بانت حكمها وأسرارها لكل ذي عقل تبين له أنها هي الحق، وكذلك أيضًا أبيِّن ما في هذه الآية الشرعية من الالتئام والانتظام وعدم الاختلاف: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

أما المجادلة بالآيات الكونية أن أريه ما في الآية الكونية وأقول من فعل كذا ومن فعل كذا؟ قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

هذه الآيات التي في سورة الطور مناظرة في الآيات الكونية والشرعية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]. هذه هي الآيات الشرعية، وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٥-٣٨] من الآيات الكونية فتجادل المعاند بالآيات الكونية وتبين له، ومن ذلك أيضًا مناظرة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - والذي حاجَّه في ربه أنه ناظره بالآيات الكونية.

وقوله: [والتنبيه على حججه]، الحجج جمع حجة وهي الدليل، الدليل المقنع والمفحم للخصم.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:١٦].

احتج من ينكر صفات الله - عز وجل - على اختلاف مشاربهم هل هي الصفات الخبرية أو الفعلية أو كل الصفات؟ احتجوا بشبهة، قالوا: إثبات هذه الصفات يستلزم التشبيه، لأننا لا نعقل في الخارج من يوصف بهذه الصفة إلا المخلوق وهذا يقتضي أن الله - سبحانه وتعالى - مشابهًا للخلق، إذن يجب الإنكار، وعلى هذا غالب حجة أهل التعطيل كلهم على اختلاف مشاربهم إذ يقولون: ما نشاهد في الخارج وقولهم: في (الخارج) يعني في الواقع؛ احترازًا من الفرض الذهني، والفرض الذهني قد يفترض أشياء لا وجود لها أي: يمكن للذهن أن يصور شخصًا مثلًا له آذان طويلة وهو غير موجود. يفرض مثلًا كلية عامة اسمها الحيوانية يدخل فيها الإنسان والبعير والحصان وما أشبه ذلك كلية عامة هل لها وجود في الذهن؟ نعم. لكن في الخارج والواقع لا، فهم يقولون: لا نجد في الخارج أي: في الواقع شيئًا متَّصفًا بهذا إلا المخلوق فيجب أن ننفي عنه هذه الصفات.

وغلاة الجهمية قالوا أيضًا: الأسماء، والأسماء ابقوها، لا تثبتوا أبدًا إلا فاعلًا وقادرًا فقط،

فغلاة الجهمية يقولون: ما يمكن أن نثبت ولا الأسماء حتى ما نسميه السميع ولا العليم ولا الغفور ولا الرحيم؛ لأن هذه أسماء المخلوق ما نسمي الله بها، نسميه فقط فاعلًا وقادرًا فقط؛ لأنهم جبرية يرون الإنسان ما يفعل بنفسه ولا يقدر على الفعل قالوا: فلما انتفت صفة الفعل والقدرة عن الإنسان فإن الله فاعل قادر، أما غير ذلك فلا.

فالحاصل أن أقول: قول المؤلف: [على حججه] المراد بها البراهين الصادقة، والأدلة القاطعة، وليس كل حجة مقبولة إلا الحجة من الله ورسوله فهي مقبولة من كل حال والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ هذا مستثنى من قوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهذا الاستثناء هل يجب فيه النصب أو يجوز فيه النصب والبدل؟ البدل؛ لأنه مسبوق بنهي.

قال ابن مالك:

وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ انْتُخِبْ ... اتْبَاعَ مَا اتَّصَل وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ[1]

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قال المؤلف: [بأن حاربوا وأبوا أن يقروا بالجزية فجادلوهم بالسيف حتى يُسلموا أو يُعطوا الجزية].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لعل الآية أعم مما قال المؤلف ويكون مراد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: الذين كابروا وعاندوا ولم يرضخوا للحق الذي تبين، فهؤلاء لا يُجادلون بالتي هي أحسن؛ لأنه تبين عنادهم، ولكن هل الآية تدل على متاركتهم وأنهم يُتركون، أم أن الآية تدل على أنهم يُجادلون بالتي هي أسوأ؟

اختلف كلام المفسرين في هذه المسألة، فمنهم من قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فاتركوهم ولا تجادلوهم؛ لأنه لا فائدة من جدالهم، ما دام قد ظهر عنادهم وظلمهم فلا فائدة، ومنهم من قال كما قال المؤلف: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يعني: جادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

وعندي: أن الآية تحتمل المعنيين جميعًا، وأنه ينبغي أن تنزل على الحالين وتستعمل كل حال بما يليق بالناس، وإذا كان المقام يقتضي أن نجالدهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية فأما بأن يكون لدينا من القوة والقدرة ما نتمكن به من ذلك وإذا لم يكن فينا قدرة إذا كانت المصلحة تقتضي متاركتهم فإننا نتركهم وهذا - والله أعلم - هو السر في أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر حكم هذا المستثنى صريحًا، فما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فجادلوهم بالتي هي أسوأ، ولا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فلا تجادلوهم إطلاقًا، بل جعل حكم هذا المستثنى صالحًا للأمرين.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ﴾ قال المؤلف: [لمن قَبِل الإقرار بالجزية إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم،

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ٢٠٩).

﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾]، هذه لتهدئة الخصم عند المناظرة والمحاجَّة؛ لأن بعض الناس إذا نازع أو خاصم صار يسبُّ محل الحجة من خصمه، وهذا غلط؛ لأنه قد يقول لك هذا المنازع - إنه مما قاله فلان في الكتاب الفلاني بعض الناس يصب كال السب والغضب على هذا الكتاب وهذا خطأ، ما ينبغي هذا العمل؛ لأن هذه قضية عاجز، إنما هدئ بالك وقرر وإذا كان ما احتج به مما يقبل فاقبله وليس كل ما يُقبل في شيء يقبل في جميع الأشياء، فهنا نقول لهؤلاء المجادلين من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ وهو التوراة إذا كانوا من اليهود أو الإنجيل إذا كانوا من النصارى، ونحن لا ننكر ما أُنزل إليكم ونقول هو حق، لكن نؤمن أيضًا بما أنزل إلينا ونقول: إنه حق، وإذا آمنا بهذا وهذا صار الحكم لما نزل أخيرًا وهو القرآن؛ لأنه ناسخ وحينئذٍ يكون قولنا هذا أولًا تهدئة لهم ولنفوسهم. وثانيًا: إلزام لهم بالإيمان بما أنزل إلينا؛ لأن الإنسان في كل مكان بشر، فإذا قيل له: أنا آمنت بما أنزل إليك فآمن بما أنزل إلي سيأخذه الخجل والفشل وربما يوافق كيف هذا الرجل يؤمن بما أنزل إلي وما أنزل إليه وأنا أكذب ما أنزل إليه!

فيكون في هذا مصلحة من وجهين:

أولًا: تهدأته، وثانيًا: إلزامه بالإيمان بما أنزل إلي، كما أنني أنا مؤمن بما أنزل إليه وهذا في الحقيقة من المجادلة بالتي هي أحسن.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: كلما جاء الأمر بالإيمان فالمراد به القول باللسان بعد الإقرار بالجنان؛ لأن مجرد القول باللسان لا يكون إيمانًا كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، فالإيمان الذي لا يتطابق فيه القلب واللسان هذا ليس بإيمان، هذا نفاق - والعياذ بالله - فلابد من القول باللسان بعد الاعتراف بالجنان.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هذا من بلاغة القرآن لم يقل: وما قلتم، أو ما جئتم به، قال: (والذي أنزل إليكم). لماذا لم يعبر بالأول؟

لأن لديهم من التحريف والتبديل ما لا يمكن معه أن يقبل كل ما جاءوا به، لكن نؤمن بالمنزل إليهم. أما بما جاءوا به فهم قد حرفوه وكذبوا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لَا تُصَدِّقُوهُم**[1] **وَلَا تُكَذِّبُوهُم وَقُولُوا: آمَنَّا**»[2] بهذا اللفظ الذي جاء في القرآن: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، فنحن مؤمنون بالمنزل لا بالمبدل، المبدل ما نؤمن به إنما نؤمن بالمنزل.

---

(١) أي لا تعتمدوا أقوالهم وتفسيراتهم سواء وافقت الواقع أم خالفته واعتمدوا ما جاءكم على لسان نبيكم صلى الله عليه و سلم مع تصديقكم بما أنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(٢) رواه البخاري (٤٢١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وصفة الإيمان بما أنزل إلينا هل هو كصفة الإيمان بما أنزل إليهم؟

لا؛لأن إيماننا بما أنزل إلينا ملزم بالاتباع ولإيماننا بما أنزل إليهم ليس ملزمًا، فإذا وجد في شرعنا ما يخالف شرعهم نتبع شرعنا، لكننا نؤمن أن ما أنزل إليهم من عند الله، أنه حق وأنه يجب عليهم اتباعه في حال عدم تحريفه منهم.

وقوله: ﴿بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من أي أحد؟ من الله ـ عز وجل ـ ؛لأن جميع الكتب المنزلة على الأنبياء من الله.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودنا؛ لأن إله بمعنى مألوه، والمألوه بمعنى: المعبود، وهو يطلق على المعبود بحق، والمعبود بغير حق، لكن الله وحده هو المعبود بحق وما عداه فمعبود بالباطل.قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، إذن هذه الأصنام تسمى آلهة ولكن ألوهيتها باطلة شرعًا؛ ولهذا صح النفي في قوله: (لا إله إلا الله)، فهذا النفي لا يعني أنه لا يوجد إله إلا الله في الكون، بل توجد آلهة لكن باطلة لأن ما عدا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فألوهيته باطلة، وهي لا تسمى آلهة حقًّا، أما آلهة بالباطل فقد سماها الله آلهة، والرسل أيضًا سموها آلهة. نعم هي آلهة ولكنها باطلة، ومن أجل بطلانها صح النفي في قولنا: لا إله إلا الله.

مسألة: ألا يصح أن نقول: لا إله موجود ونجعل تلك الآية مجرد أسماء؟

الجواب: لا يصح؛ لأننا لو قدرنا هذا: لا إله موجود، لاحتج المشركون علينا وقالوا: إذا كنتم تقولون هذه ليست آلهة؛ إذن فلسنا بمشركين، لأنَّنا ما عبدنا إلهًا وهذا باطل، الواجب أن نقدر لا إله حق إلا الله، وهذا صريح في القرآن والله ـ تعالى ـ سماها آلهة فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩] سماه إلهًا، وما هو فيه محاجة للمشركين حتى نقول: هذا من باب التنزل مع الخصم، وقال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وقال الرجل الصالح الناصح لقومه: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس:٢٣] فاتفق على ذلك الوحي المنزل وكلام الرسل وكلام الصالحين.

قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾ إذن: إله بمعنى مألوه، والصيغة هذه بمعنى مفعول وهي كثيرة في اللغة العربية ومنها الغراس والبناء والفراش وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ هذا في مخاطبة اليهود واضح لكن في مخاطبة النصارى كيف يصح أن نقول: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ وهم يعبدون المسيح ويرونه إلهًا ويقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]؟

الجواب: نرد على زعمهم بأن الله ثالث ثلاثة بأن ننكر أن يكون الله متعددًا، ونلزمهم بذلك؛

لأن الله ـ عز وجل ـ يقول يوم القيامة لعيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] الله يعلم أنه ما قال هذا لكن من أجل إبطال دعوى قومه وإلزامهم بالحجة.

قال: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٦ ـ ١١٧].

وقولنا: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ هذا فيه أيضًا إلزام لهم بالقبول: فإذا كان الإله واحدًا، ونزَّل الكتاب السابق ثم نزل الكتاب المهيمن اللاحق فالواجب علينا وعليكم؟ اتباع هذا الذي نزل من عند الإله المتفق عليه بيننا وبينكم، ومثل ما لو قال قائل ـ ولله المثل الأعلى ـ لكن على سبيل التمثيل: الملك واحد أمرنا بأمر، وأمركم بأمر الواجب علينا جميعًا ما دمنا نعترف أنه هو الملك على الجميع الطاعة فكلٌّ يطيعه فيما أمر به، فأنتم أمرتم بشيء ثم نُسخ هذا الأمر إلى هذا الأمر الثاني من إله واحد فالواجب علينا جميعًا أن ننصاع تحت أمر هذا الإله الواحد.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ نحن أي وحدنا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لهذا الإله الواحد مسلمون، وتقديم المعمول يفيد الحصر يعني: له، لا لغيره مسلمون، والمراد بالإسلام هنا الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، والاستسلام ظاهرًا واضح أن يقوم الإنسان بالأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاستسلام باطنًا إخلاص النية لله ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] إسلام الوجه أي: إسلام القصد، وهو محسن بالعمل الصالح وهو عمل الجوارح، فقوله: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ المراد به الاستسلام ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا فسر العلماء الإسلام بأنه الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: وأما أنتم فمعناه أنكم لم تسلموا له وإنما أسلمتم لأهوائكم، ولهذا يجب على كل مؤمن أن يكون مسلمًا لله وحده مسلمًا ظاهرًا وباطنًا.

قال المؤلف: [مطيعون] ففسر الإسلام بالطاعة، والطاعة هي موافقة الآمر أو الناهي بما يريد، يعني: أنها فعل المأمور وترك المحظور على الوجه الذي قصد من الآمر أو الناخي.

مسألة: ما الفرق بين الإسلام والإيمان؟

الجواب: الإسلام والإيمان إذا ذكر أحدهما شمل الآخر فالإسلام عند ذكره وحده يشمل الإيمان، والإيمان عند ذكره وحده أيضًا يشمل الإسلام، وإذا قُرنا صار الإيمان في الباطن والإسلام في الظاهر ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ

هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]

قال المؤلف: [﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ﴾ القرآن كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها]،﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذه دائمًا تقع في القرآن وكثيرًا ما يعبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها وقد مر علينا إعرابها. وهي مفعول مطلق، بمعنى مثل مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره مثل ذلك.

فيكون المعنى: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا إليك الكتاب، ووجود هذا كثير في القرآن مثل ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل:٣٤]، أي: ومثل ذلك الفعل يفعلون، وربما تكون أيضًا الأخيرة هذه مفعولًا به مقدمًا.

قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخطاب في قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ إضافة الله إليه؛ لأنه كلامه، فالقرآن كلام الله لفظًا ومعنًى، هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي دل عليه القرآن والسنة وإجماع الأئمة وهو مخالف لقول الأشاعرة: إن القرآن كلام الله معنًى لا لفظًا وأن هذه الحروف مخلوقة خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لتكون حكاية أو عبارة عن كلامه، أما أنه كلامه فلا، ويجعلون الكلام هو المعنى القائم بالنفس، والغريب أيضًا أنهم يقولون: إنه قديم يعني: لا يتجدد وأنه بمعنًى واحد وأنه قل مثل هذا وكان الخبر مثل الأمر وأن التوراة والإنجيل والقرآن وسائر ما يتكلم الله به شيء واحد، وكل هذا تصوره كافٍ في رده فهو في الحقيقة إنكار لكلام الله؛ ولهذا قال بعض محققيهم: الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة والجهمية فإننا جميعًا متفقون على أن ما في دفتي المصحف مخلوق لكن هم أشجع منا، ـ المعتزلة أشجع ـ يقولون: هو مخلوق لفظًا لا معنًى.

على كل حال هذا محل بحث في العقائد.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن وسمي كتابًا بمعنى مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة وفي المصاحف التي بأيدينا، وفي قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الفاء للتفريع تفرع عن إنزال الكتاب على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم آتاهم الكتاب فآمنوا به، وقسم آخر لم يؤمن به، فقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وقسم آخر لم يؤمنوا به.

فقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قال المؤلف: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام، وغيره] ولكن هذا التفسير فيه شيء من الإشكال، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به بهذا القرآن هل جميع الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به؟

لا، أكثرهم في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما آمن به، لكن الذين آتيناهم الكتاب إيتاءً كونيًّا وشرعيًّا، بمعنى أن الله آتاهم الكتاب وعملوا به فهؤلاء الذين أوتوا الكتاب على وجه

الكمال والإطلاق هم الذين آمنوا بالقرآن، مثل عبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، وسلمان الفارسي آمن بما في القرآن؛ لأنه تلقى العلم عن أهل الكتاب، فهؤلاء ثلاثة أصناف: اليهود والنصارى ومن تلقى عنهم، فكلهم فتح الله عليهم وآمنوا بهذا القرآن.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ﴾ بمعنى: أعطيناهم، وليست جئناهم، وما الفرق بين جئناهم وبين أعطيناهم؟ الفعل (أتى) من الرباعي بمعنى أعطيناهم، ومن الثلاثي بمعنى جئناهم.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [بالقرآن] ويصدقوه، فأهل العلم منهم الراسخون فيه الذين يريدون الحق لا شك أنهم آمنوا بالقرآن واتبعوه ورأوا أنه الحق. أما على القول بأن التقدير بأن معنى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: نزل إليهم الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بمعنى يعرفون أنه حق ولكن لا يؤمنون به فهو خلاف ظاهر الآية، وإن كان المعنى المشار يحتمل لكن خلاف ظاهر الآية؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

قال المؤلف: [﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكة] (مِنْ) هذه للتبعيض وعلامة من التبعيضية أن يحل محلها بعض، يعني: وبعض هؤلاء يؤمن به والإشارة إلى هؤلاء يراد بها أهل مكة، لأن هذه السورة مكية والمشار إليهم قريبون إذ أنها نزلت قبل الهجرة، ﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، فهناك تشابه بين الفريقين فيكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب ومن هؤلاء من يؤمن به كأن المؤمنين بذلك من قريش قلة بعضهم يؤمن به.

وقوله: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الإيمان - كما سبق - عند الإطلاق يراد به التصديق المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرد التصديق، ولكن مجرد التصديق ليس بإيمان وإلا لكان أبو طالب مؤمنًا، ولكنه لابد أن يكون مستلزمًا للقبول، أي: قبول ما جاء به الرسول ﷺ والإذعان وهو الانقياد، أما غير ذلك فليس بإيمان.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ قال المؤلف: [بعد ظهورها ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: اليهود وظهر لهم أن القرآن والجائي به محق وجحدوا ذلك]

وهذا استثناء مفرع لما بعده، وعلى هذا نعرب: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فاعل لـ﴿يَجْحَدُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ المعروف أن الجحود يتعدى بنفسه، فيقال: جحد الشيء، لكنه هنا مضمن لمعنى الكفر أي: وما يكفر بها جحودًا إلا الكافرون.

فلو قال قائل: إذا قيل: ما يكفر بها إلا الكافرون صار تحصيل حاصل.

فنقول له: ليس تحصيل حاصل؛ لأننا نقول: وما يجحد بها أي: ما يكفر بها جحودًا، والكفر قد يكون جحودًا وقد يكون استكبارًا وهنا كفر الجحود.

وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الشرعية و الكونية؛ لأن من الناس من جحد الآيات الكونية، جحد أن الله

يحيي الموتى، بل من الناس من جحد أن تكون هذه الخليقة بخالق والآيات الشرعية الجحد بها كثير.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مفهومه أن غير الكافرين يقرون بها، وعلى هذا فنقول: كل من جحد شيئًا من آيات الله فإنه يستحق من الكفر بقدر ما جحد، إما كفرًا مطلقًا أو أقل.

وقول المؤلف: [أي اليهود]. هذا من باب القصور، فهذا قصور في التفسير، لأن قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أعم من اليهود؛ لأن (أل) اسم موصول.

قال ابن مالك:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ أَل

ولهذا كانت للعموم، ما يجحد إلا الكافر، وعليه فتكون تشمل اليهود وغير اليهود أليس الله تعالى قد قال عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] وهل فرعون وقومه من اليهود؟ لا، بل هم من الأقباط وقبل أن يكون بنو إسرائيل يهودًا.

قال الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** وجوب تلاوة القرآن، وقد سبق أن التلاوة ثلاثة أقسام: تلاوة اللفظ، والمعنى، والابتداء، وذكرنا أثرًا يدلُّ على ذلك: (كانوا - أي الصحابة - لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل).

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن النبي ﷺ رسول، وتُؤخذ من قوله: ﴿أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أهمية الصلاة والعناية بها، وتُؤخذ من قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإنها داخلة في تلاوة ما أوحي إليه فخصَّها بالذكر للعناية.

٤ - **ومنها:** أنه ليس المقصود فعل الصلاة؛ بل إقامة الصلاة، ولا يخفى على الجميع الفرق بين الإقامة وبين مجرَّد الفعل، فيكون المأمور به إقامة الصلاة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** الآثار الحميدة على إقامة الصلاة، وهي: النهي عن الفحشاء والمنكر.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** فضيلةُ ذكر الله عز وجل، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٧ - **ومنها:** أن الأمور الإيجابية أكمل من الأمور السلبية؛ لأنَّ النهي عن الفحشاءِ والمنكر أمرٌ سلبيٌّ، وذكر الله أمرٌ إيجابيٌّ، ولهذا قال العلماء: إن الصبر على طاعة الله أكمل من الصبر عن معصية الله؛ لأنه صبرٌ على فعل معاناة ومشقة، فالإنسان يُجرِّبُ نفسَه في الصبر على طاعة الله من وجهين: من جهة إلزامه بها، ومن جهة الصبر والتحمُّل على هذه الأفعال أو الأقوال.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ إذا كانت مُضافة إلى الفاعل فمعناها: أن الله يذكُره، وإن كانت إلى المفعول: أنك تذكر الله.

٩ ـ **ويستفاد منها أيضًا:** فضيلةُ ذكر الله للعبد، وأنها من المراتب العالية، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ علم الله، يؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثبات عموم العلم، من قوله: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثبات تعلُّق الله بفعل العباد، من قوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، فيكون فيه ردٌّ على طائفة وهم غُلاة القدرية ـ وليسوا كلهم ـ فغُلاة القدرية قديمًا كانوا يُنكِرون تعلُّق علم الله بفعل العبد، ويقولون: إن الأمر أُنُف؛ أي: مُستأنف، وإن الله ما يعلم بأعمال العباد إلا إذا عملوها، ولا شكَّ أن هذا كفرٌ، كما قال الشافعي وغيره: (جادِلوهم بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصِموا، وإن أنكروه كفروا).

١١ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** إثباتُ الأفعال الاختيارية للمرء ونسبتُها إليه، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، ففيها ردٌّ على طائفة ضدَّ القدرية، وهم الجبرية.

١٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن من لم تنهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فإنه لم يُقِمها؛ لأن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فجعل هذا أمرًا مُرتَّبًا على إقامة الصلاة، إذا لم تنهَك عن الفحشاء والمنكر فإنك لم تُقِمها، وهذه المسألة يجب علينا أن نُحاسِب أنفسنا عنها، لا نقُل: إننا أقَمنا الصلاة حتى ننظر آثارها، فإذا وجدنا أن القلوب لم تتغيَّر، ولم تقلع عن الفحشاء والمنكر بفعل الصلاة علِمنا أننا مُقصِّرون في إقامتها، وإلا لو أقمناها لكانت النتيجة كما قال الله عز وجل.

أما فوائد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

١ ـ يُستفادُ من هذه الآية الكريمة: وجوب اتباع الأحسن في المجادلة، وهذا يؤخذ من الحصر في الآية الكريمة، فلا تُجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، والنهي يقتضي التحريم، فإذا حرُمَت المجادلة إلا بالأحسن، معناه: وجَبَت المجادلة بالتي هي أحسن.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه يجب على المرء أن يعرف ما عند خصمه ليُجادِله به، فيمكن أن نقرأ في التوراة والإنجيل لنجادل اليهود والنصارى، وإلا ففي القرآن كفاية للرد عليهم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** ألَّا نُجادِل غير أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، كما لو جادَلْنا الفلاسفة وغيرهم، ما نُجادِلهم إلا بالتي هي أحسن.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه يجب في المُجادلة اتباع ما يكون أشدَّ إقناعًا، وإبطالًا لحُجَّة الخصم، من قوله: ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقد ذكرنا في التفسير أنه إذا كانت المجادلة تفتح باب المنازعة فإنه يُترَك هذا الباب إلى بابٍ لا تُمكن المنازعة فيه، وذكرنا مثالًا على هذا: قصة إبراهيم، لما قال له

الذي حاجَّه: ﴿أَنَا أُحْيِ، وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وحينئذٍ ما عاد يقدر يُجادِل أبدًا، فأنت إذا سلكت طريقًا في مُحاجَّة غيرك، ورأيت أن هذا الطريق سيفتحُ باب الجدل؛ فماذا تصنع؟

لا بأس أن تتنازل عن هذه الطريقة؛ لأن بعض الناس قد لا يتنازل عن الطريقة التي وضعها خوفًا أن يُظنَّ أنه مُنهزِم، لكن إذا كان عندك أدلة وطرقٌ أخرى لإفحام الخصم فلا حرج؛ بل قد يجب أن تعدِل عن الأول إلى الثاني؛ لأنه لا ضير عليك حتى تقول: سأبقى في هذا الطريق.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن الظالم في المُحاجَّة لا يُجادَل بالتي هي أحسن، لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، ولكن هل يُترَك أو يُستعمل معه الشدة؟

ذكرنا فيما سبق أنه على حسب الحال، إن كانت المصلحة تقتضي تركَه تُرِك، أو اتباع الشدة اتبع الشدة.

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن من أهل الكتاب من هو مُعارِضٌ ظالمٌ، ومنهم من يكون خفِيَ عليه الحق، فبالمُجادلة يتبيَّن له، وتُؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فعُلِمَ منه أنهم ينقسمون إلى قسمين: ظالم مُعانِد مُكابِر، وآخر مُسترشد قد يخفى عليه الحق بما لُبِّس عليه من علمائه، فإذا تبيَّن له الحق رجع وأخذ به.

٧ ـ ومن فوائد هذه الآية: سلوك ما يُطمئِنُ الخصم في المناظرة، ما يقتضي اطمئنانه وإلزامه أيضًا، من قوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾؛ لأن هذا يستلزم سكون الخصم، ما دام أن الخصم يقول: إني آمنتُ بما أُنزِل إليك، ثم يستلزم إلزامه، فهو يقول: أنا مؤمن بالاثنين؛ لماذا أنت لا تؤمن بالاثنين؟

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات أن التوراة نزلت من عند الله، وكذلك الإنجيل.

٩ ـ ومنها: إثبات أن التوراة والإنجيل والقرآن أيضًا كلام الله، وهذه تُؤخذ من قوله: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

١٠ ـ ومنها: إثبات العلو لله عز وجل؛ لأن النزول ما يكون إلا من أعلى.

مسألة: هل القرآن عينٌ قائمٌ بنفسه، أو صفة؟

الجواب: صفة؛ لأنه كلام، ليس عينًا قائمًا بنفسه؛ بل هو كلامٌ، إذا كان كلامًا والكلام صفة، فلابد لكل صفة من موصوف، وبهذا نعرف أن القرآن كلام الله.

أما مسألة الإنزال فهي حُجَّة، ولكن فيها شُبْهة، وهي أن يحتجَّ عليك الجهميُّ فيقول: إن الله قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ومعلومٌ أن الأزواج الثمانية مخلوقة، وسمَّاها الله تعالى إنزالًا، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والحديد لا شكَّ أنه مخلوق!

ولكننا ننفكُّ عن هذا الإيراد بأن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها، والعين القائمة بنفسها، فإنها مخلوقة بكل حال، فكل ما سوى الله من الأعيان فإنه مخلوق.

١١ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن أهل الكتاب يُقرُّون بألوهية الله، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.

أوردنا في التفسير على هذه الآية إشكالًا: وهو أن النصارى ما يُوحِّدون الله، فحقيقة قولهم عدم التوحيد؛ لأنهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وأن الإله مُكوَّن من أقانيم ثلاثة وهي: الأب، والابن، وروح القدس، أو خلاف ذلك مما يصطلح عندهم.

فنقول: هم يزعمون أنه إلهٌ واحدٌ في ثلاثة، وهذا لا شكَّ أنه مُكابَرة؛ كيف يكون إلهًا في ثلاثة، وكل واحدٍ قائمٌ بنفسه منفرد عن الآخر، لكن الذي جاء في الإنجيل والذي جاء في التوراة أن الإله واحد.

١٢ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن الإسلام إنما يكون لله سبحانه وتعالى، تُؤخذ من تقديم المعمول في قوله: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحصر، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[البقرة: ١١٢].

فوائد قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

١ ـ يُستفادُ من هذه الآية: أن القرآن مُنزَّلٌ من عند الله في قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، وأنه كلامُه، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وأنه كلامُه بحروفه، لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والذي يُكتب هو الحروف، وعلى هذا فيكون القرآن كلامُ الله حروفه ومعانيه، وكلها كلام الله عز وجل.

وسبق في التفسير أشرنا إلى أن الأشاعرة ومن نحا نَحْوَهم يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وهذه الحروف مخلوقة، فهي عبارة عنه أو حكاية، هم يقولون: عبارة الأشاعرة، والكُلَّابية أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب الذي تتلمذ عليه الأشعري يقولون: إنه حكاية وليس عبارة، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: إنه كلام الله تعالى حقيقةً، لا حكاية، ولا عبارة.

٢ ـ يُستفاد من قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإشارة إلى أن القرآن الكريم مكتوب، وذكرنا أنه مكتوبٌ في ثلاثة مواضع، وهي: اللوح المحفوظ، والصُّحُف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدينا.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية: في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أن من أهل الكتاب من آمن به فعلًا، لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد: البعض؛ مثل: عبد الله بن سلام.

٤ ـ وهذه الآية يُستفادُ منها: الاستشهاد بالغير على صحة المُدَّعى به، أن الإنسان يستشهد بغيره

من خُصومه، من قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وهذه الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيُقال: ممن أوتي الكتاب منكم أنتم أيها اليهود أو النصارى من آمن بهذا القرآن، وهذه الحُجَّة مفيدة جدًّا عند المناظرة وهي أن تحتجَّ على الطائفة بقول بعض علمائها، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره يحتجُّ مثلًا على الفلاسفة بقول بعض نُظَّارهم، فقد احتجَّ على بُطلان مذهب المتكلِّمين مثلًا بقول الرازي[1] - المفسر لا الطبيب وهو من أكابرهم - قال:

نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ العُقُــولِ عِقَــالُ ... وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وَأَرْوَاحُنَـا فِي وَحْـشَةٍ مِـنْ جُـسُومِنَا ... وَغَايَــةُ دُنْيَانَــا أَذًى وَوَبَــالُ

وَلَمْ نَـسْتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمْرِنَـا ... سُوى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

وهذه فائدة عظيمة، والشاهد من هذه الأبيات هو نفسه يتكلَّم بهذه الأبيات إما مُنشِدًا أو مُنشِئًا، لكنه سبقها كلامٌ، يقول: (لقد تأمَّلتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أرها تُروِي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ووجدتُ أقرب الطرق في ذلك طريقة القرآن، أقرأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأقرأُ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرَّب مثل تجربتي عَرَفَ مثل معرفتي) هذا صريحٌ بأن الرجل أقرَّ على نفسه بأن هذه المذاهب الفلسفية كلها لا خير فيها، لا تشفي العليل، ولا تروي الغليل.

فالاحتجاج على الطائفة بقول زعمائها من أقوى الحُجَج، والقرآن سلك هذا المسلك كما في هذه الآية وغيرها.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن من قريش من آمن بالقرآن، لقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فيكونوا حُجَّة على الذين لم يُؤمنوا، ومعلوم أنه آمن من قريش من أشرافهم ووجهائهم من سبقوا إلى الإسلام؛ مثل: أبو بكر ﵁ كان من أشرافهم، وكانوا يرجعون إليه في معرفة الأنساب، ومعروف بالكرم أيضًا، فإن أوصافه ﵁ كأوصاف النبي ﷺ يحمِل الكلَّ، وكذلك أيضًا يُعين على نوائب الحق، ومع ذلك كان أسبق الناس إلى الإيمان بالرسول ﷺ، ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فلماذا تُنكِرون أنتم وفيكم من آمن؟

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن كل من جحَد بآيات الله فهو كافر، لقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، هل هذا يشمل جحد الآيات عمومًا، أو حتى أفرادها؟ حتى أفرادها؛ يعني:

---

(١) انظر «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١١٠).

ما هو لازم أن يجحد القرآن كله، فلو جحد بعضه وأقرَّ ببعض حُكِم بكفره، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ١٥٠، ١٥١].

فمن آمن ببعض وكفر ببعض، علمنا يقينًا أن إيمانه ليس بحق، لو كان إيمانُه حقًّا لم يكن هناك فرقٌ بين ما آمن به وكفر به، وإنما هو لمجرد هواه، إذنْ من جحد شيئًا من الشريعة الإسلامية فإنه كافر ولو آمن بالبعض، ولكن هذا مشروطٌ بالعلم، فإذا انتفى العلم وجحده لعدم علمه لم يكفر حتى يتبيَّن له الحق؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكذلك أيضًا يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا بيَّن لهم ما يتقون ولم يتَّقوا، حينئذٍ حكم بضلالهم، أما أنه يُضِلُّهم جلَّ وعلا قبل أن يُبيِّن لهم ما يتقون هذا لا يمكن؛ لأنه ليس مما تقتضيه حكمة الله وعدلُه، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأخذ أهل العلم بذلك فقالوا: من نشأ بالبادية أو بدار كفرٍ وجحد ما هو معلومٌ عند المسلمين بالضرورة فإنه لا يكفر حتى يُعرَّف به، فإذا عُرِّف به وتبيَّن له ثم أنكر حينئذٍ يكفر، وهذه مسألة يجب علينا أن نتأمَّلها؛ لأن بعض الإخوة الغيورين على دينهم يحكمون بالتكفير على سبيل الإطلاق، وهذا خطأ، فإنه ثبت عن النبي ﷺ أن من دعا رجلًا بكفر[1]، أو قال: يا عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه، وأيضًا الحكم بالتكفير حكم من أحكام الله؛ لأن قولك عن هذا الرجل: إنه كافر، كقولك عن هذا الطعام: إنه حرام، أو إنه حلال، فالحكم بالتكفير والإيمان لله، فلا يجوز أن تُكفِّر إلا من كفَّره الله ورسولُه؛ بل ولا يجوز أن تُفسِّق إلا من فسَّقه الله ورسولُه، فالأمر ليس إليك، والحكم على العباد بيد خالقهم سبحانه وتعالى، إن حكم عليهم بالكفر والفسق فاحكم به، وإلا فلا.

كذلك أيضًا من شروط التكفير: ألَّا يوجد مانعٌ منه، فإن وُجِد مانع من التكفير لم يُكفَر؛ لأن العلم بما يُوجِبُ الكفر شرط، كذلك انتفاء المانع شرط، فإن وُجِد مانع يمنع من التكفير لم يُكفَّر.

والموانع كثيرة، **منها:** الإكراه، فلو أُكرِه رجلٌ على الكفر وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، فهو مؤمن بنصِّ القرآن وإجماع المسلمين، وكذلك أيضًا: ألَّا يحول دون إرادته حائل يمنعه الإرادة والقصد، فيكون خرج منه الكفر بغير قصدٍ، فإذا خرج منه الكفر بغير قصد لا يكفر، ولو كان

---

(١) كما روى البخاري (٥٧٥٣)، ومسلم (٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما).

كفرًا صريحًا كالشمس ما دام بغير قصد؛ مثل: أن يكون غاضبًا غضبًا شديدًا، أو فرِحًا فرحًا شديدًا، أو خائفًا خوفًا شديدًا، فيُطلِق الكفر من غير إرادة، فهذا لا شك أنه لا يكفر، وقد قال النبي ﷺ في فرح الله بتوبة عبده المؤمن، أنه «**كَرَجُلٍ أَضَلَّ بَعِيْرَهُ**[1] **وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَلَمْ يَجِدْهَا فَنَامَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ المَوتَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَإِذَا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَة، فَأَخَذَ بِالخِطَامِ، وَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**» هذه الكلمة كفر؛ يعني: لو قال: أنتَ عبدي فقط لكفر؛ كيف وقد قال: وأنا ربك أيضًا؟! فادَّعى لنفسه الربوبية ولربِّه العبودية، لكن قال النبي ﷺ: «**أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ**»[2].

فالحاصل من هذه المسائل: يجب علينا أن نقول: إن التكفير لابد فيه من وجود الشروط وانتفاء الموانع، وهذا الأمر - أي: باعتبار وجود الشروط وانتفاء الموانع - ليس خاصًّا بمسألة التكفير، أظننا نعلم جميعًا أنه عام، فكل الأشياء ما تتم إلا بوجود شروطها، وانتفاء موانعها.

مسألة: إذا ادَّعى الجهل ومثلُه لا يجهلها؛ هل يُقبل؟ قال: ما علِمتُ أنه واجب، ولو علِمتُ أنه واجب ما جحدتُه.

نقول: الحمد لله، إذا قلتَ هكذا فأنت الآن تُبت، ما دُمت تقول: أنا ما علِمت أنه واجب، ولو علِمتُه ما جحدتُه، الآن أقررتَ به، لكن لو أنه جحَدَه رأسًا قبل أن يُطالِبه - إذا كان مثلُه لا يجهل ذلك - فهو كافر.

فلو جحد تحريم الزنا وهو ناشئٌ في البلاد الإسلامية المُحافِظة، وقال للناس: إنها حلال، فهذا لا يُعذَر؛ لأنه مشى في بلاد إسلامية محافِظة، أما لو نشأ في بلاد إسلامية مُتهتِّكة فيها أسواق الزنا فيها مفتوحة، وجَحَد تحريم الزنا فهذا يعذر ما دام هناك شُبْهة، فإن الحُدود تُدرَأ بالشُّبُهات، والإنسان المسلم هو مُسلمٌ، ولا يمكن أن يخرج من الإسلام إلا بيقين.

الآن تحريم الربا، فلو نشأ الإنسان مثلًا في بلاد أموالها كلها ربوية، وتتعامل بالربا في البنوك وغيرها، وقال: ما أعرف أنه حرام، يمكن يصير هذا حقًّا؟ نقول: يمكن، الإنسان إذا عاش في شيءٍ ما يدري عنه.

الآن الذين نشأوا في بلاد ينتحل علماؤها طريقة الأشاعرة، إنهم لا يدرون عن مذهب أهل السنة شيئًا، ويحسبون هذا هو الحق، حتى إن منهم من يُؤلِّف ويقول: إن مذهب أهل السنة والجماعة ينحصِر في مذهبين: الأشاعرة والماتُريدية؛ لأنه جاهل، وهذه بليَّةٌ عظيمة مسألة الجهل.

وعندنا الآن عند العامة، العامة يظنون أن ما هناك مذهب إلا مذهب الحنابلة، حتى إن

---

(١) أي: فقده.

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧) عن أنس رضي الله عنه.

بعضهم سُئِل في حضرة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ ، قال له: ما هو مذهب النبي ﷺ ؟ قال: مذهب النبي ﷺ حنبلي.

٧- ومن فوائد هذه الآيات: أن القرآن مُغنٍ عما سواه من الآيات، وقد سبق في التفسير وجه ذلك.

٨ - **ومن فوائدها:** أن القرآن كلام الله، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والشيء المُضاف إلى الله عز وجل إذا كان غير عينٍ قائمةٍ بنفسها فإنه صفة من صفاته، أما إذا كان عينًا قائمة بنفسها، أو وصفًا في ذلك العين فإنه مخلوق، وتكون إضافته إلى الله إما من باب إضافة التكوين، أو من باب إضافة التشريف.

فالمُضاف إلى الله إذنْ ثلاثة أنواع:

صفة، وعينٌ قائمة بنفسها، وصفةٌ في تلك العين.

فالصفة تكون صفةً لله لاستحالة قيام الصفة بدون موصوف، وهي قد أُضيفَت إلى الله في هذا الموضع فتكون صفةً له؛ مثل: عزة الله، وقدرة الله، وسمع الله، وبصر الله، وما أشبه ذلك.

والثاني: عينٌ قائمةٌ بنفسها أُضِيفَت إلى الله، فهي ليست من صفاته؛ بل هي مخلوقٌ من مخلوقاته، وأُضِيفت إليه إما من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وإما من باب التشريف؛ فقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] هذا من باب إضافة التكوين والخلق، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، و(بيت الله) هذا للتشريف، ومنه أيضًا: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠] فإنها من باب إضافة التشريف؛ لأن المراد: أرضه التي تُقام فيها عبادتُه.

والوصف؛ مثل: إضافة الروح إلى الله عز وجل، روح آدم، وروح عيسى، فإن الروح وإن كانت جسمًا لكنها تحِلُّ بالجسد، فهي تُشبِه الصفة فتكون مخلوقًا؛ لأنها روح من جسدٍ مخلوق، فتكون مخلوقة.

٩ - **ومن فوائد الآية:** إثبات علو الله.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨-٥٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ ﴾ قال المؤلف: [أي: القرآن] ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾.

قوله: ﴿مِن كِتَابٍ ﴾ ﴿مِن ﴾ حرف جر، زائدةٌ إعرابًا، لكنها مُفيدة معنى، ومحلها من الإعراب: النصب على أنها مفعول به أي: وما كنت تدري كتابًا.

وكلمة ﴿مِن كِتَابٍ ﴾ قال بعضهم: إنها توكيد لـ ﴿تَتْلُوا ﴾؛ لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب، وأنه لو قال: وما كنتَ تتلو شيئًا، لاستقام الكلام؛ وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن الذي يُتلَى قد يكون مكتوبًا، وقد يكون مسموعًا، عندما أسمع منك كلامًا وأُتابِعُك فيه أكون قد تلوتُه، فـ ﴿مِن كِتَابٍ ﴾ في ظنِّي أنها ليست من باب التوكيد، وإن كان بعضهم زعم ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ من باب التوكيد؛ يعني: لو قال قائل: هنا بيمينك احترازًا من بـ (يسارك)، وأن النبي كان يكتب باليسار مثلًا، ما يستقيم الكلام، إذن فهذه يتعيَّن أن تكون من باب التوكيد، وليست من باب التقييد؛ لأننا لو قلنا: إنها من باب التقييد لكان مفهومُها: وتخطُّه بيسارك، لكنها من باب التوكيد، قالوا: وهي كقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[الأنعام: ٣٨]، فإن الطيران معروف أنه بالجناح، ولهذا إذا كُسِر جناحُ الطائر لا يطير.

وإن كان بعض المتأخِّرين يقول: إن قوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ احترازًا من التقييد وليس بتأكيد، وأنه احترازٌ من الطيارات الموجودات الآن؛ لأن الله يعلم أنه سيكون طائرٌ بدون جناح، وهذا ليس مستقيمًا.

وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ هل يُؤخذ **منها**: أن الذي يكتب باليمين أحسن من الذي يكتب باليسار؟

الظاهر: أن الأخذ والإعطاء والكتابة والضرب يكون باليمين، ونادرًا أن يوجد أحد يعمل باليسار، وأندر منه من يعمل بهما جميعًا على السواء.

وقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ هذه إذ مُنوَّنة، ويُسمِّي علماء النحو هذا التنوين تنوين العِوَض - عِوَض عن جملة -، وتقديرها: إذ لو كنت تتلو من قبله من كتاب، أو تخُطُّه بيمينك لارتاب المُبطِلون.

على هذا نقول: ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (اللام) واقعةٌ في جواب (لو) المحذوفة في الجملة

المُعوَّض عنها بالتنوين، كقول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] أي: يوم إذ تقوم الساعة، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٤] حين إذ بلغت الحُلقُوم، وهذا كثيرٌ في القرآن.

قال: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى: شكَّ، إلا أن أهل العلم يقولون: إن الرَّيبَ والشكَّ بينهما فرقٌ، فالرَّيبُ شكٌّ بقلق، والشكُّ تردُّدٌ بدون قلق؛ يعني أنهم لو كنتَ على هذا الحال لارتاب المُبطِلون.

وقوله :﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ما قال: لارتاب الناس؛ لأنه حتى لو فُرِض أن النبي ﷺ يتلو كتابًا من قبل ذلك ويخُطُّه بيمينه، وأتى بهذا القرآن مع وجود الآيات الدالَّة على صدقه؛ هل يحصل ارتياب؟ لا، لكن المُبطِل قد يحتجُّ بالشُّبْهَة ويراها بيِّنة.

وقوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ (أل) هنا إعرابها عند النحويين: اسم موصول، صلتُه: مُبطِلون. قال ابن مالك:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (أل)

وقوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المائلون إلى الباطل، أو الداخلون فيه؛ لأن زيادة الهمزة قد تُفيد الدخول في الشيء؛ مثل ما يُقال: أَحصد الزرع؛ يعني: دخل في وقت الحصاد، ويُقال: أنجَدَ الرجل؛ أي: دخل في نجد، وأبطل؛ أي: دخل في الباطل وأخذ به، كما أنه المُبطِلون أي: المُبتَغون للباطل الداخلون فيه.

الفوائد:

١- يُستفادُ من هذه الآية الكريمة: أن رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يُنزَّل عليه القرآن، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، واختلف العلماء هل صار يُحسِن القراءة والكتابة بعد نزول القرآن عليه، أو لا؟

جمهور الأمة على أنه لا يُحسِنها، وأنه عليه الصلاة والسلام مات وهو لا يقرأ ولا يكتب، واستدلُّوا لذلك بأن النبي ﷺ كان أُمِّيًّا، وصفه الله بأنه: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، والأُمِّيُّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا الوصف الأصل بقاؤه حتى يتبيَّن زوالُه.

واستدلُّوا أيضًا بأنَّ الرسول ﷺ كان لديه كُتَّاب يكتبون الوحي والرسائل للملوك الذين يدعوهم إلى الله عز وجل، ولو كان يكتب بيده لكانت كتابته بيده أوثق وأبلغ اطمئنانًا للمكتوب، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن ليَدَع ما هو أوثق وأقوى اطمئنانًا لأمرٍ دونه إلا عند العجز عنه.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي ﷺ صار يُحسِنُ الكتابة والقراءة بعد نزول الوحي عليه، واستدلُّوا بأن الله قال هنا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾، فمفهوم: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ يقتضي أنه

بعد ذلك لا يمتنع عليه أن يقرأ أو يكتب، واستدلُّوا أيضًا بأن النبي ﷺ في غزوة الحُديبية لما أمر عليَّ بن أبي طالب أن يكتب: هذا ما قاضى عليه محمدٌ سُهَيلَ بن عمرو، فأبى رضي الله عنه أن يكتبها، وقال: ما أمحو اسمك؛ لأن أول ما كتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سُهيل بن عمرو، وذلك لما قال سهيل: ما يمكن أن تكتب رسول الله؛ لأننا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك، فأمَر النبي ﷺ عليًّا بمحوها فأبى عليٌّ رضي الله عنه، فأخذها النبي عليه الصلاة والسلام فمحاها، وكتب: محمد بن عبد الله، هذا لفظ البخاري[1].

قالوا: فكلمة «كتب» تدلُّ على أنه باشَر الكتابة.

والثالث: أن هذا – أي: أنه كان يقرأ ويكتب – هو الأظهر بعد أن نزل عليه القرآن؛ لأنه ﷺ أعطاه الله تعالى عقلًا، وأعطاه علمًا، والعاقل العالم لا يشقُّ عليه أن يقرأ أو يكتب بعد أن ينزل عليه القرآن؛ لأن تعلُّم هذا يكون في الصِّبيان الصغار؛ فكيف بمثل حال الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يمتنع عليه ذلك.

وأجابوا عن احتجاج أولئك بقولهم: إن وصفَه بالأُمِّي لا يُنافي أن يكون تعلَّم الكتابة بعد ذلك، من وجهين:

الوجه الأول: أن وصْفه بكونه أُمِّيًّا لا يعني الوصف الشخصي؛ إذ قد يُرادُ به أنه من الأُمِّيِّين، فيكون الأُمِّي مثل: القرشي، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، أو يُقال: إنه كان أُمِّيًّا حين نزول القرآن عليه. هذا جواب.

والجواب عن كون الرسول عليه الصلاة والسلام له كُتَّابٌ: هو أن الكبير والرئيس جرت العادة أن يكون له كُتَّابٌ يكتبون له ما يُريد، كما هو مشهور، فهذا شأن النبي ﷺ مع كُتَّاب الوحي، وكُتَّاب الرسائل إلى الملوك.

وقالوا: إن المحظور الذي يتحقَّق أو يُخشَى منه بكون الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ أو يكتب قد زال، بعد أن نزل عليه الوحي وهو لا يقرأ ولا يكتب وثبتت الرسالة، فإنه قد زال، وإن كان يمكن أن يُقال: إنه قرأ أو كتب ما ينزل عليه من الوحي شيئًا فشيئًا، لكن الأصل أنه بعد ثُبوت نبوَّته في أول مرة زال هذا المحظور.

وتوسَّط بعض أهل العلم فقال: إن الرسول ﷺ لا يقرأ ولا يكتب صناعةً؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، وأما ما وقع منه يوم الحديبية فهو إما أنه من آيات الله؛ يعني: أنه معجزة، أن يكون هو لا يقرأ ولا يكتب، ثم في تلك اللحظة الحرجة صار يقرأ ويكتب، وكتب اسمه، وطبعًا قرأ، فمن كتب قرأ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٥٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

أو يُقال: إنه كتب؛ أي: أمر من يكتب، فإن الأفعال تُسنَد إلى من يأمر بها، وهذا كثير، والله تعالى دائمًا يُسنِدُ أفعال الخلق إلى نفسه؛ لأنه مُدبِّرٌ لها، ويُقال في المثل: بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، هو ما بناها بنفسه، وإنما الذي بناها العمَّال بأمره، المهم: أنهم حملوا قوله: (كتب) على أمره أن يكتب.

وقال بعضهم: إن الرسول ﷺ كان يعرف أن يكتب اسمَه فقط، لا أنه آية في تلك اللحظة، ومن كان يكتب حرفًا دون حرف، أو أكثر الحروف ما يكتبها، وأكثر الكلمات ما يكتبها، هل يخرج عن وصفه بكونه أُمِّيًّا؟ لا يخرج، ولهذا تجِد الآن كثيرًا من الناس يعرف يكتب اسمه مثلًا، لكن ما يعرف أن يكتب اسم غيره، هل نقول: هذا الرجل كاتب؟ لا نقول.

والخلاصة: أن المسألة ما زالت محلَّ إشكالٍ، والأدلة فيها مُتقابلة، فإذا كانت الأدلة مُتقابلة، فإننا نرجع إلى القاعدة العامة، وهي: أن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فنقول: الأصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكتب ولا يقرأ، فهذا هو الذي نبقى عليه حتى يأتي دليلٌ يُبيِّن لنا بيانًا ظاهرًا بأنه ﷺ تعلَّم الكتابة والقراءة.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن كل مُبطِلٍ فإن الله تعالى قد أبطَل شُبْهَته، ولا نقول: حُجَّته، فالإسلام مُبطِلٌ لجميع شُبَه المُبطِلين، لقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي في المناظرة التنزُّل مع الخصم، وإبطال ما يحتجُّ به حتى عند التنزُّل معه؛ لأن هذا ليس بلازمٍ أن نقول: إنكم كاذبون في إبطالكم نبوَّة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن مع هذا بيَّن الله هذه الآية الواضحة المحسوسة أنه لو كان يقرأ ويكتب لكان في ذلك ارتيابٌ للمُبطِل بمعنى: شُبْهة يحتجُّ بها، وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فأبطل الله هذه الحُجَّة بمثل هذه الحُجَّة، إذ قال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن المُبطِل يتعلَّق بكل شُبْهة؛ لأن كون الرسول ﷺ يقرأ أو يكتب، ثم يقول: إنه أُوحِي إليه ويُؤيِّد ذلك بالآيات، هل يكون كتابته وقراءتُه مانعًا من قبول حُجَّته؟ لا، لكن المُبطِل يتعلَّق بكل شُبْهة، ومع ذلك تنزَّلنا معه وقلنا له: أنت الآن لو زعمتَ أن الرسول تعلَّمه من غيره، فكتبه وجاء يقول: أنا أُوحِي إليَّ هذا القرآن، فإننا نقول لك: إن الرسول ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلْ﴾ للإبطال، وقد سبق لنا أن (بل) تأتي للإضراب، وأن الإضرابُ نوعان:

إضرابٌ لإبطال ما سبق، وإضرابٌ للانتقال منه إلى ما فوقه أو دونه، ولهذا يُقال: الإضرابُ

نوعان: إبطالي، وانتقالي؛ كقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل: ٦٦] نوع الإضراب هنا انتقالي، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾[المطففين: ١٣، ١٤]، هذا إبطالي، حيث أبطَل قولهم: إنها أساطيرُ الأولين.

هنا قال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ ﴾ وهذا يحتمل أن يكون إبطاليًّا أو انتقاليًّا، أما كونه إبطاليًّا فهو لإبطال قولهم: إنه جاء به من عنده، أما كونه انتقاليًّا فإنه لما نفى ما يكون به مُتقوَّلٌ على الله أثبتَ أنه آياتٌ من الله، فيكون انتقالًا من النفي إلى الإيجاب.

قال: [﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي: القرآن الذي جئت به ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: المؤمنون يحفظونه].

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمعها؛ لأن كل آية من القرآن فهي آية على صدق الرسول ﷺ؛ لأن كل آية منه فهي – كما قال أهل العلم – مُعجزة، والله تعالى تحدَّى الناس والعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سُوَرٍ منه، أو بسورة، أو بحديث، ولو آية، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء: ٨٨] هذا عموم القرآن.

والعشر سور، قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[هود: ١٣] وهذه سورة هود.

والسورة الواحدة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[يونس: ٣٨]، وهذه في يونس.

والآية الواحدة: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور: ٣٤]، وهذه في سورة الطور.

إذنْ كل آية منه فهي آية ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ ﴾ والآيات: العلامات ـ كما تقدَّم ـ وسبق أن آيات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى: كونية، وشرعية.

وقوله: ﴿بَيِّنَٰتٌ ﴾ أي: ظاهرات لا إشكال فيها ولا غُموض.

وقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (في) للظرفية، حملها المؤلف وكثيرٌ من المُفسِّرين على أن المراد: حِفظُه عن ظهر قلبٍ، وأن هذا القرآن محفوظٌ في الصدور، ولهذا قال المؤلف في تفسيره: [أي: المؤمنين يحفظونه] ويكون المعنى: أن هذا القرآن محفوظٌ في الصدور.

ويحتمل أن المعنى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: في قلوبهم؛ أي: أنهم يعلمون أنه حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧].

وقد يُقال: إن المراد: النوعَيْن جميعًا؛ أي: حِفظُه في الصدور فإنه يدلُّ على أنه مُعتنًى به ومُهتمٌّ به، وكذلك كونه آياتٍ بيِّناتٍ في الصدور يعترف به أهل العلم.

المهم: أنه لا ينبغي أن نقتصر على أن المراد: أنه في صدورهم يحفظونه؛ بل أنه في صدورهم يعلمونه، ويحفظونه كذلك، فأهل العلم يعرفون في قلوبهم أن القرآن آياتٌ بيِّنات، ولا يمترون في

هذا، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

وقول المؤلف: [﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: المؤمنين]، بناءً على أن المراد به: أهل العلم العاملين به، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ تقدَّم أن الجَحْد هنا بيِّن المعنى أنه التكذيب.

وقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الظلم هنا: الظلم الأكبر؛ لأن الظلم ظُلْمان: ظلمٌ أصغر – وهو ما دون الشرك والكفر –، وظلمٌ أكبر – وهو الكفر والشرك –، وكلاهما موجودٌ في القرآن.

مثال الأكبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]، وكذلك هنا في هذه الآية، وكذلك: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤].

ومثال الظلم الأصغر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[القصص: ١٦]، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[الشورى: ٤٢].

وقوله:﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ قال: [أي: اليهود، وجحَدوها بعد ظهورها].

قوله: [أي: اليهود]،لا شكَّ أنه قاصرٌ، فإن الآية عامة، تشمل اليهود، والنصارى، والمجوس.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن أسلوب القرآن كما يُبطِل الشُّبْهة معنى يُبطِلها لفظًا؛ يعني: باللفظ والمعنى؛ لأنَّ (بل) للإضراب الإبطالي، وليس الانتقالي.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الذي يتبيَّن كون القرآن آية هم أولو العلم، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن محل العقل والوعي القلبُ، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، والقلوب في الصدور، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** جواز التعبير بالمحلِّ عن الحال، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ﴾، والمراد: في قلوب الذين أوتوا العلم التي في صدورهم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** الثناء على العلم، والقدح في الجهل، وجه ذلك: أن الذي يتبيَّن كون القرآن حقًّا هم أهل العلم، وهذه منقبة لهم، والذين يجهلون ذلك هم أهل الجهل، وهذه مذمَّة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** ثبوت كون القرآن آية، لقوله: ﴿بَيِّنَاتٌ﴾، فليس في القرآن خفاء؛ بل كونه آية للرسول ﷺ أمرٌ بيِّنٌ ظاهر.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الجحد بالآيات ظلم، والإقرار بها عدلٌ، لقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، في مقابل ذلك وما يؤمن بها إلا أهل العدل والإنصاف، ولذلك كل من كان مُنصِفًا فإنه لابد أن يُقِرَّ بحقيَّة القرآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: [أي: كفار مكة]؛ يعني: هم الذين اطَّرحوا الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[الإسراء: ٩٠].

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا، فتكون للتحضيض، وهذا إحدى معاني (لولا)، والمعنى الثاني: أن تكون شرطية، حرف امتناع لوجود، مثالها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أما هنا فهي للتحضيض بمعنى: هلَّا؛ ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾[يونس: ٢٠] [أي: محمد ﷺ، وفي قراءة: ﴿آيَةٌ﴾]، والمعنى: واحد؛ لأن ﴿آية﴾ نكرة في سياق ما يُشبِهُ الشرط وهو التحضيض، فكانت للعموم.

وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: علامات على صدقه؛ يعني: لصدَّقناه، أي: هلَّا أُنزل عليه آيات حتى نُصدِّقه، ويتبيَّن لنا صِدقُه.

وقوله: [وفي قراءةٍ: ﴿آية﴾] القراءة هنا سبعيَّة؛ لأن من اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعيَّة، وإذا قال: [وقُرِئَ] فهي شاذة.

قال: [كناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى] فهذه آيات حِسِّية، وهم طلبوا هذه تعنُّتًا، وإلا فقد جاءهم من الآيات الحِسِّية والمعنوية ما هو أعظم، لقد أراهم النبي ﷺ انشقاق القمر[1]، ولقد أخبَرَهم بما رأى ليلة الإسراء والمعراج[2]، فهذه آيات من جنس ما طلبوا، لكن كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وكل إنسان مُتعنِّت لا يمكن أن يقبل؛ لأن من قصدَه الحق يكفيه الآية التي تدلُّ على صدق ما قال صاحبُه، أما المُتعنِّت الذي يقول مثلًا: هاتِ كذا، فإذا جاء به قال: لا، هات غيره، فهذا ما يقبل.

والمُتعنِّت هذا دأْبه، حتى لو جاءت آية على ما يقولون لقالوا: نُريد غيرها، أنت ساحر، نُريد غير هذه الآية.

قوله: [ناقة صالح] قال الله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥] هذا وجهُ قولنا: آية، أما ما ذُكِر في الإسرائيليات من أنها خرجت من الحجر، وما أشبه ذلك، فالله أعلم به، إنما الآية التي أبانها الله هي: أن لها شِرْبٌ، ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم.

[وعصا موسى] آية من وجوهٍ مُتعدِّدة،

منها: أنه إذا ألقاها كانت ثُعبانًا عظيمًا.

---

(١) كما روى البخاري (٣٤٣٨)، ومسلم (٢٨٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) كما روى البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

ومنها: أنها التقمت ما جاء به السحرة من الحبال والعِصِي.

ومنها أنه كان يضرب بها الحجر فيتفجَّر عيونًا.

ومنها: أنه كان قد ضرب بها البحر فانفلق؛ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].وليس منها أنه يهش بها على غنمه؛ لأن هذا يكون لكل أحد.

كذلك أيضًا [مائدة عيسى]، هذا التمثيل من المؤلف يدلُّ على أنه يرى أن المائدة أُنزِلَت، وهذه المسألة فيها خلافٌ بين أهل العلم، فمنهم من قال: إن الله أنزل المائدة على بني إسرائيل، ومنهم من قال: إن الله لم يُنزِلها؛ فأيُّها أقرب إلى ظاهر القرآن ؟

قال الله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٢، ١١٣] وهذا دأب بني إسرائيل أنهم دائمًا شراه[1] البطون، كذلك قالوا أيضًا مع موسى قالوا: حنطة بدل حِطَّة.

وقالوا: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٣-١١٥] إن نظرنا إلى قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ فظاهره أنها نزلت، وإن نظرنا إلى الشرط: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾.

قلنا: إنها ما نزلت؛ لأنه ما جرى هذا التعذيب الذي لم يُعذَّب أحدٌ من العالمين به للنصارى، وأيضًا فإنها لو كانت هذه المائدة نزلت لكانت عيدًا لأولهم وآخرهم، وهي الآن مجهولة، ما هي عند النصارى هذه المائدة، عيد المائدة ما هو موجود عند النصارى، فهذا مما استدلَّ به من يقول: إنها لم تنزل؛ لأن الله تعالى ذكر شرطًا في نزولها لم يوجد، فدلَّ على عدم النزول.

وهذه ثلاث آيات، قلنا: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أُعطِي ما هو أعظم منها، لكن المُتعنِّت لا ينتفع بالآيات.

قال الله عز وجل مُبيِّنًا أن لدى الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم من ذلك:

[﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يُنزِّلها كيف يشاء]، ولو قال: ومتى شاء لكان أحسن.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذه الجملة حصر؛ يعني: ما الآيات إلا عند الله، ليست عندي حتى أُعطيكم ما تقترحون، وإذا كانت عند الله فإنها تبعٌ لمشيئته وحكمته، يُنزِّلُها كيف يشاء، ومتى شاء، وليس الناس هم الذين يقترحون على الله عز وجل الآيات، وإنما الله تعالى هو الذي يُنزِّلُها، فالحكم إذن إلى الله، والله عز وجل يُنزِّلُها لحكمة، ومع ذلك فإننا نعلم علم اليقين أن الله ما

---

(١) الشره: شدة الحرص على الطعام. «الوجيز» مادة (شره).

أرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ لأن الله حكيم، لا يُرسِل رسولًا للناس يقول للناس: أنا رسول الله إليكم أستبيحُ دماءكم وأموالكم ونساءكم إلى أن تؤمنوا بي، هذا لا يمكن أن الله تعالى يُمكِّنُه إلا بآياتٍ تُلزِمُ الناس بقبول قوله، وهذا أمرٌ معلوم أنه يُنافي الحكمة لو جاء رسولٌ بدون آيات؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: هو الذي يأتي بها، لكن تبعًا لمشيئته وحكمته يُنزِّلُها كيف يشاء، ومتى شاء.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [مُظهِرٌ إنذاري بالنار أهل المعصية] هذه أيضًا جملة حصر، وهل الحصرُ في الجملتين: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ حقيقي، أو إضافي؟

الواقع أن الحصر في الأولى حقيقي، أن الآيات ما تكون إلا عند الله، ما أحد يستطيع أن يأتي بها، والثاني إضافي؛ لأنك إذا قلتَ: ما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ، فإن هذا ليس باعتبار الواقع والحقيقة: أنه ليس إلا نذيرًا؛ بل هو نذيرٌ مبين، وبشير، وسراجٌ منير، وبشر.. إلخ، فالحصرُ إذن إضافي؛ أي: بالإضافة إلى كذا، فهو بالإضافة إلى جانب الآيات غير قادرٍ، لكن يقدر على شيءٍ آخر، وهو الإنذار.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ ما هو الإنذار ؟ يقول العلماء: إن الإنذار هو الإخبارُ بالمَخوف، والإخبارُ بالمرغوب بِشارة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشير، وهنا ما قال: بشير؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ إذ هو يُخاطِب المُكذِّبين المُعانِدين.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا بمعنى: مُبيِّن، ولهذا قال: [مُظهِرٌ]، وقد علمنا أن بان وأبان، فـ (بان) لا تُستعمل إلا لازمة، يُقال: بان الصبح إذا ظهر، وبان هذا من هذا، إذا انفصل منه، وأما أبان فتُستعمل لازمة ومُتعدِّية، يُقال: أبان الصبح؛ بمعنى: بان وظهر، ويُقال: أبان الأمرَ؛ بمعنى: أظهره ووضَّحه.

في بعض الأحيان تكون الآية لا تحتمل إلا اللازم، وفي بعض الأحيان لا تحتمل إلا المُتعدِّي، وفي بعضها تصلح لهذا وهذا.

فالرسول عليه الصلاة والسلام نذيرٌ مبينٌ لإنذارهم، أو نذيرٌ بيِّنُ الإنذار، وعلى هذا فيكون النعتُ سببيًّا إذا جعلنا مبين بمعنى: بيِّن، والأصل أن النعت حقيقي وليس سببيًّا.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [أي: مُظهِرٌ إنذاري بالنار أهلَ المعصية].

فالرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأنُه، وهذه وظيفتُه أنه مُنذِر، أنه يأتي بالآيات إذا طُلِبَت، أو أنه يهدي الناس إذا ضلُّوا، فهذا ليس إليه، هذا إلى الله عز وجل، هو الذي يملك هذا.

الفوائد:

١ - **يُستفادُ من هذه الآية:** تعنُّتُ المشركين في طلبهم الآيات، لقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وإلا فنحن نقول لهم: قد جاءتكم آيات!! ولكنهم يقولون هذا تعنتًا.

٢ـ ومن فوائدها: أن المُتعنِّت مُكابِر، لإنكاره ما هو ظاهر، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مع أنها قد جاءتهم الآيات، والنبي ﷺ وغيره من الأنبياء ما أُرسِلوا إلا بالآيات التي يُؤمن على مثلها البشر.

٣ ـ ومنها: إقرار المشركين بالله، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٤ ـ ومنها: إقرارهم بعلوِّه، لقوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فيكون اعتقاد المشركين في الله من حيث العلو أكمل من اعتقاد المعتزلة والجهمية والأشاعرة؛ لأن هؤلاء يُنكِرون علو الله الذاتي، ويقولون: الله لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مُبايِن، وهذا معروف عندهم.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن الرسول ﷺ بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن إضافة الأمور إلى الله تقطع الحُجَج، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ويتفرَّع على هذه المسألة فائدة أخرى في الأحكام الشرعية. إذا سُئِلنا: ما الحكمة من كون كذا كذا وكذا؟

فنقول: هذا من عند الله، هذا حكم الله، وهذا كافٍ لكل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولهذا احتجَّت عائشة على عمرة بـ: (كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَر بقضاء الصوم ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة)، إذن فإسناد الأمور إلى الله كافٍ في إبطال الحُجَج، وهو أعظم حُجَّة، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ ومنها: إثبات قدرة الله عز وجل، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشيء لا يكون آية حتى يكون خارقًا للعادة، فلو جاء رسول إلى الناس، وقالوا له: أعطِنا آية، قال: عندي لكم آيتان ما آية واحدة، ما آيتُك؟ وكان ذلك في وقت اعتدال الربيع، فقال: آيتي أن تطلع الشمس الساعة اثني عشر، وتغيب اثني عشر، هذه ليست آية، بل هذه عادة، لابد أن تكون الآية مخالفة للعادة، فإذا أجرى الله الأمر على خلاف العادة دلَّ ذلك على إثبات قدرة الله، فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ ومنها: الردُّ على أهل الطبيعة الذين يقولون: إن الكون طبيعة مُنظِّمة لنفسها بنفسها، وأنها عبارة عن مقدِّمات ونتائج ينتج بعضها ببعض ومن بعض، وهذه تُؤخذ من قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عند الله وحده، فهو الذي يُدبِّر سبحانه وتعالى الكون، ويأتي بالآيات الدالة على كمال قدرته وسلطانه.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن رسول الله ﷺ وظيفته الإنذار لا الهداية، لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠ - **ومنها أيضًا:** أنه لا يملك أن يأتي بآية إلا من عند الله، وهذا ما يُفيده الحصر في قوله: ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾، وأكبر شاهد على هذا: أنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف، فقال لهم: أُخبركم بذلك غدًا، ينتظر الوحي، فامتنع الوحي خمسة عشر يومًا ولم ينزل، فضاق النبي ﷺ بهذا، ولكن هو في الحقيقة من تأييد الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ينفي كل شُبْهة يمكن أن يُقال: إنه يتقوَّل القرآن، فالذي يتقوَّل القرآن يحرِص غاية الحرص على ألَّا يُخلِف ما قال؛ لأن آخر ما قال صار موضع شك، لكن حقيقة هو موضع يقين؛ لأنه لو كان يتقوَّل لجاء به من الغد بناءً على وعدهم، ولكنه ﷺ لا يتقوَّل، وإنما يتلقَّى، فهو يتلقَّى من الله الوحي، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦].

١١ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يجب على من بلَّغ عن الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الإنذار؛ يعني: أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء ما يملكون هداية الخلق، لكن عليهم الإنذار والتبيين.

١٢ - **ومنها:** أن من بلاغة الكلام أن يكون الخطاب موافقًا لُمقتضى الحال، فكان مُقتضى الحال أن يُقال لهم: صفة الإنذار فقط دون التبشير، لهذا قال: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾.

١٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** المنقبة للمُنذِر إذا كان مُبينًا في إنذاره، فيكون فيه مدحٌ للفصاحة والبلاغة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[(١)]، وكم من رجلٍ يكون قليل العلم لكنه قوي الفصاحة، فيُؤثِّر تأثيرًا كبيرًا أكثر مما يُؤثِّره ذاك الآخر كثير العلم، والله سبحانه وتعالى إذا أعطى الإنسان قوة في البيان، وانطلاقًا في العبارة، فإنه من نعمة الله عليه، يُؤثِّر تأثيرًا بالغًا، وهذا أمرٌ ظاهر.

ثم من الناس من يعطيه الله الفصاحة في القول والكتابة، ومنهم من يعطيه الله تعالى الفصاحة في القول دون الكتابة، ومنهم من يكون فصيحًا في الكتابة دون القول.

ثم قال الله تعالى مُعارضًا لطلبهم بما هو أولَى منه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ [فيما طلبوا ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾].

قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ الضمير يعود على الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، والهمزة هنا للاستفهام، والواو عاطفة على جملةٍ مُقدَّرة تُقدَّر بحسب المقام، هذا أحد الرأيَيْن لأهل النحو، والرأي الثاني يقول: إن الواو عاطفة على الجملة السابقة، ولا تحتاج إلى تقديم، وأن ترتيب الهمزة في التأخُّر، وأن التقدير: وألَم يكفِهم، وهذا القول أسهل؛ لأن القول الأول وإن كان مبنيًّا على أصل، وهو عدم التقديم والتأخير، لكن القول الأول أحيانًا يُعيِيك أن تُقدِّر المحذوف، وأما

(١) رواه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٨٦٩).

هذا القول فإنه لا يُعيِيك، ما دمتَ تقول: هذا معطوفٌ على ما سبق، ما يكون فيه إشكالٌ أبدًا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الكفاية بمعنى: الغِنَى عن الشيء، ومنه ما هو معروفٌ لأهل الفقه، يجب عليه كفاية من ينوبه أي: إغناءُ من ينوبه عن غيره، فمعنى: ﴿يَكْفِهِمْ﴾ أي: يُغنِهم عن كل آية.

وقوله: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ﴿أَنَّآ﴾ هذه تُؤوَّل وما بعدها بمصدر، على أن يكونا فاعل يكفي؛ يعني: أولم يكفهم إنزالنا عليك الكتاب، وهذا الاستفهام هنا للتوبيخ؛ يعني: كان النبي يجب أن يكفِيَهم هذا الإنذار، ولهذا قال: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، وهو مكتوبٌ -كما مرَّ- في اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يُقرأ، ولا أحد يقول بينهم وبينه، والذي يتلوه الرسول عليه الصلاة والسلام، فيتلوه على الناس فيُبلِّغُهم إياه فيتناقلونه.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال: [فهو آية مستمرَّة لا انقضاء لها، بخلاف ما ذُكِر من الآيات].

في الحقيقة أنها كما نقل المؤلف آية مستمرَّة إلى يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] بخلاف الآيات السابقة، فالآيات السابقة آيات مشهودة، الذي ينتفع بها المُشاهدون لها، أما من بعدهم فإنها تصِل إليهم عن طريق الأخبار، ومعلوم أنه ليس الخبر كالعِيان، أما القرآن فإنه بيننا نُشاهده ونسمعه ونتلوه، فليس هو من طريق الخبر عن شيءٍ مضى، فيكون أعظم آية من الآيات التي انقضت وزالت، وهذا هو السر في أن هذا القرآن كان آية لكل الناس؛ لأن النبي ﷺ مبعوثٌ إلى جميع البشر، ولكن لاحِظوا أن هذا القرآن آية لمن يُتلَى عليه، ولا يبعُد عن الأذهان ما سبق قبل قليل أنه آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم، أما المُستكبِرون عنه فليس آيةً لهم، فالذي يقرأ القرآن وهو مُعرِض لا لينتفع به، فإنه لا تظهر له الآيات فيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦] فلا ينتفعون، ولا يحفظون، والقرآن آياتٌ لكن لمن أقبل عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ثم إن هذا القرآن آية في نفسه لا لوجود مانعٍ من مُعارضته، خلافًا لمن قال: إن معارضة القرآن ليس بالقرآن نفسه، ولكن بصرف الناس عن مُعارضته، وإلا فهم قادرون.

وهذا لا شك أنه خطأٌ بيِّن، ولو صحَّ لكان آية، لكنه لم يصح؛ بل نقول: إن القرآن نفسه آية من آيات الله وكافٍ في الدلالة على صدق الرسول ﷺ لكن لمن تدبَّره.

وقولي: (لمن تدبَّره) واضح؛ لأن العامِّي الآن قد لا يظهر له كونه آيةً للرسول ﷺ بيِّنة؛ لأنه ليس من أهل العلم، نعم العامِّي يشهد بأن هذا القرآن كلام الله، وكذلك أيضًا يشعر بما فيه من الترغيب والترهيب، ولهذا تجده يسأل الله من فضله عند آية الترغيب، ويستعيذ بالله من النار أو العذاب عند آية الترهيب، وإذا جاءت أسماء الله فإنه يشعر بأنه يقشعرُّ جلده ثم يلين بذكر الله، لكن الآيات العظيمة التي يتضمَّنها القرآن لا يعرفها العامَّة.

قال: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ عظةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ قال المؤلف: [الكتاب] ويحتمل أنه إنزال الكتاب، أننا أنزلنا عليك؛ لأن الذي ذكر الله أنه يكفيهم هو الكتاب هو لا إنزالُه، فيكون الذي فيه الذكرى هو الإنزال، ومعلومٌ أنه إنما تكون الذكرى بالإنزال باعتبار المُنزَّل، لكن إنزالُه من الله ذكرى، والقرآن في الحقيقة ذكرى من الوجهين:

من جهة أنه نزل من عند الله، ومُجرَّد شعور الإنسان أنه نزل من عند الله لا شكَّ أنه يُتيقَّن به ويُعلِّمه، وكذلك أيضًا ما فيه من المعاني العظيمة والآثار الحميدة وهو أيضًا آية من آيات الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

وقوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾ الرحمة من الله، فالله أنزل القرآن رحمةً للناس، وأيضًا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يعني: عِظَة يتذكَّر به الناس، فبه يتراحمون ويُرحَمون، وبه أيضًا يتذكَّرون، ولكن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أما من لم يؤمن فليس رحمةً في حقهم؛ لأنه يزيدهم رجسًا إلى رجسٍ، فيضِل أكثر، ويزداد كفرًا -والعياذ بالله-، وعلى هذا فالمؤمن هو الذي يكون القرآن رحمة له وذكرى ينتفع به.

وما دام الأمر عُلِّق على الوصف في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أكثر رحمةً بهذا القرآن وتذكُّرًا، وكلما كان الإنسان أضعف إيمانًا كان القرآن أقل رحمةً له وتذكُّرًا.

الفوائد:

١- من فوائد الآية أيضًا: إثبات علو الله، تُؤخذ من قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾.

٢- ومنها: إثبات رسالة النبي ﷺ، في قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وهذا يعني أنه مُوحًى إليه به.

٣- ومنها: الإشارة إلى شرف هذا القرآن؛ حيث كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأيدي الملائكة.

٤- ومن فوائد الآية: أن المشركين قد قامت عليهم الحُجَّة، لقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فهو ليس غائبًا عنهم حتى يعتذروا، ولكنه يُتلَى عليهم.

٥- ومن فوائد الآية: أن مُجرَّد تلاوة القرآن على شخص يكون مُلزِمًا له بالاتباع؛ لأن الله لم

يذكر أكثر من ذلك ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فإذا تُلِي القرآن على إنسان فقد قامت عليه الحُجَّة، ولهذا الجن ولَّوا إلى قومهم مُنذرين بمُجرَّد أن سمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف: ٣٠]، فقراءة القرآن مُلزِمة.

أما إذا كان لا يفهم لغة القرآن لا يكون ذلك مُلزِمًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤] ما يُحسِن البيان لو لم يعرف اللغة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** ما يتضمَّنه إنزال القرآن من الرحمة، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾، ومن الذكرى، وهو الاتعاظ والتذكُّر في قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينتفع بهذه الرحمة والذكرى إلا المؤمنون لقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أكثر انتفاعًا بالقرآن، وكلما كان أضعف إيمانًا أو أكثر معصية كان أبعد عن فهم القرآن والانتفاع به؛ بل إن المعاصي تحول بين الإنسان، وبين فهم القرآن، ولقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦] أن الاستغفار سببٌ لبيان الحق عند الحكم، سواءً كان هذا الحكم فُتيا، أو حكم قضاء، فإن الإنسان إذا استغفر صار ذلك مفتاحًا للفهم والعلم؛ لأن الذنوب حائل بين الإنسان وبين التوفيق، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]، ولهذا لما رانت على قلوبهم هذا الشيء صاروا يقولون عن القرآن: إنه أساطير الأولين، ولم ينتفعوا به - والعياذ بالله .

٩ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان؛ حيث تتم به الرحمة والذكرى في القرآن.

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ قال المؤلف: [بصدقي] ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ يقول المُعربون: إن الباء هنا زائدة، وأن المعنى: كفى الله، و﴿شَهِيدًا﴾ قيل: إنها حال من الاسم الكريم - الله -، وقيل: إنها تمييز؛ كقولهم: لله درُّه فارسًا؛ لأن ﴿شَهِيدًا﴾ هنا ليست مصدرًا، ولا اسمًا جامدًا؛ بل هي مُشتقة، فتصلح أن تكون حالًا، وتصلح أن تكون تمييزًا؛ أي: كفى شهادة الله بيني وبينكم.

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ ضمَّن الشهادة هنا معنى الحكم، وإلا فإن الشاهد لا يكون شاهدًا بين فلان وفلان، بل يكون شاهدًا لفلان على فلان، لكنه ضمَّن الشهادة هنا معنى الحكم، وهو كذلك، فإن شهادة الله لنبيِّه عليه الصلاة والسلام بالحق حكمٌ له بالحق، ووجه كون ذلك شهادةً وحكمًا: لأن كون الله عز وجل يُمكِّن نبيَّه ﷺ من قتال هؤلاء الكفار،

واستباحة دماءهم وأموالهم، وكونه يُمكِّن له في الأرض فيفتح البلاد، يدلُّ على أنه حكم له عليهم، وهذا ظاهرٌ، أن تمكين الله للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو يراه يقتل عبادَه ويستبيح دمائهم وأموالهم، وهو سبحانه وتعالى يُمكِّن له، ويفتح له الأرض أرضًا أرضًا لا شكَّ أن هذا دليلٌ على شهادة الله له بالصدق، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فهذا أكبر، أن تكون الشهادة شهادة الله، وقد شهِدَ الله لنبيِّه بالفعل، والتمكين على أنه حق.

إذنْ الشهادة تُطلق بمعنى الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]، فإن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بمعنى: حكم حاكمٌ، والحاكم في الحقيقة شاهدٌ من وجهين:

أولًا: أنه شاهدٌ بحكم الله؛ لأنه حاكمٌ به، فهو إذا حكم يقول: أشهد بأنَّ حكم الله؛ يعني: يقوله بلسان الحال، أشهد بأن حكم الله كذا وكذا، وهو شاهدٌ على المُحِقِّ بالحق، وعلى المُبطِل بالباطل، فهذا وجه كون الحاكم شاهدًا، ولهذا يقولون: إن الحاكم شاهدٌ ومُفتٍ ومُلزِم؛ كالأمير، وهذا واضح فيما ذكروه.

ووجه كونه سبحانه وتعالى كافيًا: أنَّ كونه يُؤيِّد رسوله بالآيات البيِّنات، ويُدحِض حُجَج أولئك، ماذا يدل عليه هذا ؟ على أن الرسول عليه الصلاة والسلام على حق، وأن خصومه على باطل، وهذا من أبين الأمور.

ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه الجملة حال من (الله)؛ يعني: حال كونه يعلم، ويجوز أن تكون استئنافية في بيان صحة شهادة الله وحكمه، فإنه يشهد عن علمٍ، فيعلمُ المُحِق فيحكم له، والمُبطِل فيحكم عليه.

وقوله: ﴿ما في السماوات والأرض﴾ كلنا يعلم أن (ما) هنا اسمٌ موصول، وأنه مُفيدٌ للعموم، واختيار (ما) على (مَن) الدالة على العقلاء إما للتغليب إن كان غير العقلاء أكثر، وإما لمُلاحظة الصفات مع الذوات، ومُلاحظة الصفات يُعبَّر فيها بـ (ما)؛ لأن الصفة ما هي عاقل، قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، ولم يقُل: من طاب؛ لأنه ليس المقصود عين المرأة، بل المقصود وصف المرأة، كما قال النبي ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ[1]: لِمَالِهَا، وَحَسَبِهَا[2]،

---

(١) لأجل خصال أربع مجتمعة أومنفردة.

(٢) هو ما يعده الناس من مفاخر الآباء وشرفهم.

وَجَمَالِهَا[١]، وَدِينِهَا»[٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذا كان للعموم فهو يشمل أفعال الإنسان وأقواله وسِرَّه وعلانيته.

وفيها ردٌّ ظاهر على غُلاة القدرية الذين كانوا قديمًا ينفون العلم – والعياذ بالله –، ويقولون: إن الأمر أُنُف[٣]؛ يعني: مُستأنَف، والذين يُنكِرون علم الله سبحانه وتعالى كفَّار؛ لأنهم مُكذِّبون للقرآن.

ودائمًا يجمع الله سبحانه السماوات، ويُفرِدُ الأرض، وكلها في العدد سواء، كما ثبتت به السنة، وكما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيكون الأرض مُفردة ولكن معناها الجمع، فـ (أل) هنا لاستغراق الجنس؛ يعني: كل ما يسمى أرضًا، فيشمل السبع أرضين، [ومنه] أي: مما في السماوات والأرض [حالي وحالكم]، ونصَّ المؤلف على ذلك؛ لأنَّ المقام يقتضيه؛ حيث قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.-

ثم قال الله تعالى مُستأنفًا الكلام فيما يظهر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

هذا من الحُكم بينه وبينهم، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الظاهر: أنها من كلام الله، وأنها جملة مُستأنفة، وليست من كلام النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال: [وهو ما يُعبَد من دون الله] آمنوا به؛ يعني: اعترفوا به، وأقرُّوا به، ورأوا أنه حقٌّ، هؤلاء خاسرون، والباطل كلُّ ما عُبِد من دون الله في هذا المقام، وإلا ففي غيره يُقال: الباطل كل ما خالَفَ الحق، حتى الشيء الذي ما فيه خير للإنسان يُسمَّى باطلًا وإن لم يضره، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا**»[٤]، لكن الباطل يُفسَّر في كل مكانٍ بحسبه.

وهذه القاعدة شاملة لجميع الكلمات، تجد الكلمة الواحدة في سياقٍ لها معنى، وفي سياقٍ آخر لها معنى آخر بحسب السياق، وهذا هو الذي يُطمئِنُ الإنسان بصحة القول بأنه لا مجاز في اللغة العربية؛ حيث إننا قلنا: إن الذي يُحدِّد معنى الكلمة هو سياقُها ومكانُها في هذا السياق، باعتبار حال المُتكلِّم بها، وحال الموضوع التي هي مسوقةٌ لأجله.

(١) يؤخذ منه استحباب تزوج الجميلة إلا إن تعارض الجميلة غير الدينة وغير جميلة الدينة، نعم لو تساوتا في الدين فالجميلة أولى، ويلتحق بالحسنة الذات الحسنة الصفات، ومن ذلك أن تكون خفيفة الصداق.

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٢)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «صحيح مسلم» (٨).

(٤) انظر صحيح الجامع (٤٥٣٤).

فالباطل هنا لا يصح أن نقول: إنه كل ما لا نفع فيه؛ بل نقول: هو الأصنام، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ولو قال قائلٌ بأنه يشمل كل ما خالَف الحق، فليس ببعيد، وتكون عبادة الأصنام داخلة فيه دخولًا أوليًّا.

وقوله: ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: أنكروا ما يجب له من حق، وذلك أن الكفر في اللغة العربية بمعنى: الستر، ومنه سُمِّي الكُفُرَّى وهو طلع النخل؛ لأنه يستُر التمر.

وقول المؤلف: [منكم] هذا من أغرب ما يكون؛ حيث قال: [منكم] إلا إذا كان المؤلف يرى أن الكلام في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أنه من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن قوله: [منكم] له وجه؛ لأنه يكون المُخاطَب بذلك: المُشركون، فيكون الرسول يُخاطِب المشركين ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ منكم أيها المشركون، أما إذا كانت من كلام الله فإنها عامة، وهي بالنسبة للرسول ﷺ وأصحابه غير واقعة، فإذا كان الكلام من الله فإن قوله: [منكم]، وإن كلام من النبي عليه الصلاة والسلام فهي وجيهةٌ.

وقوله: [﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في صفقتهم].

أولًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إعرابُها على أنها مبتدأ والخبر جملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وصوغ الجملة على هذا الوجه له معنى عظيم؛ حيث جاءت بالجملة الاسمية المُفيدة للحصر.

لو قال: والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله الخاسرون، لعُلِم المعنى، لكن إذا جاءت في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ صارت أبلغ؛ لأن الإشارة للتعيين كما هو ظاهر، وضمير الفصل يُفيد الحصر، وعلى هذا فيكون حُصِر الخسران فيهم من جهتين:

من جهة التعيين بالإشارة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، ومن جهة ضمير الفصل في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، خسروا صفقتهم فما ربحوا؛ بل تضرَّروا بهذه الصفقة.

ضمير الحصر ذكرنا فيما سبق أنه يُفيد ثلاثة فوائد، وهي: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر، ولهذا سُمِّي ضميرَ فصل.

فإذا قلت: زيدٌ الفاضلُ، يحتمل أن الفاضل صفة، والخبر مُنتظَر؛ يعني: زيدٌ الفاضلُ قائمٌ.

وإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل تعيَّن أن يكون خبرًا، فاستفدنا من ضمير الفصل أنه عين أن ما بعده خبرٌ لا صفة.

ضمير الفصل هل هو اسم أو حرف؟

الأصح أنه حرف، وبعضهم يقول: إنه ضمير لكن لا محل له من الإعراب، وبعضهم يقول: إنه ضمير ومحلُّه من الإعراب ما قبله، ولكن الأخير هذا خلاف اللغة العربية؛ لأن الضمائر ما يُنعَت بها، ولا تُنعَت، صحيح أنها تُؤكِّد؛ كقام هو.

فالأصح والأرجح الذي عليه الأكثر أنه حرف جيء به للفوائد الثلاثة التي ذكرنا.

وقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اعلم أن الخُسران يكون بفوات المحبوب، ويكون بحصول المكروه، والذي حصل لهؤلاء المؤمنين بالباطل الكافرين بالله كِلا الأمرين، فهم فاتَهم المحبوب، ووقعوا في المكروه، فاتهم الثواب العظيم الذي وعد الله المؤمنين به من الجنات، وحصلوا - والعياذ بالله - على النار، فخسروا الأمرَين جميعًا، فأولئك هم الخاسرون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

الخُسران هنا هل هم خسروا أنفسهم فقط؟

لا، خسروا أنفسهم، وأهليهم، وأموالهم، ودنياهم، وآخرتهم.

خسروا أنفسهم ظاهر؛ لأن أنفسهم التي كانوا بصدد أن يحموها عن المحارم وعن الباطل، ضيَّعوها فخسِروها، ضاعت مع نفوس الهالكين، وخسروا أهليهم؛ لأن المؤمنين قد ربحوا أهليهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، فربحوا الذرية في الدنيا والآخرة، وأما هؤلاء فخسروا ذريتهم في الدنيا والآخرة، ما انتفعوا بها؛ لأنهم - والعياذ بالله - أهل النار ما يجتمعون ويتحابون ويتآلفون؛ بل بالعكس، كلما دخلت أمة لعنت أخرى، وكل إنسان - والعياذ بالله - في تابوت مُعذَّبًا وحده، فهم - والعياذ بالله - خسروا أهليهم.

وخسروا أموالهم أيضًا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ثم إن المال المفروض على الإنسان أن ينتفع به، أما هؤلاء ما انتفعوا بمال، ومهما أنفقوا من نفقة فلن يُقبل منهم، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] إذنْ هم خاسرون من كل وجهٍ - والعياذ بالله -، ولهذا حصر الخسران فيهم.

الفوائد:

١ - يُستفاد من هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى شهادته أعظم شهادة، وأكبر شهادة، لقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي سورة الأنعام قال سبحانه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢ - ومنها أيضًا: أن شهادة الله سبحانه وتعالى تكون بالقول وبالفعل، أما بالقول فإن الله تعالى يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وأما بالفعل فإن تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض ونصره وإياه، وخذلان أعدائه أكبر شهادة على أنه صاحب الحق، وأن أعداءه أهل

الباطل، فالشهادة إذنْ نوعان: شهادةٌ فعلية، وشهادةٌ قولية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إطلاق الشهادة على الحكم، من قوله: ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]، ما قال: شهيدًا لي عليكم، وقد سبق أن الحكم شهادة من وجهين: لأنه شهادة بأن هذا حكم الله، وشهادةٌ للمُحقِّ على أنه مُحِق، والمُبطِل على أنه مُبطِل.

٤ ـ **ومنها:** إثبات علم الله عز وجل، لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإثبات عموم العلم، والعموم غير نطاق العلم، فالإنسان عالم لكن علمُه ليس عامًّا، أما الله عز وجل فإنه عالم، وعلمه عام.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات تعدُّد السماوات، لقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وهي جمع، وهي هنا مُبهَمة لكنها بُيِّنت في آياتٍ مُتعدِّدة بأنها سبع سماوات.

٦ ـ **ومنها:** إثبات علم الله بما يفعله الإنسان؛ لأن ما يفعله الإنسان داخل في قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيكون في ذلك ردٌّ على غلاة القدرية الذين أنكروا علم الله، وقالوا – والعياذ بالله –: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العبد، وأن العلم مُستأنف.

٧ ـ **من فوائد الآية:** أن الإيمان بالباطل والكفر بالله سببٌ للخسارة، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٨ ـ **ومنها أيضًا:** أن الخُسران هنا بقدر ما آمن الإنسان به من الباطل، وكَفَر به من الحق، فأعظمُه الشرك بالله عز وجل، ومنه ما هو دون ذلك، كما لو آمن بحكمٍ مُخالف لحكم الشريعة، وكفر بحكم الشريعة، فإن لديه من الخُسران بقدر ما حصل منه من هذه المُخالفة، وما فسدت أحوال العالم الإسلامي وغير الإسلامي إلا بالحكم بغير ما أنزل الله، ولو كانت الأمة الإسلامية صادقة في إرادة العزة والكرامة والسعادة والفلاح، لرجعت إلى الحكم بكتاب الله؛ لأن الحكم بالقوانين الوضعية وهو مُخالِف للشريعة لا شكَّ أنه خسارة بنصِّ القرآن، فإنها باطل، وما نزل به القرآن فهو الحق، فيكون عليه من الخُسران بقدر ما خالَف من الحق.

٩ ـ **ومما يُستفاد منها:** أن من حقَّق الإيمان بالله والكفر بالباطل، فهو الرابح، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

هل نأخذ من هذه الآية: أن من آمن بالباطل فهو كافرٌ بالله؟

يمكن أن يقال: إن قوله: ﴿آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ إن هذا لبيان حالهم، وأنه يلزم من الإيمان بالباطل الكفر بالله؛ لأننا نقول: هَبْ أنه آمن بالباطل وآمن بالله؛ هل يكون إيمانه صادقًا؟ لو قال: إنه يؤمن بالله ربًّا، ثم صار يعبد الصنم، فما صار مؤمنًا، فالإيمان بالباطل يلزم منه الكفر.

لكن هذا في الحقيقة حكاية لحالهم أنهم جمعوا بين الأمرين صريحًا، فآمنوا بالباطل وكفروا بالله.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٣، ٥٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يعني: يطلبون منك التعجيل بالعذاب، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، والعياذ بالله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٨، ٢٩]، فهم يتحدَّون الرسل وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ بالعذاب، وهذا كقولهم أيضًا في البعث: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] هذه شُبْهة ما هي حُجَّة، فالذين قالوا بالبعث ووعدوهم بالبعث هم قالوا: إن البعث يكون في الآخرة، إذنْ قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تشبيهٌ وليس حُجَّة؛ لأن الجواب أن نقول: ما قالوا لكم إنهم سيُبعثون اليوم حتى تقولون: ائتوا بهم، فالحاصل: أن هؤلاء يستعجلون بالعذاب، لا لأنهم يريدون العذاب فيما يظهر، وقد يكونوا يستعجلونه يريدونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فهم يستعجلون بالعذاب تحدِّيًا.

وأحيانًا يستعجلون به مثل ما ينتحِر المُضطهَد، فيقولون: إذا كان هذا هو الحق فإنا لا نُريد البقاء في الدنيا، ولننتحِر، وليأتِنا العذاب ولنتخلص من هذه الدنيا.

لكن الغالب أن المُستعجِلين بالعذاب يُريدون التعجيز والتحدِّي، بدليل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ (أل) هنا للعهد، أو لبيان الحقيقة.

فقولنا: للعهد، يكون المراد العذاب الذي وُعِدُوا به؛ يعني: الذي قالت لهم الرسل: إنه سيقع بهم، وإن قلنا: لبيان الجنس صارت أعمَّ من ذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ﴾ هذه شرطية، ﴿أَجَلٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به وقوعه في سياق الشرط، هذه واحدة، والثاني: وصفه بقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ وخبر

المبتدأ محذوف، وتقديرُه: ولولا أجلٌ مُسمًّى مُقدَّر - مثلًا أو ما أشبه ذلك - لجاءهم العذاب، والشاهد على حذفه في كلام ابن مالك:

وَبَعْـدَ لَـوْلَا غَالِبًـا حَـذْفُ الخَبَرْ حَـتْمٌ..........(١)

إذنْ الخبر هنا محذوف، وقوله، وقوله: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هذا جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الأجل هو غاية الشيء؛ يعني: لولا الغاية التي حدَّدها الله، وقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ أي: مُعيَّن، أو مُحدَّد، مُعيَّن فعل من الله عز وجل تبعًا لحكمته؛ لأن الله عز وجل كل شيء عنده بمقدار، حتى القطرة التي تنزل من السماء ما تنزل إلا بمقدار في وزنها، وحجمها، وزمنها، ومكانها، وفي كل شيء، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩]، ما يخفى عليه شيء، ولا يشِذُّ عن تقديره شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن مُحدَّد بنظام وانتظام لا يزيد ولا ينقص، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

قال: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كما استعجلوا به!! ولكن الله عز وجل يحلُم ويحكم ويُحكِم، فهو حليمٌ حكيمٌ، ولو كان سبحانه وتعالى كلما طلب هؤلاء من آية أعطاهم، وكل ما استعجلوه من عذاب عذَّبهم لفَسَدت الأرض، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ولكن الله عز وجل حكيم يُقدِّر الأشياء حسب ما تقتضيه حكمته، وهذه الحكمة في غاية قد تُعلَم لنا وقد لا تُعلَم، قد نعلمها ولو مُستقبلًا، وقد لا نعلمها؛ لأننا ضُعفاء في العلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال: [﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ له]؛ أي: للعذاب [﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلًا] ولكن الله تعالى سيُنزِّله عندما تقتضيه حكمته.

ثم قال مُتوعِّدًا ومُتهدِّدًا لهم: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال المؤلف: [﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه].

قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات، وهي: القسم المُقدَّر، واللام، ونون التوكيد، ومعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يجيئنَّهم؛ أي: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ البَغتة كل ما باغَتَ الإنسان؛ أي: أتاه من غير توقُّع له، إذنْ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تكون جملةً مُؤكِّدةً لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾؛ لأن المُباغِت للإنسان يأتيه بدون شُعُورٍ، وقيل: إنها جملة مُستقلة بمعناها، وأن قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذا تهديدٌ وتحذيرٌ، فاحذروا أن يأتيكم، وأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أنه لا يأتيهم الآن حين طلبوه؛ لأنهم إذا أتاهم العذاب حين طلبوه يكون قد أتاهم وهم مُتوقِّعون له،

---

(١) عجز البيت: حتم وفي نص يمين ذا استقر. انظر شرح ابن عقيل (١/ ٢٤٦).

وشاعرون به، ولكنه سيأتيهم في غير وقت طلبهم له؛ يعني: والحال أنهم لا يشعرون، فيكون المعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذا صفة وقوع العذاب بهم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: في غير وقت طلبهم إتيان العذاب؛ لأنه إذا أتاهم وقت الطلب صاروا شاعرين به؛ لأنهم يكونون قد تهيَّأوا واستعدُّوا بسبب طلبهم العذاب أن ينزل بهم العذاب.

أما على القول الأول أنها توكيد لقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فيكون هذا مُفسَّرًا بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وهذه فيه غفلة، فالإنسان النائم ما هو مُستعدٌّ للعذاب؛ بل هو آمنٌ غاية الأمن، ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، والإنسان الذي يلعب في رابعة النهار هذا أيضًا آمِنٌ، ولكن الله هدَّد هؤلاء المُبطِلين في حال أمنهم أن يأتيهم عذاب الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ظاهر الآية الكريمة: أن هذا في الدنيا، إذ يأتيهم بغتة، ولا فرق أن يكون هذا العذاب على أيدي النبي ﷺ وأصحابه، أو من الله عز وجل، فالعذاب الذي أتى قريشًا من الله ما دعاه النبي ﷺ ربَّه عليهم به، في قوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِيْنَ كَسِنِي يُوسُفَ**»(١)، فهذا عذاب، أصابهم الجَدْب والقَحْط - والعياذ بالله -، والجوع، وكذلك أيضًا ما كان على أيدي المؤمنين في «غزوة بدر»، فإن تلك الغزوة أصابتهم إصابة بالغة عظيمة، ولهذا سمَّى الله يومَها يوم الفرقان، فما من بيتٍ من بيوت مكة الكبار إلا وقد أُصيبَ بهذه المصيبة، وعُذِّب بهذا العذاب، وعلى العموم فإن قريشًا أُصيبوا عامَّةً بنكبة بالغة؛ لأن صناديدهم ورؤساءهم قُتِلوا، ثم قُتِلوا في الحقيقة وغُلِبوا وأُسِروا وهُزِموا وخابوا، على حين أنهم كما قال الله تعالى: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] يعني: قد جزموا أنهم غانمون وهازمون للرسول ﷺ وأصحابه، فأبو جهل يقول: والله لا نرجع حتى نقدُمَ بدرًا فننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القِيَان، ويسمعُ بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا(٢)، هذا كلامُه، لكن الله عز وجل من ورائه مُحيط.

الذي حصل أن العرب تحدَّثوا به، وأن القِيان عزفت عليهم بالنعي، لا بالفرح، وأنهم سُقُوا كأس الحِمَى، ولم يُسقَوا الخمور، فصار الأمر عكس ما قالوا تمامًا، والنبي عليه الصلاة والسلام رفع الله رايته، ونصرَه، ووقف عليهم مُوبِّخًا على القليب وهم جُثث هامدة، يقول: «**يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»(٣)، فهل أبلغ من هذا الذُّل - والعياذ بالله - والعار؟! وسبعين رجلًا أُسِروا، ولم يُطلَقوا إلا بفداء، وصاروا بدل

---

(١) رواه البخاري (٧٧١)، ومسلم (٦٧٥) من أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نور اليقين (ص٨٤).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٤)، والنسائي (٢٠٧٥)، وأحمد في مسنده (١٢٠٣٩)من حديث أنس رضي الله عنه.

الكراسي العالية يُدرِّسون الصبيان بالمدينة، ويُعلِّمونهم الكتابة، وهذا ذُلٌّ ما وراءه ذل، وعذاب ما فوقه عذاب، وليس بالحقيقة العذاب ألم البدن فقط.

أنا عندي وعندكم أيضًا أن العذاب المُهين هو ألم القلب والنفس، هذا أشد وأعظم، ولذلك إذا منَّ الله على الإنسان بقلبٍ مُطمئن، وصدرٍ مُنشرِح، مهما كان ما يتعذَّب بشيء.

فعلى كل حال نقول: هذا من العذاب بغتة، ما أصابهم في الدنيا مما كان بفعل الله عز وجل، أو بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وكذلك أيضًا قد يكون في الدنيا ما يُصيب الواحد منهم عند الموت؛ لأنه إذا جاءه الموت – وما أقرب الموت، مهما طالت بالإنسان الحياة –، إذا جاءه الموت يُبشَّر بغضبٍ من الله وسخط – والعياذ بالله –، ويُقال لروحه: اخرُجي أيتها الروح الخبيثة، فهذا – والعياذ بالله – عذاب أيضًا.

ثم قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يكون هذا المراد: عذاب الآخرة، ويكون قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ هذا في الدنيا، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذا في الآخرة، وهم في الحقيقة يستعجلون العذاب هذا وهذا؛ لأنهم يُكذِّبون الرسول عليه الصلاة والسلام بما قال من وعيد الآخرة، وبما قال من أنه سينتصر عليهم، وتكون الغلبة له.

قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يطلبون منك تعجيله، ولكن الأمور مُقدَّرة بيد الله عز وجل، ولهم عذابٌ ما يستطيعون الخلاص منه، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بمُؤكِّدَين، وهما: إن، واللام.

والإحاطة بالشيء معناها: أن يأتيه من كل جانب.

و﴿جَهَنَّمَ ﴾ وهي اسمٌ للنار، أعاذنا الله وإياكم منها، وسُمِّيَت بذلك لأمرَين:

لبُعد قعرها، وسوادها، فهي من الجُهْمة، والنون زائدة فيها، وعلى هذا فيكون وزنها: (فعنلل)، وقيل: إنها اسمٌ أعجميٌّ، وأن أصلها (كهنَّام) في اللغة الأعجمية، لكن عندما عُرِّبَت يكون فيها تغيير، فصارت إلى جهنَّم، والغريب أن العجم الآن عندما يتحدَّثون إلى بعض عن النار يقولون: جهنم، حتى نار الدنيا يُسمِّيها جهنَّم؛ يعني: عندهم إلى الآن جهنم اسم للنار.

وقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الحمد لله أنه ما قال: بالظالمين، الكافر يكون في قعر الجحيم – والعياذ بالله –، ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥] أي: في المكان السويِّ منها وهو الوسط، فهؤلاء – والعياذ بالله – تُحيطُ بهم النار من كل جانب؛ لأن الإحاطة تقتضي ذلك، لكن يبقى على هذا التقرير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يغشاهم يعني: يُغطِّيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل: ١] يعني: يُغطِّي الأرض بسواده، فعلى هذا ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: يُغطِّيهم لكن ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ونحن قلنا: الإحاطة من كل جانب، فهل تكون الآية ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ

ٱلْعَذَابُ﴾ مُخصِّصة لهذه الإحاطة، وتكون الإحاطة من فوق ومن تحت، أو يُقال: إن تغشية العذاب أبلغ من إحاطة النار، وهذا هو الأقرب، وخصَّ الفوق والتحت؛ لأنه لا يمكن الفرار منه، لكن الجوانب يمكن الفرار، وقال بعض المُفسِّرين: خصَّ الفوق والتحت؛ لأن نار الدنيا لا تأتي من فوق ومن تحت، تكون من جانب، وهذا منقوضٌ بمن أُلقي في نفس النار.

إنما الذي يظهر - والله أعلم -: أنه أقل تمكُّنًا من الفرار، إنما الذي نرى أن ما بعد قوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾ لا يُخصِّصُه، فالإحاطة عامة من كل جانب، وتغشية العذاب - وهو أشد وأعظم - يكون من فوق، ومن تحت، كما قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٦].

الفوائد:

١- يُستفاد من هذه الآية: أمران:

الأول: سفهُهم، فإن الإنسان إذا وُعِد بالشيء فإن العقل والرُّشد يقتضي ألَّا يستعجل به، ولهذا قال المؤمن لآل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[غافر: ٢٨]، فكون الإنسان يُوعَد بالعذاب إذا لم يؤمن، ثم يستعجل به، هذا من السَّفَه.

والثاني: تُفيد أنهم قومٌ عُتاة مُعانِدون، ولهذا يتحدَّون أخبار الرسل باستعجالهم بالعذاب.

٢ - ومن فوائد الآية أيضًا: إثبات حكمة الله عز وجل، وأنها غاية في الكمال، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، فلولا الحكمة لعُوجِلوا بالعذاب لاستعجالهم به، ولكن الحكمة تقتضي عدم ذلك، وانظر إلى غاية الحكمة الإنسانية في قول الرسول عليه الصلاة والسلام لملك الجبال، لما جاء يستأذنه قال: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبَيْن[1]، فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ[2] مَنْ يَعْبُدُ اللهَ»[3] فهذ النبي قد خرج من بلده مكة لاشتداد الإيذاء عليه وعلى أصحابه وذهب إلى الطائف يلتمس الدعوة هناك فطرد منها وهو على مشارفها ثم يجيئه ملك الجبال ويقول له هذا، فمُقتضى الطبيعة البشرية إذا جاءه من يقول: مكِّنِّي فأنا أُهلكهم عن آخرهم، يقول: نعم، وجزاك الله خيرًا، لكن الحكمة هي التي تمنع الإنسان من أي فعل لا يحمد عُقباه فيما بعد، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وكثيرًا ما يندم الإنسان على تصرُّفاته عند فوات الحكمة، فلهذا يجب على الإنسان أن يُغلِّب جانب العقل دائمًا، لا جانب العاطفة؛ لأن جانب العاطفة فيه خلل كثير،

---

(١)جبلي مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما يقال رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم.

(٢)جمع صلب وهو كل ظهر له فقار.

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

لكن تغليب جانب العقل هذا هو الحكمة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن أفعال الله سبحانه وتعالى مُقدَّرة ومُنظَّمة، وليست هكذا تأتي صُدَفًا، أو تأتي بغير علم، أو تأتي بغير رُشدٍ؛ بل هو سبحانه وتعالى كامل العلم، وكامل الحكمة، وكل أفعاله مُقدَّرة مُنظَّمة، تُؤخذ من: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن الحوادث مُقدَّرة عند الله تعالى في علمه، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فيكون هذا فردًا من الأفراد الكثيرة الدالة على أن الله سبحانه وتعالى قدَّر ما يكون، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وهاتان هما الدرجتان اللتان يتضمَّنها القضاء والقدر؛ لأن القضاء والقدر يتضمَّن أربع مراتب، هذه التي في الآية الكريمة مرتبتان، وهي: العلم، والكتابة، وباقي المراتب: المشيئة، الخلق.

عِلْمٌ كِتَابَةُ مُوْلَانَا مَشِيئَتُه ... وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

٥ - **ومن فوائد الآية:** إضافة الفعل إلى الحادث، لقوله: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، والجائي به حقيقةً هو الله عز وجل، لكن يصدق عليه أنه آتٍ.

٦ - **ومن فوائد الآية:** عِظَم العذاب إذا جاء غير مُتوقَّع، لقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها أيضًا:** تهديد هؤلاء المُستعجلين بالعذاب بأنه سيأتيهم ولابد، لكن يأتيهم على غِرَّة وبغتة، ليكون أشدَّ وقعًا.

٨ - **ومن فوائد الآية:** تكرار ما به الذم على من يستحقُّه، لقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ هذا إذا جعلنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الثانية توكيدًا للأولى، أما إذا حملنا الأولى على عذاب الدنيا، والثانية على عذاب الآخر، فلا توكيد في المسألة.

٩ - **ومن فوائد الآية:** أن أهل النار - والعياذ بالله - يأتيهم العذاب من كل وجهٍ، لقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** عِظَم هذا العذاب؛ حيث كان يُغلَّب عليه من ناحيتين: العلو والسُّفل؛ لأنه يكون كالغطاء، والوطاء، فيكون كأنه مُطبقٌ عليهم بنار، ومُوقَد عليهم من تحت بنار - والعياذ بالله -، عدا ما يأتيهم من كل جانب، لقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: [أي: جزاءه فلا تفوتونا] الأمر هنا لإهانتهم وتوبيخهم.

وقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) هنا اسم موصول بمعنى: الذي، وعلى هذا يكون العائد محذوفًا، والتقدير: ما كنتم تعلمونه.

وقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [أي: جزاءه] وهو كذلك، لكنه عبَّر بالعمل نفسه؛ لأنه السبب، ولأن الجزاء من جنسه.

وفيه أيضًا قوله تعالى: ﴿ونقول﴾ [فيه بالنون؛ أي: نأمر بالقول، وبالياء: يقول؛ أي: المُوكَّل بالعذاب] هذا في الحقيقة تحريف من المؤلِّف، ما هو الداعي لصرف اللفظ عن ظاهره ؟ ولهذا المُتعيَّن أن يكون القائل هو الله عز وجل، وقد قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فإذا كان هناك الكفار يخسئوا فيها كلام الله ولا شك، فهنا هو كلامه أيضًا بلا شك، قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾[المؤمنون: ١٠٨، ١٠٩]، وهذا واضح وصريح في أن القائل هو الله، وهنا أيضًا القائل هو الله.

وكونه يقول: [من يقول] هذا تحريف، من الذي يمنع أن يكون الله تعالى هو الذي يقول؟! فالله تعالى يتكلَّم بما شاء، متى شاء، وكيف شاء، وكلامُه سبحانه وتعالى مسموعٌ بصوتٍ لا يُشبِه الأصوات، لكنه بحروف يفهمها المُخاطَب بهذا الكلام.

وقوله: ﴿فنقول﴾ أضافه إلى نفسه بصيغة العظمة؛ لأنه سبحانه وتعالى أعظم العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾، ومعلومٌ أنه واحد، لكن هذا من باب التعظيم، وهو سبحانه وتعالى لا شكَّ أنه عظيم، وقد سبق لنا أن ما أضافه الله لنفسه بصيغة العظمة قد يُرادُ به هو نفسُه، وهو الغالب الكثير، وقد يُراد به ملائكتُه، وهو كثير أيضًا، لكن الأكثر أنه يُريد الله عز وجل.

ومما جاء مما يُراد به الملائكة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] فالمراد: جبريل، إذا قرأه جبريل.

ومما جاء كذلك: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٤] فإن إبراهيم ما جادَل الله، وإنما جادَل الملائكة، ومنه قوله تعالى في المُحتضَر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، فإن المراد بالقُرب قُرب الملائكة، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ فإن

هذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان، لكنه لا يُبصَر، وكذلك قوله - على القول الراجح -: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧]، فالمراد: أقرب إليه بملائكتنا؛ لأنه قيَّد هذا القُرب بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾، فصار المراد: قُرب هذين المُتلقِّيَيْن.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالمراد به: قُربُه نفسُه، ولكنه قريبٌ في علوه، ولا يلزم من هذا القرب أن يكون الله سبحانه وتعالى في نفس المكان الذي أنت فيه، فإن هذا مستحيل على الله عز وجل مُمتنع، لكنه يقرُب من خلقه كيف شاء كسائر صفاته، وكما أنه ينزل من السماء الدنيا وهو لا زال عاليًا؛ لأن علوَّه من لوازم ذاته؛ إذ إن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفكُّ الله عنها، فكذلك يقرُب من خلقه كيف يشاء مع علوِّه سبحانه وتعالى.

والحاصل: أن ما أضافه الله لنفسه بصيغة التعظيم تارةً يُراد به نفسُ الله عز وجل، وهو الأكثر والغالب، ويكون هذا من باب التعظيم، وتارةً يُراد به ملائكته، وهو قليل.

فإذا قال قائل: كيف صحَّ أن يُضاف إليه وهو لملائكته؟

قلنا: لأن ملائكته تفعل بأمره، فهم عبادُه يفعلون ما يُؤمَرون، وما كان يُفعَل بأمر الآمر صحَّ أن يُنسَب إليه، وقد مرَّ علينا هذا كثيرًا، قال فرعون: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦] لا شكَّ أن المراد: مُر من يبنِه، ما يُريد أن هامان يُباشِر يأتي بالمساحي، والمعاول، والزنابيل ليبني، ما أراد هذا.

وقوله: [وبالياء؛ أي: (يقول) الملك المُوكَّل بالعذاب] ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ﴾، يقول المؤلف: إن المراد الملك المُوكَّل بالعذاب، تأويل الآية بالمَلَك هنا أهون من تأويله في قوله: ﴿ونقول﴾؛ وذلك لأن [ويقول] فيها ضميرٌ مُستتر للغائب، هذا الغائب يجوز أن يكون الله، ويجوز أن يكون غير الله، ولكننا نقول: يمنع أن يكون المراد أن يكون القائل المَلَك: القراءة الأخرى ﴿ونقول﴾؛ لأنها تدلُّ على أن القائل هو الله عز وجل، فلو فسَّرنا يقول بأنه المَلَك لخالَفنا القراءة الثانية، وهي: ﴿نقول﴾ لأننا نقول: القائل هو الله، ولا شك أن القراءتين يُفسِّر بعضهما بعضًا، القراءة الثانية قد تكون تفسيرًا للأولى قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، القراءة الثانية: ﴿تثبَّتوا﴾، إذن ما معنى ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ (فتثبَّتوا).

فقول المؤلف: [نأمر من يقول]، أو يقول المَلَك كلاهما تحريف، والحامل عليه هو الاعتقاد.

ومن ينظر في أدلة الناس، أو في استدلالات الناس يجد أن من يعتقد مذهبًا من المذاهب تجده يُحرِّف الكلام عن مواضعه لأجل أن يُوافِق ذلك المذهب، وهذا خطير جدًّا، والواجب أن يكون

الإنسان نحو الأدلة ساذجًا؛ بمعنى: خاليًا محضًا، ويكون متابعًا تمامًا، ولا يجعل الدليل تابعًا، بل يجعل نفسَه هو التابع، ليكون كأنه أرض ما فيها عُشب ولا نبات، فهي مُهيَّأة لما يُبذر فيها، وليس فيها نباتٌ من قبل، إن كان فيها نباتٌ من قبل مُشكِل، يمكن أن يُحاول أن يكون هذا الغرس مثل هذا النبات.

مسألة: لماذا عبر أهل السنة بقولهم: إن كلام الله بحرف وصوت، وهذا القول لم يرد عن السلف الصالح من الصحابة؟

الجواب: ينبغي أن نعرف أن أهل السنة والجماعة - جعلنا الله وإياكم منهم صار لهم أحوال وأوقات، فلكل حال ولكل وقت منزلته، وهم ابتُلوا بقوم يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وعلى هذا فإن هذا القول في الحقيقة نافٍ لكلامِ الله، فاضطُرُّوا إلى أن يقولوا: بحرفٍ وصوتٍ تأكيدًا لمعنى الكلام فقط، فهم مُضطَرُّون لُمقابلة هؤلاء.

ولهذا لما قيل للإمام أحمد: ما بالنا نقول: غير مخلوق، والسلف الذين قبلنا ما قالوا: غير مخلوق؟ فتعجَّب الإمام أحمد، قالوا: مخلوق، فلابد أن نقول: غير مخلوق.

فأخبرنا الإمام أحمد بهذا أنهم رحمهم الله يأتون بهذه الكلمات لأجل دفع إيهام القول بما يقوله أهل الباطل، لو سكتوا وقالوا: القرآن كلام الله، لقالوا: إن الله يتكلَّم بكلام، صار في هذا إيهام.

حتى إن الإمام أحمد سُئِل عن رجل قال: أنا أقول: إن الله معنا ولا أزيد على هذا، فقال: قد تجهَّم؛ لأن الجهمية كانوا يُضلُّون الناس، كانوا يُصرِّحون بأنَّ الله معنا بذاته في الأرض، وأحيانًا يقولون: إن الله معنا، ولا يزيدون شيئًا، لأجل أن يُوهِمون الناس، فهم يتستَّرون بمثل هذا الشيء، كذلك لو قال قائل: السلف يقولون: إن الله استوى على العرش بذاته؛ أين بذاته في القرآن والسنة؟ ليست موجودة، لكنهم لو قالوا: استوى بمعنى علا العرش، قال لهم أولئك المُحرِّفون: نعم، هو علا على العرش لكن علوًّا معنويًّا، فيكون استوى بمعنى: استولى وملَكَ، فاحتاجوا إلى أن يقولوا: بذاته.

كذلك أيضًا عبَّر بعضهم بحديث النزول: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا[1]»[2] فقال: بذاته، وهي ليست موجودة، ولكن دفعًا لتحريف من قالوا: ينزل أمرُه أو ينزل ملكٌ من ملائكته، أو تنزل رحمته مثلًا.

فالمهم: أن السلف رحمهم الله يُورِدون بعض الكلمات لدفع هذا الباطل، كما أنهم يسكتون عن بعض الكلمات خوفًا من توهُّم الباطل، والإنسان يعرف أن أهل العلم رحمهم الله ربما نفس

(١) وهي السماء الأولى وسميت الدنيا لقربها من أهل الأرض.

(٢) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الفتوى معنويًا ما هو لفظيًّا تتغيَّر بتغيُّر الزمان.

فهذا عمر رضي الله عنه أجاز الطلاق الثلاث فجعله طلاقًا بائنًا، مع أن من قبله: النبي ﷺ وأبا بكر يجعلون طلاق الثلاث واحدًا، هو نفسه جعل الطلاق الثلاث واحدًا سنتين من خلافته، لكن لما رأى أن ينتشر فيهم هذا الشيء أراد أن يُلزمهم به لأجل أن ينتبهوا[1]، وهكذا فليُعلَم أن أهل العلم ليسوا - وهذا نكرِّره دائمًا - أنَّ العلم ليس مجُرَّد علم؛ بل هو علمٌ وتربية، أهم شيء أن يُربِّي الناس على الشريعة، ولهذا رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه[2])[3].

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مسألة الذات لم ترِد في لسان العرب العُرباء، ولكنها صحيحة، فيجوز الإخبار بها عن الله، ولكن ما تجعلها من أسمائه، ولكن يجوز أن يُخبَر بها عنه؛ مثل ما أنه يجوز أن تقول: إن الله موجود، والموجود ليست من أسماء الله، لكنه معلوم لابد أن تُقِرَّ بأنَّ الله موجود، وفي أسماء الله ما يُغني عنها؛ مثل: الحي الذي لا يموت، فهو يُغني بلا شك، ويصلح أن تُخبِر عن الله بأنه قديم، ويُعنَى بالقديم: ما لا أول له، هذا يصلح أن تُخبِر به عنه، لكن ما يجوز أن تجعل القديم اسمًا من أسمائه، خلافًا لبعض المتأخِّرين الذين جعلوا أخصَّ أوصافه أنه قديم، نقول: هذا ما هو صحيح، وفي القرآن والسنة ما يُغني عنه، وهو الأول، الأول يُغني عنه، وهو أيضًا أبلغ من القديم؛ لأن القديم قد يُطلق على الحادث المُتقدِّم، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩]، فلا يدلُّ على السبق المُطلق، ولأن الأَوَّل يُفيد معنى زائدًا على تقدُّم الزمن، وهو أن الأشياء تؤول إليه، وترجع إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** ما يحصل لهؤلاء المُعذَّبين من التقريع والتوبيخ الذي فيه الألم النفسي، والألم النفسي قد يكون أشد من الألم الجسمي، لقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢- **ومنها:** جواز التعبير بالسبب عن المُسبَّب، ويؤخذ من قوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهم في الحقيقة لا يذوقون ما كانوا يعملون، إنما يذوقون جزاءهم، لكنه من باب التعبير بالسبب عن المُسبَّب، وأيضًا فهو أشد في التقريع، إذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن العمل هم اختاروه بأنفسهم، والجزاء لم يختاروه بأنفسهم، فكأنه يقول: هذا هو الذي اخترتم تمامًا.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فجعل الجزاء

---

(١) انظر صحيح مسلم (١٤٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أي إذا حدث الناس بما يشتبه عليهم ولا يعرفونه ربما كذبوا بما جاء عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه البخاري (١٢٧).

هو نفس العمل، إذنْ فهو نظيرُه تمامًا؛ لأنه عُبِّرَ به عن العمل، وهذا بالنسبة للكفار وأهل الظلم يُجازَون بقدر أعمالهم، أما من عمل خيرًا فإنه يُجزَى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

٤ - **يُستفاد منها أيضًا:** أن تعذيب الكفار جسمي ونفسي، الجسمي ما يذوقوه من أنواع العذاب، والنفسي هو هذا التوبيخ الذي يوجَّه إليهم في قوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فما أدري كيف يتصوَّر الإنسان حينما يُقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولا أدري ماذا يكون تصور الإنسان في مقت هؤلاء لأنفسهم؛ لأنهم سيبغضون أنفسهم أشدَّ البُغض، ويكون هذا هو عملهم، إذًا لابد أن يتأثَّروا تأثُّرًا نفسيًّا لا نظير له، ففي هذا دليل على أن أهل النار يُعذَّبون عذابًا جسميًّا وعذابًا نفسيًّا بالتقريع والتوبيخ.



❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٦،٥٧]

❁ التفسير ❁

الآية إشارة إلى أن مقتضى العبودية والإيمان أن يقوم الإنسان بحقيقة بما تقتضيه هذه العبودية، وهو ألَّا يرى لنفسه حقًّا في جانب حق الله؛ بمعنى: ألَّا يُقدِّم حقوق نفسه على حقوق ربِّه، وليس المعنى: ألَّا يقوم بالأمرين، فإن الإنسان مأمور بأن يقوم بالأمرين، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا**[1]، **وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»، لكن المهم ألَّا يُقدِّم حظوظ نفسه على حقوق ربِّه، ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

وإضافة العبودية إلى الله هنا فيها من التشريف والتكريم ما هو ظاهر؛ لأن كون الله يُناديهم فيقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ فيُضيفُ ذلك إلى نفسه هذا له معنى عظيم فيما هو ظاهر.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ اعلم أن العبادة تنقسم إلى قسمين: عبادة كونية، وعبادة شرعية.

فالعبادة الكونية: هي الخُضوع لحكم الله الكوني، وهذه ثابتة في حق جميع الخلق، المؤمن والكافر والبَر والفاجر.

والثانية: عبادة شرعية: وهي الخُضوع للحكم الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله عز وجل؛ لأنه خضع لحكمه الشرعي أمرًا ونهيًا.

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٧)، وأبويعلى في مسنده (٨٩٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢١٤٤).

واخترتُ أن أُعبِّر بقولي: حكم دون أمر، لأجل أن يشمل الأمر والنهي، فإن العبادة هي: القيام بطاعة الله امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه.

ومن الأمثلة على هذين النوعين: الأولى ـ العبودية العامة ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن العبودية الخاصة قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وكذلك قوله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. هنا الآية إذا وصلت في القراءة فهي عبودية عامة، وإذا فصلت في القراءة فهي عبودية خاصة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلها من الإعراب النصب؛ لأن (عباد) منصوبة، منادى منصوب بسبب الإضافة.

وقوله: ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ سبق لنا مرارًا أن الإيمان هو التصديق المُستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، كما قاله أهل الإرجاء، فأهل الإرجاء يقولون: إن الإيمان مجرد التصديق، فمن صدَّق بالله فهو مؤمن، لكن إن استكبر عن العبادة كان دليلًا على عدم صدقه في تصديقه.

وهذا قولٌ منكر، فالصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان هو التصديق المُستلزم للقبول والإذعان.

وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذا هو محط النداء، المُنادى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، والمنادى به الذي هو محط النداء قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، الإضافة هنا من باب إضافة المملوك إلى مالكه، فتكون من باب إضافة الخلق والتكوين، أو من باب إضافة الاختصاص؛ يعني: الأرض التي هي محل عبادتي.

إذا قلنا: إنها الأول صار إشارةً إلى أن يُهاجروا إلى بلاد كفر أو إسلام.

وإذا قلنا: إنها الثاني التي هي على سبيل الاختصاص وهي أرض عبادة الله، يُراد بها البلاد الإسلامية، وهذا هو الظاهر، وأنه سبحانه وتعالى يحُثُّ المُقيمين في بلاد الكفر على أن يُهاجِروا إلى أرض الله، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧]، وهذا واضح بأن المراد بأرض الله هنا أرض الإيمان والعبادة التي هي دار الإسلام.

وقوله: ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ الواسع ضد الضيق؛ يعني: الذي يسَع ما يكون فيه، وليس فيها ضيق، فلا حُجَّة لكم في التأخُّر عن الهجرة، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ محلها من الإعراب: أن (إياي) مفعول لفعل مُقدَّر، والمعنى: إيَّاي خُصُّوا

بالعبادة فاعبدون.

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ قد يقول قائل: هذا يتناقض مع قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ولكننا نقول: لا يتناقض؛ لأن المراد بقوله : ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: أديموا عبادتي وأكملوها؛ لأن الأمر بما هو واقع لغوٌ من القول، فحينئذٍ لابد أن نُقدِّر معنًى يتلاءم مع الأمر، في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] والمعنى: أديموا وأكمِلوا، واستمرُّوا على الإيمان، هذه مثلها: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ المعنى: أديموا عبادتي وحقِّقوها بالتكميل؛ لأن العبد قد يكون عبدًا لكنه مُقِلٌّ في بعض الأمور.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ واضح أنه يدلُّ على الحصر والاختصاص.

ثم قال المؤلف: [﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ في أرض تيسَّرت فيها العبادة، بأن تُهاجِروا إليها من أرضٍ لم تتيسَّر فيها].

إذن الله سبحانه وتعالى رغب في الهجرة بقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وأمر بها في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ لأنه ما تتحقَّق العبادة في بلدكم، فإذا لم تتحقَّق فما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وعلى هذا ستكون الهجرة واجبة.

قال: [نزلت في ضُعفاء مُسلمي مكة كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها] فأُمِروا أن يُهاجِروا إلى بلادٍ يستطيعون فيها أن يقيموا دينهم، فهاجر منهم جماعةٌ إلى الحبشة، ثم قيل لهم: إنَّ مُشركي قريش أسلموا، فرجعوا، ولكنَّ كفار قريش ازدادوا في اضطهادهم – والعياذ بالله – فرجعوا مرة ثانية إلى الحبشة، ثم بعد ذلك أُذِنَ للنبي ﷺ أن يُهاجِر هو وأصحابه إلى المدينة، فهاجروا فكان أول بلد إسلامي تُقام فيه الحكومة الإسلامية هو المدينة، الذي تحقَّق ذلك بالهجرة.

وقوله: [كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها] الضيق الذي حصل لهم من الكفار مُتنوِّع بالقول، وبالفعل، وربما يُؤدِّي إلى القتل، وأنواع كثيرة، حتى إنهم – والعياذ بالله – يُعذِّبونهم في شدَّة الحر ـ في الرَّمضاء ـ، ويضعون الأحجار الحامية على بطونهم، لكن ذلك لا يُثنيهم عن دينهم أبدًا؛ لأنهم مؤمنون حقًّا، ويرون أن هذه الدنيا ليست بشيء؛ مثلما قال السحرة الذين آمنوا بموسى لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢] افعل ما تشاء، والذي يفوتنا بما تقضي به علينا إن فاتنا فهو الحياة الدنيا، وهذا هو حقيقة الإيمان، أن الإنسان يفدي دينه بنفسه، وبماله، وأما الإيمان الهشُّ الذي إذا أُوذِي صاحبُه في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، فرجع عمَّا كان عليه، فهذا في الحقيقة ناقصٌ غاية النُّقصان، ومن حكمة الله عز وجل أن الله يبتلي الإنسان بالفتن في دينه؛ لأجل أن يتبيَّن صدقُ إيمانه من ضعفه، كما تدلُّ هذه الآية، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ هذه قضية عامة صورها كلِّي.

وقوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ميتة، لكن عبَّر عن حقيقة الموت بالذوق؛ لأن الإنسان يذوق مرارة الموت، وألم فراق الحياة، لكنه إذا كان مؤمنًا فإنه يذوقه من وجه لكن يُهوِّن عليه الأمر وجهٌ آخر، وهو أنه إذا بُشِّر بالجنة عند موته فإنه يُسرُّ بذلك، ولهذا يسهُل على نفسه الخروج، الملائكة تتنزَّل عليهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فيُسرُّون بذلك، ويهُون عليهم فراقُ الأحِبَّة، ثم إنهم يشعرون في هذه الحال إلى أن أمامهم إمامهم الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون والصحابة، فيقول الإنسان: الحمد لله، أنا أنتقل من دار العناء والشقاء والابتلاء والامتحان إلى دار النعيم، فأكون مع النبي عليه الصلاة والسلام، وخلفائه الراشدين، وأصحابه الكرام فيزدادُ بُشرى، ويهُون عليه الفراق، فهنا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ولكن فرق بين المذاقَين، بين مذاق المؤمن ومذاق غير المؤمن.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بعد الإشارة إلى الهجرة كأنه يقول: بقاؤكم في بلاد الكفر من أجل التمتُّع بالمال والبلاد والأوطان، وهذا نقصٌ في التفكير؛ لأن هذا الأمر الذي أنتم تُحافِظون عليه – وهو البقاء في البلاد والتمتُّع بها – زائلٌ، فإذا كان زائلًا ولابد، فكيف نُحافظ عليه وندَع ما هو أهم من الهجرة، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ثم بعد الموت نُرجَع إلى الله عز وجل، وإذا رُجِعنا إلى الله يتبيَّن كشف الحساب، ماذا حصل؟ لأنَّ هذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، ﴿صَغِيرَةً﴾ وإن صغُرت؛ لأنه نكرة في سياق النفي، ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولو عظُمت ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لو أن الإنسان أراد أن يُحصِي ما يتكلَّم في اليوم، كم يكون له مُجلَّد في الأسبوع؟ لا بل مُجلَّدات، فالإنسان يجب عليه أن يعتبر بهذه الأمور؛ كيف تبلغ كلماته في كل يوم، وفي كل أسبوع، وفي كل شهر، وفي كل سنة، وفي العمر كله، وهذا الكتاب لا يُغادِر لا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقوله: [﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء والياء] قراءتان سبعيَّتان، لكن الفرق بينهما من حيث المعنى: أن ﴿يُرْجَعُونَ﴾ للغائب، و﴿تُرْجَعُونَ﴾ للمُخاطَب.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ، فالإنسان إذا نظر إلى رحمة الله عز وجل، وسعى في عفوه رغَبَ، وقال: سأرجو إلى ربٍّ عفوٍّ كريم، وإذا نظر إلى شدَّة عقابه وأخذِه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] فإنه يخاف، وهل يُغلَّب جانب الرجاء أو جانب الخوف؟

نقول: فيه آراء لأهل العلم؛ منهم من قال: يُغلِّب جانب الرجاء، ومنهم من قال: يُغلِّب جانب الخوف، والآيات في هذا قد تُرجِّح هذا القول، وقد تُرجِّح هذا القول، ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فبدأ بالمغفرة والرحمة

قبل ذكر العذاب، وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨]، فبدأ بالتهديد قبل الوعد، فاختلف أهل العلم في هذا.

وقال بعض العلماء: في حال الصحة يُغلِّبُ جانب الخوف حتى يستقيم على أمر الله، وفي حال المرض يُغلِّب جانب الرجاء؛ لأجل أن يُلاقي الله وهو يُحسِن الظنَّ به، فاعتبروا اختلاف الحالَيْن.

وقال آخرون: يجعل خوفَه ورجاءه واحدًا، قال الإمام أحمد: (ينبغي أن يكون خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هلك صاحبُه)؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف استولى عليه اليأس من رحمة الله، وإن غلَّب جانب الرجاء استولى عليه الأمن من مكر الله، فيكون بين هذا وهذا.

وقال بعض العلماء: في حال الطاعة يُغلِّب جانب الرجاء، وفي حال المعصية يُغلِّب جانب الخوف؛ يعني: إذا عمل الطاعة يكون أرجى لله أن يقبلها، فينشط على العبادة ويفعلها، وفي المعصية يُغلِّب جانب الخوف؛ لئلا يفعل المعصية، أو يستمر عليها بدون توبة.

والذي يظهر لي – والله أعلم –: أنه إذا لم يكن هناك سببٌ لتغليب أحدهما على الآخر، فالأولَى أن يكونا سواءً، أما إذا كان هناك سببٌ فإنه ينبغي أن يتبع ذلك السبب، فإذا همَّ بالمعصية، أو جعل رجاءه وخوفه واحدًا هانت عليه، لكن لو غلَّب جانب ا لخوف، وعظم عليه أن يعصيه كان ذلك أحسن له بتجنُّب المعصية، ولو وقع في المعصية وأراد التوبة، قلنا: غلِّب جانب الرجاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ قال المؤلف: [بعد البعث].

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن المؤمن عبدٌ لله، لقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والمراد: العبودية الخاصة.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** شرف الإيمان؛ حيث جعل الله تعالى هؤلاء المؤمنين عبادًا له، وإضافتهم إلى الله بالعبودية تشريفٌ لهم بلا شك.

٣ - **ومن فوائدها:** أن المُهاجِر سيجِد سَعةً في أرض الله، لقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: ١٠٠].

٤ - **ومن فوائدها:** أن من ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، فهؤلاء تركوا بلادهم التي ضُيِّق عليهم فيها، فعوَّضَهم الله بلادًا لا يجدون فيها هذا الضيق؛ بل يجِدونها ذات سعة، فمن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه.

٥- **ومن فوائدها:** إنعام الله تعالى على عباده بالترغيب بفعل الواجبات، لقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، فإن هذا فيه من ترغيبهم والحث على قيامهم بالواجب ما هو ظاهر.

٦ ـ ومن فوائدها: توجيه الأمر للإنسان بما هو مُتصفٌ به، لقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ثم قال في النهاية: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وينبني على هذا فائدة، وهي: أن هذا الأمر المُوجَّه لمن يتصف به يُراد به أمران، هما: الاستمرار فيه، وتحقيقه أو تكميله؛ لأنك إذا قلتَ: يا قائم قُم، ما لها معنى إلا إذا كان الغرض: استمر على القيام، وحقِّق هذا القيام، كما لو قلت: يا رجل كن رجلًا، هو يقول: أنا رجل، لكن اثبُت على هذا، وحقِّق الرجولية وأكمِلها.

٧ ـ ومن فوائدها: وجوب الإخلاص لله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: أن دار الإسلام تُضاف إلى الله عز وجل؛ لأنها مكان عبادته، لقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وهذه الإضافة ليست إضافة خلق وتكوين؛ لأن كل الأراضي لله، لكن إضافة تشريف، وأخصُّ من ذلك أن يُضاف المكان نفسه المُعيَّن إلى الله؛ مثل: المساجد بيوت الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

١ـ يُستفاد من هذه الآية: وجوب الهجرة.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الهجرة من عبادة الله، لقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن الحكمة من الهجرة هو القيام بعبادة الله، فعليه نقول: إذا تمكَّن الإنسان من عبادة الله لا تجب عليه الهجرة، لكن الأفضل أن يُهاجِر من بلاد الكفر؛ لأن قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إشارة إلى السبب؛ لأن الحكمة من الهجرة هو تحقيق عبادة الله عز وجل.

٤ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن كل المخلوقات تموت إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨]، ولكن يُستثنَى من هذا العموم ما دلَّت النصوص على استثنائه، وهم الذين خُلِقوا للبقاء؛ مثل: الحور، والولدان، فإنهم يبقَون، كما هو معروف.

٥ ـ ومن فوائدها: إثبات البعث، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

٦ ـ ومن فوائدها أيضًا: محاسبة الإنسان نفسه، فينبغي للإنسان أن يُحاسِب نفسه؛ لأن الله تعالى توعَّد بأنهم يُرجَعون إليه؛ يعني: فيُحاسِبهم، قال عمر بن عبد العزيز: (حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزَنوا).

٧ـ ومن فوائد الآية: أنه لا رجوع إلى أحدٍ سوى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، فالعالَم مهما فرُّوا لا يمكن إلا أن تكون النهاية والغاية إلى الله.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٦٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ نُنزلنَّهم، وفي قراءةٍ بالمُثلَّثة بعد النون، من الثواء الإقامة، وتعديتُه إلى ﴿غُرَفًا﴾ بحذف «في»].

الآية فيها قراءتان: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بمعنى: لننزلنَّهم، وعلى هذا فتكون الهاء المفعول الأول، و﴿غُرَفًا﴾ المفعول الثاني.

وفي قراءةٍ أخرى بدل الباء ثاء، وبدل الهمزة واو ﴿لنثوينَّهم﴾.

[من الثواء] وهو الإقامة، يُقال: ثوى في المكان أقام فيه، وعلى هذا فتكون ﴿غُرَفًا﴾ منصوبة بنزع الخافض (في)، أو (لنُثوينَّهم) في غرفٍ، لنُقيمنَّهم في غرف، وقيل: إنها منصوبة بتعدِّي الفعل إليها على سبيل التوسُّط، وهذا أصح؛ لأنه على هذا لا يحتاج إلى تقدير (في).

والقراءتان يثبُت معناهما جميعًا، وتكون الآية دالة على الإنزال وأنه إنزال إقامة لا إنزال إعارة؛ يعني: لنُنزلنَّهم على وجه الإقامة الدائمة، كما في آياتٍ كثيرة تدلُّ على دوام نعيم أهل الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه تتكرَّر في القرآن، ذكر الإيمان والعمل الصالح، واعلم أنه إذا أُطلق الإيمان شمل العمل الصالح، وإذا ذُكِر مع العمل الصالح صار الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الجوارح، كما ذكر النبي ﷺ في حديث جبريل[1] حين سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فبيَّن كلَّ واحدٍ منهما على حِدة، ولكن إذا أُطلِق الإيمان شمل الإسلام، وإذا أُطلق الإسلام شمل الإيمان قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] يشمل جميع الشريعة بعقائدها، وأعمالها.

هنا قال: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ نقول: الإيمان في القلب وهو العقيدة، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات هي: أعمال الجوارح، وإذا قيل: عمل شمل ثلاثة أعمال: عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عمل القلب هو: حركة القلب، وهو غير العقيدة، العقيدة قول القلب، وهو إقراره واطمئنانه إلى هذا العمل، وأما عمله فإنه حركة يتحرَّك بها؛ كالمحبة مثلًا، وكالتوكُّل، وكالرجاء، والخوف، ونحو ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قلنا أيضًا: يشمل قول اللسان فإنه عمل، فإن اللسان عندما يقول يعمل، ويتحرَّك بحركة عجيبة، لا تُشبه أن تكون اختيارية، ولا قهرية، هكذا اللسان، الآن عندما نريد أن نتكلَّم، هل الواحد منا يُريد أن يرفع لسانه عندما يأتي حرف يقتضي الرفع، ويُنزله عندما يأتي حرف يقتضي التنزيل؟ لا ولو كان يُلاحِظ هذا كان يُفكِّر متى يُظهِر اللام من الميم من السين من الشين، لكن هو سبحانه بإذن الله عزَّ وجل، وحكمته يتحرَّك حركة آلية لا شعورية، لكن أصل تحريكه باختياره، ما فيه شك، ما يمكن أن يتكلَّم إلا بإرادته، لكن هذه الحركات التي تظهر بها الحروف هي عبارة آلية، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وبهذا يُعرف قدرة الله تعالى في الخلق؛ كيف هذا الجزء من البدن يتحرَّك هذه الحركة الآلية؟!! وفي ظنِّي – والله أعلم – أنه لو كانت حركة إرادية محضة لكان يتعب الإنسان.

إذنْ نقول: عمل اللسان هو حركته، وعمل الجوارح ظاهر، وقد مرَّ علينا في «**العقائد**»: أنَّ الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وأن قول اللسان يصح أن نقول: إنه قول باعتبار الصوت، وأنه عمل باعتبار حركة اللسان والشفتين.

قال: ﴿غُرَفًا﴾ جمع غرفة، وهي السكن العالي، والحجرة هي السكن الأسفل؛ لأنه مُتحجِّر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الأنهار جمع نهر، وهذه الأنهار أربعة أصناف، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] أنهار تجري، فاللبن جاء من بقر أو إبل؟ لا، الذي خلق اللبن في الدنيا من بين فرث ودم قادرٌ على أن يُجرِي أنهارًا في الجنة من هذا اللبن، وكذلك العسل، والماء، وكذلك الخمر، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

واعلم أن أحوال الدنيا لا تُقاس بها أحوال الآخرة، وإنما تُفهَم أحوال الآخرة من أحوال الدنيا بالاسم فقط، أما حقيقة المُسمَّى فإنه لا مقارنة، ولا مساواة بين هذا وهذا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء فقط، لكن الحقيقة التي عليها يختلف اختلافًا عظيمًا.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ انظر كيف تتصوَّر حُسن المنظر، إذا صارت هذه الغُرف والقصور العظيمة والخِيام تجري من تحتها هذه الأنهار المُضطرِدَّة؛ يعني: منظر يبهج الناظرين، ولا يُساويه شيءٌ في الحُسن والسرور، وهذه الأنهار كما قال ابن القيم: وردت فيها أحاديث تدلُّ على أنها تجري بدون أُخدود؛ يعني: بدون شيءٍ يمنعها، يتصرَّف فيها الناس كما يشاءون، يُدبِّرها بدون مساحٍ،

وبدون عُمَّال، كما يشاءون، قال في «**النونية**»:

أنهارُها في غير أُخدُودٍ جرَت سُبْحان مُمسِكِها عن الفَيَضانِ[1]

فالحاصل: أن هذه الأنهار عندما يتخيَّلها الإنسان وهي تجري من تحت هذه الغُرف يتصوَّر منظرًا عظيمًا، ولاسيَّما الذين لهم ذوقٌ في هذه الأمور، أما نحن ما عندنا ذوقٌ في هذه الأمور فلن نتصوَّر كيف يكون هذا المنظر وهذه البهجة.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ قال: [مُقدَّرين الخلود، ﴿فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر].

وقوله: [مُقدَّرين فيها الخلود]؛ لأن كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود مُستمر، فإذا كان مُستمرًّا فإنه لا يكون مع الدخول، ولكن تكون - كما يقولون - حالًا مُقدَّرة، وفي الحقيقة أنه لا حاجة إلى أن نقول: حال، نقول: هذه الغُرف هي أيضًا دائمة، فهم خالدون في هذه الغُرف، فتكون الغُرف والخلود فيها مُستمرًّا.

وقوله: [﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر]، فقدَّم المؤلف هذا الأجر ليُبيِّن المخصوص بالمدح؛ لأن نِعم وبئس تحتاج إلى فاعل ومخصوص، وهنا الفاعل موجود وهو قوله: ﴿أَجۡرُ﴾، والمخصوص بالثناء والمدح محذوف، ولهذا يقول المؤلف: [هذا الأجر]، كما تقول: نِعْمَ الرجل زيد، هذا هو المخصوص، ما هو أجر العاملين؟ هذا الأجر والجزاء.

فعليه نقول: نِعْم فعل ماضٍ جامد، وقوله: ﴿أَجۡرُ﴾ فاعل، وأجر مُضاف، و﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ مُضاف إليه، وهذه الجملة تحتاج إلى مخصوص، التقدير: [هذا الأجر]، ونُعرِبُه على أنه مبتدأ، وجملة ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ﴾ خبر مُقدَّم.

وهذا من ثناء الله على هذا الأجر، وسمَّى الله تعالى هذا الثواب أجرًا من باب إظهار كرمه على عباده كأنهم أُجراء، فيكون هذا الثواب واجبًا وجوب الأجرة للأجير، والله سمَّى الإنفاق في سبيله إقراضًا، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [الحديد: ١١]، كأنه سبحانه وتعالى جعل هذا الإنفاق بمنزلة الشيء اللازم ردُّه، كما يلزم ردُّ القرض، وهذا لا شكَّ أنه من نعمة الله سبحانه وتعالى وفضله، وإلا فهو المُتفضِّل أولًا وآخرًا، هو المُتفضِّل بالعمل، وهو المُتفضِّل بالجزاء، ولكن لنهاية كرمه وجوده جعل عمل الإنسان كأنه عملٌ من نفسه فقال: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المحسنين.

الفوائد:

١ - يُستفاد من هذه الآية: أن الإيمان إذا قُرِن مع العمل الصالح فالمراد به ما في القلب، ما هو وجه هذه الفائدة من الآية؟ لأن العطف يقتضي المُغايَرة، أما إذا ذُكِر الإيمان وحدَه فإنه يدخل

---

(١) متن القصيدة النونية (ص٣٢٦).

فيه العمل الصالح.

٢ - **من فوائد الآية:** اشتراط أن يكون العمل صالحًا، والعمل الصالح ما جمع شرطين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فالمرائي بعمله عملُه ليس صالحًا لفقده الإخلاص لله، والمُخلِص لله المُبتدع عملُه ليس صالحًا؛ لأنه غير متابع.

وهل تُشترط المتابعة، أو عدم العلم في المنافاة، أي: هل يُشترط أن يتحقَّق أنه مُتابع، أو يكفي أن نعلم أنه لا يُنافي الشرع؟

الأول يقينًا؛ لأنه ينبني على هذا لو أن الإنسان تعبَّد بعمل، وقلنا: لماذا تتعبَّد بهذا؟ طاعتُه دليل على أنه غير مشروع، نحن ما عندنا دليل ينصُّ على أن هذا العمل ليس بمشروع؛ فهل لنا سلطة على منعه أم لا؟

نعم؛ لأنه يُشترط أن نعلم أنه مشروع لتتحقَّق المتابعة، فالمقامات ثلاث:

تارةً نعلم أنه غير مشروع؛ كالنهي عن صوم العيدين مثلًا، وما أشبه ذلك.

وتارةً نعلم أنه مشروعٌ؛ كصوم يوم الإثنين.

وتارةً لا نعلم أنه مشروع ولا أنه غير مشروع؛ مثل: لو قال قائل: ائتوني بدليل على أن اتخاذ ليلة ولادة النبي ﷺ عيدًا ليس بمشروع، أو قال: ائتوني بدليل على أن من لازَمَ التسبيح في اليوم وجعلها سنة راتبة فإن ذلك غير مشروع.

نقول: الدليل على الفاعل؛ لأن الأصل في العبادات المنع حتى يقوم دليل على المشروعية.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن جزاء المؤمنين العاملين عملًا صالحًا سُكنَى الجنات، لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** الإقامة الدائمة في الجنة، على قراءة ﴿لنُثوينَّهم﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن منازل الجنة عالية، لقوله: ﴿غُرَفًا﴾.

٦ - **ومنها:** أن في الجنة أنهارًا، لقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والأنهار - كما هو معروف - أصنافها أربعة.

٧ - **ومن فوائدها:** أن التنعُّم في الجنة كما يكون في الأكل، والشرب، والنكاح، واللباس يكون كذلك في النظر، والبهجة، لقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فإنك لا تستطيع الآن أن تتصوَّر البهجة التي تنالها إذا رأيتَ هذه الأنهار مُضطربة تحت قصورك وغرفك، لها منظرٌ لا يُتصوَّر.

٨ - **ومن فوائدها:** عِظَم هذا الثواب الذي يحصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الله أثنى عليه في قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

٩ - **ومنها:** نهاية الكرم والجود من الله عز وجل؛ حيث كان هو الذي وفَّقهم للعمل، ثم أثنى عليهم به ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها أيضًا:** الرد على الجبرية، تُؤخذ من ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فأضاف العمل إليهم، فدلَّ هذا على أنهم يعملون باختيار وإلا لَمَا استحقُّوا الثناء، فلولا أن الإنسان يعمِل باختياره ما استحقَّ أن يُثنَى عليه بالعمل الصالح، ولا أن يُذمَّ في العمل السيئ، ومن ثمَّ قال الجبرية: إن أفعال الله غير مُعلَّلة، فهو يظلم من شاء وإن كان هو الذي جبَره على العمل، ويُثيبُ من شاء وإن كان هو الذي جبَرَه على العمل، قيل لهم: لا حكمة في ذلك؟ قالوا: نعم، ونحن لا نُعلِّل أفعال الله، ونقول: إن أفعال الله لمُجرد المشيئة فقط.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ **فيه أقوال:**

الأول: أن يكون منصوبًا على المدح؛ يعني: أمدحُ الذين صبروا.

الثاني: أن تكون خبرًا على تقدير: [هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾]. على رأي المؤلف.

الثالث: أن يكون نعتًا مقطوعًا، أو أن يكون نعتًا موصولًا على أنه صفة للعاملين.

قال المؤلف: [﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على أذى المُشركين، والهجرة لإظهار الدين]

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أمرَين على كلام المؤلف: على أذى المُشرِكين، وعلى الهجرة لإظهار الدين؛ لأن في كليهما مشقَّة على النفوس، على أذى المُشركين المتنوِّع في القول والفعل، وكما يقولون: حرب الأعصاب، والمُضايقات النفسية، ولا الهجرة من بلادهم التي سكنوها وأقاموا فيها إلى بلاد أخرى يكونون فيها غرباء، فكل هذا لا شك أنه يشقُّ على النفوس، وإنما خصَّ المؤلف الصبرَ بهذين الأمرَين بتعيين السياق لهما، إذنْ السياق كله في مسألة الهجرة وما أشبهها، ولكن لو قيل بالعموم لكان المعنى: الذين صبروا على كل ما أُمِروا بالصبر عليه، ونجعله مُنقسمًا إلى ثلاثة أقسام:

صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصيته، وصبرٌ على أقداره، لو قلنا بالعموم لكان أولَى؛ لأن القول بالعموم يدخل فيها الصبر على الأذى والهجرة بخلاف القول بالخصوص.

وعلى هذا فنقول: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الأقسام كلها:

الصبر على الطاعة: مُجاهدة النفس على فعلها، وإتمامها، وإتقانها.

والصبر عن المعصية: حبس النفس عن فعلها.

والصبر على الأقدار: حبسُ النفس عن التسخُّط على القدر، وقد سبق لنا أن مقامات المُصاب في الأذى أربعة.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مُتعلَّقة بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقُدِّمت لإفادة الحصر، والتوكُّل معناه: الاعتماد، وعرَّفه بعضهم بقوله: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾.

واعلم أن التوكُّل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكُّل عبادة مقرون بالخشية والمحبة والتعظيم، وتفويض الأمر تفويضًا كاملًا إلى المُعتمَد عليه، وهذا النوع لا يجوز إلا لله عز وجل، الذي هو توكُّل العبادة.

الثاني: توكُّل اعتماد بلا عبادة: بمعنى: أن الإنسان يعتمد على غيره، لكن لا اعتمادًا يشعر بأنه مُتذلِّل وخاشع له، وراغبٌ إليه، ونحو ذلك، وهذا القسم إن كان على ما يمكن الاعتماد عليه فهو شركٌ أصغر، وإن كان على ما لا يمكن الاعتماد عليه فهو شركٌ أكبر؛ وذلك إذا كان على ميت أو غائب، لا يمكنك أن تعتمد عليه، فإنه شركٌ أكبر؛ لأنه ليس لذلك معنى إلا أن تعتقد أن هذا المُعتمَد عليه مُتصرِّف في الكون بغير مُباشرة، وهذا كما يحصل لكثير من المشركين الذين يعتمدون على الأموات، والأولياء وإن كانوا بعيدين، وما أشبه ذلك.

أما إذا كان يعتمد عليه وهو يمكن أن يكون سببًا لجلب المنفعة أو دفع المضرَّة، ولكنه مُعتمِدٌ عليه على أنه مِنْ فوقه وهو من تحته، فإن هذا نوعٌ من الشرك الأصغر؛ مثل: اعتماد كثير من الناس الآن على رواتب الدولة، وما أشبه ذلك، فكونك تعتمد على هذا وأنها هي مصدر رزقك، فإن هذا نوعٌ من الشرك الأصغر، فإنها ليست إلا مجرد سبب، ولهذا من كان على هذه الحال تجِدُه يُراعِي المُتوكَّل ويخافه، وربما يترك ما أوجبه الله عليه مُراعاة له، ومُداهنةً، أو يفعل ما حرَّمه الله عليه كذلك.

الثالث: فهو الاعتماد على الغير لا على السبيل الخشية والخوف والرغبة إليه، ولا على شعور أنه فوقك، وأعلى منك، ولكن على شعور أنك أنت الذي فوقه، وأنت الذي تُدبِّره، فتعزِل وتنصِب، فهذا جائزٌ، ولا حرج فيه، وقد وقع من النبي ﷺ، فإنه كان يبعثُ السُّعاة توكيلًا له على ما يُريد، وهذا لا بأس به، وهذا ما يحصل بطريق الوكالة، عندما أُوكِّل إنسانًا يشتري لي شيئًا، أو يبيعُ لي شيئًا، فأنا مُعتمِد عليه الآن في هذا الأمر، لكن هل هو اعتماد على أنني أشعر أنني المُحتاجُ إليه وأنه فوقي؟ لا؛ بل على العكس، أعتقد أنني أنا الذي فوقه لاسيَّما إذا كان بعِوَض، وأن الأمر إليَّ بشأنه، إن شئتُ عزلتُه وإن شئتُ نصبتُه، وقد أجمع العلماء على جواز التوكيل في البيع والشراء وغيره مما تدخل فيه الوكالة.

وهنا المراد بالآية الكريمة: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي الأقسام؟

القسم الأول، وكذلك الثاني بنوعَيه، فإنهم لا يعتمدون على أحدٍ سوى الله عز وجل في جلب المنافع، ودفع المضار.

واعلم أن التوكُّل أحد شِقَّي الدين، فإن الدين مُكوَّن من أمرَين: عبادة، واستعانة، كما قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:

١٢٣]، وهذا كثيرٌ في القرآن؛ لأن العبادة لا تكون إلا بفعل من العبد، وبمعونةٍ من الله سبحانه وتعالى، ويجب على المرء عندما يتعبَّد لله أن يكون مُعتمِدًا على ربه؛ لأن الله لو وكَلَه إلى نفسه لوَكَله إلى ضعف وعجزٍ وعورة، ولا يستطيع أن يقوم بما أوجب الله عليه.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال: [فيرزقهم من حيث لا يحتسبون]، وهذه الجملة من المؤلِّف لا تُناسب التوكُّل؛ لأن الذي يُناسِب التوكُّل أن يكون حسبَهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أما الرزق من حيث لا يشعر فيُناسِبه التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وفرقٌ بين الأمرين، لكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتى بهذه الجملة توطئةً لما بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، وإلا فبالنظر إلى الآية المُفسَّرة لا يُناسِبها هذا القول.

هل الله سبحانه وتعالى يكون وكيلًا ومُوكِّلًا ؟

نعم، أما وكيلًا فكثير في القرآن ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ومثلها: ﴿حَسِيبًا﴾، وأما مُوكِّلًا ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وليس التوكيل من الله لهؤلاء؛ كتوكيلي أنا لفلان وفلان مثلًا؛ لأن توكيلي لفلان وفلان إما لعجزي أو تقصيري أو ما أشبه ذلك، لكن توكيل الله بمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يجعل هؤلاء هم القائمين بها، لا أنه سبحانه وتعالى عاجز.

الفوائد:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** فضيلةُ الصبر؛ حيث أثنى الله على الصابرين الذين صبروا.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوكُّل والاعتماد، لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للصابر أن يعتمد على ربه في صبره، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وفائدة اعتماده في صبره على ربه:

أولًا: الثبات على ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الثاني: أن صبره يكون عبادة؛ لأن بعض الناس يصبر ويتجلَّد على حدِّ قول الشاعر [(١)]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

---

(١) ينسب هذا البيت إلى: أبو ذُؤَيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرِّث أبو ذُؤَيب من بني هذيل بن مدركة المضري. شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى إفريقية سنة (٢٦ هـ) غازياً. فشهد فتح آفريقية وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان، فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها. وقيل مات بإفريقية. أشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد ،قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة. وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته، فأدركه وهو مسجّى وشهد دفنه. توفى سنة (٢٧هـ) .

هذا الصبر لا شك أنه يكون جميلًا لكن لا يُثابُ عليه.

إذنْ نقول: إن الصبر المقرون بالتوكُّل على الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون فيه الثواب والأجر.

٤ - ومن فوائد الآية: كفاية الله عز وجل؛ لأنه لا يُتوكَّل إلا على من هو كافٍ، فمن ليس بكافٍ فليس أهلًا لأَن يُتوكَّل عليه.

٥ - ومن فوائدها: إثباتُ الربوبية، لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ...﴾ يقول المؤلف: [كم] فعلى هذا تكون خبرية؛ يعني: وكم من دابة؛ أي: كثيرٌ من الدواب، والدابة في اللغة العربية كل ما يدِبُّ على الأرض سواءٌ مشى على بطنه، أو على رجلَيْن، أو على أربع، كلها تُسمى دواب، أما العُرف فهي لذوات الأربع، ولا تشمل ما يمشي على بطنه، ولا على رجلَيْن، وهناك أيضًا عُرف أخصُّ من هذا، وهو أنَّ الدابَّة هي الحمار فقط، ويقولون مثلًا: ذهب منَّا على دابَّة، كل من كلَّمته بهذا الكلام ذهب إلى أنه الحمار، لكن الكلام على المعنى اللغوي، أما الأعراف فإنها تتبعُ أصحابَها، المعنى اللغوي: الدابَّة كل ما يدِبُّ على الأرض.

وقوله: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قال: [لضعفها].

فما معنى: لا تحمله هل ما تقواه، أو لا تستطيع أن تتكسَّب للرزق؟

الجواب: الأخير؛ يعني: ما تستطيع أن تكتسب وتحمل الرزق؛ حيث تقوم بالكفاية بنفسها، وهذا شيء كثير؛ لأن هناك دواب يصيبها عاهات وأمراض فما تستطيع أن تكتسب الرزق فيهيئ الله لها رزقًا بحيث يأتيها وهي في مكانها، وقص علينا من هذه الأشياء كثير.

وهناك أيضًا من الدواب ما يكون دقيقًا فما تستطيع أن تتحرك بعيدًا فيقيد الله لها رزقها.

وهذه الدواب أيضًا منها ما يستطيع بنفسه أن يدَّخِر الرزق، ومنها ما لا يدَّخر الرزق، ومنها ما له أعوان، ومنها ما ليس له أعوان، المهم أن من يتفكَّر في مخلوقات الله في هذا الأمر يجِد العَجَب العُجاب، وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود: ٦].

والمتأمل للآية يجد كلمة ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ نكرة في سياق النفي المؤكد عمومه بمن فأي دابة في الأرض فعلى الله رزقها وأيضًا يعلم مستقرها ومستودعها، وليست الدواب كلها ترتزق بشيء واحد، فهذا يناسب هذه ولا يناسب الأخرى، وهو فوق ذلك يعلم مستقرها أي محل استقرارها، ومستودعها أي: محل استيداعها، يعني: يعلم ما تؤول إليه يوم القيامة وهو محل استقرارها والمستودع الدنيا والبرزخ الذي بين الدنيا والآخرة.

قال: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ هنا أتى بالجملة الاسمية، والرزق بمعنى: العطاء بلا عِوَض.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ أي: هذه الدابة، ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ هذا معطوف على الهاء في قوله: ﴿يَرۡزُقُهَا﴾، وفصل الضمير هنا واجب؛ لأنه كلما أتى الضمير بعد العطف فهو واجب الانفصال؛ إذ إنَّ الضمير المتصل هنا ما يمكن يتأتَّى، فلو قلتَ: الله يرزقها وكُم، ما صحَّ، فإذا أتى الضمير بعد العطف، أو بعد إلَّا عُلِم أنه لابد أن يكون منفصلًا.

قال: [﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ أيها المهاجرون، وإن لم يكن معكم زادٌ ولا نفقة]؛ لأن الكلام كله مسوقٌ للهجرة ومغادرة البلد، فالله تعالى كما رزق هذه الدواب العظيمة التي هي نفسها جنسًا، فضلًا عن النوع، وفضلًا عن الأفراد، فأنتم كذلك إذا هاجرتُم لا يضيعُ رزقكم؛ بل رزقكم على الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وقد حصل هذا، فأسرى بدر الذين أسلموا ماذا حصل لهم؟ حصل لهم من الفيْء والغنائم أكثر مما أُخِذ منهم.

وقوله: [﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بضمائركم] وهو سميعٌ سبحانه وتعالى لكل شيء، يسمع كل صوتٍ وإن خفِيَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، فهو يعلم كل ما يكون من صوتٍ خفيٍّ، سواء كان قولًا أو غير قول، لكن المؤلف خصَّ القول؛ لأنه محطُّ التكليف والإثم أو الأجر.

والسميع من أسماء الله سبحانه وتعالى، وله معنيان: أحدهما: إدراك المسموع، والثاني: إجابة الدعاء. أما إدراك المسموع فله أمثلة كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١].

وأما إجابة الدعاء؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] سميع بمعنى: يُجيبُ دعاه؛ لأن هذا هو المقصود، فالإجابة دون سماع الصوت.

واعلم أن السمع الذي هو بمعنى: إدراك المسموع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يُراد به: بيانُ إدراك سمع الله سبحانه وتعالى لكل مسموع.

وقسمٌ آخر يُراد به مع ذلك: النصرُ والتأييد.

وقسمٌ ثالث يُراد به مع ذلك: التهديد والوعيد.

وهذا على حسب السياق؛ كغيره من صفات الله، كثير من صفات الله سبحانه وتعالى تكون مُرادًا بها هذه الأمور الثلاثة، ففي قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] المقصود هنا: التهديد، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ ..﴾ [آل عمران: ١٨١] هذا يُراد به: التهديد، وفي مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] هذا يُراد به: النصر والتأييد، ليس مجرد أن يسمع فقط، ولكن مُراده النصر والتأييد، وفي مثل قوله

تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] يُراد به بيانُ إحاطة سمع الله لكل مسموع؛ لأن السياق لا يقتضي نصرًا ولا تهديدًا، فيكون المقصود به: بيان إحاطة علم الله عز وجل بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة ﵂ في هذه الآية: (تبارك الذي وسِعَ سمعه الأصوات، والله إنِّي لفي أدنى – أو طرف – الحُجرة، وإنه ليَخفَى عليَّ بعضُ حديثها، والله تعالى فوق عرشه، عالٍ على خلقه، ومع ذلك يسمع مُجادَلتَها ومُحاورَتها للنبي ﷺ)، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وفي هذه الآية فائدة مهمة بالنسبة للذين يتكلَّمون على أسماء الله وصفاته، وهو أنه من المعروف عند أهل السنة أن الاسم يتضمَّن ثلاثة أشياء إذا كان مُشتقًّا من وصفٍ مُتعدٍّ فهو يتضمَّن ثلاثة أشياء، وهي: الاسم، والصفة، والحكم، فهنا: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ﴾؛ لأنه ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، فدلَّ هذا على أن سميع تتضمَّن ثُبُوت مُقتضاها، وهو أنه يسمع، ومعلومٌ أنه لا سماع إلا بسمع، خلافًا لمن قال: إنه يسمع بذاته، كما قال ابن حزم وجماعة، لا بصفةٍ هي السمع، وقالوا: يسمع بذاته، ولا نُثبت لها صفة هي السمع، وهذا كلام في الحقيقة هُراء، فالله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فأثبتَ الصفة ذو الرحمة، وقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، فدلَّ هذا على أن الرحيم مُشتقٌّ من الرحمة؛ لأنه قال: ﴿ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، يُوازيه تمامًا: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وهذا مُقرَّر عند أهل السنة، ومعلومٌ – والحمد لله – أن الأسماء التي تتضمَّن وصفًا مُتعدِّيًا تدلُّ على ثلاثة أمور.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: [بضمائركم]، وعلى رأي المؤلف تكون هذه الآية تدلُّ على الأقوال وما في الضمائر فقط، مع أن هناك أفعالًا لا تتعلَّق بالسمع، فإذا قلنا: العليم بالضمائر بقِيَ عندنا قسمٌ من أفعال الناس، وهي الحركات ـ أفعال الجوارح ـ فتكون الآية ما فيها دليل عليها، ولهذا الصواب أن يُقال: العليم بجميع أحوالكم، فالله تعالى عليمٌ ليس بما في الضمائر فقط؛ بل بما في الضمائر، وبما يُفعل، وبما يُسمَع؛ لأن العلم من أشمل ما يكون من صفات الله، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فهو من أعم الصفات شمولًا.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ العلم يقول العلماء: هو إدراك المعلوم على ما هو معلوم إدراكًا جازمًا مُطابقًا، فخرج به الشك والظنُّ والوهم، ومُطابقًا خرج به الجهل المُركَّب، وإدراك خرج به الجهل البسيط، فيكون تعلُّق الإدراك بالأمور على ستة أنواع: علم، وجهل بسيط، وجهل مُركب، وشك، وظن، ووهمٌ.

العلم: أن تُدرِكَ الشيء على ما هو عليه جازمًا به؛ كأن يُدرِك بأن هذا الذي أمامه مُسجِّل.

الجهل البسيط: أن يقال لي: ما هذا الذي أمامك؟ فأقول: لا أدري.

الجهل المُركَّب: أن يقول لي قائل: ما هذا الذي أمامك؟ فأقول: هذه ألعوبة رضعاء - وهو مسجل -، فهو جهلٌ مُركَّب من جهلي بحقيقة الحال، ومن جهلي بالحال، ظننتُ أني عالم وأنا جاهل.

الشك: أنه قال لي: ما هذه؟ فأقول: إما مُسجِّل، أو راديو؛ لأن أحد الاحتمالَين صحيح، فيكون هذا شكًّا، وكونُه شكًّا مع التساوي، إذا رجَّحتُ أنه مُسجِّل فهو ظنٌّ، والمرجوح الذي هو راديو وهم، هذا تعلُّق العلم بالأشياء، كل هذه الأمور مُنتفية عن الله عز وجل ما عدا العلم، فإنه ثابتٌ لله سبحانه وتعالى على أكمل وجه.

فإن قال قائل: هذا الجزم منكم بأنه لا يكون على الله من هذه الأمور الستة إلا العلم، يُردُّه قوله تعالى في الحديث القُدسي: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوتَ، وَأَكْرَهُ إِسَاءَتَه، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ**»(١)، فأثبتَ الله سبحانه وتعالى أنه يتردَّد في بعض أفعاله.

فالجواب: أن التردُّد قسمان:

تردُّدٌ بتوقُّف المُتردِّد في الأمر؛ هل يكون خيرًا أو لا. وهذا بالنسبة إلى الله مُمتنع، لا يمكن هذا أبدًا؛ لأن الله تعالى يعلم.

وتردُّدٌ باعتبار النظر للغير؛ يعني: تردُّدٌ لأمرٍ يتعلَّق بغيره؛ مثل هذه الحال، فإن تردُّد الله عز وجل لا لخفاء الأمر عليه، ولكن لأنه يكره أن يسوء عبده المؤمن، فيتردَّد لا لشكٍّ في الأمر واستظهارٍ للواقع، ولكن لأجل هذه المسألة لأمرٍ يتعلَّق بغيره، فهذا لا يُعتبر نقصًا؛ بل هو كمال يدلُّ على رحمة الله عز وجل، وبهذا يزول الإشكال.

وكذلك أيضًا قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ من الأسماء المُتعدِّية، فتكون مُتضمِّنة لثبوت الاسم، والصفة، والحكم.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: الإرشاد إلى النظر في مخلوقات الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ لأجل أن نتفكَّر في هذه الدواب التي لا تحمل رزقها.

٢ - ومن فوائدها: أنها تشتمل على عدة صفات من صفات الله؛ منها:

كمال القدرة؛ حيث يخلق هذه الدواب الصغيرة التي ما تحمل رزقها، ويخلق الدواب العظيمة التي تكتسب الرزق.

ومن الصفات: قدرة الله عز وجل، ومنها: علمُه، ومنها: رحمته، ومنها: إحاطتُه بكل شيء، فإن هذه الدواب الصغيرة التي ما تحمل رزقها يعلمها ويرزقها.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات اسمي: السميع والعليم، وما يتضمَّناه من الصفة.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[العنكبوت:٦١،٦٢]

❁ التَفسِير ❁

قوله: [﴿وَلَئِن﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُم﴾ أي: الكفار ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾].

يقول المؤلف: إن اللام لام قسم، وقد اجتمع هنا قسمٌ وشرطٌ، والشرط هو (إنْ).

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هذا جواب القسم، والقاعدة أنه إذا اجتمع شرطٌ وقسمٌ حُذِف جواب المتأخِّر، قال ابن مالك:

واحـذِفْ لَـدَى اجْـتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَـسَم   جَـوَابَ مَـا أَخَّـرتَ فَهُـو مُلتَـزَم[1]

فعندنا اللام قسم وإن شرطية، فكان الجواب الموجود القسم.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ فيها ضميران: التاء والهاء، التاء في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وتقدَّم لنا أمثالها كثيرًا.

وقوله: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ أي: الكفار الذين لا يُقِرُّون بتوحيد الألوهية، هم يُقرُّون بتوحيد الربوبية لكن لا يُقرُّون بتوحيد الألوهية والعبادة، والضمير في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ إما أن يكون للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه؛ أي: ولئن سألتَهم أيها الإنسان: من خلق السماوات والأرض، خلق بمعنى: أوجَدَ، لكن هذا الخلق ليس بمعنى الإيجاد المُجرَّد؛ بل هو إيجادٌ على تقديرٍ مُعيَّن؛ أي: أنه يكون مسبوقًا بتقدير، ولذلك لا يكون إلا فيما فيه إتقان وجودة.

وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تقدَّم كثيرًا، وقلنا: إن السماوات تُجمع دائمًا في القرآن، والأرض ما جاءت إلا مفردة، ولكن الثابت أن الأرضين سبع كما أن السماوات سبع.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ سخَّر بمعنى: ذلَّل الشمس، وجعلها مُذلَّلة لمصالح العباد، تسير بهذا النظام الذي لا يختلف ولا يتغيَّر، لا تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ولا علوًّا ولا نزولًا، فلو أنك

---

(١) شرح ابن عقيل (٤/ ٤٣).

تدبَّرتَ هذه الشمس منذ إذ ميَّزتَ إلى اليوم لرأيتَها على نظام بديع لا يتغيَّر، على عِظَمها، وكِبَرها، ثم إن فيها من آيات الله هذه الحرارة العظيمة، كم مسافة بيننا وبينها ؟ مسافة بعيدة جدًّا، ومع ذلك انظروا إلى حرارتها في أيام الصيف، وهذه الحرارة العظيمة ما هي إلا نَفَسٌ بسيطٌ من نار جهنم، كما قال النبي ﷺ «إِنَّ النَّارَ اشْتَكَتْ إِلَى رَبِّهَا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ[1]: نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، وَنَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ»[2].

هذه الحرارة العظيمة يقول الناس: إن حرارتها لو قُرِّب منها أقوى حديدٍ وأشد حديد لطار هباءً قبل أن يصل إليها من شدة الحرارة، وهذا أمر معلوم، لو تُوقِد نارًا عظيمًا من أبلغ نيران الدنيا هل تجِد هذه الحرارة فيها من هذه المسافة؟!

ثم إن هذه الشمس كل يوم لها مطلع، وكل يوم لها مغرب؛ لأن الله سخَّرها هكذا، ولولا ذلك ما اختلفت مشارق الشتاء ومشارق الصيف.

وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ القمر معروف، وإنما ذكر تعالى هنا الشمس والقمر لما فيهما من المصالح الظاهرة؛ لأن النجوم والكواكب ليس فيها مصالح ظاهرة لنا، وإلا فقد سخَّر الله الشمس والقمر والنجوم، كلها سخَّرها لنا، لكن هذا أظهر وأبيَن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ دليل على أنهما هما اللذان يجريان حول الأرض، خلافًا لمن قال: إنهما لا يسيران على الأرض، وأن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض نفسها، ولا شك أن الذي لا يعتقد أنهما يدوران على الأرض أنه على خطر عظيم، ربما يصل به ذلك إلى الكفر؛ لأن الذي نؤمن به ونعتقده ما أخبرنا الله عنه من أن الشمس هي التي تدور على الأرض، وكذلك القمر ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، فأضاف الله تعالى هذه الأفعال كلها إلى الشمس، طلعت، تزاور، غربت، تقرضهم، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء الخَرَّاصون لكانت الأرض هي التي تزاور، وهي التي تطلع عن الشمس، وهي التي تغرُب عنها، فهم ما عندهم إلا أمور ظنية فقط، والقرآن دلالته ظاهرة على أنها هي التي تدور على الأرض، وكذلك القمر، والنبي عليه الصلاة والسلام لما غربت الشمس قال لأبي ذر: «أَتَدرِي أَينَ تَذهَبُ؟»[3]، ولم يقل: أتدري أين نذهب عن الشمس؛ بل الشمس هي التي تذهب، وهي التي تأتي، وهي التي تستأذِن، وهي التي يُؤذَن لها، أو تُمنَع.

ومن العجيب أن هذا القول المخالف لظاهر القرآن قد سرى إلى أُناسٍ لا تشك في ديانتهم، لكن غرَّهم السراب فانخدعوا، والواجب علينا في هذه الأمور أن نمشي على ظاهر القرآن، حتى

---

(١) مجاز عن خروج ما يبرزمنها.

(٢) رواه البخاري (٥١٢)، ومسلم (٦١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (١٥٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

يتبيَّن لنا ما يكون مخالفًا لهذا الظاهر، أما ما دلَّ عليه القرآن دلالة يقينية فإنه لا يمكن لشيء يُخالفه، فدلالة القرآن إما ظاهرة، وإما صريحة، الصريحة قطعية الدلالة ولا يمكن لشيء يُخالفها، والظاهرة ظنية الدلالة فنبقى على هذا الأصل، نبقى على الظاهر حتى يتبيَّن لنا بأمر قطعي خلافه، وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يمكن أن يُؤَوَّل.

وتسخير القمر أيضًا لمنافع العباد ومصالحهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] بيَّن الله الحكمة من ذلك فقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] فباختلاف منازل القمر يكون العلم بعدد السنين والحساب؛ لأن الأهِلَّة هي المواقيت العالمية الفِطرية، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] عامة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] وهذه الأشهر هي التي بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام هي الأشهر الهلالية.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اللام هذه جواب القسم، اللام الأولى في ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ موطِّئة للقسم، وهذه واقعة في جواب القسم.

قال: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي: المسئولون من الكفار ﴿ٱللَّهُ﴾ أحسن شيء أن نقول: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الله، فيُقرُّون بأن الذي خلقها الله سبحانه وتعالى، فهم يعترفون أن هذه الأشياء ما تصنعها الآلهة، لا خلقًا ولا تدبيرًا، فالآية جمعت بين الإيجاد والتدبير، تصرُّف في الإيجاد، وتصرُّف في التدبير، الإيجاد في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والتدبير في قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ولم يقل: خلق.

قال تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيُقرُّون بأن خالق السماوات والأرض ومُسخِّر الشمس والقمر هو الله دون أصنامهم، لما أقروا هذا الإقرار أقاموا الحُجّة عليهم؛ لأن من أقر بالربوبية لزِمه أن يُقرَّ بالألوهية، ومن أقر بالألوهية فقد أقر بالربوبية، فهما متلازمان، أما الإقرار بالربوبية فهو مُلزِم للإقرار بالألوهية، وأما الإقرار بالألوهية فهو مُستلزم للإقرار بالربوبية، وأيهما أسبق؟

الإقرار بالربوبية أسبق؛ لأن الإنسان ما يعبد إلا ربًّا يعلم أسماءه وصفاته وأفعاله.

قال: [﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفون] أَنَّى اسم استفهام، والغرض منه التوبيخ؛ يعني: بعد أن أقروا بهذا كيف يُصرَفون، وسُمِّي الصرف إفكًا؛ لأنه صرفٌ للشيء عن حقيقته، فالإفك صرف مثلما نصرف الكلام عن الواقع ويُسمَّى إفكًا.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: أنَّى يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

ثم قال الله تعالى: [﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّق ﴿لَهُۥٓ﴾ بعد البسط لمن يشاء ابتلاءً].

الله يبسط؛ يعني: يوسِّع، والرزق بمعنى: العطاء.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعباد هنا: المُتعبِّدون له بالمعنى العام الشامل للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَن) هذه اسم موصول بمعنى: الذي، وهو من الأسماء الموصولة العامة.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن يشاء بسط الرزق له، فإذن مفعول ﴿يَشَآءُ﴾ محذوف دلَّ عليه السياق، وقد مرَّ علينا قاعدة مهمة جدًّا، وهو أن كل شيء علَّقه الله تعالى بالمشيئة فإنما المراد المشيئة المبنية على الحكمة؛ لأن جميع أفعال الله عز وجل وأحكامه كلها مبنية على الحكمة علِمناها أم جهِلناها.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المؤلف: [امتحانًا]، والتضييق قال: [ابتلاءً] الامتحان هو الابتلاء حقيقة، قال الله تعالى عن سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بمعنى: يُضيِّق، من أين عرفنا أن يقدر بمعنى: يُضيِّق، ولماذا لم نجعل القدرة هنا بمعنى: استطاعة العمل؟

من قوله: ﴿يَبْسُطُ﴾ هذا مُقابلته بالبسط يدل على أن المراد التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضُيِّق عليه.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ الضمير يعود على من يشاء؛ يعني: ويقدر لمن يشاء، وهل المبسوط له والمُقدَّر له واحد؟

ظاهر كلام المؤلف أنه واحد، ولهذا قال: [يقدر له بعد البسط]، والسبب أن الضمير في ﴿لَهُۥٓ﴾ يعود على (مَن) في قوله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يعود عليه باعتبار عينه، ولكننا نقول: لا مانع من أن يعود إليه باعتبار جنسه لا باعتبار عينه، فيكون الضمير عائدًا على من يشاء باعتبار الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، قوله: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ باعتبار جنسه، فيكون عمر مُعمَّر آخر، ومثله أن تقول: أعطيتُ هذا الرجل درهمًا ونصفه، نصف درهم آخر، فالذي يظهر أن الضمير في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ يعود على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ باعتبار الجنس لا العين، فالله تعالى يبسط الرزق لهذا، ويُضيِّقه على هذا، كما أنه سبحانه وتعالى يبسطه أحيانًا، ويُضيِّقه عليه أحيانًا؛ ألسنا نرى الآن من الأغنياء من رجع فقيرًا، ومن الفقراء من رجع غنيًّا؟! فالله سبحانه وتعالى يبسط الرزق باعتبار العين وباعتبار الجنس، هذا البسط تابع لعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه البسط والتضييق، فالله سبحانه لا يبسط أو يُضيِّق إلا عن علم، ثم هذا العلم أيضًا تتبعه الحكمة، فهو سبحانه وتعالى يُغني من يُصلحه الغنى، ويُفقِر من يُصلِحه الفقر، ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ مِن عبادِي مَن لو أَغنَيتُه لأفسدَه الغِنى، وإنَّ مِن عبادِي مَن لو أفقرتُه لأفسدَه الفقرُ**»(1)، وإذا منَّ الله على العبد وتفضَّل عليه، وجعل رزقه تابعًا لمصلحته حصل بذلك خيرٌ

---

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (٧٥).

كثير، ومن العباد من إذا أُغني فسد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ كل شيء مما يفعله هو، أو مما يفعله العباد، فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك أبدًا.

قال بعض الناس: وما من عامٍّ إلا خُص، إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ هل هذا صحيح؟

الجواب: لا، الصواب: أن الأصل في العمومات بقاؤها على العموم، إن أرادوا التصوُّر والتقدير فهذا ممكن، أما إن أرادوا الواقع فلا.

قال المؤلف: [ومنه محل البسط والتضييق] فهو سبحانه وتعالى عالم بأن هذا أهل لأن يُبسط له الرزق، وأن ذلك أهل لأن يُضيَّق عليه في الرزق.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** إقامة الحُجَّة على الخصم حتى يُذعِن ويُقِر.

٢ - **ومنها:** سَفَه المُشركين بالله في عبادتهم؛ حيث يُقِرُّون بربوبيته، ثم يُنكِرون ألوهيَّته، وكان من العقل أن من أقرَّ بالربوبية أقرَّ بالألوهية.

٣ - **ومنها:** إثبات خلق السماوات والأرض، وأن الذي خلقهما هو الله.

٤ - **ومنها أيضًا:** أن تدبير الكون إلى الله عز وجل، لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

٥ - **ومنها:** رحمة الله تعالى بخلقه؛ حيث سخَّر لهم الشمس والقمر.

٦ - **ومنها:** أن المُشركين يُقِرُّون بالربوبية.

٧ - **ومنها:** أن الإقرار بالربوبية لا يكفي في التوحيد، وبهذا نعرف بُطلان تفسير من فسَّر الإله بالقادر على الاختراع، فإن المُتكلِّمين يُفسِّرون الإله بالقادر على الاختراع، وإذا فسَّروا الإله بالقادر على الاختراع لم يكن في توحيدهم فرق بينه وبين توحيد المشركين؛ لأننا نقول: إن الله هو المعبود حقًّا، وكذلك المعبود بالباطل يُسمَّى إلهًا؛ لأنه يُعبَد لكن ربوبيَّته باطلة.

٨ - **ومن فوائد الآية:** ثُبوت علم الله بالمستقبل، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فإن هذا خبرٌ عن أمرٍ مُستقبل، لا شك أنه واقعٌ كما أخبر الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

١ - **من فوائد الآية:** أن الرزق بيد الله، وإذا كان كذلك فهو الذي يُطلَب منه الرزق.

٢ - **ومن فوائدها:** أن إثبات القدر لا يعني: الكفَّ عن الأسباب، فهنا بيَّن الله أن بسط الرزق

وتقديره بيده، ومع ذلك يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، ما قال: ناموا على الفُرُش ويأتيكم الرزق، فالقدر لا يُنافي فعل الأسباب؛ لأنه قد يكون مُقدَّرًا عليك بهذا السبب، كما أن دخول الجنة والنجاة من النار ليس له سبب، إذا لم تعمل ما حصل، كذلك الرزق إذا لم تعمل له ما حصل لك.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات كمال التصرُّف لله عز وجل، لقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾، وقال: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فهو سبحانه وتعالى له التصرُّف المُطلق في مخلوقاته.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة، لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وهل المشيئة تتعلَّق فيما يُحِبُّه فقط، أو فيما يُحِبُّه ويكرهه؟

فيما يُحِبُّه ويكرهه؛ فإن المسلمين مُجمِعون على قولهم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

هل الإرادة مُتعلِّقة فيما يُحِبُّه وما يكرهه، أم فيما يُحِبُّه فقط ؟

فيه تفصيل :

الشرعية: فيما يُحِبُّه فقط، والكونية: فيما يُحِبُّه وما لا يُحِبُّه؛ لأنها مُرادفة للمشيئة.

٥- **ومن فوائدها:** إثباتُ علم الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه عامٌّ في كل شيء؛ فهل يشمل الصغير والكبير، وما يتعلَّق بفعله، وما يتعلَّق بفعل عباده.

فإذا كان علِم فعل عباده لزِمَ أن يكون مُقدِّرًا له؛ لأنه إذا كان عالمًا به، فإنه لا يمكن أن يقع على خلاف معلومِه، وحينئذٍ يكون مُقدَّرًا له، ولهذا قال الشافعي في مُناظرته القدرية: (جادِلوهم بالعلم، فإن أنكروه كفروا، وإن أقرُّوا به خُصِموا)، وهذا صحيح، هذه حُجَّة قائمة وقيِّمة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** فضل الله عز وجل بالرزق، سواءٌ كان مقدورًا أم مبسوطًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هذه لام قسم ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، جواب القسم: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، و(مَنْ) اسم استفهام؛ لأنه وقع بعد السؤال، وعلى هذا فـ (مَنْ) مبتدأ، و﴿نَزَّلَ﴾ الجملة خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿مَّن نَّزَّلَ﴾ بالتشديد، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، والفرق بين نزَّل، وأنزل: أنَّ نزَّل تُفيد نزول الشيء شيئًا فشيئًا، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقوله: ﴿نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ النزول يكون من أعلى، والمُراد بالسماء هنا: العلو، وليس السماء السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والمطر ينزل من السحاب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، فبهذا عرفنا أن المراد بالسماء هنا: العلو، وكل ما علاك فهو سماء؛ لأنه من سما يسمو إذا علا وارتفع.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حكمة نزوله من السماء؛ لأنه إذا نزل من السماء شمل النازل والعالي، ولو كان يجري من الأرض لكان لا يصِل إلى العالي حتى يُدمِّر النازل، ولكن من حكمة الله أنه ينزل من أعلى.

قال: ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الفاء هنا تدلُّ على الترتيب والتعقيب، لكنها إذا كانت متصلة بجملة فإنها تُفيد أيضًا السببية مع الترتيب والتعقيب، بخلافها إذا دخلت على اسم، فإنها لا تدلُّ على السببية، تقول: قام زيدٌ فعمرو، لا يعني أن قيام زيد سبب لقيام عمرو، لكن يعني أن قيام عمرو بعد قيام زيد، أما إذا اتصلت بفعل فإنها في الغالب تكون مع الترتيب للسببية، فعليه يكون قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يكون الماء سببًا لإحياء الأرض.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ هل الأرض تحيا في الحال، أو بعد؟

بعد، لكن لما كان السبب مُؤثِّرًا صار الأثر مُترتِّبًا عليه فورًا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، ما تُصبح الأرض مُخضَرَّة بمُجرَّد نزول الماء في الليل، لكن هذا سبب مُوجِب، فلما كان سببًا مُوجِبًا صار كأن المُسبَّب موجود في الحال، ومن ذلك قولهم: تزوج فلان فوُلِد له، وإن كان هذا أضعف من الذي معنا، لكن قولهم: (فوُلِد) له نحن نعلم علم اليقين أنه ما يُولَد له ليلة زواجه، لكن الزواج سبب للولادة، ويكون الترتيب بحسبه، ما هو لازم أن يكون مُعقِّبًا، لكن لما كان السبب مُوجِبًا ولابد صار كأن المُسبَّب مُعقِبًا للسبب.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ الجماد يحيا ويموت، وكل شيء حياته وموته بحسبه، ولا تظنُّ أن الحياة والموت لا تُضاف إلا ما يمكن أن يكون مُتحرِّكًا، فهذه الأصنام يقول الله فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠،

٢١]، فكل شيء لا حركة فيه، ولا نمو فيه يمكن أن نُسمِّيه ميتًا، وإن كان مما تشمله الحياة.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ هل المراد بالأرض هنا النبات، أو أنها نفس الأرض؟

قيل: إن المراد نفس الأرض، وأنها باختلاط الماء فيها تكون حية، وبدون ماء تكون ميتة.

وقيل: المراد ما عليها من العُشب والزرع ونحو ذلك، وأن الأرض لا تكون أرضًا في الحقيقة ينتفع بها الناس إلا بالنبات الذي فوقها، فتكون حياتها وموتها؛ أي: حياة نباتها، وموت نباتها.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ نقول فيها ما سبق: إن اللام واقعة في جواب القسم، ويقولنَّ أصلها: يقولونَنَّ، قال النحويون: فحُذِفت النون الأولى لتوالي الأمثال، لماذا لا نقول: حُذِفت إحدى النونين بنون التوكيد؟

قالوا: لأن نون التوكيد جِيءَ بها لغرض، وهو التوكيد، ونون الرفع دائمًا تُحذَف في حال الناصب والجازم والتخفيف، وما أشبه ذلك، فكانت أولَى بالحذف.

ما سبب حذف الواو؟ التقاء الساكنَين؛ لأن نون التوكيد المُشدَّدة مُكوَّنة من حرفين: أولهما ساكن، فإذا كان ساكنًا حُذِف حرف العلة الذي قبله، كما قال ابن مالك:

.... وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ نقول: خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ما قال: فأنى يُؤفكون، هناك قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ لظهور دلالة الخلق والتدبير على الربوبية المُستلزم للإقرار بالألوهية، وهنا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن إقرارهم بالأول وبالثاني، وأن الأمر كله بيد الله يستلزم لا أنَّ الله موجود فقط؛ بل لأن الله مُستحقٌّ لأن يُثنَى عليه، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله ظهرت عليكم الحُجَّة، وقامت عليكم البيِّنة، وظهر كمال الله عز وجل، فالأول فيه تخلية، والثاني فيه تحلية، فالكمال الله عز وجل؛ يعني: الحمد لله على قيام البيِّنة عليكم، وظهور الحُجَّة ووضوحها.

أما قول المؤلف: [فكيف يُشرِكون به؟] فهذا أتى به على حدِّ قوله في الآية الأولى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ولكن عندي أن الآية الثانية فيها إقامة الحُجَّة على أمر آخر هم يُنكِرونه، وهو البعث، فإنهم يُنكرونه، وحقيقة الأمر أن مُنكِرَ البعث سيُشرِك بالله، وسيعمل ما شاء؛ لأن مُنكِر البعث يعتقد أنه ليس هناك جزاء ولا حساب، ومن اعتقد كذلك ما يعمل، ولهذا يجمع الله سبحانه وتعالى دائمًا في القرآن بين الإيمان به وباليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الحادي للإنسان على العمل؛ إذ من لا يعتقد أن هناك جزاءً فكيف يعمل؟!!

فالذي يظهر لي: أن الآية الثانية سِيقت لإلزامهم بالإقرار بالبعث.

قال: [﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ثبوت الحُجَّة عليكم].

قيل: المراد الحمد هو الثناء بالجميل، وهذا غير صحيح، فإن الثناء غير الحمد بقول النبي ﷺ؛ بل بقول الله تعالى في الحديث القدسي حديث أبي هريرة: «**قَسمتُ الصلاةَ بَيني وبَينَ عبدِي نِصفَيْن، فإذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: حَمِدَني عبدِي، وإذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أثنَى عليَّ عبدِي، وإذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مَجَّدَني عَبدِي**»[1]، وهذا دليل واضح على أن الثناء غير الحمد، وإلا لكانت إقرارًا، وأيضًا المعنى يقتضي ذلك؛ لأن الثناء من الثَّني وهو الرجوع، فإنك إذا ثنيتَ العصا رجع طرفه إلى طرفه، ومنها أيضًا لف اثنين؛ يعني: واحد وواحد.

فالمهم: أن الحمد لا يصح تفسيره بالثناء، إذنْ فما هو؟

نقول: وصف المحمود بالكمال ،لكن نزيدُ أيضًا: مع المحبة والتعظيم، حتى يخرج بذلك المدح، فإن المدح وصف الممدوح بالكمال، لكن قد يكون بمحبة وتعظيم، وقد يكون لخوف لا لمحبة، فهذا الرجل الذي وقف أمام ملك ظالم جبَّار، وقال: أنت الملك الكريم المُحسن العادل الذي لا تظلم أحدًا، هذا مدح ولكن ليس عن محبة وتعظيم، هو كذب.

ثم إنه أيضًا يُفرَّق فيه بينه وبين المدح: أن المدح قد يكون موافقًا للواقع وقد يكون غير موافق، والحمد لابد أن يكون موافقًا للواقع.

قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول العلماء: (أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أنها للاستغراق، فجميع المحامد لله، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لشبهه لا للتمليك، فالحمد مُستحق ومُختصٌّ بالله، والمراد به الحمد الكامل، أما مجرد الحمد فلا يختصُّ بالله، قد يُحمَد الإنسان على خصلة من الخصال بقدر هذه الخصلة، لكن الحمد الكامل الواسع مُستَحق لله وحده، ومختص بالله وحده

قال: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم في ذلك]، بل هنا للإضراب الانتقالي؛ يعني: فبعد أن ثبت الأمر، وقامت الحُجَّة، واستحق الباري الثناء أو الحمد، حينئذٍ يصح أن يُسجَّل عليهم الجهل، وهو قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فأكثر هؤلاء لا يعقلون، لأن عندهم من السفه ما هو ظاهر؛ ولأنه لو كان عندهم عقول لكان إقرارهم بما أقرُّوا به مُلزِمًا لإقرارهم بما أنكروه، فهم أقرُّوا أن الذي خلق السماوات والأرض، وسخَّر الشمس والقمر هو الله، والذي نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها هو الله، إذنْ أين العقل وأنتم تُنكِرون البعث، وتُشرِكون بالخالق؟!!

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: حكمة الله سبحانه وتعالى في إنزال المطر من السماء.

٢ - ومن فوائدها: أنه لا يقدر على إنزال المطر من السماء إلا الله، ومهما حاول هؤلاء الذين

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، وأبوداود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أعطاهم الله ما أعطاهم من الصنائع فإنهم لن يستطيعوا أن يُنزِّلوا المطر من السماء؛ لأن هذا خاص بالله عز وجل.

٣ - ومن فوائد الآية: قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى، لقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾.

٤ - ومن فوائدها: أن الجماد يُوصف بالحياة والموت، قال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾، وقوله في الأصنام: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

٥ - ومن فوائدها: قياس الغائب على الشاهد، فالغائب إحياء الناس بعد الموت، والشاهد إحياء الأرض.

٦ - ومن فوائدها: ثبوت القياس الصحيح، أو اعتبار القياس الصحيح، خلافًا لمن أنكره، أو غلا فيه؛ لأن الناس انقسموا إلى قسمين: منهم من غلا، ومنهم من ترك؛ يعني: منهم من ترك القياس مطلقًا؛ كابن حزم، وهو يمكنه أن يقيس أحيانًا، ومنهم من غلا فيه، وتجاوز الحد، حتى بلغ بهم إلى أن يقيسوا صفات الخالق بصفات المخلوق؛ كالمُشبِّهة مثلًا.

٧ - ومن فوائد الآية: حُسن مناظرة القرآن ومجادلته، وأن مناظراته ومجادلاته تكون مُلزِمة، وجه ذلك: أن إقرارهم بهذا الشيء مُلزمٌ لهم أن يُقرُّوا بتوحيد الألوهية، وكمال صفات الله.

٨ - ومنها: وجوب إعلان الثناء والحمد لله عز وجل أمام المشركين، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٩ - ومنها: أن إقرار المشركين بما يختص به الله تعالى من القدرة هو في الحقيقة كمال لله عز وجل، ولهذا أمر الله نبيَّه أن يصفه بالحمد لما قال: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فيُستفاد منه أن إقرار المشركين بما يختص به الله من صفات يُعتبر من كمال صفات الله التي يستحق عليها الحمد.

١٠ - ومنها: أن أكثر هؤلاء المشركين جُهال، لقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المعنى: لا يعقلون ما يستحقه الله من أوصاف الكمال، أكثرهم سفهاء، فلو كانوا عقلاء لعرفوا اللازم وملزوماته، وأقرُّوا بها.

١١ - ومن فوائد هذه الآية أيضًا: أن الأشاعرة ونحوهم ليس عندهم فيما ذهبوا إليه من إثبات بعض الصفات وإنكار بعضها معقول، ولا أثر منقول، أما الأثر المنقول فظاهر، ما عندهم دليل، وكذلك أيضًا ليس عندهم نظر معقول، فإنهم يُنكِرون ما يُقرُّون بمثله أو دونه.

إذنْ نقول: كل من أقرَّ بشيء من صفات الله تعالى وأفعاله وأنكر آخر، فهو دليل على قلة عقله، وليس المراد بالعقل هنا عقل الجنون، لكن عقل الرشد والهداية.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤-٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ الإشارة هنا للتحقير ودنو مرتبتها، والإشارة للتحقير واردة في اللغة العربية، كما في قوله عن الكفار: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾[الأنبياء: ٣٦] يعني: من هذا الحقير الذليل الذي يسبُّ الآلهة وهي عظيمة وعالية، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدار التي نحن فيها، ووُصِفت بالدنيا لسببين: لدنوِّها زمنًا، ودنوِّها مرتبةً.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ جاءت هنا ليُقابل بها الحياة الثانية.

وقوله: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ هذا الحصر حقيقي، فالدنيا التي هي الدنيا تنحصر في هذين الأمرين: في اللهو واللعب، والفرق بينهما: قيل: إن اللعب بالجوارح، واللهو باللسان، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[لقمان: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام: ٩١].

وقيل: إن اللهو بالقلب، وهو غفلته، وامتلاؤه بالملاهي وبما يُلهيه عن طاعة الله، واللعب بالجوارح من اللسان وغير اللسان، وهذا أقرب، أن اللهو بالقلوب، واللعب بالجوارح، وعليه فحاصل الدنيا أنها لهوٌ يلهو به الإنسان، غفلات يمينًا وشمالًا، حتى الأمور الجِدِّية التي للدنيا هي لعب؛ لأنها تذهب ولا تبقى، أو يذهب عنها صاحبها، فهي كلعب الأطفال يتسلَّون به ما داموا أطفالًا، ثم يهجرونه إذا كبروا وعقلوا وعرفوا ما هم عليه.

قال المؤلف: [وأما القُرب، فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها].

قوله: [وأما القُرب] هذا جواب عن سؤالٍ مُقدَّر، كأنَّ قائلًا قال: كيف تكون الدنيا لهوًا ولعبًا مع أن الإنسان يعمل فيها عملًا صالحًا، يُصلي، ويزكي، ويصوم، ويحج، ويصل رحمه، وما أشبه ذلك؛ فهل هذا لعب؟

يقول المؤلف: ليس بلعب، أليس في الدنيا؟ قال: بلى، ولكن ظهور ثمرته في الآخرة، ولهذا

قال: [وأما القُرب، فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها] وصدق المؤلف، فإن الأعمال الصالحة ما هي من الدنيا، ولهذا لو أراد بها الإنسانُ الدنيا لبطلت، ولم يكن له أجر فيها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من حجَّ ليأخذ، فليس له في الآخرة من خلاق) يعني: من نصيب، ويشهد لهذا الكلام الذي قاله الشيخ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، ويدل له أيضًا قوله ﷺ: «تَعِسَ[1] عَبْدُ الدِّينَارِ[2]، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرهَم.. »[3] إلخ، فالحاصل أن أعمال الآخرة ليست من أعمال الدنيا؛ بل إذا أُريدَ بها الدنيا بطلت.

قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بثلاث مؤكِّدات، أكَّد الله عز وجل أن الحيوان يعني: الحياة، لكنها جاءت على هذا الوزن للمبالغة فحيوان فعلان، وإلا فالحيوان بمعنى: الحياة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هي ما يكون يوم القيامة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ بمعنى الحياة، ولكن زيدت الألف والنون فيها للمبالغة؛ يعني: هي الحياة الحقيقية، ولهذا يقول الكافر يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] حياته الدنيا مُقدِّمٌ لها؛ بل هي جنته، لكن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة؛ لأن حياة الدنيا في الحقيقة ليست بحياة.

أولًا: لأنها مُنغَّصة، كل صفوٍ فيها له كدَر.

وثانيًا: أنها غير باقية.

وثالثًا: أن الإنسان مُهدَّد فيها، فلا يدري متى يأتيه أجله صباحًا أو مساءً، وكم من إنسان خرج من أهله ولم يرجع إلا جثة، وكم من إنسان علا كرسيه فما أكمل الكتابة التي يخطها بيمينه، وليست هذه هي الحياة الحقيقية، ولهذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

مهما طاب لك العيش إذا تأمَّلتَ سوف تهرم وتدع هذا العيش ولا يطيب لك، وسوف تموت، فلا تبقى للعيش أصلًا.

والحاصل: أن الدار الآخرة - صدق ربنا جل وعلا - هي الحيوان، فهي التي ينبغي للإنسان العاقل أن يسعى لها، والغريب أنه إذا سعى للآخرة حصَّل الدنيا والآخرة، وإذا سعى للدنيا فقط فاتته الدنيا والآخرة، والدليل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] يعني: نُعطيه حرث الآخرة مع الدنيا، لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

---

(١) سقط على وجهه أو شقي وهلك.

(٢) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.

(٣) رواه البخاري (٦٠٧١)، وابن ماجه (٤١٣٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٢١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء عاجل، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] هذا جزاء آجل، وقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] وهذا الوعد أيضًا مقرون بالمشيئة كما في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، إذن الحيوان حقيقةً هي الآخرة.

والحيوان الواو هنا أصلية أو منقلبة؟

قيل: إنها منقلبة عن ياء، وأنها قُلِبت واوًا لئلا يلتبس بالمُثنَّى، وأنها لو قال: وإن الآخرة لهي الحيَّان لكان يلتبس بالمُثنَّى، فقُلِبت واوًا، وهذا رأي لسيبويه، بناءً على أن الحياة يائية من حيَّ يحيى.

وقيل: إن الواو أصلية، وأن الواو في الحياة هي الأصل، لكن قُلِبت ياءً في حيَّ لتحرُّكها وانكسار ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة، وليست لو هنا صلة تتعلَّق بما قبلها، ولٰكنها مستأنفة، فهي شرطية، وجواب الشرط محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما آثروا الدنيا عليها] والحقيقة أن قوله: [ما آثروا الدنيا عليها] صحيح أنه يصح أن يكون جوابًا، لكن الجواب أبلغ مما قدَّره المُفسِّر، ولهذا حذفه الله؛ لأجل أن يبلغ الذهن في تقديره كل مبلغ، فلو كانوا يعلمون لعملوا لها ليلًا ونهارًا، ومعناه أن من قدَّم الدنيا على الآخرة فليس عنده علم، ولو كان يعلم حقيقة ومن ذوي العلم والأفهام ما قدمها.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الضمير يعود على المشركين؛ يعني: سل هؤلاء عن آلهتهم هل هم يرجعون إليها عند الشدائد، أو هم يعترفون أنه لا يفرج الشدة إلا الله؟

الجواب: الثاني، هم مُعترفون بأن أصنامهم لا تنفعهم، واعترفوا بما سبق بأن الذي خلق السماوات والأرض الله، وأن الذي ينزل من السماء ماءً الله، وأن الذي سخَّر الشمس والقمر الله، وأن الذي يدفع الضرورة بناءً على ما ذُكِر في الآية هذه الله.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والفلك السفن أو السفينة، فإنه يصلح للجمع والمفرد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] هذا جمع، والمفرد في قوله تعالى: ﴿إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ﴿دَعَوُا۟﴾ هذه جواب إذا، وهي مركبة من فعل وفاعل.

وقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دعوا دعاء مسألة.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حال من فاعل دعوا، والإخلاص تنقية الشيء عما يشوبُه؛ أي: لا يجعلون مع هذا الدعاء دعاءً لشيء من الأصنام.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قال المؤلف: [أي: الدعاء]؛ لأن الدعاء عبادة فهو من الدين، فلهذا قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لا يدعون غيره؛ لأنهم في شدة لا يكشفها إلا هو، وهم بذلك معترفون مُضطرون، لا يمكن أن يدعو الواحد منهم صنمًا في هذه الحال؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفعه، فلا يدعون إلا الله، وهذه حُجَّة رابعة عليهم، الحُجَّة الأولى خلق السماوات والأرض، والثانية تسخير الشمس والقمر، والثالثة إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض، ثم إخلاصهم الدعاء في حال الشدة لله هي الخامسة.

قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ لما هذه شرطية، وفعل الشرط: ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾، وجوابه: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ و﴿إِذَا﴾ يُسمِّيها النحويون فُجائية، والفُجاءة الشيء الذي يأتي بغتة، والمعنى أنهم إذا نُجُّوا إلى البر فاجأوا وبادروا إلى الشرك، جزاء النعمة أن يكفروا، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي: نجاهم الله؛ يعني: أنقذهم من الشدة التي هم فيها إلى البر الذي هو شاطئ السلامة، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ هذه جملة اسمية تفيد أن هذا يكون كالصفة اللازمة لهم، فهم مستمرون - والعياذ بالله - على الشرك، مُبادِرين به، وهذا غلط منقول من اللؤم؛ لأن الإنسان بطبيعته وصفاته لا يكفر بمن أنعم عليه؛ بل يشكر من أنعم عليه، أما هؤلاء فإنهم بمُجرَّد النعمة يُشركون - والعياذ بالله -.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

قال المؤلف: [﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعمة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام، وفي قراءة بسكون اللام أمر تهديد] .

قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام هنا للأمر، أو للتعليل؟ إن سكَّنَّا اللام - وهي القراءة الثانية - صارت اللام للأمر، أمر تهديد؛ لأن الله ما يحمل للكفر أمر إرشاد ولا أمر إنزال، وإذا كسرنا اللام الثانية صارت اللام لام كي - أي لام تعليل -، ثم هل اللام في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ على أنها إذا لم تكن للأمر، هل هي لام التعليل، أو لام العاقبة؟

الجواب: أنها لام العاقبة؛ لأن الله ما نجاهم إلى البر فأشركوا لأجل أن يكفروا، لكن صارت عاقبتهم الكفر، ولام العاقبة معروفة في اللغة العربية ، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، لو سألنا سائل: هل آل فرعون التقطوا موسى لهذا الغرض؟

لقلنا: لا، لكن صارت العاقبة هذه، لو أنهم علموا أنه يكون عدوًّا لهم وَحَزَنًا، لما التقطوه.

فهنا العاقبة أنهم كفروا بما آتيناهم.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ الباء مُعدًّى بها الفعل؛ مثل: كفر به، وهذا هو الأقرب وليست للسببية؛ يعني: ليكفروا بما آتيناهم؛ أي: أن الفعل كفر تعدَّى إلى مفعوله بالباء، والمعنى: كفر بالله، وكفر بالرسول، وكفر بكذا.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بما أعطيناهم من النعمة إنجاؤهم من الغرق.

وقوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قال: [باجتماعهم على عبادة الأصنام]، ويمكن أن يُقال: وليتمتَّعوا بالنعم أيضًا التي أُعطوها، فهم كفروا بها فلم يشكروها، وتمتَّعوا بها إلى مصيرهم ومآلهم.

يقول المؤلف: [وفي قراءة بسكون اللام أمر تهديد] أي: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾.

وعلى هذا فمن قرأها من العوام بهذه القراءة فهذا غير صحيح إلا أن طالب علم يعلم القراءات فيقرأ بها.

وقوله: [﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك] (سوف) يقولون: إنها تفيد التحقيق لكن بمهلة، ولهذا يقولون: التسويف بخلاف السين، فإنها تفيد التحقيق مع القرب.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الجملة خبرية يراد بها التهديد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، وقال تعالى في سورة النبأ: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥]، فالعذاب - والعياذ بالله - نازلٌ بهم لا محالة.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ تقدم الكلام على مثل هذا التركيب، وأن الهمزة للاستفهام والواو حرف عطف، وهل الهمزة مقدمة عن مكانها أو لا؟

ذكرنا أن في ذلك خلافًا، وذكرنا أن القول الأسهل أن الهمزة للاستفهام، وأن الواو عاطفة على ما قبلها.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان حقارة الدنيا، وأنها ليست بشيء مطلقًا، ويمكن أن نقول: إنه على سبيل المقارنة بالآخرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يجوز أن يُقصد بأعمال الآخرة شيءٌ من الدنيا.

فلا يجوز أن تأخذ عنها عِوضًا عن الدنيا، والمسألة هذه فيها خلاف بين أهل العلم في «باب الإجارة».

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** كمال الحياة في الآخرة، لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ

﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾، وهو كذلك؛ لأن الدار الآخرة دائمة.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** الحث على العلم، لقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٥ ـ **ومنها:** أن من العلم؛ بل من أكبر العلوم: التفريق بين الأمور النافعة والأمور الضارة، وهذا التفريق من أعظم ما يكون إذا أُوتيه الإنسان في الحقيقة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، إذا أوتي معرفة الفرق بين الأمور النافعة والضارة، ومعرفة الفرق بين الأمور المتشابهة في العلم فهو ينال خيرًا كثيرًا.

وقد صنع بعض أهل العلم شيئًا من ذلك، فصاروا يُؤلِّفون كتبًا اسمها: الفروق والتقاسيم، مثلًا: يذكرون الفرق بين الفرض والنفل، الفرق بين الأذان والإقامة، الفرق بين الجعالة والإجارة، الفرق بين العطية والوصية، الفرق بين كذا وكذا، وهذه مفيدة لطالب العلم، وهنا قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الحياة الدنيا والآخرة، فما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة.

فوائد قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** بيان أن المشركين فيما سبق يُخلِصون في حال الشدة.

٢ـ **ومن فوائدها:** اعتراف المشركين ضمنًا بأن آلهتهم لا تنفعهم، ولو كانوا يعتقدون نفعها لدعوها في هذه الحال.

٣ـ **ومن فوائدها:** أن إشراك السابقين أهون من إشراك من أشرك من هذه الأمة؛ لأن المشركين من هذه الأمة ما يدعون الله، بل يدعون أولياءهم – والعياذ بالله –، ومن اتخذوهم أندادًا مع الله، الرافضة مثلًا يدعون عليًّا: يا علي، وسمعتُ رجلًا منهم يدعو عند المقام، ويرفع صوته: يا علي، فجاءه أحد رجال الحِسبة فزجره، وقال: تُشرك تحت الكعبة! اخرج، فقال: إنما أنا أقول: يا عليٌّ، والله يقول في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يعني: أنه يُنادي الله، وهذا من التقيَّة التي يتخذونها، وهي سبيل المنافقين، فهذا لا شك – فيما يظهر لي والله أعلم – أنه لا يريد الله، إنما يريد عليًّا، لأنه لو كان يُريد الله لقال: يا رب، أو اللهم، أو ما أشبه ذلك، لكن لما وقع في شَرَك العدل والتوحيد ادَّعى هذه الدعوة.

والحاصل: أن شرك من أشرك من هذه الأمة أعظم من شرك المشركين فيما سبق.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن اللجوء إلى الله عز وجل أمرٌ فِطريٌّ غريزي، بدليل أن هؤلاء غلبتهم الفِطرة حتى دعوا الله وحده مخلصين له الدين.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الدعاء من الدين، لقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ولا شك أن الدعاء من الدين والعبادة؛ لأن فيه غاية الذل والاعتراف بالكمال لله عز وجل، وهذه العبادة، أنت

عندما تقول: يا ربِّ، معناه أنك مُفتقر إلى الله عز وجل، ومعناه أن الله كامل، ولهذا بايَع الصحابةُ النبيَّ ﷺ على ألَّا يسألوا الناس شيئًا، فكان الرجل يسقط سوطُه من بعيره فينزل ويأخذه ولا يقول: ناولني إياه يا فلان(١)، بينما نجد الآن في وقتنا الإنسان يتذلَّل غاية الذل في سؤال المال وهو غير مُحتاج إليه، هؤلاء يأتون يوم القيامة وما في وجوههم مُزعة لحم - والعياذ بالله -.

فالمهم: أن الدعاء تذلل، ولهذا كان من العبادة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء المشركين إذا نجوا من الشرك كفروا بالنعمة، لما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون.

٧ - **ومن فوائدها:** سفه من يجعل النِّعَم سببًا للأشر والبطر، فإن هذا فيه من مشابهة المشركين ما هو ظاهر؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه نعمة أن يزداد عبادة لله سبحانه وتعالى؛ لأن العبادة من الشكر، فإذا أنعم عليك ربك بالنعمة فاسجد له شكرًا، ولهذا كان الرسول ﷺ لما دخل مكة طأطأ رأسه، حتى إنه ليُصيب مقدم رحله عليه الصلاة والسلام، كل هذا من أجل التذلل للمُنعِم سبحانه وتعالى، فلا تجعل نِعَم الله عليك سببًا للأشر والبطر؛ بل اجعلها سببًا للشكر والذل لله سبحانه وتعالى حتى تزداد هذه النِّعَم وتكون نِعَمًا حقيقية.

فوائد قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

١ - **فيُستفاد منها: على أن اللام في الآية للأمر:** تهديد أهل الكفر والتمتُّع المُحرَّم؛ لأن الأمر هنا للتهديد؛ إذ لا يأمر الله أحدًا ليكفر، ولا ليتمتَّع تمتُّعًا مُحرَّمًا.

٢ - **ويُستفاد منها: على قراءة أن اللام للتعليل:** أن هؤلاء الذين أشركوا صارت عاقبة أمرهم الكفر والتمتُّع الزائل، ولهذا قال بعده: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فيُستفاد منه تهديد هؤلاء الكفار الذين ليس لهم إلا هم التمتُّع بالدنيا.

٣ - **ومن فوائدها:** الحذر الشديد مما عليه بعض المسلمين اليوم؛ حيث صار ليس لهم همٌّ إلا التمتُّع بالدنيا فقط، تجد أكثر ما يتكلَّمون عليه الرفاهية والترفيه، وما أشبه ذلك، لكن أمراض القلوب، وعلل القلوب، وانحرافات القلوب قلَّ من يتكلَّم عليها، مع أنها هي الأصل، وترفيه الأبدان إذا مرضت القلوب لا فائدة منه، إلا أنه إذا نزلت النقمة من الله ازداد الإنسان حسرة - والعياذ بالله -، لكن ترفيه القلب بطاعة الله جل وعلا هذا هو الذي فيه الفائدة للبدن ولكل شيء، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].



(١) رواه مسلم (١٠٤٣)، وأبو داود (١٦٤٢)، وأحمد في مسنده (٢٢٤٧٦).

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٧-٦٩]

التفسير

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يقول المؤلف: [يعلموا]؛ وذلك لأن الرؤية نوعان: علمية وبصرية، إن تعدَّت إلى مفعولين فهي علمية، كقولك: رأيت العلم نافعًا، وإلى مفعول واحد فهي بصرية، كقولك: رأيتُ فلانًا.

من الرؤية العلمية في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]أي: نعلمه قريبًا، ويرونه الأولى رؤية ظن.

فقوله تعالى: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ في بلدهم مكة ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾] لماذا خصَّه بأهل مكة؟

لقوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الحرم ما له حُرمة أي: تعظيم، وسُمِّي التعظيم حُرمة؛ لأنه يُمنع بهذا التعظيم ما كان سائغًا لولاه، فيمنع الصيد، وقطع الشجر، وغيرها فكل آمن حتى الحيوانات غير المؤذية.

و قوله: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أهل المجاز يقولون: آمنًا من فيه، والصواب: أن الحرم نفسه آمن، ولهذا عصمه الله سبحانه وتعالى من كل أحد، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل: ١]، وحرَّم النبي ﷺ القتال فيه[1]، فهو نفسه آمِن، وإذا أمِن نفسه أمِن من فيه.

وقوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال: [قتلًا وسبيًا دونهم].

في عهد الجاهلية، غير أهل الحرم ليسوا لهم أمان، يُغار عليهم فيُقتلون ويُسبون وتؤخذ أموالهم ونساؤهم، لكن أهل مكة آمنون، حتى إنه يجد الإنسان قاتل أبيه في الحرم ولا يقتله مع شدة الحمية عنده، لكن ما خرج عن الحرم يوجد القتل والسبي والنهب، وهذه نعمة من الله عظيمة على قريش، وكان عليهم أن يُقابلوا هذه النعمة بالشكر والتصديق للرسول ﷺ، مع أن الرسول ﷺ منهم، يعرفونه قبل أن يأتي بالرسالة ويسمونه الأمين، ويحتكمون إليه أحيانًا، لكن لما

---

(١) كما روى البخاري (١٦٥٢)، ومسلم (١٦٧٩).

بُعِث بالرسالة، وخالف أهوائهم كفروا به.

ثم قال تعالى مذكرًا هؤلاء الكفار بنعمة عظيمة لا ينالها أحد سواه قال تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

قال المؤلف: [﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ الصنم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بإشراكهم].

الاستفهام هنا للتوبيخ، وهو كما يقال في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بمعنى أن الهمزة هل هي بعد الفاء وأُخِّرت الفاء، أو أنها في مكانها والعطف على الجملة السابقة.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ قال المؤلف: [الصنم] وفي هذا نظر، إلا إذا قصد المؤلف التمثيل، وأن من جملة الأشياء الباطلة الأصنام، وإلا فإنها تشمل كل ما لا خير فيه؛ من صنم، أو دنيا، أو رئاسة، أو غيرها، فكل شيء سوى الحق فهو باطل، قال النبي ﷺ: «**أَصدَقُ كلمَةٍ قَالَهَا شاعِرٌ: كلمَةُ لَبيدٍ: أَلَا كلُّ شيءٍ مَا خَلا اللهَ باطِلٌ**»(١)، فعلى هذا نقول: الباطل أعم مما ذكره المؤلف.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون ويطمئنون إليه، فهم تجدهم في الأمور الباطلة مُطمئنِّين مُصدِّقين مُتبعين، لكن بنعمة الله يكفرون.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: بما أنعم عليهم من المال، أو الجاه، والرئاسة، وغيرها.

وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ لأن هذا النعم تحتاج إلى شكر بالرجوع إلى طاعة الله، فإذا بقي الإنسان على معصية الله مع إظهار النِّعَم عليه صار بذلك كافرًا، ويمكن أن نقول بالنسبة للمسلمين: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ النعمة المادية الجسدية، والنعمة المعنوية القلبية، فالإسلام أكبر النعم علينا، إذا كفر به الإنسان ولم يقُم بواجباته، فإنه يُوبَّخ على هذا، إذ يُقال: ألستَ مسلمًا؟ فيقول: بلى؟ فيُقال: لماذا لم تُصلِّ؟ لماذا لم تُزكِّ؟ لماذا لم تصُم؟ لماذا لم تفعل كذا وكذا من الواجبات؟

فشكر نعمة الله بالإسلام واجب، كما أن شكر نعمة الله علينا بالمال والأمن والراحة وما أشبه ذلك واجبٌ؛ بل الشكر على الإسلام أوجب، وكفر الإسلام أخطر؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، يمكن أن ينزع الله الإسلام من قوم لا يقومون بواجبات الإسلام؛ مثلما يُنزع الأمن والرخاء من قوم لا يشكرون هذا الأمن والرخاء، النِّعم واحدة، وسبيلها واحد.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ هذه واحدة أو كثيرة؟ كثيرة، وهو مفرد مُضاف فيعُمّ، الدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ولو كانت واحدة ما في عد ولا إحصاء.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أين تتعلَّق قوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾؟ بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، فقُدِّمت

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإفادة الحصر، كأنهم لا يكفرون بشيء إلا بنعمة الله، وهذه فائدة معنوية، وفيها أيضًا فائدة لفظية، وهي: مراعاة الفواصل.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [أي: أشرك به].

قوله: ﴿مَنْ﴾ يقول المفسر: [أي: لا أحد]، وعليه فيكون الاستفهام هنا بمعنى النفي، وفائدة إتيان الاستفهام في موضع النفي أنه يكون مُشربًا معنى التحدِّي، كأنه قال: إن كنت صادقًا فأعلِمني أن أحدًا أظلم، فالاستفهام في موضع النفي هذه فائدته أنه يكون مُشربًا معنى التحدِّي.

قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا، قال المؤلف: [بأن أشرك به] إلا أن يريد التمثيل، من أشرك بالله فقد افترى على الله كذبًا؛ لأنه زعم أن مع الله إلهًا وهو كاذِب.

من قال: إن الله حرَّم كذا، وهو لم يُحرِّمه فقد افترى على الله كذِبًا، ومن قال: إن الله أراد بكلامه كذا دون كذا فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: إن الله ليس له يدٌ حقيقة، وليس له وجهٌ حقيقة، وليس له رضًا حقيقة، وما أشبه ذلك فقد افترى على الله كذبًا.

والافتراء على الله كذبًا له أنواع كثيرة، وأفراد لا تُحصى، فكل من قال عن الله، أو عن أفعاله، أو عن أحكامه شيئًا لم يقله الله ورسوله، فإنه مُفترٍ على الله كذبًا.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُشكِل علينا أنه في بعض الأحيان تأتي مثل هذه الصورة في مسألة غير هذه يُقال فيها: من أظلم، وقد جمعها الله سبحانه وتعالى في آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] عدة مسائل، وقال النبي ﷺ: «وَمَن أظلمُ مِمَّن ذهَبَ يخلُقُ كَخلقِي»(١)، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، ماذا نقول ونحن فسَّرنا (من أظلم) أي: لا أحد أظلم، فكيف نجمع بين هذه النصوص؟

نقول: نجعل كل شيء مُختصًّا بما يقتضيه السياق، أو نقول: إن الجميع اشترك في الأظلمية؛ يعني: ما أحد أظلم من هذا، ولا أظلم من هذا، ولا أظلم من هذا.. إلخ، فكلها اشتركت في الأظلمية.

فمن قال: إن مع الله شريكًا فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: إن من أسماء الله كذا وهو ليس من أسمائه فقد افترى على الله كذبًا، النصارى يُسمُّون الله الأب، والفلاسفة يقولون: إنه العلة الفاعلة، وهذا كذبٌ على الله عز وجل، وكذلك الكذب على الله تعالى في صفاته، والكذب على الله في أحكامه مثل الذي يقول: هذا حلال، وليس بحلال، هذا حرام، وليس بحرام، وما أشبه ذلك،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالله تعالى بيَّن أنه لا أحد أظلم من هذا.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ الحق هو الشيء الثابت إن كان خبرًا فهو الصدق، وإن كان أحكامًا فهو العدل.

وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ بمعنى: حين جاءه كذَّب به، وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ لأنه قبل مجيئه إليه لا يُلزَم به، إن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فالله سبحانه وتعالى برحمته وعدله لا يُعاقب أحدًا حتى تقوم عليه الحُجَّة.

وقوله: [﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: فيها ذلك، وهو منهم].

قول المؤلف: [أي: فيها ذلك] إشارة إلى أن المراد بالاستفهام هنا التقرير، والغالب أنه إذا دخلت همزة الاستفهام على أداة نفي الغالب أنها للتقرير، وأمثلة هذا كثيرة؛ مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وأيضًا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، وأشباه ذلك، فكل هذا يدل على أن الهمزة هنا للتقرير.

قوله هنا: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ المعنى: في جهنم مثوى، ولهذا قال المؤلف: [أي: فيها ذلك، وهو منهم] وهو أي: من افترى على الله كذبًا أو كذَّب بالحق لما جاءه، [منهم] أي: من الكافرين.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ المثوى هو المأوى، لكن المأوى الذي هو محل إقامته، يأوي إليه على أنه محل إقامته، فثوى في كذا؛ أقام فيه.

وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ هو في الحقيقة إظهار في موضع الإضمار؛ إذ إن مُقتضى السياق أن يُقال: أليس في جهنم مثوى لهم! لكنه أظهر في موضع الإضمار، وذكرنا أن الإظهار في موضع الإضمار يُستفاد منه ثلاث فوائد:

أولًا: تعميم الحكم؛ بحيث يكون عامًّا له ولغيره.

ثانيًا: الحكم على موضع الضمير بأنه متصف بهذا الوصف.

ثالثًا: إفادة التعليل إذا كان مُشتقًّا، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ التقدير: لكفرهم، لو قال: أليس في جهنم مثوى له ما استفدنا هذه الفوائد الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قال: [﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في حقنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طرق المسير إلينا].

قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ خبره، والخبر مؤكَّد بثلاث مؤكِّدات، وهي: القسم، واللام، ونون التوكيد.

قوله: ﴿جَاهَدُوا﴾ أي: بذلوا جهدًا في الوصول إلى الغاية.

وقوله: ﴿فِينَا﴾ قال المؤلف: [في حقنا] أي: في دين الله، وما يجب له سبحانه وتعالى، ومن

بيان شريعة الله سبحانه وتعالى، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه كفُّ النفس عما يحرم، وإلزامُها بما يجب، كل هذا من الجهاد في الله، ومنه أيضًا قتال الكفار لإعلاء كلمة الله، والآية عامة، فكل من بذل الجهاد في الله فإن جزاءه عاجلًا قبل الآجل: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هداية دلالة، وهداية توفيق، فهي شاملة للأمرَين، ولهذا قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ولم يقل: لنهدينّهم إلى سبلنا، فعدَّى الهداية بنفسها إلى المفعول الثاني، فشمل هداية الدلالة والتوفيق، ومنه قوله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، لم يقل: اهدنا إلى الصراط؛ ليشمل الهداية إليه، والهداية فيه، فالهداية إليه الدلالة إليه، والهداية فيه أن يُوفِّقك للعمل في إطار هذا الصراط.

فإذنْ قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يشمل الأمرَين: هداية الدلالة، وهداية التوفيق والإرشاد، وهذا وعد من الله عز وجل مؤكَّد بهذه المؤكِّدات الثلاث، إذا كان الإنسان يؤمن بهذا الوعد؛ لأنه من الرب جل وعلا، وهو لا يُخلف الميعاد لتمام علمه، وقدرته، وصدقه أيضًا، وإخلاف الموعد يكون بتخلُّف واحد من هذه الثلاثة، ما هي؟ العلم، والصدق، والقدرة، فلا يخلف الموعد معك إلا جاهل، وعدك بشيء وهو يظن أنه يُحصِّله ولم يكن على ظنه، أو إنسان كاذب وعدك فكذبك، أو إنسان عاجز، هو صدوق ويعلم الأسباب لكنه عاجز، أما الله عز وجل فقد انتفى في حقه كل هذه الثلاث: الجهل، والكذب، والعجز، فلتمام قدرته، وعلمه وصدقه، لا يخلف الميعاد.

أقول: من صدَّق بهذا – ونحن والحمد لله نُصدِّق به – فإنه لابد أن يبذل جهده في حق الله، وهذا هو مصداق ما جاء في الآثار الكثيرة من أن الإنسان إذا عمل بعلمه فإن الله تعالى يزيده علمًا، يُثبِّت علمه الذي كان يعلمه ويزيده علمًا، ولهذا قيل: قيِّدوا العلم بالعمل.

وقيل: العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل

إن أجاب وعمل الإنسان بعلمه بقي وزاد أيضًا، وإن لم يُجِب ارتحل العلم، وهذا حق يُؤيِّده الواقع، ويُؤيِّده المعلوم في الشرع، أما الواقع فإن الإنسان إذا صار يعمل بعلمه فإن عمله بالعلم دراسة له في الحقيقة.

إذنْ العمل بالعلم دراسة له، فأنت تعلم كيف كان رسول الله ﷺ يُصلِّي، وتُطبِّق ذلك في كل صلواتك، وبهذا لا تنساه؛ لأن التطبيق دراسة.

ومن الناحية الشرعية يقول الله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، فكل من اهتدى فإن الله تعالى يزيده هدى وعلمًا، وفي الحقيقة نحن نعرف ذلك ونقرؤه دائمًا، لكن يغلب علينا السهو الغفلة والنسيان، ونعلم أن هذا حق، وأن كل من علِمَ فعمل فإن الله تعالى يزيده ثباتًا في علمه، وفضلًا مما لا يعلمه.

وقوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ الضمير هنا ضمير جمع، والآيات التي أضاف الله فيها الأمر إلى نفسه بصيغة الجمع هي من متشابه القرآن عند قوم، فالنصارى يقولون: أنتم تقولون: الله واحد، والله يقول:

نحن، وفعلنا، وقلنا، وما أشبه ذلك؛ كيف تقولون: إنه واحد، وهذه ضمائر تدل على الجمع؟

فنقول: إن هذه للتعظيم، كما يقول ملككم أو قسُّكم يقول: فعلنا، وقلنا، وما أشبه ذلك، مع أنه واحد، لكن له أناس يأتمرون بأمره، ويقولون بقوله.

لكن الله قد أثبت الوحدانية لنفسه في كتابه وذلك في آيات كثيرة فقال ردًّا على النصارى الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فقال الله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طرق السير إلينا.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة مؤكَّدة بإنَّ واللام، ﴿مع﴾ هذه حرف أو اسم؟

هي في الحقيقة فيها خلاف بين النحويين؛ منهم من يرى أنها اسمٌ وهي الصحيح بلا شك، ومنهم من يرى أنها حرف، وفيها لغتان وهو الأكثر.

الحاصل: أن مع الصحيح أنها ظرف، وأنها منصوبة على الظرفية؛ لأنها تدل على الصحبة، و﴿مع﴾ مُضاف، و﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مُضاف إليه.

وقول المؤلف: [﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين] هذا تفسيرٌ ناقص؛ لأن المحسنين أخص من المؤمنين، ولهذا قال النبي ﷺ: «الإِيمانُ أَنْ تُؤمِنَ باللهِ، ومَلَائِكَتِهِ.. » إلخ، ثم قال: «الإِحسانُ: أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تراهُ»[1]، فكل مُحسِن إحسانًا شرعيًّا وليسَ عاديًّا فهو مؤمن، ولا عكس، وأقول: (إحسانًا شرعيًّا)؛ احترازًا من الإحسان العادي؛ لأن الإحسان العادي يقع حتى من الكافر، لكن الإحسان الشرعي الذي فسَّره الرسول ﷺ بقوله: «أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تراهُ» وهذا أخصُّ من المؤمن.

وقوله: [بالنصر والعون] نعم صحيح، هو معهم بذلك، وليس معهم في مكانهم؛ لأن هذا شيءٌ مُستحيلٌ على الله عز وجل أن يكون مع الناس في أمكنتهم لا المحسنين، ولا غير المحسنين؛ وذلك لأن هذا القول يستلزم نفي علوه، وقد التزم بذلك من قال به من الجهمية القدماء منهم أيضًا، والمتأخرون كما قرَّرناه غير مرة، فإنهم يرون أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا متصل ولا مغاير، هذا ما استقرَّ عليه مذهب الجهمية، وتبعهم في ذلك الأشاعرة، فإنهم يرون هذا النفي المحض – والعياذ بالله –، أما قدماء الجهمية فقالوا: إنه تعالى في الأرض وليس على السماء، فمن العجائب أنهم نفوا العلو مع تطابُق الأدلة عليه، وأثبتوا الحلول مع تطابُق الأدلة على إنكاره.

فالعلو تقدَّم لنا أنه دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع سلف الأمة.

فالكتاب مملوءٌ بما يدل على هذا، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن في الكتاب ألف دليل على

(١) تقدم تخريجه.

علو الله، والسنة كذلك مملوءة من الدلالة على علو الله عز وجل على وجوه متنوعة من قول وفعل وإقرار، قال النبي ﷺ: «ألا تأمَنُونِي وَأَنا أَمينُ مَن فِي السَّماءِ؟»[(١)]، وقال: «العَرشُ فَوقَ ذَلكَ، واللهُ فَوقَ العَرشِ»، وأشار عليه الصلاة والسلام بأَصْبُعه إلى السماء يُشهِد الله على إقرار أمته بالبلاغ في أعظم مجمع للمسلمين في يوم عرفة، حيث قال: «اللَّهُمَّ اشْهَد»[(٢)]، ودعا ربَّه في خطبة الجمعة فرفع يديه إليه يقول: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»[(٣)]، وهذه سنة قولية وفعلية، أما الإقرارية فإنه سأل الجارية قال: «أَينَ اللهُ؟» قالت: في السماء، قال: «أَعتِقْهَا فَإِنَّا مُؤمِنَةٌ»[(٤)].

وأما دلالة العقل على ذلك فهي ظاهرة أيضًا، فإننا نقول: العلو صفة كمال، ولا أحد يُنكِر هذا، والسُّفول صفة نقص، والله سبحانه وتعالى واجب له الكمال، ومُنزَّه عن النقص.

أما الفطرة فسل الصبيَّ والعجوز والعامي والجاهل فالكل مفطور على التوجه حين الدعاء إلى العلو.



تم -بحمد الله- تفسير سورة العنكبوت

ويليها -إن شاء الله- تفسير سورة الروم

(١) رواه مسلم (١٠٦٤)، وأحمد في مسنده (١١٠٢١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٦٥٥)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

تفسير سورة الرُّوم

تفسير سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]

التفسير

قال المؤلف: [سورة الروم مكية] والمكي هو الذي نزل قبل الهجرة، والمدني ما بعدها سواء نزل في مكة أم لا، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] نزلت بعرفة يوم حجة الوداع فيكون مدنيًا، ولو كان نزل بمكة، وهي ستون، أو تسعة وخمسون آية إن جعلنا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [الروم:١] آية مستقلة صارت ستين آية، وإلا فتسع وخمسون.

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم أن البسملة آية مستقلة يُؤتى بها في ابتداء السور وليست تابعة لما بعدها لا في الفاتحة ولا في غيرها؛ خلافًا لبعض العلماء الذين يقولون: هي آية من الفاتحة فيحسبون الفاتحة سبع آيات منها البسملة قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

والصحيح أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولا من غيرها فأول آيات الفاتحة هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هي السادسة، وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هي السابعة في المصحف، وتوجد البسملة من الفاتحة آية ومن غيرها ليست آية ولكن الصحيح أنه لا فرق.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [الروم:١] قال المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك].

نعم إذا لم نكن نعلم شيئًا فالواجب أن نقول: الله أعلم بما أراد، وهذا قد قيل: إنه نصف العلم؛ لأن الإنسان إما عالم وإما جاهل، فإذا قال فيما يعلم بما علم، وفيما يجهل الله أعلم صار عنده نصف العلم، ولا شك أن قول الإنسان الله أعلم فيما لم يعلمه هو الواجب عليه، ولا تقول: إن قلت لا

أدري نقص قدري عند الناس؛ لأنه لا ينقص قدرك عند الناس، بل يزداد عند الناس كما أنه لا ينقص عند الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ اللهُ»(١) وهذا من باب التواضع لله أن تقول فيما لا تعلم: لا أعلم، وهو نظير العفو الذي لا يزيد الإنسان إلا عزًّا، ونظير الصدقة التي لا ينقص بها المال، وكذلك لا أدري لا ينقص بها قدر الإنسان في العلم بل يزداد؛ لأن الناس إذا رأوا أن هذا الرجل محترزًا يقول فيما يعلم ويتوقف عما لا يعلم يثقوا به؛ لأنهم عرفوا أنه لا يتكلم إلا بما يعلم.

فقول المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك] هذا هو الواجب على كل إنسان لا يدري ما أراد الله، ولكن إذا رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] فعلمنا أن هذا القرآن بمقتضى اللغة العربية وأنه ما فيه كلمة إلا وهي معقولة وإلا كان الله مُنزِّلًا شيئًا لا نعرف معناه فإذا طبقنا هذه الحروف الهجائية على هذه القاعدة - أي: القاعدة التي في هذه الآية، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - وجدنا أن مثل هذا التركيب في اللغة العربية ﴿الٓمٓ﴾ ليس له معنىً في اللغة العربية، وإنما هي مجموعة حروف هجائية (ألف ولام وميم)، ولهذا لا ننطق ونقول: ألم - كلمة واحدة - وإنما نقول: (ألف لام ميم).

إذن فهي بمقتضى اللسان العربي الذي نزل به القرآن لنعقله ما لها معنى، وإنما هي حروف هجائية ليس لها معنى في ذاتها وحينئذٍ نكون قد علمنا، لكن ما مراد الله بها؟

ذكر شيخ الإسلام وكثير من أهل العلم أن الغرض منها بيان أن القرآن معجز مع كونه من هذه الحروف الهجائية التي يتكلم الناس بها، فالقرآن من هذه الحروف ما أتى بحروف جديدة غريبة حتى نقول: إنه أعجز الناس بأن أتى بحروف لا يفهمونها، ولا ينطقون بها، بل هي حروف يتركب منها كلامهم.

فالإعجاز إذن من حيث الحروف بأنه أتى بحروف جديدة أم من حيث التركيب والسياق والمعاني الجليلة النافعة؟

الجواب: من الوجه الثاني، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام لا شك أنه قوي، وأن هذه الحروف الهجائية في حد ذاتها ليس لها معنى، لكن لها مغزىً ومراد، وهو أن هذا القرآن الذي أعجز كل الخلق لم يأتِ بجديد في الحروف التي يتكلمون بها.

وذهب بعض المعاصرين إلى أن هذه الحروف كالمفتاح للسورة التي فيها، بمعنى: أنك إذا وجدت لامًا وميمًا مصدرًا بها سورة من القرآن فما ذاك إلا لكثرة اللام والميم فيها فتكون كالمفتاح لها، وكذلك إذا وجدت نونًا فهو لكثرة النون فيها، وإذا وجدت لامًا وراءً فهي لكثرة اللام والراء، لكن هذا منتقض.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩).

على كل حال: نحن نعلم بمقتضى كون القرآن باللسان العربي لنعقله أن هذه الحروف الهجائية في حد ذاتها ليس لها معنى.

وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:٢] [وهم أهل الكتاب، غلبتها فارس وليسوا أهل كتاب، بل يعبدون الأوثان ففرح كفار مكة بذلك وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم].

قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فعل مبني للمجهول، و﴿ٱلرُّومُ﴾: نائب فاعل، وأنَّثها: ﴿غُلِبَتِ﴾ ولم يقل: (غُلِبَ الروم) مع أن الذين يحاربون هم الرجال، لكنه أنَّثها باعتبار القبيلة، والذين غلوبها الفرس، والحكمة ـ والله أعلم ـ في حذف الفاعل؛ ليكون ذلك أعظم إهانة للفرس وليكون هذا أخفى بالنسبة لذل الروم وخذلانها، وأخفى الفاعل لسببين: الأول: إهانة للفرس؛ لأنهم ليسوا أهلًا للذكر، والثاني: تهوينًا للأمر على الروم؛ لأنه إذا قيل للإنسان: أنت غُلبت أهون عليه من أن يقال له: غلبك فلان؛ لأنك إذا قلت: غلبك فلان كان دليلًا على أنه ذليل لهذا الرجل المذكور.

وقوله: ﴿ٱلرُّومُ﴾ [أهل الكتاب]، ولو قال المؤلف: أهل كتاب لكان أحسن؛ لأن الروم نصارى وأهل الكتاب تشمل اليهود والنصارى، [غلبتها فارس وليسوا أهل كتاب؛ بل يعبدون الأوثان]؛ لأنهم مجوس يعبدون النار [ففرح كفار مكة بذلك].

وقوله: [وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم] يعني: أن كفار مكة تفاءلوا بهذا الشيء، وقالوا: إذا كان الروم أهل كتاب وغلبتهم الفرس وهم أهل أوثان فهذا مفتاح نصر لنا أن نغلب المسلمين وهم أهل كتاب ونحن أهل أوثان.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قال المؤلف: [﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة التقى فيها الجيشان والبادي بالغزو الفرس].

قوله: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيل: المعنى أقرب الأرض إلى فارس، وأن فارس اعتدوا على الروم وحصل القتال بينهما، وقيل: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أقربها إلى أرض الغرب، وهذا يرجع إلى التاريخ الذي يحدد موقع هذه المعركة حتى نعرف ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، إنما لا شك بأن ﴿أَدۡنَى﴾ بمعنى: أقرب.

وقوله: [﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أُضيف المصدر إلى المفعول أي: غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾].

تأمل التأكيد!! فقد أُكد هذا الوعد أولًا بتصدير الاسم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾؛ لأنه إذا صدر بالاسم صار جملة اسمية دالة على الدوام والثبوت، وأكد من وجه آخر لقربه؛ حيث كان الخبر مقرونًا بالسين الدالة على القرب، ثم أكد أيضًا بمؤكد ثالث وهو قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ لتحقق الغلبة وأن هذا أمر لابد أن يقع، ولو كانوا مغلوبين؛ لأنه لو فُرغ من بعد

غلبهم وهم سيغلبون، لكان الإنسان يقول: سيغلبون ولو غلبوا، لعلهم إذا كانوا قد غلبوا لا يغلبون، فلما قال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ صار في ذلك تأكيد للغلبة، فصار تأكيد غلبة هؤلاء من وجوه ثلاث.

قال الله تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: في خلال هذا البضع، قال المؤلف: [هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر]، لكن ما دون الثلاث لا يدخل في هذا.

على كل حال: نفهم أن البضع يكون من ثلاثة إلى تسعة أو إلى عشرة؛ يعني: ما دون الثلاث لا يدخل في الحكم، [فالتقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول وغلبت الروم فارس] فصدق بذلك خبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأنهم سيغلبون في بضع سنين؛ لأنه ما تجاوز الأمر سبع سنوات حتى كانت الغلبة للروم على الفرس فصدق الله وعده.

وقوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ في هذه المدة المعنى: أن الغلبة ستكون في خلال سبع سنين، وليس المعنى: أن الغلبة تستغرق سبع سنوات.

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من قبل غلب الروم ومن بعده، والمعنى: أن غلبة فارس أولًا وغلبة الروم ثانيًا بأمر الله أي: إرادته.

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هذه الجملة اسمية قُدم فيها الخبر لإفادة الاختصاص (لله وحده الأمر)، (أل) هذه للاستغراق يعني: كل الأمر و (أل) التي للاستغراق هي التي يحل محلها كل، فإن كانت لاستغراق المعنى فهي لاستغراق المعنى، وإن كانت لاستغراق الأفراد فهي لاستغراق الجنس قال الله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء:٢٨] (أل) هذه لاستغراق الجنس؛ لأنه يصح أن يحل (كل) فيقال: (وخلق كل إنسان ضعيفًا)، وقال أيضًا: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر:١ ـ ٢] هذه (أل) أيضًا لاستغراق الجنس أي: كل إنسان، وإن كانت لاستغراق المعنى فهي لاستغراق المعنى، ومثل ذلك بقولهم: (زيدٌ نِعْمَ الرجل) أي: نِعْمَ الشخص الجامع لصفات الرجولة، هنا الأمر لاستغراق الجنس أي: لله كل أمر.

لكن هل المراد بالأمر هنا: الأمر الكوني أو الأمر الشرعي؟ نقول: الأمر الكوني، أي: أن جميع الأمور ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ سواء المتعلقة بأفعال العباد أو المتعلقة بأفعال الله ـ عز وجل ـ فإنها راجعة إليه، وقد سبق لنا في التوحيد أن الأمر ينقسم إلى قسمين: أمر كوني، وأمر شرعي.

مثال الأمر الكوني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومثال الأمر الشرعي قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: أمره الشرعي ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء:١٦]

هذه من الأمر الكوني، وهذا هو المتعين، أي: أن الله يأمرهم أمرًا كونيًّا بالفسق فيفسقون، وأما من قال: إن المراد بالآية الأمر الشرعي وأن الله يأمرهم فيفسقون، يعني: يأمرهم بالطاعة فيفسقون، ثم يأخذهم بالعذاب. فهذا القول باطل؛ لأنه يقتضي أن يكون المعنى: أن الله يرسل الرسل فيأمروا الناس بطاعة الله عز وجل؛ لأجل أن يفسقوا فيحل عليهم العقاب، وهذا يرجع إلى أن الله بعث الرسل نقمة على العباد، وهو أمر لا يمكن.

ثم إننا نقول: الأمر الشرعي هل يختص بالمترفين؟

نقول: لا بل هو أمر عام لهم ولغيرهم، فالمهم أن هذا القول ضعيف وباطل وينافي حكمة الله - عز وجل - بإرسال الرسل.

إذن قوله هنا: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ المراد به: الأمر الكوني.

وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ قد يقول أصحاب النحو: لماذا ضمت ﴿قَبۡلُ﴾ مع أن ﴿مِن﴾ حرف جر؟ نقول: لأن قبل وبعد إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه بنيا على الضم، فإن وجد المضاف صارا معربيْن فتقول: (أتيت من قبلِ أن يأتي زيد) فتجرها، وكذلك إذا حذف المضاف إليه ولم ينوَ لا لفظًا ولا معنىً فإنها تعرب؛ لقول الشاعر:

فَصَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وكنْتُ قَبْلاً ... أَكَادُ أُغَصُّ مِنْ مَاءِ الفُرَاتِ

وكذلك إذا حذفت المضاف إليه ونوي لفظه فإنها تعرب، ولكنها لا تنون فيقال مثلًا: كنت حريصًا على الدرس فأتيت من قبلِ، أي: من قبلِ ابتداء الدرس فهنا حذف المضاف ونوى لفظه، فالمشكلة ما الذي يدرينا أنه نوي لفظه أو نوي معناه؟

الإعراب نفسه فإذا كانت مبنية على الضم علمنا أنه قد حذف وأريد المعنى، وإذا لم تكن كذلك علمنا أنه قد حذف وأريد اللفظ، فإن نوِّن علمنا أنه ما أريد اللفظ ولا المعنى.

وقوله: [﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾: أي: يوم تغلب الروم، ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم على فارس].

قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ﴾: (يوم) هذه ظرف متعلقة بـ ﴿يَفۡرَحُ﴾، وهي مضافة إلى اسم ونوِّنت عوضًا عن جملة، هي: يوم تغلب الروم، فالمحذوف الآن جملة.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ الفرح: لا يمكن للإنسان أن يعبر عنه فهو صفة النفس وسرور النفس، ونقول: الفرح معلوم، ولهذا في القاموس إذا جاءت مثل هذه الأشياء الفرح مثلًا قال: (م)، وهذه تكتب بعدها. يعني: أنه معروف ولا حاجة أن يبين.

وقوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المراد به النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْرَحُ﴾ وهو مصدر مضاف إلى فاعله، أما مفعوله فمحذوف وتقديره: (بنصر الله الروم على الفرس)، ولهذا قال المؤلف: [﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم على فارس]، والنصر معناه: العون والظهور، أي معناه: أن الله يعينهم حتى يظهروا على أعدائهم. وهذا هو النصر، أن يعين الله الإنسان حتى يظهر على عدوه، فهذا هو معنى النصر.

وقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ سمي نصرًا مع أنه لكفار على كفار؛ لأننا نقول: إن النصر هو العون والظهور، ولا فرق أن يكون بين مؤمن وكافر، أو بين كافر وكافر، ثم إن أهل الكتاب أقرب من الفرس، ولهذا لهم أحكام خاصة تقربهم من المسلمين.

قال: [وقد فرحوا بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدرٍ بنزول جبريل بذلك مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه]؛ يعني: أنه حصلت الواقعة فيه بين فارس والروم في الزمن الذي حصلت فيه الواقعة بين الكفار والمؤمنين؛ ولذلك نزل في بدر، وعلى هذا تكون هذه الآية نازلةً قبل الهجرة بخمس سنوات؛ لأنه إذا كانت المدة التي حصلت فيها الغلبة سبع سنوات، وبدر كانت في السنة الثانية لزم أن تكون غلبة فارس للروم قبل الهجرة بخمس سنوات.

وقوله: [مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه] فيكون في هذا الزمن اجتمع نصر أهل الكتاب على المجوس ونصر المسلمين على المشركين.

وقوله: [بأمر الله أي: إرادته] هذا في الحقيقة تحريف؛ بل الصواب أنه بأمره أي: بقوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإن الله تعالى لا يقدر شيئًا إلا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء أراده الله فإنما ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

والصواب: أن المراد بالأمر هنا القول: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: الأمر الكوني والشرعي من قبل ومن بعد، والإرادة ليست هي القول، فإن الإرادة صفة لا تستلزم القول إذ إن المريد قد يفعل ما أراد أو قد يقوله، وأما القول فهو أخص من الإرادة، فكل قول متضمن الإرادة، وليست كل إرادة متضمنة للقول.

وقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ هذه عامة من عمَّ، سواء كان المنصور كافرًا، أو كان المنصور مؤمنًا؛ لأن الأمر بيد الله، وقد سبق لنا أن كل شيء مقيد بالمشيئة فإنه يتضمن الحكمة؛ لأن الله لا يشاء شيئًا إلا بحكمة؛ فـ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ نصره بحكمة اقتضت ذلك.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب]، وهذا أحد معاني العزة، فالعزة منقسمة إلى ثلاث أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

عزة القدر: بمعنى: أنه -سبحانه وتعالى- عظيم القدر، وكلما كان الشيء عظيم القدر كان عزيزًا أي: قليل الوجود والله -سبحانه وتعالى- لا مثل له.

وعزة القهر: بمعنى: الغلبة والظهور.

وأما عزة الامتناع: فمعناها: امتناع جميع النقص عليه - سبحانه وتعالى - فهو عزيز من هذه الوجوه الثلاثة: فالأول: عزة القدر: بمعنى: أنه عظيم لا نظير له في قدره وعظمته، والثاني: عزة القهر: بمعنى أنه قاهر وغالب لكل شيء، والثالث: عزة الامتناع: أي أنه يمتنع عليه كل نقص، ومن هذا المعنى قولهم: أرض عزاز، ونحن نقول:أرض عزا، ومعنى عَزَاز أي: الصلبة التي يمتنع أن يؤثر فيها شيء، والله - عز وجل - متصف بالعزة من جميع هذه الوجوه.

وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ قال المؤلف:[بالمؤمنين] استدلالًا بقول الله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] والصواب:أن رحمة الله تكون عامة وخاصة، فإن كل من في السماوات والأرض في رحمة الله العامة، ولولا رحمة الله بالكفار هل يبقون؟ أبدًا ما يبقون، فكون الله يدرُّ عليهم الأرزاق والعافية والنشاط والعقل، وما أشبه ذلك لا شك أنه من رحمة الله، ولكن الرحمة التي تكون بها رحمة الدنيا والآخرة هذه خاصة بالمؤمنين.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد عظيمة منها: أن كلام الله - عز وجل - بالحروف (ألف لام ميم) - ألم -، فيه رد على الأشعرية الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس وليست الحروف، وأن هذه الحروف مخلوقة لتعبر عن هذا المعنى القائم بنفسه، ثم يقولون أيضًا: إن هذا المعنى القائم بالنفس لا يتغير ولا يختلف فهو واحد سواء كان استفهامًا أو خبرًا أو أمرًا أو نهيًا أو قرآنًا أو زبورًا أو إنجيلًا لا يختلف، فالتوراة هي الإنجيل وهي القرآن وهي الزبور وهي صحف إبراهيم وصحف موسى؛ لكن التصور ليس هو منك؛ لأن هذه اختلفت بالتعبير. فإن عبر هذا الكلام بالعربية صار قرآنًا، أو بالعبرية صار توراة، أو بالسريانية صار إنجيلًا، أو بلغة داود صار زبورًا، وهكذا.

ثم يقولون: إن الاستفهام والخبر معناهما واحد، فإذا جاء استفهام من الله - عز وجل - فهو كالخبر عنه؛ لأن المعنى واحد، وهذا لا شك أن مجرد تصوره كافٍ في رده وإبطاله.

٢ - ومن فوائد الآية: علم الله بالغيب؛ لقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

٣ - ومن فوائدها: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الإخبار عن الغيب لا يكون إلا بوحي.

٤ - ومن فوائد الآية: أن الله - سبحانه وتعالى - كامل السلطان والتدبير؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

٥ - ومن فوائدها أيضًا: أن كل الأشياء لا تكون إلا بأمر الله؛ لأنه لما قال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ إذن: فكونهم غُلِبوا بأمر الله

وانتصارهم بأمر الله فكل الأمور بتقدير الله تعالى وأمره - سبحانه وتعالى -.

٦ - **ومن فوائدها:** الرد على القدرية الذين يقولون باستقلال العبد بفعله، فهم يقولون: إن العبد مستقل بفعله وليس لله فيه تقدير ولا أمر ولا مشيئة ولا غيره، وهذه الآية ترد عليهم.

٧ - **ومن فوائد الآية:** جواز التعبير بما يُدخل الخوف والحزن على العدو؛ لأن قوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهي: من ثلاث إلى عشر أو تسع، معناه: أنه سيبقى هؤلاء الفرس في ذعر وخوف، فكل سنة تمر عليهم يقولون: هذه سنة الغلبة، ولا شك أن هذا مما يزيدهم ذعرًا وخوفًا؛ لأنهم لو غلبوا بأي سنة انتهى الأمر، لكن كونهم يُتوعدون بأمر لا يُدرى في خلال ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ لا شك أن ذلك أشد عليهم من أن يأتي الأمر وينتهي.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ من البلاغة؛ حيث حذف الفاعل؛ إذلالًا له وإهانة له: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ لم يذكر الغالب إذلالًا له، وكذلك رفقًا بالروم.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

١ - **في هذا من الفوائد:** جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفار على بعض إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ﴾، وليس ذلك نصر مسلمين على كفار، لكنه نصر كفار على كفار، لكن هذا في مصلحة الإسلام.

وعلى هذا إذا اقتتلت دولتان من دول الكفار، وكانت إحداهما أقرب إلى نفع المسلمين من الأخرى وفرحنا بانتصارها، هل نقول: إن هذا حرام، كيف تفرح بانتصار كافر على كافر؟ لا، بل نقول: هو جائز كما فرح المسلمون بانتصار الروم على فارس مع أن الكل كفار، لكن هؤلاء أهل كتاب فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس.

٢ - **ومنها:** جواز تسمية غلبة الكفار نصرًا؛ لقوله: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

فإذا قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]، مع أن الروم لا يتصفون بهذه الصفات؟

الجواب: أن النصر نوعان: الأول: نصر مطلق دائم، فهذا لا يكون إلا لمن ينصر الله، والثاني: نصر عارض مؤقت، فهذا يكون لهؤلاء ولغيرهم، فنصر الروم على الفرس ليس نصرًا دائمًا، والدليل أنه بعد ذلك نصر الله المؤمنين على الفرس وعلى الروم ففتحوا ممالك كسرى وممالك قيصر ولم يكن ذلك نصرًا دائمًا.

٣ - **ومن فوائد الآية:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات العزة لله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، وإثبات الرحمة في قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ وإثبات كمال عزته؛ حيث قُرنت بالرحمة، فإننا ينبغي أن نعرف أن الأسماء الحسنى تدل

على الكمال، فكل واحد منها يدل على كمال بانفراده، ثم باجتماع الاسمين بعضهما إلى بعض يدلان على كمال مركب، فالعزيز يدل على الكمال، والرحيم يدل على الكمال، فإذا اجتمعا أخذ من ذلك كمال آخر فوق الكمال الذي يتضمنه كل اسم على انفراده وهو أن تكون عزته مقرونة بالرحمة؛ لأن عزة غيره قد تكون خالية من الرحمة، فإذا صار عزيزًا أخذ الذي هو ظاهر عليه أخذه أخذ عزيز مقتدر، ولم يرحمه بخلاف عزة الله، فإنها مقرونة بالرحمة، وهي أيضًا مقرونة بالحكمة.

أضرب مثلًا: لو أن رجلًا غلب على قومٍ وصار عزيزًا وهم أذلاء، فإن هذا الرجل قد تأخذه العزة بالإثم فيبطش بهم ولا يرحمهم، لكن عزة الله ليست كذلك، فهي مقرونة بالرحمة كما أنها مقرونة بالحكمة؛ ولهذا دائمًا يقرن الله العزة بالحكمة.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٦، ٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يقول المؤلف: [مصدر بدل من اللفظ بفعله، والأصل (وعدهم الله النصر)].

قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ كلنا يعلم أنه مصدر، وليس فعلَ مصدر مضاف إلى الفاعل يعني: (وعد الله إياهم) فالمؤلف يقول: إنه بدل من فعله أي: ناب مناب الفعل أي: (وعدهم الله) وقيل: إنه مصدر فعله محذوف وليس نائبًا عن الفعل، وعلى هذا يكون المقدر كالموجود، أي: (وعدناهم وعد الله) وهذا أقرب أن يكون مصدر عامله محذوف وليس نائبًا عن عامله، والمعنى: أن الله وعدهم وعدًا مضافًا إليه، والوعد المضاف إليه لا يخلف؛ ولهذا قال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فالجملة هذه كالتوكيد لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المضاف إليه لا يمكن أن يخلف أبدًا؛ إذ إن إخلاف الوعد ناشئٌ عن كذب أو عجز، فإذا وعدك أحد وأخلفك، فهو إما كاذبٌ، وإما عاجزٌ، والكذب والعجز ممتنعان على الله ـ عز وجل ـ لكمال صدقه وقدرته.

فعلى هذا: هل يخلف الله وعده؟

الجواب: لا، لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ولا يمكن أن يخلفه وإخلاف الوعد أن يأتي الواعد بخلاف ما وعد به، فيقول رجل لك: سأزورك غدًا في الساعة الثامنة، ثم تأتي الثامنة ولا يزورك. أخلف هذا أو لا؟ نعم فهو إما عاجز أو ناسٍ وهو عيب أي: النسيان.

وعلى هذا نقول: بالنسبة لله ـ عز وجل ـ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لكمال صدقه في خبره، وكمال

قدرته في تنفيذ وعده، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ كامل القدرة، وكلامه كامل الصدق، ولهذا قال: [﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ به] أي: بالنقض، والنقض: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

أيضًا وعدٌ آخر في الآيات التي سبقت، وهو فرح المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فوعد الله بانتصار الروم على الفرس، وبفرح المؤمنين، ولا شك أن الفرح فيه من انبساط النفس وسرورها وانشراحها ما فيه فهو نعمة ينعم الله بها على الفَرِحْ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول المؤلف: [أي: كفار مكة] وتخصيص ذلك بكفار مكة فيه نظر، والصواب: أنه يشمل كفار مكة وغيرهم ممن ليس عندهم إيمان، فهو لا يعلم ما لله تعالى من تنفيذ الوعد؛ لأنه ما بين مُكذِّب وبين شاك متردد.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده تعالى بنصرهم أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى لا يخلف الوعد أو الأمرين جميعًا؟ والراجح: الأمران جميعًا، فهم لا يعلمون أن الله تعالى سيحقق النصر لهم إما لجهلهم بما أخبر الله به، وإما لشكهم في صدقه أو قدرة الله عليه، وهم لا يعلمون أيضًا أن الله لا يخلف الوعد في هذا أو في غيره؛ لشكهم في صدق الله وفي قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ على إنفاذ موعوده.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ إذن: أقل الناس يعلمون؛ لأنهم يؤمنون بالله تعالى وبما له من القدرة، والصدق في القول.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبر ثانٍ لـ (لكن)، والخبر الأول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: إنه بدل من ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ورد هذا القول بأنه لا يبدل المثبت من المنفي للتضاد فكيف نبدل شيئًا مثبتًا من شيء مضاد له؟ وعلى هذا نقول: إن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الثانية خبر ثانٍ لـ (لكن)، وتعدد الخبر جائز في اللغة العربية.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أثبت لهم العلم لكنه علم قاصر من وجهين:

الوجه الأول: أنهم إنما يعلمون ظاهرًا لا باطنًا، وكم من العلوم الخفية في هذه الحياة لا يعلمها هؤلاء الكفار، والدليل أن الكفار السابقين لم يكونوا يعلمون كل خفي في هذه الدنيا من تطور الصنائع والمخترعات؛ لأن هذا التطور بالنسبة للسابقين غير معلوم، ثم سيأتي تطور آخر يكون بالنسبة للموجودين غير معلوم.

إذن هم إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يعلمون كل ما في الدنيا من ظاهر وباطن، يقول أيضًا: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وليس كل ظاهر؛ بل الظاهر وفرق أن يقول: (يعلمون كل ظاهر من الحياة الدنيا) أو أن يقال: (يعلمون الظاهر من الحياة الدنيا) أو يقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فالتغير يكون على هذه الوجوه: يعلمون كل ظاهر، يعلمون الظاهر، ﴿يَعْلَمُونَ

﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيها الأقل؟ الأخير، يعني: ما يعلمون كل ظاهر إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقط، وهناك ظواهر أخرى لا يعلمونها أيضًا، فعُلم بهذا قصور علم هؤلاء بما يتعلق بالله - جل وعلا - وبما يتعلق بالدنيا، إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقط، وفيما يتعلق بالآخرة يقول الله عز وجل: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ جملة اسمية أكد فيها المبتدأ. أين الذي أكد؟ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ الثانية: ﴿هُمْ﴾ توكيد للأولى ولو حذفت وقيل: (وهم عن الآخرة غافلون) يستقيم الكلام لكنها كررت للتوكيد يعني: هم بالنسبة لأمور الآخرة غافلون معرضون عنها لا يفكرون فيها.

تجد الواحد في أمور الدنيا فتنبهر من علمه بها، ولكن في أمور الآخرة عنده غفلة لا يفكر فيها، ولا يحاول أن يُعمل فكره ولا ينظر في هذا الخلق العظيم ماذا يكون مآله وكيف خُلق وإلى أين ينتهي، فهو غافل.

قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من الإيمان بالله ورسوله،أما والأعمال الأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣] يدركونها تمامًا، لكن الإيمان بالله واليوم الآخر لا ﴿قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ ولهذا يجد جزاء هذه الغمرة إذا قيل له: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وهذا يكون يوم القيامة.

المهم: أن هؤلاء الذين غفلوا عن الله عز وجل، وعن الآخرة عندهم علم من الحياة، لكن هم قوم من أمر الآخرة أُمِّيُّون لا يعلمون شيئًا؛ لأنهم - والعياذ بالله - عندهم غفلة، ولهذا تتعجَّب! كيف هم الآن يصِلُون إلى الأجواء، ويصنعون الطائرات، ويصنعون الآلات الغريبة، ومع ذلك ما عندهم علم بالله ولا بالآخرة؟!

ولو تسأل الطفل من المسلمين أجابك، ولو تسأل أكبر واحد منهم من المخترعين ما أجابك، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:٥٤].

المقصود من هذا: أن هؤلاء الجاهلين - لأجل تأكيد الذم بالنسبة لهم - هؤلاء الذين جهلوا بالله ليس القصور فيهم ولا في أفهامهم، لكن لغفلتهم.

وحتى المؤمنين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ما يعلمون كل شيء، لكن المؤمنين معهم العلم بالله وأسمائه وصفاته، وحينئذٍ ما يكون ذلك نقص فيهم إنما محط النقص هو أن هؤلاء ما يعلمون ما يتعلق بالإيمان بالله.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعود على الكفار؛ لأن المقصود بهذا تأكيد الذم في حقهم وإلا فحتى المسلمين لا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] حتى المؤمنين ما يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا فقط.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن غلبة الروم للفرس، وفرح المؤمنين بذلك خبر متضمن من الوحي.

٢ - **ومن فوائدها:** امتناع إخلاف الله وعده؛ لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** ثبوت القدرة والصدق لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأنه متضمن لكمال الصدق والقدرة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن أكثر الناس غير عالمين بما يستحقه الله من الصفات، أي: صفات الكمال؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن العلم الحقيقي هو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته لا العلم في الدنيا؛ لقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ فنفى العلم عنهم؛ لأن علم الدنيا ليس بعلم في الحقيقة، فالعلم الحقيقي الذي يمدح عليه المرء هو العلم بالله، وأسمائه وصفاته وأحكامه.

٦ - **ومن فوائدها:** قصور علم المرء؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس كل الظاهر وليس الباطن، فالمرء علمه قاصر حتى في علوم الدنيا.

٧ - **ومن فوائدها:** ذم الذين يتكالبون على العلوم الدنيوية مع غفلتهم عن الآخرة؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أنها تتضمن مدح المقبلين على الآخرة والحريصين عليها، وإن فاتهم شيء من أمور الدنيا؛ لأنه إذا ذُمَّ من كان على العكس فذم الضد مدح الضد، فالذين يقبلون على الآخرة وإن كان ما عندهم إلا علوم قليلة من الدنيا أكمل بكثير من الذين يقبلون على الدنيا ويغفلون عن الآخرة، وهذا ما تدل عليه الآيات.

٩ - **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن للمرء الإحاطة بعلم الدنيا أيضًا.



قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٨-٩]

التفسير

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ قال المؤلف: [ليرجعوا عن غفلتهم].

سبق لنا مرارًا كيف نعرب مثل هذا التركيب ففي إعرابه عند النحويين قولين:

أحدهما: أن الهمزة مقدمة على مكانها وأن أصلها: (وألم يتفكروا) فتكون الجملة معطوفة على ما سبق.

والوجه الثاني: أن تكون الهمزة داخلة على محذوف مقدر بحسب السياق، ويكون ما بعدها من حرف العطف عاطفًا على ذلك المحذوف.

وفي هذه الآية يكون التقدير: (فغفلوا ولم يتفكروا) والاستفهام للتوبيخ؛ لأن الإنسان مأمور أن يتفكر؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾، هل قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ هي محل التفكر أو آلة التفكر، بمعنى: هل المقصود من الآية الحث على تفكرهم في أنفسهم كما في قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، أو الحث على التفكر في خلق السماوات والأرض؟

نقول: كلا الأمرين، لكن الأقرب الأخير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فالمعنى: أولم يرجعوا إلى أنفسهم ويتفكروا تفكُّرًا حقيقيًّا في هذا الكون ليعرفوا بذلك حكمة الله -عز وجل- وما يتضمنه من صفاته العظيمة. وقوله: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ﴿مَّا﴾: إعرابها نافية، الدليل قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى: أوجد وأبدع ولا يكون خالقًا إلا بتقدير وتنظيم؛ لأن أصل الخلق له تقدير في النفس كما قال الشاعر:

وَلَأَنتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

يعني: ما قدرت الخلق فهو الإبداع بتقدير وتنظيم.

وقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ سبق الكلام عليها وأن المراد بها الطباق وكانت سبعًا.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ﴾ مفرد يراد به الجنس ويشمل جميع الأرضين، وهي سبع وعطفت على السماوات وهي منصوبة ولهذا فُتحت بخلاف السماوات؛ لأنها جمع مؤنث سالم.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوفة على السماوات، والعلماء يقولون: إنه إذا تعددت المعطوفات، فالمعطوفة عليه الأول منها؛ لأنه المباشر للعامل وما بعده فرع عليه، فيكون العطف إذن على السماوات. فتقول: (جاء زيد وعمر وبكر وخالد وسعيد) فسعيد معطوف على زيد أول واحد؛ لأنه المباشر وما بعده فرع، والفرع لا يعطف على فرع؛ بل يعطف على أصل.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ البينية لا تقتضي التماس فقد يكون الشيء بين الشيئين، وهو لا يمس أحدهما فهنا ما بين السماوات والأرض لا يلزم أن يمس، ولكن هل يمكن أن يمس؟ يمكن،

لكن لا يلزم.

فعلى هذا نقول: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يشمل السحاب والرياح والنجوم والشمس والقمر، وغير ذلك من المخلوقات العظيمة التي لا نعلمها، وفي التخصيص على ذكر ما بين السماوات والأرض فيه دليل على أن ما بينهما أمر عظيم يُقارن بنفس السماوات والأرض، وهذا يعلمه أهل الفلك الذين يطلعون على ما في الأُفق من الآيات العظيمة التي تدل على كمال الله تعالى.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هذا محط الفائدة أي: هذا الخلق مقارن بالحق، فالباء إذنْ للمصاحبة والملابسة، أي أن خلقه سبحانه وتعالى مصحوب بالحق؛ لأنه متضمن لكمال العدل ولكمال الصدق، ما خُلقت السماوات والأرض إلا بالعدل، والعدل حق، وهل يشمل ذلك أن تكون الغاية منها حقًّا؟

نقول: نعم يشمل بالحق ابتداءً وانتهاءً كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، فلو كانت هذه السماوات والأرض خلقت لتحيا الخليقة عليها وتعيش وتموت بدون جزاء، ولا حساب، ولا ثواب، ولا عقاب، لو كان الأمر كذلك لكان باطلًا وليس بحق.

إذنْ: لابد لهذه المخلوقات العظيمة أن يكون لها غاية وهي الحق.

فعلى هذا نقول: إن قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يشمل الابتداء والانتهاء.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلقهم أيضًا إلا بأجل معين، والأجل: غاية الشيء، و﴿مُّسَمًّى﴾ من قِبَل الله تعالى هو الذي عينه وقوله: ﴿وَأَجَلٍ﴾ يشمل الابتداء والانتهاء، فإن الله أوجد هذه السماوات والأرض بعد أن كانت معدومة وإيجاده كان بالأجل المعين عنده وكذلك سوف ينهي السماوات والأرض وإنهاؤه إياها بالأجل.

إذن: كل شيء عند الله ـ عز وجل ـ مقدر حتى الحوادث التي تحدث في السماوات والأرض بعد خلقها وإيجادها بأجل لا يتقدم ولا يتأخر، وإذا تأملت قليلًا عرفت بذلك كمال قدرة الله – تبارك وتعالى – وكيف أن هذه الأمور والشئون العظيمة، والكثيرة كلها تدبر بأجل ما يتقدم، وما يتأخر.

مثلًا: نحن مقررين ابتداء الدروس في الساعة الثامنة، ولكن حين نبدأ الثامنة والنصف ونتأخر ما ينتظم أمرنا مع أنه بسيط.

وهكذا كل شئون الخلق ما يمكن لأحد أن يضبط جميع أعماله بأجلها المحدد مهما بلغ في الحرص؛ لأنه قد يعتريه ما لا طاقة له به فما يقدر، لكن الرَّب ـ سبحانه وتعالى ـ حدد كل شيء بأجله فلا يتقدم ولا يتأخر، وهذا لا شك أنه من كمال الحكمة والصنع: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

فإذا تأملنا هذا الكون العظيم على ما فيه من الحوادث الفلكية والأرضية والعامة والخاصة، فإننا نستدل به دلالة واضحة على كمال قدرة المدبر لهذا الكون، وأن كل شيء بأجل، وفي آية أخرى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] أيضًا بمقدار لا يزيد ولا ينقص بأجله وبمقداره لا يزيد ولا ينقص.

قال المؤلف: [﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لذلك تفنى بعد انتهائه وبعده البعث]، تفنى أي: السماوات والأرض وما بينهما عند انتهاء هذا الأجل ثم يأتي البعث.

يقول: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: كفار مكة ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث بعد الموت].

وقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ خصه المؤلف بأهل مكة، والصواب: العموم فيشمل أهل مكة وغيرهم ﴿كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ينكرون البعث فيمكن أن نجد في غير أهل مكة من هو أشد منهم إنكارًا للبعث، فتخصيص العام في القرآن أمر لا ينبغي إلا إذا قام الدليل على هذا.

وقوله: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ اللقاء بمعنى: المواجهة والمقابلة، وكل إنسان سوف يلقى الله ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] يشمل المؤمن و الكافر ، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة:١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق:١٠] فدل ذلك على أنه عام، فكل أحد ملاقي الله ـ عز وجل ـ وسوف يحاسبه، ولكن حساب الله للناس يختلف، فالمؤمن يُقرِّره بذنوبه فإذا أقر بها غفر له، وأما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فإنه يُخزى بها ويُعاقب ويكون هوانًا له.

قال الله تعالى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَكَافِرُونَ﴾ للتوكيد، و﴿كافِرُونَ﴾ خبر إن، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَكَافِرُونَ﴾ وقدم عليه لمراعاة الفواصل، ومراعاة الفواصل في القرآن الكريم ظاهر؛ لأن الكلام عامة إذا كان فواصل متفقة يكون أنشط للنفس وأرغب في استماعه وتلاوته.

وقوله: ﴿لَكَافِرُونَ﴾ الكفر في اللغة: الستر، ومنه سمِّي (الكُفُرَّى) الذي هو كافِر النخل ـ الطلع ـ لأنه يستره، والمراد بالكفر ستر نعمة الله على المرء بحيث يعصيه إذا أمره ويجحد إذا طلب منه الإيمان.

وأنواع الكفر كثيرة منها: الكفر المخرج عن الملة، ومنها: الكفر أي: خصال الكفر وليس الكفر المطلق وهذا يرجع إلى حسب النصوص الشرعية.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فالتفكر يكون في خلق السماوات والأرض والسير في الأرض فقط، ثم إن السير في الأرض إما أن يكون سيرًا بالأقدام أو سيرًا بالأفهام، إن كان سيرًا بالأفهام فهو داخل فيما سبق، وقد نقول: إن هذا أخص مما سبق؛ لأنه قال هنا: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فهو نظر في حوادث لا في خلق الأرض، فتكون هذه الآية منفصلة عن التي قبلها من حيث المعنى، فالأولى: تفكير ولهذا جاء متعلقها عام في السماوات والأرض وما بينهما، وهذه السير لأمر مخصوص، هو الحياة، فيشمل السير بالقدم والسير بالفكر على القول بأنه سير أقدام فيكون السير حسيًّا، وعلى الثاني: يكون معنويًّا.

إذا قال قائل: كيف يطلبون من الإنسان أن يسير بقدمه إلى مواقع العذاب وقد نهى النبي ﷺ أن ندخل مواقع العقاب إلا ونحن باكون؟

نقول: لا تعارض؛ لأن هذا هو مقصود السير إلى مواقع العذاب المقصد منه الاتعاظ والانزجار وهذا يتحقق بالبكاء، ولهذا نهى النبي ﷺ أن ندخل على ديار ثمودَ إلا ونحن باكون، وقال: «**إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ فَلَا تَدْخُلُوهَا**»، وبعض الناس يذهب إلى زيارة ثمود على سبيل النزهة والطرب والتمتع بالمناظر؛ ولهذا يأخذون لها صورًا إعجابًا بها لا خوفًا، وهذا من قسوة القلب - والعياذ بالله - والجهل بما جاء به النبي ﷺ؛ لأن غالبهم يكون جاهلًا.

فهؤلاء الذين يذهبون إلى هذا المقصد يكونون جاهلين، لا نقول: إن كلهم عندهم قسوة قلب وتعمدوا مخالفة الحق، لكن نقول: عندهم شيء من الجهل ولا يجوز للإنسان الذي لا يعرف من نفسه التأثر حتى يبكي لا يجوز أن يدخل؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناها (على)؛ لأنها لو أُخذت بظاهرها لكان السير في سراديب تحت الأرض.

و﴿فِي﴾ للظرفية، والظرف محيط بالمظروف من جميع الجوانب، ولا يمكن أن تحيط بك الأرض من جميع الجوانب إلا إذا كنت داخل الأرض وليس هذا مرادًا، فعلى هذا تكون ﴿فِي﴾ بمعنى: (على)، وقيل: إن ﴿فِي﴾ للظرفية (على) ولا حاجة إلى تأويلها.

إذن قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: في ظهر الأرض، وكل أحد يعرف أنه لا يراد أن تخرق الأرض وتمشي في أسفلها فلا أحد يفهم هذا، وأيًّا كان فإن المراد السير على ظهر الأرض.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ الأرض مفرد والمراد بها الجنس، أي: الأراضي التي وقع العذاب بأهلها مثل ديار ثمود، والأحقاف، وديار قوم نوح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦].

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ هل النظر هنا نظر بصر، أو نظر بصيرة؟

نقول: إن كان السير بالقدم فالنظر نظر بصر، وإن كان السير بالفهم فالنظر نظر بصيرة، فينظروا بعين البصيرة، أو بعين البصر حسب السير الذي يسيرونه.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء هنا سببية أو عاطفة أو يجوز فيها الوجهان؟

يجوز أن تكون عاطفة والمعنى: (أفلم يسيروا فلم ينظروا)، ويجوز أن تكون سببية المعنى: (أفلم يسيروا فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل).

والمقصود أنك إذا سِرت بقدمك تنظر بعينك، لكن هذا الناظر بالعين هل يعتبر أو لا؟

إن كان ما في بصيرة ما يفيد.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ مجزومة بحذف النون والواو فاعل؛ لأنها من الأفعال الخمسة.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ هذه اسم استفهام خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، و ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها، والعاقبة مصدر بمعنى: (العُقبى) وعاقبة الشيء ما يتلوه ويأتي بعده.

وقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ما تلى تكذيبهم للرسل، أي: [إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم]، فعاقبة ثمود هي الإهلاك والدمار، وعاقبة عاد الذين استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة ما أحد أشد منا قوة، عاقِبتهم أن أُهلكوا بأمر من ألطف الأشياء، وهو الريح جسم لطيف لا يُرى. هؤلاء الكبار الأجسام الشديدو القوى أُهلكوا بهذه الريح اللطيفة التي لا ترى؛ ليتبين ضعف الإنسان لأنه مهما كان فالله ـ عز وجل ـ أقوى منه كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وكذلك أهلك قوم لوط الذين أُترفوا ونُعِّموا حتى إنهم كانوا من شدة الترف يعدلون عما خلق الله لهم من أزواجهم إلى إتيان الذكور ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ﴿كَانُوٓاْ﴾ جملة استئنافية يراد بها بيان حال هؤلاء السابقين ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود، لا شك أنهم أشد من قريش قوة، وعاد معروفة قوتهم، قال تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٧ـ٨]، وثمود أيضًا الذين قال الله فيهم: ﴿ينحتون مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، من الجبال ومن الأحجار، وهذا يدل على القوة و ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]، عظيمة فخمة هذا ما حصل لأهل مكة، ومع ذلك دمرهم الله عز وجل ـ أي الأقوام السابقة لقريش ـ بكفرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ معطوفة على ﴿كَانُوٓاْ﴾ ليس على خبر كان، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ وليست معطوفة على ﴿أَشَدَّ﴾ حتى نقول: كانوا أشد منهم وكانوا أثاروا الأرض وعمروها؛ بل هي معطوفة على قوله: ﴿كَانُوٓاْ﴾.

وقوله: [﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: حرثوها وقلبوها للزرع والغرس] هذه إثارة الأرض، فالإنسان إذا حرث الأرض لا شك أنه يثير الأرض بالمحراث والجرارات ترفعها وكذلك أيضًا

الغرس، فإن الإنسان يثير الأرض ويحفر للشجرة حتى يثبتها، فهؤلاء أشد منهم قوة وأيضًا قد أثاروا الأراضي.

أما أهل مكة فهم ما أثاروا الأرض؛ لأنه وادٍ ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقوله: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: السابقون بالتجارة والبناء والمصانع وغيرها.

فسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى عن جنوده: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣] (الجِفَان): هي الصحاف فيها الطعام ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: بِرَك الماء هي صحاف كبار كبركة الماء وهذا شيء عظيم، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ما تُحمل من كبرها وكثرة الطعام فيها هذا كله وما هو مثله ما حصل لهؤلاء أي: لقريش.

وقوله: [﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الظاهرات].

(الباء) للمصاحبة، أو التعدية؟ يجوز هذا وهذا، والمعنى: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءتهم بالبينات رسل من قِبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج البينات أو الآيات البينات التي تشمل الحجج والأحكام فإن الحكم إذا كان حكمًا عادلًا نافعًا للعباد فإنه بينة تدل على صدق من أتى به، فالرسل كلهم جاؤوا بالبينات فما من رسول إلا أتى بالبينة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] إذن: فمع كل نبي كتاب، وكل نبي له كتاب وله آيات بينات.

المهم: أن ما من رسول إلا معه بيِّنة ومعه كتاب.

قال المؤلف: [﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بإهلاكهم بغير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتكذيبهم].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تسمى لام الجحود، أي: لام النفي لملازمته له، وقد سبق لنا أن لام الجحود هي التي يسبقها (لم يكن) أو (ما كان)، هنا سبقها ﴿فَمَا كَانَ﴾ فإذا قيل: ما كان الله ليفعل كذا أو ما شابه ذلك فاعلم أنه ممتنع غاية الامتناع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] ممتنع غاية الامتناع، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩] ممتنع غاية الامتناع، وهكذا كل ما جاء مثل هذا التعبير فالمراد به أنه ممتنع غاية الامتناع.

وقوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ الظلم في أصل اللغة النقص ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] وهو في الشرع كذلك: نقص فيما يجب، فيشمل الإهمال في الواجب والتعدي في المحرم؛ لأنك بخست نفسك حقها؛ حيث لم تجتنب المحرم، وكذلك أيضًا التقصير في الواجب نقص فمن قصر في واجب فقد ظلم نفسه، ومن تعدَّى في محرم فقد ظلم

نفسه بأنه نقص مما يعامل به نفسه.

فيكون الظلم إما ترك لواجب، وإما فعلًا لمحرم بالنسبة لله - عز وجل - ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ هذه الصفة سلبية لا ثبوتية، وأيضًا تتضمن كمال العدل فهو لا يظلمهم لا لأنه عاجز عنهم ولا لأنه غير قادر لهم، ولكنه لكمال عدله - سبحانه وتعالى -، ونفي الظلم يكون لثلاثة أسباب: إما للكمال، أو العجز، أو عدم القابلية.

فإذا قلت: إن الجدار لا يظلم فهو لعدم القابلية.

وإذا قلت: فلان ضعيف لا يظلم عدوه فإنه للعجز.

قال الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُونَ بذِمَّةٍ ... ولا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وذلك لعجزهم.

فإذا قلت: إن الله لا يظلم الناس شيئًا فهو لكمال عدله لا لعجزه، فهو قادر - سبحانه وتعالى - على الظلم، لكنه ممتنع عليه لكمال صفاته.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ منصوبة على أنها خبر كان، و(كان) فعل ماض ناقص يرفع المبتدأ وينصب الخبر، والواو ضمير متصل في محل رفع اسمها والألف للجماعة، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ خبر، ولو كانت لتوكيد الضمير لقال: (أنفُسُهُم).

فقوله: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعني: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، وبأي شيء يظلمون أنفسهم؟ بمعصية الله، إما بترك واجب، أو بفعل محرم وستأتي الفوائد بما تدل عليه هذه الجملة.

المهم: أن الله - سبحانه وتعالى - ما ظلم هؤلاء الذين أهلكهم، ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم، أي: جناية منهم على أنفسهم، والله عاملهم بعدله.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨].

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** توبيخ من أعرض عن التفكر؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ فالاستفهام هنا للتوبيخ ويتفرع على هذه القاعدة: الحث على التفكير.

ويتفرع عليه فائدة ثانية: وهي فائدة التفكر؛ لأن الله لا يحث على شيء وتوبيخ على تركه إلا لما فيه من الفائدة والمصلحة.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن محل التفكير هو العقل؛ لقوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾

٣ ـ ويستفاد من الآية: عجيب صنع الله في الإنسان، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾، وإذا أردت أن تعرف ذلك فاذهب إلى أهل العلوم والطب تجد في جسمك العجب العجاب، هذا الطعام يتحول إلى دم ويوزع على أنسجته الجسم يعني: يعطي الأعصاب كمية تليق بها، ويعطي اللحم كمية تليق به ويعطي العظام كمية تليق بها يعني: أنابيب بسيطة مثل الشعر توزع على هذا الجسم ما يحتاج إليه، فخلق الله فيه العجب العجاب وما يبهر العقول، وقد ذكر ابن القيم في «**مفتاح دار السعادة**» من هذا شيئًا كثيرًا قبل أن يتوصل الطب إلى ما توصل إليه الآن.

٢ ـ ومن فوائد الآية أيضًا: أن خالق السماوات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فلم يخلقهما أحد، ولهذا قال في سورة الطور: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٦].

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات عدد السماوات وهي سبع، وأما الأرض فدائمًا تفرد في القرآن فما ذكرت في القرآن مجموعة لكن أشير إلى جمعها في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

٤ ـ ومن فوائدها: أن بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما يستحق أن يجعل قسيمًا لخلق السماوات والأرض. فكلنا يعلم عِظَم السماوات والأرض؛ إذن فعظم ما بينهما موازٍ لهما.

٥ ـ ومن فوائد الآية: كمال حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته وكمال قدرته نستدل عليها بعظم مقدوره، فكمال القدرة يؤخذ من عظم المقدور، وهذا من الدلالة بالله، أن الله إن فتح على العبد بمعرفة لوازم النصوص استفاد بذلك فوائد عظيمة، حتى إنه ليأخذ من النص الواحد من المسائل ما لا يحصِّل غيره نصفها.

إذن يُستفاد من هذه الآية: عِظَم قدرة الله ـ عز وجل ـ وبالغ حكمته، فالحكمة من قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فهي ليست عبثًا؛ بل هي مخلوقة بالحق.

أما القدرة: فنأخذها من عِظَم المخلوق الذي يدل على عظمة الخالق.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان ألا يضيع وقته سُدًى، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ لأن ضده الباطل، والباطل إما ضار وإما غير ضار ولا نافع، لكن كل ما هو مذموم فهو باطل.

المهم: أن السماوات والأرض كلها خلقت ﴿بِالْحَقِّ﴾ فينبغي لك أن تكون موافقًا لهذه الحكمة التي خلقت من أجلها السماوات والأرض.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أن هذا الخلق على عظمته له أجل محدود؛ لقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فكل شيء في السماوات والأرض كليًّا كان أو جزئيًّا فهو محدد إلى أجل مسمى، وسواء كان عينًا أو

صفة فإنه محدود إلى أجل مسمى، ولهذا من الحكم المشهورة: (**دوام الحال من المحال**)، وهذا يتفرع عليه قاعدة أخرى وهي: أن الخلق ناقص؛ حيث لم يقدر له الأبدية فهو ناقص، ولهذا تأتي الحياة الآخرة كاملة؛ لأنها مؤبدة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** كمال الحكمة؛ حيث كان كل شيء مُقدَّرًا مُنظَّمًا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، والمقدار: يشمل مقدار الكمية، والكيفية، والزمنية، والمكانية، كل الأنواع الأربعة يشملها قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

٩ ـ **ويستفاد من هذه الآية:** أنه مع هذه الآيات العظمى ـ خلق السماوات والأرض وما بينهما وتأكيد ذلك بأجل مسمى وتقديره بتقدير معين ـ مع هذا كله كثير من الناس ينكرون لقاء الله، والحقيقة أن العاقل يستدل بهذا التأكيد على وجوب لقاء الله إذا رأى أصحابه وقرناءه الذين كانوا بالأمس معه يذهبون واحدًا فواحدًا هل هذا يحمله على الإيمان أم لا؟ لا شك أنه يحمله على الإيمان؛ لأنه يعلم أن الدنيا لو دامت لأحد ما وصلت إليه، إذن يستدل بهذه الآجال المقدرة على أنه لابد وأن يكون هناك شيء وراء هذا، فهل من الحكمة أن تنشأ هذه الخليقة العظيمة وبهذا النظام البديع ثم تكون النهاية أن يموت الإنسان كجيفة حمار!! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] فهذه الشرائع التي نزلت لابد وأن يكون وراءها شيء وهو البعث الذي به لقاء الله ـ عز وجل ـ لكن مع هذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾

١٠ ـ **من فوائد هذه الآية:** إثبات البعث المفهوم من قوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾.

١١ ـ **ومنها:** أن كل أحد سيلاقي الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ وقال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فإذا قال قائل: هل هذا اللقاء شامل للمؤمن والكافر؟ **قلنا:** نعم، لكن هناك فرق بين اللقاءين كما أن الرجل يلاقي زيدًا ويلاقي عمرًا ويكون بين اللقاءين فرق عظيم، يلاقي هذا بوجه غضب وهذا بوجه رضٍ، وهذا بوجه منقبض، وهذا بوجه متبسط وما أشبه ذلك.

١٢ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ مع أنه يتكلم عن الكافرين فهي الربوبية العامة، والربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة.

وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١ ـ ١٢٢] فالأولى عامة، والثانية خاصة.

والفرق بينهما: أن الربوبية العامة تستلزم التفرق المطلق في المربوب، والخاصة تستلزم مع التفرق المطلق العناية به ونصره وتأييده وما أشبه ذلك تشبه المعية العامة والخاصة وتشبه مسائل كثيرة من هذا.

١٣ ـ ومن فوائد الآية: ذم من كفروا بلقاء الله مع الآيات العظيمة الدالة على وجوده وحكمته وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ هذه الجملة لا ريب تدل على الذم.

فوائد قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩]

١ ـ يستفاد من هذه الآية: التوبيخ لمن غفلوا عن السير في الأرض سواءً بأبدانهم أو بقلوبهم؛ لأن الاستفهام في الآية للتوبيخ، ويتفرع على ذلك: الحث على السير في الأرض، ومن ذلك مراجعة كتب التاريخ والأمم؛ لأن من راجعها لاسيما التواريخ الحريصة على الضبط يتبين له العجب العجاب في خلق الله عز وجل ومداولة الأيام بين الناس، وتغييره للأمور، وتزيد الإنسان إيمانًا بالله، لكن إن كانت هذه الحوادث من السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين ازداد بها مع الإيمان بالله أن يصطبغ بصبغتهم ويحتذي حذوهم في السير، وإن كانت من الأمور العامة العابرة فإنه يستدل بها على قدرة الله ـ عز وجل ـ وكمال سلطانه.

فالمهم: أن السير في الأرض بمعنى مراجعة الحوادث والتاريخ الذي يفيد المرء ويعتبر بها، ولكنها تفيد من وجه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

٢ ـ ويستفاد منها: أن عاقبة الكفار عاقبة مادية؛ لقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان مهما قوي فهو ضعيف بالنسبة لقوة الله؛ لقوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ومع ذلك هل تحصنوا بهذا من عذاب الله؟ الجواب: لا؛ بل إن الله بحكمته أذلَّ أعتى أهل الأرض بأهون الأشياء وألطفها وهم عاد فأهلكوا بالريح، وأهلك من كان يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته بالماء الذي كان يفتخر به بالأمس، وهذا مما يدل على كمال سلطان الله تعالى وعظمته، وأنه مهما قوي الإنسان فهو ضعيف بالنسبة لقوة لله ـ عز وجل ـ.

في عام أربعمائة أظن حصلت هزة أرضية في إيران دمَّرت في لمح البصر خمسة وعشرين ألف نسمة من بني آدم فضلًا عن الحيوانات والمواشي وما إلى ذلك ودمرت مائتين وثلاثين قرية ومدينتين كبيرتين، والهزة هي كالأرجوحة؛ بل هي في لمح البصر مثل الهزة التي حصلت في اليمن، فهذه القدرة العظيمة هل يمكن لأحد أن ينجو منها؟!

إذا عُصِي الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أبدًا، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

٤ـ **ومن فوائد الآية:** أن التأمل في حال الكفار بالاعتبار مطلوب، فإذا جاء إنسان وأراد أن يدرس تاريخ أمة كافرة، هل لنا ننهاه عن ذلك؟

نقول: إذا كان يريد أن ينتفع بالآيات ويعرف ماذا صنع الله بهم فإنه مأجور، أما إذا كان يريد أن يتعجب من قوتهم وصنعتهم فإنه يُنهى عنه، مثلما قلنا في الذين يذهبون إلى ديار ثمود للنزهة فهذا حرام، أما للاعتبار فهذا جائز بالشرط الذي ذكره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وهو البكاء.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن إثارة الأرض وتعميرها فيه نوع من الاكتفاء الذاتي(١).



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١١، ١٧]

التفسير

قال المؤلف: [﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: ينشئ خلق الناس، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالياء والتاء]؛ هذا لتأكيد الإيمان باليوم الآخر.

ذكَّر الله تعالى عباده بأمر يعترفون به وهو أنه بدأ الخلق ولا أحد ينكر ذلك، فلا أحد يدعي أنه خلق نفسه، فكل إنسان يعرف أنه مخلوق من عدم، ومن المعلوم أنه لو ادعى أنه خُلق من غير خالق فإن كل أحد يكذبه، وإذا أقر أنه لابد من خالق فنقول له: مَنْ عَيَّنَهُ لنا؟ وحينئذٍ لا يستطيع أن يعيِّن، فنقول له: إن الذي خلقك هو الله.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُنشِئه أول مرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] وتطوير الخلق أي: يجعله أطوارًا وهذا أمر معلوم؛ لأن هذا هو مقتضى الحكمة أن الأشياء تتطور شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى حد الكمال.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمُهْلة؛ لأن الإعادة لا تكون إلا عند قيام الساعة فهذا

(١) يلاحظ أن تفسير الآية (١٠) غير موجود.

يتأخر كثيرًا عن ابتداء الخلق.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يرجعه مرة ثانية وليس يبتدئ خلقًا جديدًا وإنما يعيد المخلوق الأول، وهناك فرق بين الأمرين؛ لأننا إذا قلنا: إنه ابتداء خلقًا جديدًا، فمعنى ذلك: أن يعذب من يعمل ومن لم يعمل، وأيضًا هذا النوع لا ينكره المكذبون بالبعث؛ لأنهم يقرون بالابتداء، إنما هم ينكرون الإعادة قال تعالى حكاية لقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وعلى هذا فالبعث إعادة وجمع ما تفرق وليس ابتداء خلق جديد، فإذا قيل: هذا المتفرق صار رميمًا ثم ترابًا وتلاشى أو أكلته السباع أو الحيتان أو ما أشبه ذلك، نقول: مهما كان فالله قادر على أن يجمعه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان: ﴿يُرْجَعُونَ﴾، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فعلى قراءة التاء تكون الجملة للخطاب، وعلى قراءة الياء تكون الجملة للغيبة، ويشكل على هذا أنه قال: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ مع أن الخلق يُبدأ مفردًا ثم يعيده، ومقتضى السياق أن نقول: ثم إليه يرجع، لكن لماذا قال: ﴿تُرْجَعُونَ﴾؟

نقول: إن الجواب على ذلك أن الخلق مصدر بمعنى اسم المفعول فمعنى يبدأ الخلق يعني: يبدأ المخلوقين، لكن لما كان مصدرًا فإن المصدر لا يُثنى ولا يجمع قال ابن مالك في «**الألفية**»:

ونَعَتُوا بِمَصْدرٍ كَثِيْرا فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيْرا

وعلى هذا **نقول**: إن الخلق بمعنى: المخلوقين، يعني: ثم إلى الله يرجع هؤلاء المخلوقون بعد الإعادة، وهذا الرد إلى الله والإرجاع من أجل الجزاء والحساب ثم المآل إلى دار النعيم أو إلى دار الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم:١٢]، قال المؤلف: [يسكت المشركون لانقطاع حجتهم].

قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه ظرفِيَّةٌ متعلقة بقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ وهي مضافة إلى الجملة التي بعدها ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، فالجملة إذنْ في محل جر بالإضافة.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: تأتي كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، والساعة المراد بها ساعة البعث فـ (أل) فيها للعهد، أي: العهد الذهني، يعني: الساعة المعهودة العظيمة التي فيها قيام الخلق من قبورهم إلى الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ [يسكت] ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالإبلاس بمعنى: السكوت، وقيل: الإبلاس بمعنى: اليأس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩] أي: لآيِسِين، ومنه إبليس؛ لأنه أيس من رحمة الله، وعلى هذا فيكون ﴿يُبْلِسُ﴾ بمعنى: ييأس، ولا يبعد أن تكون الآية جامعة للمعنيين أي: ييأسون فيسكتون؛ لأنه إذا أيس الإنسان، ولم يتكلم

بشيء؛ إذ إن الكلام لا ينفعه، وعلى هذا فنقول: إن معنى ﴿يُبْلِسُ﴾: ييأس مع السكوت.

وقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اسم فاعل من أجرم، أي: فَعَلَ الجرم، وهو الذنب العظيم، ولهذا فسرها المؤلف بقوله: [المشركون]، ويستدل على أنهم المشركون بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ [الروم:١٣]، فهم يوم القيامة ييأسون ويسكتون، ولا يجدون لهم حجة.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الروم:١٣].

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ قال المؤلف: [أي لا يكون].

لماذا فسر (لم) بـ (لا)؟ لأن (لم) للماضي، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ فتقتضي أن هذا الأمر قد وقع وهو واقع أو لم يأتِ؟ لم يأت؛ لأنه يوم القيامة، فعلى هذا يكون ماضيًا بمعنى: المستقبل ﴿يُبْلِسُ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ حينئذٍ.

وعندي: أنه لا حاجة لهذا التأويل؛ لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ مقيدة بكلمة: ﴿يُبْلِسُ﴾، يعني: (ولم يكن لهم في حال الإبلاس)، وحال الإبلاس يكون يوم القيامة، لكن رأي المؤلف أخذ الآية على أنها مطلقة بدون أن تقيد بقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾، وعلى هذا فلابد أن نقول: إن (لم) بمعنى: (لا).

قال: [﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ممن أشركوهم بالله وهم الأصنام ليشفعوا لهم ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾] إلى آخره.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾، ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ إعرابها اسم ﴿يَكُن﴾، و ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ خبرها مقدم.

وقوله: ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ جمع شريك وهو بمعنى اسم مفعول، فقتيل بمعنى: مقتول، أي: مشروك به، والمعنى: (من جعلوهم شركاء مع الله) كما قال المؤلف: [ممن أشركوهم بالله]، فصارت هنا الإضافة من باب إضافة الشيء إلى مفعوله لا إلى فاعله أي: (الذين جعلوهم شركاء لهم).

وقوله: ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ جمع شفيع بمعنى: شافع، والشافع هو من يتوسط لك إما بجلب منفعة، وإما بدفع مضرة، وسمي شافعًا؛ لأنك به كنت شِفْعًا، وكنت قبله منفردًا ومعه شفعًا، ولهذا سمي الشفيع شافعًا لهذا الوجه، قلنا: إن الشفيع هو مَنْ يشفع لك ويتوسط إما بجلب منفعة أو بدفع مضرة.

مثالها في جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها.

ومثال دفع المضرة: شفاعة النبي ﷺ لأهل النار ألَّا يدخلوها، فهؤلاء لم يكن لهم من شركائهم شفعاء.

وقوله: [﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: يكونون ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ أي: مُتبرِّئين منهم].

في يوم القيامة، هؤلاء الشركاء الذين كانوا يرجون منفعتهم يكفرون بهم ويتبرؤون منهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧] فهم يوم القيامة

يكفرون بهم، كما أن العابدين أيضًا يكفرون كل منهم يكفر ببعض - والعياذ بالله - بينما كانوا في الدنيا يرجون شفاعتهم وخيرهم قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] لكنه في يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ نقول فيها ما قلناه فيما سبق أن المراد بالساعة هنا: ساعة البعث المعهودة والمعلومة.

قال المؤلف: [﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي: المؤمنون والكافرون].

قوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ هي متعلق ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: أن ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثانية تأكيد للأولى، والدليل على أنها تأكيد أنها لو حذفت وقيل: (ويوم تقوم الساعة يتفرقون) استقام الكلام، لكنه يفوت التوكيد الذي أراده الله - عز وجل - يعني: في ذلك اليوم بالتأكيد.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في كل مواردها يقولون: إنه عِوَضٌ عن جملة يعني: (يوم إذ تقوم الساعة)، وكذلك يقال في حينئذٍ، ويقال أيضًا في وقتئذٍ: أن التنوين عوض عن الجملة أي: يومئذٍ، وحينئذٍ يكون كذا وكذا.

وقوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ الضمير يعود على الخلق فيشمل المؤمن والكافر حتى لو كانوا أقارب، فلو كان أب مسلم وابن كافر أو بالعكس تفرقوا؛ لأنها دار الجزاء، وكل يُجزى بعمله، فكيف التفرق إذنْ؟.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥]

قال المؤلف: [﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ جنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّون].

قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ يقولون: حرف شرط وتفصيل، ولذلك يؤتى بها دائمًا في مواضع التفصيل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥] وهي أيضًا حرف شرط فتحتاج إلى جواب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ [الليل:٥ - ٧] وهنا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ فتكون ﴿فَأَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل، وهي أيضًا متضمنة معنى التوكيد، مثلًا قولك: أما من فعل كذا فله كذا، أقوى من قولك: فمن فعل كذا فله كذا، فتفيد الشرطية والتفصيل والتوكيد وهو تقوية الكلام.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني: جمعوا بين الإيمان والعمل.

واعلم أن الإيمان إذا أطلق شمل العمل كما أن عمل الصالحات إذا أُطلق شمل الإيمان -

قصدي بالإطلاق: الإفراد - وإذا قُرن أحدهما بالآخر صار الإيمان للأعمال الباطنة، والأعمال لعمل الجوارح.

والإيمان يشمل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ هكذا فسره النبي ﷺ لجبريل - عليه السلام - حين سأله: ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١). وكلمة عمل تشمل: الفعل والقول، والعمل الصالح يشمل قول اللسان، وعمل الجوارح، والعمل الصالح هو ما جمع بين أمرين الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لابد من هذين الأمرين: إيمان وعمل، فمجرد الإيمان لا ينفع بدون عمل، والعمل بدون إيمان أيضًا لا ينفع، فلابد من إيمان وعمل.

وبهذا نعرف أن بعض النصوص المطلقة التي فيها الوعد بالجنة لمن كان في قلبه أدنى حبة خردل من إيمان وما أشبه ذلك، المراد: الإيمان المتضمن للعمل تحقيقًا أو تقديرًا؛ تحقيقًا: بأن يكون عاملًا فعلًا، وتقديرًا: بأن يكون ما تمكن من العمل، ولكن معه الإيمان كما لو آمن عند قرب وفاته.

وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ الجملة اسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار.

وقوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ يقول المؤلف: [جنة]، وهي كذلك، فالروضة: هي عبارة عن البساتين المشتملة على الأزهار والأشجار والروائح الطيبة والمناظر البهيجة، ولهذا قال: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي:[يسرون]، وقيل: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ ينعمون، وهما متلازمان؛ لأن النعيم يحصل به السرور، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

التقسيم الثاني: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بترك العمل الصالح ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلم يؤمنوا.

وقول المؤلف: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: القرآن] وهذا القول ليس صحيحًا ، بل يشمل القرآن وغير القرآن؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هؤلاء يكونون في هذه الأمة ويكونون في غيرها.

وقوله: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ البعث وغيره، والبعث هو الإخراج من القبور، وغيره؛ الحساب والجزاء والجنة والنار التي يكذبون بها ويقولون: ليس هناك جنة ولا نار ولا حساب ولا عذاب.

والعجيب: أن هذا القول الباطل الفاسد نحا إليه من يسمون أنفسهم بالحكماء وهم الفلاسفة إذ يقولون: لا توجد جنة ولا نار ولا بعث، ولكن الرسل قالوا للناس هذا من أجل إقامتهم على الطريق التي اخترعوها لهم ويزعمون - والعياذ بالله - أن الرسل رجال عباقرة عندهم ذكاء

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحسن سيرة وتنظيم، لكنهم لو قالوا للناس: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا بدون ترغيب ولا ترهيب ما أطاعهم الناس، فكانوا يقولون للناس: إن لكم ربًّا عظيمًا وإلهًا قادرًا وإن لكم معادًا يكون فيه الجنة أو النار والأمر ليس كذلك عندهم.

وإنما ذكروا ذلك من أجل إقامة الناس على الطريق التي سنُّوها لهم، وهذا معناه: كفر بالبعث وكفر بالرسالة وحتى بأنفسهم؛ لأن من لم يؤمن بالله عز وجل فقد كفر أول ما كفر بنفسه؛ لأنه أنكر أن يكون له خالقًا.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ المراد بالعذاب هنا العقوبة، وجعل العذاب ظرفًا لهم؛ لأنه محيط بهم من كل جانب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ من الإحضار، أحضرته بمعنى: جعلته يحضر هذا الشيء، فهؤلاء محضرون في العذاب غصبًا عليهم ولو رجع الأمر إلى أنفسهم ما حضروا ولكنهم يُحْضَرون فيه كُرهًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]

قال المؤلف: [﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: سبحوا الله]، المؤلف يقول:[أي سبحوا الله]، وجعل المفعول المطلق هنا بمعنى: فعل الأمر لا على أن عامله محذوف بل جعله نائبًا عن فعلهم أي: سبحوا الله، فتسبيح الله معناه: تنزيه عما لا يليق به، وهذا يتضمن شيئين:

أحدهما: تنزيه الله عن كل نقص في صفات كماله.

والثاني: تنزيه عن مشابهة المخلوقين.

أما الأول: فإننا نرى كثيرًا ما يذكر الله ـ عز وجل ـ أنه لا يتعب، ولا يظلم، ولا يغفل، وما أشبه ذلك؛ لكمال صفاته.

وأما مشابهة المخلوقين: فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقين هو في الحقيقة تنزيه له عن النقص؛ لأن المخلوق ناقص وتشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، بل إن المقارنة تكون بينه وبين من في رتبته، وكما قيل:

ألم تـر أنَّ الـسَّيْفَ يـنقُصُ قَـدْرُهُ ... إذَا قِيْلَ: إنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

يقول المؤلف: [أي: سبِّحوا الله بمعنى: صَلُّوا]، فأفادنا المؤلف أن المراد بتسبيح الله هنا: تسبيح خاص وهو الصلاة، من أين أخذ هذا التخصيص؟

أخذ المؤلف من تقييده بهذه الأوقات، فإن تقييده بهذه الأوقات يدل على أن المراد: الصلاة،

وأُطلق على الصلاة التسبيح؛ لأن التسبيح من واجباتها كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[1] وعلى هذا تكون الصلاة هي المراد بالتسبيح، ويدل على التخصيص تأكيدها بأوقات الصلاة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠].

١ - **يستفاد من هذه الآية:** سوء العاقبة للمسيئين؛ لأن عاقبة هؤلاء الذين أساؤوا السوأى؛ لقوله: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن عاقبة المحسن الحسنى؛ لأن الحكم يدور مع علته فإذا كانت عاقبة المسيء السوء فعاقبة المُحسن الحسنى، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الإساءة هنا هي والتكذيب بآيات الله والاستهزاء بها على تقرير المؤلف، وعلى الرأي الثاني يكون قوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ هي العاقبة.

فيستفاد منها: أن عاقبة المعاصي تكون الكفر التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها.

إذا قلنا: إن قوله: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: عملوا السيئات كان عاقبتهم التكذيب والاستهزاء ويكون معنى ذلك: أن المعاصي سبب في الكفر وهو كذلك، وقد قال أهل العلم: إن المعاصي بَريد الكفر.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الوحي الذي أنزله الله على الرسل من الآيات؛ لقوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وإنما كان من الآيات لما يشتمل عليه من الصدق في الأخبار، والنفع في القصص والعدل في الأحكام والإصلاح، فكل الكتب النازلة كلها متضمنة هذه الأمور: صدق في الخبر، ونفع في القصص، وعدل في الأحكام، ومصلحة للعباد، ولهذا كانت هذه الكتب من آيات الله؛ لأنه لا يمكن للبشر أن يضعوا مثلها.

٤ - من فوائد الآية: الفرق بين التكذيب والاستهزاء، فالتكذيب: رد الخبر، والاستهزاء: السخرية بالأعمال الظاهرة أو الباطنة، والاستهزاء أشد؛ لأنه جامع بين التكذيب والسخرية.

٥ - **ومن فوائد الآية:** التحذير من الأعمال السيئة؛ حيث كانت عاقبتها سواء، قلنا: إن

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣٣٤).

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هو العاقبة، أو أن العاقبة: هي التكذيب فإنه يتضمن التحذير من الأعمال السيئة.

فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم:١١].

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** قدرة الله - سبحانه وتعالى - حيث ابتدأ الخلق.

٢- **ومن فوائدها:** ثبوت حدوث العالم وأنه ليس قديمًا لا أول له، كما زعمت الفلاسفة؛ لأن الله ابتدأه والمبتدأ معناه: أنه كان في الأول عدم.

٣ - **ومن فوائد الآية:** ثبوت البعث؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن البعث ليس ابتداء خلق ولكنه إعادة له، خلافًا لمن قال: إن البعث ابتداء خلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والضمير يعود إلى خلق المبتدأ.

وقد سبق لنا تعليقًا على هذه الآية: أنه لو كانت الإعادة ابتداء خلق جديد لكان يعذب من لم يعمل وينعم من لم يعمل، لكن البعث إعادة لما سبق لنفس الأعيان، التي تفككت وذهبت ونفس التراب، فهذا الجسم هو نفس الأول يجمع الله تعالى ما تفرق منه ثم يحييه.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الاستدلال بالمبدأ على المعاد تؤخذ من قوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الاستدلال بالمبدأ على المعاد استدلالًا حقيقيًا ومنطقيًا ومعقولًا فأيهما أصعب وأشد إذنْ؟ بالطبع الأول؛ فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:٢٧]، فالكل هين لكن هذا أهون؛ لأن هذا إعادة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن مرجع الخلائق إلى الله - عز وجل - في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فيرجعون إلى الله ليحكم بينهم بالجزاء، وأما في الدنيا فيرجعون إلى الله ليحكم بينهم بالعمل، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] فهو خير ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:٥٩].

فالمهم: أن المرجع إلى الله دنيا وأخرى، فنحن نرجع إلى الله في أمور دنيانا وفي أمور ديننا، وكذلك في أمر الآخرة نرجع إلى الله ويجازينا بما نستحق فالآخرة تدخل فيها بالأولوية، ولكن لا مانع أن تحمل الآية على العموم.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه لا يجوز التحاكم إلى غير الله، ووجه ذلك الحصر في قوله: ﴿إليه﴾ يعني: لا إلى غيره.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم:١٢-١٣].

١ - **يستفاد من هذه الآية:** قيام الساعة وأنه كائن لا محالة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن أهل الشرك إذا قامت القيامة سكتوا وأيسوا من الرحمة؛ لقوله: ﴿يُبۡلِسُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بخلافهم في الدنيا فإنهم في الدنيا يعاندون ويستعلون بآلهتهم، كما قال أبو سفيان: (اعْلُ هُبَل)، لكن في الآخرة لا حراك لهم ولا قول.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هذه المعبودات لا تنفع أصحابها في أحوج ما يكونون إليها، وجه ذلك من الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾، وهذا هو محل الشفاعة، لكنهم لا يستفيدون من هذه الأصنام؛ بل أكثر من هذا أنهم يكفرون بها؛ لقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ كما أن الأصنام تكفر بهم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] فيتبرأ كلٌّ من الآخر مع أن ذلك هو محل الأزمة والفرَج.

٤ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أن هؤلاء المشركين إنما أشركوا بطلب أن يكون هؤلاء المشْرَك بهم شفعاء، وهذا ما صرَّح الله به في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فإذا قال هؤلاء الذين يعبدون القبور: نحن لا نعبدهم؛ لأننا نرجوا منهم نفعًا مباشرًا، ولكن نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله.

قلنا: هذا شرك الأولين، وهذا ما حكى الله عن المشركين أنهم لا يريدون النفع المباشر لكنهم يريدون أن تكون شفيعة لهم عند الله - عز وجل -.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

١ - **يستفاد من الآية:** إثبات القيامة.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه في ذلك اليوم يتفرق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الآباء والأمهات مع أولادهم إذا كان أحدهم مؤمنًا، والثاني كافر يتفرقون ولا يمكن أن ينقذ أحدٌ أحدًا في ذلك اليوم؛ لعموم قوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يستثنِ الأولاد مع والديهم أو بالعكس، ففي ذلك اليوم لا يوجد اجتماع إلا إذا كانوا على الحق.

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الجزاء، أولًا: لقوله: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾، وثانيًا: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ حيث كان جزاؤه ما ذكر، والتحذير من الكفر؛ حيث كان جزاؤه ما ذكر أيضًا.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الإيمان والعمل يختلفان إذا اجتمعا ويتفقان إذا افترقا، فعلى هذا يكون كل منهم بمعنى الآخر عند الافتراق ويختلف كل منهما عن الآخر عند الاجتماع.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا؛ لقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ وحيث فسرنا الصالح بأنه: ما اجتمع فيه الإخلاص والمتابعة، يستفاد منه: أن العمل الذي فيه شرك لا ينفع صاحبه، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] فالشرك من خصائصه ولو كان أصغر لا يغفر إلا بالتوبة.

مسألة: ماذا لو طرأ الرياء أثناء العبادة؟

الجواب: إذا طرأ الرياء في أثناء العبادة فإن العبد إن كافحه ودافعه ما ضرَّه، وإن استرسل معه واطمأن إليه فإنه يضره، ثم هل يكون مُبطِلًا للعبادة أم غير مُبطِل؟

إذا كانت العبادة تتجزأ كما لو أراد أن يتصدق بصاعين وأخرج صاعًا بدون رياء ثم أخرج الثاني برياء، فإن البطلان يختص بما حصل فيه الرياء فقط؛ لأن الأول صار صحيحًا وإن كان بالعكس لا تتجزأ كما في الصلاة، فإن من أهل العلم من يرى بأنها تبطل الصلاة؛ لأنه طرأ عليه الرياء وهي لا تتجزأ فلا يمكن أن يصلح أولها دون آخرها.

ومنهم من يقول: لا تبطل؛ لأن أصل هذا العمل خالص لله فلا يبطله الرياء.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الجنة روضة؛ لقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ويروى أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال للنبي ﷺ ليلة أُعرج به: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»(٢).

٩ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذه الجنة مملوءة بالسرور؛ لقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأن الحبور هو التنعم والسرور الذي لا شيء فوقه.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

١ ـ **ومن فوائدها:** أن الكفر أعم من التكذيب؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، قال تعالى: ﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾؛ لأن الكفر ينقسم إلى قسمين: إما جحد وإما استكبار، فلهذا كان أعم من التكذيب.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الكتب المنزلة من آيات الله، وسبق لنا قبل قليل وجه كونها من آيات الله؛ لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٦٠) دون قوله: «سبحان الله ....».

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات البعث وأن مُنكِره كافر؛ لقوله: ﴿وَلِقَآيِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ولقاء الآخرة - هذا اللقاء العظيم - الذي تتلاقى فيه كل المخلوقات ويلاقون الله - سبحانه وتعالى -.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن هؤلاء المكذبين الكافرين يحضرون للعذاب قسرًا وقهرًا؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يعني: يدفعون بعنف وشدة - والعياذ بالله - قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٣-١٤] ومعلوم أنهم لو رجع الأمر لاختيارهم لا يدخلونها، لكنهم يُدفعون فيها بعنف وشدة حتى يدخلوها.



قال الله تعالى:

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:١٨-٢١]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾: جملة مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر مقدم؛ لإفادة الحصر فله وحده الحمد، وحمد الله يختص بأنه حمد يستحقه المحمود، ولهذا نقول: إن اللام هنا للاستحقاق والاختصار، و(أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هذه للعموم يعني: جميع المحامد لله - سبحانه وتعالى - في السماوات والأرض وهو - سبحانه وتعالى - محمود على كل حال، وكان النبي ﷺ إذا أصاب ما يسره قال: «الحَمْدُ لله الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»[1]، وإذا كان الأمر على خلاف ذلك قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وأما مَا يقوله العامة: (الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه) هذا وإن كان حقًّا لكنه لا ينبغي التعبير بهذا الشيء؛ لأنه فيه شيء من العَتْب على الله - عز وجل - في قولهم: (على مكروه سواه) وإنما يقال كما قال النبي ﷺ: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥).

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول المؤلف: [أي: يحمده أهلهما]، وهذا لا شك أنه داخل في الآية أن ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يعني: أنه يُحمد، ولكن ينبغي أن يقال بما هو أعم، أي أن ما خلقه في السماوات والأرض فإنه مستحق الحمد عليه سواء حمد أم لم يحمد، فكل ما في السماوات والأرض، فإنه شيء يحمد الله عليه، أما في أمور الخير فظاهر، وأما في أمور الشر فيظهر ذلك أن الشيء بالنسبة لفعل الله ليس بِشَر بل قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» فلا يُنسَب إليه الشر.

مثال ذلك: الجدب والمرض والفقر والجهل والخسوفات في الأرض هذه كلها للإنسان شر، لكنها بالنسبة لقضاء الله خير؛ لأن الله ما قضاها إلا لحكمة وحينئذٍ يكون محمودًا عليها، والشر في المقضي لا في القضاء، ولهذا في حديث الحسن بن علي قال: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»[1] شر الذي قضيت فأضاف الشر للمقضي لا إلى القضاء.

ثم اعلم أيضًا: أن المقضي ليس شرًّا محضًا؛ بل هو شر من وجه، وخير من وجه آخر، أو شر في محل، وخير في محل آخر، فمثلًا: الفساد في البر والبحر شر لكنه خير من جهة عاقبته؛ لأن الله قال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إذنْ: هذا خير، كذلك أيضًا قد يكون شرًّا في مكان لكنه خير في مكان آخر، فإهلاك الأمم السابقة بذنوبهم شر بالنسبة لهم؛ حيث هلكوا فما رجعوا ولا استفادوا، لكن بالنسبة لغيرهم ممن يعتبر بحالهم خير فيكون هذا شرًّا في محله خيرًا في محل آخر.

المهم: أن قضاء الله نفسه ليس فيه شر أبدًا بل هو خير، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في جميع الأحوال، إذنْ المقضي يكون فيه الشر، ومع إثباتنا أن الشر في المفعولات لا في الفعل نقول أيضًا: إن هذا الشر في المفعولات ليس شرًّا محضًا لا خير فيه أبدًا؛ بل قد يكون شرًّا من وجه، وخيرًا من وجه في نفس المحل كقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقد يكون شرًّا في محله، خيرًا في محل آخر، مثل إهلاك الأمم السابقة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما محل نفوذ فعله، فإن الذي في السماوات والأرض من الملائكة والبشر والجن وغيرهم كلها تحمد الله وكلها محل حمده.

فإذا قال قائل: هل الكافر يحمد الله؟

الجواب: بلسان المقال لا، ولكن بلسان الحال؛ بمعنى: أن حاله تستوجب لمن تأملها أن يحمد

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وأبو داود (١٤٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الله، هذا معنى قوله: إنه يحمد بلسان الحال، يعني: حاله من تأملها عرف بها ما يستحقه الله من الحمد والتنزيه.

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني: وسبحوا الله عشيًّا، والعشي من الزوال إلى غروب الشمس، وفي حديث أبي هريرة في المسيء في صلاته قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله إِحْدَى صَلَاةِ العَشِيِّ»(١).

قال المؤلف: [﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على ﴿حِينَ﴾، وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وفيه صلاة الظهر].

وقوله تعالى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾؛ لأنه سبق لنا أن القاعدة في المعطوفات: أن يكون العطف على أول واحد؛ لأنه هو المحل الذي وقع عليه عمل العامل فيكون العطف على الأول.

هذه الأوقات الخمسة هي أبسط ما ذكره الله تعالى في القرآن من أوقات الصلوات وذكرها مجملة في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] في هذه الآية: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ يعني: وقت دلوك الشمس؛ لأن اللام للتوقيت مثل قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] أي: وقت استقبال عدتهن، فدلوك الشمس لزواله، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ أي: شدة ظلمته، وذلك عند انتصافه؛ لأن أشد ما يكون الليل ظلمة إذا انتصف؛ لأن نصف الليل أبعد ما تكون الشمس عن سطح الأرض.

أما قوله:﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ فيدخل في هذا من زوال الشمس إلى منتصف الليل أربع صلوات: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ ففصَّله، والمراد به: صلاة الصبح وفصله عما قبله ليدل على أن وقت العشاء ينتهي بنصف الليل وهذا هو الذي دلت عليه السنة أيضًا، ومن قال: إنه ينتهي بطلوع الفجر فلا دليل له وهذه المسألة ينبني عليها إذا أظهرت المرأة في النصف الثاني من الليل هل يلزمها صلاة العشاء على قول من يقول: إن وقت العشاء إلى طلوع الفجر؟ نعم، يلزمها العشاء وكذلك المغرب أيضًا، وعلى القول الراجح لا تلزمها صلاة العشاء؛ لأن صلاة العشاء إلى نصف الليل.

ثم قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩]

قال المؤلف: [﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾] إلى آخره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

النطفة باعتبار ما يظهر لنا ميت وكذلك البيضة، لكنها في الواقع ما هي ميتة- أي: النطفة - ، فقد قال النبي ﷺ حين سُئل عن العَزْل قال: «هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ»[1] فجعله وأدًا ، والوأْدُ لا يكون إلا لحيٍّ، فالحيوانات المنوية حية لكنها لا تُرى.

وهذه النطفة البسيطة التي ليست بشيء يقولون: إن فيها خمسة ملايين، أو أكثر من الحيوانات المنوية.

إذنْ نقول: إنه باعتبار ما يُرى ويَظهر هي ميتة ، لكن باعتبار الحقيقة ليست كذلك.

وقوله: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ المقصود هنا المراد الحياة الحسية والمعنوية، فإن الكافر ميت معنىً قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٢]. يعني: هؤلاء الكفار بمنزلة الأموات، والمؤمن حي ولاسيًما العابد، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وسمى الله القرآن رُوحًا فدل هذا على أن من عمل به فهو حي.

فالآية أعم مما قاله المؤلف، وإن كان سياقها يقتضي أن المراد بها بالأَولى: الحياة الحسية.

قال المؤلف: [﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يُبسها]

وقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بما أنزل الله عليها من المطر، ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله ـ عز وجل ـ فهذه الأرض الهامدة اليابسة التي ما فيها قدرة ينزل الله عليها الماء الأرض مخضرة بأمر الله ـ عز وجل ـ، فلو اجتمع الخلائق كلهم على أن يفعلوا ذلك ما استطاعوا ولا أن يخرجوا أدنى حشيشة من هذه الحشائش، ولكن الله تعالى بقدرته يفعل ذلك.

قال: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور]، وكذلك الكاف حرف جر. يعني: ومثل هذا الإخراج تخرجون ويجوز أن تكون: وكهذا الإخراج تخرجون، ولا تكون مفعولًا مطلقًا؛ فعلى الأول: تكون مفعولًا مطلقًا، وعلى الثاني: تكون الكاف حرف جر واسم الإشارة مبني على السكون في محل جر، أي: وكهذا الإخراج تخرجون.

وقوله: [﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور] ظاهر الآية أن الخروج من القبور يشبه خروج النبات من الأرض، وخروج النبات من الأرض يكون بنزول المطر عليها فيكون في هذه الآية إشارة إلى ما ورد في الحديث: من أن الله تعالى يُمطِر على القبور مطرًا غليظًا كمنيِّ الرجال أربعين يومًا تنبت منه الأجساد في القبور، ثم بعد ذلك تخرج إذا نفخ في الصور وهنا وردت به أحاديث في إسنادها مقال، لكن مجموعها يقضي بأنها أحاديث حسنة وظاهر القرآن أيضًا يشير إليها.

وقوله: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ البناء للفاعل والمفعول، البناء للفاعل مثل: (تَخْرُجون) وللمفعول

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤٢)، والترمذي (٢٠٧٦)، والنسائي (٣٣٢٦) .

﴿تُخۡرَجُونَ﴾ ففيها قراءتان سبعيَّتان؛ لأنَّ من عادة المُؤلِّف رحمه الله أنه إذا أتى بقراءةٍ شاذة أن يقول: [وقُرِئ].

قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

قال: [﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تعالى الدالة على قدرته].

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ﴿وَمِنۡ﴾ حرف جر، ومعناها: التبعيض، يعني: بعض آياته، والآيات جمع آية، وهي: العلامة البيِّنة الواضحة، ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يقول المؤلف: [الدالة على قدرته].

وقوله: ﴿أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ (أنْ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر يعني: خَلْقُكم، ﴿مِّن﴾ هذه لابتداء الغاية، والمعنى: أن ابتداء الخلق من التراب أي: أصلكم آدم، وأما سلسلة آدم فخلقت من نطفة.

قال: [﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ﴾ من دم ولحم ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض]، كنتم تراب والتراب لا يتحرك من مكانه ولا ينتشر وليس فيه حركة ثم بعد ذلك: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾ قد يقول قائل: إن في هذا ما ظاهره التنافر؛ لأن ﴿إِذَآ﴾ فجائية و﴿ثُمَّ﴾ للمهلة والمفاجئة والمهلة متناقضان؛ إذ إن المفاجئة تدل على المبادرة.

فيجاب عن ذلك: بأن المفاجئة بعد المهلة؛ لأنه ليس في الحال يكون التراب بشرًا وإنما تطور لمدة حتى وصل إلى البشرية، هذا إذا قلنا: إن المراد بالبشر: خصوص آدم، أما إذا قلنا: المراد به: ذريته فالمهلة ظاهرة؛ لأن هذا يشمل الذرية إلى قيام الساعة، لكن المفاجئة في قوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ﴾ المراد به آدم، فإن آدم بشر وذريته انتشرت في الأرض.

وقوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ﴾ هذه الجملة مبتدأ وخبر و﴿تَنتَشِرُونَ﴾ صفة لبشر، وإذا جعلناها صفة لبشر صار فيها إشكال من جهة أن بشر مفرد، و ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ جمع، لكن المفرد المراد به الجنس يكون للجمع.

وقوله: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في أي مكان في الأرض، فالبشر منتشر في جميع أقطار الدنيا ـ وسبحان الله العظيم ـ الإنسان حيثما يرجع إلى ما سبق يقول ما الذي أوصل أهل أمريكا إلى أمريكا، وإلى البلاد الأخرى مع هذه المحيطات العظيمة؛ لأن آدم لا شك كان في إحدى القارات فما الذي أوصل بنيه إلى القارات الأخرى؟

نقول: الله أعلم، قد يكون الله يسر لهم في ذلك الوقت من الأسباب ما لا نعرفه حتى الآن حتى وصلوا إلى هذه البلاد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [فخلقت حواء من ضلع آدم، وسائر

الناس من نطف الرجال والنساء].

المعنى: أن المؤلف يريد بقوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾، ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ذواتكم - على رأي المؤلف -، فالمراد بالنفس هنا: الذات.

وقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ اللام للاختصاص وليست للملْك؛ لأن الإنسان لا يملك زوجته، ويحتمل أن تكون للتعليل أي: خلق لأجلكم، لكن المعنى أبلغ في الإنعام؛ حيث إن كل إنسان زوجته تختص به، ولهذا لا يجوز للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل في آن واحد.

والمؤلف سار على أن المراد بالنفس: الذات، وأن ﴿مِّنْ ﴾ للتبعيض.

يعني: أن نفس هذه الزوجة من نفس الإنسان جزء منه، ولهذا فسره بخلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء، هذا ما قرره المؤلف أن المراد بالنفس: الذات، ويحتمل أن المراد بالنفس الجنس كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة:١٢٨] يعني: من جنسكم، ويؤيد هذا المعنى قول: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾، فإن الإنسان يسكن إلى بني جنسه دون غيره؛ لأنه لو كانت المرأة تخالف الرجل وليست من جنسه لكان في ذلك مشكلة، ولا يمكنه أن يسكن إليها، لهذا جعلها الله من جنسه لأجل أن يسكن إليها، واللام في قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوا ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن تسكنوا وهي معللة لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

وقوله﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ قال المؤلف: [وتألفوها] والسكون معناه: الاستقرار ومنه السكنى في البلد لاستقراره فيها، فالمعنى: تستقروا وتطمئنوا لها وتألفوها كما قال المؤلف.

وقوله: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ جميعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في صنع الله تعالى].

وقوله: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ جميعًا] يعني: بين الزوج وزوجته أم الناس جميعًا؟نقول: بين الزوج وزوجته هو الظاهر، ولكن كلام المؤلف يقتضي العموم، ولكن ظاهر السياق يختص بالمرأة وزوجها، فإن هذه المرأة الأجنبية التي لا تعرفها ولا تعرفك من قبل إذا تم العقد بينكما ألقى الله تعالى في قلوبكما المودة والرحمة.

قيل: إن المودة في قلب المرأة، والرحمة في قلب الرجل؛ لأنه هو الذي له السلطان عليها وهي التي تميل إليه فتكون المودة منها والرحمة منه، فيكون الوصفان موزعين على الزوج والزوجة، وقيل: إن الوصفين لكل من الزوجين يعني: أن المودة تكون بين الزوج وزوجته، وكذلك الرحمة تكون بين الزوج وزوجته، وهذا هو الأقرب وهو الذي يؤيده الواقع أيضًا، فإن المرأة إذا ودَّت زوجها يكون فيها رحمة، ولولا أن الأم أرحم النساء لقلنا: إنها مثل رحمة الأم، ولهذا تجدها تُلاحِظه إذا مرض وتحزن إذا حزن وتسر إذا سر وإذا كانت الحال بينهما جيدة يمكن أن تبيع كل ما تملك من أجل راحته وإسعاده هذه لا شك أنها رحمة، وأما المودة فظاهرة، ولولا قوة المودة بين

الزوجين ما حصل الاتصال بينهما الذي أراده الله، لكن تكمل هذه الخليقة وتنمو، ومن أجل هذا جعل الله المودة والرحمة.

ذكر ابن الجوزي في: «**صيد الخاطر**» قال: لو لا أن الله بحكمته قضى أن تبقى هذه الخليقة لكان الاتصال بين الزوج وزوجته من أقبح الأمور أن كل واحد منهما يكشف عورته للآخر ثم يحصل هذا الشيء الذي قد يكون مستكره في أذواق بعض الناس، لكن جعل الله هذه المودة بينهما؛ لأجل أن تستقيم الأمور وتنمو الخليقة.

وهذا صحيح وهذا حق فلولا أن الله جعل هذا الأمر – أي: المودة – ما حصل الاتصال بين الزوجين، ولهذا كلما كان الزوج أو الزوجة بعضهم لبعض كارهًا قل الاتصال بينهما.

وقوله: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذلك المذكور].

اللام في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ للتوكيد وآيات جمع آية.

وتأمل قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ قد نقول ما هذا التنافر؛ حيث قال في الأول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ولكننا نقول: لا تنافر في الواقع؛ لأن قوله: ﴿ وَمِنْ﴾ للتبعيض، وبعض الآيات قد يكون آية واحدة وقد يكون أكثر من آية، ثم قال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هذه أربع آيات فيكون في أصل الخلق آية واحدة، لكن في أوصاف هذا الخلق المتطور آيات.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أعلمهم بما فيه مصلحتهم.

٢- **ومن فوائدها:** أن الصلاة تسبيح وتنزيه لله؛ لأن الله أطلق عليها اسم التسبيح.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب التسبيح في الصلاة؛ لأننا سبق لنا قاعدة: أنه إذا أطلق على العبادة جزء منها دل ذلك على أن هذا الجزء من واجباته، وأنه لابد منه فيها.

٤- **ومن فوائد الآية:** بيان الأوقات الخمسة مفصلة، وذلك في قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن المساء يطلق على أول الليل، فإن قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يدخل فيه: المغرب والعشاء، وقد يؤخذ من هذا: جواز الرمي ليلًا ـ أي: رمي الجمرات ـ؛ لأن رجلًا قال: يا رسول الله ! رميت بعدما أمسيت، فقال: «لَا حَرَجَ» فإذا كان المساء يطلق على أول الليل، وأطلق النبي ﷺ نفي الحرج، علم أنه جائز.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل في توزيع الصلوات على هذه الأوقات، ووجه الحكمة أمران:

الأمر الأول: أنها لو جُمعت في وقت واحد لخلتْ بقية الأوقات عن الاتصال بالله عز وجل، يعني: لو جعل الإنسان يصلي في وقت الفجر كل الصلوات الخمس جميعًا، معناه بقي في النهار والليل ما يكون له صلوات مفروضة.

والوجه الثاني: أنه لو جُعلت هذه في وقت واحد، لكان في ذلك نوع من المشقة، فإن يصلي سبعة عشر ركعة في آنٍ واحد، هذا فيه مشقة على الأقوياء والأصحاء فكيف على الضعفاء والمرضى!!

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾:

١- **ومن فوائد الآية**: كمال الله عز وجل، لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ **ومنها**: أنه وحده المستحق لأن يُحمد على وجه الإطلاق، وهذا نأخذه من تقديم الخبر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن كل ما يحدث في السماوات والأرض من خيرٍ أو شرٍّ فإن الله تعالى يستحق عليه الحمد، يؤخذ من الإطلاق في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، ولم يقل على الخير، أو على ما ينفع، بل أطلق، فيستفاد منه أن الله تعالى محمود على كل حال.

فوائد قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾:

١- **في هذه الآية**: بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يُخرج الحي من الميت وبالعكس، وهذا من تمام القدرة أن يُخرِجَ الشيء من ضده.

٢- **ومن فوائدها أيضًا**: قدرته على إحياء الأرض من بعد موتها؛ لقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٣- **ومن فوائدها**: ثبوت قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، والأفعال الاختيارية هي التي يفعلها بمشيئته، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، من قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ ومن قوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأن البعدية تقتضي حدوث هذا الشيء، وقيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، هو الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، فما من أحد منهم أنكر ذلك؛ حيث ويثبتون الاستواء على العرش فعلًا لله، والنزول إلى السماء الدنيا فعلًا لله، والمجيء للفصل بين العباد فعلًا لله، والعجب فعلًا لله، والضحك فعلًا لله، والخلق فعلًا لله، ويقولون: إن الله تعالى يفعل ما يشاء كيف شاء متى شاء.

ولكن أهل البدع من المعتزلة والأشعرية وغيرهم ينكرون قيام الأفعال الاختيارية بالله، ويقولون: لو قامت به الحوادث لكان حادثًا، والله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال، فنقول لهم: هذا قول باطل.

أولًا: لأنه قياس في مقابلة النص؛ لأن النصوص متكاثرة في إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، التي تتعلق بمشيئته.

وثانيًا: قولكم: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث ليس بصحيح؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بكامل قادر على ما يشاء، أما كونها لا تقوم إلا بحادث فما هو العقل الذي يوجب هذا؟!

٤- **ومن فوائد الآية:** قياس الغائب على الشاهد؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فإن قياس الغائب على الشاهد، ليحمل على الإقرار به طريقة متبعة.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات القياس، يؤخذ من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وإثبات القياس له أدلة كثيرة في القرآن، منها على سبيل التعميم و منها علة سبيل الحد، فكل مثل ضربه الله تعالى في القرآن فهو دال على ثبوت القياس،مثل ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٤] كذا وكذا، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، وما أشبه ذلك، فإن الأمثال ضربها تشبيه حال بحال أو فرد بفرد، فتكون دالة على ثبوت القياس، وكذلك القصص التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، وفي السنة أيضًا كثير من ذلك، مثل: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر.... الحديث، ومثل قوله: «أَرَأَيْتِ لَو كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ؛ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟»[1] وكذلك العقل يقتضي ثبوت القياس فإن العقل السليم الصريح لا يمكن أن يفرق بين مُتماثِلَيْن أبدًا ودائمًا حتى الصبي إذا منعته من شيء وأبحت له نظيره، قال: لك كيف هذا مثل هذا؟ فالمهم: هذا مما تشهد العقول والفطر والنصوص بثبوته، أما عن القياس الباطل الذي يتوسع فيه بعض الناس حتى يعطلوا دلالة الكتاب والسنة هذا لا شك أنه باطل، أما القياس الصحيح فإنه لا ريب في ثبوته، والذين أنكروا القياس، هم في الحقيقة مضطربون؛ لأنهم أحيانًا يقولون بالقياس من حيث لا يشعرون، ولا يمكنهم إلا أن يقيسوا؛ لأننا لو أردنا أن نحصر دلالة الكتاب والسنة على الأحكام على سبيل العموم والقواعد والضوابط لوجدناها وافية، لكن من حيث الأفراد والجزئيات لا منتهى لهم ولا حصر لهم، إذنْ لابد أن يضطروا إلى إثبات ذلك.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآيات لله عز وجل، أي: العلامات الدالة على ما تدل عليه من صفاته؛ لأن كل فعل يدل على نوع من الآيات، لكن هي على سبيل العموم تدل على القدرة، فجميع الأفعال تدل على القدرة والحكمة، لكن لكل نوع منها آية خاصة بالحكمة، والقدرة، والعزة، وما أشبه ذلك.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن أصل بني آدم من تراب؛ لقوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣١٥)، والنسائي (٢٦٣٣).

٣- ومن فوائدها: إبطال النظرية الملحدة، وهي نظرية النشوء والتطور التي كان قائدها (دارون)، وهذه نظرية خاطئة وباطلة بلا شك، وجه ذلك من الآية: أن الله يقول: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فيخاطب البشر باعتبارهم بشرًا، إذن هم بشر أُنشئ من التراب إلى اليوم، أما أولئك فيقولون: إن أصل الإنسان ليس بشرًا، إنما أصل الإنسان قرد، ثم تطور حتى صار بشرًا، فلا أدري ماذا يقولون في أصل الحمير، والبغال، والخيل، والدجاج...إلخ ، ثم ما هو التطور الآخر، هل نحن نكون ملائكة؟

على كل حال: هذه نظرية ـ والحمد لله ـ حتى فلاسفة الغرب الآن أبطلوها، وتبين لهم أنها نظرية باطلة خاطئة، ثم نحن نعلم علم اليقين أنها باطلة، وأن اعتقادها كفر؛ لأنها تكذيب للقرآن والسنة وإجماع المسلمين، فالإنسان خلق من تراب كما قال الله عز وجل، تراب جعله الله طينًا، ثم فخارًا حتى كان صلصالًا، له صلصلة إذا ضربت عليه كالفخار كما قال الله عز وجل، ثم تكوَّن إنسانًا، فالله على كل شيء قدير.

٤- ومن فوائد الآية: أن هذا البشر الذي خلق من أصل واحد انتشر وملأ الأرض؛ لقوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وهذا من آيات الله، فهذا رجل واحد، وانتشرت منه هذه الخليقة في جميع أقطار الأرض.

٥- ومن فوائد الآية أيضًا: أن الإنسان متحرك بالطبع، فلابد أن يتحرك وينتشر ويذهب ويجيء، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَّام**»[1]؛ لأن الإنسان دائمًا يحرث ويطلب رزقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ اعلموا أنني راجعت كثيرًا من التفاسير التي عندي فما وجدت الحكمة في أنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ يعني: ما رأيت أحدًا بيَّن الحكمة في كونه يأتي مرة بالمصدر، ومرة بأن الداخلة على الفعل التي تؤول بمصدر، لكن هل نقول: إن هذا من باب الاختلاف في التعبير المراعى به جانب اللفظ، أو أنه من باب التعبير المراعى به جانب المعنى؟

إن قلنا: إنه من باب التعبير المراعى به جانب اللفظ فالأمر بسيط، نقول إن الله تعالى غاير بين العبارات؛ لأجل أن لا يمل السامع إذا كان الكلام على وتيرة واحدة؛ لأن الاختلاف في التعبير هذا مما يزيد الإنسان نشاطًا وتجددًا.

أما إذا قلنا: إن هناك أمرًا معنويًّا، فأنا إلى الآن ما عرفته، ولا ذكره الزمخشري، ولا أبو السعود،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) بلفظ: «أصدقها حارث وهمام»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولا هؤلاء الذين يتكلمون على مثل هذه الأمور.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية:** رحمة الله تبارك وتعالى بنا؛ حيث جعل أزواجنا من أنفسنا، أي: من جنسنا.

٢- **ومنها:** أن من أهم أغراض النكاح ومقاصده: السكون إلى الزوجة، والاطمئنان إليها، والحياة معها حياة سعيدة، وأنه ينبغي للإنسان إذا رأى عدم السكون، ولم تلتئم الحال أن يفارق، ولهذا قال أهل العلم: إن الطلاق يستحب لتضرر المرأة بالبقاء مع الزوج، فكونها تتضرر، ولا تستأنس مع الزوج، فما ينبغي أن يكرهها على أن تبقى معه، فإن بعض الناس والعياذ بالله يكرهونهن على البقاء، أو يعضلونهن من أجل أن يفتدينه، لأجل يفتدينه يسلمن قروشًا لكي يطلقها، كل هذا حرام، والذي ينبغي إذا رأيت من الزوجة أنها لا تستطيع أن تعيش معك عيشة سعيدة، ينبغي لك أن تطلقها، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ**»[1]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**وَاللهُ فِي عَونِ العَبْدِ، مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَونِ أَخِيْهِ**»[2] وفي القرآن: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فأنت إذا نويت الخير في التوسعة على هذه المرأة التي عاشت معك وفارقتها، فلعل الله تعالى أن ييسر لك الأمر بحصول زوجة تألفها وتألفك، المهم: أن من أهم أغراض النكاح السكون والطمأنينة إلى الزوجة، والحياة حياة سعيدة.

٣- **ومن فوائد الآية:** إثبات حكمة الله وقدرته، ورحمته أيضًا، حيث جعل بين الزوجين مودة ورحمة.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** الثناء على التفكير؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإن هذا واضح أنه محل ثناء لهم.

٥- **ومن فوائدها:** أن التفكير تنفتح به أبواب كثيرة، يعرف الإنسان بها من أحكام الله وحِكَمِه ما لا يحصل له لو لم يفكر؛ لأنه خص الآيات بالقوم الذين يتفكرون، فدل هذا على أنه يحصل بالتفكر من الاطلاع على أحكام الله وحِكَمِه، ما لا يحصل بالغفلة، إذن التفكر يكون في آيات الله، أي: مخلوقاته ومشروعاته؛ لأن الآيات كما سبق إما كونية وإما شرعية.

مسألة: هل يحصل التفكر في صفات الله؟ ومن أي وجه، من وجه المعنى أو من وجه الكيفية؟

الجواب: نعم، من وجه المعنى، أما من وجه الكيفية فلا يجوز التفكر، فلا يجوز التفكر في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٤٢٥).

الصفات من حيث الكيفية؛ لأن تلك محاولة لما لم يمكن الحصول عليه، ولهذا قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: السؤال عنه بدعة، فلا يجوز أن نتفكر في كيفية صفة من صفات الله، بل نتفكر في المعنى دون الصفة، والتفكر في ذات الله عز وجل مثله لا يجوز؛ لأنه محاولة لما لا يمكن الوصول إليه، ثم التفكير في هذه الأمور يجر إلى بلايا، ومهالك، والذي ضر من ضر من أهل التعطيل وأهل التشبيه أيضًا، الذي ضرهم هو محاولة الوصول إلى الكيفية، فلهذا آل بهم الأمر إلى التعطيل، أو التمثيل.

المهم: أن التفكر يكون في مخلوقات الله وفي مشروعاته، وفي معاني أسمائه وصفاته، أما في ذاته وكيفية صفاته، فإنه لا تفكر؛ وذلك لأنه مهما بلغ الإنسان فإن الفكر سيرجع خاسئًا وهو حسير، والإعراض عن هذا هو الواجب، كما قال الإمام مالك.

مسألة: بالنسبة لمذهب المبتدعة في رد الصفات، هل هو مبني على مقدمات عقلية متفق عليها بينهم، أم كل واحد بعقله يُعلِّل؟

الجواب: لا، كل واحد يُعلِّل، يعني: يختلفون في تعليل هذا الرد،ولكن غالب ما يدورون عليه هو التمثيل ولكنهم يختلفون في الطرق الموصلة إليه.



❁ قال الله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[الروم:٢٢،٢٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ خبر مقدم و﴿خَلْقُ﴾ مبتدأ مؤخر.

وقوله: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: إيجادهما بتقدير ونظام بديع، وهذا يشمل خلق هذه السماوات باعتبارها أجرامًا عظيمة، وباعتبارها مصلحةً للعباد، فهذا من آيات الله.

وقال: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ اختلاف الألسنة أيضًا من آيات الله، ووجه ذلك أن هذه الألسن من نوع واحد، أو من جنس واحد، فكلنا بشر، وكلنا من أب واحد ومع ذلك تختلف الألسن اختلافًا عظيمًا، كذلك أيضًا هو من آيات الله؛ لأن كل إنسان يعرف به جنسه بلغته، فأنا أعرف مثلًا هذا هندي، وهذا تركي، وهذا إنجليزي مثلًا، وهذا ألماني، وهذا روسي، بسبب لغتهم، فهذا أيضًا من آيات الله، أن الله جعلها دليلًا على جنس الإنسان.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشمل أصل اللغة، ويشمل اللهجات، ويشمل السلامة

من العيوب، ويشمل العيوب أيضًا، ويشمل الفصاحة، ويشمل العِيّ، يعني: لا تظنوا أن اختلاف الألسنة فقط في جنس اللغة، لا بل بكل هذا، فأجناس اللغات من آيات الله عز وجل، وكون هذا الإنسان ينطق بالحروف نطقًا تامًّا، هذا من آيات الله، والثاني بالعكس، ينطق بها على وجه اللثغة، أو يتثاقل، أو ما أشبه ذلك، كذلك أيضًا قد نقول: إن من اختلاف اللسان الصوت، فاختلاف الأصوات يكون هذا صوته جيد، وهذا حسن، والآخر بالعكس، كذلك من اختلاف الألسن الفصاحة وعدمها، فإن من الناس من يعطيه الله تعالى بلاغة في نطق الكلام وحسن أدائه، حتى إنه يؤدي إليك المعنى بعبارة واضحة، تفهمها لأول مرة، ومن الناس من يكون بالعكس، فجميع ما يمكن أن يرد على اختلاف اللسان، فإنه داخل في كونه من آيات الله عز وجل.

أما الألوان فحدث ولا حرج، فإنها من آيات الله، لا تكاد تجد اثنين متفقين في اللون أبدًا، حتى لو كانا توأمين، لابد أن يكون هناك اختلاف، لكن منهم من يكون ظاهرًا ومنهم من يكون غير ظاهر، فالرجل الأبيض الأوربي بينه وبين الرجل الأسود الذي على خط الاستواء فرق شاسع، وما بين ذلك درجات متفاوتة، لكن لا تكاد تجد اثنين على لون واحد وهذا من الحكمة؛ لأنه لولا هذا لكان الناس ما يختلف بعضهم على بعض، ويقال: إن الله جعل لكل إنسان أربعين شبيه، ولكن ما أظن هذا يصلح، بل إنهم يقولون: إن البصمات التي في الأنامل تختلف، فكل واحد له بصمات على شكل لا يوافق الآخر، وهذا هو الظاهر، ولهذا الآن يعتبر في التحقيقات البصمات، مما يدل على أنها تختلف قطعًا، وهذا مما يدل على قدرة الله سبحانه وتعالى أي: هذا الاختلاف العظيم، فهناك ملايين الملايين من البشر، ومع ذلك كل إنسان ما يمكن أن يطابق للآخر من كل وجه، لابد أن تكون هناك علامة فارقة.

قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ اختلاف معطوفة على خلق، يعني: ومن آياته أيضًا اختلاف ألسنتكم، قال المؤلف: [أي: لغاتكم من عربية وعجمية وغيرها].

صحيح أن اختلاف الألسنة من آيات الله، بحسب اللغات عربية، وأعجمية وغيرها، فإن أردنا بالعجم: اسم القوم، فإن كلمة: [وغيرها] صحيحة، وإن أردنا بالعجم من سوى العرب فإن قوله: [وغيرها] ليس بصحيح، وهذا هو الأسلم، أنه يقال عرب وعجم ويراد بالعجم ما سوى العرب، فيشمل جميع لغات العالم، ثم إن اختلاف الألسنة أيضًا، قد ينزله على اختلاف اللغة نفسها، واختلاف النطق نفسه فأنت ترى الإنسان ينطق بخروج الهواء منذ دفعه ثم مروره على مخارج الحروف، كلما مر على مخرج تغير؛ فإذا مر على مخرج الصاد صار صادًا، وإذا مر على مخرج الميم صار ميمًا، وإذا مر على مخرج الدال صار دالًا، مع أن الهواء واحد، ثم إنه أيضًا ما يحتاج إلى عملية، هل نحن الآن نجد عملية تُجرى لنقل الباء إلى النون أو إلى القاف أو إلى اللام؟ لا، هو شيء واحد - أي: الهواء - ومع ذلك تجد الحروف تتنوع بمرورها على هذه المخارج، فهذا أيضًا من

آيات الله العظيمة، وهي داخلة في قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

وقوله: [﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ من بياض وسواد وغيرهما]، ثلاثة ألوان: بياض وسواد وغيرهما، ما بين السواد والبياض يعني: أسود خالص وأبيض خالص، وما بينهما هو غيرهما، وهذا أيضًا من آيات الله، ولهذا لا تجد إنسانَيْن يتفقان في كل وجه في اللون أبدًا، لابد أن يكون هناك فرق إما بميله إلى الحمرة، أو إلى السواد، أو إلى البياض، أو يكون مثلًا الجنس ليس على بشرة واحدة، وهذا شيء مُشاهَد.

قال المؤلف: [وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة]، أي: من آدم وحواء، ومع ذلك نختلف هذا الاختلاف العظيم في الألوان.

مسألة: لماذا لم يذكر الله عز وجل الاختلاف في الأجسام ما بين صغير وكبير ومتوسط؟

الجواب: لأن القدرة على خلقهم باختلاف ألوانهم أبلغ من القدرة باختلاف خلقهم على كِبر أجسامهم وصغرها، ولهذا ذكرت الألسنة والألوان.

مسألة: هل يدخل في اختلاف الألسنة اختلاف التعبير والخطابات؟

الجواب: نعم؛ لأن بعض الناس يعبر عن المعنى تعبيرًا يستطيع الإقناع إذا أراد أن يقنع، ويستطيع التنفيذ إذا أراد أن ينفذ، وبعض الناس عنده عيٌّ بحيث ما يقدر أن يعبر حتى عن المعنى الصحيح، حتى إنه إذا عبر عن بعض المعاني التي يريدها ربما لا تقبل منه لضعف تعبيره.

قال الله عز وجل: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دلالات على قدرته تعالى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها، أي ذوي العقول وأولي العلم].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها؛ لأنه يجوز أن تقول: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وأيضًا ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾، والقراءتان سبعيتان؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ذكر الوجهين فهما قراءتان سبعيتان، أما إذا قال: [وقرِئ] فمن الشاذة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أو ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾ يعني: ذوو العلم، و﴿العالَمين﴾ جمع عالَم، يعني: الخلق، وهل نأخذ من اختلاف القراءتين أن المراد بالعالَمين ذوي العلم؟ لا؛ لأن العالَمين أعم من العالِمين؛ لأن العالِمين تختص بذوي العلم، والعالَمين عامة، فهل نقول: إن الآية تدل على أن هذا فيه آيات للعالَمين العالِمين، أو نقول: إن الآيات للعالَمين أي: كلهم العالم وغير العالم، لكن العالم له مزية.

نقول: قد تكون الآية دالة على أن اختلاف الألسن والألوان أمر معلوم بكل أحد، لكن ما وراء ذلك الظاهر وأمر لا يعلمه إلا أهل العلم، ويكون في الآية إشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نتعمق في هذا الأمر، حتى يتبين لنا بعلمنا ما ليس بائنًا لغيرنا، وهذا هو الأحسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال المؤلف: [بإرادته راحة لكم].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيضًا ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، الباء هنا بمعنى: في، فهي للظرفية، وهل تأتي الباء للظرفية؟ نعم تأتي كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:٣٧، ٣٨] أي: وفي الليل، وبالليل الباء هنا ظرفية.

وقوله: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ما ذكر الله وقتًا معينًا من الليل، ولا وقتًا معينًا من النهار؛ لأنه – أي: النوم – في أي ساعة من ليل أو نهار فهو من آيات الله، أما كونك يكره لك أن تنام في هذا الوقت أو لا تنام، فهذا موكول إلى الشرع، وهو من الآيات الشرعية وليس من الآيات الكونية.

وقوله: [بإرادته راحة لكم]، كلمة [راحة لكم] هل هي مفعول لأجله، أو مفعول لإرادة، أي: أنه يريد الراحة لكم؟ إما المعنى: بإرادته أن تستريحوا، أو المعنى: أن نومكم بإرادته راحة لكم، فيفيد أن النوم ليس باختيار الإنسان، أليس كذلك؟ بلى ما هو باختياره، فالإنسان غاية ما يفعله أنه يفعل الأسباب التي يكون بها النوم، أما أن يخرج روحه من جسده حتى ينام، أو يرد روحه إلى جسده حتى يستيقظ، فهذا ليس إليه، بل هو إلى الله، ولهذا أحيانًا يكون الإنسان يريد النوم ويكون على الفراش ويحاول بقدر ما يستطيع أن ينام ثم لا ينام، وأحيانًا يغلبه النوم ولو لم يتهيأ له.

إذن النوم بإرادة الله، وهو ـ أي: النوم ـ وفاة صغرى، فكما أن الوفاة الكبرى إنما تكون بأمر الله وإرادته، فكذلك الوفاة الصغرى.

وقال: [﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ بالنهار ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: تصرفكم في طلب المعيشة بإرادته].

قوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ هذه معطوفة على ﴿مَنَامُكُم﴾، ومعناها: أي طلبكم، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾، و﴿مِّن﴾ هذه لبيان الجنس أي: من عطاءه ورزقه، والمؤلف رحمه الله خص الابتغاء بالنهار والأحسن أن نجعلها مطلقة كما أطلقها الله؛ لأن من الناس من يبتغي من فضل الله بالنهار، ومنهم من يبتغي من فضل الله بالليل، فكونها تبقى على ما هي عليه بدون تقييد هذا هو الأولى؛ لأن التقييد يضيق المعنى، فيجعل الابتغاء في النهار مع أنه يوجد أناس لا يطلبون الرزق إلا في الليل، مثل الحراس، وأصحاب الأمن، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الفضل بمعنى: العطاء، أي: [تصرفكم في طلب المعيشة بإرادته]، والإرادة هنا إرادة الله عز وجل، ولا يريد المؤلف رحمه الله أن يثبت مذهب الجبرية، لا يريد ذلك ولكن يريد أن يبين أن تصرفنا وإن كنا مستقلين به من وجه، فإننا لسنا مستقلين دائمًا، وابتغاء الفضل بإرادة الله، والمنام بإرادة الله، وبينهما فرق؛ لأن المنام ليس لنا فيه اختيار إطلاقًا ولا إرادة، بخلاف الابتغاء من فضله فإن لنا فيه إرادة ولكنها تابعة لإرادة الله، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور، قال

المؤلف: [سماع تدبر واعتبار]، وأتى بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لأنه بدأ بالنوم وبدأ بالليل، والليل وظيفة الإنسان فيه السمع؛ لأنه لا يرى بالليل، ولكن ما المراد بالسمع هنا، هل المراد مطلق السمع؟نقول: لا بل المراد سماع التدبر والاعتبار؛ لأن السمع كما سبق يطلق على سمع الإدراك المجرد، وعلى سمع الإدراك المنتفع به، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] يعني: ما يسمعون سماع تدبر واتعاظ وانقياد.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن ابتداء خلق الإنسان من تراب؛ لقوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية:** إبطال النظرية الخاطئة، وهي نظرية النشوء والتطور، الذي يقول فيها صاحبها: إن الكائنات متطورة وأن الإنسان أصله قرد، ثم بعد ذلك تطور إلى إنسان، وممكن أن يتطور بعد ذلك فيصير ملكًا، وعلى هذا فقس، فهذه النظرية باطلة، وحتى أبطلها علماء الكفار، ونحن نعلم علم اليقين أنها باطلة، بدون أي نظر لأن القرآن يكذبها.

٣- **ومن فوائد الآية:** حكمة الله عز وجل في كون الآدمي بشرًا، أي: بادي البشرة، وما هذه حكمة؛ لأنك إذا علمت أنك مفتقر إلى اللباس الحسي علمت أنك مفتقر إلى اللباس المعنوي، وهو لباس التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن البشر من طبيعتهم الانتشار والذهاب، والمشي، وطلب الرزق، وطلب الصنائع، وطلب الأعمال، وهذا هو الواقع، ولهذا قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية وما بعدها من الآيات أيضًا:** منة الله على عباده بتنبيههم إلى آياته، يعني: أن الله عز وجل مَنَّ على العباد بتنبيههم إلى الآيات، فلم يكِلْهم إلى ما في فطرهم من الاعتراف بالخالق، بل أعانهم على ذلك وأمدهم بالتنبيه على ما في هذا الكون من آيات؛ لأن الإنسان كما قال الله عز وجل بشر يغفل وينسى فيمده الله عز وجل.

فوائد قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** نعمة الله عز وجل على الذكور من بني آدم؛ لكون الأزواج من أنفسنا ـ أي: من الإنس ـ ولو كان الإنسان زوجته من الجن لم يألفها، ولو كانت من البشر لكن لها قرون بهيمة ـ قرون نعج مثلًا ـ أو وصفًا فيما خلق الله من الحيوانات، فإنه لا يألفها

أيضًا، فهذه من حكمة الله عز وجل ورحمته، أن جعلهن من أنفسنا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكمة من الزوجية هي السكون - سكون أحد الزوجين إلى الآخر - ويتفرع على ذلك: أنه لو حصل التنافر، فإن من الحكمة التفريق بينهما، تؤخذ من قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فإذا فاتت هذه الحكمة فإنه لا زواج؛ ولهذا لما فاتت الحكمة بين ثابت بن قيس وزوجته، ماذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام؟ قال ﷺ: «خُذِ الحَدِيْقَةَ وَطَلِّقْهَا»[1] وكيف يمكن أن يكونا زوجين يتباغضان ويتنافران، وكل واحد منهما يحب أن يرى الموت ولا يرى صاحبه، ومثل هذه الحال لا زواج معها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ما ألقى الله تعالى في قلوب الزوجين من المودة والرحمة، وهذه من الآيات العظيمة، فهذه امرأة لا تعرفها إلا عند خطبتها، وليس بينك وبينها قرابة، ثم يجعل الله بين قلوبكما من المودة والرحمة ما يربو أحيانًا على مودة الأم والأب، وهذا لا شك أنه من آيات الله، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، جعل الله في هذه الآية الصهر قسيمًا للنسب، يعني: كأن البشرية الآن إما مصاهرة وإما قرابة نسب.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المودة ما تنال بالفعل، يعني أن الله قد يجعلها في قلب الإنسان؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يعني: أنت لو أردت أن تغصب روحك على محبة شيء، والله عز وجل ما جعل في قلبك مودة ما استطعت، ولهذا مَنَّ الله على المؤمنين بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧]، وأنت تقول في الدعاء: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلى حبك؛ إذنْ المودة يلقيها الله عز وجل في القلب، فأنت ينبغي لك أن تسأل الله دائمًا أن تكون محبتك لله وفي الله، وأن تكون محبتك بالله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحثُّ على التفكر، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن التفكر مفتاح العلم، ولا يمكن أن يكون علم بلا تفكر أبدًا، وتفكر أولًا لتعلم.

٦- **ومن فوائد الآية:** أن ما ذكر ليس آية واحدة؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ كيف؟ لأن الله قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ هذه واحدة، ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فتكون هذه آيات متعددة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب التراحم بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾، وهل نأخذ منها وجوب معالجة الزوجة إذا مرضت؛ لأنه من الرحمة، أو نطلقها ونقول: لا يجب أن تعالجها، ولا أن تعطيها قيمة الدواء؛ لأن هذا ليس مما في النفقة؟

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٧٣)، والنسائي (٣٤٦٣).

الجواب: كون الله يجعل بينكم رحمة، ليس معناه: أن يلزمك بشيء لا يلزمك، إنما هذا بيان للواقع، وهذا صحيح، الرحمة توجد، لكن هل يلزمه؟ هذه محل نظر، ولهذا قال الفقهاء: إنه لا يلزم الدواء ولا أجرة الطبيب، وبعضهم يقول يلزم إلا إذا كان شيئًا يسيرًا تقدر الزوجة أن تقوم به من مالها الخاص فإنه لا يلزمه.

فوائد قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن خلق السماوات والأرض من آيات الله، وسبق لنا في التفسير وجه كونها من آيات الله؛ لعظمها، ولارتفاعها، وما فيهما من الكواكب والنجوم والأشجار والبحار والأنهار وغير ذلك، كل هذا من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على عظمته وقدرته.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن السماوات جمع، والأرض كذلك، لكن ليس في الآية دليل على هذا، إنما يُستفاد كون الأرض جمعًا من أدلة أخرى.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن اختلاف الألسن والألوان من آيات الله، واختلاف الألسن والألوان هل هو بطول اللسان وقصر اللسان، أو المراد اختلاف اللغة؟ المراد اختلاف اللغات، واختلاف الفصاحة والبيان؛ لأن الناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا؛ حيث تجد المعنى الواحد يتكلم فيه إنسان فيفهمه الحاضرون؛ لقوة بيانه وفصاحته، ويتكلم فيه آخر فما يُلتفت إليه، وتجد رجلين يتكلمان أحدهما يشد الناس إلى نفسه، والآخر يتكلم وهذا يسرح بفكره في مجالات شتى، وهذا ينعس مع أن الكلام واحد، والموضوع واحد، لكن اختلاف الإلقاء والفصاحة هو الذي جعل الناس يتأثرون.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الألوان لا تتفق؛ لقوله: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ولهذا يقول العلماء: إنه لا يوجد شخصان متفقان من كل وجه أبدًا، فعلى كثرة الناس لا يمكن أن تجد شخصين متفقين من كل وجه، حتى التوأمان لا يتفقان من كل وجه، صحيح أن بعض الناس يتقاربون ولا تعرف بعضهم من بعض، لكن عند التأمل لابد أن تكون هناك علامة فارقة، وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، حتى الأعضاء الآن لا تكون أعضاؤك متفقة بل تختلف، وكذلك العروق ـ عروق اليدين ـ تجدها مختلفة، وعروق الرجلين تجدها مختلفة، والبنان التي يسموها البصمات تجدها مختلفة.

إذنْ على كثرة الناس ما يمكن أن يتفقوا، وهذا دليل واضح على عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى، وبالغ حكمته.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مدح أولي العلم، وتؤخذ من قوله: ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام، فإنه يدل على فضيلة أهل العلم، ولا شك أن أهل العلم لهم فضل، فهم العالمون بالله وآياته

سبحانه وتعالى ولهم من الفضائل بحسب علمهم.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** انفصال الروح عن البدن عند النوم، وهذه الروح متصلة بالبدن تمام الاتصال فإذا نام حصل منها نوع انفصال، ولهذا سمى الله تعالى النوم وفاة، ولكن ليست كالوفاة الكاملة التي يقبض فيها الروح من البدن وتنفصل عنه انفصالًا كاملًا، لكنها أثناء النوم تنفصل عنه انفصالًا جزئيًّا، وهذا الانفصال الجزئي الذي تبقى معه الحياة دون وعي من آيات الله، هل أحد يستطيع أن يفعل هذا إلا الله؟ أبدًا وكذلك أيضًا لا يستطيع أحد أن يردها إلا الله عز وجل.

فإذا قال قائل: ماذا تقولون في النوم بالتنويم الذي يسمونه التنويم المغناطيسي، الواحد ينومه الثاني؟

نقول: إذا ادعى مدعٍ أن النوم المغناطيسي تنويم، كفعل الله، فهو كادعاء الذي يقول: أنا أحيي وأميت، فهو يحيي ويميت بأن يقتل ويبقي، لكن ليس صحيحًا أنه أحيى، أو فعل سبب الحياة أو سبب الموت، فمجرد السبب فقط يعجز عنه، كذلك المنوم ما جلب النوم، لكن فعل سببه، والتنويم المغناطيسي هذا معناه استسلام النفس الباطنة لهذا المنوِّم، ثم ينام ويسترخي، ليفقد الوعي، إلا الذاكرة، ولهذا تجد المنوم المغناطيسي - كما يقولون - إذا استجاب له المنوَّم بدأ يخاطبه في العقل الباطني، وذلك المنوَّم يتكلم بدون شعور، ويعلمه بكل ما في رأسه، أي شيء يسأله عنه يخبره إياه، حتى الأمور التي ما اطلع عليها أحد من الناس يعلمه بها، لكن شرط أن المنوم يستسلم استسلامًا كاملًا، أعظم من هذا القتل، الذي يسميه الفقهاء القتل بالحال؛ حيث إنه يسلط نفسه على نفس هذا الرجل ويخنق نفسه ويموت، ولهذا ذكروا في باب القصاص هل القتل في الحال بالحال عمدًا يقتل به القاتل، أو خطأ أو شبه عمد؟

وإذا قلنا: إنه يقتل فهل يقتل بالحال أو يقتل بالسيف، الصواب: أنه يقتل القاتل بالحال، سواء قلنا: إنه قصاص أو قلنا: إنه من باب دفع الفساد في الأرض، لكن بعض الفقهاء يقولون: إذا أردنا المقاصَّة تمامًا نأتي بواحد يقتل بالحال ونجعله يقتل هذا الرجل، فيقتل بما قتل به؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذكر المتقابلات - منامكم وابتغاؤكم من فضله -، وابتغاء الفضل يكون في اليقظة، فهذا جمع بين الشيء ومقابله، فالمنام آية، وابتغاؤكم من فضل الله أيضًا آية.

٣- **ومن فوائد الآية:** جواز النوم ليلًا ونهارًا؛ لأن الله جعله من آياته التي امتن بها على

العباد، يؤخذ من قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لكن أيهما أصح؟ نوم الليل أصح بالاتفاق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يطلب رزق الله؛ لقوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الروم:٢٣].

فلو قال قائل: الرزق مكتوب كالأجل، فهو محتوم الوجود.

نقول: لكن مكتوب بسبب، ولا يمكن لأي إنسان أن يقول: الرزق مكتوب فيأتيني، ولا يتخلف عن طلب الرزق أبدًا إلا رجلٌ جاهلٌ أحمق، ولهذا لو قال قائل: إذا كتب الله لي ذرية ستأتي بدون زواج، هل يعقل هذا؟ ما يُعقل أبدًا، فنقول: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يطلب الرزق.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** كراهة سؤال الناس، أو أنه من الأمور التي لا تنبغي؛ لقوله ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وأنت إذا طلبت الرزق من الله عز وجل، فقد طلبته من أهله ممن له المنة عليك.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٤-٢٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ جار ومجرور، و﴿يُرِيكُمُ﴾ فعل مضارع، فهل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يُرِيكُمُ﴾، أو متعلق بمحذوف فيكون تأويله قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ مصدرًا مؤخرًا؟

نقول: ظاهر كلام المؤلف [أي: إراءتكم] وصفه أن قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ خبر مقدم، و﴿يُرِيكُمُ﴾ مصدرًا مؤخرًا؛ لأنه أوّلها إلى مصدر، يعني: وليس المعنى ويريكم من آياته البرق

خوفًا وطمعًا فلنا في إعراب هذه الآية وجهان:

الوجه الأول: ما مشى عليه المؤلف، بأن تجعل يريكم: فعل مضارع مؤوَّل بمصدر، فتصير: إراءتكم، مع أنه ليس فيه حرف مصدري، وهذا موجود في اللغة العربية، ومنه قولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، تسمع هذه مبتدأ، بدليل قوله: خير من أن تراه، مع أنه ليس فيها حرف مصدري يؤوَّل به.

والوجه الثاني: أن نقول ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلقة بـ ﴿يُرِيكُمُ﴾، يعني: يريكم من آياته البرق خوفًا وطمعًا، يرجِّح الوجه الأول سياق الآيات؛ فسياق الآيات كلها يدل على أن هذا الفعل منسبك بمصدر، فتصير ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إراءتكم، كالآية التي قبلها ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، ويرجح الوجه الثاني أننا نتحاشى هذا المصدر بدون حرف مصدري،قال المؤلف: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ للمسافر من الصواعق، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر].

قوله: ﴿خوفًا﴾ إعرابها مختلف بين مفعول لأجله وحال، وهنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ الفاعل الله، والخائف الطامع الإنسان - أي: بنو آدم - فاختلف الفاعل، وابن مالك يقول:

وَهوَ بِما يَعْمَلُ فِيهِ مُتَّحِد وَقْتًا وَفَاعِلًا وَإن شَرطٌ فُقِد

الوقت متحد، ولكن الفاعل لم يتحد، وعليه فيكون ﴿خَوْفًا﴾ حال مصدر من نوع الحال، بمعنى يريكم البرق خائفين وطامعين، أما إذا أسقطنا اشتراط ابن مالك في حال الفاعل تكون ﴿خَوْفًا﴾ مفعولًا لأجله، ولكن عندي أن هناك وجهًا آخر وهو أن نجعل ﴿خَوْفًا﴾ بمعنى: تخويفًا، وإذا جعلنا خوفًا بمعنى: تخويفًا زال الإشكال؛ لأن التخويف من الله وهو المريد، والإطماع أيضًا من الله وهو المريد، وحينئذٍ نقبل مخالفة شرط ابن مالك، ولكنه لابد من تأويل في الواقع، فحوَّلنا ﴿خَوْفًا﴾ إلى إخافة، و﴿وَطَمَعًا﴾ إلى إطماعًا.

فالوجوه إذنْ ثلاثة: إما أن نجعل ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدرين في موضع الحال، أو نجعلهما مصدرين على أنهما مفعول لأجله ولا نعتبر اشتراط ابن مالك في حال الفاعل، أو نجعلهما مصدرين، لكن بمعنى: التخويف والإطماع، وحينئذٍ نكون قد اعتبرنا اشتراط الفاعل، ولم يعوذنا إلى الحال.

وقول المؤلف: [﴿خَوْفًا﴾ للمسافر من الصواعق، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر]، ظاهر كلام المؤلف أن هذا على سبيل التوجيه، خوفًا لأناس وطمعًا لأناس، والصواب خلاف كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالصواب: أن البرق خوف وطمع للجميع، فالمسافر يخاف ويطمع، والمقيم أيضًا يخاف ويطمع، وإلا فمن ذا الذي يسلم من الصواعق؟! إذنْ هو عائد على الجميع، لكن تقديم الخوف

على الطمع، يدل على أن خوف الناس في البرق أشهر من طمعهم، وهذا - والله أعلم - بمعنى: الخوف على الغالب؛ لأن أكثر الناس لاسيما في البرود الثقيلة والبرد العظيم، يخافون أكثر مما يطمعون، ويوجد أناس ما يهتمون بهذا الأمر مهما قوي البرق، ومهما قوي الرعد، لا يهتمون، فهم دائمًا في طمع.

وقوله: ﴿فَيُحْيِ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ كلمة الأرض، هل المراد ذات الأرض أنها تُحيى، أو المراد النبات الذي في الأرض يحيى؟

الجواب: المراد النبات الذي في الأرض، إذنْ المراد بالأرض نبات الأرض، وحينئذٍ قد يعترض علينا معترض ويقول: إنكم تقولون: إنه لا مجاز في القرآن، وهنا إذا حملتم الأرض على نباتها فقد قلتم بالمجاز، فما هو الجواب على هذا؟

الجواب على: هذا كما كررنا مرارًا بأن الكلمة في حد ذاتها لا يقوم معناها إلا بسياقها، فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢] لا شك أن المراد ذات الأرض، لكن قوله: ﴿فَيُحْيِ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، يخاطب أناسًا يعرفون الذي يحيى والذي يموت، يعرفون الذي يحيى بالمطر والذي يموت بفقد المطر، فهل أحد ممن يخاطب بهذه الآية يقول: إن هذا الطين وهذا الرمل وهذا الحجر يموت بفقد المطر ويحيى بوجوده؟ ما أحد يقول هذا، والكلمة يعين معناها السياق، وبهذا نسلم من القول بالمجاز؛ لأن القول بالمجاز أبرز على ما في المجاز أنه يصح نفيها، والقرآن ما فيه شيء يصح نفيه؛ لأنه لو صح نفي شيء في القرآن لكان معناه التكذيب.

مثال ذلك قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] إن قال قائل: الجدار لا يريد، فمعنى هذا أنه نفي لما أثبت الله عز وجل، وهذا هو الذي جعل بعض أهل العلم ينكر المجاز في القرآن ويثبته في غيره من اللغة العربية، يقول: لأنه ليس في القرآن شيء يصح نفيه، وأبرز ما في المجاز أنه يصح نفيه، ولكن الصواب كما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أنه لا مجاز، لا في القرآن، ولا في اللغة العربية؛ لأننا نقول: إن الذي يعين المعنى هو السياق، وعليه فإذا تعين معنى الكلمة فهو حقيقتها في كل سياق.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور، فالمشار إليه كل ما سبق، ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، هذا المذكور فيه: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يقول: [يتدبرون]، وهنا قال: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لذوي العقل، والعقل تقدم أنه ينقسم إلى قسمين: عقل إدراك، وعقل رشد، عقل الإدراك هو الذي هو مناط التكليف، الذي يقول فيه: العلماء يشترط لوجوب الصلاة أن يكون عاقلًا، هذا نسميه عقل إدراك؛ لأن الإنسان يدرك الأمور، فيميز بين النافع والضار وغيره، والعقل الثاني أي: عقل الرشد الذي هو مناط الثناء والمدح، وهو الذي يوجد في القرآن كثيرًا، فمثلًا نفى الله العقل عن الكفار مع أنهم

أذكياء، فهم عندهم عقل إدراك لكنهم ليس عندهم عقل رشد يتصرفون فيه تصرف العاقل، وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عما يضره، وهذا هو الذي جعله يسمى عقلًا ويسمى حِجْرًا، قوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنه يحجُر صاحبه ويحجزه عما لا ينبغي.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أتى بالعقل هنا؛ لأنه إشارة إلى ما سيذكر فيما بعد؛ لأن الآيات كما تشاهدون كلها في تقرير إعادة الموتى، وانتقال العقل من هذه الأشياء المحسوسة إلى أشياء منظورة موجودة، إنما يكون عن طريق العقل، ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: [بإرادته من غير عمد]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: نقول في إعرابها كما سبق، وقوله: [﴿بِأَمْرِهِ﴾أي: بإرادته من غير عمد]، أفادنا المؤلف رحمه الله أن المراد بالأمر هنا الأمر الكوني؛ لأنه قال: [بإرادته] وإن كان في تفسير الأمر بالإرادة، شيء من الشك، إذ أنني أخشى أنه فسر الأمر بالإرادة فرارًا من إثبات الكلام لله عز وجل؛ لأن الأمر لو كان قويًّا يكون بالكلام؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فأخشى أن المؤلف ـ غفر الله له ـ أراد بتفسير الأمر بالإرادة فرارًا من إثبات الكلام، ومعروف أن الأشاعرة لا يثبتون الكلام بالحرف والصوت، وإنما يثبتون الكلام على أنه المعنى القائم بنفسه، والحرف المكتوب والصوت المسموع، يقولون: إنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله.

وقوله: ﴿أَن تَقُومَ﴾ أيضًا فسره بقوله: [من غير عمدٍ]، وهذا يدل على أنه ذهب على أن المراد بالقيام هنا القيام الحسي، يعني: أن تبقى غير واقعة على الأرض، بل هي ممسكة بأمر الله سبحانه وتعالى بغير عمد، وهذا تفسير قاصر.

والصواب: أن قيام السماوات والأرض أعم من كونه قيامًا حسيًّا، أو قيامًا معنويًا، بمعنى: أنه يشمل القيام الحسي والقيام المعنوي، فالسماوات قائمة بأمر الله قيامًا حسيًّا بما فيها من الانتظام بما خلق الله عز وجل من الأفلاك المتضمنة الشمس، والقمر، والنجوم، وغير ذلك، وكذلك الأرض قائمة قيامًا حسيًّا بما أودع الله فيها من مصالح الخلق من أشجار ونبات وأنهار وبحار وغير ذلك، هذا قيام حسي.

يوجد أيضًا قيامٌ معنوي وهو قيام هذه بطاعة الله فإن المعاصي إفسادٌ في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] فالسماوات أيضًا والأرض تقوم بأمر الله الشرعي كما تقوم بأمره الكوني، ولا قيام للأرض ولا للسماوات إلا بالتزام أمر الله الشرعي، فحينئذٍ نفسر القيام بأنه القيام الحسي والقيام المعنوي.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر قيام

السماوات والأرض؛ لأن البعث متأخر لا يكون إلا بعد قيام الساعة، يقول: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الفاعل هو الله عز وجل، ﴿دَعْوَةً﴾ أي: واحدة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض.

يقول المؤلف: [بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من في القبور ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها أحياءً، فخروجكم منها بدعوة من آياته تعالى].

قوله: ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ هل تتعلق بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾، يعني: إذا دعاكم دعوة تخرجون من الأرض، أو متعلق بدعا؟

نقول: هو متعلق بدعا، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾، وليس متعلقًا بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لأنه لا يتعلق ما قبل إذا الفجائية بما بعدها، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، إذا شرطية. ﴿إِذَا أَنتُمْ﴾، إذا فجائية، فهي نائبة مناب الفاء الواقعة في جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: دعاكم منها، هل دعوة الله تكون من الأرض، أو إذا دعاكم من الأرض يعني: أنكم أنتم في الأرض؟

المراد، إذا دعاكم من الأرض، مثلما تقول دعوته من بيته، ما أنا في البيت، لكن هو في البيت فدعوته منه ليحضر، ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] يعني: على وجه الأرض، وهذا من آيات الله أيضًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال المؤلف: [مِلكًا وخلقًا وعبيدًا].

وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، الضمير في (له) يعود على الله وهو خبر مقدم والمبتدأ منفي وتقديم الخبر - كما هو معروف في علم البلاغة - يفيد الحصر، يعني: الله وحده له من في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: مستقرًا؛ لأن الجار والمجرور الواقع صلة للموصول تقدر بفعل، بخلاف الواقع خبرًا للمبتدأ فإنه يقدَّر باسم، فالجار والمجرور إذا وقع صلة لموصول فقدر متعلقة فعلًا؛ لأن الأصل في صلة الموصول، أن يكون جملة، لكن إذا وقع الجار والمجرور أو الظرف خبر لمبتدأ فقدره باسم؛ لأن الأصل في الخبر أن يكون مفردًا لا جملة، تقول: زيد في البيت، تقديره كائن في البيت، فزيد مبتدأ، وكائن خبر، لكن لو قلت: زيد في البيت، أي: زيد استقر في البيت صار الخبر جملة، والأصل في الخبر أن يكون مفردًا، أما إذا قلت: يعجبني الذي في المسجد، ما تقول: الذي كائن في المسجد؛ لأنك إذا قدرت الذي كائن في المسجد، لزم أن تقدم المبتدأ أيضًا أي: الذي هو كائن في المسجد، إذنْ لماذا لزمك أن تقدر المبتدأ كائن؟ لأن صلة الموصول لابد أن تكون جملة، بخلاف خبر المبتدأ فإنه يكون مفردًا.

إذنْ عندما نقدر المتعلق بالجار والمجرور الواقع صلة نقدره فعلًا؛ ليكون ذلك جملة، وعندما

نقدر متعلق الجار والمجرور، أو الظرف في المبتدأ نقدره اسمًا.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: من استقر من الملائكة، هذا الذي نعرف، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من البشر والحيوان، وهنا قال: ﴿مَن﴾؛ تغليبًا للعاقل، وإلا فإن الأرض فيها العاقل وغير العاقل.

وفي قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]، كان الأولى أن يقدم الخلق، ثم الملك ثم العبيد، فله من في السماوات، هو الذي يملكهم سبحانه وتعالى وهو الذي خلقهم، وهو ربهم وهم عبيده، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولا أحد يعارضه في ذلك، فكلهم في السماوات والأرض له طائعون، كما قال الله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

وقوله: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [مطيعون]، ﴿كُلّٞ﴾ مبتدأ، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خبرها، والجار والمجرور له متعلق بـ ﴿قَٰنِتُونَ﴾، لكنه قُدم عليه للاختصاص والحصر.

وقوله: ﴿كُلّٞ﴾ التنوين هنا عوض عن مفرد، فكل ما جاءت كل أو بعض منونة، فإنها عوض عن مفرد، والمعنى أي التقدير: كل من في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: [مُطِيْعُون]، والطاعة هنا: طاعة وخضوع للأمر الكوني، وهذا شامل للمؤمن وغير المؤمن، والثاني طاعة وقنوت للأمر الشرعي وهذا خاص بالمؤمن، وعلى هذا يكون المراد بالقنوت هنا القنوت الكوني لا الشرعي؛ لأنه قال: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ﴾، ولا يتصور هذا إلا في الكوني، فالكل خاضع لأمر الله قانت باعتبار أمره الكوني، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

قال المؤلف: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ للناس ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد هلاكهم، ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ من البدء].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: يبتدئه وأتى بكلمة ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾؛ لأن الخلق مشتمل، فكل يوم يكون فيه ابتداء خلق، مثل: الأجنة في بطون الأمهات تنشأ كل يوم، وكم في الدنيا في اليوم الواحد من جنين يُصور!! ولهذا أخذ الفعل المضارع الدال على الاستمرار، ولما يقل بدأ.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يعني: ثم يعيده الله عز وجل، ومعنى الإعادة: رده على ما كان عليه أولًا، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأخبر النبي ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا[1] كما بدأوا.

قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾ والضمير يعود على الإعادة، المفهوم من قوله يعيده، فمرجع الضمير

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

إذنْ المصدر المفهوم من الفعل، وقد سبق لنا عدة مرات أن مرجع الضمير قد لا يذكر بلفظه ولكن يذكر ما يدل عليه، كقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٩] فمرجع الضمير هنا العدل المفهوم من كلمة ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

إذنْ ﴿وَهُوَ﴾ أي: الإعادة، والإعادة مصدر يصح أن يعود الضمير عليها مذكرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أهون اسم تفضيل من هان يَهون، واسم التفضيل يدل على أن الهون درجات: هين وأهون، ودرجات الهُون قد توحي بأن هناك مشقة؛ لأنه لولا أن في بعضها مشقة ما صار بعضها أهون من بعض، ولذلك اختلف المفسرون في اسم التفضيل هنا وهو أهون، فقيل: إنه بمعنى هين، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو هين عليه، وقال بعض المفسرين: وهو ما ذهب إليه المؤلف، وهو أنه أهون عليه من البدء، بالنظر إلى ما عند المخاطبين من أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه وإلا فهما عند الله تعالى سواء في السهولة، فصارت الآن كلمة ﴿أَهْوَنُ﴾ على بابها ، فالمؤلف مشى على أنها على بابها، لكنها باعتبار المخاطبين؛ لأن المخاطب يعرف أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، وسبب ذلك أن إعادته لا تحتاج إلى تفكير جديد؛ لأنه قد سبق فيه التفكير، ثانيًا: أن مواد التكوين موجودة، افرض مثلًا: أنني عندما أريد أن أصنع سيارة أجدها تحتاج إلى تفكير أولًا ومواد، فإذا أردت أن أعيدها مرة ثانية بعد أن تفككت هذه السيارة، تكون الإعادة أهون؛ لأن التفكير قد فرغت منه، والمواد موجودة متوفرة، فتكون الإعادة أهون باعتبار المخاطب، أما بالنسبة لله عز وجل، فلا نقول: إن في حقه ما هو أهون وما هو هين، بل الكل عند الله تعالى هين سهل.

وقال بعض المفسرين: إن ﴿أَهْوَنُ﴾ هنا بمعنى: هين، فعلى هذا يكون الهُون بالنسبة إلى الله عز وجل لا بالنسبة إلى ما عندنا نحن، وهو هين عليه، ففي الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ: أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ، وَلَيْسَ بَدْءُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1] فهو مفسر للآية، وهو يفسر أن كل ذلك هين عليه ولكن لا شك أن الإعادة أهون باعتبار المفهوم عند المخاطبين كما مشى عليه المؤلف رحمه الله وهو هنا جيد.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الصفة العليا وهي أنه لا إله إلا الله، قوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾ خبر مقدم و﴿ٱلْمَثَلُ﴾ مبتدأ مؤخر، والمثل يطلق على عدة معانٍ، فيطلق على الشَّبه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] يعني: شبههم كشبه الذي استوقد نارًا، ويطلق المثل على الصفة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد :١٥] ، ويطلق المثل على الذات، قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٧٤)، والنسائي (٢٠٧٨).

[الشورى: ١١] يعني: ليس كذاته، فترى المَثَل والمِثْل سواء، كلاهما واحد، وقالوا: منه قول الشاعر:

لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْرُ

المراد بالمثل هنا في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الصفة، أي: وله الصفة العليا في السماوات والأرض، فكل صفة كاملة فللَّه عزَّ وجلَّ أكملها، وكل صفة نقص فإنه منزه عنها، وينزه عن صفة النقص؛ لأنه مادام قد ثبتت له الصفة الكاملة العليا، فإنه بالضرورة العقلية ينتفي عنه النقص؛ لأنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له المثل الأعلى.

إذنْ هذه الآية الكريمة، تدل على صفات الكمال لله عز وجل، الكمال المطلق؛ لأنه قال: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وعلى انتفاء النقص من جميع الوجوه، إذ إنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له المثل الأعلى، ونأخذ من هذا أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال وليس فيه نقص، وكل كمال فإن الله تعالى مستحق له، إذنْ هذان شيئان:

الأول: أن نعلم علم اليقين أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال.

الثاني: أن نعلم أن كل صفة كمال فالله مستحق لها، فهو أهْل لها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»(١) وسيأتي إن شاء الله في الفوائد ما يستدل به في الرد على الذين ينكرون صفات الله بحجة أنها تستلزم النقص، وهو التشبيه.

وقوله: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المقصود بالمثل الأعلى في السماوات والأرض، أي: عند أهل السماوات من الملائكة، وعند أهل الأرض، وكل الفطر السليمة فإنها تعترف بأن المثل الأعلى والصفة العليا لله وحده، وأما قول المؤلف: [وهي أنه لا إله إلا الله]، فهذا فرد من أفراد المثل الأعلى، وليس هو المثل الأعلى كله، فإن لا إله إلا الله تدل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، وهذا من المثل الأعلى، لكن المثل الأعلى أعم من ذلك، فله مثلًا: القدرة الكاملة، والعلم الكامل، والحياة الكاملة، والسمع الكامل، والبصر الكامل، والحكمة البالغة، وهكذا، فهي أعم من تفرده بالألوهية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [في ملكه] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [في خَلْقه]، تفسيره هذا فيه قصور، فـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: ذو العزة، وهي الغلبة والقهر والقَدْر، فله عزة القهر والقدر، فالعزة إذنْ ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة القهر بمعنى: أنه القاهر لكل شيء فلا يغلبه أحد، قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

الثاني: عزة القدر: والمعنى أنه سبحانه لا نظير له ولا شبه له؛ لكمال قدره سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٧)، والنسائي (١٠٦٨).

وعظمته، ومنه قولهم: هذا الشيء عزيز، أي: نادر الوجود لا نظير له.

المعنى الثالث: عزة الامتناع، بمعنى: أنه يمتنع عليه النقص؛ لكمال قوته، ومنه قولهم: هذه الأرض عَزَاز، أي: شداد قوية ما يمكن أن يُؤثِّر فيها شيء، والأرض الرِّخوة بالعكس، كل شيء يؤثر فيها، حتى الرجل إذا مشى عليها يؤثر، بخلاف الأرض الصلبة التي تسمَّى عَزَاز، فصارت الآن عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠] من أي المعاني إذنْ؟ نقول: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، فهو من عزة الامتناع.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمؤلف يقول: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [في خلقه]، وأحيانًا يقول: [في صنعه]، ومعناهما واحد، لكن هذا قاصر أيضًا؛ لأن الحكيم مشتق من الحُكم والحكمة، فعلى قولنا: إنه مشتق من الحُكم، يكون حكيم بمعنى: حاكم، مثل رحيم بمعنى: راحم، وعلى قولنا: إنه من الحكمة، يكون حكيم بمعنى: محكم، فهو من أحكم يحكم.

إذنْ فعيل بمعنى: مُفعِل، هل تأتي في اللغة العربية؟

الجواب: نعم، ومنه قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع أي: المُسمِع؛ لأن الداعي يُسمع غيره وليس هو نفسه سميعًا.

إذنْ نقول: حكيم إذا كان من الحكمة فهو من أحكم، بمعنى: أتقن، فجاء حكيم مأخوذة من الحكم والحكمة، فعلى أنه مأخوذ من الحكم يكون بمعنى: حاكم؛ مثل: رحيم بمعنى: راحم، وسميع بمعنى: سامع، وإذا قلنا: إنه من الحكمة فهو من أحكم، فهو حكيم بمعنى: مُحكِم - أي: اسم فاعل من الرباعي - إذنْ ينقسم حكم الله عز وجل إلى قسمين: كوني وشرعي، فالكوني نافذ في جميع الخلق، شاءوا أم أبوا، والشرعي نافذ فيمن أطاع الله عز وجل، أما من لم يطعه فإنه لا ينفذ حكمًا.

هل هناك أمثلة من القرآن تدل على هذا التقسيم، أن الحكم كوني وشرعي؟

نقول: نعم موجود، قال أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، والمراد بالحكم هنا: الحكم الكوني القدري، يعني: أو يقدر الله ذلك، أما الحكم الشرعي فإن الله لما ذكر ما يجب في النساء المهاجرات في سورة الممتحنة، قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، والمراد بالحكم هنا: حكم الله الشرعي؛ لأن ما ذُكِر من الأمور أمور شرعية، أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] شامل للاثنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] الظاهر أنه شامل وإن كان الشرعي في هذه الآية أظهر؛ لأن الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذنْ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ من الحكم تنقسم إلى قسمين هما: حكم شرعي وحكم كوني، الحكم الكوني: هو قضاؤه وقدره وكل أحد خاضع له، والحكم الشرعي: ما حَكَم به شرعًا، ولا يخضع له كل أحد، أما إذا قلنا: إن ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ من الحكمة، بمعنى: مُحكِم، فإن الحكمة يقولون: إنها تنقسم إلى قسمين: حكمة غائية، وحكمة صورية، يعني: صورة الشيء كذا وكذا، فكون الشيء على صورة معينة، نجد أن جميع ما خلقه الله في صفاته كلها على صفة موافقة للحكمة، تدبر المخلوقات مثلًا فتجد أن المخلوقات في ذواتها وحركاتها وهيئاتها وصفاتها كلها موافقة للحكمة.

والحكمة الغائية: هي الغايات المحمودة، في أفعاله وأحكامه الشرعية، فكل ما خلق الله عز وجل فإنه لغاية محمودة، ليس عبثًا ولا سدى، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧] حتى ما يقدره الله من الأمور المؤلمة فإنه حكمة، فهزيمة المؤمنين يوم أحد حكمة، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]؛ إذنْ كل أفعاله سبحانه وتعالى لها حكمة ولها غاية محمودة، كذلك أيضًا أحكامه الشرعية، مثل: الأحكام الكونية، فوضعها على صفة معينة موافقة للحكمة، ثم غاياتها الحميدة التي بها صلاح القلوب والبلاد والعباد، فهي أيضًا حكمة، فصارت الحكمة نوعان: حكمة في الشيء على صفة معينة، وحكمة في غايته الحميدة، ثم إن هذه الحكمة تكون في الشرع، وتكون في الكون، إننا إذا علمنا ذلك ـ أن الله تعالى حكيم ـ فإننا نطمئن غاية الاطمئنان لما قضاه وقدره، ولما شرعه وحكم به، وأنه موافق للحكمة، وحينئذٍ لا يمكن أن نورد ولا أن يرد علينا سؤال مثل:

من أين شُرع كذا؟ فمن سأل على سبيل الاسترشاد فيجوز، فالإنسان الذي يسأل عن الحكمة مسترشدًا لا بأس، أما الذي يسأل عن الحكمة معترضًا فإنه قاصر ولم يقدر الله حق قدره.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إلى آخره.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أولًا أن البرق من آيات الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن البرق يشتمل على الخوف والرجاء؛ لقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وسبق أن الصحيح أنها ليست موزعة - كما قال المؤلف -؛ بل هي صفة مجتمعة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى بإنزال الماء من السماء.

٤- **ومنها**: رحمته بالخلق؛ حيث كان إنزال هذا المطر من السماء، هذه واحدة؛ وحيث كان ينزل شيئًا فشيئًا؛ لأنه لو كان ينزل دفعة واحدة لأهلك الناس.

٥- **ومن فوائد الآية**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث يحيي الأرض بعد موتها، فتجد الأرض يابسة ما فيها عود أخضر، ثم بعد نزول المطر تصبح مخضرة تهتز.

٦- **ومنها**: رحمته بالخلق أيضًا؛ حيث إن إحياء الأرض، نافع للإنسان والحيوان.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا ينتفع بالآيات إلا ذوو العقول.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: استعمال العقل في القياس، أي: في قياس الأشياء المتشابهة والنظير على نظيره.

٩- **ومن فوائدها**: أن القياس من الأدلة العقلية، وإن كان ثابتًا في الشرع، لكن طريقه هو العقل؛ لأن العقل يهتدي بهذا على هذا، وينتقل من هذا إلى هذا.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ إلى آخره.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: أن قيام السماوات والأرض بأمر الله، ليس للمخلوقين فيه تعلق إطلاقًا، فالله تعالى هو الذي يقيم السماوات والأرض، سواء القيام الحسي أو المعنوي.

٢- **ومنها**: إثبات الكلام لله، تؤخذ من قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ والمؤلف قال: [بإرادته] وتقدم التنبيه على هذا، أن المراد بأمره الكلام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى ببعث الموتى بكلمة واحدة، تؤخذ من قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دعوة واحدة يكون بها جميع الخلق خارجين، وهذا لا شك أن فيه ما هو من أبلغ القُدَرِ، وأن الله تعالى على كل شيء قدير.

٤- **ويُستفاد من الآية أيضًا**: أن مقرَّ بني آدم الأرض؛ لقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] فالمعمول في هذه الآية مقدم ـ فيها ومنها ـ، وتقديم المعمول يدل على الحصر، إذنْ فالحياة على الكواكب الأخرى مستحيلة بالنسبة لبني آدم، وهذا هو ظاهر الآيات، أن بني آدم خُلقوا من الأرض ويرجعون إلى الأرض، ويُدعون يوم القيامة من الأرض.

٥- **ومنها**: إثبات الكلام لله في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾:

١- **فيُستفاد منها**: عموم مُلك الله، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأن من اسم موصول والموصولات كلها تفيد العموم.

٢- **ويستفاد من الآية**: انفراد الله عز وجل بالمُلك واختصاصه به، يؤخذ من تقديم الخبر في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن﴾ يعني: لا لغيره، وهنا يرد علينا إشكال في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في هذا

العموم نجد أن بني آدم يملكون أشياء من هذا، فما هو الجواب عن ذلك؟

نقول: الجواب عن هذا أن ملك بني آدم ملك مقيد بتمليك ممن له الملك، ولذلك أنت لا تستطيع أن تتصرف في مالك كما تشاء، فأنت لا تملك أن تحرق مالك، ولا أن تتلفه، صحيح أنت تملكه بالنسبة لغيرك من الآدميين، فهم لا يقدرون أن يمنعوك، لكن بالنسبة للخالق الذي له الملك يمنعك من هذا، فصار ملكنا لما نملك ليس ملكًا تامًّا، وجهه أننا لا نستطيع ولا نملك أن نتصرف فيما بين أيدينا كما نشاء.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** خضوع الكائنات لربها سبحانه وتعالى، يؤخذ من قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ وأن جميع الكائنات خاضعة لله.

٤- **ويستفاد من ذلك:** أن القنوت لا يختص بالقنوت الشرعي، وأكثر الناس يظنون أن القنوت يختص بالقنوت الشرعي، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] هذا قنوت شرعي لا شك، لكن الآية هذه وما أشبهها تدل على أن القنوت هو الخضوع لله عز وجل، سواء كان ذلك خضوعًا شرعيًّا أو كونيًّا.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الخلق حادث بعد أن لم يكن، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ فيكون في الآية رد لقول الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، والصواب: أن العالَم حادث بعد أن لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات إعادة الخلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** استعمال قياس الأَوْلَى، وهو الاستدلال على الشيء الذي يكون أولى من المقيس عليه، من قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إعادته، فإنه إذا كان قادرًا على الابتداء فهو على الإعادة أقدر من باب أَوْلى.

٤- **ومن فوائد الآية:** إثبات كمال الصفات لله؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٥- **ومن فوائدها:** الردُّ على أهل التعطيل الذين ينكرون صفات الله عز وجل، فإن الذين ينكرون صفات الله، ما جعلوا له المثل الأعلى، بل جعلوه موصوفًا بالنقائص ـ والعياذ بالله ـ سواء كان هذا التعطيل كليًّا أو جزئيًّا؛ لأنه إن كان كليًّا كما فعل الجهمية الذين سلبوه جميع الصفات، وكذلك المعتزلة قالوا: له أسماء بدون صفات، فظاهر أنهم سلبوا الكمال عن الله، أما إذا كان جزئيًّا كما فعل الأشاعرة والماتريدية ونحوهم، فإن هذا فيه سلب الكمال عن الله فيما وصف به نفسه، فـ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] الاستواء صفة كمال، وهم يقولون: استوى بمعنى: استولى، فلم يجعلوا للعرش خصيصة بالاستواء عليه؛ لأن الله تعالى مستولٍ على كل شيء، وكذلك أيضًا إذا

قالوا: إن المراد بالآيات خلاف الظاهر فإنهم وصفوا الله عز وجل بالنقص؛ لأن إرادة المتكلم بكلامه خلاف الظاهر بدون بيان، يعتبر تدليسًا وتمويهًا، والله عز وجل ما أنزل القرآن إلا للبيان، قال عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾[النحل: ٤٤] الآيات في هذا كثيرة، فإذا قلنا: إن الله أراد بهذا خلاف الظاهر، فهذا وصف له بالتعمية سبحانه وتعالى وأنه لا يريد البيان، وهذا لا شك أنه نقص، ولهذا نقول: إن جميع من أنكروا صفات الله عز وجل كلية أو جزئية، فإنهم قد وصفوا الله تعالى بالنقص.

٦- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن كل صفة وصف الله بها نفسه فهي صفة كمال، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾ فإذا أثبت لنفسه صفة علمنا أنها صفة كمال، فالرحمة أثبتها الله لنفسه، فهي صفة كمال، لكنها عند أهل التعطيل المحرِّفين هي صفة نقص، إذ يقولون: إن الرحمة تدل على الخور والضعف، ولهذا رحمة الله لا يراد بها الرحمة، وإنما يراد بها الإحسان أو إرادة الإحسان، يفسرونها إما بالجزاء المفعول المخلوق، وإما بإرادته، وعلى هذا فَقِسْ.

مسألة: هل يستفاد من هذه الآية الكريمة استعمال قياس الأولى في حق الله، وأن نقول: كل صفة كمال في المخلوق فالخالق أولى بها؟

الجواب: نعم، شيخ الإسلام رحمه الله يقرر هذا؛ لأن استعمال قياس الأَوْلى في حق الله جائز، أما قياس التمثيل وقياس الشمول فهذا ممتنع؛ لأنه هو التشبيه، فإذا قلنا: كل صفة كمال في المخلوق فالخالق أولى بها، صح لكن يجب أن نعلم أن صفات المخلوق الكاملة التي تكمِّل نقصه، كاملة في حقه لكن لتكميل نقصه، هذه لا يوصف الله بها، وهذا صحيح؛ لأنها هي كاملة في حق المخلوق، لكن لتكميل نقصه، فإن الخالق لا يوصف بها؛ لأنها وإن كانت كاملة فهي في الواقع نقص، مثل الأكل والنوم والنكاح وما أشبه ذلك، هذه الصفات في حق المخلوق صفة كمال؛ لأن الذي لا يأكل معناه مريض، والذي لا ينام معناه مريض، والذي لا يتزوج معناه مريض، وفوات هذه الصفات نقص في المخلوق، لكنها لما كانت تكميلًا لنقصه صارت لا يوصف بها الخالق؛ لحاجة الإنسان إلى الأكل، صار يأكل، والذي لا يشتهي ولا يأكل فإنه يموت، وكذلك لما كان الإنسان يتعب ويحتاج إلى صفة تقطع هذا التعب قال الله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧] صار النوم في حقه كمالًا، وكذلك لما كان الإنسان محتاجًا إلى بقاء النسل والنوع، صار النكاح في حقه كمالًا، وفي الحقيقة التكميل لنقص، لكن لا يوصف الله به عز وجل؛ لأن الله كامل من جميع الصفات.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة:** إثبات العزة؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإثبات الحكمة؛ لقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وإثبات الحكم أيضًا من قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٨- **ويستفاد من الآية الكريمة:** قطع الاعتراض على الخلق والشرع، بمعنى: أنك لا تعترض على خلق الله أو على شرعه، إنما تسلم؛ لأنك إذا آمنت أن الله تعالى حكيم، فحينئذٍ ينقطع الاعتراض نهائيًا، ما تقول لمَ؟ ولا من أين؟ إلا على سبيل الاسترشاد.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** اطمئنان الإنسان التام لما قدَّر الله تعالى وَشَرعه؛ حيث إنه صادر عن الحكمة.



قال الله تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٢٨-٣٠]

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف: [﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ضرب: جعل ﴿لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا﴾ كائنًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾]

المثل بمعنى: الشبه والنظير، يعني: ضرب لكم أمرًا نظيرًا لما فعلتم أنتم في جانب الله عز وجل، ما هذا المثل؟ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: من الذين [﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ لكم]، كلمة ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ إعرابها أنها مبتدأ دخل عليها حرف لأجل العموم، ولكنه قد يشكل علينا أن ﴿مِّن﴾ لا تزاد إلا بعد النفي، ابن مالك يقول في هذه المسألة:

وَزِيدَ فِي نَفيٍ وَشِبهِهِ فَجَر ... نَكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفر

وقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾ أي: من الذي ملكت، وهي صلة الموصول والعائد محذوف، والتقدير: ملكته أيمانكم.

وقوله: ﴿أَيْمَانُكُم﴾، الأيمان جمع يمين، وهي اليد، وأُضيف المُلك إلى اليد؛ لأن غالب تصرفات الإنسان بيده، وأضيف إلى اليمين؛ لأنه أشرف من اليسار.

وقوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، المراد: ما ملكت الأيمان من الإنسان، ولهذا قال المؤلف: [أي: مماليككم]، أي: مِنْ مماليككم.

وقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ هذه هي المبتدأ، والخبر ﴿لَّكُم﴾ المقدم، ولكن المبتدأ دخلت عليه ﴿مِّن﴾ لإفادة العموم أو للتنصيص على العموم؛ لأن ﴿مِّن﴾ الزائدة تفيد التنصيص على العموم.

وقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ [لكم] إذا قال قائل: كيف جاءت من زائدة وهي لم تسبق بنفي؟

الجواب: أنها سبقت بشبهه.

وقوله تعالى: [﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيره ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾] يقول المؤلف: [﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيره]؟

والجواب: لا، ليس لنا مما ملكت أيماننا شركاء فيما رُزقنا، فالمملوك لا يشاركك في مالك، ولا يشاركك أيضًا في ولدك ولا يشاركك في أي شيء تملكه.

وقوله: [﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم فيه سواء]، المؤلف أتى بكلمة [وَهُم]؛ لأن المساواة لا تكون إلا بين شيئين، فلهذا أتى بقوله [وهم]، ولا حاجة إليها في الحقيقة، لأن الكلام تام بدونها، إذ من الممكن أن يقول: ﴿فَأَنتُمْ﴾ الضمير يعود على المالك والمملوك، فأنتم أيها المالكون والمملوكون فيه سواء، وحينئذٍ لا نحتاج إلى تقديم وهم.

وقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، هذا الذي تسلط عليه النفي، يعني: لستم فيه سواء. وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [أي: أمثالكم من الأحرار]، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الضمير يعود على ﴿مِّن﴾ باعتبار اللفظ أم باعتبار المعنى؟ نقول: باعتبار المعنى؛ لأن ما لو عاد إليها الضمير باعتبار اللفظ، لعاد إليها مفردًا، فلما عاد إليها جمعًا صار باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، المؤلف رحمه الله جعل الأنفس بمعنى: الجنس، يعني: كما تخافون من جنسكم، ولهذا قال: [أي: أمثالكم من الأحرار]، ويمكن أن يقال: إنه يعود على ذات الإنسان، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: كما أنكم لكم التسلط على أموالكم فأنتم تخافون أن يتسلطوا على هذه الأموال كما تتسلط أنفسكم، وقوله:

﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا مصدر مضاف إلى الفاعل، وأنفس هي المفعول، قال المؤلف رحمه الله : [والاستفهام بمعنى: النفي. المعنى: ليس مماليككم شركاء لكم إلى آخره عندكم، فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له؟!].

وهذا مثل واضح؛ حيث إنه إذا كان لك أنت الذي لا تملك، لا يشاركك مماليكك في مالِك، وفيما هو من خصائصك، فكيف تجعل لله تعالى شريكًا فيما هو من خصائصه؟! إذنْ الكلام واضح جدًّا في إلزام هؤلاء بعدم الشرك، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ قال

المؤلف: [نبينها مثل ذلك التفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون].

كذلك الكاف اسم بمعنى: مثل، فهو إذنْ مفعول مطلق، وعامله مفصَّل، أي: مثل ذلك التفصيل والتبيين يفصل الآيات، ولكن من الذي ينتفع بها؟قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: إن الله فصل الآيات للعاقلين وغير العاقلين، فلماذا خص ذلك بالعاقلين؟

الجواب: لأنهم المنتفعون بهذا التفصيل، مثلما وصف الله القرآن بأنه هدى للمتقين، وفي آية أخرى هدى للناس عامة، فباعتبار الهداية المطلقة هو عام، وباعتبار الانتفاع هو خاص - والله أعلم -.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾ بل هذه للإضراب، والإضراب هنا انتقالي وليس إبطاليًّا، **وجه ذلك:** أن الله تعالى لما بيَّن هذه الآيات الدالة على قدرته، وعلى أنه واحد لا شريك له بضرب المثل الأخير، المثل الذي لا ينازع فيه إلا مكابر، وهو أنه كيف تجعلون لله شريكًا والله يملكه، فهل لكم أنتم شركاء في أموالكم من ممالككم؟

الجواب: لا، إذنْ فإنه يدل على أن الله لا شريك له، ثم بعد هذا بيَّن عز وجل أن الذين خرجوا عن ذلك وأنكروا البعث وأنكروا الوحدانية أنهم ليسوا على حق، وإنما هم ظالمون، ولهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال المؤلف: [بالإشراك] وهذا تخصيص في غير محله، والظاهر لي: أن المؤلف خصَّصه مراعاة للمثل الذي قبله؛ لأن المثل الذي قبله واضح في أن الغرض منه إبطال الشرك، لكن لو قيل: إنه يشمل هذا وغيره من الظلم، كإنكار البعث مثلًا، وإنكار البعث لا شك أنه ظلم؛ لأنه يستلزم تكذيب الله عز وجل، كما ثبت في الحديث القدسي أن تكذيب الله بأن الله تعالى لا يعيد الخلق كما بدأه، وقد سبق ذكره، فيكون المراد بالظلم هنا الإشراك وغيره مما ظلموا فيه أنفسهم.

وقوله: ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ جمع هوى، والهوى في الأصل: الميل، ثم إنه لا يطلق في الغالب إلا على الهوى المذموم، فيقال: اتبع هواه دون هداه، وقد يأتي للهوى المحمود، كما في الحديث - وإن كان فيه ضعف -: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»(١) فالهوى هنا التابع لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، لا شك أنه هوىً محمود.

وقوله: ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: أن هذا الاتباع ليس مبنيًّا على علم بل هو مبني على

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة» وانظر تفصيل القول فيه للعلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه: «جامع العلوم والحكم».

الجهل والضلال فيمن كانوا جاهلين، وعلى الاستكبار والعناد فيمن كانوا معاندين، فالذين اتبعوا أهواءهم اتبعوها بغير علم، إذا كانوا جاهلين، فظاهر الأمر أنه لا علم لهم باتباع أهواءهم، لكن إذا كانوا معاندين، فهل نقول: إنهم بغير علم؟

الجواب: نعم، نقول: إنهم بغير علم؛ لأن من استكبر وعاند الحق، فإنه كالجاهل بما يستحقه الرَّبُّ عز وجل، فهو في الحقيقة غير عالم، بل الجاهل خير منه.

فإذا قال قائل: كيف يصح نفي العلم مع وجوده؟

قلنا: كما يصح نفي السمع مع وجوده، ونفي البصر مع وجوده، لمن لم ينتفع به، أليس الله يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] أو ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١١٧].

المهم: أن نفي العلم لمن لم ينتفع به صحيح، كنفي السمع عمن لم ينتفع به، والحاصل أن المتبعين لأهوائهم ينقسمون إلى قسمين:

قسم جاهل حقًّا: بنى هواه على الضلال، ويمكن أن نمثل لهؤلاء بالنصارى؛ لأن النصارى ضالون.

وقسم آخر مستكبر معاند: فهذا في الحقيقة لا علم عنده وإن كان له علم فإنه لا ينفعه بل يضره، كاليهود.

قال الله عز وجل: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، ﴿مَن﴾ اسم استفهام، والمراد بالاستفهام هنا: النفي، وقد سبقت لنا قاعدة أن الاستفهام إذا جاء بمعنى النفي صار مشربًا بالتحدي؛ لأنك إذا قلت: من يفعل كذا؟ أعظم من قولك: لا أحد يفعله، كأنك تقول: هذا أمر لا يمكن، فإن كنت صادقًا فأرني من يفعله، فإذا جاء الاستفهام بمعنى النفي صار أبلغ من النفي المجرد؛ لأن الاستفهام بمعنى النفي مشرب بالتحدي.

وقوله: ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ فاعل، والمفعول محذوف، والتقدير: من أضله الله، وهذا المفعول هو عائد الموصول الذي يعود إليه.

وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، قال المؤلف: [أي: لا هادي له] فسر الاستفهام بالنفي وهو حق لكنه كما قلت أبلغ من النفي المجرد.

ثم قال: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله]، الظاهر أن الواو هنا للاستئناف؛ لأن الجملة خبرية والتي قبلها إنشائية استفهامية؛ لأن الاستفهام من قسم الإنشاء كما قرأنا في البلاغة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم بغير علم، هم الذين يستحقون العذاب ولن يجدوا أحدًا ينصرهم منه، أي: يمنعهم من العذاب.

والنفي هنا مؤكد بـ ﴿مِّن﴾ الزائدة الداخلة على قوله: ﴿نَّـٰصِرِينَ﴾، وأصل الكلام بدون هذه أن يقال: وما لهم ناصرون.

مسألة: هل ما هنا حجازية أو عربية؟

الجواب: الحجازي معناه الذي يختص به الحجازيون، والعربي الذي للحجازيين والتميميين، وهي هنا عربية لاختلاف الترتيب؛ لأن خبرها قُدم ولا تكون حجازية إلا إذا كانت مرتبة، أي: الاسم قبل الخبر.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

بعد أن توعد هؤلاء المشركين بما توعدهم به وبين أنه لا أحد يهديهم إذا أضلهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

أي: فأقِم وجهك إليه وعما سواه، ولهذا حذف المتعلق؛ ليكون شاملًا للميل إلى الدين والميل عن الدين وأصل الحنف ميل الرجل، والرجال المائلة تسمى حنفاء، فالحنيف معناه: المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن المعصية إلى الطاعة، وقول المؤلف: [أي: أخلص نيتك لله] أي: أخلص دينك لله [أنت ومن تبعك]، وهذا تفسير معنوي لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، ولو جُعل أعم من ذلك لكان أولى؛ لأن إقامة الوجه تشمل الإخلاص وتمام الاتباع؛ لأن إقامة الوجه نحو الشيء يستلزم متابعته وعدم المخالفة فيكون شاملًا لإخلاص النية وللاتباع اللذين هما أساس العمل، فكل عمل لا ينبني على الإخلاص والمتابعة فهو باطل؛ لأنه إذا فَقَدَ الإخلاص فهو شرك، وإن فقد الاتباع صار بدعة، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١) هذا في الإخلاص، وقال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) هذا في الاتباع.

وقوله: [أنت ومن اتبعك]؛ لأنه سيأتينا وقفٌ مجموع وهو قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم:٣١] إلى آخره ولا يمكن أن تكون الحال المجموعة لمفرد؛ لأن الحال وصف فكما لا يخبر عن الواحد بالجمع لا يُجعل الحال جمعًا لواحد، وما ذهب إليه المؤلف صحيح من وجهين:

أولًا: مراعاة اللفظ الآتي.

والثاني: أن الخطاب للرسول ﷺ خطاب له ولأمته؛ لأن زعيم القوم يوجَّه إليه الخطاب الموجه للجميع، يقول مثلًا: الركن في الجيش للقائد: اذهب إلى الجبهة الفلانية، فمن يجيب إذنْ؟ هل القائد وحده؟ نقول: لا، لا يريده وحده فالخطاب لزعيم قوم خطابٌ للجميع، فالله - عز وجل - يوجه الخطاب للرسول ويُريده ﷺ والأمة. الدليل على هذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١].

فالخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبعده: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فليس هو وحده بل كل الأمة، ويدل لذلك أيضًا قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١] فنحن لنا فيه أسوة ونحن له تُبَّع.

إذنْ: وجه كون الخطاب الخاص بالرسول للأمة له وجهان:

الوجه الأول: أن خطاب الزعيم خطاب له ولمن تبعه بدليل قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١].

الوجه الثاني: أننا مأمورون باتباع الرسول فكل خطاب له يأمر به أو ينهى عنه فإننا تبع له في ذلك والفرق بين الوجهين ظاهر؛ لأنه على الوجه الأول يكون تناول الخطاب لنا أصلًا مع الرسول، وعلى الوجه الثاني يكون الخطاب لنا عن طريق التبعية.

وقال تعالى: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلقته ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي دينه أي: الزموها].

قوله: ﴿فِطْرَتَ﴾ البحث فيها من وجهين:

الوجه الأول: من حيث الرسم، والرسم غير جارٍ على القواعد المعروفة لا في الرسم العثماني، ولا في الرسم الحالي أن التاء مطلقة ﴿فِطْرَتَ﴾ وهي مرفوعة؛ لأنها مفرد، والمفرد تكون التاء فيه مرفوعة.

على كل حال: هذا لأن خط القرآن يُتبع في الرسم العثماني، واستفاضة في البحث: اختلف العلماء - رحمهم الله - هل يجوز للإنسان أن يكتب المصحف على غير الرسم العثماني أو لا يجوز؟

فمنهم من قال: إنه جائز؛ لأن الرسم العثماني عبارة عن شكل وصورة ولو كان الرسم العثماني في ذلك العهد على غير ذلك الوصف لكتب القرآن به.

إذنْ: خضوعه للرسم العثماني في ذلك الوقت ليس على سبيل أنه نزل على هذا الوصف؛ لكن على سبيل أن الرسم في ذاك الوقت كان على هذه الصورة، ولا شك أنه لو كان على الصورة الموجودة حاليًا، لا شك أنه سيكتب عليها.

مثلًا: الصلاة الصورة الحالية بعد الصاد لام ألف(لا)، لكن على الرسم العثماني لام وواو، والزكاة مثلها، والربا بالواو مع أنها على الرسم الموجود بالألف.

الحاصل: أن بعض العلماء يقول: يجوز أن يكتب القرآن على القواعد المعروفة حاليًا، وتعليلهم؛ لأن هذا الرسم شكل كان في ذلك الوقت على هذا النحو فكتبوه وليس القرآن نازلًا مكتوبًا بهذا، فلو كان نازلًا مكتوبًا بهذا لقلنا ربما لا يجوز، لكن هذا اصطلاح، وإذا كان اصطلاحًا فكل ما يتأتى به الغرض فإنه يجوز.

ومنهم من يقول: إنه لا يجوز مطلقًا أن يخالف الرسم العثماني وأنه يجب أن يبقى الرسم حتى

لو رسمت للصبيان على السبورة يجب أن يكون بالرسم العثماني احترامًا للقرآن.

ومنهم من فصل وقال: إن المبتدأ يجوز أن نرسمه له بحسب القواعد المعروفة عنده، وغيره لا يجوز؛ لأن المبتدأ يحتاج إلى تعليم، لو أنك كتبت بالرسم العثماني للمبتدئ الربا في قوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٦] ماذا يقرأها؟ (يمحق الله الربو)، والزكاة يقول: (الزكوت)، والصلاة تكون (الصلوت)، وما أشبه ذلك بخلاف الإنسان العالم فإنه يكتبه بالرسم العثماني.

وأيًا كان فإن ما يفعله بعض الناس اليوم من جعلهم يكتبون القرآن على صورة النقوش ويجعلونها في براويز من أجل أن يعرفوا أيهم أحسن نقشًا فإن هذا محرم على كل الأقوال؛ لأنه الآن أصبح هذا العمل كأننا جعلنا القرآن وشيًا وتطريزًا فتضيع قيمته، وأقبح من ذلك أن يجعل على صورة إنسان.

فقد شاهدت صورة إنسان لآية من القرآن؛ إذ إنهم راسمون رأسًا ورجلين كأنه جالس مفترش، فهذه مُضادة ومُحادة لله ورسوله؛ لأن الصورة المحرمة كيف تَكْتِبُ بها القرآن وتَجْعَلَهَا كتابة للقرآن؟!!!

والحاصل: أن الناس ـ نسأل الله لنا ولهم الهداية ـ صاروا يبالغون في أشياء تضرهم ولا تنفعهم بالنسبة للقرآن الكريم.

البحث الثاني: في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ ما الذي نصبها؟

الجواب: الذي نصبها فعل محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [الزموها] أي: الزموا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

ومثل هذا يقولون: إنه منصوب على الإغراء، فهو إذن أبلغ من ذكر العامل الذي هو الزم حذفه؛ لأنه إذا وجد العامل تقيدت الجملة به، لكن إذا حُذف العامل صارت الجملة صالحة له ولسواه مما يمكن أن يتسلط على المعمول، فـ[الزموها] اعتنوا بها، وتمسكوا بها، وما أشبه ذلك.

فلهذا يقولون: إنه منصوب على الإغراء وهو المبالغة في الحث.

ثالثًا: ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتق من فطر الشيء أي: ابتدعه على غير مثال سابق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] أي: مبدعهما على غير مثال سابق، وهذه الفطرة أبدعها الله ـ عز وجل ـ في الإنسان أو في الناس كما في الآية على غير مثال سابق، ولهذا قال: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلقته ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي دينه أي: الزموها].

وهذه الآية شاهد للحديث الصحيح: «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِهِ**»[1] ولو أن المخلوق تُرِك وفطرته ما عَبَدَ إلا الله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

ولهذا البهائم العُجم التي ليس لها ما يغيرها أو يعرفها هل يمكن أن تعبد اللات والعزى والشمس والقمر؟

الجواب: لا؛ لأن الله يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤].

فأصل الخلق مفطور على توحيد الرب ـ عز وجل ـ الخالق، لكن من أُعطوا العقول هم الذين ربما ينحرفون؛ لأن لهم إرادات واتجاهات بخلاف مَنْ ليس له إلا العقل المعيشي، فإنه لا ينصرف عن هذه الفطرة، ولهذا البهائم العُجم تعرف خالقها وفاطرها ولا تسبح إلا لله.

وقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [لدينه] أي: لا تبدلوه بأن تشركوا.

وهذه الجملة نفي؛ لأن ﴿لَا﴾: نافية للجنس، فهل هو باقٍ على كونه نفيًا يعني: لفظًا ومعنىً أو أنه نفي لفظًا خبرٌ معنىً؟

المؤلف أخذ بالأخير وأنه نفي بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا هذه الفطرة بالإشراك، والنفي يأتي بمعنى النهي كثيرًا مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:١ ـ ٢] فإنه فيها تفسيرات ـ كما تقدم ـ أحدها أنها بمعنى النهي أي: ليس فيه ريب ولا شك، والثاني: بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه ومثل قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧].

هذه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبدلوا خلق الله بالإشراك، ويجوز أن يكون نفيًا على ظاهره، وأنه لا أحد يبدل خلق الله كما في قوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، فيكون المعنى: أن الأمر بيد الله ـ عز وجل ـ فمن شاء هداه بقي على فطرته، ومن شاء أن يضله أضله فلا يستطيع أن يبدل خلق الله، وإنما الذي بيده الأمر هو الله، وعلى هذا فيكون في الآية وجهين:

الأول: أنها خبر بمعنى النهي.

والثاني: أنها خبر على بابه.

وعلى الأول الأمر ظاهر يعني: المعنى ظاهر أنه (لا تبدلوا) فيكون نهانا عن الإشراك، وعلى المعنى الثاني: يكون وجهه أن هذه الفطرة التي فطر الله عليها الخلق لا أحد يستطيع أن يبدلها بل الذي يبدلها هو الله، فمن أراد الله هدايته لن يضله أحد، ومن أراد الله أن يُضلَّه فلن يهديه أحد، لاسيما وأنه قال قبل هذا: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩].

من جملة أسباب التبديل ما ذكره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»، وذِكْرُ الأبوين ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التنظير والتمثيل، يعني: أن من يتصل بهذا الإنسان يجعله يهوديًّا أو نصرانيًّا.

وكم من إنسان تنصَّر لا عن طريق الأبوين ولكن عن طريق الجلساء والرفقاء، ومن ثَمَّ حذَّر

النبي ﷺ من جليس السوء ورغَّب في الجليس الصالح وقال: «إِنَّ مَثَلَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، أَوْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، أَوْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَالجَلِيسِ السُّوءِ كَنَافِخِ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً»(١).

والنبي ﷺ حرص غاية الحرص وبذل ما يستطيع من جهد في هداية عمه أبي طالب ولكن ما تمكن، قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وليس معنى ذلك أننا إذا قلنا: إن الأمر بيد الله ـ عز وجل ـ وأنه هو الذي يضل ويهدي، ليس معنى ذلك ألا نفعل الأسباب كما أن الأمر بيد الله في: إيجاد الرزق، إيجاد الولد، دفع الضرر، فهل نحن نفعل الأسباب أو نبقى حائرين؟

الجواب: نفعل الأسباب، والهداية بيد الله، والإضلال بيد الله، لكن لكل منها سبب.

ما قاله المؤلف له وجه لورود ذلك في اللغة العربية، والوجه الثاني هو الأصل؛ لأن عندنا نفي، فمَنْ صرفه عن ظاهره يحتاج إلى دليل.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [المستقيم توحيد الله] ذلك المشار إليه قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: إقامة وجهك للدين هو: ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ [المستقيم]، لكن ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ أبلغ؛ لأن ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ على وزن (فَيْعِل) فهي صفة مشبهة، يعني: هو (قيِّم) أبلغ من قولنا: إنه مستقيم؛ لأن المستقيم ضد المعوج؛ لكن القيِّم الكامل في قيامه، فهو أبلغ.

يعني: أن هذا الدين هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الكامل الذي ليس فيه اعوجاج وليس فيه نقص ولا شك، هو ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فلا أَقْوَم للعباد ولا أنفع للعباد من اتباع شريعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإخلاص له واتباع رسله.

وقوله: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله].

قال المؤلف: [كفار مكة]، وهذا لا شك أنه تخصيص بدون دليل؛ بل الدليل يخالفه؛ لأن كفار مكة ليسوا أكثر الناس.

وقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصدق الله ـ عز وجل ـ؛ لأن أهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف هنا الأكثر أم الأقل؟ الأكثر بدون استفهام

قوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم لو علموا ما صاروا من أصحاب الجحيم فهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، لكن ما معنى أنه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ينبغي لهم أن يكونوا عليه، أم ماذا نقول؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

الجواب: الآية مطلقة قد تشمل كل شيءٍ ينافي هذا الدين، فمن خرج عن هذا الدين فإنه لا يعلم أن هذا الدين قيِّم، وإن علم به ولم يتبعه صار علمه كالمعدوم، كذلك لا يعلم حقيقة أمره وحاله وأنه يجب أن يكون دائنًا لله بما دان به خلقه، كذلك لا يعلم ما يترتب على هذا من جزاء بالثواب الجزيل لمن قام به وبالعقوبة والعذاب الأليم لمن خالفه.

وحذف المفعول يقتضي العموم، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم: (أن حذف المعمول يفيد العموم) وله أمثلة كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، ومن أوضحه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦ - ٨] قوله: ﴿فَآوَىٰ﴾ الإيواء للرسول ولمن تبعه، ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الهداية له ولمن اهتدى بسنته، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ الغنى له ولأمته، وقال النبي: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»(١).

المهم: أن تحقيق المؤلف لقوله: [كفار مكة] لا وجه له، والصواب: أن أكثر الناس من بني آدم من كفار مكة وغيرهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما إذا قلنا بالعموم شمل كفار مكة، وأما كون السورة مكية فلا يدل على أن جميع الخطابات التي فيها تشير لأهل مكة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله بخلقه بضرب الأمثال لهم؛ ليصلوا إلى الكمال في الهداية.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** بلاغة القرآن في ضرب الأمثال وهو أسلوب من أساليب اللغة العربية في دروس البلاغة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** المناداة بجهل هؤلاء المشركين وعنادهم؛ لأنهم جعلوا لله شركاء من المملوكين وعنادهم؛ لأن الأمر واضح، ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومع هذا عاندوا وأصروا على الشرك حتى إنهم في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن العبيد لا يملكون، وجه ذلك: أنه إذا انتفت مشاركتهم لأسيادهم في أموالهم فغيرهم من باب أولى، وانفرادهم أيضًا من باب أولى، إذا كان لا يمكن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

المشاركة مع أسيادهم فالغير من باب أولى، والذي لا يملك المشاركة لا يملك الانفراد مع أنه جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ»[1]، قال ﷺ: «فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ» ولا تظن أن هذا من باب التنافر؛ حيث أضاف المال إليه «مَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ»؛ لأن الإضافة هنا ما هي للتعليل ولكنها للاختصاص كما تقول: سرج الدابة، وزمام الدابة، وحجرة الدابة، وما أشبه ذلك.

٥ - **ومن فوائد الآية:** ما استدل به أهل الاشتراكية؛ حيث قالوا: إن الآية تدل على ثبوت الاشتراكية؛ لقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الرد عليهم بهذه الآية فهي فيها دليل على نفي الاشتراكية؛ لأن قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مثل ما تقول: (هل لكم؟) يعني: ما يمكن أن يكون هكذا.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن مفصَّل للآيات؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه لا يدرك هذا التفصيل إلا أهل العقل، والدليل: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** نفع العقل؛ لأن به يدرك الإنسان هذا التفصيل الذي يفصِّله الله - عز وجل -.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عظمة الله؛ لقوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأن ﴿نُفَصِّلُ﴾ والله سبحانه ليس معه غيره فيكون دالًّا على التعظيم لله وحده بنون العظمة.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** أن المعبود من دون الله مِلْكٌ لله؛ لأن الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، ولا شك أن كل من في السماوات والأرض فهو ملك لله.

١١ - **ومن فوائد الآية:** أن الرزق لا يُنال بالكسب وإنما هو فضل من الله، لكن له أسباب لا شك مثل غيره من الأمور؛ لقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ لكن هذا الرزق له أسباب شرعية وأسباب كونية، فمثلًا من الأسباب الشرعية: انتقال المال بالإرث واستحقاق الفقير من الزكاة وما أشبه ذلك، والأسباب الكونية: أن الإنسان يسعى بحراثة الأرض والبيع والشراء وما أشبه هذا.

١٢ - **ومن فوائد الآية:** إثبات القياس، وجه ذلك ضرب المثل قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

١٣- **ومنها أيضًا:** كون القياس دليلًا هو من طريق العقل؛ لقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ولأن إلحاق الفرع بالأصل وهو قياس يحتاج لعلة جامعة تدرك بالعقل.

إذا قال قائل: إذا قلتم: إن القياس طريقة العقل فكيف يكون دليلًا شرعيًّا؟

الجواب: أن الشارع اعتبره فجعله دليلًا شرعيًّا بدليل ضرب الأمثال، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

فوائد قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المشركين وغيرهم من الذين ظلموا أنفسهم إنما اتبعوا أهواءهم، أما العقل ما استعملوه، ولكن مجرد هوى، ولو اتبعوا العقول ما خالفوا المنقول.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز نفي الصفة عمن ينتفع بها؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الأمور كلها - الهداية، والضلال، والصلاة، والزكاة، وغيرها - بيد الله؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** لفت انتباه الإنسان إلى سؤال الهداية دائمًا من ربه؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، إذا علمت ألا أحد يهدي من أضل الله فإلى من ترجع في طلب الهداية؟

إلى الله - عز وجل - حتى نفسك لا تعتمد عليها بل اعتمد على الله - عز وجل - في الهداية واسأله دائمًا الثبات، ولهذا يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] هم آمنوا بالله ورسوله، ولكن المراد اثبتوا عليه وحققوه، وهذا كله لا ينال إلا بالله.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن هؤلاء الظالمين لا يجدون من ينصرهم من عذاب الله؛ لقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى لا يضل أحدًا إلا لظلمه، فهو الذي بدأ وانحرف في آرائه السيئة، فظلم فأضله الله؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، هذا مفرع على الذي قبله؛ ولهذا أتى بالفاء في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ إشارة إلى أن إضلالهم بسبب ظلمهم، فهم الذين ظلموا فأُضلّوا - والعياذ بالله -.

إذا قال قائل: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هل يشكل عليهم ما وقع من نصر المشركين في أُحد؟

الجواب: في أُحد حصلت هزيمة للمسلمين ومعلوم أنه انتصار للكافرين وأن هزيمة الخصم انتصار للخصم الآخر، ولهذا قال أبو سفيان: (اعْلُ هُبَل)، فهل هذا ينافي الآية الكريمة؟

نقول: لا ولكن هذا يعني: كأن نصرهم ليس لأجل أن ينتصروا ولكن ابتلاء الآخرين، ولهذا كانت العاقبة للمؤمنين بل قال الله - عز وجل - مشيرًا إلى الحكمة من انتصارهم: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران:١٢٧]

قال أهل العلم: انتصارهم هذا يؤدي إلى التشجع على محاربة الرسول حتى تكون نهايتهم أن يقطع طرفًا منهم.

على كل حال نقول: في الحقيقة ليس هذا الظهور على المسلمين نصرًا لهؤلاء ولكن من أجل

الابتلاء لهم، والابتلاء والامتحان للمؤمنين بمخالفتهم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢] يعني: حصل ما تكرهون، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ حصل ما تكرهون.

٧ ـ وفيها فائدة: الحث على طلب العلم والعمل به؛ لقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، وهل فيه دليل على ما ذهبت إليه الجبرية؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟

الجواب: ليس فيه دليل؛ لأن إضلال الله لهم كان بسببهم فيكونوا هم السبب بدليل أنه قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ فكانوا هم الظالمين أولها فأضلوا ـ والعياذ بالله ـ.

٨ ـ ومن فوائدها: الرد على القدرية، يؤخذ من قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فنسب الله الإضلال إليه، والذي يضل هم الذين حقت عليهم الضلالة يدل هذا على أن فعل العبد في تقدير الله وخلق الله.

فإذا قال قائل: هذا مشكل أن تقولوا: إنه بخلق الله وفعل الإنسان وهل يمكن أن يكون الشيء الواحد مفعول لفاعلين؟

الجواب: الفعل الواحد لا يكون مفعولًا لفاعلين إلا إذا اختلفت الجهة، يعني: إذا قمت لا يمكن أن يكون قيامي قيام شخص آخر، أو أن يكون فعلي فعلًا لفاعل آخر، لكن إذا اختلفت الجهة صح ذلك، فأقول: إن فعل العبد بالنسبة للعبد فعل مباشر له؛ لكن إذا أردت القيام ولكنني عاجز ما أقدر أيضًا فما يحصل القيام، الأول: لانتفاء الإرادة، والثاني: لانتفاء القدرة، فمن الذي خلق الإرادة والقدرة؟ الله ـ عز وجل ـ هو الذي خلق الإرادة والقدرة فصارت نسبته إلى الله واضحة ـ نسبة السبب إلى مسببه ـ، أما المباشر فهو الإنسان نفسه.

بهذا نرد على القدرية بأنه ما يمكن أن يكون الفعل الواحد مفعولًا لفاعلين، نقول: هذا حق ولكنه يصح أن يكون لفاعلين باعتبارين باختلاف الجهة، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة أن فعل الإنسان ينسب إليه حقيقة.

وسبق لنا أن الأشاعرة قالوا قولًا غير معقول في هذا الباب إذ قالوا: لا ينسب للإنسان حقيقة كسب له، لكنه ليس له حقيقة، حتى إنهم يقولون: إذا قمت فإن القيام ما حصل بك لكن حصل عندك، ويقولون: الإنسان إذا أخذ السكين وذبح الشاة فهو ما ذبح ولكن عند ذبحه، ويقولون: إذا أخذت الحجر ورميت الزجاجة فانكسرت هي ما انكسرت بالحجر ولكن انكسرت عنده؛ لأنهم يقولون: لو أنك أثبت أن هذه الأشياء تحصل بهذه الأشياء أثبت خالقيْن يعني: هذا الكسر أثبت خالقًا، وهو هذا الحجر الذي خلق الكسر ـ هذا ليس معقولًا ـ ولذلك يقولون: إن هذا الكسب عند الأشاعرة وهذا من الأمور التي لا حقيقة لها، وكل إنسان يعرف أن المُسبَّب يحصل بالسبب مباشرة؛ لكن من الذي جعل هذا السبب؟ الله ـ عز وجل ـ فهو الذي جعل النار محرقة، يقولون: لو

أدخلت الورقة في النار واحترقت ما احترقت في النار، لكن عند النار، أما المحرق فهو الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]

١ - **يستفاد من هذه الآية:** وجوب الإخلاص لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

٢ - **ويستفاد منها:** أن الإخلاص لا يتم إلا بسلب وإيجاب، وهو مضمون قول الإنسان: لا إله إلا الله، فإن هذه الجملة العظيمة مشتملة على النفي والإثبات ولا إطلاق إلا بنفي وإثبات، وهذه الآية فيها نفي وإثبات ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ إثبات ﴿حَنِيفًا﴾ نفي؛ لأنها مائل، إذن: ففي هذه الآية وجوب الإخلاص، وفيها أن الإخلاص لا يتم إلا بالسلب والإيجاب يعني: بالنفي والإثبات.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخطاب للرسول ﷺ خطاب له ولأمته، يؤخذ من ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الإخلاص هو الفطرة، وذلك في قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾، فهذه شاهدة لقول الرسول ﷺ: «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**».

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الخلق لله، وأنه الخالق وحده؛ لقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما يقدره الله لا يمكن أن يغير؛ لقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ على أحد المعنيين، أما على مذهب المؤلف فيستفاد منه: النهي عن الشرك هل يمكن أن نقول: إن الآية تدل على المعنيين جميعًا؟

الجواب: نعم، صالحة للمعنيين جميعًا؛ لأنها صالحة لأن تكون للنفي وأن تكون خبرية أو أن تكون للطلب فتكون إنشائية، والكلام في الحقيقة أن الإنشاء والخبر متعارضان لكن إذا جعلنا كل واحد على انفراد بمعنى أن ما يدرى هل أراد الله هذا أو أراد هذا، وما دامت الآية صالحة لهذا ولهذا فنقول: هي للمعنيين جميعًا، يعني: لا أحد يستطيع أن يغيِّر ما خلق الله، ولا يجوز لنا نحن أن نغير هذه الفطرة التي خلقنا عليها من الإخلاص إلى الشرك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أقوَم الأديان ما بُني على الإخلاص؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ والمشار إليه هو ما سبق من الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي أمر الله بها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، والدين القيم هو الذي أقام الإنسان فيه وجهه تؤخذ من قوله: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وهو الفطرة التي فطر الناس عليها.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الدين المبني على الإخلاص اجتمع فيه الشرع والفطرة، الشرع لأنه أُمر به، والفطرة؛ لأن الناس خُلقوا عليها وجُبلوا عليها ولولا ما يحصل من الموانع والعوارض لبني آدم لكان الناس كلهم مؤمنين على الفطرة كما جاء في الحديث: «أَبَوَاهُ

يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِهِ»[1].

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن أكثر الناس في هذا الباب على جهل وضلال؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم بين أمرين: إما عالم استكبر فعلمه لم ينفعه، وإما جاهل، والعامة المتبعون لدعاة الكفر والضلال يوصفون بالجهل وعدم العلم، ويصبح منهم العارفون الذين يوصفون بالجهل؛ لعدم انتفاعهم بما علموا، لكنهم في الحقيقة يستحقون وصفًا أعظم فهم جاهلون مستكبرون؛ لأن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ يعلمون أنهم على ضلال؛ لما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢] ولم يقل فرعون: إنني ما علمت فسكوته إقرار، لكن عنده عناد.



قال الله تعالى:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٣]

التفسير

قال المؤلف: ﴿مُنِيبِينَ﴾ [خاشعين] يعني: ناب ينيبون إذا رجعوا.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ [تعالى فيما أمر به ونهي عنه] يعني: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وقيل: ذلك من الشرك إلى التوحيد. هذا معنى الآية وقد أثنى الله على المنيبين إليه كما في قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤].

فالإنابة من أفضل الأحوال للعابدين؛ لأن المنيب إلى الله تعالى دائمًا يذكر الله بقلبه؛ لأنه يعلم أنه قد انتقل من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده حتى يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراك.

يقول المؤلف: [حال من فاعل (أقِم)، وما أريد به أي: أقيموا].

قوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من الفاعل وما تبعه، وهذا مبني على أن الخطاب في قوله: (أقم)

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

للرسول شخصيًّا، أما إذا قلنا: إن المراد به الأمة وإنما خوطِبَ به زعيمها فلا حاجة إلى هذا التفصيل.

يقول: [﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من فعل (أقم)] فلا مانع منه أن يكون جمعًا؛ لأن المراد بالمفرد في أول الآية الجمع.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ خافوه، والتقوى تقدم لنا مرارًا أنها مأخوذة من الوقاية، وأصل التقوى وَقْوَى، وأن المراد بالتقوى هو اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن جميع التفاسير التي فسرت بها التقوى كلها ترجع لهذا المعنى الجامع العام وهو: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فمن يعبد الله بفعل الأوامر، ولكنه يفعل النواهي عنده تقوى من وجه دون وجه، واعلم أن التقوى عند الإخلاص تشمل الدِّين كله كما يقتضيه هذا الترتيب، فإن قُرِنت بالبر في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] صار المراد بها: ترك المحظورات، وصار المراد بالبر: فعل المأمورات، وهذا اللفظ له نظير كثير في اللغة العربية يكون له معنىً عند الانفراد، ومعنىً عند الاجتماع، والذي يعين ذلك هو سياق الكلام.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها قويمة، وليس المراد بإقامتها لفظ: قد قامت الصلاة، بل أن تأتي بها قويمة وإقامتها على نوعين:

الأول: إقامة واجبة لابد لصحة الصلاة منها، وذلك بالإتيان بالشروط والأركان والواجبات.

والثاني: إقامة مكملة وهي إضافة المستحبات إلى ما ذُكر، فإنها إضافة مكملة، ومن إقامتها المكملة أن يأتي الإنسان بالنوافل؛ لأن النوافل تكمُل بها الفرائض يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وعطفها على ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وسبق لنا أن عطف الخاص على العام يقتضي زيادة الاعتناء به، فهو دليل على أهمية الصلاة.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الخطاب هنا يعود على الفاعل في ﴿مُنِيبِينَ﴾ يعني: حال كونكم ﴿مُنِيبِينَ﴾ غير مشركين أيضًا في إنابتكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله وهو شامل للشرك الأكبر والشرك الأصغر، ولهذا يُنهى الإنسان أن يفعل الشرك أيًّا كان نوعه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، والكبائر تحت المشيئة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨].

ووجه الدلالة من الآية أن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مؤول بمصدر فيكون المعنى: إن الله لا يغفر إشراكًا به، فهو نكرة في سياق النفي يشمل جميع أنواع الشرك، ولهذا قال ابن مسعود: لِأن أحلف

بالله كاذبًا أحب إليَّ من أحلف بغيره صادقًا(١)؛ لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إذا قيل: إن هذا خطاب للرسول، والشرك في حقه ممتنع، قلنا: لا يمنع أن تخاطب شخصًا بإثبات ما هو عليه أو بنفي ما هو منتفٍ عنه، ويكون المعنى: الثبوت على ما ذُكر، يقول الله للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]ـ وهم مؤمنون ـ ولكن المعنى: اثبُتوا.

كذلك إذا قلت لشخص: لا تشرك وهو لا يشرك، فالمعنى: اثبت على نفي الشرك ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، قال المؤلف: [﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بدل بإعادة الجار] أي: بدل من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهنا أفادنا المؤلف رحمه الله أن البدل على نوعين: تارة يكون بإعادة العامل، وتارة يكون بعدم الإعادة.

فإذا قلت: (مررت بزيد أخي) فهذا بإعادة العامل، ولو قلت: (مررت بزيد بأخي) لم يعد العامل، هنا ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ هذا بدل بإعادة العامل الذي هو حرف الجر.

وقوله: [﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ باختلافهم فيما يعبدون ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقًا في ذلك ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون].

قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ هذا وصف مذموم لهؤلاء المشركين؛ حيث كان لكل واحد منهم ملة ونِحلة، فهؤلاء يعبدون حجرًا، وهؤلاء يعبدون شمسًا، والآخرون يعبدون قمرًا، والرابع يعبدون شجرًا، وهكذا.

ثم إن لهم نِحَلًا مختلفة فيما يسلكونه في منهاج عبادتهم فهم كما قال سبحانه: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: شتّتوه ووزّعوه، وهذا دليل على أنه لا ينبغي للأمة الإسلامية أن تفرق دينها.

اليهود والنصارى فرقوا دينهم على إحدى وسبعين، والنصارى على ثنتين وسبعين، والمشركون الجاهليون حدِّث ولا حرج في الافتراق، وهؤلاء فرقوا دينهم، ودينهم ما يدينون به سواء كانوا يدينون لمخلوق أو لخالق على زعمهم؛ لأن المشركين يقولون في آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ

(١) موضوع: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦٧)، وفي «أخبار أصبهان» (٢/ ١٨١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٩١).

﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وهناك أناس آخرون يعبدون ما يعبدون من الآلهة لا لتقربهم إلى الله ولكن لاعتقاد أنها هي الإله وأنه لا إله إلا هذا المعبود عندهم.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ يعني فِرق، وأصل التشيع أو الشيعة: الأنصار للشيء، فيقال: شيعة فلان أي أنصاره، فهم شِيعٌ، كل طائفة منهم تنصر ما هي عليه وتؤيده، يعني أنهم لم يقتصروا على أنهم تفرقوا فقط، بل كل واحدة تدعو إلى ما هي عليه، ومعلوم أن من يدعو إلى ما هو عليه لابد أن يحذِّر ما يخالفه؛ إذ لا يكون الانتصار إلا بهذا.

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ [منهم]، حزب بمعنى: طائفة، وسميت الطائفة المتفقة على رأي أو هدف أو دين حزبًا؛ لأن كل واحد منها يحزب الآخر أي: يقويه.

وقوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بالذي، و ﴿لَدَيْهِمْ﴾ بمعنى: عندهم وهي صلة الموصول أو متعلقة في لفظ الموصول؟

متعلقها هو صلة الموصول؛ لأن (لدى) ظرف وبُني على السكون هنا لإضافته إلى الهاء؛ لأن أصله مبني على الفتح المقدر على آخره (لدى زيد)، (جلست لدى زيدٍ) أي: عنده؛ لكنه هنا أضيف إلى الهاء مثل: (إلى) إذا أضيفت إلى الهاء يقال فيها: (إليك) و (عليك) الصلة أن متعلق الظرف وجواب المفعول يقدر فعلًا بخلاف خبر المبتدأ يقدر اسمًا، فإذا قلت: (زيدٌ عندك) فالمعنى: كائن أو مستقر، وإذا قلت: (أكرمت الذي عندك) تقول: الذي استقر عندك، والفرق بينهما أن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون مفردًا، وأما صلة الموصول فالأصل أن تكون جملة، على أنه يجوز أن تقدر مستقر في صلة الموصول؛ لكن إذا قدرنا المستقر في صلة الموصول فإنه يجب أن تقدر مبتدأً لتكون جملة التقدير الذي هو مستقر، ومن أجل هذا قلنا: إن الأولى أن تقدر من الأصل فعلًا حتى لا يحتاج إلى مبتدأ.

وقوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ﴿فَرِحُونَ﴾ هذه خبر ﴿كُلُّ﴾، وقوله هنا: [مسرورون] هنا الله وصفهم بهذا الفرح الذي وصفهم به؛ لأن من فِرح بشيء لازمه، ولكن فرحهم مذموم؛ لأنه فرح بباطل، والفرح بالباطل لا شك أنه باطل، لكنه لو فرح بما عنده من الحق لَكَانَ فرحًا مسرورًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرح لا يُذم من حيث أنه فرح، ولكن يذم من حيث متعلقه، فإن كان فرحًا بباطل فهو مذموم، وإن كان فرحًا بحق فهو محمود، أما الأشر والبطر الذي ينجم عن الفرح فهذا مذموم بكل حال حتى لو كان فرح الإنسان بالحق أدَّاه ذلك الفرح إلى الأشر والبطر، مثل أن يفرح بما أعطاه الله بالمال والبنين لكنه اتخذ من هذا وسيلة للعلو والاستكبار، فإن هذا فرح مذموم لنقيضه لا لذاته.

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طبقناه الآن على الأحزاب الموجودة، وأن كل

حزب فرح بما هو عليه، مستمسك به، مدافع عنه، موهن لغيره وجدنا أن الآية تنطبق تمامًا على ما يوجد من الأحزاب ولاسيما في الأمة العربية، فالأمة العربية الآن متحزبة كل حزب فرح بما عنده، لكن الأمة الإسلامية ما تتحزب؛ لأنها حزب واحد وهو الإسلام حتى لو اختلفت آراؤهم، هذا شافعي، وهذا مالكي، وهذا حنفي، وهذا حنبلي، وهذا ظاهري، وغير ذلك.

فإنها في الحقيقة متفقة؛ لأن كل واحد من هذه الأحزاب لا يضلل الآخر؛ بل إنه يمدح إذا خالفه بمقتضى الدليل عنده، فالإنسان العاقل المؤمن حقًّا هو الذي إذا خالفه غيره بمقتضى الدليل عنده ما يكرهه، بل يحمده على هذه المخالفة؛ لأنه ما خالفني لأنني فلان بل خالفني؛ لأنه يعتقد أن الحق معه، وهذا هو الواجب عليه والواجب على كل مؤمن أن يتبع الحق إذا تبين له ولو خالف غيره.

فإذن الطريق واحد ولو اختلف المنهاج؛ لأننا كلنا نحكم بالكتاب والسنة وكلنا نعتقد أن هذا هو الحق، فلماذا أكره من خالفني والله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] نعم، من تبين له الحق وأصر وعاند وعلمنا أنه مجادل بالباطل فهذا ينزل منزلته وهذا هو الميزان في قولهم: (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، فإن هذه العبارة اشتهرت على الألسن، لكنها ليست على إطلاقها؛ لأن مسائل الاجتهاد نوعان:

أحدهما: ما يحتمل الاجتهاد، فهذه لا إنكار فيها؛ لأن كل إنسان إذا اجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، ولا يمكن أن نزن الناس بميزان واحد؛ لأن العلم بالأحكام الشرعية يتفاوت بحسب الإيمان وحسب العلم وحسب الفهم، فمن الناس من يكون معه إيمان صافٍ حتى يرى الحق على ما هو عليه ويُفتح له باب الهداية، ومن الناس من يكون في إيمانه ضعف فيُحجب عنه من الهداية بقدر ما نقص من إيمانه.

فالإيمان له أثر كبير حتى في العلم ونذكر ما قال الشافعي عن وكيع:

شَكَوتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأَرشَدَنِي إِلَى تَركِ المَعَاصِي

وَقَالَ: اعلَمْ بِأَنَّ العِلمَ نُورٌ ... ونُورُ اللهِ لَا يُهدَى لِعَاصِ

والله تعالى يقول: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] ولا فرقان إلا بعلم.

الناس يختلفون في هذا بحسب ما معهم من الإيمان والتقوى، كذلك أيضًا يختلف الناس في العلم، فهناك إنسان مثلًا يعرف كتب السنة: البخاري ومسلم وغيرهما، وإنسان لا يعرف شيئًا، وإن كان جيدًا يعرف البخاري فأيهما أعلم؟ الأول أعلم.

والثالث الفهم: فإن الناس يختلفون فيه اختلافًا عظيمًا، ولهذا قيل لعلي بن أبي طالب: هل عهد لكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: ما عهِدَ إلينا بشيءٍ إلا ما في هذه الصحيفة، أو فهمًا يؤتيه الله رجلًا في

القرآن[1]، والفهم ليس هناك شك أنه يختلف الناس فيه حتى إن النص الواحد تجد بعض الناس يستنبط منه عشر مسائل وآخر ما يستنبط إلا مسألتين أو ثلاثة، وثالث يقول: أنا أقرأ لكم الحديث وعليكم الاستنباط.

فالحاصل: أن الناس يختلفون؛ لذلك أهل السنة والجماعة والمـفْتُونَ عمومًا يقولون:

إن اختلافنا في الآراء ليس اختلافًا في الدين؛ لأننا كلنا على هدف واحد ولا يضلل بعضنا بعضًا، ولكن يستثنى من ذلك من علم الحق وتبين له وعلمنا أنه معاند.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [وفي قراءة ﴿فَارَقُوا﴾ أي: تركوا دينهم الذي أُمروا به].

وقوله: [في قراءة] تكون سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣].

قال المؤلف: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفار مكة ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ خص هذه الآية من وجهين: من جهة من نزلت فيه أو من جهة المراد بها، ومن جهة إذاقة الرحمة بالمطر، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفار مكة، وهذا ليس بصحيح بل الناس عمومًا، ولكن هل المراد بالناس عمومهم؟

ننظر إلى الحال التي تحدث الله عنها هل تنطبق على المؤمنين أو خاصة بالكفار؟ فنجدها هنا خاصة بالكفار.

إذن: الناس من حيث هم أُناس، المراد بعمومهم هنا الخصوص وهم الكفار.

فعندنا الآن وجهان: الوجه الأول أن نقول: إن المراد بالناس، الناس من حيث هم أُناس بقطع النظر عما يتصفون به من الإيمان أو الكفر، أو نقول: إن المراد بالناس الكفار فيكون عامًّا أُريد به الخاص مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

الناس الأولى: يراد بهم واحد وهم: معن بن مسعود أو غيره، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ المراد بالناس الثانية: واحد، وهو: أبو سفيان.

المهم: أن كلمة الناس يراد بها أحد أمرين: إما أن يُراد بها المؤمنون عينًا، أو المؤمنون والكافرون، فهذا لا يصلح؛ لأن الحالة التي ذكرها الله لا تنطبق على المؤمنين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٣٧٠).

الثاني يقول المؤلف: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة]، ثم قال: [﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمطر].

إذا قلنا: رحمة بمعنى: مطر، صارت كلمة ﴿ضُرٌّ﴾ تعني: (شدة القحط) وهي عدم المطر والأمر ليس كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بل هو أعم؛ لأن كلمة ﴿ضُرٌّ﴾ نكرة في سياق الشرط فتكون للعموم بمعنى: أيُّ ضر سواء قحط أو مرض أو فَقْد مال أو غير ذلك، فهم عندما يصابون بالضر فيدعوا ربهم راجعين إليه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أصيبوا بالشدة عَرفوا الله خلاف ما أمر به النبي ﷺ في قوله: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**» فالذي لا يعرف ربه إلا في الشدة هل هو عابد ربه رغبةً؟

الجواب: لا، وهذا الذي تحدث الله عنه أخف حالًا ممن أصيب بالشدة فدعوا المخلوق، فهؤلاء أقبح ممن تحدث الله عنهم.

يقول تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من فاعل ﴿دَعَوُا۟﴾، وعندنا إشكال في قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ حرك الواو بالضمِّ مع أن الواو ساكنة؛ لالتقاء الساكنين.

فإذا قال قائل: التحريك لالتقاء الساكنين يكون بالكسر مثل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة:١].

قلنا: لكن لا يناسب الواو هنا إلا الضم.

فعلى هذا نقول: حُركت بالضم؛ لالتقاء الساكنين وأظن أن هذا يذكرنا أن نقول في الواو والياء: منع من ظهورها الثقل، الفتحة تظهر عليه، والضمة والكسرة تقدَّر منع من ظهورها الثقل، لكن هنا لا ثقل في قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ تنطق بها بسهولة والسبب أن هذه الضمة عارضة؛ للتخلص من التقاء الساكنين.

إذن: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ على هذا التقدير، أما ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكال، فكلمة (رب) بمعنى: الخالق المالك المدبر فالربوبية تقتضي الخلق فالذي أوجد الناس هو الله المالك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، مدبر ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣] هذا هو الرب حيث إذا عرفوا أن الأمور بيده فدعوه.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوُا۟﴾ من الواو.

وقوله: ﴿مُّنِيبِينَ﴾ قال: [راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيره]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ [بالمطر] ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿أَذَاقَهُم﴾ معناه أصابتهم الرحمة حتى تحققوها كما يتحقق الإنسان الطعام في فمه، ولهذا عبَّر بالإذاقة وإن كان هذا لا يُذاق؛ لأنه ما يدخل الفم، لكن لتحقق الإصابة صار كالشيء الذي يؤكل فيذاق.

وقوله: ﴿مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ المراد بالرحمة: ما يقابل الضر ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ

رَحۡمَةً ﴾، فمثلًا: إذا كان الجدب فالمراد بالرحمة: المطر، وإذا كان مرضًا فالمراد بها: الشفاء، وإذا كان فقرًا فالمراد بها: الغنى، المهم: أنها تقابل بالضر.

وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، ﴿إِذَا﴾ فجائية وهي حرف مع أن إذا الشرطية اسم؛ لأن إذا الشرطية نابت مكان الاسم، وأما إذا الفجائية فنابت مناب الفاء، والفاء حرف.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، و﴿يُشۡرِكُونَ﴾ خبر﴿فَرِيقٌ﴾، وهنا جاء المبتدأ نكرة؛لأنها أفادت وبخصوص؛ ولأنها وقعت بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأس أن يكون نكرة، وابن مالك يقول:

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَةِ مَا لَمْ تُفِدْ

وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ﴾ يعني: هناك فريق آخر لا يشرك مع أنه في آية أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] وفي آية ثالثة: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢] فهل نقول: إن الآيات التي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ تحمل على المشركين والآيات التي فيها: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ تنزل على العموم؟

الجواب: الذي يحضرني الآن أن الآيات التي يقول الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ تكون خاصة بالمشركين، أما الآيات التي يقول فيها: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم﴾ فهي تصلح للعموم؛ لأن الناس حتى المؤمنين إذا أصابهم الذُّعر صار عندهم من الرجوع إلى الله -عز وجل- واللجوء إليه أكثر.

فصلاة الاستسقاء للرجوع إلى الله، والإنابة أكثر، وصلاة الكسوف، وحتى أنت الآن بنفسك إذا وقعت في شدة يكون عندك من اللجوء والافتقار إلى الله أكثر مما إذا كنت في رخاء.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الروم:٣١]

١- **من فوائدها:** وجوب التقوى؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ووجوب إقامة الصلاة؛ لقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** شرف الصلاة وفضلها؛ لقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن الشرك صغيره وكبيره؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٤- **ومنها:** شدة التنفير من الشرك، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنه لاشك أن ترك الشرك من التقوى، لكن هذا يكون خاصًا، أي عطف خاص على عام.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أهل الشرك من شأنهم ودأبهم وعادتهم التفرق في الدين؛ لقوله: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** التنبيه على أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتفرقوا في دينهم، قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾.

٧- **ومنها:** أن التفرق في الدِّين مشابهة للمشركين، بل أولئك الذين يتفرقون في دينهم من أجل مسائل بسيطة، من فروع الدين القليلة أيضًا، هؤلاء فيهم شبه من المشركين، فتجد بعض الناس يعادي صاحبه أو أخاه من أجل أنه لا يطبق سنة يراها، وهذا التارك لا يراها، هذا خطأ؛ لأنه تقدم لنا أنه يجب على الإنسان ألا يجعل الخلاف المبني على الاجتهاد سببًا للنزاع والبغضاء والتفرق، بل العاقل يرى أن من خالفه من أجل قيام الدليل عنده فهو في الحقيقة موافق له؛ لأن السبيل والمنهاج واحد، فكلنا نمشي على الدليل، إذنْ أنت موافق لي، والمنتهى واحد وإن اختلفت الطُّرق.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أحزاب المشركين مستمسكون بما هم عليه، لقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك الذين أوتوا شيئًا من العلوم العصرية وفرحوا ورفعوا رؤوسهم، فيهم شبه من المشركين؛ لأن هنا أناس - والعياذ بالله - أوتوا شيئًا من العلوم العصرية فاحتقروا الدين، واحتقروا العلوم الشرعية، وصاروا غارقين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ترى الواحد منهم إذا أدرك مسألة من مسائل الكون البسيطة، رأى أنه كأنه أدرك تفاسير القرآن وأمهات السنة، وأنه هو العالم الحَبْرُ الذي لا يوجد له نظير، واحتقر من سواه، وهذه مشكلة وقع فيها بعض الناس اليوم.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يجوز التحزب في الدين والتشيُّع، فيكون في هذا ذم لهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم؛ لأنهم يشيِّعون الناس في الواقع، حتى إن بعض المفتين إذا أفتى قال: على أي مذهب تريد أن أفتيك، المذهب الشافعي، أو المالكي، أو الحنبلي إلى آخره؟ وهذا لا شك أنه تفريق للأمة، ولهذا ذكروا فيما سبق من التاريخ أنه يحصل إلى حد القتال بين أصحاب المذاهب المتبوعة، وأئمة هذه المذاهب لا يرضون هذا أبدًا، ولا يرضون لأحد أن يقدم أقوالهم على قول الرسول ﷺ أو أن يجعل أقوالهم مسارًا للنزاع والجدل والعداوة والبغضاء.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ إلى آخره.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن طبيعة الإنسان عند الضراء الرجوع إلى ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

وهناك دليل يتفرع على هذا: هو أن أولئك الذين إذا مسهم الضر لجئوا إلى غير الله، فهم خالفوا جميع صفات البشر، فهناك أناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الذي يتبعه أو الذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهين دعا الله، فيجعلون الشدائد لمن لا يستطيع أن

يدفع عنهم شيئًا أبدًا؛ بل ولا يستجيب لهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بخلاف الناس حتى غير المسلمين إذا وقعوا في شدة لا يدعون إلا الله عز وجل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك الذين يلجئون إلى ربهم في الشدائد، إذا زالت عنهم الشدائد وأخذوا بالرحمة انقسموا إلى قسمين: منهم من يشرك ويبقى على شركه، ومنهم مَنْ يبقى على إيمانه إذا كان من المؤمنين.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك المشركين لا يتأنّون في شركهم بعد أن ينجوا من الشدة، بل يستمرون عليه فورًا؛ لقوله: ﴿إِذَاهُمْ يُشْرِكُونَ﴾ و﴿إِذَا﴾ هنا فجائية.

٤- **فيها:** الرد على أولئك الذين يقدمون أولياءهم، أو أولئك الذين لا يلجئون إلى أحد.

٥- **وفيها أيضًا:** إثبات الرحمة لله، قال تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

٦- **وفيها:** التنديد بإشراك هؤلاء؛ لأنه قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فكيف يليق بهم أن يشركوا بربهم الذي خلقهم؟! لأن الخالق سبحانه وتعالى يجب أن تكون العبادة له وحده.



قال الله تعالى:

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا
عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ
رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٤-٣٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ اللام هنا للعاقبة، يعني: أنهم بإشراكهم صارت عاقبتهم كفرًا بما آتاهم الله عز وجل، وآتاهم أي: أعطاهم.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هل نقول: إن الباء للسببية، أو إن الباء للتخصيص، بمعنى: أنهم يكفرون بهذا الشيء؟

الجواب: أنه يحتمل أن تكون للسببية أي: بسبب ما آتاهم الله تعالى من الرحمة والإنقاذ من

الشدة، قال ذلك لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عز وجل، أو يقال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: يكفروا بهذا الشيء الذي آتيناهم؛ حيث لا يؤدون شكره، وكان الواجب عليهم أن يؤدوا الشكر لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ هذا يسمونه في البلاغة التفات؛ لأنه ما قال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أن يتمتعوا، والأمر هنا للتهديد كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أريد به التهديد] ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ الأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: [عاقبة تمتعكم، فيه التفات عن الغيبة] والغيبة هي قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾.

قد سبق لنا أن الالتفات فيه فائدتان:

الأولى: فائدة لازمة في كل التفات، وهي: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان فيه منساقًا معه، فإذا اختلف وقف قائلًا لماذا اختلف السياق؟ لماذا كانت الجملة للغائب ثم صارت للمخاطب أو العكس؟ فيقف ويعطي زيادة تأمل.

الفائدة الثانية: هذه تختلف بحسب السياق، والفائدة الثانية هنا في هذه الآية هي أنهم إذا قوبلوا بالعمل فتمتعوا صار أشد وأعظم تهديدًا مما إذا قال: وليتمتعوا.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قد قيل: إن (سوف) تفيد التحقيق، لكنها أيضًا تفيد التراخي، بخلاف السين فإنها تفيد التحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كذلك هنا؛ لأن أشد العقاب الذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾

قال المؤلف: [﴿أَمْ﴾ بمعنى: همزة الإنكار، ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وكتابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يأمرهم بالإشراك! لا].

و قوله: ﴿أَمْ﴾ هنا يقول المؤلف: [إنها بمعنى همزة الإنكار]، وهذا أحد القولين فيها، والقول الثاني: أنها بمعنى: بل والهمزة، فتكون مفيدةً للإضراب الانتقالي، يعني: بل أأنزلنا عليهم سلطانًا، والاستفهام إذا كان للإنكار فمعناه النفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويسدده، ويقول: إنه حق؟

الجواب: لا، ما أنزلنا ذلك.

وقوله: ﴿سُلْطَانًا﴾ يقول المؤلف: [حجة وكتابًا]، والحجة تسمى سلطانًا؛ لأن المحتج بها له سلطة على المحجوج، فبهذا تسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ أي: حجة، واعلم أن السلطان يطلق على عدة معانٍ، فيجمعها كلها السلطة على الشيء،

فتارة تأتي بمعنى: الحاكم، كما جاء في الحديث: «وَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»(١) وكذلك «إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»، وتأتي السلطان بمعنى: الحجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القدرة مثل قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هذا المعنى، السلطة التي بها السيطرة والغلبة.

وقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ قال المؤلف: [تكلم دلالة] فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هذا ما قاله المؤلف، ولكنه يحتمل أن تبقى على ظاهرها؛ لأن الذي ينزل من عند الله كلام الله، وكلام الله تعالى يصح أن يُنسب الكلام إليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ الباء هنا للاختصاص أيضًا؛ أي: يتكلموا بهذا الشيء، ويقولون: إنه حق، والجواب: لا، إذنْ ليس عندهم حجة لا عقلية ولا شرعية، أما العقلية فقد سبق أن فطرة الله سبحانه وتعالى كلها الإخلاص لله، وأما الشرعية فإنه لم يأتِ في كتاب من الكتب المنزلة أن الشرك حق، بل جميع الكتب المنزلة وجميع الرسل المرسلين كلهم يقولون: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ قال: [كفار مكة وغيرها] هذا أرجح وهو أنه جعلها عامة، وأفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقوله: [كفار مكة وغيرها] أن المراد بالناس هنا: الكفار، فيكون من باب العام المستعمل في الخاص، وقد مر بنا كثيرًا أن العام يُستعمل في الخاص، والعام المراد به الخصوص، غير العام المخصوص، وقد سبق لنا في «**أصول الفقه**» الفرق بين العام المخصوص، والعام الذي أريد به الخصوص الذي لم يرد معنى العموم فيه من أول الأمر، وإنما أريد به المعنى الخاص فقط، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران:١٧٣] لم يرد به عموم الناس من الأول، وأما العام الذي دخله التخصيص يعني: العام المخصوص فهو أُريد به العموم، وهو تناوله لجميع الأفراد، ثم أُخرج بعض أفراده من هذا الحكم، فيكون عامًّا مخصوصًا، وعلى هذا فلا يمكن أن يستدل مُستدلٌّ بالعام المراد به الخصوص بل يمكن أن يستدل به على عموم الحكم؛ لأنه لم يرِد به العموم، بخلاف الثاني العام المخصوص فإنه يمكن أن يستدل به على عموم الحكم.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٠٢)، وأبو داود (٢٠٨٣)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٩).

إذن المراد بالناس هنا في قوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾ عام أُريد به الخصوص، يعني: الكفار؛ لأن هذا الوصف لا ينطبق إلا عليهم، أما المؤمن فإنه إذا قضى الله له قضاءً لم يكن على هذا الوصف.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ قال المؤلف: [شدة] ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من الرحمة، ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة].

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ رحمة تشمل كل الأنواع، من مال، وأولاد، وأمن، ورخاء في العيش، وغير ذلك، كل ما ينعم به الإنسان فإنه داخل في هذا، ولهذا قال: [من نعمة].

وقوله: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فقيَّدها المؤلف بقوله: [فرح بطر]؛ احترازًا من الفرح بنعمة الله، فرح شكر؛ لأن هذا لا يذم، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾، فأمر الله تعالى أن نفرح بفضل الله ورحمته، وعلى هذا فالفرح نوعان: فرح بطرٍ يؤدي إلى الأَشَر والاستكبار عن الحق والتعالي على الخلق، هذا هو المذموم، والثاني: فرح شُكر، حيث يكون الإنسان فرحًا بنعمة الله، لكن هذا الفرح يحمله على شكر النعمة، فهذا ليس بمذموم وهو من طبيعة الإنسان، فإن الإنسان إذا رُزق ولدًا فرح، وإذا رزق مالًا فرح، وإذا كان طالب علم فتوصل إلى مسألة من مسائل العلم فرح، فهو من الأمور الطبيعية، لكن إن أدى الفرح إلى الأَشَر فإنه محرم ومذموم وإلا فلا.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ المراد بالسيئة هنا: ما يسوؤهم وهو ضد الرحمة، مثل: الخطر، وزيادة الخوف، وفقدان المال، وما أشبه ذلك ـ هذه السيئة ـ وسُمِّي سيئة؛ لأنه يسوؤهم.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء: هنا للسببية، أي: بسبب، و(ما) موصولة، أي: جملة، وعلى هذا فالعائد محذوف والتقدير: بما قدمته أيديهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

ولاحظ أن الله عز وجل أطلق الرحمة فقال: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾، وأما السيئة فقيَّدها بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ وذلك لأن السيئات سببها أعمال العباد كما قال تعالى في الآية التي ستأتي إن شاء الله: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ المراد هنا: قدموا، فعبر بالأيدي عن النفس؛ لأن غالب الأعمال بها، وهذا كثير في القرآن، أن الله تعالى يضيف الشيء إلى الأيدي والمراد بها: نفس العامل، بل إن الله أضاف الأيدي إلى نفسه والمراد بها نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، فإن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ ليس كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، والفرق: أن المراد بقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما عملناه، وأما قوله:

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فأضاف الخلق إلى نفسه معدًى إلى اليد بالباء، فصارت اليد هي التي حصل بها الفعل، وأما الخلق فهو مضاف إلى نفسه سبحانه وتعالى، فأضافه إلى نفسه المقدسة وعداه إلى اليد بالباء، ولهذا يغلط من جعل قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ مثل قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

إذنْ فـ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما كسبوا، وعبر بالأيدي عن النفس؛ لأنها آلة الفعل غالبًا.

وقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿إِذَا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط وهو قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾.

وقوله: ﴿هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أتى بالجملة الاسمية للدلالة على أنهم اتصفوا بذلك على سبيل الدوام، فهم دائمًا في قنوط ما دامت السيئة فيهم، والقنوط يقول المؤلف: [إذا هم ييأسون] ولكنه تفسير فيه شيء من القصور؛ لأن القنوط ليس هو اليأس، بل هو أشد من اليأس؛ لأن اليأس إذا كان فيه شيء من الرجاء، لا يسمى قنوطًا وإن سمي يأسًا، لكن إذا بلغ اليأس غايته سمي قنوطًا، وقد قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الجاهلون بما لله عز وجل من الحكمة لما يجري على عباده من الضراء والسراء.

يقول المؤلف: [ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة] وعلى هذا تكون الآية في الكفار.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧]

قال المؤلف: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاءً].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ قال المؤلف: [يعلموا] وعلى هذا فالرؤية علمية، ويؤيد تفسير المؤلف أنها جاءت في آية أخرى بـ (يعلموا) في سورة الزمر، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إذنْ فأحسن ما يفسر به القرآن القرآن وهو أعلى أنواع التفسير، ويمكن أن يقال: إن لكل آية معنى، فنفسر الرؤية هنا برؤية البصر لا رؤية البصيرة التي هي العلم، ونفسرها هنا برؤية العلم، كما هو لفظ الآية ويكون البسط والتضييق معلومًا بالقلب مرئيًا بالعين، فإن الإنسان أيضًا يرى توسيع الرزق بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه، وأيهما أعم يعلموا، أو يروا؟

الجواب: إذا لم يفسر يروا بـ (يعلموا العلم) فالعلم أعم؛ لأن العلم قد يكون بالرؤية وقد يكون بالسماع، قد لا أرى أن الله بسط الرزق لعباده وقدره، فالعلم أعم؛ وذلك لأن وسائل العلم متعددة، بخلاف الرؤية فإن طريقها البصر، فالعلم كل الحواس الخمسة المعروفة توصل إليه، فالمس والشم والذوق والرؤية والسماع كلها تفيد العلم، فهو أعم.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ البسط بمعنى التوسيع، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ

كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يوسعه.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سبق لنا أن كل شيء قيَّده الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله مشيئة مجردة؛ لأننا نعلم أن الله عز وجل حكيم، لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة، فكلما مر عليك شيء مقيد بالمشيئة، فاعلم أنه مقيد بالحكمة.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ قال المؤلف: [امتحانًا] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيقه لمن يشاء ابتلاءً] ففرق المؤلف بين تضييق الرزق وبين بسطه، فجعل البسط امتحانًا والتضييق ابتلاءً والصواب: أنهما سواء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فكلاهما ابتلاء، وقال سليمان عليه الصلاة السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالصواب: أنها كلها ابتلاء، والامتحان قريب من معنى الابتلاء، لكن الإصابة ببسط الرزق تقتضي شكرًا، وبتضييقه تقتضي صبرًا، هذا هو الفرق بينهما، والمؤمن يكون بين الدرجتين؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وهذا ليس إلا للمؤمن فقط.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام هنا المراد به: التقريب، يعني: أنهم يرون أن الأمور بيد الله عز وجل، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فكيف يقنطون إذا أصابتهم السيئة؟! وكيف يفرحون إذا أصابتهم الرحمة؟! بل الواجب عليهم أن يعلموا أن ذلك بحكمةٍ من الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الواو هنا حرف عطف، والهمزة أداة الاستفهام، وأداة الاستفهام لها الصدارة، فإذْ لم تسبق الواو بشيء يُعطف عليه، فما هو الجواب؟ ذكرنا فيما سبق أن لعلماء النحو في مثل هذا التقييد قولين:

القول الأول: أن الواو عاطفة على ما تقدم بعد الهمزة.

والثاني: أن الواو عاطفة على ما سبق، وعلى هذا فتكون الهمزة مقدمة قبل العاطفة، وذكرنا أن هذا الرأي أولى؛ لأن الأول وإن كان جيدًا لكنه في بعض الأحيان يصعب على الإنسان أن يقدر شيئًا يرى أنه موافق للسياق، وعليه فيكون القول بأن الهمزة للاستفهام وأن الواو مقدرة قبلها، يعني: وألم يروا.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولا شك أن بسط الرزق وتضييقه ابتلاء من الله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن العبد يناسبه أحيانًا أن يُبسط له الرزق، وأحيانًا بالعكس، حسب ما تقتضيه الحكمة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: في بسط الرزق وتضييقه، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ اسم إن مؤخر، وقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ خبرها مقدم.

قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لعلامات دالة على أن الله سبحانه وتعالى له التصرف المطلق في عباده، هذا مع أن المرء يسعى بقدر ما يستطيع بأسباب الرزق ومع ذلك لا يوسع عليه في الرزق

ويفشل، ويسافر كي يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، ومع هذا ليس كثير المال بل مضيق عليه، وتجد بعض الناس يسعى سعيًا بسيطًا، ولكن الله تعالى يبارك له في سعيه حتى يكون عنده رزق كثير، مما يدل على أن الأمور لا تنال بالكسب؛ لأن الكسب سبب، لكن فوق ذلك إرادة الله عز وجل.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بهذه الرؤية وهذا التفكر، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بها، ولذلك تجد هؤلاء الذين لا يؤمنون إذا حصلت مثل هذه الأمور ينسبونها إلى الطبيعة، فإذا كثر المطر قالوا: هذا بسبب كذا، وإذا قلَّ قالوا: هذا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمور لها أسباب، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هي الفاعلة؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل، وما الأسباب إلا وسائل يستدل بها على حكمة الله سبحانه وتعالى وأنه حكيم؛ حيث ربط المسببات بأسبابها.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (آت) بمعنى: أعطِ؛ لأنها من الرباعي، ولو كانت من الثلاثي لكانت بمعنى: ائْتِ.

وقوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ الخطاب مفرد، فهل هو للرسول ﷺ شخصيًا أو لكل من يتوجه إليه الخطاب؟

نقول: إن للعلماء في هذا رأيين، إلا ما دل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ فهذا يختص به، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وما أشبه ذلك.

إذنْ قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال المؤلف: [القرابة] فالقربى هنا بمعنى: القرابة، [﴿حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة]، وأحق الناس بذلك الأم والأب وإن علَوا، وصلتهما تسمى برًّا؛ لأنه يجب أن تكون أعلى من غيرهما، والبر كثرة الخير، وغيرهما تسمى صلة؛ لأن نصيب الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فحقه هنا مجمل، ولكنه مبيَّن بنصوص أخرى من الكتاب والسنة، وهو أن حق الأبوين البر، وحق غيرهما الصلة، فيمكن أن يكون قول المؤلف من البر والصلة على سبيل التوظيف من البر بالأبوين والصلة بغيرهما.

وقوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعم كل قريب ولو كان كافرًا؛ لأن العلة القرابة، وليس الإسلام، فلو قال: آت المؤمن حقه، قلنا : العلة الإيمان فيختص الحكم به.

وقوله: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسكين هو الفقير، وهنا أطلق المسكين والمراد به الفقير والمسكين في آية الصدقة، وقد مر علينا أن المسكين يشمل الفقير إذا أطلق، وإذا قرنا جميعًا افترقا، فالمسكين له حق، وحقه: دفع حاجته؛ لأنه فقير.

قال أهل العلم: إطعام الجائع وكسوة العاري فرض كفاية، إذا قام به من يقدر سقط عن الباقين.

وقوله: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المسافر]، وسمي ابن سبيل لملازمته له، والسبيل الطريق، وكل من لازم شيئًا يسمى ابنًا له، وهذا كما يقال: ابن الماء للطير المُلازم للماء، ويقال للرجل الذي يكثر السفر في الليل: ابن الليالي، وما أشبهه.

قال: [من الصدقة] هذا تفسير لحق المسكين وابن السبيل، وقيل: المراد بابن السبيل الضيف؛ لأنه عابر سبيل، ولكن الصحيح: أنه المسافر، ويشمل الضيف؛ لأن الضيف مسافر.

قال: [وأمة النبي ﷺ تبع له في ذلك]، أفادنا المؤلف بهذه الجملة أن الخطاب في قوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ موجه إلى الرسول ﷺ شخصيًّا والأمة تبع له، وقد سبق لنا أن وجه ذلك أن الرسول ﷺ هو زعيم أمته، فوجه الخطاب إليه وإن كان الكلام له، أو أنه خاص به وتكون أمته تبع له، على سبيل التأسي به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ المشار إليه: إيتاء ذي القربى حقه، والمسكين وابن السبيل، ﴿خَيۡرٞ﴾ هل يُراد بها هنا التفضيل، أم هي اسم وليست للتفضيل؟

قلنا فيما سبق: إن خير وشر تستعملان اسمي تفضيل، وتستعملان اسمًا مجردًا عن التفضيل، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ وهذا ليس المراد بها التفضيل، كذلك هنا قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ الظاهر: أنه لا يراد بها التفضيل، وإنما المراد: أن هذا خير ضد الشر لكنه قيد بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ وهذا دليل على الإخلاص، يعني: خير للمخلصين، أما غير المخلص، فإنه ليس خيرًا له.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ فجعل الله ذلك خيرًا مطلقًا، ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ فجعل هذا الشيء خيرًا مطلقًا، بما فيه من نفع متعدد، ولكنه لا يكون خيرًا للفاعل إلا بالنية - أي نية الإخلاص -، وأظن هذا ظاهر، فلو أنك تصدقت على شخص بدراهم، أو بثوب يلبسه، انتفع به أم لا؟ انتفع، هل تنتفع أنت؟ قد تنتفع وقد تُضر، وقد لا تنتفع ولا تُضر، إن فعلت ذلك رياءً تضرَّرت، وإن فعلته إخلاصًا انتفعت، وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة، فإنك لا تنتفع، ولهذا قال هنا: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [أي: ثوابه] لما يعملون، وهذا تفسير ليس بصحيح، وإنما هو على طريق أهل التأويل الذين لا يؤمنون بالصفات الخبرية التي أخبر الله بها عن نفسه، كالوجه واليدين والقدم وما أشبهها.

فتفسير الوجه بالثواب خطأ وليس على طريق أهل السنة والجماعة بل هو على طريق أهل البدع المؤولين الذين يسمون أنفسهم المؤولين وهم في الحقيقة محرفين، والصواب: أن المراد بوجه الله وجهه الذي هو صفته، وأن في الآية إشارة إلى أن من فعل مثل هذه الأمور لله فإنه سوف يرى الله عز وجل، ويلقاه كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة وإجماع السلف أن المؤمنين يرون ربهم كما

يرون القمر ليلة البدر.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أولاء: مبتدأ، وهم: ضمير فصل، و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ خبرها، والمفلح هو الذي فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب، من أفلح إذا فاز، وأصل الفلاح: البقاء، كما قال الشاعر:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَه ... وَالمُسيُ وَالصُّبحُ لا فَلاحَ مَعَه

يعني: لا بقاء، ولكنه صار شاملًا، لكل ما حصل به المطلوب ونجا به من المرغوب.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدل على أن الفلاح لازم لهم، وضمير الفصل هل هو اسم أم حرف؟ الصحيح: أنه حرف لا محل له من الإعراب ولا يعرب، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

الأولى: الحصر.

والثانية: التوكيد.

والثالثة: الفرق بين الصفة والخبر.

من أجل ذلك إذا قلت: زيد العاقل، فزيد مبتدأ، والعاقل خبر، لكن يحتمل أن تكون العاقل صفة لزيد وأن الخبر ما بعد ذلك: زيد العاقل محمودٌ مثلًا، فإذا قلت: زيد هو العاقل، تعين أن تكون العاقل خبرًا، ولهذا قيل: لا هو ضمير فصل؛ لأنه يفصل ويميز بين التابع الذي هو النعت وبين الخبر.

أما إفادته للتوكيد واضح، فإن قولك: زيد هو العاقل أقوى في الدلالة على الحصر من قولك زيد العاقل، أما كونه لا محل له من الإعراب، فظاهر في القرآن، قال تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ فلو كان له محل من الإعراب لقال: إن كانوا هم الغالبون، فتكون هم مبتدأ، والغالبون خبر، والجملة خبر كان، فدل هذا على أنه لا محل لها من الإعراب، وهو على المشهور عند النحويين حرف جيء به للفصل.

الفوائد:

فوائد قول الله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى قد يجعل النعم سببًا للكفر؛ لقوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب إذا جعلنا الباء في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ سببية، أما إن جعلناها للاختصاص، فليس فيه دليل على ذلك.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما أصابنا من نِعم فمن الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

٤- **ومنها:** تهديد الكافرين، وأن انبساطهم بنعم الله تعالى غرر عليهم؛ لقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٥- **ومنها:** بلاغة القرآن، وذلك بالانتقال من الغَيبة إلى الخطاب، الذي يسمى في اصطلاح البلاغيين الالتفات؛ وقد سبق لنا أن ذكرنا فوائده.

٦- **ومنها:** إثبات الجزاء؛ وذلك من قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

فوائد قول الله عز وجل: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** أن أولئك المشركين ليس لهم حجة على شركهم؛ لقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن من فعل شيئًا بدليل فلا لوم عليه، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ يعني: لو كان لهم سلطان ما نلومهم ولا نعذبهم.

٣- **ومنها:** أن المجتهد المتأوِّل لا إثم عليه، لاعتماده في اجتهاده على دليل، ولهذا لم يضمِّن النبي ﷺ أسامة بن زيد الرجل الذي قتله بعد أن قال: لا إله إلا الله، والسبب؛ لأنه متأول، ولم يلزم عمار بن ياسر بقضاء الصلاة لما تيمم عن الجنابة بالتقلب على الأرض والتمرغ فيها؛ لأنه متأول، ولم يلزم المرأة المستحاضة بقضاء الصلاة، وهي تتركها وقت الاستحاضة؛ لأنها متأوِّلة، وعلى هذا فكل متأول يظن أنه على صواب فإنه لا إثم عليه، لكن هل هذا يشمل الأصول والفروع، أو هو خاص بفروع الدين؟

الجواب: يرى شيخ الإسلام أنه يشمل الأصول والفروع، وأنكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم أن يكون الدين منقسمًا إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم لا أصل له، لا في الكتاب ولا في السنة، فهذه الصلاة عند المقسمين من قسم الفروع، وهي من آكد الأصول، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، ومع ذلك هي عندهم من قسم الفروع، وأشياء يختلفون فيها، وهي عندهم من قسم الأصول، ويرون أن للاختلاف فيها مساغ، كاختلافهم في رؤية النبي ﷺ ربه، واختلافهم في نعيم القبر وعذاب القبر وما أشبه ذلك، مما هو من العقائد ومع ذلك يرون أن الاختلاف فيه سائغ.

والشاهد أن المدار كله على قاعدة من قواعد الشرع وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فمن اجتهد في طلب الحق وتحراه ولكنه لم يوفَّق له مع حسن النية وصحة المسلك، هل نقول: إن هذا آثم؟ لا يمكن، يعني عندنا مثلًا علماء أجلاء نشهد لهم بالدين والصلاح وحب الإسلام والانتصار للإسلام ومع ذلك هم مخالفون للسلف في العقيدة، ونحبهم ولا نؤثمهم، كابن حجر، وابن الجوزي وكذلك النووي، وطوائف من العلماء معروفون بالصلاح، والإصلاح، وحب الخير ونعلم أنهم مجتهدون، فالإنسان الذي تبين له الحق ولكنه عاند وأصر،

فهذا يُعامَل بما يقتضيه عناده وإصراره.

وهنا في هذه الآية قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ هي مسألة أصولية، لو كان لهم حجة يعتمدون عليها ما استحقوا العذاب ولا اللوم، لكن ليس لهم حجة.

٥ - **يستفاد منه أيضًا:** أنه لابد أن يكون السلطان أو الحجة التي يحتجون بها واضحة لقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتعبير بالكلام هو أوضح ما يكون في الإظهار.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ظهور عدل الله سبحانه وتعالى، وإلا لكان عز وجل يعذبهم بدون أن يقيم عليهم الحجة، ولكن لإظهار عدله سبحانه وتعالى صار يطالب هؤلاء بالحجة ، مع العلم بأنه لا حجة لهم، ومن هذا النوع الموازين يوم القيامة والكتب يوم القيامة، وكل هذا لإظهار عدل الله، وإلا فإن الله تعالى له الحكم وإليه المنتهى قادر على أن يعذب بدون ميزان وبدون كتاب، ولكنه سبحانه وتعالى لكمال عدله يعطى الإنسان كتابه ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك، وهذا صحيح، فلو أنك تتذكر بينك وبين أحد الناس معاملة بكتاب صادر وارد، وقال لك: خذ الدفتر أنت حاسب بنفسك، ماذا يكون هذا عدل أم لا؟ عدل، خلاف ما لو أجملت الحساب وقلت: عليك كذا ولك كذا قد يكون في هذا شبهة، لكن يعطيك الدفتر ويقول: أنت حاسب نفسك، فهذا غاية الإنصاف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الرحمة من الله تفضلًا منه وامتنانًا، أما كونها منه؛ فلقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾ وأما كونها تفضلًا؛ فلأنه لم يذكر لها سببًا.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم الفرح إذا كان على سبيل الأَشَر والبَطَر، يؤخذ من قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ويمكن أن يؤخذ الفرح المذموم من الصفة التي بعدها.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السيئة لا تضاف إلى الله؛ لأنه قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ ولم يقل: (وما أصبناهم).

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ هل إيقاعها سيئة أم لا؟

نقول: إيقاعها ليس بسيئة، فهي سيئة لكن إيجادها ليس سيئًا؛ لأنه لحكمة، فالشيء بنفسه قد يكون سوءًا، ولكن بالنسبة لفعل الفاعل لا يكون سوءًا، مثل رجل مرض ابنه، واحتاج الابن إلى كي، فأحمى الحديدة في النار وكواه، فصرخ الابن ألمًا لا فرحًا، هذه سيئة، لكن كَيُّ والده إياه

حسنة، فحينئذٍ يجب أن نعرف الفرق بين الفعل والمفعول، فالسوء والشر إنما هو بالنسبة لمفعول الله المنفصل عن الله، أما بالنسبة للفعل الذي هو فعل نفسه فإنه لا يمكن أن يكون شرًّا أبدًا بل هو خير، ويمكن أن تقول: إن الخير نوعان: خير لنفسه وخير لغيره، فما كان شرًّا في نفسه فقدره الله فهو خير لغيره، وما كان خيرًا في نفسه فهو خير واضح.

إذنْ لنا عن هذا جوابان:

الجواب الأول: أن يقال: إن الشر ليس في فعل الله، بل هو في مفعوله، أما إيجاد الله له فهو خير لما يتضمنه من الحكمة البالغة، هذا واحد، ونظيره كيُّ الإنسان ابنه ليشفى من المرض، فهو في ذاته شر، لكن بالنسبة لفعل الأب له: خير، هذا وجه.

الجواب الثاني: إن الخير نوعان: خير لذاته، وخير لغيره، فما كان خيرًا محضًا فهو خير لذاته، كالمطر، والنبات، والرزق، وما أشبه ذلك، وما كان شرًّا لذاته فهو خيرٌ لغيره، فإذا كان الشر خيرًا لغيره صار بهذا خيرًا، فالجدب والقحط والخوف وما أشبه ذلك خير؛ لأنه يؤدي إلى خير، كما قال الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السوء لا ينال الناس إلا بأعمالهم؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

مسألة: هل هذا يشمل الأمور الدينية والأمور الدنيوية، أو الأمور الدنيوية فقط؟

الجواب: فيهما جميعًا، فالجدب والقحط بسبب الأعمال السيئة والمعاصي، كذلك زيغ القلب بسبب المعاصي، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ إذنْ المصائب الدينية والدنيوية، كلها بسبب أعمالنا نحن، فلو استقمنا استقامت لنا الأمور، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ إذنْ التقوى سببٌ للعلم؛ لأن الفرقان لا يكون إلا بعلم، يفرق به الإنسان بين النافع والضار، والحق والباطل.

إذنْ نقول: هذا يشمل أمور الدين وأمور الدنيا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم القنوط من رحمة الله؛ لأن الله أطلقه على سبيل الذم، فقال: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فهذا دليل على تحريمه، بالنظر إلى أن القنوط يستلزم عدم الرجوع إلى الله؛ لأنه إذا قنط من رحمة الله كيف يرجو رحمة الله؟! فيستحسر وييأس - والعياذ بالله - ولا يتعرض لما فيه الرجاء والأمل.

فائدة: الابتلاء يكون على قدر الإيمان؛ لأن الابتلاء أحيانًا يكون بالمصائب وليس من أجل العقوبة، لكن من أجل التمكين والبيان، وهذا مر علينا أنه قد يقع، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾، وقلنا: إن الابتلاء مع استقامة الحال ليس المراد به تكفير سيئة حصلت، بل المراد به رفع الدرجات؛ لأن الصبر ما يكون إلا على بلاء، والصبر لا ينال إلا بالمشقة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الاختيار للبشر؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكون في ذلك ردٌّ لقول الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ما له اختيار في العمل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يُعاقب على أعمال القلوب، أو قد يُذم على أعمال القلوب؛ لأن القنوط من أعمال القلوب؛ إذ إنه أشد اليأس ومحله القلب.

فوائد قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

١- **في هذه الآية الكريمة:** تقرير ما يحدث لقوم من بسط الرزق وتضييقه على آخرين؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأن الاستفهام للتقرير كما سبق.

٢- **ومن فوائدها:** أن سعة الرزق وتضييق الرزق كله بيد الله عز وجل.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، والله أعلم.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ...﴾ إلى آخره:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لهؤلاء الأصناف الثلاثة حق، القريب والمسكين وابن السبيل.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوب إيتاء هؤلاء حقهم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ للأمر والأصل في الأمر: الوجوب.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الأقرب فالأقرب أحق، تؤخذ من قوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لكن كيف الأخذ؟ لدينا قاعدة سبق لنا أن قررناها: وهي أن الحكم إذا عُلق على وصف كان أكثر في هذا الوصف فهو أحق، فكلما كان هذا الوصف أشد تمكنًا في شيء، فهو أحق.

فمثلًا إذا قلت: أدِّب العاصي، فعلق التأديب بالعصيان، فيقتضي أن كل من كان أشد معصية، كان أشد تعذيبًا، وإذا قلنا: أكرِم المؤمن، صار بذلك كل من كان أقوى إيمانًا صار أحق بالإكرام، وفي قوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ علق الحق بالقرابة، فكل من كان أقرب كان أحق بالإيجاد، وهذه القاعدة مفيدة، لطالب العلم، أنه إذا علق الحكم على وصفٍ قوي ذلك الحكم بقوة ذلك الوصف، نظرًا لأن تعليقه بالوصف يفيد عليته، وهذه أيضًا قاعدة ثانية أن تعليق الحكم بالوصف يفيد أن ذلك الوصف علة، فلماذا تقول: أكرم المؤمن؟ لإيمانه، أدب الفاسق؛ لفسقه، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ معناه: لإفسادهم، وهكذا نقول: إن تعليق الحكم بالوصف يدل على علية ذلك

الوصف، وأنه علة الحكم وبناءً على هذه القاعدة تأتي القاعدة الأولى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل مَنْ كان أحق بالإحسان فهو أولى به؛ لأن المسكين أحق بالإحسان من الغَنِي، وابن السبيل والمسافر والمنقطع فهو به أحق من غيره.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النفع المتعدي خير في نفسه، فهل هو خير للفاعل؟ خير له بشرط، وهو خير بنفسه وإن لم ينتفع به الفاعل، بناءً على ذلك يتفرع على هذا: أن ما يبذله الكفار من منافع للمسلمين هي خير للمسلمين، ما نقول: هذه صدرت من كافر فليست فيها خير، لو أن أحدًا من الكفار أصلح طريقًا من الطرق من هذه الشركات الكافرة، فيكون في هذا الإصلاح خير لا شك، ولكن ليس خيرًا لهم، إنما هو خير لغيرهم.

٦ - **ومن فوائد الآية:** التنبيه على أهمية الإخلاص؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه كلما كان العمل أخلص لله، كان أكثر خيرًا للفاعل، وذلك من الآثار التي مرت علينا، أن هذا الحكم عُلق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مع صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خير للذين يريدون، إذنْ كلما كان الإنسان أخلص في إرادة وجه الله كان أكثر خيرًا له.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الوجه لله؛ لقوله: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، ووجه الله عز وجل قال أهل العلم: إنه من الصفات الخبرية؛ لأنهم عندهم الصفات الخبرية المحضة يعبرون عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا في المحظور، فلا يقولوا: إنها بعضية مثلًا أو جزئية ؛ لأن التبعض في صفات الله عزَّ وجلَّ محرم إطلاقًا، فالوجه واليد والعين والسَّاق والقدم، كل هذه يُعبر عنها بالصفات الخبرية، لكن السمع والعلم والقدرة والحياة تُسمى: صفات معنوية، أي: ذات معانٍ.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى رؤية الله عز وجل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع السلف، ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣] ومعنى: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة وهي الحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظاء من النظر وهو الرؤية بالعين، وهذه الآية من أصلح ما في القرآن، وفي آية أخرى قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، وفي آية ثالثة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وقد فسرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله[1]، وهناك آية رابعة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وفيه آية خامسة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] فإن هذه الآية تدل على الرؤية؛ لأن الله قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونفي الإدراك يدل على ثبوت الأصل، ولو كان لا يُرى لقال: لا تراه الأبصار، فنفي الأخص يقتضي وجود الأعم، ولهذا كانت هذه

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

الآية التي استدل بها أهل التعطيل على نفي رؤية الله، دليلًا عليهم، لا دليلًا لهم.

والفرق بين الصفات المعنوية والخبرية أن الصفات المعنوية تدل على معانٍ: السمع، والبصر، والعلم، والقدرة، وما أشبهها، وأما الصفات الخبرية فهي تدل على صفات، هي بالنسبة لنا أبعاض، فيدُ الإنسان ووجه الإنسان وساق الإنسان وقدم الإنسان وعين الإنسان هذه أبعاض لنا، لكن ما نُسمِّيها بالنسبة لله أبعاضًا، بل سماها أهل العلم: الصفات الخبرية.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الفلاح يكون بأمرين: بالإخلاص، وفعل المأمور به، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء المشار إليهم أتوا بالفعل والإخلاص.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٩، ٤٠].

❁ التفسير ❁

لما أمر الله تعالى بإيتاء ذي القربى حقه في قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ...﴾ إلخ حذَّر من هذا الأمر، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾. والربا في اللغة: الزيادة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلَت:٣٩] أي: علتْ، ومنه الربوة وهي المكان المرتفع. أما في الشرع فالربا المحرم هو زيادة في أشياء أو نسيئة في أشياء، يعني: هناك أشياء يزيد فيها كما لو باع صاعًا من البُر بصاعين، ولا يدًا بيد فهو ربا فضل أو باع دنانير بدراهم مع تأخير الخصم، فهذا ربا بلا نسيئة، وكلاهما محرم.

وأما الربا هنا في الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ فالمراد به الزيادة فهو ربا لغوي، هذا الذي عليه جمهور المفسرين، فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ أي: وما أعطيتم من ربًا ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]، وكيف ما أعطيتم من ربًا؟

فسره المؤلف بقوله: [بأن يُعطي شيئًا هبة أو هدية ليطلب أكثر منه]، تهدي لتأخذ، لأجل يعطيك أكثر، أو تهبه من أجل أن يرد عليك أكثر مما وهبت، الآن آتيت شيئًا ليردَّ عليك أكثر منه، نقول: إن هذا ربا، لكن إذا قال قائل: أنا ما أعطيت ربًا، أنا أعطيت شيئًا حصل به الربا، أجاب المؤلف عن هذا فقال: [فسمى باسم المطلوب من الزيادة في المعاملة]، فيكون هذا الذي أعطى ليعطى أكثر كأنه أعطى

ربًا؛ لأنه أُعطيه، هذا ما عليه أكثر المفسرين، وعلى هذا فيكون الربا هنا لغويًّا وليس شرعيًّا وهنا قول المؤلف :[ربًا أو هدية]، الفرق بين الربا والهدية، أن الربا يقصد بها مجرد الإحسان إلى المعطَى فقط، أما الهدية فيقصد بها التودد والإكرام هذا الفرق بينهما، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»(١) هناك شيء ثالث يسمى صدقة وهذه يقصد بها ثواب الآخرة، فما يقصد به ثواب الآخرة فهو صدقة، وما يقصد به التودد والإكرام فهو هدية، وما يقصد به نفع المعطَى فهو ربًا.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يزيد عند الله عز وجل؛ لأن هذه الحال حال دنيا نازلة، ولهذا نهى الله عنها رسوله ﷺ، في قوله ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ يعني: لا تعطِ لأجل أن تعطَى أكثر، فلما كانت هذه الحالة نازلة قال هنا: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

قال المؤلف: [﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المعطين أي يزيد، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يزكو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾] .

هنا قال المؤلف: [يزكو عند الله] أي لا ثواب فيه للمعطين، وذلك لأنها حال لا يرضى عنها الله، فلا يكون فيها أجر عند الله عز وجل، هذا ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية، ورووه عن ابن عباس وغيره.

وعندي: أنه يحتمل في الآية معنىً آخر يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الربا الشرعي، ويخاطب الله عز وجل المعطين بالربا يعني: أن الربا الذي تعطونه غيركم وإن كان يزيد في أموالهم، فإنه لا يربو عند الله، بل إنه على العكس يحصل به النَّحس فلا خير فيه، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ففرق بين المُرابي، وبين المُتصدِّق، كما أن الله عز وجل يقرن بينهما في بعض الآيات مثلما ذكر في سورة البقرة؛ حيث ذكر الإنفاق وذكر بعده الربا، وكذلك أيضًا ذكر في سورة آل عمران: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٠ - ١٣٣]، وذكر من جملة أوصافهم أنهم ينفقون في السراء والضراء، ولكن هذا الاحتمال - حتى الآن - ما رأيت أحدًا قال به، وإنما يقولون بالمعنى الأول، أن المراد بالربا: أن يعطِي الإنسان شيئًا ربًا أو هدية ليُعطى أكثر، فإن هذا وإن زاد في أموال المعطين فليس فيه زيادة عند الله؛ لأنه خُلُقٌ مذموم.

لكن لو قال قائل: ماذا تقولون فيما لو أهدينا إلى شخص معروفًا بالمكافئة به، وأنا ما قصدت، فهل يجوز أم لا؟ **الجواب**: ما دام لم يُقصد فإنه لا يضر، والإهداء للأمراء والملوك والوزراء وما أشبه ذلك يدخل في هذا النهي، غالبًا الذين يهدون خصوصًا الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزيادة، ولهذا إذا عُرف الإنسان بأنه لا يعطي إلا مثل القيمة أو دونها، ما يعطى هدايا إلا من عُرف بأنه يبذل أكثر، ويريد أكثر.

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٦٠١) .

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ءَاتَيْتُم﴾ يعني: أعطيتم، ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾، (من) هذه حرف جر وهي بيان لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وما هنا إعرابها: شرطية، بدليل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت الفاء في الجواب، يعني: ومهما أعطيتم من زكاة بهذا القيد: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

قوله: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال المؤلف: [صدقة] وفي هذا القيد نظر، إن قصد بها صدقة التطوع فلا، أما إن قصد بها الصدقة مطلقًا فنعم؛ لأن الصدقة تطلق على الواجب والمستحب، والدليل على إطلاقها على الواجب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فهذا للواجب، إذنْ نقول: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ المراد بها: الزكاة الواجبة بالمعنى الأول، وكيف نحوِّلها إلى صدقة على أن المراد بها التطوع؟

الصواب: أن المراد بالزكاة هي الزكاة الواجبة؛ لأنها مُرادة عند الإطلاق، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور:٥٦] المراد: الواجبة.

إذنْ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ [الروم:٣٩] أي: من صدقة واجبة.

وقوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يعني: تريدون بهذه الزكاة التي آتيتم وجه الله، وهذه جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان وجه الله؛ لأن من لا يريد وجه الله إما أن يريد وجه غيره أو لا يريد شيئًا، فإذا أراد وجه غيره فليس له أجر، بل عليه وزر؛ لأنه مُراءٍ مشرك فلا تُقبل منه، وإن لم يرد وجه الله ولا غيره، وإنما أراد إبراء ذمته فقط كما هو غالب من يؤدي الزكاة ـ نسأل الله يعاملنا بعفوه ـ، وغالبًا أكثر الناس عندما يأتي للصلاة تجده يريد إبراء ذمته وما يشعر بأن هذه الصلاة تقربه من الله عز وجل، ويريد القرب بها إلى الله، هذا غالب الناس إلا من وُفق وصار ينتبه عند فعل الطاعات بإرادة وجه الله وهو الإخلاص واتباع الرسول ﷺ في هذه العبادة، أما الذي لا أراد وجه الله ولا أراد وجه غيره، إنما أراد بها إبراء ذمته هل هي تنفعه أم لا؟ تنفعه بلا شك وتبرئ بها ذمته، وربما يؤجر لقيامه بركن من أركان الإسلام، بل يقينًا يؤجر، وربما يؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هذا مما أوجب الله عليه فيؤديه، يعني: هذا لا شك أنه تعبد لله، يعني: فَعَله تعبُّدًا، لكن كونه يريد بذلك وجه الله والتقرب إليه، وهذه حالة أعلى من كونه مجرد إبراء ذمته.

وقوله: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ المراد به كما قال المؤلف في الآية التي قبلها بأنها ثوابه، وذلك في قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقال: [ثوابه بما أرادوه]، والصواب: أن المراد بوجه الله: ذات وجه الله لا ثوابه، وفيه إشارة - كما سبق - إلى رؤية المؤمنين ربهم.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ هذا جواب الشرط، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، و﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ خبر أولئك، ومعنى ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الحاصلون على التضعيف؛ لأن الفعل الثلاثي إذا دخلت عليه الهمزة فقد يُراد به الدخول في الشيء، مثل قولهم: أَمجَدَ أي: دخل مجدًا،

فمعنى أضعف هنا: أي صار من ذوي الإضعاف، والإضعاف معناه الزيادة، يعني: فأولئك هم المُضعِفون الذين حصلوا على مضاعفة الأجر والثواب، بخلاف الأولين الذين أتوا الربا؛ ليربوا في أموال الناس، فهؤلاء ليس لهم زيادة، فالزيادة للذين آتوا الزكاة يريدون وجه الله هؤلاء هم المضعفون أي: الداخلون في الإضعاف.

قال المؤلف: [﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه] يعني: الذين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه، ثم قال: [فيه التفات عن الخطاب] الخطاب في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، وكان مقتضى السياق - لو كان على نسق واحد - أن يقال: فأنتم المضعفون، لكن قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ تعلية للشأن مثل التعبير بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ ما قال: وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تعالى، المراد بذلك: تعظيم شأن هؤلاء الذين أرادوا وجه الله عز وجل بكونهم حافظوا على مضاعفة الأجر والثواب، بخلاف الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ يقول المؤلف: [ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني: أوجدكم من العدم، لكن الخلق ليس مجرد الإيجاد بل هو الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قال: إن الخلق في الأصل هو التقدير، واستدلوا لذلك بقول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْـرِي مَا خَلَقْـــتَ ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفرِي

ومعنى (ما خلقت) أي: ما قدَّرت، ولكن الصحيح أنه يطلق على الإيجاد المسبوق بالتقدير، فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتقدير والإحكام والإتقان، فهذا مسلَّم أم لا؟ حجة عند المشركين؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا يمكن لأحد إلا المجوس أن يدعي أنه خلق نفسه أو يدعي أنه خلق بغير خالق، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فأنت ما خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سبحانه وتعالى وهذا أمر مسلَّم به.

وقوله: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: أعطاكم، والرزق في اللغة: العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨] أي: أعطوهم، وهل أحد يدعي أن الرازق سوى الله؟ قد يدعي أحد، قد يقول قائل: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، فأنا رزقت هذا الإنسان وأعطيته، فيقال: لكن الذي خلق ما أعطيت هو الله، ومهما كان من عمل بني آدم، فإنما هو تحويل لا إيجاد، فكل عمل بني آدم حتى الصنائع والبناء وغير ذلك، ليس إلا مجرد تحويل، يعني: تغيير من شيء إلى شيء، وإلا فالأصل هو الله عز وجل، فهو الخالق وهو الموجد، فهذا

الرجل أعطيته كيسًا من الطعام، نعم إنك رزقته، لكن الذي أوجد هذا الكيس هو الله عز وجل.

إذنْ فالرزق أصله من الله، وإن كان يوجد على أيدي بعض الناس، لقوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ وقول الرسول ﷺ: «وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»[1].

لكن يقال: من الذي خلق هذا الرزق؟ ومن الذي جلبه إليك؟ ومن الذي قدَّر أن تعطيه هذا؟

الجواب: هو الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني: بعد هذا الخلق والإمداد، الخلق للعباد، والرِّزْق إمداد، فالله عز وجل أوجدك وأعدك وهيأك ثم أمدك بما به القوامة، وبعد ذلك يميتكم، يعني: بعد الحياة الدنيا يكون الموت وهو مفارقة الروح البدن مفارقة تامة؛ لأن النوم فيه مفارقة، لكن ليست مفارقة تامة، أما الموت الذي هو الموت فإنه مفارقة تامة، ولكنها تعاد إليه في قبره إعادة برزخية، لا كإعادتها في الدنيا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: الحياة الآخرة التي ليس بعدها فناء.

قال الله عز وجل: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ هذه مضافة إلى المفعول مضافة إلى المفعول لا إلى الفاعل، يعني: هل من هؤلاء الذين أشركتموهم بالله، ولهذا قال المؤلف: [ممن أشركتم بالله] ؛لأن المشرَك به مفعول فالمعنى:أنهم ليسوا هم الذين أشركوكم، بل أنتم أشركتموهم مع الله، فهو مضاف إلى مفعوله.

قال: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ إعراب ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ يحتمل أن تكون نكرة موصوفة، والتقدير: هل من شركائكم أحد يفعل ذلك، ويحتمل أن تكون موصولة على أنها مبتدأ مؤخَّر، أي: الذي من شركائكم هل يفعل ذلك؟! والأول أحسن، أن يكون نكرة موصوفة؛ أي هل من شركائكم أحد يفعل من ذلك.

وقوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾ زائدة، وصحت زيادتها؛ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي ومَنْ تُزاد في النفي، كما قال ابن مالك:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبهِهِ فَجَر ... نِكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفَر

وقوله: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ المشار إليه الخلق والرِّزْق والإحياء والإماتة، فعلى هذا يكون الجواب عن كونه مفردًا مذكَّرًا مع أن السابق أربعة أشياء جمعًا، يقال: لأنه أُوِّل بالمذكور.

وقوله: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي: من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإشارة مفردًا مذكرًا؛ لأنه عائد إلى المذكور.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: ما يمكن أن يفعل هؤلاء أي شيء من هذه الأمور، لا الخلق ولا الرزق ولا الإحياء ولا الإماتة، وهذا على سبيل التحدي، فإذا كانت هذه الآلهة التي أُشركت مع الله لا تفعل شيئًا من هذا، هل تصح أن تكون آلهة؟ لا، بل تأليهها باطل، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، يبقى النظر لو ادعى مدعٍ أنه يحيي ويميت، كالذي حاج إبراهيم في ربه، إبراهيم ﷺ قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فما هو الجواب لو قال قائل: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيي ويميت؟ نقول: هذه دعوى باطلة؛ لأن الإحياء والإماتة من الإنسان ليست إحياءً وإماتةً، ولكنها فعل سبب يحصل به.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن من بذل ماله من أجل الحصول على أمر الدنيا، فإنه لا أجر له في ذلك، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا عكس الأولين الذين سبقوا في الآية السابقة، فالذين أعطوا في الآية السابقة يريدون وجه الله، وهؤلاء بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** التنبيه على أهمية الإخلاص، لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن مضاعفة الأعمال تكون بحسب الإخلاص، لقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتَّب الله تعالى الإضعاف على إرادة وجه الله، وعلى ما قررنا في القاعدة قبل قليل وهو أنه كلما كان العبد أخلص لله فعمله أكثر مضاعفة، وهذا أمر لا شك فيه، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة، منها شرف الزمان، ومنها شرف المكان، ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل ومنها الإخلاص ومنها الاتباع، كل هذه الأسباب الستة من أسباب المضاعفة.

فالمضاعفة بسبب شرف الزمان مثل شهر رمضان والعشر الأُول من ذي الحجة.

والمكان كالحرمين والأقصى فإن العمل فيهما أشرف من غيرهما.

ومنها الفاعل كالصحابة، الذين قال فيهم الرسول ﷺ «**لَو أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيْفَهُ**»(١) ويلحق بهذا: العاملون في آخر الزمان ـ في أيام الصبر ـ الذين يتمسكون بسنة الرسول ﷺ مع تباعد الناس عنها، فإن هؤلاء يُضاعف لهم الأجر، وإن كانوا لا ينالون

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

مرتبة الصحابة، لكن يُضاعف أجرهم بسبب ما يجدونه من الغرابة ومخالفة الناس لهم؛ لأنه لا أحد يشك أن الإنسان الذي يعمل في مكان وزمان الناس فيه يعملون كما يعمل، فالعمل عليه هين، أما مخالفته الناس هي الصعب، لاسيما أن المعارضة ستكون عنيفة؛ لأن هذا متمسك بطاعة الله والمخالف له على العكس، وأعنف صراع يكون بين المتخالفين هو ما يكون بين المتمسكين بدين الله، والمتحللين منه.

وتكون أيضًا المضاعفة بحسب العمل، ولكن الكثرة ليست هي المرادة، لكن جنس العمل، فالصلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نفله وأشرف، والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وهكذا كما تبين كثيرًا.

والخامس بحسب الإخلاص كما في هذه الآية، وكلما كان الإنسان أخلص - وإن كان العمل واحدًا - كان عمله أشرف من الآخر، ولهذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جميعًا في الحج أو في العمرة، ورجعا جميعًا على السيارة، وأفعالهما واحدة وأقوالهما واحدة، وبينهما تفاوت أكثر مما بين المشرق والمغرب، وذلك بحسب الإخلاص لله.

والسادس بحسب الاتباع، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله، الصلاة على وقتها؛ لأنها حصلت على وجه المتابعة للرسول ﷺ هذه الأسباب في الشرع كلها مما يوجب للعبد العناية بأعماله وأن يتحقق بما يستطيع من هذه الأسباب.

مسألة: ما معنى قوله ﷺ: «**الْمُخْلِصُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»(1)؟

الجواب: المعنى: له أجر خمسين في هذه الخصلة التي عانى بها وتعب، فأصل العمل مثلًا: الصدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر أمثالها موجودة في الصحابة وموجودة في زمن المتأخر هذا، لكنه يضاعف ذلك، فيكون أجر هذا مثل أجر خمسين من الصحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكَمية التي تحصل للصحابة، التي لو أنفق أحدنا مثل أحدٍ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، هذا خاص بهم، فعندنا ثواب على أصل العمل.

والثواب أيضًا يُضاعف بحسب العامل، فالذي في أصل العمل كالصدقة مثلًا، يكون لهؤلاء المتأخرين أجر خمسين من عمل الصحابة باعتبار أصله، لا باعتبار أنه وقع من الصحابة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الروم:٤٠].

١- **من فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال بالأجلى والأوضح؛ لأن الله استدل على بطلان آلهة المشركين بأمر يقرُّونه هم، وآلهتهم لا تفعله وهو الخلق والرزق والإماتة والإحياء.

---

(1) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٥٨)، والنسائي (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٤٤).

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله عز وجل، وذلك بالأمور الأربعة، الخلق والرزق إلى آخره.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** إثبات أن ما اكتسبه الإنسان فهو من الله؛ لأن هذه الأربعة فيها ثلاثة ما أحد يماري فيها، وهي الخلق والإماتة والإحياء، لكن الرزق قد يماري فيه ممارٍ، فقارون مثلًا قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقد فسره مجاهد - فيما أظن - : على علم مني بوجوه المكاسب، يعني معناه: أني ماهر بمعرفة المكاسب وحصَّلت هذا المال، ولكننا نقول: هذا التحصيل الذي حصلته بمهارتك جاءك من الله عز وجل؛ لأن هذا الذي حصل لك بسببه، وخالق الأسباب هو الله.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا استجلاب الرزق من ربنا وحده، لقوله: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يترتب على هذا فائدة أخرى وهي: ألا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إذا كنت تطلب الرزق من الله هل من اللائق عقلًا أن تقدم له معصية ليرزقك؟ لا؛ لأن الذي يبتغي الرزق من غيره يقدم طاعته والخضوع له، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣].

إذنْ من استجلب رزق الله بمعاصيه فقد خالف الحكمة والصواب، فهؤلاء الذين يطلبون الرزق بالربا، ويطلبون الرزق بالغش، ويطلبون الرزق بالكذب، وغير ذلك من الوسائل المحرمة، هم في الحقيقة أشبه ما يكونون بالمستهزئين بالله عز وجل، الساخرين به، كأنهم يقولون: يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا، وهذا من أعظم ما يكون، ولهذا جعل الله الذين يطلبون زيادة المال بالربا محاربين له؛ حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٩].

والربا كما قال شيخ الإسلام: ما ورد في ذنب من الذنوب - دون الشرك - أعظم مما ورد في الربا، والذي أصبح عند الناس الآن أنه من أسهل الأشياء وأبسطها، حتى كانوا يتعاطونه بالصراحة، ويتعاطونه بالتَحَيُّل، وتعاطيه بالتحيُّل أخبث من تعاطيه بالصراحة، مثل أن تعاطي الكفر بالنفاق أخبث من تعاطيه بالكفر الصريح؛ لأن هذا المتحيل مخالف لله عز وجل، جمع - والعياذ بالله - بين مفسدة الربا ومفسدة الخداع والتحيُّل، فالرب عز وجل إذا حرم شيئًا ليس كغيره تخفى عليه الأشياء، فهو ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ونبيه عليه الصلاة والسلام وضح أن الأعمال بالنيات، فما دمت قد نويت الربا الآن لكن تحيَّلت عليه إدخال سلعة غير مقصودة فهذا تلاعب، واستهزاء بآيات الله عز وجل، يأتي إليه يقول: أنا ضمنت مائة ألف على أن تكون بمائة وعشرين ألفًا إلى سنة، كيف الوصول إلى هذا؟

والله - نحن المسلمين - ما نقدر أن نعطيك المائة ألفًا نقدًا وأكتبها عليك مائة وعشرين؛ لأننا

نخشى الله، ولكن هنا طريق نلوذ من جهة أخرى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله، بماذا؟ بأي سلعة تتفق، نرى الذي عند الناس وجدوا عند هذا سكَّر، قال: نشتري السكر، وجدوا عنده هيلًا قال: نشتري هيلًا، وجدوا سيارات قال: نشتري سيارات، وجدوا أكياسًا لا يُدرى ما في وسطها فلعله أن يكون رملًا قالوا: نشتري هذه الأكياس، هذا هو الواقع، ولهذا ما ينظرون الآن إلى هذه الأكياس، بل يقولون: أكياس سكر، أكثر ما يكون في القبض، ويقولون: إن هذا هو القبض، فهل هذا قبض لغة أو عُرفًا أو شرعًا؟

أبدًا لا يعد هذا قبضًا؛ لأن القبض معناه: أن يكون الشيء في قبضتك وهذا الشيء مركون في مكانه، ترد عليه عدة مبايعات خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البلية التي ابتلي بها الناس الآن، نسأل الله أن ينزِّههم منها، بلية عظيمة ويقبحها أنهم يعتقدون أنها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي ويتضايق ويتضجر، ويقول: أعوذ بالله انظروا الحرام الربا يُعلن صريحًا في البنوك، وهو ممن يتعاملون بهذه المعاملة، يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وهو أحق أن يبكي نفسه.

فالمهم أننا نقول: إن الرزق إذا كان من الله عز وجل فيجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هذا الرزق بطاعة الله لا بمعصيته.

مسألة: التورُّق هل يدخل في هذا؟

الجواب: التورق يقول شيخ الإسلام: إنه داخل في هذا، ويقول عنه تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إن شيخنا يُسأل عن هذا مرارًا فيُصرُّ على أنه حرام وأنه ربا، والتورُّق غير عمل الناس الآن.

ولاحظ أن الإمام أحمد وردت عنه رواية بأنها جائزة ورواية ثانية بأنها من مسائل ذكرها عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكرها ابن القيم في «تهذيب السنن» أن مسألة التورق من مسائل العِينة، والعِينة معروف أنها حرام.

فالحاصل: أننا في الحقيقة في عصرنا الحاضر لما كان الناس لا يبالون إلا أن يكتسبوا المال، فجعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كان وسيلة خادمًا، حقيقة المال أنه وسيلة خادمة، ولكننا جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وهذا من سفه الإنسان، أن يستخدمه ماله الذي خلق له، قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عزل هذه الآلهة عن فعل شيء يختص بالربوبية، لقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأن هذا الاستفهام - كما قررناه بمعنى النفي.

٦ - **ومن فوائدها:** ثبوت التلازم بين التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وأن مَنْ أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، وهذا المعنى قرره الله تعالى في عدة آيات.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص، يؤخذ هذا من قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن المشركين بالله عز وجل قد وقعوا في تنقص الله، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى يجمع بها وصف وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات، النفي في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، والإثبات في قوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** قوة الإقناع في أسلوب القرآن؛ لأن مثل هذا التحدي في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ هذا أقوى ما يكون في الإقناع، فكل منهم سيكون جوابه: لا، إذنْ لماذا تعبدونها مع الله؟!

١١ - **يستفاد من هذه الآية:** استنباط أقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية موجود، والألوهية موجود، لأن إلزام الإقرار بالربوبية إلزام للإقرار بالألوهية، ثم إن قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ [يونس:٣٤] المقصود إبطال ألوهيتهم، والأسماء والصفات موجودة لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤١-٤٣]

التفسير

قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى: بان واتضح.

وقوله: ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ ضد الصلاح، وهو من كل شيء بحسبه، ففساد الزروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والمرض المتلف، وكذلك فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثمار بنقصها وما أشبه ذلك.

المهم: أن الفساد في كل شيء بحسبه، وهل الفساد هنا يراد به الفساد الحسي أو يشمل الحسي والمعنوي؟

الصحيح: أنه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، الحسي ما ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي: هو كثرة المعاصي والفسوق، وكثرة انتشارها بين الناس وعدم المبالاة بها، حتى يصبح المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، فإن هذا من أعظم الفساد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] قال العلماء: لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوله: ﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يقول المؤلف: [القِفَار] يعني: الأماكن الخارجة عن المدن والسكان، هذا البر، وقيل: المراد بالبر ما ليس ببحر، فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

وقوله: [بقحط المطر وقلة النبات]، والبحر: أي البلاد التي على الأنهار لقلة مائها، فمشى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ على أن المراد بالبر ما سوى العمران، والمراد بالبحر: العمران الذي على شواطئ البحار، وهذا قاله كثير من المفسرين، ولكن الصواب أن المراد بالبر ما سوى البحر؛ لأن ما ذكرناه هنا أعم مما ذكره المؤلف وغيره وهو الأظهر أيضًا؛ لأن البحر إذا أُطلق في القرآن يُراد به الماء، ففساد البر، كما قال المؤلف: [بقحط المطر وقلة النبات] وفساد النبات أيضًا بعد وجوده، ولهذا أرسل الله على آل فرعون الجراد والقُمَّل والضفادع والدم ـ أربع آفات ـ.

الجراد: يتلف الزروع بعد خروجها ويأكلها، والقمل: يفسد القوت إذا حصد فيأتي القمل، وهو السوس الذي يتلفه، والضفادع في الماء، حيث امتلأت مياههم ضفادع، حتى إن الإنسان ما يستطيع أن يشرب من الماء – والعياذ بالله –، والدم، الصحيح: أن المراد به النزيف، وإن كان بعض العلماء يقول: إن المراد بالدم أن الماء يكون عند آل فرعون كالدم، والصواب: أنه النزيف؛ لأن الله ذكر إتلاف الماء بالضفادع، فكان القوت من أوله إلى آخره وغايته وهو الدم؛ لأن الدم يكون من القوت فصارت الأقوات – والعياذ بالله – غير صالحة لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدخول.

أما الفساد في البحر فقد قال العلماء: يكون بموت الحيتان، وفسادها، وكذلك تغير المياه، وخروجها عن العادة.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ الباء للسببية، وما: يحتمل أن تكون مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة، فإذا كانت موصولة فلابد لها من عائد محذوف، فالتقدير: بما كسبته أيدي الناس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إلى عائد، ويكون المعنى بكسب أيدي الناس.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ قال المؤلف: [من المعاصي]، وأيدي الناس جمع يدٍ، والمراد: ما كسبوا، وهذا من أساليب اللغة العربية أن يُعبر باليد عن صاحب اليد، وليس المراد ما كسبت اليد فقط؛ لأن المعاصي لا تكون بالأيدي فقط بل تكون باليد وبالرجل وبالعين وباللسان وبالأذن، وبجميع الحواس، فكل الحواس يمكن للإنسان أن يعمل بها المعصية، فيكون المراد بالأيدي هنا الأنفس لا اليد التي هي عضو من أعضاء البدن، وليس هذا مجازًا؛ لأنها بسياقها دالة على أن المراد ما كسبوا بها، فلا تكون مجازًا.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٣٣] فالمراد: الأعضاء، فالكلمة في سياقها حقيقة في معناها، ولهذا لو أراد أحد أن يحذف قوله: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أن المعنى أو

تقطع أبدانهم ما استطاع، كما أنه لو أراد أن يجعل قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء ما استطاع، وهذا هو وجه قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة العربية[1]؛ لأنه إذا كانت الكلمة قد تعين معناها بسياقها صارت بمقتضى هذا السياق حقيقة في هذا المعنى، وحينئذٍ ما نحتاج إلى تأويل.

وقوله: ﴿النَّاسِ﴾ تقدم لنا مرارًا وتكرارًا أن أصلها أُناس، لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هي في شر وخير، وأصلهم أشر وأخير، وكما هي في اسم الجلالة الله فإن أصله الإله، هكذا قيل في الله، وفي النفس منها شيء.

قال: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ [بالياء والنون] ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ اللام هنا للتعليل، والمعلل متعلق هذه اللام، واللام متعلقة بـ ﴿ظَهَرَ﴾، هذا هو المعلل، ظهر لكذا، أي: لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان، وهي ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ مضافٌ فيها الفعل إلى الله عز وجل، أو ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ مضافٌ فيها الفعل إلى ضمير الغائب، ومع ذلك فإن هذا الغائب يعود إلى الله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ يعبر دائمًا بالإذاقة عن الإصابة؛ لأن الذوق هو أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشيء ثم يراه ثم يذوقه، أقول لك: عندي تفاحة فإدراكك للتفاحة الآن بالسماع ثم أخرجها وأريك إياها، فيكون بالرؤية، أيهما أقوى؟ الرؤية أقوى من السماع، ثم أعطيكها فتأكلها، فيصير الذوق أعلى ما يكون؛ لأني لو قلت: عندي تفاحة، وما رأيتها أنت، يحتمل أن قولي هذا كذب، وإذا أريتُك إياها ولكن ما ذُقتَها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التفاحة، ويحتمل أن تكون من التفاح الصناعي المعمول من البلاستيك، وجائز أن يكون التفاح حقيقيًّا، فإذا ذقتها صارت حق اليقين، ولهذا يعبر الله دائمًا عن الإصابة بالإذاقة؛ لأنها أعلى أنواع الإدراك.

وقوله: [﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: عقوبته]؛ لأن الذي عملوا غير الفساد الظاهر في البر والبحر، ولكن الفساد هو عقوبتهم، لكن قد يقول قائل: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

نقول: إنه عبر عن العقوبة بالفعل ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لوجهين:

الوجه الأول: بيان سبب هذه العقوبة.

الوجه الثاني: أن هذه العقوبة بقدر العمل تمامًا، ولذلك عُبر عنها بالعمل، إشارة إلى أنها بقَدَره ليس فيها ظلم، وهذا كثير في القرآن يعبر الله عز وجل عن العقوبة بالفعل.

وقوله: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني: ليس كله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وهذا حق، فلو أن الله تعالى آخذ

---

(١) وهذا قول، لعلماء اللغة فيه نظر طويل.

الناس بقدر ذنوبهم ما ترك عليها من دابة، كل الناس يموتون ولا يبقون، ولكنه سبحانه وتعالى يصيبهم ببعض ذنوبهم، والحكمة: قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: [يتوبون] ولعل هنا للتعليل، وكلما جاءت لعل في كلام الله فإنها للتعليل، أو توقع الشيء إذا كان من المتوقع، أي: لأجل أن يرجعوا إلى الله عز وجل، وهذه من حكم الله، أن الله تعالى يبتلي العباد بالضراء؛ لأجل أن يرجعوا إلى الله، وكم من إنسان صارت عقوبته بالضراء سببًا لرجوعه إلى ربه، بل إنها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا قال الله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أين يذهبون؟ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥] هذا رجوع، لكنهم - والعياذ بالله - إذا نجوا عادوا إلى كفرهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

قال المؤلف: ﴿قُلْ﴾ [لكفار مكة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون له ولكل من دعا إلى شريعته.

وقوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السير معناه: المشي، و﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿فِي﴾ بمعنى: على يعني: على الأرض، وليس المراد: في داخلها، وقيل: إن (في) للظرفية وأن الظرف يختلف باختلاف المظروف، وبحسب الظرف أيضًا؛ لأن مثلًا إذا قلنا: الماء في الكوز صار في جوف الكوز، أو القِدْرِ، فهنا صار الماء في جوفه، وإذا قلنا: الكتابة في الورق اختلف، وإذا قلنا: الوجه في المرآة اختلف، فيرى بعض العلماء أن في هنا للظرفية، ولكن في كل شيء بحسبه، والسير المأمور به هنا لا أحد يتصور أن المراد: أن تحفروا لأنفسكم خندقًا في الأرض وتدخلوا فيه.

فهنا وجهان في كلمة ﴿فِي﴾:

الوجه الأول: أن تُجعل بمعنى على، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على ظهرها.

الوجه الثاني: أن تُجعل في للظرفية ويقال: إن الظرفية في كل مكان بحسبه.

هذا تفسير ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهل المراد السير بالأقدام أو السير بالقلوب؟

الجواب: الاثنين فيشمل السير بالأبدان؛ لأن الإنسان يذهب إلى مساكن القوم ليتعظ ويعتبر، أو السير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم حتى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صار أعظم من السير بالقدم!! ولكن السير بالقدم من أجل التفرج والنزهة، هذا محرم كما يفعله بعض الناس الآن الذين يذهبون إلى ديار ثمود من أجل التفرج والنزهة والاطلاع على ما لهم من قوة سابقة مع أن الرسول ﷺ يقول: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ فَلَا

تَدْخُلُوهَا»[1] أين الذين يذهبون إلى ديار ثمود وهم يبكون؟! فالرسول ﷺ لما مر بها في ذهابه إلى تبوك مشى مُسرعًا وقنع رأسه عليه الصلاة والسلام وأسرع.

وعلى هذا فنقول: إذا سرت في أرض هؤلاء المعاقَبين فسر سير متعظ معتبر، كما أمر النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ هل المعنى فانظروا نظر اعتبار وتفكر أم نظر عين؟

الجواب: على حسب ما قلنا في السير، إن كان سيرًا بالقدم فهو نظر بالعين، وإن كان سيرًا بالقلب فهو نظر بعين البصيرة ـ التفكر والتأمل ـ، ويمكن أن نقول أيضًا: إنَّه حتى إذا فسرنا السير بالسير الحسي على الأقدام، فإنه لابد أن يكون مقرونًا بالنظر بعين البصيرة والاعتبار، إذِ النظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ محل ﴿كَيْفَ﴾ من الإعراب النصب وهي خبر كان مقدم، ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسمها، والجملة معلقة عن العمل، معلقة لكلمة ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، الجملة المعلقة في تأويل اسم المفرد، والتقدير: فانظروا حالهم كيف كان.

وقوله: ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ هنا مصدر، ولهذا ذكر الفعل و ﴿مِن﴾ حرف جر، و﴿قَبْلُ﴾ مقابل للاسم مرفوع بالضمة الظاهرة في آخره وهي ظرف مبني على الضم؛ لأن المضاف نوي معناه؛ لأنهم يقولون: في (قبل وبعد) أربع حالات:

الأولى: إن وجد المضاف لفظًا فهي معربة غير مُنَوَّنة، تقول: أتيت من قبل زيد، ومن بعده.

الثانية: وإن حذف لفظًا ومعنىً فهي معربة منونة.

الثالثة: إذا حذف المضاف إليه ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظة معربة غير منونة.

الرابعة: إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه، فهي مبنية على الضم.

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ فأهلكوا وأتلفوا وما أشبه ذلك، ولكن البيان جاء على خلاف المتوقع في قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، جاء مبينًا لسبب هذه العاقبة؛ لأنها هي الحالة التي عليها هؤلاء المكذبون وهو الشرك، يعني: فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مشركين فدُمِروا، فمعنى ذلك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التدمير والهلاك، وهذا من بلاغة القرآن: أن الله تعالى ذكر سبب هلاك أولئك القوم الذي كان عليه الآن، فهؤلاء المخاطبون الآن مشركون وما وجدوا العاقبة، لكن إذا علموا أن سبب عاقبة هؤلاء هو الشرك، فلا شك إذا كان لهم عقول أن ينتهوا عن الشرك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يقول: [فأهلكوا بإشراكهم ومساكنهم ومنازلهم خاوية].

وظاهر الآية الكريمة أن البعض الآخر وهو الأقل لم يكن مشركًا، وها هنا إشكال، هل أُهلك الموحدون مع المشركين مع أن الله ذكر في آيات كثيرة في الأمم السابقة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف:٦٤]، ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزُّمَر:٦١]؟

فظاهره أن المؤمنين لم يهلكوا، أو نقول: كان أكثرهم مشركين، باعتبار القادة والرؤساء الذين يعرفون أنهم على شرك، أما العامة الذين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عندهم شرك، لكن هم يظنون أن هذا هو الحق، واحتمال ثالث أن يقال: إن الله أمرنا أن ننظر كيف كان عاقبة السابقين، وإذا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأهلك، وأما المؤمن فنجا، فيكون في هذا تحذير من الشرك وترغيب في الإيمان والتوحيد، فها هنا ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن الجميع أهلك، وهذا يشكل عليه آيات كثيرة في أن الله تعالى أنجى المؤمنين.

الاحتمال الثاني: أن المراد بأكثرهم مشركين، الذين يعرفون أنهم على شرك، دون الغوغاء والعامة الذين لا يدرون ما هم عليه وإنما هم أتباع كل ناعق.

الاحتمال الثالث: أن يقال: العاقبة حميدة وذميمة، والله يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، فنحن نعلم أن من حكمة الله عز وجل أن يجازي المشرك على شركه والمؤمن على إيمانه، وحينئذٍ يكون في الآية: ترغيب في الإيمان والتوحيد وترغيب عن الشرك والكفر، فأي الاحتمالات أولى؟

الظاهر: أن الأخير أولى؛ يعني: ينظروا كيف كان عاقبة السابقين وأن من كان مشركًا منهم أخذ بشركه، ومن كان مؤمنًا نجِّي بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم، ومن أجل أن يثبت المؤمنون من هذه الأمة على إيمانهم.

وقال المؤلف: [فأهلكوا بإشراكهم ومساكنهم ومنازلهم خاوية] هذا هو الواقع، فصالح مثلًا، والذين معه نجوا أم لم ينجوا؟ نجوا، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢] تجدها خاوية ولم تسكن فيما نعلم بعدهم إلى الآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ قال: [دين الإسلام]، ﴿فَأَقِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إذا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ، فإما أن يكون المراد به الرسول نفسه، وتكون أمته تبعًا له، وإما أن يُراد به الرسول والأمة، لكن

خُوطب به الرسول ﷺ؛ لأنه زعيمهم وإمامهم.

وقوله: ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المراد بالوجه: الظاهر أنه الاتجاه لا المعنى الحسي؛ لأن الوجه يراد به الجهة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾؛ لأنه سبق لنا أن فيها قولين للمفسرين: أن المراد به وجه الله الحقيقي، وقول: أن المراد به الجهة ولا شك أن الوجه يراد به الجهة.

وقوله: ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المراد بالدين العمل، وقد سبق لنا أن الدين في القرآن يُراد به العمل والجزاء، فقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧] المراد بالدين الجزاء، وأما قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فالمراد به العمل، كما في هذه الآية.

وقوله: ﴿الْقَيِّمِ﴾ ضد المعوج، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا﴾ [الكهف:١ - ٢]نعم الكتاب قيم؛ لأنه يريد الدين، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١] يعني: قَيِّمًا، فدين الإسلام دين مستقيم ليس فيه اعوجاج، لا بالنسبة لمعاملة الله عز وجل وهي العبادة، ولا بالنسبة لمعاملة المخلوق؛ ولهذا تجد في المعاملات حُرم الكذب والغش والخديعة، وما أشبه ذلك، وحُرم الجور والظلم وما أشبه ذلك، فإن كل ذلك خلاف الاستقامة.

وفي العبادات حرَّم الشرك والابتداع، لما في ذلك من الانحراف عن الصراط المستقيم، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] هذا يشمل العقيدة ويشمل الأعمال الظاهرة، إذنْ ما قلنا فيما سبق: إن الإسلام إذا قُرن بالإيمان صار الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة، وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: [هو يوم القيامة]

قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ متعلق بـ (أقم)، يعني: أقمه من قبل هذا اليوم، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ نكرة للتعظيم؛ لأن هذا اليوم كما وصفه الله في قوله: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٥ - ٦].

وقوله: ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ (مرد): هذا مصدر ميمي من رد أي لا رد له، يعني: ما يمكن أن يُرد هذا اليوم؛ لأن الله تعالى قضى به.

وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق بصفة لقوله: ﴿يَوْمٌ﴾؛ لأن من قبل أن يأتي يوم من الله، يعني هذا اليوم من الله لا من غيره، ويحتمل أن يكون متعلق بـ ﴿يأتي﴾ أي: يأتي من الله يوم، والأول أبلغ، وهو أن يكون صفة ليوم؛ لأن قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يدل على عظمته، وأنه لا يمكن أن يرد هذا اليوم.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ إذا قال قائل: هذه الآية خُوطب بها الناس في عهد الرسول ﷺ

ومعلوم أن القيامة ما تكون في عهد الرسول ﷺ فكيف قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

الجواب على هذا: أن نقول: إن الموت واقع حتى في عهد الرسول ﷺ ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله، فلا فرق بين من يموت في ذلك الوقت وبين من يموت وهو آخر الناس موتًا، بالنسبة لانقطاع العمل، لأن كل منهم انقطع عمله، فكأنه من يموت في عهد الرسول ﷺ بلغ يوم الجزاء، ولهذا يقول العلماء: إن موت الإنسان قيامة بالنسبة إليه، وهو قيامة صغرى بالنسبة إلى عموم الناس؛ لأن العمل انقطع وانتهى.

وقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يفيد بأن هذا أمر لابد أن يقع، وهو كذلك، فإن يوم القيامة، هو الذي من أجله خُلق الناس، خلق الناس لعبادة الله، وجزاؤها يكون يوم القيامة.

قال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال المؤلف: [فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد: يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إذ: منونة، والتنوين هنا عوض عن جملة، يعني: يوم إذ يأتي يصدعون، ويقول المؤلف: [فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد]، ومعنى إدغام التاء في الأصل في الصاد أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التاء في الأصل] أي: باعتبار الأصل، يعني: أن الصاد التي أُدغمت في أختها، أصلها تاء فأدغمت بها بعد قلبها صادًا، ومعنى (يتصدعون) يتفرقون، ومعنى التصدع: التفرق، ومنه تصدُّع الأرض.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العلل والأسباب، وأن أفعال الله عز وجل معللة، لابد لها من علة، تؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، ولا شك أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة؛ لأن من أسمائه الحكيم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس لا يعاقبون إلا بأكسابهم، لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيتفرع على ذلك: أن من أراد أن تُرفع عنه العقوبة فليتب إلى الله؛ لأن التوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة، ولهذا قال هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل، لقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان سعة رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه، لقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ولو أن الغضب كان بقدر الرحمة لكان الله يذيقنا كل الذي عملنا، ولو كان غالبًا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة الآن إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل والأكثر ممتنع وإنما يذيق الله تعالى البعض؛ لأنه ثبت في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[1]، ولولا هذا لكان الله تعالى يؤاخذ الناس بما عملوا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العقوبات قد تكون سببًا للرجوع إلى الله تعالى؛ وهذه تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أنها قد تكون بالعكس، فقد تكون سببًا في الازدياد في العتو والنفور ـ والعياذ بالله ـ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والجمع بين هذه الآية وبين ما نحن نفسر أن يقال: إن العقوبات على سبيل العموم مفيدة، لكن على سبيل الخصوص، قد لا تفيد؛ لأن الله قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ من الناس، على أن قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن تكون المراد بها فتنة الدين، بحيث ما يكون عنده مقاومة فيقع في الهاوية - والعياذ بالله -، لكن الأظهر أنها عامة، لقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

٦ـ **وفيها دليل على:** بطلان مذهب الجبرية، لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله لا يفعل باختياره، ولا يضاف الفعل إليه إلى على سبيل المجاز، فيقال صام، صلى، زكى، مجازًا لا حقيقة، لكن الآية الكريمة ترد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إلى أيدي الناس.

الوجه الثاني: أن الله عاقبهم على هذا الفعل، ولو كانوا مجبرين عليه لكانت عقوبتهم ظلمًا لهم، فكيف يعاقبون على ما ليس باختيارهم؟! ففيها رد من وجهين، وجه لفظيٌّ، وهو إضافة الكسب إلى أيديهم، ووجه معنوي، وهو: أنه يلزم من عقوبتهم على ذلك لو كانوا مجبرين أن يكون الله تعالى ظالم لهم، والله تعالى ليس بظلام للعبيد، وكذلك أيضًا يؤخذ من قوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إذ أضاف العمل إليهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

١ ـ **في هذه الآية الكريمة:** الأمر بالاعتبار، بما جرى للسابقين، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

٢ - ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ كتب التاريخ الماضية، للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا أن كتب التاريخ بعضها مزيف، ليس على حقيقته، فمصدر التاريخ في الأمم السابقة هو ما أخبر الله به ورسوله، قال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فنفى أن يكون لأحد علم بهم إلا الله، إذنْ نأخذ أخبارهم - ما دام لا يعلمهم إلا الله - من الله إما من الكتاب وإما من السنة.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن أسباب هلاك الأمم السابقة كان بسبب إشراك أكثرهم، لقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

٤ - ومنها: أن العقوبة إذا حلت قد تصيب الصالحَ وغيره؛ لأنه قال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني: والبعض لم يشرك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وقد ينجي الله المؤمنين، كما أنجى الله الرسل ومن آمن معهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخره.

١ - في هذه الآية من الفوائد: وجوب الاتجاه إلى الدين، لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، ويلزم من وجوب الاتجاه إليه وجوب الإعراض عما سواه؛ لأن الوجهة واحدة، إما إلى هنا وإما إلى هنا، فإذا لزم أن تتجه إلى الدين لزم أن تنحرف عن غيره.

٢ - ومن فوائد الآية: تحريم الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه مخالف للاتجاه إلى الدين القيم، والحكم بغير ما أنزل الله منه ما يكون كُفرًا ومنه ما يكون فسقًا ومنه ما يكون ظلمًا، كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفي الآية الثانية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفي الآية الثالثة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل على حال الحاكم، فقد يكون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الدين قيم، ومعنى قيم أي: معتدل لا اعوجاج فيه، لا في جانب العبادة ولا في جانب المعاملة.

٤ - ومن فوائدها: أنك إذا ظننت أن في الدين ما يخالف الاستقامة فاعلم أنك قاصر، إما في علمك وإما في فهمك، وجه ذلك: أن الله وصف هذا الدين أنه قيم، فكل شيء تستعرضه في دين الله فيبدو لك أنه على الاستقامة فاعلم أنك مخطئ، لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين الناحيتين، إما لقصور علمه، وإما لقصور فهمه؛ حيث تكون عنده علم لا ما يفهم.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي لمن أمر بشيء أن يذكر ما يُغري به ويرغب فيه، يؤخذ من قوله: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾، فالإنسان إذا علم أنه قيم لا شك أنه يتجه له، فأنت إذا أردت أن تأمر

بشيء فاذكر الأسباب التي توجب للناس الإقبال عليه، بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الجمع بين الترغيب والترهيب، الترغيب في قوله: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾، الترهيب: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٤٣].

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة، وأنه آتٍ لا محالة، لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن يوم القيامة يوم عظيم، وهذه الفائدة تؤخذ من تنكير يوم في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، والتنكير يفيد التعظيم، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

٧ - **ومن فوئد الآية الكريمة:** أن الحكم لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فلا أحد يستطيع أن يمنع ما أراد الله، ولا أن يجلب ما لم يُرد الله أبدًا، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**».

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس يوم القيامة ينقسمون ويتفرقون، لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٤-٤٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يقول المؤلف: [وبال كفره وهو النار]، هذا كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن يصدعون يتفرقون بحسب أعمالهم، فقوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ الإعراب:

﴿مَن﴾ شرطية وفعل الشرط: ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه جملة: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

وقوله: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوله: ﴿كُفْرُهُۥ﴾، والخبر قوله: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ مقدم، وفائدة التقديم: الحصر.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مثلها شرطية، وجواب الشرط قوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقدم المعمول وهو ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، للحصر وهي فائدة معنوية، ولمراعاة الفواصل، وهي فائدة لفظية؛ لأنه لو قال: فيمهدون لأنفسهم لاستقام الكلام، لكنه قدم لهاتين الفائدتين، يقول الله عز وجل: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يعني: أي إنسان يكفر فإن وبال كفره عليه، لا يضر إلا نفسه، ويكون على غيره أم لا؟ لا يكون على غيره إلا أن يكون ذلك الغير سببًا فيه، فإن كان سببًا فيه صار عليه مثل وزره، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وثبت عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يوم القِيَامَةِ»(١).

فإذا قيل: هل هذا يناقض الآية: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؟

الجواب: لا يناقضها؛ لأنه إذا كان هو السبب، فإن ذلك من عمله، لكن صورة المسألة مختلفة؛ لأنه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدالَّ على الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: [يوطئون منازلهم في الجنة].

الكفر في اللغة العربية معناه الستر، ومنه الكُفُرَّى الذي هو جراب طلع النخل، ويسمى بلغتنا العامية: الكافور، فهذا يستر الطلع، فالكفر في الأصل هو هذا، والمراد به الخروج عن طاعة الله؛ لأن الخارج عن طاعة الله قد ستر ما أنعم الله به عليه من العقل والعلم وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ العمل الصالح قال أهل العلم: هو ما جمع شرطين أساسيين: أحدهما: الإخلاص، والثاني: المتابعة للرسول ﷺ وضد الإخلاص: الشرك، والمتابعة ضدها الابتداع، فمثلًا: إذا وجدنا رجلًا يصلي الصلاة المعتادة، لكنه يرائي الناس بها فعمله ليس بصالح، فهذا العمل فقد منه الإخلاص، وإذا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يرد في الشرع، لكنه مخلص يريد بذلك وجه الله، وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة، لكنها على غير شريعة الله، فهذا عبادته باطلة؛ لفقد المتابعة للرسول ﷺ.

ومن ذلك ما إذا أخرج العبادات المشروعة عما شُرعت عليه، فإنه لا يقبل عمله، كما لو صلى الصلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر، فهذا لا يُقبل منه، لأنه ليس عنده متابعة، هو مخلص لكنه غير متابع، وكذلك لو صلى صلاة بغير طمأنينة، إذا قال: سمع الله لمن حمده وسجد بسرعة، وإذا قام من السجود كذلك، فصلاته باطلة، ولو صلى إلى يوم الدين ما قبل الله منه، لعدم المتابعة، ولهذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فيها، قال له النبي ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»(٢) فنفى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٦٧)، ومسلم (٣٩٧).

عنه الفعل لانتفاء صحته.

إذن العمل الصالح هو الذي جمع بين شرطين: الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتمهيد بمعنى: التوطئة، ومنه قولهم: هذا طريق ممهد، يعني: موطأ محسَّن من أجل أن تطأه الأقدام، فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾: يحسنون الشيء حتى يكون موطئًا لهم؛ وذلك لأن الذين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصالح إلى دخول الجنة، فيسهِّل لهم الطريق الذي يوصلهم إليها.

وقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحصر.

فإذا قال قائل: هل هذا ينافي ما ثبت في الحديث من أن من سن سنة حسنة في الإسلام فله أجره وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؟

نقول: لا ينافيه؛ لأن الذين يسنون حسنات عملوا فتوبعوا على ذلك، فالأجر الذي حصل لهم من أجل اتباع غيرهم لهم هو في الحقيقة من فعلهم.

قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قال: [متعلق بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾]، دائمًا نرى العلماء إذا جاء ظرف أو جار ومجرور يقولون: متعلق بكذا، فما معنى متعلق؟ يعني: أن هذا هو الذي عمل فيه؛ لأن الجار والمجرور والظرف بمنزلة المفعول به، والمفعول به لابد له من عامل يعمل به.

فإذا قال: متعلق بكذا يعني: أن هذا هو الذي عمل فيه، ولابد لكل جار أو ظرف، لابد له من متعلَّق.

قال ابن مالك: لابدْ للجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بفعلٍ أَوْ مَعْنَاهُ.

فإذنْ معنى قوله: [متعلق بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾] أن العامل في كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، وهذا رأي المؤلف، ويحتمل أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن التصدع في الحقيقة هو نفس الجزاء، فكيف يكون الشيء علة لنفسه؟! هذا ما يبعد كلام المؤلف.

لكن إذا قيل: يأتي هذا اليوم لأجل المجازاة، صار المعنى مستقيمًا واضحًا؛ لأن اللام حرف جر، فإذا قلنا: إنها متعلقة بـ ﴿يَأْتِيَ﴾ فهو أوضح من قولنا: إنها متعلقة بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن التصدع هو نفس الجزاء.

وقال بعض المُعرِّبين: إنه خبر لمبتدإ محذوف، فهو متعلق بمحذوف فيكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك ليجزي، والمشار إليه ما سبق، وهذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، قلنا: إن اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إلا على الأسماء، وقد تبين بأن من علامات الاسم: دخول حرف الجر عليه، ففي «الآجرومية» يقول:

الاسم يعرف بالخفض والتنوين ودخول الألف واللام وحروف الخفض، فكيف صح أن نقول: إن اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر مع أن ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هذا فعل؟ نقول: لأن هذا الفعل بمنزلة الاسم إذ إنه فعل مقدر فيه (أن)؛ لأن التقدير: لأن يجزي و(أن) مصدرية تحول الفعل إلى مصدر، والمصدر اسم، فعليه يكون المعنى: لجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات..إلى آخره.

فإذا دخلت لام التعليل على الفعل فإنه يقدر بينها وبين الفعل (أن) المصدرية فيكون التقدير: لأن يجزي.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الفاعل فاعل الجزاء هو الله سبحانه وتعالى وهو ضمير مستتر يعود عليه، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، وهي نفسها لام التعليل التي ينصب الفعل المضارع بأن بعدها، على رأي البصريين.

والجزاء بمعنى: المكافأة، أي: ليكافئهم.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: [يثيبهم]، هذا تفسير للجزاء، بمعنى: الإثابة، والثواب هو المكافأة وسمي ثوابًا؛ لأنه من ثاب يثوب إذا رجع؛ لأنه يرجع إلى الإنسان جزاء عمله.

وفي الآية: قرن بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصالح وحده لا يكفي، هذا إذا قُرن الإيمان بالعمل، أما إذا قيل: عمل صالح يكفي، أو إيمان يدخل فيه العمل، والإيمان يكون بالقلب، فمن لا إيمان في قلبه لو عمل من الصالحات ما عمل لم ينفعه، فالمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج في الجهاد ولكن لا ينفعه؛ لأنه لا إيمان في قلبه.

والإنسان الذي عنده إيمان بالله سبحانه وتعالى، ولكنه لم يعمل عملًا صالحًا، يمكن أن يجزى إلا في واحدة فقط وهي الصلاة، فإنه إذا لم يعملها فإنه لا ينفعه الإيمان؛ لأنه قد دلت الأدلة على أن هذا العمل وإن كان عملًا بدنيًّا لكنه يكفر الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أما غير الصلاة من الأعمال فقد قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا تركه كفر إلا الصلاة، يعني: لو لم يزكِّ فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يصم فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يحج فإنه لا يخرج من الإيمان، وهذا هو الصحيح، وعن الإمام أحمد رواية أن جميع أركان الإسلام إذا تركها الإنسان متهاونًا فهو كافر، فإذا لم يزكِّ فهو كافر، وإذا لم يَصُمْ فهو كافر، وإذا لم يَحُجَّ فهو كافر، يقول: لأن ركن الشيء عليه اعتماد الشيء، فإذا لم يوجد الركن ما قام الشيء، وهذا لا شك أن له وجهًا، لكن الأدلة تمنع من القول بهذا، فإن حديث أبي هريرة في الصحيح فيمن لا يؤدي زكاته ذكر النبي ﷺ عقوبته ثم قال: «ثُمَّ يُرَى سَبِيْلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» فقوله: «يُرَى سَبِيْلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، يدل على أنه لا يكفر بمنع الزكاة؛ لأنه لو كان يكفر بذلك ما صار له سبيل إلى الجنة، فإذا لم يكفر بترك الزكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسلام التي

دون الزكاة أنها دونها، فالصيام دون الزكاة والحج دون الزكاة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] فإن ظاهره من كفر فلم يحج، فإن الله غني عن العالمين؟

الجواب: أن يقال: المراد بالكفر هنا: سوى الكفر الأكبر، يعني: كفر دون كفر، ولهذا ما قال: ومن لم يحج فهو الكافر، أو وترك الحج هو الكفر، كما قال في الصلاة، و(كفر) فعل، والفعل يدل على الإطلاق، ولا يدل على العموم، فهذا الجواب عن هذه الآية، والذين قالوا: إنه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾:

قوله: ﴿ وَمِنْ ﴾ للتبعيض، و﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجرورة بها، و﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ هذه فعل مؤوَّل بالمصدر وهو المبتدأ، أي: من آياته إرسال الرياح، ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ حال من الرياح، يقول الله عز وجل في هذه الآية: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي: بعض آياته؛ لأن (من) هنا للتبعيض؛ وذلك لأن آيات الله عز وجل لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

فلو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عز وجل التي في جسمه هو فقط، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فكيف بآيات الله تعالى التي ملأت الكون، ولهذا تأتي (من) الدالة على التبعيض.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: علاماته، واعلم أن كل آية فإنها تدل على العلم، وتدل على القدرة، وتدل على الحكمة، هذا لابد منه في كل آية أنها تكون آية علامة على هذه الأمور الثلاثة: العلم والقدرة والحكمة، ثم تختص بعض الآيات بما تختص به، إما أن تكون مثلًا التي بعدها رحمة أو بعدها شيء يدل على السلطان أو العظمة.

المهم: أن لكل آية شيء خاص وشيء عام، فالشيء العام هو هذه الثلاثة: العلم والقدرة والحكمة.

وقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾، تضاف إلى هذه الثلاث الرحمة؛ لأن هذه الرياح تبشر بالمطر.

والإرسال بمعنى: الإطلاق، ومنه قول الشاعر:

فأرسلها العِرَاكَ

يعني: أطلقها، ومنه قول الفرضيين: دَيْنٌ مرسل، يعني: مطلق، ليس به رهن، أي: يرسل الرياح، بأن يطلقها سبحانه وتعالى، والرياح جمع ريح، وهي الأهوية، واعلم أن الريح تُذكر مفردة وتُذكر مجموعة، فإذا ذُكرت مجموعة فإنها تكون غالبًا للرحمة، وإذا ذكرت مفردة فإنها تكون

غالبًا للعقاب، لقوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة:٦]، وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]، وما أشبه ذلك، ولكنها - أي: الريح - قد تفرد وتكون في مقام النعمة، لاسيما إذا وصفت بما يدل على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] هنا الريح نعمة وإنما كانت نعمة؛ لأنها وصفت بقوله: ﴿طَيِّبَةٍ﴾ وأيضًا بالنسبة للسفن هل الأَوْلى اختلاف الرياح أو اتحاد الريح؟ اتحاده؛ لأنها إذا اختلفت، اختلف سير السفينة، وذلك فيما سبق لما كانت السفن شراعية، هنا الرياح في مقام النعمة، ولهذا جُمعت الرياح.

وقوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ حال من الرياح، أي: تبشر بالخير، ولهذا بعض الرياح إذا هبَّت استبشر الناس؛ لأن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة أن هذه الريح المعينة يتكون منها السحاب ثم المطر، وأحيانًا يستبشرون بالريح إذا رأوها تجمِّع السحاب، أي: تجمعه وتفتته، فيستبشرون بها.

والبشارة هي الإخبار بما يسرُّ غالبًا، وسميت بَشَارة؛ لأنها تؤثر على البشرة، فالإنسان إذا استبشر ينير وجهه ويُسْفِر وتجد عليه علامة البشرى، وقد تطلق البشارة لما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ قال: [بمعنى: لتبشركم بالمطر]، المؤلف رحمه فسر اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقال: [بمعنى: لتبشركم] لأجل أن يسهو العقل في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾؛ لأن قوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بينهما فجوة، هذه الفجوة أراد المؤلف أن يقربها بقوله: [بمعنى ليبشركم بالمطر]، ولكن الصحيح عندي أن ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ على حالها، تعتبر اسمًا، ولكننا نقدر فعلًا يناسب ما بعدها، لأجل أن يصح عطف الفعل عليه، والذي أرى أن يقدر: لتستبشروا بها، وليذيقكم من رحمته، أو نجعل لتبشركم كما قال المؤلف، ما نجعلها مبشرات، بل نجعلها فعلًا مستقلًا قدرناه ليصح العطف في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ [بها ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ المطر والخصب]، تقدم لنا أن الله تعالى يعبر عن الإصابة بالإذاقة؛ لأنها أعلى أنواع الإصابة وأبلغها، وليذقكم بها ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ يقول: [المطر والخصب]، ففسر الرحمة بأثرها، وعلى هذا فتكون الرحمة في هذه الآية مخلوقة، وهذا الذي فسرها به محتمل؛ لأن الله تعالى قد يطلق الرحمة على الشيء المخلوق الذي يكون من آثار رحمته، كما ثبت في الحديث الصحيح أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ومن المعلوم أنه سبحانه وتعالى لم يرد أنها رحمته التي هي صفته؛ لأن الجنة مخلوق دائم، ولكن أراد أنها من أثر رحمته أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: من هذا المطر والخصب، وتكون الرحمة هنا: مخلوقة من المخلوقات.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ قال: [السفن بها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادته، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرزق بالتجارة في البحر].

يقول: [السفن بها]، بها: الضمير يعود على الرياح، فالله تعالى يرسل الرياح لتصير بها المياه في أجواء السماء، وهو السحاب، ويرسل الرياح لتصير بها السفن في البحار، وكلٌّ من السحاب والسفن يحمل نعمًا كثيرة، فالسفن تحمل أرزاق الأناسي والحيوان وغيرها، والسحب تحمل الماء، الذي هو مادة الحياة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ ففي الرياح إذنْ فائدتان:

تسيير الماء في أجواء السماء، وتسيير السفن في أجواء البحار.

وقوله: ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وذكر الفقهاء كلمة ذكرتها سابقًا فقالوا: إن الأحدبَ ينوي الركوع بقلبه، فهو ليس قائمًا حتى يركع، لكنه ينوي بقلبه، قال بعض الفقهاء: فهو شبيه للفُلك في اللغة العربية، لا يعرف إلا بالنية، فالفلك صالح للمفرد وللجماعة، ولا يعرف إلا بالنية أو القرينة، هذا المسكين الأحدب في حال الركوع ما الذي يعلمنا بأنه راكع أو غير راكع؟ فركوعه وقيامه سواء، هذه يمكن أن يستدل بها. على أن الكسائي يقول: إن الإنسان إذا أتقن شيئًا من العلم، أمكنه أن يفهم غيره من العلوم، وذكروا القصة: أنه كان هو وأبو يوسف عند الرشيد أحد خلفاء بني العباس وأنهما تناظرا في مسألة فقال أبو يوسف للكسائي: ما رأيك لو سها الإنسان في سجود السهو، هل في نحوك علمٌ في هذه المسألة؟

قال: نعم، إذا سها في سجود السهو فإنه لا يسجد، قال: أين القاعدة في نحوك؟ قال: عندنا قاعدة في النحو تقول: إن المصغر لا يُصغر، فاستدل بأن سجود السهو صلاة مصغرة فإذا سها فيه لا يعيد الصلاة مرة ثانية.

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال: [بإرادته]، والصحيح: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ من الأمر الذي هو بالقول، وليس المراد به الإرادة فقط؛ لأن الفلك لا تعلم عما يريد الله عز وجل، لكنها إنما تأتمر بأمره القولي وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكل مراد الله إن لم يقترن بالقول فإنه لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةٍ لا يعلم بها إلا الله؟! فلابد من قول.

فالصواب: أن المراد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أمره القولي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولا يمنع ذلك أن يكون هذا الجريان بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأن المقدر للأسباب هو الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى يخلق ويسخر ولكن بأسباب.

وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كل هذا مما خلقه الله عز وجل لهذه الحِكَم العظيمة، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ [تطلبوا من فضله الرزق بالتجارة في البحر] وهو كذلك، فكم من أناس كانت تجارتهم في البحار،

ينقلون الأرزاق من جهة إلى جهة بواسطة السفن، ولولا هذه السفن لكان من المتعذر أن تنتقل الأرزاق من الجهة التي خلف البحر إلى جهة أخرى، ولكن الله عز وجل جعل هذه السفن لأجل أن تنقل هذه الأرزاق والنِّعم.

قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [هذه النعم يا أهل مكة فتوحدوه]، (لعل) هذه معناها التعليل، ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الشكر هو القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، والشكر يكون بالقلب كأن يؤمن الإنسان بأن هذه النعمة من الله عز وجل، هو الذي أمده بها وهو الذي يسرها له، وهو الذي جلبها إليه، هذا بالقلب، والشكر باللسان: أن يحمد الله عليها، فإن هذا من شكر النعمة، وأن يتحدث بها اعترافًا لله بالفضل، لا افتخارًا بها على غيره، وأما الشكر بالجوارح: كأن يقوم لله تعالى بالعمل البدني من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيره، ولهذا يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

فـ(يدي): الجوارح، و(لساني): القول، و(الضمير المحجبا): القلب.

ما هي الواسطة أو النسبة بين الحمد والشكر؟

نقول: الحمد أعم من حيث السبب، والشكر أعم من حيث التعلق؛ لأن الحمد يكون باللسان، ويكون على النعم وعلى كمال صفات المحمود، يعني: أنه يحمد المحمود على نعمه وإحسانه على الحامد، وعلى كمال صفاته، وأما في المتعلق فإنه يتعلق باللسان خاصة، فالحمد يكون باللسان فقط، وربما يكون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هذا المحمود، لكنه لا يسمى حمد اللغة إلا باللسان.

وأما الشكر فهو أخص من الحمد باعتبار سببه، وأعم باعتبار متعلَّقه، وكيف يكون أخص باعتبار سببه؟ لأن سببه النعمة فقط، الإنعام على الشاكر هذا السبب، وإلا لو كان الإنسان المحمود من أكمل الناس وهو ما أعطاك شيئًا هل تشكره أو لا؟ لا تشكره، فالشكر يكون على النعم فهو أخص من حيث السبب، ويكون بالقلب واللسان والجوارح فهو من حيث المتعلق أعم، إذنْ النسبة بينهما العموم والخصوص الوجهي.

فالشكر قلنا: هو القيام بطاعة المنعم، هذا بالمعنى العام، لكن شكر النعمة الخاصة يكون بالقيام بوظيفتها من الطاعة، مثلًا: شكر الإنسان ربه على العلم يكون بالعمل به وتعليمه، هذا شكر خاص؛ لأنها نعمة خاصة، وشكر الإنسان ربه على المسكن مثلًا يكون بطاعته في هذا المسكن، بألا يكون فيه مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذلك.

فالشكر هنا له إذنْ معنيان، المعنى العام: هو القيام بطاعة المنعم، والمعنى الخاص: هو القيام بطاعة الله تعالى فيما يتعلق بهذه النعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئه للقسم، يعني أنها جواب لقسم محذوف، والتقدير: والله لقد، وبهذا نعرف أن الجملة هنا مؤكدة بثلاثة أمور، وهي: القسم واللام وقد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العلم أن الرسول مَنْ أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه؛ لأنه مرسل، وهذا الصنف من الناس هو أعلى أنواع الأصناف من بني آدم، ويليهم الأنبياء ثم الصِّدِّيقون ثم الشهداء ثم الصالحون، فأعلى أصناف البشر الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم جمعوا بين الاختصاص بالرسالة والعبادة، قال الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] ما يعطي الرسالة إلا من هو أهل لها، فأحق الناس بالرسالة بلا شك هم هؤلاء الأعيان الذين أرسلهم الله عز وجل، ولا يمكن أن يكون أحد من الناس أحق بها منهم.

وبهذا نعرف ضلال - بل وكفر - من قالوا: إن عليَّ ابن أبي طالب أحق بالرسالة من محمد ﷺ؛ لأنهم بذلك طعنوا في الله عز وجل، ونسبوه إلى ما لا يليق به؛ لأنه إذا كان أعطى الرسالة محمدًا وعليٌّ أولى بها، فهو إما جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله، وكلا الأمرين بالنسبة إلى الله محال وممتنع، وأي أحد يصف الله بهذا أو بما يستلزم هذا فإنه كافر بلا شك، إذنْ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أشرف أصناف الخلق، وهم أحق الناس بالرسالة بلا شك، ولا أحد أحق منهم.

وأن يوجد - والعياذ بالله - بعض الناس الفلاسفة يرون أن الرسل من آخر مراتب الخلق، ويقولون: إن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول؛ لأن الولي خاص الخاصة، - ولي على اسمه - والنبي له مزية الوحي، والرسول بمنزلة الخادم الذي في البيت، يُرسل ليشتري الحوائج، انظر - والعياذ بالله - الضلال، ويقولون فيما يقولون:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

يعني: فوق الرسول بقليل، وبالنسبة للولي دونه ومنحط وبعيد عن الولي، وعلى هذا فتكون رتبة الولاية عندهم أعلى شيء، وهذا لا شك أنه كفر، بل نقول: إن مقام الرسالة فوق كل شيء، ثم النبوة، ثم الرسالة؛ لأن الرسول جامع بين الرسالة والنبوة والولاية، والنبي له النبوة والولاية، والولي له الولاية دون النبوة والرسالة، ومعلوم أنه كلما ازدادت صفة الكمال بشخص كان أكمل من غيره.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ القوم: هم الطائفة الذين ينتسب إليهم الإنسان؛ لأن بهم قِوامه، فهو يقوم بهم وهم به يقومون، وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لأنه ما من رسول أُرسل سوى رسول الله ﷺ

إلا ورسالته خاصة كما في حديث جابر: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿فَجَآءُوهُم﴾ الفاعل للرسل، والمفعول: ﴿قَوْمِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال: [بالحجج الواضحات على صدقهم، في رسالتهم إليهم فكذبوهم]، قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البينات أي: الواضحات، لكن هل المراد بالبينات هنا ما يبين صدق رسالتهم فيكون المراد بها المعجزات، التي قيدوا بها، أو المراد بالبينات أي: بالشرائع البينات الظاهرة التي كل من استقرأها عرف أنها من عند الله، أو المراد الأمران؟

المراد: الأمران، فالرسل أتوا بالآيات البينات التي تؤيدهم وتدل على صدقهم، وأتوا أيضًا بالشرائع البينة الظاهرة التي يُعلم أنها من عند الله عز وجل، فالباء إذنْ في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني: أُرسلوا رسالة مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص على القول بأن المراد بالبينات: الشرائع، وهذا من حكمة الله عز وجل ورحمته أن الله ما أرسل رسولًا إلا أيده بآية؛ لأنه لو جاء الرسول بدون آية إلى الناس وقال: أنا رسول الله لا يقبلوا؛ لأن من طبيعة البشر ألا يقبلوا حتى يعرفوا، كما أنه لو جاء واحد من الناس أخبرنا وقال: أنا عالم عندي علم بالشرع، فاستفتوني في أي شيء، يطيعون أم لا؟ لا يطيعونه حتى يمتحنوه ويسألوه، فكيف عَبدٌ يدعي أنه يُوحى إليه، لا يقبل إلا إذا جاء بآية، وهذا من حكمة الله، ومن رحمته أيضًا؛ لئلا يعاقب أحدًا بذنبٍ بدون حُجة؛ لأنه لو أرسل الرسل بدون آيات وكذبتهم الأمم لكانوا معذورين بالتكذيب لعدم وجود الآية، وقد لا يُعذرون؛ لأنهم يجب عليهم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات، ليطمئن الناس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناع.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ ربما يستفاد من كلمة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أنه لا رسول بعد محمد ﷺ، كما سنذكره إن شاء الله في الفوائد، ونناقش هذه الفائدة.

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الانتقام: هو الأخذ بالعقوبة، وهذا من فعل الله وليس من أسمائه، ولهذا الحديث الذي فيه سياق الأسماء الحسنى وهي مدرجة ما صحت عن الرسول ﷺ فيها أن من أسمائه المنتقم، وليس كذلك أي: ليس من أسمائه بل هو من أوصافه وأفعاله، ولهذا ما جاء مطلقًا بل قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢] فهو فعل.

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الإجرام هو فعل الجُرْم، والجُرْم: كل ما يكون سببًا في الإثم، والمراد بالإجرام هنا: الكفر، وفُهم من الآية الكريمة: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَصْرُ﴾ اسم كان، وخبرها: ﴿حَقًّا﴾، هذا أحسن ما يكون في إعراب الآية وأوجه ما يكون وأسهل ما يكون، وإلا ففيها أوجه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

أخرى، أو وجهان.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ الحق بمعنى: الشيء الثابت اللازم، وقوله: ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المؤمنين بما يجب الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عز وجل على نفسه أن ينصر المؤمنين، حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نصر المؤمنين﴾، وبماذا نصر المؤمنين؟ أي يمنعهم من أعدائهم وذلك بأن يجعل لهم من النصر الحسي والمعنوي ما به تكون العاقبة لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فإن قال قائل: هذا الحق الذي التزم الله به قد يشكل علينا أن الله تعالى يخذل المؤمنين أحيانًا كما في أُحد مثلًا، فإن النصر في أُحد لقريش وأتباعها، فما هو الجواب عن هذه الآية؟

نقول: الجواب: إن نصر قريش على الرسول ﷺ ليس نصرًا دائمًا كانت العاقبة فيه لهم، بل إن هذا في الحقيقة من نصر المؤمنين عليهم، وإذا شئت أن يتبين لك ذلك فاقرأ ما علل الله به هذه الغزوة في سورة آل عمران، من جملة ما ذكر من الحكم: ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٤١]؛ إذنْ فهو نصر بجنبهم؛ لأنهم لو هُزموا في كل مقام ما قاموا ولا حاربوا، لكن إذا صار لهم شيء من النصر فإن ذلك يغريهم بالقتال حتى تكون العاقبة للمؤمنين ويبيدهم الله عز وجل.

ومنها: أيضًا نصر المؤمنين على أنفسهم؛ لأنهم ما أتاهم الذي أتاهم به في أحد إلا بسبب مخالفتهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:١٥٢] لكي يعرفوا قدر المعصية وأنه يفوت بها من المحبوب.

الحاصل: أن هذه الآية على بابها أن الله تعالى ينصر المؤمنين حقًّا عليه أوجبه هو بنفسه على نفسه، كما في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

الفوائد:

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** الجمع بين الترغيب والترهيب، الترهيب في قوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾، والترغيب في قوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن شؤم الكافر لا يتعداه إلى غيره، لقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾، وتقديم الخبر يدل على الحصر.

٣- **ومن فوائد الآية:** أنه لا يتم الثواب إلا بالعمل الصالح المبني على أمرين: وهما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الحزم والكياسة بالعمل الصالح، لقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك استراحوا في المستقبل إذ إنهم وطأوا لأنفسهم منزلًا هو خير المنازل، وقد

ذكرنا عند قوله: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ الجمع بينها وبين قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَام سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوم القِيَامَةِ»[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] فذكرنا الجمع؛ لأنهم هم السبب.

فوائد قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** إثبات العلل في أفعال الله، لقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقد انقسم الناس في هذا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أنكروا العلل في أفعال الله وفي شرعه، وقالوا: إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم بما يشاء بدون أي علة أو حكمة، مثل: الجبرية.

وقسم آخر أثبتوا العلل في أفعال الله، وقالوا: إن الله تعالى لا يفعل إلا لحكمة ولا يشرع إلا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجَبةً، وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا لكذا، وهؤلاء المعتزلة.

وقسم ثالث توسطوا وقالوا: أفعال الله تعالى لحكمة وشرائعه لحكمة، لكن ليست هذه الحكمة موجبة، بل الذي أوجب على نفسه الحكمة هو الله، والحكمة من مقتضى اسمه الحكيم، فتكون واجبة وليست بإيجاب أحد، ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هو الذي أوجبها على نفسه، وهذا القول هو الصحيح، وإذا قلنا به فإننا لا يمكن أن نعترض على أي حُكم من أحكام الله كونيًّا كان أو شرعيًّا؛ لأننا نعلم أن الذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحِكَم هو الله، لا نحن، فلا نقول: إن الله يجب عليه فعل الأصلح، ولا فعل الصلاح، إيجابًا مستقلًا عن إرادته، وهذا القول هو الحق.

إذن نأخذ منه: أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء ليس واجبًا على الله، لقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، لكنه أوجبه على نفسه في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] فأوجبه هو سبحانه وتعالى على نفسه، ولهذا قال الشاعر:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ ... كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ نظم معنى هذين البيتين لكنه علل، فقال:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فقيد المطلق بالبيتين السابقين أنه هو الذي أوجب ذلك تفضُّلًا منه سبحانه وتعالى.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات المحبة لله، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن قيل: هذا نفي كيف نأخذ منه الإثبات؟ لأنه إذا انتفت محبته عن الكافرين لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بين المؤمنين وبين الكافرين، أي: لو كانت المحبة منتفية في هؤلاء وهؤلاء ما كان بينهم فرق؛ ولهذا استدل أهل العلم على إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] إذ قالوا: فلما حجب هؤلاء في حال السخط دل على أنه لا يُحجَب الآخرون في حال الرضا.

إذنْ نأخذ من هذه الآية: إثبات المحبة، وهي كما سبق الكلام عليها، صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة وليست بمعنى الثواب، ولا بمعني إرادة الثواب، وإنما ذلك من لازمها ومقتضاها، فإذا أحبَّ قومًا أثابهم ولا يثيبهم إلا بإرادة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الحثُّ على الإيمان والعمل الصالح، فالله ما قال: آمنوا واعملوا، لكن ذِكْر الجزاء يستلزم الحث على الفعل، وهذا أحد الطرق التي يُستدل بها على أن الشيء مأمور به، فلا تظن أن الشيء المأمور به هو ما جاء بصيغة افعل، بل الأمر يُستفاد من عدة أمور، فإذا ورد الترغيب في شيء فهو مأمور به، إذنْ يستفاد من هذا: الحث على الإيمان والعمل الصالح.

٥- ويستفاد من الآية الكريمة: ذم الكفر، وذلك من قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هؤلاء فإنه يقتضي ذم عملهم.

٦- ومنها: أن الحكم إذا عُلق بمشتق ـ وهذه فائدة أُصولية ـ فهو دليل على أنه علة الحكم، مثلًا قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لماذا؟ لكفرهم، فالحكم هنا عُلِّق على وصف، فيقال: لا يحبهم لكفرهم، إذنْ فالكفر علة انتفاء المحبة كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤] ما هي العلة في المحبة؟ القتال، وهكذا كل حكم يُعلق بمشتق، فإنه يدل عليه ذلك الشيء.

٧- ويستفاد من الآية الكريمة: اعتبار اللازم، بمعنى: أنه إذا لزم من الشيء كذا وكذا، فإنه يثبت هذا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما قال: إنه

يحب، ولا يحب الكافرين، بل قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، المقابل: إنه لا يحب الكافرين، فيلزم منه ألا يجزيهم من فضله، وإنما يعاملهم بعدله، فعقاب الكافرين مأخوذ من لازم انتفاء المحبة، ودلالة التلازم هذه مفيدة جدًّا لطالب العلم، وهي أنه يلزم من كذا وكذا، لكن لابد من شرطين:

الشرط الأول: أن يكون اللازم صحيحًا، فإن كان اللازم فاقد الصحة فإنه ليس بلازم، حتى لو ادعى الإنسان أنه لازم فليس بلازم.

الشرط الثاني: أن يكون ذلك في كلام الله وكلام رسول ﷺ، أما الشرط الأول أن يكون التلازم صحيحًا فإننا نحترز به عما إذا كان التلازم غير صحيح.

فمثلًا أهل التعطيل الذين أنكروا الصفات وبعضها، ما شبهتهم في الإنكار؟ قالوا: إنه يلزم التمثيل، فهل هذا اللازم صحيح؟ ليس بصحيح، ولذلك ما نقول: إنه يلزم من إثبات صفات التمثيل؛ لأنه ليس بلازم.

إذن في كلام الله وكلام رسوله إذا كان اللازم صحيحًا فهو حق ويكون النص دالًّا عليه، لكن في كلام غيره لا يكون اللازم قولًا لصاحب القول الملزوم، ولهذا العلماء عندهم ترجمة في هذه المسألة، هل لازم القول قولٌ أو ليس بقول؟

منهم من قال: إن لازم القول ليس بقول.

ومنهم من قال: إن لازم القول قول.

والصحيح: أن لازم القول في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قول، لكن بشرط أن يكون اللازم صحيحًا، ولماذا يكون قولًا؟ لأن الله عز وجل يعلم ما يترتب على كلامه من اللوازم، لكن الإنسان البشر هل يعلم ما يلزم على قوله؟ أحيانًا يقول الإنسان قولًا يظنه صوابًا ويكون هذا القول يلزم منه لزومًا صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة، لو نُبه القائل لها لرجع عن قوله، فلذلك نقول: إن لازم القول في غير كتاب الله وسنة رسوله ليس بقول، صحيح أنه يُستدل به على بطلان القول، لكن ما يقال: إنه قول فلان.

فالحاصل: أن هذه المسألة ينبغي التنبه لها، وإنما نقول بذلك؛ لأن الإنسان بشر لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصحيحة واللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا ما يأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء، أولاده، ثم إذا فعلوه علم أنه يستلزم مفسدة فيرجع عنه هذا اللازم، هل كان عالمًا به من قبل؟ لا فلو كان عالمًا ما أمر به، وكثيرًا ما ينهاهم عن شيء، ثم إذا تركوه رأى في ذلك مفسدة، فهو ما كان يعلم بها حين النهي، فتجده يرجع.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هناك علامات ودلالات على وجود الخالق، وعلى علمه، وعلى قدرته وحكمته، وهذه الآيات التي تعرف الله بها لعباده من نعمة الله عليهم، وذلك أن الله يريهم آياته ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** ثبوت الرحمة، لقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ هذه الرياح لو اجتمع الخلق كلهم على أن ينفخوا بجميع وسائل النفخ هل يستطيعون أن يغطوا بهذا النفخ بلدًا واحدًا؟ لا يستطيعون، والرب - جلَّت قدرته - يغمر ما شاء أن يغمر بهذه الريح التي قد تَقلع الأشجار وتهدم الديار، أليس هذا دليل على قدرة الله العظيم؟! وكونها مبشرات فيه إثبات الرحمة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** نعمة الله سبحانه وتعالى على العباد بالفُلك التي تجري بأمره ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر من الأسباب ما يكون به ذلك، ما عرف الناس كيف يتعدون من بَر إلى بَر بواسطة البحر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ظهور الآيات للإنسان سبب لشكر نعمة الله عليه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات العلل والحِكَم لأفعال الله، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾؛ لأنها للتعليل.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** تسليةُ الرسول ﷺ وتحذير المخالفين له؛ تسليته بمن سبقه من الرُّسل، فقد كُذِّبوا وأوذوا، فإذا علم أن أحدًا شاركه في ذلك هان عليه الأمر؛ لأن كل إنسان يتسلى بما أُصيب به غيره بمثله، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحذير المخالفين له جل وعلا، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** رحمة الله عباده بإرسال الرسل، إذ لولا هذه الرسالة ما عرف الناس كيف يعبدون الله عز وجل، بل وما عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته، فالرسل رحمة عظيمة للخلق كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الانتقام من المكذِّبين كان بسبب فعلهم، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي: لإجرامهم.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الرسالات السابقة خاصة، لقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبينه الحديث الثابت

في «الصحيحين»: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ما أرسل الرسل إلا ببينات تشهد بصدقهم، وبشرائع بينة لا توجب لبسًا على المتبعين، يؤخذ من قوله: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات البينات الدالة على صدقهم وبالشرائع البينات الواضحة التي لا تقتضي لبسًا على المتبع.

قال أهل العلم: وآيات الأنبياء على حسب عصرهم، ففي عهد موسى انتشر السحر وكَثُر، فأعطاه الله تعالى من الآيات ما تبطل السحر وليست بسحر، فأعطاه الله تعالى اليد وأعطاه العصا، وقالوا: في عهد عيسى تقدم الطبُّ، فأعطاه الله من الآيات ما لا يمكن للطب أن يقوم به، وهو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، فهذا ما يمكن أن يقوم الطب به أبدًا، فالميت لا يمكن يحيى بالطب وقالوا أيضًا: الأبرص لا يمكن شفاؤه بالطب، والأكمه هو الذي خُلق بلا عين، هذا يمكن فيما سبق من العصور أن يوضع له عين، لكن الآن إذا وجد مكان العين يمكن أن يوضع له عين بالطب، لكن إذا لم يوجد، إذا خلقه الله عز وجل بدون أن يخلق له مكانًا للعين، ما يمكن أن يوضع له عين.

وفي عهد الرسول ﷺ قالوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرسول عليه الصلاة والسلام هذا القرآن الذي أعجز البلغاء والفصحاء، بل تحدى الله به كل الجن والإنس، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨] لا انفرادًا ولا تعاونًا، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

٧ ـ **وفيها أيضًا:** إثبات فعل الانتقام لله عز وجل، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾.

٨ ـ **وفيها أيضًا:** إثبات العظمة، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ و ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فإن هذا ـ أي: نون الجمع ـ للتعظيم وليس للتعدد، وذلك بإجماع المسلمين.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله أوجب على نفسه نصر المؤمنين، لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ ـ **ومنها:** أن هذا النصر لابد أن يكون؛ لأنه أتى بصيغة التعظيم، فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ ولم يقل: عليَّ، بل قال: ﴿علينا﴾ إشارة إلى أن هذا الحق لابد أن يكون، وفي الآية دليل على أن غير المؤمنين لا يُنصرون، لقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إنسان علينا ما حصل من الانتصارات الخاطفة للكفار فما هو الجواب؟ **نقول:** إن هذا استدراج من الله عز وجل، حتى يتم النصر للمؤمنين في النهاية، ثم إنه لا يدوم هذا النصر أبدًا، فالعاقبة لابد أن تكون للمؤمنين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وقال بعض أهل العلم: إن النصر نوعان: نصر بالحجة والبرهان، ونصر بالسيف والسنان، فأما النصر بالحجة والبرهان فهو مضمون وثابت، وليس فيه استثناء؛ لأن الحجة والبرهان مع المؤمنين على كل حال، حتى لو هُزموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالبون بحجتهم وبرهانهم، وهذا لا استثناء فيه.

والثاني: النصر العسكري، يعني بالسيف والسنان ونحن نقول الآن بالطائرة والقنابل وما أشبهها، هذا قد يحصل نصر لغير المؤمنين؛ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

مسألة: هل تدل هذه الآية على ختم الرسالة بالرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

الجواب: قد تدل من حيث إن الرسول مرسَلٌ إلى الناس عامة، والعموم هذا يشمل عموم الوقت والمكان والأمم، وهذا يستلزم ألا يوجد رسول من بعده، فلو وجد رسول من بعده انتفى العموم إلى الناس كافة، وصار معناه: أن الرسول الذي بعده يكون رسولًا إلى هؤلاء الناس دون محمد عليه الصلاة والسلام.

والغريب أن بعض الناس بالافتراض أنكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقال: إننا لو قلنا بنزوله، لكان ذلك تكذيبًا للقرآن، فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] هل استدلالهم بالآية صحيح أو لا؟ غير صحيح؛ لأن عيسى ما ما ينزل مُشرِّعًا، وإنما ينزل تابعًا للرسول ﷺ ولا ينشئ شيئًا من الشريعة، حتى يكسر الصليب ويقتل الخنزير، هذا أخبر به الرسول ﷺ فأقره، يعني: يقال: إنه يأتي ويحكم بذلك ولا يقبل إلا الإسلام، فليس هناك جِزْية بعد نزول عيسى ولا عهد، فليس هناك إلا الإسلام، فيقال: إن هذا ليس شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو شرع مقرَّر من الرسول ﷺ، فالرسول أخبر بأنه سيفعل هذا مقررًا له، فهو لن ينزل على أنه رسول بشرعٍ جديد، بل على أنه تابع للرسول عليه الصلاة والسلام، ولعل هذا والله أعلم ليتحقق ما أخبر الله به بالفعل في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فهذا خبر من الله عز وجل، لكن هل نحن علمنا هذا بأن نبيًّا من الأنبياء تابع الرسول فعلًا؟ لا، لكن نزول عيسى ومتابعته لرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام تكون هذه حق اليقين؛ لأن آية آل عمران فيها علم اليقين، فإذا وجد ذلك بالفعل صار حق اليقين، فهذا من الحكمة في نزوله، ﷺ في آخر الزمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العلم، فكيف ينكر ذلك؟! لكن - والعياذ بالله - بعض الناس يأتي بقاعدة من

أفسد القواعد وأبطل القواعد، وهي أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد، ولو كان الخبر صحيحًا، وهذا في الحقيقة مزلة لمن قاله؛ لأننا نقول له: أنت تثبت من الأحكام العملية بدليل لا يصل إلى درجة الصحة، وربما يكون إلى درجة الحسن، عندك أنت وعند غيرك لا يصل إلى درجة الحسن، وإثبات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأن تنفيذه مقتضى الإيمان، ولأن الإنسان لا يعمل بهذا إلا بعد أن يعتقد أنه من شريعة الله، وإلا لما عمل به، فهناك عقيدة سابقة: أن هذا من حكم الله، ومن شريعة الله، وأنه مقرب إلى الله، وأنه عبادة لله، ثم العمل به، يعني: إذا أخذنا بذلك لزم أن ننكر أشياء كثيرة، مما يتعلق بالأمور العلمية؛ لأن الشرع إما أمور علمية، وإما أمور عملية.

والصواب بلا شك أنه لا فرق بينهما، وأن ما صح عن رسول الله ﷺ يجب الإيمان به عقيدة وعملًا، وإذا شئت مزيدًا من الإيضاح فاقرأ ما كتبه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر كتاب: «**الصَّواعق المرسَلَة**»، فإنه تكلم على هذه المسألة كلامًا شافيًا.

١١- ومن فوائد الآية أيضًا: أن على الله حقًّا أوجبه على نفسه، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، فإذا سُئلنا: هل يجب على الله شيء؟

نقول: أما بعقولنا فلا يجب على الله شيء، وأما أن يوجب هو على نفسه شيئًا فهذا أمر وارد.

١٢ - ومن فوائدها أيضًا: فضيلة الإيمان وأنه سبب للنصر، قال تعالى: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٨،٤٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قال المؤلف: [تزعجه]؛ لأنه مأخوذ من أثار الصيد إذا أزعجه، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ يعني: [يبعثها] ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قال المؤلف: [تزعجه] كإثارة الصيد فإن إثارة الصيد من مكانه يعني: إزعاجه حتى يطير.

وقوله: ﴿سَحَابًا﴾ السحاب معروف هو الغيم، ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [من قلة

وكثرة] (يبسطه)، البسط معناه: النشر، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تعود إلى كيفية هذا النشر، قد يكون واسعًا وقد يكون قليلًا وقد يكون كثيفًا وقد يكون خفيفًا، ولهذا قال: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [بفتح السين وسكونها قِطعًا متفرقة]، بفتح السين يعني: ﴿كِسَفًا﴾، وسكونها يعني: ﴿كِسْفًا﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] والكِسف معناه: القطع، وكأن المؤلف رحمه الله يريد أن يبين أن السحاب قد يكون واسعًا منتشرًا مبسوطًا، وقد يكون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين: معنى كونه كسفًا: أنه قطعًا متراكبة بعضها فوق بعض، حتى يسود ويدلهم ويحصل في الرعد والبرق، وهذا أولى أن المراد بالكسف القطع المتراكبة التي يَركب بعضها بعضًا حتى تدلَهِمَّ وتسود، وهذا في الغالب أكثر مطرًا.

يقول: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه؛ لأن هذه الرؤية ليست خاصة بالرسول ﷺ.

وقوله: ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ يعني: حبات المطر، فهي تسمى ودقًا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [أي وسطه]، وقيل: من بينه، من بين هذا السحاب، وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ إذا قال قائل: نحن لا نراها بأعيننا المجردة، لا نرى أن المطر يتخلل هذا السحاب وينزل، فيقال: إنه خبر صدق فيكون كالمشاهدة، ما دام الله تعالى أخبر به فإننا كأننا نشاهده بأعيننا، ثم إنه في الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية التي يستطيع الإنسان بها أن يرى كيف تخرج هذه النقط من خلال السحاب.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ [بالودق] ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ هذه الجملة شرطية، فإذا أصاب به إذا هم، تدل على أن هؤلاء الذين أُصيبوا بالمطر أنهم في غاية الاشتياق إليه، ولهذا بمجرد ما يصيبهم يحصل الاستبشار، وقولنا: (بمجرد) ليس نتيجة عن ترتب جواب الشرط على فعل الشرط، ولكنه نتيجة لذلك زيادة أمر آخر هو الإتيان بـ (إذا) الفجائية، التي تدل على المفاجئة والسرعة.

إذن (إذا) تفيد الشرط، وفعل الشرط هو ﴿أَصَابَ﴾، وجواب الشرط: جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدَّرة بإذا الفجائية، قلنا: إن هذا التعبير يدل على أن هؤلاء في غاية ما يكون من الاشتياق إلى نزول الغيث، وجه ذلك: استبشارهم بمجرد الإصابة وليس استبشارًا عاديًا كترتب الجواب على فعل الشرط، ولكنه أبلغ؛ لأنه أتى بإذا الفجائية الدالة على المبادرة بوجود أسباب الشيء.

وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال المؤلف: [يفرحون بالمطر]، والاستبشار أشد من مجرد الفرح، بل هو يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره، ولهذا في أيام موسم المطر تجد مثلًا الناس إذا رأى بعضهم بعضًا لاسيما الذين يأتون من البراري يقول: أبشركم بأنه نزل مطر وأنه كثير أو حسب ما

يكون، فالاستبشار هنا أبلغ من مجرد الفرح، لكن المؤلف رحمه الله ربما يفسره بالتقريب.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ لا ما يشاء الناس، فالذي ينزل الغيث هو الله عز وجل، وليس أحدًا يستطيع أن ينزله، وأما ما ذُكر من أنهم الآن يسلِّطون موادًا كيماوية على السحاب فينزل المطر، فإننا نقول: إن صح هذا الأمر فمن الذي خلق هذا المطر؟ الله سبحانه وتعالى الذي أوجد هذا السحاب، وكونهم يتوصلون إلى أسباب يتبخر بها هذا السحاب حتى ينزل مطرًا، هذا لا ينافي أن يكون الله عز وجل هو الذي ينزل الغيث، ثم إن الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان:٣٤] أبلغ من ينزل المطر، إذ إن المطر قد ينزل ولا يكون غيثًا، كما ثبت في «صحيح مسلم»: «**لَيْسَ السَّنَةُ أَلَّا تُمْطَرُوا، إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ**»(١) السَّنة ما معناها؟ الجدب والقحط؛ لأن ما هو السنة أنه ما ينزل المطر، لكن السنة الحقيقية: أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ المراد بالعباد هنا: جمع عبد، وهي العبودية العامة؛ لأن المطر ينزل على المؤمنين وعلى الكافرين، بل ربما يكون نزوله على الكافرين أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لهم؛ لتعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] أي: بهذه الطيبات ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ إلى آخره.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ قال المؤلف: [وقد كانوا]، قدَّر إن بقد، وتبع في ذلك البغوي، والمؤلِّف «الجلالين» مأخوذ من البغوي، يعني: كأنه مختصر له؛ لأنك إذا تأملت تفسيره رَحِمَهُ اللَّهُ ، وجدت أنه هو «تفسير البغوي» بعينه، لكن البغوي مبسوط وهذا مختصر، هو قال: إن بمعنى: قد، ولا أحد من أهل النحو قال بهذا القول، إلا أن يقوله على سبيل التفسير فقط.

والصواب الذي لا شك فيه أن (إن) هنا: مخففة من الثقيلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢]، وعلى هذا فنقول: إن أصلها: إنَّ، فخففت، واسمها ضمير الشأن محذوف، والتقدير: وإنهم، وقد سبق لنا أن القول الصحيح من أقوال النحويين: أن ضمير الشأن لا يقدر مفردًا مذكرًا، وإنما يقدر بحسب السياق، فهو ضمير مقدر بحسب السياق، إن كان السياق يقتضي التأنيث فهو مؤنث، أو كان يقتضي التذكير فهو مذكر، أو الجمع فهو مجموع، أو كان يقتضي التثنية فهو مثنىً، إذن أصله: وإنهم كانوا، لكن خففت إنَّ فحذف اسمها على أنه ضمير الشأن.

وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ أي: المطر، من أين نعرف أنه المطر، هل سبق التحدث عن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٠٤).

تنزيل المطر؟

الجواب: نعم، في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فإن الودق إذا خرج من خلال السحاب ينزل إلى الأرض.

وقوله: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله عز وجل عن نزول المطر بالإنزال والتنزيل؛ وذلك لأن المطر أحيانًا يأتي دفعة واحدة بكثرة وغزارة فيكون إنزاله، وأحيانًا يأتي بالتدريج ضعيفًا متقطعًا فيسمى تنزيلًا؛ لأن التنزيل معناه إنزال الشيء شيئًا فشيئًا.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾، كلمة ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ اختلف فيها أهل العلم فقال بعضهم كما قال المؤلف: إنها تأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ كرر الفعل توكيدًا، هذا قول، وهو الذي مشى عليه المؤلف وعليه أكثر المفسرين، أن قوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ أي: من قبل أن ينزل عليهم فكأنه قال: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، فتقرأها بالتوكيد.

وقال بعض المفسرين: إنها كُررت للتأسيس، لا للتوكيد، ومعلوم أنه إذا دار الكلام بين أن يكون توكيدًا وأن يكون تأسيسًا فالأصل التأسيس، الأصل: عدم التوكيد؛ لأن التوكيد تكرار، والأصل عدم التكرار، فيرى بعض المفسرين أنها ليست للتوكيد وأنها للتأسيس، والفرق بين التوكيد والتأسيس: أن التوكيد معناه: أن هذا هو الأول، والتأسيس معناه: أن هذا غير الأول وأنه كلام مستقل، على القول بأنه تأسيس ما معناه؟ قال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل الاستبشار.

قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ من قبل الاستبشار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فذكر الله لهم حالين قبل الاستبشار وبعده، وهذا ما مشى عليه أبو السعود والرازي وليس فيه إشكال من حيث التصور والمعنى، المعنى: وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذلك الاستبشار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، فنبههم الله على حالهم قبل الاستبشار وهو الإبلاس، وعلى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل أن ينزل عليهم، أي من قبل ذلك القبل، فيجعلون الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ليس عائدًا إلى المطر ولا عائدًا إلى الاستبشار، وإنما يجعلونه عائدًا إلى القبل، فالمعنى على هذا: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ذلك القبل لمبلسين، فتكون فائدتها أن الإبلاس مستمر معهم من قديم الزمان، فيأتي موسم لا يأتي فيه مطر فيبلسون، ثم يأتي موسم آخر فيبلسون، ثم يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أنه إذا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كان أشد في الإبلاس، فيكون المعنى أن هذا الاستبشار أتى بعد يأسٍ مرتين فأكثر، وهذا أيضًا ذكره ابن كثير في تفسيره، فصار لدينا في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ثلاثة أقوال، القول الأول: أنه

توكيد، والثاني: أن الضمير يعود على الاستبشار، والثالث: أن الضمير يعود على القبل، أي: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ذلك القبل أيضًا لمبلسين.

أما قوله: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي بالنصب خبرًا لكان في قوله: ﴿وَإِن كَانُوا﴾، واقترنت اللام بها من أجل إن، والاقتران هنا واجب أم جائز؟ الظاهر الوجوب؛ لأنها قد تشتبه بـ (إن) النافية، أما إذا لم تشتبه فما يجب الاقتران، وهناك شاهد من كلام العرب لذلك وهو قول الشاعر:

.... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

فالحاصل: أن اللام هنا للتوكيد ويسميها بعض العلماء: اللام الفارقة، وهذا أدق في التعبير وهي مع كونها فارقة تفيد التوكيد، وإنما سموها اللام الفارقة؛ لأنها تفرق بين إن النافية وبين إن المخففة.

إذا قال قائل: هل يمكن أن تقترن بها اللام مع كون إن بمعنى النفي؟

الجواب: لا، وهذا هو السر في أنها فارقة، فلا يمكن أن تقترن بها اللام؛ لأن اللام تفيد توكيد الإثبات، والنفي بخلاف ذلك، النفي يفيد النفي.

يقول المؤلف: [﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزالهم]، والإبلاس مثل القنوط أشد اليأس، ومنه سمي إبليس - نعوذ بالله منه -؛ لأنه مبلس آيس من رحمة الله.

وقوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للإنسان لا للرسول، فهو خطاب لمن يتأتى خطابه، الرسول ﷺ وغيره؛ لأنه قال في الأول: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ ثم قال هنا: ﴿فَانظُرْ﴾ أي: انظر أيها الإنسان إلى أثر رحمة الله، وفي قراءة يقول المؤلف: [آثار رحمة الله]، انظر الرسم العثماني، من فوائد التزامه: أنه لا يتغير بتغير القراءات، آثار على مقتضى القواعد ـ قواعد الرسم الأصلية ـ كيف تكتب؟ بألف بين الثاء والراء، لكنها على قواعد المصحف العثماني تكتب بها ألف؟ لا، بل ثاء وراء، فتصلح آثار وتصلح أثر، وقوله ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ و﴿إلى أثر﴾ لا فرق بينهما في الجملة من حيث المعنى؛ لأن آثار مضاف فيفيد العموم، وأثر مضاف فيفيد العموم؛ لأنه قيل: إذا أضيف أفاد العموم، فأثر وآثار من حيث الجملة لا فرق بينهما؛ لأن أثر رحمة الله، بمعنى: آثار، لكن الفرق بينهما من حيث المعنى الخاص، أما أثر يشمل الجنس باعتباره شيئًا واحدًا، وأما آثار تشمل الجنس باعتباره أنواعًا، كيف باعتباره أنواعًا؟

مثل أثر المطر يخرج به الزرع ويخرج به الشجر ويخرج به شيء صغير وشيء كبير وشيء له أشجار مسطحة وشيء له أشجار دقيقة كالعيدان، فلهذا تعتبر هذه آثارًا باعتبار أنواعها، ثم أيضًا الآثار تختلف من أرض إلى أرض، فهذه الأرض تنبت كذا وهذه الأرض تنبت كذا، هذه ينبت فيها الكلأ وهذه لا ينبت وهكذا، فهي آثار باعتبار الأنواع، أما باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فهو شيء واحد، وهذا هو الفرق الخاص بين أثر وآثار.

وقوله: ﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [أي: نعمته بالمطر]، وقد سبق لنا أن الرحمة في مثل هذا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق، ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كان المراد الأثر المباشر فالمراد بالرحمة المطر؛ لأن هذا النبات نبت بالمطر، وإن كان المراد السبب غير المباشر فالمراد بالرحمة صفة الله، يعني: لكون الله جل وعلا رحيمًا فهذه من آثار رحمت الله أنه ينزل المطر وتنبت به الأرض ويزول به القحط، فالآية صالحة لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ هذا مما يرجح أن المراد بالرحمة الصفة، كيف يحيي هو أي: بالرحمة سبحانه وتعالى؟ قال: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يجعلها حية بعد موتها، قال المؤلف: [أي: يبسها بأن تنبت] فحياة كل شيء بحسبه، فالأرض اليابسة التي ما فيها خضار تسمى ميتة ما فيها شيء حي، فإذا نزل عليها المطر وحيي النبات سميت حية؛ لقوله: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ وهذا دليل على قدرة الرب عز وجل وعلى رحمته؛ لأنه من يقدر على أن يخلق النواة والحب بباطن الأرض حتى يخرج منها هذا النبات النامي؟ لا أحد يقدر، ولهذا قد جاء في الحديث الصحيح القدسي: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» لا يستطيعون، ما يستطيع أحد أن يخلق هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾[الأنعام:٩٥].

وقوله:﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ انظر إلى الكيفية والقدرة كيف هذه الأرض التي كانت غبراء كأنها محترقة، أصبحت الآن روضة خضراء!!

قال المؤلف: [أي: يبسها بأن تنبت،﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾]

الحاصل: أن هذا الكون العظيم لا يمكن أن يكون عبثًا هكذا يُحيا ثم يكون ترابًا، فالله عز وجل ﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ليس بني آدم فقط، ولكن بنو آدم وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير:٥] وأخبر النبي ﷺ أن البهائم يقتص الله تعالى من الشاة القرناء للجلحاء - التي لا قرون لها -، حتى البهائم يُقضى بينها، ولهذا نقول: الموتى لا يختص بالإنسان فقط، بل بالإنسان وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ثم أكد هذا أيضًا بمؤكدٍ آخر في الجملة التي بعده وهي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ فإذنْ أُكد إحياء الموتى بمؤكدين لفظيين ومؤكدين معنويين.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: كل شيء فالله قادر عليه بدون استثناء، كل ما تتعلق به القدرة ويمكن أن يكون قادرًا عليه فإن الله قادر عليه.

وليس على ما يشاء فقط، بل على ما يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الذي مات على كفره،

فالله قادر عليها فهو شاءها وهو قادر عليها، فلا تختص قدرته بما شاء، وبهذا نعرف أن تعبير بعض الناس: إنه على ما يشاء قدير، لا ينبغي، بل قل ما قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأما حديث الرجل الذي جاء الله يوم القيامة فذكر القصة، وفيها أن الله قال له: إني على ما أشاء قادر، فهذه ليس المراد بها وصف الله بالقدرة مطلقًا، بل وصف الله بالقدرة على هذا الشيء المعين الذي استبعده المخاطب، فالله يقول: قد شئته فأنا قادر عليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] القيد بالمشيئة هنا ليس عائدًا على القدرة، لكنه عائد على الجمع، فالشيء المعين ممكن أن تقيده بالقدرة، أما إذا ورد وصف الله بالقدرة فلا تقيدها بمثله، ففرق بين أن تعلق القدرة بشيء معين خاص وبين أن يذكر على سبيل الوصف العام لله، إذا كان وصفًا عامًّا لله، فالله تعالى ما ذكر قيدًا للمشيئة أبدًا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر:٦] وما أشبه ذلك.

والقدرة ضد العجز، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] وأتى بالعلم هنا؛ لأن العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشيء، واحد مهندس قلنا له: اصنع السيارة هذه، يقدر أم لا؟ ما يقدر، لأنه ليس عنده قدرة، وآخر نشيط يحمل الحجر الذي هو أكبر منه، لكنه ما يعرف فليس عنده علم، قلنا له: اصنع السيارة قال: ما أقدر، وذلك لعدم العلم، فانتفاء القدرة قد يكون لانتفاء العلم وقد يكون لعدم القدرة.

قال المؤلف في تفسيره: [وخص العقل ذاته فليس عليه بقادر]، يعني: إن العقل يقتضي تخصيص ذات الله، فالله لا يقدر عليه، وهذا ليس بصحيح؛ بل الله على كل شيء قدير، ولهذا الله تعالى استوى على العرش بفعله وقدرته، وينزل إلى السماء الدنيا، ويأتي للفصل بين عباده، ويتكلم بما أراد، كل هذا مما يتعلق بذاته وهو قادر عليه.

فإن قال قائل: الله قادر على إماتته أم لا هل يقدر على أن يميت نفسه؟

نقول: هذا ما يمكن، لا لانتفاء القدرة، لكن لأن هذا عمل لا يليق به، وهو أشد من العجز، فنقول: امتناع هذا بأنه مستحيل على الله عز وجل، ولهذا السَّفَّاريني رحمه الله في العقيدة لما ذكر صفة القدرة قال:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ

أما المستحيل فهو ما يمكن، فالمستحيل لا تتعلق به القدرة، يقال: إن الشيطان إذا مات العالم يفرح فرحًا عظيمًا، وإذا مات العبَّاد فهذا ليس بمهم عنده، قالت جنوده له: كيف تفرح بموت

العالم هذا الفرح ولا تفرح بموت العابد الذي يصلي طول النهار في محرابه؟

قال: لأن العالم أشد عليَّ من العابد، وإذا شئتم الآن أريتكم، فذهب إلى العابد وقال له: هل يقدر الله أن يجعل السماوات والأرض في جوف بيضة؟ قال العابد: لا ما يقدر، قال هل الله يقدر يخلق مثله؟ قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فذهب إلى العالم وقال له مثل هذا القول، فأما خلق مثله فهذا شيء مستحيل، ولا يمكن لمخلوق أن يكون مثل الخالق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السماوات والأرض في جوف بيضة فهو على كل شيء قدير، فالمسكين العابد كفر من وجهين، أثبت ما لا يمكن، ونفى ما يمكن، وهذا حقيقة، يعني: العُبَّاد مثل ما قال القائل: من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، واليهود أخطر من النصارى لا شك؛ لأن العالم فاسد - والعياذ بالله - عن علم، والعابد فساده عن جهل وما كان عن جهل فهو أهون مما كان عن علم.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل من عدة أوجه، بإرسال الرياح، وإدارة السحاب، وارتفاعها في الجو، وبسطها فيها، وجعلها كسفًا ونزول المطر منها.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن السماء يطلق على كل ما علا، لقوله: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإنه لا تطلق السماء إلا على السقف المحفوظ، وإنما البسط يكون في الجو العالي.

٣- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل في نزول المطر من أعلى؛ لأنه إذا نزل من أعلى عم النازل والمرتفع، خلاف ما لو كان يجري في الأرض، فلو كان يجري في الأرض فإنه يُغرق النازل قبل أن يصل إلى العالي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة افتقار الخلق إلى رحمة الله، لقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات المشيئة، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٦- **ومنها:** إثبات الألوهية العامة، لقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

٧- **ومنها:** أن فيها احتمال جواز الاستبشار بالمطر، وهناك احتمال أن يكون هذا بلاءً، فلا يؤخذ منه الحكم، وغاية ما فيه أن يقال: إنه مباح؛ لأن الله تعالى ذكره ولم ينكره.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

١ - **في هذه الآية:** بيان حال العبد، قبل نزول المطر وأن العبد ضعيف، لقوله: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، فإن الضعيف إذا أصيب بشيء أيس واستبعد الفرج، ولكن الله عز وجل يثيبنا على العمل؛ لقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

١ - **في هذه الآية:** الأمر بالنظر ويكون بالعين الباصرة، وبعين البصيرة أيضًا.

٢ - **ومن فوائدها:** أن النظر كما يكون نافعًا للإنسان فهو مأمور به شرعًا، أي بمعنى إثابة الإنسان على النظر في آيات الله، لأنه مأمور به شرعًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الآثار التي تنشأ عن المطر كلها من رحمة الله، مثل إحياء الأرض والنبات وكثرة المياه في الأرض وغير ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** إثبات قدرة الله تعالى على إحياء الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** الاستدلال بالمحسوب المنظور على المحسوس المنتظر؛ المحسوس المنظور ما يحصل من حياة الأرض، والمحسوس المنتظر ما يحصل من إحياء الموتى.

٦- **ومنها:** أنه لابد أن يكون الدليل أجلى وأظهر من المدلول عليه بمعنى: أنه لا يمكن أن يستدل بالأخفى على الأجلى، لأن الدليل معرف للمدلول ومبين له.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث يضرب لهم الأمثال ويبين لهم الأدلة، ليتوصلوا إلى اليقين بما يجب الإيمان به؛ لأنه يكفي أن يقول عز وجل: آمنوا بأني أحيي الموتى، لكن من رحمته أنه يبين لنا ويضرب لنا المثال لنصل إلى درجة اليقين فيما أخبرنا به، لقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** نعمة الله على العباد بإحياء الأرض؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٩- **ومنها:** أن الجماد يُوصف بالحياة والموت، وفيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إنا لجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأنه غير قابل له.

فنقول: إن الله وصف الجماد بأنه حي وميت كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١] مع أنها أصنام من الأحجار والأشجار وما أشبه ذلك.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: ثبوت صفة القدرة وعمومها، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.



قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم:٥١-٥٣]

التفسير

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ و﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هنا لام قسم دخلت على إن الشرطية.

وقوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾ هذا هو الجواب، لكنه جواب لأيهما للشرط أو للقسم؟ جواب للقسم؛ لأنه لو كان جوابًا للشرط ما احتاج إلى اللام، فالفعل الماضي إذا جاء جوابًا لفعل الشرط لا يحتاج إلى اللام، والقاعدة عند أهل اللغة العربية: أنه إذا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منهما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزِم

والجواب الآن للقسم دل عليه اللام الموطئة، وهو قوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ في الأول يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، وهنا قال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مطلقة وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يكون رحمة والإفراد يكون عذابًا، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ ﴿رأوه﴾ الضمير لا يعود على الريح وإنما يعود على ما حيي من الماء الذي نزل من السماء.

يعني: ولئن أرسلنا ريحًا فرأوا هذا الذي حيي ﴿مُصْفَرًّا﴾ يعني: يابسًا بسبب هذه الرياح، ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ اللام جواب للقسم.

قال المؤلف: [﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مضرة على نبات] ﴿فَرَأَوْهُ﴾ الضمير يعود على النبات،

[﴿مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ﴾ لصاروا جواب القسم، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من اصفراره ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر].

يعني: أن الله عز وجل إذا أحيا الأرض بعد موتها، وأرسل عليها ريحًا فاصفر النبات ويبس فصاروا من بعد هذا الاستبشار وبعد أن رأوا هذه الرحمة يكفرون، لكن كيف يأتي هذا المطر وينزل وتحيا الأرض ثم تأتي هذه الريح فيكفرون بالله وينسون نعمة الله عز وجل؟! ولكن هذا من الامتحان، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج:١١] وكان يجب عليهم أن يقابلوا ذلك بالصبر لا بالكفر، بالصبر على هذه البلية؛ لأن الصابر يوفَّى أجره بغير حساب، وربما تزول هذه النعمة إلى نعمة أخرى وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٦] فالمؤمن يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ ويجوز أن يكون الخطاب عامًّا لكل من يتأتى خطابه.

وقوله: ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يعني: لا تسمعها سماعًا ينتفعون به، أو لا تسمعهم حين الدعوة، والأقرب: الأول، لأنه ليس من المعقول أن أحدًا يقف على الأموات ويقول: يا أيها الناس اعبدوا الله واتقوه.

لكن لو فرض أنه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجواب: لا.

فإذا قال قائل: هذا تقييد للآية والآية مطلقة فكيف ساغ لكم أن تقيدوها بقولكم: سماعًا ينتفعون به؟

نقول: إن هذا - أعني هذا السماع - يطلق على نفي السماع النافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] هم يسمعون بآذانهم ولكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله على الإطلاق؛ لأن سماع الموتى قد ورد فيه الآثار فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنه وقف على أصحاب قليب بدر من المشركين ودعاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «يَا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدتُّمْ مَا وَعَدَكُم رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقًّا» فقال عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام جيَّفوا؟ فقال: «**ما أنتم بأسمع لما**

أقوال منهم».

وكذلك صح ابن عبد البر رحمه الله حديثًا ورد عن رسول الله ﷺ: أنه ما من أحدٍ يسلم على ميت كان يعرفه في الدنيا إلا ردًّا الله عليه روحه فرد عليه السلام، وهذا ذكره ابن القيم في كتاب «الروح» وذكر تصحيحه ولم يتعقبه، وعلى هذا فهم يسمعون لكن لا ينفعون بهذا السماع.

ووردت آثار عن الصحابة في هذا الأمر ذكرها بعض المفسرين عند تفسير هذه الآية، وثبت أيضًا في الصحيح: أن الإنسان إذا انصرف عنه أصحابه بعد الدفن فإنه يسمع قرع نعالهم.

فالحاصل: أننا نقول: كل هذا يؤيد المعنى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: سماعًا ينتفعون به، ومعلوم أن الرسول ﷺ ما دعا الموتى وما ذهب إلى القبور ليدعوهم، ولكن الذين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدعوة.

يقول عز وجل: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مفعول أول، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مفعول ثانٍ، أما ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأولى فقد حُذف المفعول الثاني؛ لأن هذا فضلة، وسبق لنا أنه يجوز حذف الفضلة ولو بغير دليل.

قوله: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع لاسيما إذا اقترن به الإدبار ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا أشد ما يكون بالنسبة للأصم بانتفاء السماع عنه، والأصم لا يسمع ولو كان مقابلًا لك، ولهذا الأصم إذا كان أمامك ودعوته بصوت ما ربما يسمع لكن إذا ولَّى مهما دعوته لا يسمع إلا إذا أدركته فمسكته.

وقوله: (الصمُّ إذا ولو مدبرين) ما يسمعون وإنما قيد الله عز وجل الصم في هذه الحال؛ لأنها هي الحال التي لا يسمعون بها مطلقًا بخلاف ما إذا كان أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون على ما تقول بحركات شفتيك.

قال المؤلف: [بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية بينها وبين الياء] وهما قراءتان سبعيتان.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

هنا انتقال: الموتى ثم الصم ثم العُمي.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ ﴿مَآ﴾ نافية للجنس حجازية و(أنت) اسمها، والباء حرف جر زائد، و﴿هادِ﴾ خبرها.

قوله: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ جمع أعمى؛ لأن أفعل جمعه (فعل).

قال ابن مالك:

فُعل بنحو أَحْمَرٍ وَحَمْرَاء

(أحمر) مثل (أعمى)، و(حمراء) مثل (عمياء) (عُمي) جمع للذكور والإناث.

وقوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ معنى الضلالة المتاهة أي: متاهتهم فهم إذا تاهوا في الطريق ما أنت بهاديهم فكذلك هؤلاء الذين عموا عن الحق فلا يرون وصمُّوا فلا يسمعون وماتوا عنه فلا يفقهونه، هؤلاء أيضًا لا تستطيع أن تهديهم.

هنا في هذه الآية قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ ما قال: ما أنت بمبصر؛ لأن البصر يتعلق به الدلالة وهي الهداية بخلاف الصم فإنه يتعلق به السمع.

قال المؤلف: [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسۡمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾].

أي: فبناءً على إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأنهم كلما تم الإيمان تم الانقياد، فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا فإنه يكون أعظم انقيادًا ولهذا الإيمان يستلزم الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فقد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه منطوٍ على الكفر - والعياذ بالله - بخلاف الإيمان، ولهذا رتب على الإيمان الإسلام بالفاء: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: إنه القرآن، مع أن آيات جمع وليست مفردة فما هو الجواب عن قول المؤلف؟

الجواب: أن فيه قصور، والحق أن المراد بالآيات ما هو أعم من القرآن فيشمل جميع الآيات الشرعية، أو الكونية بأن يؤمن بأن هذا الكون خلقه الله عز وجل؛ لأن من لا يؤمن بآيات الكون قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤] فيقولون: الكون مادة وطبيعة تتفاعل وينتج بعضها من بعض وما أشبه ذلك. والآيات الشرعية أيضًا من الناس من لا يؤمن بها فيكذب بأخبارها ويستكبر عن أحكامها. وهذا تضييق.

والصواب: أن المراد ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ما يشمل الآيات الشرعية كلها والآيات الكونية كلها؛ لأن من الناس من ينكر الآيات الكونية.

فإذا قال قائل: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معلوم أن المؤمن سامع فكيف يقول: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ فما الجواب عن هذا؟

الجواب: من أحد وجهين:

الأول: إما أن يقال: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ إلا من كان مستعدًّا للإيمان بما تقول، فهو مكتوب عند الله أنه مؤمن، وهذا أمر غير معلوم للرسول ﷺ لكن يجب عليه أن يبلغ الدعوة

فيسمعها من كان في علم الله أنه مؤمن وكان مستعدًا للإيمان.

الثاني: أو يقال: إن الدين شرائع ليس شيئًا واحدًا بل هو شرائع وشعائر متعددة، فالذي ينتفع بهذه الشعائر ويطبقها هو المؤمن، فهذا هو الذي يسمع كل ما دعا إليه الرسول ﷺ من جميع شرائع الدين.

وعلى القول بأن الدين أصول وفروع نقول: أصول الدين، وفروع الدين لكن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن تقسيم الدين إلى أصول وفروع قول مبتدع لا دليل عليه، وهو صحيح، وشيخ الإسلام لم ينكر هذا لمجرد أنه اصطلاح بل لأنه تُوصل به إلى أمور منكرة.

فقالوا مثلًا: لا نعتدُّ بأخبار الآحاد في أصول الدين، وجعلوا هذا بابًا يدخلون منه إلى إنكار الصفات، وإلى إنكار ما ورد من أخبار اليوم الآخر، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المؤمن مسلم ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلن بكفره كافرًا ظاهرًا وباطنًا، والناس لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]

التفسير

هذه الآية سيقت لبيان حال الإنسان وكمال قدرة الله عز وجل.

قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرها، ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ بفتح الصاد وضمها، ضمها لغة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أقرأني رسول الله ﴿من ضُعْفٍ﴾ بضم الضاد لكن الحديث ضعيف وهما قراءتان سبعيتان.

وما هو الضعف؟ يقول المؤلف: [ماء مهين] فجعل الضعف هو النطفة؛ لأنه كما قال الله عز وجل ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

وقوله: ﴿مِّن﴾ هنا للابتداء كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ولكن الظاهر أن المراد: ضعفه بعد نفخ الروح فيه؛ إذ إنه حال النطفة جماد لا يوصف بأنه ضعيف أو بأنه قوي.

وهذا هو الصحيح، فإن الإنسان لا يكون خلقًا تامًّا إلا بعد نفخ الروح فيه؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] هذا الإنشاء هو أول ما يكون به الإنسان إنسانًا؛ لأن الإنسان إنسان ببدنه وروحه وعلى هذا نقول: إن المراد بالضعف: بعد نفخ الروح فيه.

وضعف الطفولة يبتدئ من كونه حيًّا في بطن أمه.



إلى هنا انتهى الشيخ في تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٥][(1)].

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل في إنزال هذه الحروف الهجائية، وهي: الم وما أشبهها.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الله عز وجل يتكلَّم بحرف، وكذلك بصوت؛ لأن ﴿الٓمٓ﴾ من كلام الله، وهي حروف، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وقد تقدَّم لنا البحث فيه مرارًا، وأن أهل السنة والجماعة يقولون: إن كلام الله تعالى بحرف وصوت.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو شأن هذا القرآن، لقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن آية وعلامة على مُنزِله، لقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وسبق لنا أن الإضافة على تقدير من إضافة جنسية، وهو آية على مُنزِله سبحانه وتعالى من صدق أخباره، ومطابقتها للواقع، ومن حسن قصصه، وحبها للنفوس، وعدم مللها منها؛ يعني: ما من كلام يُردَّد إلا ويُمَلّ إلا القرآن، والثالث: من حيث الأحكام؛ حيث إن أحكامه عادلة نافعة للعباد في معاشهم ومعادهم، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن مكتوب كما هو مقروء، لقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ

---

(١) الآيات من (١ - ٥) غير موجود تفسير لها في المادة المسموعة لدينا.

ﭽﭼ.

٦- **ومن فوائدها:** الثناء على القرآن بهذا الوصف العظيم، وهو: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾.

٧- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لا يوجد في القرآن خبرٌ سِيق عبثًا، ولا حكم أُثبت عبثًا، لقوله: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ لأن العبث يُنافي الحكمة، ولا يمكن أن يكون في القرآن شيءٌ عبثًا، لا خبرًا ولا حكمًا.

ثم قال تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وفيها قراءتان كما سبق: هدى ورحمةٌ، وهدى ورحمةً.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الترغيب في هذا القرآن، لقوله: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ وكل أحد منا يطلب الهدى والرحمة، فهو هدى في العلم، ورحمة في العمل؛ إذ إن العامل به ينال رحمة الله، والمُهتدي به على هدى وبصيرة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم جمع الخير كله، فهو علم نافع، وعمل صالح، علم نافع لقوله: ﴿هُدٗى﴾، وعمل صالح لقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾؛ لأن الرحمة لا تُنال إلا بالعمل الصالح.

٣ - **ومنها:** الحث على الإحسان، لقوله: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الإحسان سببٌ لنيل العلم والعمل الصالح؛ لأن الله جعله هدى ورحمة للمحسنين.

٥ - **ومنها:** أنه كلما ازداد إحسان العبد ازداد علمه وعمله الصالح؛ لأن الحكم إذا عُلِّق على وصف ازداد بزيادته ونقص بنقصه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إن إقامة الصلاة من الإحسان؛ لأن ما بعدها بيان لها ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله، أن الله قدَّمها على إيتاء الزكاة مع أن إيتاء الزكاة فيه نفعٌ متعدٍّ للغير، ولكن الصلاة أحب إلى الله منها وأفضل.

٣ - **ومنها:** الحث على إقامة الصلاة، من ثناء الله على المقيمين لها، والثناء لا يكون إلا على شيء محبوب مرغوب إلى الله.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضل إيتاء الزكاة، وأنها تلي الصلاة في الفضيلة، لقوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على من أيقن بالآخرة، لقوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: إثبات البعث، لقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن المتصفين بما تقدَّم هم الذين على الهدى.

فيتفرَّع على ذلك: أن من خالف فيما تقدَّم فليس على هدى، وأنه فاته من الهدى بقدر ما فاته من العمل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إظهار فضل الله عز وجل على هؤلاء الفضلاء، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن ربوبية الله عز وجل نوعان: عامة، وخاصة، فالعامة لجميع الخلق ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]، والخاصة للمؤمنين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن بهذه الأعمال الفاضلة الجليلة، والاعتقادات النافعة يحصل الفلاح، لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بذلك، وجهه: الحصر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا
وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٦-٩].

التفسير

من للتبعيض، والجار والمجرور خبر مُقدَّم، و﴿مَن يَشۡتَرِي﴾ مبتدأ مؤخَّر، وقوله: ﴿يَشۡتَرِي﴾ معنى الاشتراء: الاختيار؛ يعني: من يختار، وعبَّر عن الاختيار بالاشتراء إشارة إلى حرصهم على هذا الأمر؛ لأن الاشتراء إنما يكون بالمعاوضة، فكأنهم من قوة اختيارهم لهذا الشيء كأنهم بذلوا فيه أموالهم، إذن يشتري معناها: يختار، وعبَّر عن الاختيار بالاشتراء إشارة إلى قوة رغبتهم له؛

حيث شبَّه هذا الاختيار بالمشتري الذي يبذل ماله من أجل الحصول على ما اختاره.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ هنا ﴿يَشۡتَرِي﴾، و﴿يشري﴾ بينهما فرق ﴿يشري﴾ بمعنى: يبيع، ومعنى ﴿يَشۡتَرِي﴾: يبتاع، وعند الناس أن الشراء هو الاشتراء، وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٠٧] يشري نفسه؛ يعني: يبيعها، بدليل قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]، فهم بائعون.

وقوله: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [أي: ما يُلهِي منه عما يعني] ﴿لَهۡوَ﴾ مضافة إلى الحديث من باب إضافة الشيء إلى نوعه، فالإضافة على تقدير من، كما يقال: ثوب خزٍّ، ثوب صوفٍ، خاتم حديد، وما أشبه ذلك، فهو على تقدير من، وهكذا كلما أُضِيف الشيء إلى نوعه فالإضافة فيه على تقدير من، إذن ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: لهوًا من الحديث، واللهو: كل ما يُلهَى به، والذي يُلهَى به آلة ما يكون في الشيء الباطل، وقد يُلهَى بالخير عن الشر، لكن أكثر ما يُطلَق اللهو في مقام الذم، وكل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا مداعبة أهله، وترويض فرسه (١)، وما أشبه ذلك مما يكون فيه مصلحة، وإلا فإن الأصل أن ما يُلهَى به باطل.

والذي يُلهَى به نوعان: حديث، وهو: القول، والثاني: فعل؛ يعني: فالذي يُلهَى به إما حديث وهو القول، وإما حركات وهي الفعل، والله عز وجل ذكر هنا لهو الحديث، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: [أي: ما يُلهِي منه عما يعني] كل ما يُلهَى به عما يعني فهو من لهو الحديث، وأما ما يعني الإنسان ولكن يلهو بالمفضول عن الفاضل فليس هذا من لهو الحديث؛ لأن له فائدة في اللهو بالمفضول لكنها فائدة ناقصة، ولا شك أن الأقوال مراتب، كما أن الأفعال مراتب، فلو تلهَّى الإنسان بحديث فيه فائدة عن حديث أفيَد منه؛ هل نقول: إن هذا من لهو الحديث أو لا؟ لا؛ لأن فيه فائدة، ليس مجرد لهو يلهو به الإنسان، وإذا كان فيه فائدة فإننا نقول لهذا الرجل: إن اختيارك للمفضول عن الفاضل يعتبر سوء تصرُّف منك، والذي ينبغي أن تلهو بالأفضل عن المفضول.

قال: ﴿لِيُضِلَّ﴾ [بفتح الياء وضمها] وأما الضاد فهي مكسورة على القراءتين، ليَضِل؛ أي: هو، ليُضِلَّ؛ أي: غيره؛ يعني: يُضِل غيره، وفائدة القراءتين هنا: اشتمال هذه الكلمة على المعنيين، الضلال بنفسه، وإضلال غيره.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [طريق الإسلام] والصواب: أن يقال: طريق الله، وهو: الإسلام، سبيل الله طريقه المُوصِل إليه، والذي وضعه هو سبحانه وتعالى، وهو الإسلام، وسُمِّي طريق الله أو سبيل الله؛ لأنه المُوصِل إليه، ولأنه سبحانه هو الذي وضعه وشرعه لعباده، ويُطلَق على سبيل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٨٥) وصححه الألباني في غاية المرام برقم (٣٨٩).

المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، ولا تنافي بين الإضافتين؛ فهو مضاف إلى الله لأنه مُوصِل إليه، وهو الذي وضعه وشرعه، ومضاف إلى المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يسلكونه، ومثله: الصراط أُضيف إلى السالكين في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، وأُضيف إلى الله؛ لأنه الذي شرعه ووضعه لعباده ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ هذا لا يعني أن هناك لهوًا يضل به الإنسان بعلم، فهي إذن صفة كاشفة مُبيِّنة لحقيقة الأمر؛ أي: أن فعله هذا ناشئ عن الجهل بالله عز وجل، وعن الجهل بشرعه، وعن الجهل بحقيقة ما خُلِق له، كيف تتلهَّى بأمر لا تستفيد منه؟ فهذا جهل بما ينبغي أن تعلمه لتعتبر به، لكن كثيرًا من المفسرين قال: إن المراد بلهو الحديث: هو الغناء، وممن قال بذلك: ابن مسعود رضي الله عنه [1]، وكذلك ابن عباس [2] وجماعة، حتى إن ابن مسعود يحلف فيقول: (والله الذي لا إله إلا هو إنه الغناء)، والغناء يُنبِت النفاق في القلب، وتفسير الصحابي حُجَّة، حتى ذهب الحاكم وجماعة من أهل العلم إلى أن تفسير الصحابي له حكم الرفع؛ يعني: يكون كالحديث المرفوع، والصحيح: أن الأمر ليس كذلك، فليس له حكم الرفع إلا أن يكون مما لا مجال للاجتهاد فيه، فأما مجرد تفسير آية بمقتضى اللغة العربية، فإن الصحيح أن تفسير الصحابي ليس له حكم الرفع، لكنه مُقدَّم على غيره.

ثم اعلم أن المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم قد يذكرون تفسير الآية على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فإذا قال ابن مسعود: إن المراد بلهو الحديث: الغناء لا يعني: أنه لا يجتمع معه غيره؛ بل يكون هذا على سبيل التمثيل فقط، ويدلُّك لهذا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] قال بعض العلماء في التفسير: الظالم لنفسه هو الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، وقال آخرون: هو الذي لا يُزكِّي، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ والمُقتصد هو الذي يأتي بالصلاة في آخر وقتها، وقال آخرون: هو لذي يؤدِّي الزكاة المفروضة فقط، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ قال بعضهم: هو الذي يصلي الصلاة في أول وقتها، وقال آخرون: هو الذي يؤدِّي الزكاة والصدقة، هذا ما يدل عليه؟ على أن العلماء قد يُفسِّرون الآية ببعض الأمثلة، فلا يُنافي أن تكون الآية متناولة لغيرها.

فتفسير ابن مسعود وابن عباس وغيرهما للهو الحديث بأنه الغناء لا يعني: أنه يمتنع أن يُراد

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١١٣٠) وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب ص (١٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١١٣٧) وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب (١٤٣).

بالآية ما هو أعم، وعلى هذا فنقول: الآية تشمل كل لهو الحديث الذي لا نفع فيه من الغناء، ومنه أيضًا: مطالعة ما يُكتَب في الصحف والمجلات من الكلام الهُراء الذي لا فائدة منه، فإنه في الحقيقة مضيعة للوقت، وإذا كان يشُدُّ الإنسان إلى ما هو أفضل صار أشد، فعلى كل حال نقول: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ كل حديث لا فائدة منه، سواء كان ذلك يجُرُّ إلى محرم، أو لا يجُرُّ إلى محرَّم، لكن إن جرَّ إلى محرَّم صار أعظم.

فإذا قال قائل: الآية يقول الله فيها: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأنت قلت: إن لهو الحديث كل ما لا نفع فيه، وما لا نفع قد يضل وقد لا يضل، فإننا نقول: إن الإنسان إذا عوَّد نفسه على أن يشتغل بهذا اللهو الذي لا نفع فيه جرَّته إلى ما فيه مضرَّة؛ لأن النفس إما أن تشغلها بالحق أو تشغلك بالباطل.

واللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هل هي للتعليل، أو للعاقبة؟ الجواب: هي صالحة للأمرين؛ فإن كان الإنسان يقصد بلهو الحديث: أن يُضِل غيره به فاللام للتعليل، وإن كان لا يقصد ذلك فاللام للعاقبة.

ومن لهو الحديث أيضًا الذي قد يضل عن سبيل الله: ما يوجد في قصائد الصوفية البريئة من الشرك، وإلا بعضها شرك - والعياذ بالله -، بعضها حلول، وأن الرب عز وجل حالٌّ في مخلوقاته، فهذا معروف شأنه حتى لو كان نثرًا فإنه محرم، لكن بعضها ليس كذلك إلا أن بعض الناس يتلهَّى بها عن مواعظ القرآن والسنة حتى يكون ذلك ديدَنَه، وهذا لا يجوز، ويوجد الآن ما يُسمَّى بالأناشيد الإسلامية التي استولَت على عقول كثير من الناس، حتى صار كأنها يقرأون القرآن، دائمًا على لسانه وعلى قلبه، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «الفتاوى» أن ذلك مما يُلهِي عن القرآن والسنة، وحذَّر منه تحذيرًا كثيرًا، وبعض الناس يجعل أيضًا في هذه القصائد يجعل معها دُفًّا، فيكون إلى اللهو أقرب منه إلى الذِّكْر، وبعض الناس يقول: أيُّها؛ هذه أو أم كلثوم؟ نقول: أنت الآن مفروضٌ عليك أن تفعل هذا أو هذا حتى تقول: أنا مُخيَّر بين الأمرين فأختار أيسرهما؟ على أن أم كلثوم قد يسمعها الإنسان وهو يشعر أنه مُذنب فيحاول الإقلاع، لكن هذا يفعله على أنه مُتقرِّب إلى الله بذلك فيستمر عليه، وما هذا إلا نظير هؤلاء الذين يتحيَّلون على الربا بالخداع وبيع الخام والحِيل وما أشبهها، ويقولون: هذا أحسن أو الربا الذي في البنوك؟ فنقول: ليس الإنسان مُخيَّرًا بين هذا وهذا، الحمد لله توجد أشياء مُباحة يُتمكَّن من فعلها بدون أن يفعل هذه الأشياء التي تصدُّه عن القرآن والسنة.

إذن الضابط في لهو الحديث هو: كل كلام لا فائدة منه، وأما ما فيه فائدة ولكن اشتغل به عما هو أفيَد فليس لهوًا لكنه خلاف الحكمة؛ إذ إن الحكمة أن يشتغل الإنسان بالأفضل عن المفضول.

وعاقبته: ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ [بالنصب عطفًا على يضل، وبالرفع

عطفًا على يشتري] قراءتان: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا﴾ يكون عطفًا على ﴿لِيُضِلَّ﴾، أو ويتَّخِذُها عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾؛ يعني: ومن الناس من يتخذها هزوًا، وبينهما فرق؛ لأن قراءة النصب تجعل الحامل على من يشتري لهو الحديث الحامل له أمران: الضلال، واتخاذها هزوًا، وأما على قراءة الرفع فإن الحامل على اشتراء لهو الحديث، شيء واحد، لكن من الناس أيضًا من يتخذ آيات الله هزوًا؛ أي: مكانًا للاستهزاء، يقول: [مهزوءًا بها] فأشار المؤلف بقوله: [مهزوءًا] إلى أن المصدر هنا بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول كثيرًا ما يأتي في اللغة العربية.

واتخاذها هزوًا له أنواع كثيرة؛ منها: أن يستهزئ بالقرآن في نظمه وتركيبه، ومنها: أن يستهزئ بالقرآن في أخباره، ويقول: أساطير الأولين، ومنها: أن يستهزئ بالقرآن في أحكامه، ومنها: أن يستهزئ بالسنة، ومنها: أن يستهزئ بالرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها: أن يستهزئ بمن تمسَّك بالسنة لا لشخصه ولكن لعمله، وهي كثيرة، حتى إن بعض أهل العلم يقول: إن الإنسان إذا صلى وهو مُحدِث فهذا استهزاء بآيات الله، ويقول: إنه إذا عمِل مُبطِلًا من مُبطِلات العبادة فهو مُستهزئ بآيات الله، وعلى كل حال؛ كل من حوَّل آيات الله عز وجل إلى هُزء بالقول، أو بالفعل، أو بالهيئة فإنه يُعتبر مُتخذًا لها هزءًا، والاستهزاء بآيات الله عز وجل ليس بالأمر الهيِّن، حتى إن أهل العلم يقولون: من قال كفرًا أو فعل كفرًا ولو هازلًا فإنه يكفر، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أولاء اسم إشارة للجمع، مع أن الضمائر التي قبلها للمفرد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾، ﴿لِيُضِلَّ﴾، ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ فهي للمفرد، ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ جمع؛ لأن مَن في ﴿مَن يَشْتَرِى﴾ اسم موصول تصلح للمفرد والجماعة، فإن أفردتَ ما يعود عليها صرتَ متبعًا للفظها، وإن جمعته فأنت مُتبعٌ لمعناه، ويجوز أن تُراعي لفظها أو معناها في كل الكلام، ويجوز أن تُغيِّر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق: ١١] كل هذا على سبيل الإفراد التابع للفظ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هذا باعتبار المعنى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ باعتبار اللفظ، فهي آية واحدة ومع ذلك غُيِّرت فيها الضمائر من مراعاة اللفظ إلى مراعاة المعنى إلى مراعاة اللفظ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: الذين يفعلون هذا الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أتى بـ (لهم) وهو الخبر قبل المبتدأ لإفادة الحصر، وأتى بالجملة الاسمية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ لإفادة الثبوت والدوام والاستحقاق لهذا العذاب.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ العذاب بمعنى: العقوبة، و﴿مُّهِينٌ﴾ [أي: ذو إهانة] يعني: يهينهم - والعياذ بالله - بدل ما كانوا يستعزُّون بأنفسهم ويسخرون بآيات الله حتى يضعونها عن مكانها

اللائق بها عُوقِبوا بمثل جنايتهم، ودائمًا الجزاء من جنس العمل، لا في الدنيا ولا في الآخرة، «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» مثلًا بمثل، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وعلى هذا فقِسْ، فالجزاء من جنس العلم.

هذا الرجل الذي اتخذ آيات الله هزوًا غرضه: أن يضعها بين الناس، وأن يجعلها محل سخرية غير معبوءٍ بها، ولا مهتم بها، فصار جزاؤه والعياذ بالله أن الله تعالى يجزيه بالعذاب المهين الذي يُهينه ويُذِلُّه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال المؤلف: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ [أي: القرآن] ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [مُتكبرًا] ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقرأ، من القارئ؟ أي إنسان، الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعون، أو أي إنسان، إذا قُرِئَت عليه آيات الله فإنه يُولِّي مُستكبرًا يُعرِض، وليس إعراضًا على وجه المماثلة، أو إعراضًا لشغل آخر، ولكنه يُعرِض مستكبرًا - والعياذ بالله -، والاستكبار هنا استفعال من الكبر، والسين والتاء فيه للمبالغة، وليست للطلب؛ لأن السين والتاء تارة تكون للطلب؛ كقولك: أستكبر الله؛ أي: أطلب مغفرته، وتارة تكون للمبالغة؛ مثل: استغفر، فهنا ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: مُبالغًا في كبرياءه والعياذ بالله، وإعراضه عن آيات الله.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ هذه تشبيه في موضع الحال؛ يعني: كحال الذي لم يسمعها في عدم الانتفاع منها، لكنه أقبح منه لكونه ولَّى مُستكبرًا، فالذي لم يسمعها قد يكون معذورًا، لكن من سمعها وولَّى مُستكبرًا فهو كالذي لم يسمعها باعتبار عدم الانتفاع، لكنه أشد باعتبار تولِّيه مُستكبرًا.

ثم قال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ يقول: [صممًا] الوقر: الصمم؛ كأن الصمم يسد الأذن، فالمعنى: أنه - والعياذ بالله - ما كأنه سمع الآيات؛ بل كأن أذنه التي هي محل السمع غير مستعدة للسمع، فهو لم يسمع، وليس عنده آلة سمع، ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾ أذنيه الاثنين لا أذن واحدة ﴿وَقْرًا﴾ قال المؤلف: [وجملتا التشبيه حالان من ضمير ولَّى، أو الثانية بيان للأولى] لأنهما في محل نصب على الحال، التشبيه هذا كله في محل نصب على الحال، حال من فاعل ولَّى؛ يعني: ولَّى مُستكبرًا مُشابهًا لمن لا يسمع، ومُشابهًا لمن في أُذنيه وقرٌ، وهذا في غاية ما يكون من بيان حال هذا الرجل في إعراضه، وعدم انتفاعه بآيات الله، إذا طبَّقنا هذه الآية على حال بعض الناس اليوم وجدنا أنها تنطبق، فإننا نسمع بعض الناس إذا جاءت الأغاني في الراديو أو التليفزيون فتح لها قلبه وأذنه.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ قال المؤلف: [أعلمه] واعلم أن البشارة إنما تكون في الخير، هذا في الغالب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣]، ما قال: لهم البشرى بكذا وكذا، فعُلِم أن البشرى هنا إنما هي بالخير، وإن قُيِّدت بالخير صار ذلك تأكيدًا، كما في قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وإن قُيِّدت بالشر فهي بالشر، فالبشرى إما أن تُطلَق أو تُقيَّد، إذا أُطلِقت فهي بالخير، وإن قُيِّدت بالخير فهي خير ويكون ذلك تأكيدًا، وإن قُيِّدت بالشر فهي بالشر، لكن هل قِيلت فيه على سبيل الحقيقة، أو على سبيل التهكُّم؟ المؤلف يرى أنها قِيلَت على سبيل التهكُّم؛ لأن الأصل فيها الخير، فإذا قُيِّد بالشر فهو من باب التهكُّم به، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] على القول بأن المراد: العزيز الكريم في تلك الحال، لا أنك أنت العزيز الكريم في الدنيا من قبل، ولكن قد يقول قائل: إن البشرى إذا قُيِّدت بالشر فهي على حقيقتها، وأن أصل البشرى من البَشَر، وهو: الإعلام بما يتغيَّر به الوجه، فإن تغيَّر بالسرور والانشراح فهي بالخير، وإن تغيَّر بالانقباض والعبوس فهي بالشر، فكل ما كان مُؤثِّرًا على بشرة الإنسان فهو بشرى، لكن هي في الأصل بالخير.

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بمعنى: مؤلم، في الأول: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، وفي الثاني: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذو إيلام؛ لأنه فعل أفعالًا أعظم من الأول، هذا الأخير ماذا يفعل؟ إذا تُتلى عليه آيات الله ولَّى مُستكبرًا، فهو أعظم من الذي يشتري لهو الحديث، فالأول يُصاب بعذاب مهين، والثاني يُصاب بعذاب أليم، والموصوف واحد في الحقيقة، لكن أحواله متغيرة.

قال المؤلف: [وهو النضر بن الحارث كان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويُحدِّث بها أهلَ مكة، ويقول: إن محمدًا يُحدِّثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أُحدِّثكم أحاديث فارس والروم، فيستملِحُون حديثَه، ويتركون استماع القرآن]، المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: [وهو النضر] وتعيينها بالنضر فقط لا شك أنه قصور، والصواب: أنها عامة له ولغيره، وسواء بهذه الطريقة التي كان يتخذها هو أو بغيرها، كما سبق في الأمثلة، فالصواب العموم، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ دائمًا يُخُصُّ القرآن بالعموم، كما مرَّ علينا كثيرًا، يحمل الآيات التي تتحدَّث عن الكفر والشرك يحملها على أهل مكة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وهذه طريقة القرآن إذا ذكر آيات الوعيد وصفات من يستحقون ذلك الوعيد ذكر بعدها آيات الوعد وصفات من يستحق ذلك الوعد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالإيمان محله القلب؛ يعني: آمنوا بما يجب الإيمان به، وهو كما قال الرسول ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح: كل ما جمع بين شرطين: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، وهل يدخل في ذلك التَّرْك؟ الذي لا يزني هل نقول: إنه عمِل؟ مجرد التَّرْك في الحقيقة ليس

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١/ ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعمل، لكن إذا اقترن به النية صار عملًا؛ لأنه إذا اقترنت به النية صار كفًّا للنفس، والكفُّ عمل، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً»(١)، لكنه ذكر علَّتها فقال: إنه تركها من جرَّاء؛ أي: من أجل، وهذا هو الفصل في الخلاف؛ هل الترك فعل وعمل أو لا؟ نقول: الترك ليس بفعل ولا عمل إلا إذا اقترن به نية، فإنه إذا اقترن به نية صار فيه كفٌّ للنفس، وحينئذٍ يكون بهذا الاعتبار عملًا.

وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مُقدَّم، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ جمع جنة، وجُمِعت باعتبار أنواعها، وكذلك باعتبار مراتبها، الجنة في اللغة هي: البستان الكثير الأشجار، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تُجِنُّ من كان فيها؛ أي: تستره وتغطِّيه، أما الجنة التي وُعِدَها المتقون فإنها الدار التي أعدَّها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فينبغي أن تُعرَّف الجنة التي وُعِدها المتقون بهذا، ما يقال: الجنة هي الحائط الكثير البستان؛ لأنك إذا قلت هذا في تعريف الجنة التي وُعِدها المتقون، هل تشعر بأن لها من المقام والعظمة ما كنت تنتظره من قبل؟ لا، ولكنك تقول: هي دار النعيم التي أعدَّها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ النعيم كلمة جامعة تشمل سرور القلب، وترف البدن، فالإنسان مُنعَّم فيها في ظاهره وباطنه، في الدنيا ما يمكن أن يجتمع الأمران، الغالب أن من تنعَّم ببدنه فإن قلبه يغتمّ بحزن وعذاب، ومن الناس من يُجمَع له بين الأمرين - والعياذ بالله -، أما أهل الجنة فإنهم جمع الله لهم بين سرور القلب، وبين ترف البدن، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [حال مُقدَّرة] اعلم أن الحال تنقسم إلى قسمين: حال مقربة بمعنى: أن صاحبها مُتلبِّسًا بها الآن، وحال مُقدَّرة بمعنى: أنها ستكون لصاحبها، فهنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا وعد وليس خبرًا، ما قال: يدخلون جنات النعيم؛ بل وعدهم بأن لهم جنات النعيم، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ فهل هم خالدون فيها حال وعدهم بها، أو بعد أن يُبعَثوا؟ بعد أن يُبعَثوا، قال: [حال مُقدَّرة؛ أي: مُقدَّرًا خلودهم فيها إذا دخلوها] أما الآن فليسوا خالدين فيها؛ لأنهم إلى الآن ما بُعِثوا ولا وصلوا إليها، وعليها فنقول: إنها حال مُقدَّرة؛ يعني: أن صاحبها ليس متلبِّسًا بها الآن.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود: هو المُكث، إما الدائم، وإما الطويل؛ يعني: أنه قد يكون مُكثًا دائمًا، وقد يكون مُكثًا طويلًا، فإذا أُكِّد بالتأبيد وقيل: أبدًا فهو قطعًا للمُكث الدائم؛ لأنه أُكِّد به.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (٢٠٧/ ١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ عندنا الآن مصدران: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ والوعد هو: مثل العهد أن الواعد يتعهَّد للموعود بما وعده به، ويقال: وعد ووعيد، فالوعد فيما يسر، والوعيد فيما يسوء.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر عامله محذوف؛ أي: وُعِدوا وعد الله، أو وعدهم الله وعد الله.

وأما قوله: ﴿حَقًّا﴾ فهو أيضًا مصدر، ولكن عامله أيضًا محذوف، والتقدير: يُحِقُّه حقًّا، أو حقَّه حقًّا، فعليه يكون الله تعالى أكَّد هذه الجملة الخبرية بمُؤكِّدين معنويين؛ أحدهما: أنها وعد الله، ووعد الله عز وجل لا يُخلَف؛ لأنه لا يخلف الميعاد لتمام صدقه وقدرته، والإخلاف بالوعد إنما يأتي من أمرين: إما أن يكون الواعد كاذبًا فليس محلًّا للصدق، وإما أن يكون صادقًا لكن يعجز عن الوفاء بما وعد، والله عز وجل قد انتفى في حقه الأمران؛ فهو مُنزَّه عن الكذب، ومُنزَّه عن العجز، إذا كان مُنزَّهًا عن الكذب وعن العجز لزِم أن يكون كامل القدرة، وحينئذٍ يتحقَّق ما وعد به.

وأما المُؤكِّد الثاني فهو قوله: ﴿حَقًّا﴾ يعني: أُؤكِّده تأكيدًا، وأُحقُّه حقًّا، وهذا من زيادة التوكيد في الوعد.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الذي لا يغلبه شيء فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [الذي لا يضع شيئًا إلا في محلِّه].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول المؤلف: إنه الغالب الذي لا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده، ولكن سبق لنا أن العزيز له ثلاث معان: عزة القهر، وعزة القدر، وعزة الامتناع، فأما عزة القهر فمعناه: أن الله سبحانه وتعالى هو الغالب الذي لا يُغلَب، ولهذا يقال: فلان عزيز؛ يعني: غالب في الجهاد والقتال، قال الله تعالى: ﴿وينصرك الله نصرا عزيزا﴾، الثاني: عزة القدر؛ بمعنى: أنه ذو قدر عظيم، والثالث: عزة الامتناع؛ بمعنى: أنه يمتنع عليه النقص، ومنه: قولهم: أرض عَزاز للأرض القوية الشديدة الصلبة، ونُسمِّيها في اللغة العامية: عَزاز؛ لأنها قوية صلبة، فصار معنى العزيز: المُتصف بالعزَّة.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فتقدم لنا أنه مشتق من الحكم والحكمة، وأما الحكم نوعان: حكم كوني قدري، وحكم شرعي ديني، فما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي هذه أحكام شرعية دينية، وما يتعلَّق بالخلق والتكوين ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهذا حكم كوني، ثم إن هذين الحكمين مقرونان بالحكمة، وهي: موافقة الصواب، وموافقة الصواب معناه: أن يضع كل شيء في موضعه، فكل شيء في أحكام الله الكونية وأحكامه الشرعية فإنه في غاية ما يكون من الصواب، وفي غاية ما يكون من المطابقة لأن الله ما خلق شيئًا عبثًا، ولا شرع شيئًا سفهًا؛ بل كل مشروعاته بالحكمة، وكل مخلوقاته بالحكمة.

وتقدم لنا أن الحكمة أيضًا نوعان: حكمة غائية، وحكمة صورية، الصورية معناها: أن هذا الشيء على هذه الصورة المُعينة موافق للحكمة، والغائية معناها: أن إيجاد هذا الشيء له حكمة وغاية محمودة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** ذم من يركن إلى لهو الحديث، وهو ما لا خير فيه، لقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تحريم الغناء؛ لأن ابن مسعود أقسم بالذي لا إله إلا هو أنه الغناء، وتفسير الصحابي حُجَّة، حتى ذهب الحاكم وجماعة من أهل العلم إلى أن تفسيره في حكم المرفوع، ولا شك أن الغناء المشتمل على آلة اللهو حرام؛ لأن نفس آلة اللهو حرام، قرنها رسول الله ﷺ بالزنا والخمر والحرير، فقال كما في «صحيح البخاري» من حديث أبي مالك الأشعري: «لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ، وَالحَرِيْرَ، وَالخَمْرَ، وَالمَعَازِفَ»[(١)] ، فكلمة «يَسْتَحِلُّونَ» دليل على أنها حرام، واستحلالهم لها إما باعتقادهم أنها حلال، وإما بفعلهم إياها فعل المُستحِلِّ لها الذي لا يُبالي، والموجود الآن الأمران؛ فإن من الناس من استحلَّ هذه المعازف - والعياذ بالله - وقال: إنها حلال، ومنهم من يعتقد تحريمها لكنه يفعلها فعل المُستحِلِّ لها بدون مُبالاة، وأنتم ترون ما وقع فيه الناس اليوم من البلاء والعياذ بالله، فإنه أصبح لها تأثير عظيم على قلوبهم، ودينهم، وسلوكهم، وانظر إلى المُبتلَيْن بها - والعياذ بالله - يقول: ما هو المهم إلا هذا الأمر، وهم أبعد الناس عن معرفة القرآن والسنة، ومعنى القرآن والسنة، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أنه لا يجتمع حب الغناء وحب كتاب الله عز وجل، قال ابن القيم:

حبُّ الكتاب وحبُّ ألحان الغناء في قلب عبدٍ ليس يجتمعان

ولهذا قال هنا: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والغناء بدون آلة لهو ما حكمه؟ إن اشتمل على محرم فهو حرام، وقد يصل إلى حد الشرك، كما لو اشتمل على الغلو في مدح أحد غلوًّا يصل به إلى درجة الخالق، وقد يكون محرَّمًا وفسقًا، كما لو اشتمل على تحبيب الفسق والمجون، وما أشبه ذلك، وقد يكون محرمًا تحريم الغِيبة، كما لو كان يسُبُّ شخصًا معينًا، المهم: أنه درجات، أما إذا كان مباحًا فإنه لا شك أنه من اللهو لكنه إذا استُعين به على شيء مُباح فلا حرج فيه؛ مثل: غناء العمال الذين يُغنُّون لكي يتقوَّوا على ذلك، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في حفر الخندق يرتجزون،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والرسول عليه الصلاة والسلام يُجيزُهم، يقولون:

نَحْـــنُ الَّـــذِينَ بَـــايَعُوا مُحَمَّـــدا عَـــلَى الجِهَـــادِ مَـــا بَقِينَـــا أَبَـــدا

والرسول عليه الصلاة والسلام يُجيبهم ويقول:

اللَّهُـــمَّ لَا خَـــيْرَ إِلَّا خَـــيْرَ الآخِـــرَه فَـــارْحَمِ الأَنْـــصَارَ وَالمهَـــاجِره [1]

وكان رسول الله ﷺ ينقل التراب، ويرتجز بقول عبد الله بن رواحة:

اللَّهُـــمَّ لَـــوْلَا أَنْـــتَ مَـــا اهْتَـــدَيْنَا وَلَا تَـــــصَدَّقنا وَلَا صَـــــلَّينَا

فَـــأَنْزِلَنْ سَـــكِينَةً عَلَيْنَـــا وَثَبِّـــتِ الأَقْـــدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـــا

إِنَّ الأُلَى قَـــدْ بَغَـــوْا عَلَيْنَـــا فَـــإِنْ أَرَادُوا فِتَنَـــةً أَبَيْنَـــا [2]

قال البراء بن عازب رضي الله عنه في هذا الحديث: يمُدُّ صوته بآخره، فهذا لا بأس به لما فيه من الإعانة على العمل.

ومنه: الحُداء، فإنه كان يُحدَى بين يدي الرسول ﷺ للإبل؛ لأن حداء الإبل يزيدها مشيًا وإسراعًا، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «يَا أَنْجَشَة! رِفْقًا بِالقَوَارِيْرِ»[3] يعني: بالنساء، وشبَّهها بالقوارير لأجل أن يرفق بها أكثر؛ لأن القوارير مع الحركة تتكسَّر.

فالحاصل: أننا نقول: أن الغناء له الأحوال التي ذكرنا؛ أما إذا اقترن بآلة لهو كما هو موجود الآن فهو حرام ولا شك؛ لأنه داخل في حديث أبي مالك الأشعري الذي رواه البخاري، فهو وإذا خلا فهو على حسب الحال.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لهو الفعل أيضًا لا يجوز التشاغل به، يُؤخذ من قوله: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فإن القياس: أن لهو الفعل كذلك؛ لأن الكل لهو وضياع وقت، وعلى هذا فالألعاب التي لا تُزيد الإنسان نشاطًا ولا قوةً ويضيع الوقت تدخل في هذا.

المهم: أن لهو الفعل يؤخذ من الآية الكريمة، من فحواها أن لهو الفعل كلهو الحديث.

والكرة ما تدخل فيها؛ لأن الكرة فيها رياضة بدنية، إلا إذا ألهت عن الواجب، مثلًا: البيع والشراء الجائز بالإجماع إذا ألهى عن واجب صار حرامًا، فإذا ألهت فنعم، أو كانت تشتمل على كشف العورة؛ كما لو كانت - مثلًا - يبدون أفخاذهم، فإن هذا أيضًا لا يجوز، لكن إذا انتفت المحظور فلا أرى بها بأسًا؛ لأنها تفيد البدن.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٣٤) ومسلم (١٣٠/ ١٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٣٧) ومسلم (١٢٥/ ١٨٠٣) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٧٠/ ٢٣٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

والشطرنج حرام، وفيه خلاف بين أهل العلم، والصحيح: أنه حرام.

كل المباحات إذا اقترن بها ما يقتضي التحريم تكون حرامًا، وإذا اقترن بها ما يقتضى الوجوب صارت واجبة؛ لأن المباح بذاته قد تتعلق به الأحكام الخمسة، كما هو معروف.

وتحريم الحلال أشد من تحليل الحرام؛ لأن الله يحب أن يُيسِّر على عباده ويُوسِّع لهم، لا يكمن أن نقدم على شيء ونقول: هذا حرام إلا بالدليل؛ لأننا مسئولون عن هذا يوم القيامة، مسئولون عن نسبته إلى الله أن الله حرَّمه، ومسئولون عن التضييق على عباد الله فيما أباح الله لهم، فالمسألة ليست هيِّنة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم كل ما يصد عن سبيل الله، لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم إن كان يضل عن واجب صار حرامًا، وإن كان يضل عن مستحب لم يكن حرامًا، ولكنه يُذَم بلا شك.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الهُزء بآيات الله، لقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، والاستهزاء بآيات الله حكمه الكفر، فمن استهزأ بآيات الله فهو كافر بنص القرآن ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] فهو صريح في الكفر، ولهذا قال العلماء: إن من قال قول الكفر ولو كان هازلًا أو مازحًا فهو كافر، فمن سب الله أو رسوله أو دينه ولو كان هازلًا فهو كافر؛ لأن هذا - والعياذ بالله - أعظم من أن يسبَّه جادًّا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الوعيد الشديد على من هذه حاله، لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى آخره.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن من علامات هذا الصنف من الناس إعراضهم عن سماع آيات الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الذي تتلى عليه آيات الله وهو قد اشترى لهو الحديث يكون - والعياذ بالله - كالإنسان الذي به صمم، لا يمكن أن يصل إليه سماع الحق، لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الوعيد الشديد على من إذا تليت عليه آيات الله ولى مستكبرًا.

٤- **ومن فوائدها:** ثبوت المدح والثناء لمن كان على العكس من ذلك؛ لأن الذم على صفة - وهذه قاعدة مفيدة - يقتضي مدح من اتصف بضدها، فيُؤخذ منه: مدح من إذا تُلِيَت عليه آيات

الرحمن أقبل إليها واستمع إليها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يعني: ولا عميانًا، وإنما يقبلون إليها بآذان سامعة، وأعين مبصرة.

إذا قال قائل: هل من الإعراض عن آيات الله من يقول للقارئ: اسكت انتهِ من القراءة؟ ليس من هذا؛ لأنه قد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه لما قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقْرَأْ عَلَيَّ» فقال: يا رسول الله! أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ قال: «نَعَمْ؛ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فتلا عليه سورة النساء فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «حَسْبُكَ»(١) – يعني: قف – يقول: فرأيت النبي ﷺ عيناه تذرفان، وعلى هذا فيجوز للإنسان أن يقول للقارئ: اسكت، كما يجوز أيضًا أن يغلق الراديو إذا كان يقرأ القرآن ولا حرج عليه، وكذلك أيضًا في المُسجِّل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن البشارة تُطلَق على ما يسوء، لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن طريقته أنه إذا ذكر العذاب ذكر النعيم، إذا ذكر المؤمنين ذكر الكافرين، وهكذا؛ لأنه لو ذُكِر الإيمان أو المؤمنين ولم يذكر ما يُضادُّه غلب على الإنسان جانب الرجاء، ولو ذُكِر التخويف وأهل النار غلب عليه جانب الخوف، وهذا يضر المرء، وإنما يكون المرء أتم إذا صار يسير إلى الله بين الخوف والرجاء.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، من أين يؤخذ؟ لأن الثواب بالحسنى على العمل يدل على مدحه والثناء على فاعله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان لا يكفي؛ بل لابد من عمل صالح، فمجرد العقيدة لا تكفي إذا لم يكن عمل صالح؛ بل ربما نقول: إذا لم يكن عمل صالح فهو دليل على أنه لا عقيدة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»(٢)، لكن من الأعمال ما لا يُخرِج من الإيمان لا فعله ولا تركه، يكون من الكبائر لكن ما يخرج من الإيمان، إنما يدل على ضعف العقيدة والإيمان، ومن الأعمال ما يكون فعله أو تركه كفرًا، فلو أن أحدًا غَلَا بشخص حتى رفعه إلى منزلة الرب كان بذلك كافرًا، وإن كان يعتقد أن الله موجود، وان له الأسباب الكاملة، ولو أن أحدًا لم يصل كان كافرًا ولو كان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قال ابن القيم: لا تغتر بمن قال: إن رجلا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

يحافظ على ترك الصلاة ثم يقول: إنه مؤمن، فإن هذا لا يدري عن أعمال القلوب وشئونها وأحوالها، ولا يمكن لإنسان يحافظ على ترك الصلاة ثم يقول: إنه مؤمن، لو قال ذلك فهو كافر؛ إذ إن الإيمان حقًّا لا يدعه يترك الصلاة مع علمه بفضلها والوعيد على تركها، كيف تؤمن بأن الرسول قال: «مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[1]، ثم لا تصلي؟ وكيف تؤمن بأن الرسول يقول: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ» ثم لا تصلي؟ وكيف تؤمن بأن هذه الصلاة ما فُرِضت على الرسول إلا وهو في أعلى مكان، وفي أشرف ليلة، وبدون واسطة، وعلى أنها خمسون صلاة، كل هذا يدل على عناية عظيمة بهذه الصلاة، ثم لا تحافظ عليها وتغفل وتقول: إنك مؤمن؟ أعتقد لو أن أحدًا من الناس قال له ملك من الملوك: إذا زُرتَني في بيتي أعطيتك كذا، وإذا لم تزُرْني عاقبتك بكذا، ثم لم يزُرْه، هل يكون عنده الثقة بما قال هذا الملك؟ ما يكون عنده ثقة، لو كان عنده ثقة لذهب بلا شك على رأسه ما على رجليه، فكيف وهو يعرف بوعد الله ووعيده؟

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجنة، لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي موجودة الآن أم لا؟ موجودة الآن، وقد دخلها النبي عليه الصلاة والسلام، ورأى فيها قصرًا لعمر بن الخطاب.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن هذه الجنات مشتملة على النعيم الذي هو سرور القلب، وترف البدن، فأبدانهم في غاية ما يكون من الترف، وقلوبهم في غاية ما يكون من السرور ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] نضرة في أبدانهم، وسرورًا في قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الجنات جنات الخلد لا موت فيها، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقد ورد في عدة آيات من القرآن ذكر التأبيد لهذا النعيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

هل في الآيات ما يدل على أنه لا مرض في الجنة؟ نعم ﴿جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لأن المرض ينافي النعيم، وعلى أنه ليس فيها شيخوخة؛ لأن الشيخوخة تنافي ذلك أيضًا، وعلى أنه ليس فيها همٌّ، أو كَدَر، أو تنغيص أبدًا، كل هذا ينافي النعيم، اللهم اجعلنا من أهلها.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الوعد حق لا يمكن أن يُخلَف، لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضل الله تعالى على عباده، لكونه يؤكِّد لهم هذه الأمور هذه التأكيدات مع أنه جل وعلا يكفي خبره، أليس كذلك؟ خبره كافٍ، لكنه يؤكد هذا الخبر وهذا وعد من أجل أن يقوى الناس على الحصول على هذا النعيم، وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢١) من حديث بريدة ﷺ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزة والحكمة لله، لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وإثبات هذين الاسمين من أسماء الله، وهما: العزيز، والحكيم.



قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]

التفسير

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [أي: العمد، جمع عماد، وهو: الأسطوانة، وهو صادق بأن لا عمد أصلًا]، السماوات جمع السماء، ويُطلق السماء على كل ما علا، ويُطلق على السماوات ذات الأجرام المحسوسة خلقها الله عز وجل بغير عمد، والعمد جمع عماد، ويقول: [وهو: الأسطوانة] يعني: ليس لها أعمدة تحملها، وهل المعنى: أن لها عَمَدًا لا تُرى، أو أن المعنى: أنه لا عمد لها؟ أقول: إنه لا عمد لها، وهو ما عليه جرى المؤلف قال: [وهو صادق بأن لا عمد أصلًا] بمعنى: أنه يصح أن تقول: هذا ليس له عمد تُرى؛ يعني: فإذا انتفى رؤيتها انتفت هي؛ لأنها لو كانت لرأيناها كما نرى السماء، فلماذا لم نرها فالمعنى: أنه لا وجود لها، وقال بعضهم: نعم، هي ليس لها عمد، لكن الضمير في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ لا يعود على العمد، إنما يعود على السماء ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي: السماوات كذلك لا عمد لها، وقال بعض المفسرين: إن معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أن لها عمدًا لكن لا تُرى.

والصواب: أنه لا عمد لها، وأن الله تعالى أمسكها بقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وهذا أبلغ في القدرة، ألَّا يكون لها عمد أبلغ في قدرة الله عز وجل.

ولكن المعنى الأول كيف نخرجه له تخريجان: أحدهما: أن يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تعود على السماوات؛ يعني: أنكم ترونها كذلك لا عمد لها، فهي كذلك لا عمد لها، والقول الثاني: أنها يعود على العمد؛ أي: بغير عمد ترونها [وهو صادق بأن لا عمد لها أصلًا]، كما تقول: ليس في هذا المكان عمود أراه، المعنى: ليس فيه عمود، وهذا؛ أعني: كونها لا عمود لها أصح، وأبلغ في قدرة الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ويمسك السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾.

قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ [جبالًا مرتفعة] ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ بمعنى: وضع، ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جمع راسية، وهذه الرواسي هي الجبال، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾، فهذه الرواسي

هي الجبال، فهي رواسي بنفسها، وهي أيضًا مُرسِية للأرض مُثبِّتة لها.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ قال المؤلف: [أن لا تميد بكم] فقدَّر لا النافية بعد أنْ، وهذا موجود، فإن لا النافية تُقدَّر بعد أنْ وهي زائدة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] فهنا لا زائدة بعد أنْ، والتقدير: لأنْ يعلم أهل الكتاب ألَّا يقدرون، وقد تُحذَف وتكون مُقدَّرة كما في هذه الآية؛ لأنه من المعلوم أن الله ما ألقى هذه الرواسي لأجل أن تميد بهم، وإنما ألقاها لئلا تميد، فتكون لا هنا عيَّنها السياق.

وقال بعض المُعرِبين: إنها لا تُقدَّر؛ بل يُقدَّر اسم مناسب؛ أي: تراها فأن تميد بكم، وقالوا: إن هذا أَولى، لئلا نُفسِّر الإثبات بالنفي؛ لأننا إذا قلنا: التقدير: ألَّا تميد بكم فسَّرنا الإثبات بالنفي، فإذا قلنا: تراها فأن تميد بكم فإننا نُفسِّر الإثبات بإثبات لكن على تقدير مراد، وهذه الآية لها نظير؛ مثل: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] هل البيان سبب للضلال، أو لعدمه؟ إذن المعنى: يُبيِّن الله لكم كراهة أن تضلوا على قول، أو ألَّا تضلوا على قول آخر.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يقول: [تتحرك] فسَّر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ المَيَدان بالحركة، والصواب: أن المَيَدان حركة خاصة، وهو الاضطراب، وليس مجرد الحركة؛ بل ألقى في الأرض رواسي حتى لا تميد؛ أي: لا تضطرب، وذلك أن الأرض موضوعة على الماء، فإن جميع جوانب الأرض من كل ناحية ماء، والجسم إذا وُضِع في الماء يتحرك ويضطرب أو لا؟ يتحرك ويضطرب لا شك، فإذا كان كذلك فلابد من شيء يحفظ توازنه، وذلك الشيء هو الجبال، فجعل الله عز وجل الجبال على الأرض حتى لا تضطرب بالناس.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني: أن تضطرب، وعند علماء الجيولوجيا من هذه الحِكَم والعلل شيء كثير؛ لأنه في بعض الأماكن تكثُر الجبال، فالجبال العظيمة الطويلة كثيرة، وفي بعض الأماكن تقل، وهذا يرجع إلى الحكمة التي خلق الله عز وجل، وقد تخفى علينا لكنها عند العلماء معروفة.

قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ بث بمعنى: نشر ووزَّع، ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ اسم فاعل؛ أي: من كل نفس دابة، فهو اسم فاعل من دبَّ يدبُّ، إذا درج ومشى، والدابة تُطلق عُرْفًا على ذوات الأربع، وتُطلق أيضًا في عُرْف أخص على الحمار فقط، أما معناها في اللغة العربية، فهي: كل ما دبَّ على الأرض، سواء يمشي على أربع، أو على ست، أو على أكثر، أو على بطنه، أو على رجلين، كل ذلك يسمى دابة، نشر الله عز وجل في الأرض هذه الدواب لحكمة عظيمة؛ لأن من هذه الدواب ما هو نافع، فينتفع الناس به، ومنها ما هو ضار فيحترز الناس عنه، ومنها ما لا يعرف منه نفعٌ أو ضرر، فيعرف الناس ما جعل الله تعالى فيه من الآيات ليعرفون به كمال قدرة الله وحكمته، فالأشياء النافعة ظاهرة حكمتها، نفع العباد وقيام المصالح بها؛ مثل: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣] هذا نافع، ومنها ما هو ضار، هذا الضار ما الفائدة من خلقه؟ الفوائد من خلقه كثيرة؛ منها: بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث كان قادرًا على أن يخلق ما فيه منفعة ومصلحة، وما فيه مضرة، فالكل خلق الله، والكل دابة، والكل من ماء، ومع ذلك هذا نافع، وهذا ضار، هذه حكمة.

الحكمة الثانية: أن الإنسان يعرف بذلك قدر نفسه، هذا الإنسان المُتمرِّد المُستكبر يعرف قدر نفسه في هذه المخلوقات، ولهذا يقال: إن ملكًا جبارًا كان جالسًا وحوله من أهل العلم من حوله، فكان يقول: ما هي الحكمة من خلق هذه الذبابة؟ فقال له رجل: الحكمة من ذلك: أن يُرغِم الله بها أنوف الجبابرة مثلك، هذه الذبابة تقع على أنف أي إنسان فتنعص هدوءه عليه، هذا ليعرف الإنسان قدر نفسه، وأنه ضعيف بالنسبة إلى قوة الله عز وجل.

الحكمة الثالثة في خلق هذه المؤذيات: أن الإنسان يذوق الألم والعذاب حتى يعرف أن العذاب غير ملائم له، فيُوجِب له النفور من معصية الله إلى طاعة الله عز وجل.

الحكمة الرابعة: أن الإنسان ربما يحمله على أن يقوم بما ينبغي أن يقوم به من الأوراد والأذكار، كثير من الناس قد يُورِد ويقرأ ما يعصمه من الأذى ليس لأجل شياطين الجن، ولكن خوفًا مما يُؤذيه حِسًّا، وهذا شيءٌ مُجرَّب ومُشاهَد، أخبرني بعض الناس الكبار أنه كان من عادته أن يقرأ آية الكرسي كل ليلة، يقول: فنسيتها ذات ليلة فلُدِغتُ، لُدِغ؛ لأنه ليس عليه من الله شيء حافظ، ومن قرأها في ليلة لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يُصبح.

هذه من الحِكم أن الله سبحانه وتعالى بثَّ في الأرض من هذه الدواب المؤذية، أما ما لا نفع فيه ولا ضرر فإن الإنسان يستدل به على قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، تجد هذه الدواب على كثرة أنواعها ما تستطيع أن تُحصِي أنواعها فضلًا عن أفرادها، ما بالك قد أعطاك الله تعالى الهداية بما هو من مصالحك، قال موسى عليه الصلاة والسلام لما قال له فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩- ٥٠]، وأنت إذا رأيت هذه النملة الصغيرة كيف هداها الله عز وجل إلى مصلحتها ومنفعتها، كيف تدَّخر القوت لها، وكيف تجلبه من بعيد، وكيف تُكسِّر أطراف الحبوب قبل أن تختزنه؛ لماذا؟ حتى لا ينبت؛ لأنه إذا جاءه المطر فإنه ينبت، لكن إذا كُسِّر أعلاه الذي يُثمِر فإنه لا ينبت، من الذي ألهمها ذلك؟ هو الله عز وجل، هي ما درست في المدارس، ولا تخرَّجت من الثانوية، ولا قرأت في كتب العلوم، لكن الله عز وجل هو الذي ألهمها ذلك.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» من هذه الأمور أشياء عجيبة، وذكر أنه ذُكِر لشيخ الإسلام ابن تيمية أن رجلًا وضع شيئًا من الطُّعْم، فجاءت ذرَّة من الذرَّات، فلما رأت الطُّعْم هذا ما استطاعت أن تحمله كبير، فذهبت إلى أخواتها فاستصرختهم، فجاءوا، يقول: فلما

أقبلوا نزع الطُّعْم، ذهبوا يبحثون في مكان الذرَّة التي أخبرتهم ما وجدوا شيئًا فرجعوا، فوضعه ثانية، فلما وجدته الذَّرَّة ذهبت إلى أخواتها فاستصرختهم، فجاءوا ولكن لما أقبلوا رفعها، فلما لم يجدوا شيئًا رجعوا، في المرة الثالثة فعل بهم كذلك، يقول: فاجتمع الذَّرُّ عليها فقتلوها، وقال شيخ الإسلام: هذا لأن جميع النفوس مجبولة على بُغض الكذاب الظالم، وهذه كذبت عليهم، وأخرجتهم من بيوتهم، والنتيجة لا شيء، وهذا شيء عظيم، إذا تأمَّل الإنسان هذه الأمور وجد العجب العُجاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ يقول: [فيه التفات عن الغيبة] إلى المتكلم، وقد سبق لنا أن الفائدة من الالتفات تنبيه القارئ؛ لأنه إذا تغيَّر أسلوب الكلام لابد أن ينتبه، والفائدة الثانية في هذا: بيان القدرة أن الأرض مفتقرة إلى السماء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ماءً وهو المطر، والمراد بالسماء هنا: العلو، وأن المطر ليس ينزل من السماء الذي هو السقف المحفوظ، وإنما ينزل من العلو.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يقول المؤلف: [صنف حسن] صنف تفسير لزوج، وحسن تفسير لكريم، وعندي أن الكريم هو الحسن وزيادة، وهو ما ينتفع الناس به من هذا النبات؛ كأنه رجل مِعطاء يُعطِي ويُغدِق، فهو نبات حسن، ومع ذلك نافع بسبب ما فيه، والزوج يأتي بمعنى: الصنف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]، وقوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم، والله أعلم.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾**:**

١- **يستفاد منها:** إثبات خلق الله للسماوات، ويتفرع على هذه الفائدة: إبطال قول الفلاسفة بِقِدَم الأفلاك، حيث أن الفلاسفة يقولون: إن الأفلاك قديمة وإنها لا تتغيَّر؛ لأن القديم عندهم الذي لا ابتداء له وما لا ابتداء له لا انتهاء له، فيكون في هذا إبطالٌ لقول الفلاسفة: إن الأفلاك قديمة وأنها لا تتغيَّر، ومن ثم أنكروا إنكارًا شديدًا انشقاق القمر، وقالوا: القمر لا يمكن أن ينشق؛ لأنه من الأفلاك، وأن معنى قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] أي: بان صدق الرسالة، وأنكروا الأحاديث الواردة في ذلك التي تلقَّتها الأمة بالقبول.

٢- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في خلق هذه السموات العريضة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فيُستفاد منها: بيان القدرة من وجهٍ آخر، وهي: أن هذه السماوات العظيمة، والسقف الواسع بغير عمد، لقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

وأظن لو رأينا بناءً واسعًا ما فيه أعمدة لكنا نتعجَّب من هذا البناء، كيف هذا البناء واسعًا وما فيه عمد، مع أن بناء السماء أوسع وأعظم، ومع ذلك بغير عمد.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾: بيان حكمة الله ورحمته في إلقاء الرواسي، ورحمته لئلَّا تميد بالخلق.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الأرض تدور، كيف ذلك؟ يقولون: إن قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يدل على وجود أصل الحركة؛ لأن نفي الأخص يدل على وجود الأعم، ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] حيث كان دليلًا على وجود أصل الرؤية، وهذه الآية استدل بها أهل السنة على إثبات رؤية الله، وأهل البدعة على نفي رؤية الله، ولكن الصواب مع أهل السنة؛ لأن نفي الأخص يقتضي وجود الأعم؛ إذ ليس من المعقول أن يُنفَى الأخص مع انتفاء الأعم ثم لا يُتطرَّق له، لو كان الأعم منتفيًا لوجب أن ينفى الأعم لأجل يستفيد الأخص، لو كان الله لا يرى لقال عز وجل: (لا تراه الأبصار) حتى تنتفي الرؤية وينتفي الإدراك من باب أولى، فلما قال : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ عُلِم أن أصل الرؤية موجود لكنه لا يُدرَك سبحانه وتعالى، هنا لما قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ والمَيَدان الاضطراب، عُلِم أن أصل الحركة موجودة، لكن هذه الرواسي من أجل اتزان الحركة من أجل ألَّا تضطرب، هذا هو تقرير من يرى أن في الآية دليلًا على أن الأرض تدور.

أما الذين يقولون: هو دليل على أن الأرض لا تدور، فيقولون: إننا لا نسلِّم أن المَيَدان بمعنى: الاضطراب؛ بل نقول: إن الميدان هو الحركة، ألقى في الأرض رواسي أن ترسو ولا تتحرَّك، فيُفسِّرون المَيَدان بأصل أو مطلق الحركة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الواجب أن نرجع إلى اللغة العربية، فإذا كانت اللغة العربية تدل على أن الميدان هو الاضطراب، فنحن نقول: إن فيها دليل على وجود أصل الحركة، وإذا كانت اللغة العربية تقول: إن الميدان هو الحركة فإننا نقول: فيه دليل على أنها لا تدور، ونحن إذا قلنا: إنها لا تدور لا ينقص الله شيئًا؛ بل هو في الواقع زيادة في قدرته سبحانه وتعالى؛ حيث تدور هذه الأرض بجميع ما فيها؛ من بحار، وأنهار، وأشجار، ومدر وحجر، وكل شيء تدور ومع ذلك بهذا الاتزان البديع الذي لا يتغير، هذا دليل على قدرة الله عز وجل، كما أن سكونها وهي علينا دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى، لكن الشيء الذي يجب أن يُذكَر حتى يتبيَّن لنا كالشمس هو القول بأن ارتباط الليل والنهار بسبب دوران الأرض، هذا لا نُسلِّم به؛ بل نقول: إن الليل والنهار بسبب دوران الشمس على الأرض؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن ولا يمكن أن نتزحزح عنه إلا بدليل يكون مثل الشمس، فإن الله عز وجل أثبت الفعل للشمس ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] ولم يقل: إذا طلع الكهف عليهم يتزاور، وأثبت تزاور، ولو كانت الحركة للأرض لكانت الأرض هي التي تزاور ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾

هذا فعل ثالث، ولو كانت الأرض هي التي تدور التي يكون باختلاف دورانها الليل والنهار لقال: وإذا غربت الأرض أو خفِيَت الأرض وما أشبه ذلك، و﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ نفس الشيء، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر لما قال لأبي ذر: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»[1] لما غربت الشمس، فأخبر أنها تذهب هي بنفسها، فالصواب بلا شك هو هذا إلا إذا ظهر لنا دليل مثل الشمس فإنه يمكن أن تُؤَوَّل هذه الآيات إلى أن المعنى غربت وطلعت باعتبار رؤية الرائي، وإن كان الرائي هو الطالع. أنت تسير بسيارة فطلع عليك مثلًا ناقة، فأنت تقول: طلعت عليَّ أم لا؟ بينما أسير إذ طلع عليَّ ناقة، تقول: طلعت عليَّ؛ لأنك أنت الذي طلعت عليها، هذا ممكن للرائي، لكن ما دمنا لم نتيقَّن هذا الأمر وإنما هي نظريات من قوم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالشرائع، فإننا لا نقبل ذلك منهم؛ بل نأخذ بظاهر كلام الله عز وجل.

فإن قال قائل: إن قولكم هذا يناقض قولكم بإمكان دوران الأرض؛ يعني: إذا أمكن دوران الأرض لزِمَ أن يكون تعاقُب الليل والنهار بسبب دورانها.

فنقول: إن هذا لا يلزمنا؛ لأنه من الممكن أن يدور هذا وهذا وتكون حركة الشمس ودورانها أسرع، وإذا كانت أسرع لزم من ذلك أن تطوف بالأرض ولو مع دوران الأرض؛ يعني: ممكن تدور مع الأرض تدور قليلًا وهذه تكون أكثر فيمكنها أن تدور على الأرض، فالحاصل من هذه المسائل: لا شك أن الواجب على المؤمن أن يأخذ بظاهر القرآن والسنة في الأمور الغيبية وفي الأمور التي لا يمكنه إدراكها حسًّا، ثم إذا تبيَّن له بعد ذلك بالحس أن ظاهر القرآن غير المراد، فإننا يجوز لنا؛ بل يجب علينا أن نُؤَوِّل ظاهر القرآن؛ لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يتعارض القرآن مع الواقع، مستحيل هذا، ولو أننا جوَّزنا ذلك عقلًا للزِمَ أن يكون في القرآن ما هو كذب؛ لأن الكذب هو خلاف الواقع، وهذا أمر مستحيل، ولذلك يجب علينا يا إخواننا أمام هذه النظريات أن نجعلها كأحاديث بني إسرائيل، ما وافق القرآن فهو حق وأخذنا به، ولكننا لا نأخذ به على أنه هو الذي أثبته؛ بل على أن القرآن هو الذي أثبته، وإنما نقول ذلك لئلا يكون لهم الفضل علينا، ثانيًا: ما خالف القرآن وجب علينا ردُّه، الثالث: ما لا نعلم موافقته للقرآن ولا مخالفته فهذا العقل والشرع يقتضي أن نتوقَّف، ونقول: إننا لا نُصدِّق ولا نُكذِّب، فحينئذٍ يحتاج طالب العلم إلى أن يتعمق ويتأمل وينظر نظرًا عميقًا جدًّا في نصوص الكتاب والسنة حتى لا نحكم بأن الواقع يخالفها، فيكون في ذلك رد فعل لمن لا يؤمنون بالإسلام؛ يعني: مثلًا لو أن أحدًا أنكر مثل هذه النظريات بدون تأمُّل في دلائل الكتاب والسنة كما تقول بعض العامة، وهذا في الحقيقة ليس من خدمة الإسلام، هذا أخذ الإنسان خنجرًا بيده وطعن به صدره وهو لا يشعر، فالواجب تجاه هذه الأمور - كما قلت لكم - أن نعرضها على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩) ومسلم (١٥٩/٢٥٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لكونه وافق الكتاب والسنة وما خالفهما، فهو باطل، وما لم تُعلَم موافقته ولا مخالفته فالواجب فيه التوقف، وأن يقول الإنسان: إن تبيَّن لي بحسب إدراكي أنا، وإن كان علمي قاصرًا في هذه العلوم فأنا أُصدِّق به، إذا لم يظهر لي فأنا لست مُلزَمًا أن أُصدِّق أو أُكذِّب، أقف من هذا موقف المُحايِد، وهذا هو العقل وهو الشرع.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في بث هذه الدواب في الأرض، لقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: نشر، وجه دلالتها على القدرة: اختلاف هذه الدواب أجناسها، وأنواعها، وأشكالها، وأحوالها، وقد سبق لنا بيان بعض الحِكَم في خلق ما هو ظاهر منها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله أيضًا وحكمته ورحمته في إنزال الماء من السماء، القدرة أن الماء ينزل من فوق فمعنى ذلك: أن بحارًا عظيمة تطوف بالأرض بين السماء والأرض، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] جبال بين السماء والأرض من البرد ينطلق منها هذه الأجزاء حتى ينزل إلى الأرض، ولو شاء الله لأنزل الجبل جميعًا على الأرض، ثم إنه دليل على الرحمة؛ حيث كان نزوله من العلو الذي يشمل المرتفع والمنخفض، وهو ينبني على الرحمة أن هذا الماء لنا فيه فائدتان عظيمتان: إنبات ما ينبت منه، والثاني: خَزْنُه في الأرض ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٦٩] ففيه أيضًا مادة حياة الإنسان في طعامه وفي شرابه.

٧- ومن فوائد الآية أيضًا: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ من أين تُثبَت الأسباب؟ من فاء السببية ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ وإثبات الأسباب من حكمة الله عز وجل، فالمُنكِر للأسباب طاعن في حكمة الله لا شك؛ لأن الله حكيم جل وعلا، وكل شيء عنده بسبب لتقوم الأشياء، وتمشي على نظام.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدره الله عز وجل على تصنيف هذا النبات مع أن أرضه واحدة، وماءه واحد، لقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف، ترى هذه الشجرة كبيرة، وهذه صغيرة، هذه خضراء، وهذه بُنِّية، هذه زهرتها بيضاء، وهذه صفراء، وهذه لون آخر، ألوان مختلفة مع أن الماء واحد، والأرض واحدة، وهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا النابت فيه منفعتان لنا، وهما: النظر إليه، والبهجة والسرور به، ولهذا إذا وقف الإنسان على روضة معشبة تتبَّع الرياح أزهارها يجد سرورًا وأُنسًا، فما يحصل من هذا النبات من المنافع لنا ولبهائمنا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا

ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٦- ٣٢].



❁ قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]

❁ التفسير ❁

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ المشار إليه: ما سبق، وهي: خلق السموات بغير عمد، وإلقاء الرواسي في الأرض، والبث فيها من كل دابة، وإنزال الماء من السماء، والإنبات فيها من كل زوج كريم، هذه خمسة أشياء مشاهدة محسوسة، ولهذا أشار إليها بالإشارات الحسية فقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، فهو من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، وليس المراد به: خلق الله الذي هو فعله، فإن فعله لا يشاهد، وأن المشاهد مفعوله.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، ﴿فَأَرُونِى﴾ قال: [أخبروني يا أهل مكة ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟].

قوله: ﴿فَأَرُونِى﴾ فسَّر الرؤية هنا بالإخبار، الإراءة بالإخبار، ولكن الأَولى إبقاؤها على ظاهرها أن المراد بالإراءة يعني: أبصروني أروني شيئًا خلقه أحد سوى الله عز وجل.

وقوله: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أبلغ من تفسير المؤلف بقوله: [أخبروني]؛ لأن التحدي فيها ظاهر؛ إذ من الممكن أن يخبروه بأمر وهم كاذبون، فيقولون: نعم؛ أن هناك كذا وكذا خلقه كذا وكذا، لكن إذا قال: ﴿فَأَرُونِى﴾ التحدي فيما يُرى، فحينئذٍ يُبهتون.

وقوله: ﴿فَأَرُونِى﴾ قال: [يا أهل مكة] بناءً على أن كل خطاب في سورة مكية يتعلق بالكفار فالمراد به: أهل مكة، والصواب: أنه عام، حتى يمكن الآن أن نقول بهذا التحدي في عصرنا الحاضر.

والأمر هنا في قوله: ﴿فَأَرُونِى﴾، للتعجيز والتهديد. ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [غيره؛ أي: آلهتكم حتى أشركتموها به تعالى]؛ يعني: أروني ماذا خلقوا، فإذا أريتموني أنها خلقت شيئًا فإنه قد يكون عذرًا لكم في تشريكها مع الله تعالى في العبادة، أما والأمر ليس كذلك ولا يمكن أن يوجد خالق سوى الرب عز وجل فإنه لا يجوز أن يُعبَد معه غيره؛ لأنه إذا أقررتم بأنه لا خالق إلا الله يجب أن تُقِرُّوا بأنه لا معبود إلا الله، وأنه كما أقررتم بالربوبية يجب أن تُقِرُّوا بالألوهية.

وقوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يقول: [ما استفهام إنكاري مبتدأ، وذا بمعنى: الذي بصلته خبره،

وأروني: معلق عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين].

قوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أعربها المؤلف إعرابًا صحيحًا، ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يقول: ما اسم استفهام، وذا اسم موصول مبنيٌّ على السكون في محل رفع، وخلق فعل ماض، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، والتقدير: ماذا خلقه الذين من دونه، والجملة: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ جملة الاستفهام معلقة عن العمل، عن عمل ﴿فَأَرُونِى﴾.

وقوله: [وما بعده سد مسد المفعولين] هذا إذا قلنا: إن الرؤية بمعنى العلم، أما إذا قلنا: إن الرؤية بمعنى رؤية البصر فإن ما بعده سد مسدَّ مفعول واحد فقط.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من سوى الله عز وجل، وهذا التحدي وكل تحدٍّ في القرآن لا يمكن أن يكون موجودًا؛ لأنه لو كان الشيء ممكنًا لكان التحدي لغوًا لا فائدة فيه، قال الله عز وجل: ﴿بَلِ﴾ قال المؤلف: [للانتقال] ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [بيِّنٌ بإشراكهم، وأنتم منهم]؛ لأن الأمر واضح، وأنه لا خالق إلا الله، وأنه لا يمكن أن يوجد أحد يخلق، ولكن استمرار المشركين في شركهم يعتبر ظلمًا وضلالًا مبينًا، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون، الذين أشركوا مع الله في العبادة مع أنهم مؤمنون بأنه لا شريك له في خلقه. ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلف: [بيِّن] وكلمة مبين تأتي بمعنى: بيِّن؛ أي: ظاهر، وبمعنى: مُظهِر؛ لأنها مشتقة من أبان الرباعي، وأبان الرباعي يأتي متعديًّا ويأتي لازمًا، ويأتي أبان بمعنى: بان، أي: ظهر، وحينئذ يكون لازمًا، ويأتي بمعنى: أظهر، أبان الشيء أظهره، وحينئذ يكون متعديًّا، وفي هذه الآية: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من اللازم، ولهذا فسَّرها بقوله: [بيِّن]، ومثال المُتعدِّي: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] أي: مظهر، فالحاصل: أن مبين لا تظن أنها دائمًا متعدية، قد تكون لازمة بمعنى بين، وقد تكون متعدية بمعنى مظهر.

الفوائد:

قوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، لقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ يعني: مخلوقه، فهم يُقِرُّون بخلق الله، وإن أقرُّوا لزِمَهم الإقرار بتوحيد الألوهية، وعلى هذا فنقول: يُفهَم من هذه الآية: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، ولهذا نظائر في القرآن؛ منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] كأنه يستدلُّ بكونه ربًّا خالقًا على أنه يجب أن تكون العبادة له وحده، وهذا دليل عقلي مُلزِم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال بالأظهر على ما يُنكِره الخصم؛ لأن هذا

استدلال بأمر ظاهر واضح على أمر ينكره الخصم، وهو إنكار: انفراد الله تعالى بالألوهية.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** استعمال التحدي في المناظرة، لقوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المنكرين لتوحيد الربوبية ظالمون، وفي ضلال مبين، لقوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عجز جميع الأصنام المعبودة أن يخلقوا مثل خلق الله، لقوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فإذا كانت عاجز عن الخلق كانت غير مستحقة للعبادة، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] أَضِفْ على ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٢-١٤].

التفسير

قال: [منها: العلم، والديانة، والإصابة في القول، وحِكَمُه كثيرة مأثورة]، قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بثلاث مؤكدات، هي: اللام، وقد، والقسم. وقوله: ﴿آتَيْنَا﴾ أعطينا، وهذا الإعطاء إعطاء كوني، أعطاه الله تعالى الشيء إعطاءً كونيًّا. وقوله: ﴿لُقْمَانَ﴾ هو اسم رجل، وأكثر أهل العلم على أنه رجل أعطاه الله تعالى حكمة ودراية بالأمور وليس نبيًّا، قال ابن كثير: إنه أكثر الناس على أنه ليس بنبي (١)، ويُروى عن عكرمة - إن صح عنه - هكذا قال-أنه نبي، ولكن الصحيح: أنه ليس بنبي، وإنما رجل حكيم ذو أمر رشيد، أعطاه الله هذه الحكمة، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) تفسير ابن كثير الجزء السادس ص ١٤٧، ط. مكتبة الصفا.

قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ما هي الحكمة؟ الحكمة في الأصل هي: موافقة الصواب؛ وبمعنى هذا قولهم: إنها وضع الأشياء في مواضعها، فصاحب الرأي الرشيد والتصرف السديد هذا يعتبر حكيمًا؛ لأنه يضع الأشياء في مواضعها، وهما بمعنى واحد؛ لأن موافقة الصواب هو وضع الشيء في موضعه.

يقول: [منها: العلم]، وتُنال به الحكمة، والثاني: [الديانة] وهي حكمة، والثالث: [الإصابة في القول] حكمة، وكذلك الإصابة في الفعل حكمة.

قال: [وحِكَمُه كثيرة مأثورة، كان يفتي قبل بعثة داود، وأدرك بعثته، وأخذ عنه العلم وترك الفُتيا، وقال في ذلك: ألا أكتفي إذا كُفِيت؟ وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يبالي إن رآه الناس مُسِيئًا] هذا من الحكمة أن الإنسان إذا كُفِيَ يكتفي؛ لأنه إذا كُفِيَ ثم عمل بما كُفِيَ فيه لم يكن منه إلا إضاعة الوقت والتعب.

وأما أي الناس شر؟ فقال: [الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئًا] هذا قد يُنازَع فيه؛ لأن هذا الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئًا يعتبر فاقد الحياء فقط، ولا يعتبر شر الناس، شر الناس في الواقع هو الذي يشرك بالله عز وجل، هذا شر الناس؛ لأن هذا أظلم الناس فيكون شر الناس، ثم إن هذه المقولة للمؤلف أو هاتين الجملتين قد تكون صحيحة إلى لقمان وقد تكون غير صحيحة؛ يعني: ما يُجزَم؛ لأنه ما هناك سند صحيح إلى لقمان متصل، ولم يخبر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك عنه، ومثل جميع الإخبار السابقة إذا لم تكن عن طريق الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يُنظَر فيها؛ لأنها تأتي بغير إسناد تؤخذ عن أهل الكتاب، وأهل الكتاب غير مأمونين، ولكن كل الأحاديث عما سبق لا تخلو من ثلاثة أقوال كما هو معروف: إما أن توافق الشرع، أو تخالف، أو لا توافق ولا تخالف؛ فما وافق الشرع فهو مقبول، وما خالفه فهو مرفوض، وما ليس فيه مخالفة ولا موافقة فإنه لا يُصدَّق ولا يُكذَّب.

يقول: [﴿أَنِ﴾ أي: وقلنا له: أن ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاك من الحكمة]، قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ثم قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لو أن أحدًا قال: إن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير للحكمة بأن ﴿أَنِ﴾ هنا تفسير للحكمة، لم يكن بعيدًا، أما المؤلف يرى أنها مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا له: أن اشكر لله يعنى: على ما آتاك من الحكمة، أما على الاحتمال الأول الذي هو ظاهر القرآن ولا يحتاج إلى تقدير فالأمر ظاهر أن شكر نعمة الله هو الحكمة؛ بل رأس الحكمة.

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ اللام هنا للاختصاص والاستحقاق؛ لأنه لا يختص بالشكر المطلق ولا يستحق الشكر المطلق إلا الله سبحانه وتعالى، والشكر هو: القيام بطاعة المنعم اعترافًا بالقلب، وثناءً باللسان، وطاعةً بالأركان، فمتعلق الشكر ثلاثة: اللسان والقلب والجوارح، وسببه واحد وهو النعمة، ولهذا كان بينه وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة السبب الحمد أعم، ومن

جهة المتعلق الشكر أعم. كيف ذلك؟ الحمد سببه أمران: كمال المحمود، وإنعام المحمود، ولهذا تحمد الله على كماله، وتحمده على إنعامه، ولكن الحمد يختص من حيث المتعلق باللسان فقط، أما الشكر فإنه من حيث السبب أخص؛ لأنه لا يكون إلا في مقابلة نعمة، لكن من حيث متعلق أعم؛ يكون بالقلب واللسان والجوارح، وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ قلنا: إن اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، فيجب على العبد أن يخلص الشكر له، وأن يعتقد بقلبه أنه لا يستحق الشكر المطلق إلا الله.

قال: [﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن ثواب شكره له ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمودٌ في صنعه].

﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الجملة هذه شرطية، فعل الشرط فيها مجزوم ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ وجواب الشرط جملة قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ و(إنما) أداة حصر، و(يشكر) فعل مضارع، ولكن هل يقال: إن (يشكر) هو الجواب أم الجملة؟ الجملة، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كيف قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؟ قد تقولون: إن المتوقَّع أن يقول: ومن يشكر فإنما يشكر لله، ولكن نقول مثل ما قال المؤلف: إن معنى قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أنه يعود ثواب الشكر إليه فهو لمصلحته، وليس الشكر يعود إلى الله عز وجل فينتفع به؛ لأنه سبحانه وتعالى لا ينتفع بالطاعة ولا يتضرر بالمعصية، وإنما يعود إليك أنت نفسك.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وهو ضد الشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ غني عنه إذا كفر نعمة الله ﴿حَمِيدٌ﴾ فعيل بمعنى مفعول، ويجوز أن نقول: حميد بمعنى فاعل حامد، فهو سبحانه وتعالى محمود وحامد؛ لأنه سبحانه وتعالى يصف من يستحق الصفات الكاملة بما يستحقه، ولهذا أثنى على أنبيائه وعلى أوليائه، وهذا حمدٌ له، وهو أيضًا محمود من عباده، فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، وجه ارتباط الجملة جملة جواب الشرط ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وجه ارتباطها بالشرط ظاهر؛ يعني: من كفر فإنه لن يضر الله ولن ينقص من ملكه؛ لأنه غني، وكذلك لن يكون في ذلك قصور من حكمته لأنه جل وعلا حميد، فإيجاد الشاكرين مما يُحمَد الله عليه، وإيجاد الكافرين مما يُحمَد الله عليه، ولولا هذا ما عرف قدر الشكر، ولا عرف أيضًا مضرة الكفر، لولا هذان لكان الناس على حد سواء لا يتميز فيهم الطيب من الخبيث. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فالغني من أسماء الله، والحميد من أسماء الله أيضًا.

وحميد يقول المؤلف: [محمود في صنعه]، والصواب: أنه محمود في صنعه وشرعه وفي جميع صفاته، فهو محمود على صفاته الكاملة، وعلى أفعاله، وعلى شرعه.

قال: [واذكر ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ تصغير إشفاق ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ

﴿ٱلشِّرۡكَ﴾ بالله ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فرجع إليَه وأَسلم].

قوله: [واذكر إذ قال] أفادنا المؤلف أن إذ مفعول لفعل محذوف، أو ظرف متعلق بفعل محذوف؛ يعني: اذكر هذا الوقت الذي قال فيه لقمان لابنه إلى آخره.

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جملة: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حالية، حال من فاعل (قال) وهو لقمان؛ يعنى: والحال أنه يعظ ابنه، والموعظة للتذكير المقرون بالتخويف أو الترغيب، قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قال المؤلف: إنه تصغير إشفاق، وهو كذلك وليس تصغير احتقار؛ لأن المقام لا يقتضيه، ولكنه تصغير إشفاق عليه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ هذا مقول القول لقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾، ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا تجعل معه شريكًا، في ماذا؟ في العبادة، وفي الخلق والتقديس، وفي أسمائه وصفاته ؛ لأن التوحيد كما هو معروف عند أهل العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء و الصفات، فالشرك بالله أن يشرك بالله تعالى في أحد هذه الأقسام، فمن اعتقد أن مع الله خالقًا فهو مشرك في الربوبية، ومن اعتقد أن مع الله من يستحق أن يعبد فهو مشرك في الألوهية، ومن اعتقد أن لله منازع في أسمائه وصفاته فهو من باب الشرك في الأسماء والصفات.

قوله تعالى: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ﴾ بالله ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، أكد لقمان كون الشرك ظلمًا بمؤكدين، وهما: إن، واللام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ الجملة تعليل لما قبلها وهو قوله: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ فجمع له لقمان بين الحكم والحكمة، نهاه عن الشرك وبين أنه ظلم عظيم، والظلم في الأصل معناه: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص، وأما في الشرع فإن الظلم: هو نقص كل ذي حق حقه، وعلى هذا فالشرك نقص في حق الله عز وجل.

وقوله: ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ هذا من باب تعظيم الشرك والحذر منه. فليس هناك ما هو أعظم ظلمًا من الشرك؛ لأنه مهما كان فإن ظلم الشرك أعظم من كل شيء، فالذي خلقك أوجدك من العدم، والذي أمدك بما تقوم به حياتك هو الله عز وجل، والذي أعدك وجعلك مستعدًّا لما تنتفع به هو الله، فهو المُوجِد المُعِدّ المُمِدّ، إذا كان كذلك فهل يوجد أحد أعظم حقًّا عليك من الله ؟ لا يوجد، فإذا نقصت الله حقه كان ذلك أعظم الظلم، ولهذا من كان إليك أكثر إحسانا فإن إساءتك إليه تكون أعظم من غيره، الذي يحسن إليك ويعطيك ويُربِّيك ثم تسيء إليه أعظم مما لو أسأت إلى أحد لم يكن منه ذلك.

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [فرجع إليه وأسلم] من الذي رجع؟ الابن، وعلى كل حال ما نعرف هل هذه المسألة كما قال المؤلف أن الابن كان مشركًا فلما وعظه أبوه رجع فأسلم، أو أنه –

أي: الابن - خاف عليه أبوه من الشرك فنهاه عنه وبيَّن له أن الشرك لظلم عظيم، ولا يلزم من النهي عن الشرك أن يكون الإنسان قد أشرك؛ لأنه قد يُنهَى عن الشيء خوفًا من وقوعه لا رفعًا لما وقع منه، وهذا أمر موجود ومضطرد في القرآن، وفي السنة، وفي كلام الناس، تقول الرجل مثلًا: لا تصاحب الأشرار، هل يلزم من هذا النهي أن يكون مصاحبًا لهم؟ ما يلزم، قد يكون نهيًا لما يُخاف أن يحصل منه، فكلمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ ليست صريحة في أن الابن قد وقع في الشرك حتى يقال: إنه رجع وأسلم؛ بل قد يكون أبوه نهاه عن الشرك خوفًا من أن يقع فيه، والعلم عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذه الجملة ليست من كلام لقمان؛ بل هي من كلام الله عز وجل، فهي معترضة بين كلام لقمان الأول وكلامه الثاني؛ لأن الله عز وجل دائمًا يقرن حق الوالدين بحقه ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [أمرناه أن يبرهما]، ففسَّر المؤلف الوصية بالأمر، ولكنها أخص من الأمر المطلق، الوصية عهد بما ينبغي الاعتناء به، ليست مجرد أمر؛ بل هي عهد بما ينبغي الاعتناء به، ولا شك أن بر الوالدين مما ينبغي الاعتناء به.

وقوله: [أن يبرهما] لو قال: أن يحسن إليهما لكان أولى؛ لأن الله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولكن المؤلف فسَّره بالبر؛ لأن البر من الإحسان.

قال: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعفت للحمل، وضعفت للطلق، وضعفت للولادة ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: فطامه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾].

﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ يقول المؤلف: [فطامه]، لكن مُخرج منها مدة الحمل؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أسقطنا أقل مدة الحمل ستة أشهر بقي أربعة وعشرون شهرًا وهي عامان.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [وقلنا له: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾].

فصاله في عامين يعني: أنه لا ينفصل عن أمه إلا بعد عامين، فيُضاف إلى الحمل مدة الفصال، مدة الفصال فيها تعب أم لا؟ فيها تعب بلا شك، ترضعه، وتسهر بسهره، ويتألم قلبها بألمه، وتصلح شأنه من تنظيفه وتنظيف ثيابه وحمله عند البكاء، وغير ذلك، إذن فهي في تعب من حين يُحمَل إلى أن يفصل بعد ولادته في عامين، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى في حق الأب شيئًا، فلما تقولون؟ لأن الأب في الغالب يُتَّقى ويُخشَى، فلا حاجة إلى أن يُبيِّن ما يناله من ابنه حتى يكون حافزًا للابن على القيام بحقه، لكن الأم لما كانت ضعيفة وربما يتهاون الإنسان بحقها ذكر الله

سبحانه وتعالى من أحوالها ما يكون سببًا لقيام الابن بواجبها، وهذا ترونه كثيرًا في القرآن، الشيء الذي يُخشَى فيه التهاون يُؤكَّد، مثال ذلك: الوصية والدَّين في التركة، أيهما يُقدَّم؟ يُقدَّم الدَّين على الوصية بالإجماع، ومع ذلك ذكر الله تعالى الوصية في آيات المواريث قبل الدَّين، قدَّمها في الذكر على الدَّين؛ لماذا؟ لأن الوصية حق قد يتهاون به الورثة، والدين لو يتهاون به الورثة فوراءه من يطالب به، صاحبه، فالله عز وجل قد يدعم الأشياء التي يخشى فيها التهاون بأوصاف تحمل على القيام بما ينبغي أن يقوم به، فهنا لما كانت الأم ضعيفة وكان الإنسان قد يعتدي عليها وعلى حقها أكثر، ذكر الله تعالى من أسباب برِّها الموجبة ما لم يذكره في حق الأب، وأظن أن كلنا نعلم أن الابن دائمًا يعتدي على أمه بالسب والشتم وربما بالضرب، لكن على أبيه ما يستطيع ولا يعتدي عليه بمثل اعتدائه على أمه، وإذا لم يقم بحقه فإن أباه يأخذ ذلك عليه، فلهذا ذكر الله تعالى هذه الصفات في الأم ليكون حثًّا لنا على القيام بحقها.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۚ﴾.

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله سبحانه على لقمان بإعطائه الحكمة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحكمة قد ينالها من ليس بنبي؛ لأن لقمان على قول الجمهور ليس نبيًّا.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب الشكر لله، لقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾.

٤- **ومن الفوائد:** أن شكر الله من الحكمة؛ لأن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هذا من تفسير الحكمة، والشكر لله لا شك أنه من الحكمة؛ لأن الحكمة هي موافقة الصواب، أو وضع الشيء في موضعه، ولا شك أن شكر الله موافق للصواب، وأنه وضع للشيء في موضعه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشاكر ثوابه لنفسه ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

٦- **ومنها:** أن الله لا ينتفع بطاعة الطائعين؛ بل طاعة الطائعين لأنفسهم.

يتفرع على هذه الفائدة: أن أمر الله عز وجل عباده بطاعته أو بعبادته أنه مجرد إحسان إليهم؛ لأن هذا النفع لهم، كما لو كنت تربي الصغير وتقول له: كل من هذا الطعام، والبس هذا الثوب، واشرب هذا الماء، فأنت تأمره لكن الأمر في مصلحته هو.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر لا يضر الله شيئًا، لقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى

أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[1].

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات هذين الاسمين لله عز وجل، وهما: الغني والحميد، وإثبات ما تضمَّناه من صفات، وهو: الغنى والحمد، سواء كان حامدًا أو محمودًا.

٩- **ومن فوائدها:** اتصاف الله تعالى بالصفة المركبة من الوصفين، وهما: الغنى والحمد، فليس كل غني يُحمَد، وليس كل محمود غنيًّا، أما الله عز وجل فقد اجتمع في حقه الغنى مع الحمد، وذلك لكمال جوده وكرمه سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** ملاطفة المخاطَب لاستدعاء قبوله لما يوجَّه إليه، لقوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾؛ لأن هذا من باب الملاطفة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أهمية هذه النصيحة؛ لأنها صدرت من أبٍ مُشفقٍ إلى ابنه، إذن فهي من أهم ما يكون من الوصايا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ تحريم الشرك، هل يكفي هذا التعبير أن أقول: تحريم الشرك؟ نقول: نعم يكفي؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣] قد يقول قائل: إذا سمعنا نقول: إن الشرك حرام قال: ما يكفي أن الشرك حرام. يكفي لأن الله قالها، لكنه هو أشد المحرمات إثمًا وظلمًا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب توحيد الله عز وجل؛ لأن النهي عن الشرك يقتضي وجوب التوحيد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشرك ظلم عظيم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي قرن الأحكام بعللها للفوائد التي سبقت؛ مثل قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من أهم ما ينبغي العناية به: التركيز على التوحيد وعدم الشرك؛ لأنه ذكر ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فبدأ به قبل كل شيء، وكان الرسول ﷺ إذا بعث أحدًا يدعو للإسلام يأمره أول ما يبدأ به: الدعوة إلى التوحيد؛ لأنه هو الأصل؛ إذا لم يكن عند الإنسان توحيد فمن يعبد؟ لابد أن يُركِّز على التوحيد، ولكن لكل مقام مقال؛ إذا كنا في بلد يكثر فيها الشرك فإنه ينبغي أن يكون كلامنا في التوحيد أكثر، إذا كنا في بلد بالعكس لكن عندهم مخالفات

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

في أمور أخرى ينبغي أن نُركِّز عليها أكثر، وذلك مأخوذ من طريقة القرآن.

ففي مكة كان التركيز على التوحيد في آيات القرآن أكثر، وفي المدينة كان التركيز على المعاملات وفروع العبادات أكثر، فلكل مقام مقال، ولذلك قد يعترض بعض الناس ويقول: لماذا لا تكثرون الكلام في التوحيد ولاسيما في المسجد؟ نقول: إن الكلام في التوحيد لا شك أنه مهم، وأنه أهم الأشياء، لكن إذا كنا في قوم قد وحَّدوا - ولله الحمد -، وعرفوا الأمر، وهم بعيدون عن الشرك، وإنما يخالفون في أمور أخرى دون الشرك، فنحن نركز على ما في هذه المخالفة، على أنه لو طرأ ما يُخالف التوحيد يجب أن يُركَّز عليه، كما يوجد في الآونة الأخيرة من ظهور بعض الأشياء الشركية والبدعية من هذه الكُتيِّبات الصغار التي فيها أذكار وأوراد كلها كذب، أو غالبها كذب، فيجب أن يُركَّز عليها، وكذلك أيضًا وُجِد تمائم تُعلَّق، تمائم من النحاس يقال: إنها تنفع، هذا من الشرك، وكذلك أيضًا ما وُجِد من قضية الدبلة وما يتعلق بها، إن كان الرجل يكتب اسمه على خاتم امرأته، وهي تكتب اسمها على خاتم زوجها، ويعتقدون هذا يُوجِد المحبة وكأنه رباط، هذا أيضًا من الشرك، وهو من التِّوَلة، إذا ظهرت مثل هذه الأمور يجب أن تُحارَب وأن يُركَّز عليها، وأن يكثر القول فيها حتى لا تنتشر، فالمهم أنه لكل مقام مقال.

٨- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** توجيه المواعظ من الآباء إلى أبنائهم؛ لأن هذا من الحكمة، لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان الموجه أن يقرن توجيهه بالموعظة، لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فهل يكفي مثلًا أن تقول للإنسان: هذا حرام وهذا واجب، أو يُنظَر في حال الشخص؟ نعم، يُنظَر في حال الشخص، من الناس من يكفي أن تقول له: إنه حرام أو واجب فينتهي، ومن الناس من لا يكفي أن تقول له: هذا حرام أو واجب حتى تقرن له ذلك بموعظة، فتقول: اتق الله، كيف تُصِرُّ على هذا وهو معصية لله ورسوله، وما أشبه ذلك، فالمهم أنه لكل مقام مقال، وكذلك أيضًا تذكر ما ورد فيه من الوعيد من القرآن والسنة، كما لو طُلِب منك أن توجِّه نصيحة إلى رجل مغمور بمعاملة الربا، هذا ما يكفي أن تقول له: إنه حرام؛ لأنه يعرف، ما أحد يشكل عليه أن الربا حرام، لكن يحتاج إلى موعظة تبيِّن له الحق.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** عناية الله عز وجل بمعاملة الوالدين، ولهذا أوصى الله سبحانه وتعالى بها وصية.

٢- **ومن فوائدها:** أنه سبحانه أرحم بالوالدين من أولادهما؛ لأنه أوصى الأولاد بالوالدين، إذن فهو أرحم بالوالدين من الأولاد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١]: إن في الآية دليلًا على أن الله أرحم بالولد من والديه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عِظَم حقوق الوالدين، ولهذا جعلها الله تعالى وصية، والوصية كما سبق في التفسير: أن يُعهَد إلى شخص بأمر هام، فهذا دليل على عِظَم حقوق الوالدين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن يُذكَر للمخاطَب ما يحمله على امتثال ما وُجِّه إليه، لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي تقوية الجانب الضعيف بما يقويه، تؤخذ من قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ فإن الله تعالى ذكر ما يحصل للأم إغراءً بالقيام بحقها، ولم يذكر ما يحصل للأب؛ لأنه كما قلنا في التفسير: الأم ضعيفة تحتاج إلى من يقوي جانبها.

وهل يُستفاد منها: أن حق الأم أوجب من حق الأب؟ هو ذكر ما تعانيه الأم من المشاق إشارةً إلى أنها أحق؛ لأنه بالنسبة للأب ما يجد في ابنه هذه المشاق، ولكن الأم هي التي تجد، صحيحٌ أن الأب قد يتحمل مشاقًا أخرى مثل: حصول النفقة، وما أشبه ذلك، لكن تعب الأم هو الألم البدني وهذا ما يكون بالأب.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للأم أن تصبر على ما ينالها من مشقة الحمل؛ لأنه أمر طبيعي، لقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

يتفرَّع على هذه الفائدة: بيان خطأ بعض النساء اليوم اللاتي لا يصبرن على وهن الحمل، فتجد المرأة تستعمل حبوبًا لمنع الحمل تريد أن لا يلحقها تعب ومشقة، وما أشبه ذلك، وبعض النساء يحاوِلن أن يلِدْن عن طريق العملية؛ لأنه أهون، كل هذا فرارًا مما جُبِلَت عليه المرأة؛ من الضعف عند الحمل، وعند الطلق، وعند الولادة. نعم؛ إذا احتاج الأمر إلى عملية، هذا لا بأس به للضرورة، وإلا فإنه لا ينبغي ذلك؛ لأن هذا خلاف ما جَبَل الله عليه المرأة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أقل الحمل ستة أشهر، من قوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وقد قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أسقطت عامَيْن من ثلاثين شهرًا، كم بقي؟ بقي ستة أشهر. وذكر ابن قتيبة في «المعارف» أن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر، وهو الخليفة بن محمد، كما هو معروف ولد لستة أشهر.

ويقول الخبراء في هذه الأمور: أنه إذا وُلِد الإنسان لستة أشهر يمكن أن يعيش، لكن لثمانية أشهر قد لا يعيش.

٨- ومن فوائدها: أنه يجب الشكر للوالدين كما يجب الشكر لله، لقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

٩- **ومنها:** أن شكر الله مُقدَّم على غيره؛ لأنه قدَّمه في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، فقدَّم الشكر له على شكر الوالدين مع عِظَم حقهما.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مرجع الأمور إلى الله، لقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وتقديم الخبر يدل على الحصر، أنه إلى الله وحده.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير والتخويف من المخالفة؛ لأن قوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: سأحاسبك أيها الإنسان، ارتباط هذه الجملة بما قبلها أنها تفيد التهديد والتخويف من المخالفة.



قال الله تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٥-١٧]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾

الضمير في قوله: ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ ضمير فاعل يعود على الوالدين، ومعنى جاهداك: بذل الجهد معك، على أي شيء؟ ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني: على أن تجعل معي شريكًا لا علم لك به.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قيدٌ لبيان الواقع، وليس قيدًا احترازيًّا؛ لأنه لا يمكن أن يوجد علم بأن لله تعالى شريكًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فإن قال قائل: ما فائدة هذا القيد وقد عُلِم أنه لن يوجد؟ قلنا: الفائدة فيه: تحقيق هذا الأمر حتى لا يحاول أحد أن يبحث ويطلب علمًا أو برهانًا بأن الله تعالى له شريك، فكأنه يقول: هذا هو حقيقة الواقع، وما كان حقيقة الواقع لا يمكن أن يتخلَّف، فهذا هو فائدة قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ﴾ (ما) هذه تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: الذي ليس لك به علم، ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة؛ أي: أن تشرك بي شريكًا ليس لك به علم.

وقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جواب الشرط، وهو: إن جاهداك، إن جاهداك فلا تطعهما، فتأمل قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولم يقل: فلا تبرهما، ولم يقل أيضًا: فاعصِهما؛ لأن كلمة (لا تطعهما) أهون في النفس من كلمة فاعصهما، ولهذا كان قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أهون من قوله: يا أبت إنك جاهل بما عندي، فقال: ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ لأن نفي الكمال أهون من إثبات النقص على النفوس، ويُذكَر أن أحد الملوك رأى في المنام أن أسنانه قد سقطت، فقال: ادعوا لي مُعبِّرًا يُعبِّر هذه الرؤيا، فجاءوا برجل ليعبُرها، فقصَّ عليه الرؤيا، فقال: يموت أهلك، لما قال: يموت أهلك فزِعَ الملك، وقال: اجلدوه، فجلدوه وانصرف، وجاءوا برجلٍ آخر فقصَّ عليه الرؤيا، فقال: الملك يكون أطول أهله عمرًا، فأكرمه وأسبغ عليه بالنعم، ومعنى ذلك، معناهما متقارب، فالحاصل: أن التعبير له أثر على النفس، كلمة (لا تطعهما) أهون من كلمة (فاعصهما)، ثم قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ما قال: لا تبرهما، أو لا تقم بحقهما، حقهما واجب ولو أمراك بالشرك، إذا كان الوالدان لهما حق واجب ولو أمراك بالشرك، فكيف إذا أمراك بما دون الشرك، ولذلك فإن حق الوالدين ليس بالأمر الهيِّن.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لماذا لا تطعهما؟ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن حق الله أوجب من حق الوالدين، وهو الذي أوجب لهما الحق فكيف نضيع حقه من أجل حقهما؟

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقول: [موافقةً للواقع] هذا تفسير لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أن هذا هو الأمر الواقع أنه ليس لك بذلك علم.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [أي: بالمعروف؛ البرّ والصلة] ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ كلمة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ (في) ظرفية لا شك فيها، ولكن هنا المراد بالدنيا المراد: في زمن الدنيا، أو المراد: في شئون الدنيا؟ يحتمل أن يكون المراد: الشئون؛ يعني: في أمور الدنيا صاحبهما معروفًا، أما في أمور الدين فلا تتعدَّ ما أمرك الله به، ويحتمل أن يكون ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في هذه الدنيا، لكن المعنى الأول أبلغ؛ لأنه من المعلوم أن المصاحبة بين الوالدين والولد إنما تكون في الدنيا فلا حاجة إلى التقييد، فالظاهر أن المعنى: صاحبهما في الدنيا؛ أي: فيما يتعلق بأمور الدنيا.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال المؤلف: [بالمعروف] ومعنى هذا التفسير: أن ﴿مَعْرُوفًا﴾ منصوب بنزع الخافض، والنصب بنزع الخافض مع غير (أنَّ، وأنْ) ليس بمضطرد؛ بل هو شاذ، وإذا كان كذلك فإنه لا ينبغي أن يُفهَم القرآن عليه، ولو قيل: إن ﴿مَعْرُوفًا﴾ صفة لمصدر محذوف، فالتقدير: صاحبهما صحابًا معروفًا؛ يعني: صحبة معروفة ليس فيها عنف، وليس فيها توبيخ، ولا لوم، وليس فيها نقص مما يجب لهما، فكان هذا أولى.

قال المؤلف: [بالبر والصلة] البر: كثرة الخير، والصلة: عدم القطيعة، فالمعنى: صِلهما وبرَّهما بما يستحقانه منك لكن في أمور الدنيا فقط.

[﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ سبيل: طريق ﴿مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ رجع إليَّ بالطاعة].

قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ﴿مَنْ﴾ هذه اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، فهل هو على عمومه؛ أي: اتبع سبيل من أناب إليَّ منهما أو من غيرهما، أو هو عام أُريد به الخصوص؛ أي: من أناب إليَّ منهما؟ الأَولى أن نقول بالعموم، اتبع سبيل من أناب إليّ من كل الناس، وعليه فمن أناب من الوالدين إلى الله عز وجل يكون اتباعُ سبيله من باب أولى.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أناب بمعنى: رجع، من أين؟ من المعصية إلى الطاعة، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الفسوق إلى الاستقامة والتقوى.

يقال: إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما أسلم قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أتيت به؟ فقال: هذا هو الحق، فقالت له: لتترُكنَّه، أو لأَدَعنَّ الطعام والشراب حتى أموت فتُعيَّر بي، فقال: هذا حق لا أَدَعه، فأمسَكَت عن الطعام والشراب يومًا كاملًا، فلما أصبحت إذا هي مجهودة؛ يعني: تعبانة من الجوع والعطش، فطلب منها ولدها أن تأكل وتشرب، وقال: لن أرجع عن هذا الدين، ولكنها أبَت، وفي اليوم الثاني أصبحت أكثر جهدًا، فقال لها كما قال في الأول: أني لن أدع هذا الدين، فبقيت على عنادها، فلما كان في اليوم الثالث وإذا هي قد أصبحت مجهودة جهدًا شديدًا، فقال لها: يا أمي تعلمين أن هذا هو الحق، والله لو كانت نفسك مائة نفس، وماتت كل نفس - يعني: وحدها - والله ما أدع هذا الدين، فلما رأت أن الرجل عازم أكلت.

مثل هذه الحال هل يجوز للإنسان إذا رأى أن أمه تموت أو أبوه يموت؛ يجوز أن يُشرك؟ لا، لو قال قائل: لو أراد أن يقول: إنه مشرك بلسانه متأولًا، هل يجوز؟ الصحيح: أنه ما يجوز أن يوافق ولا بالتأويل؛ بل يصبر، لو خاف على نفسه هو أن يُقتَل فله أن يقول ذلك متأولًا، لقوله : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] على أنه أي: في المسألة الأخيرة ما يجوز فيما إذا كان فيه نصرة للإسلام، فإنه إذا كان في ثبوته نصرة للإسلام، وفي موافقته ظاهرًا خذلان للإسلام حرُمَ عليه ذلك؛ لأنه حينئذٍ يدخل في باب الجهاد.

مثل ما حصل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ؛ دُعِيَ إلى القول بخلق القرآن، ودُعِي غيره أيضًا إلى القول بخلق القرآن، فمن العلماء من تأوَّل وأجاب ظاهرًا بما يُدعَى إليه، ومنهم من أصرَّ فقُتِل، ومنهم من أصرَّ فرحمه الله من القتل كالإمام أحمد، الإمام أحمد ما أجابهم ولا بالتأويل؛ لأن الناس ينظرون ماذا يقول الإمام أحمد، فلو قال: إن القرآن مخلوق ولو بالتأويل، ماذا يقول العامة؟ يقولون: مخلوق، وتنطلي هذه البدعة على عموم المسلمين، فرأى رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يجوز أن يتأوَّل في هذه الحال، لما في ذلك من خذلان الحق وإثبات الباطل.

﴿ثُمَّ﴾ هذا التعقيب لما ذكر سبحانه وتعالى أنهما إذا ما أرادا الشرك فلا تطعهما، وأن الواجب عليه اتباع سبيل من أناب إلى الله، قال: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد هذه المحاولات منهما بأن تشرك بالله،

وبعد أن تُطيع فالمرجع إلى الله.

وقوله: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جملة اسمية خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر ﴿إِلَىَّ﴾ لا إلى غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مردكم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بمعنى: أخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والإنباء هذا يستلزم المجازاة، وقد لا يكون هناك مجازاة، ولهذا دائمًا يُعبِّر الله عز وجل بالإنباء؛ أي: الإخبار؛ لأنه قد يجازي وقد لا يجازي، فإنه يخلو بعبده المؤمن، ويخبره بذنوبه، ويُقرِّره بها، ثم بعد ذلك يقول: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كنتم تعملون، وهو شامل لكل ما يعمله الإنسان من صغير وكبير دون ما لم يعمله، فلو همَّ بالشيء فلم يعمله، فإنه لا يجازى عليه، لكن قد يُثاب عليه إذا كان معصية تركها من أجل الله عز وجل فإنه يُثاب على هذا الترك.

قال: [فأُجازيكم عليه، وجملة الوصية وما بعدها اعتراض] قال المؤلف: [فأجازيكم عليه] كأنه جعل من لازم الإنباء: المجازاة، ولكني قلت لكم: ليس لازمًا، ولهذا عبَّر الله عز وجل بالإنباء ليكون الأمر دائرًا بين أن يُجازى عليه، وبين أن لا يُجازَى عليه.

وقوله: [وجملة الوصية وما بعدها اعتراض] الوصية مبتدأة من قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ اعتراض من قول الله عز وجل وليس ذلك من قول لقمان لابنه؛ يعني: الذي وصَّى بالوالدين إحسانًا، ووجَّه الإحسان هو الله عز وجل، وإنما جاءت هذه الوصية بعد ذكر الشرك؛ لأن حقوق الوالدين يرد بعد حق الله سبحانه وتعالى، وفي الوصية أيضًا جملة اعتراضية، هي: قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ لأن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هو الموصَى به ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ الآن يكون عندنا كم اعتراض؟ إذن نقول في هذا: الوصية اعتراضية بين كلام لقمان لابنه.

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ اعتراض أيضًا بين فعل الوصية والموصَى به.

ثم قال الله عز وجل أيضًا على وصايا لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ﴾ [أي: الخصلة السيئة] ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ [أي: الخصلة السيئة] فيه قصور؛ لأن الصواب والمراد: ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخصلة السيئة والحسنة كل شيء من حسن أو سيئ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، ﴿مِثْقَالَ﴾ أي: وزن، وسمي ذلك مثقالًا؛ لأنه يعتبر بثقله؛ لأن الشيء يُوزَن ليُعلَم ثِقَلُه من خفته، وقوله: ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ هذه حبوب معروفة صغيرة، ﴿فتكن في صخرة﴾ في أي مكان من الأرض؛ لأننا لا نعرف صخورًا إلا في الأرض، لكن الذين خرجوا إلى القمر جاءونا منه بصخور، فلا أدري هل هذا صحيح، أو ليس بصحيح، على كل حال ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ المعروف أن الصخور في الأرض.

وقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ هل يمكن أن يكون حبة من خردل في صخرة، أم هذا على سبيل المبالغة؟ على كل حال إما أن تكون على سبيل المبالغة، أو يكون مثلًا في هذه الصخرة شيء من غير جنسها بقدر حبة الخردل فيعتبر فيها، أو يقال: إن المراد أن حبة الخردل قد تكون في شق من هذه الصخرة.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أو في أعلى السموات، أو أنزلها ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أعلاها، أو أنزلها، [أي: في أخفى مكان من ذلك] ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولماذا حُذِفَت الياء؟ لأنها جواب الشرط لقوله: ﴿إِن تَكُ﴾ فإن ﴿إِن﴾ شرطية و﴿تَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (إن) الشرطية وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿يَأْتِ﴾ جواب الشرط مجزوم بـ ﴿إِن﴾ وعلامة جزمه حذف الياء.

قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [فيُحاسب عليها] هذا من أخفى ما يكون، ومع ذلك قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: يعلمها الله؛ لأنه من لازم الإتيان بها العلم بها؛ لأن الإتيان أبلغ، الله سبحانه يأتي بها ويجازي عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ [باستخراجها] ﴿خَبِيرٌ﴾ [بمكانها] المؤلف دائمًا يُخصِّص العموم بمقتضى السياق، والمعروف عند أهل العلم: أن العبرة بعموم اللفظ، فهنا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جعل اللطف هنا بالاستخراج، والخبرة بالمكان، والصواب: أنها أعم من ذلك، فإن اللطيف من أسماء الله، قال ابن القيم: وهو اللطف بعبده ولعبده، فالله تعالى لطيف بعبده، ولطيف لعبده، واللطف في أوصافه نوعان:

اللطف الأول: إدراك أسرار الأمور وخفايا الأمور، والثاني: اللطف عند مواقع الإحسان، وهو الإحسان إلى العبد، يلطف له بمعنى: يقدر له من الإحسان ودفع السوء ما لا يعلم به، فيكون (لطيف) يتعدَّى بالباء، ويتعدَّى باللام، فإن تعدَّى بالباء فهو بمعنى: العلم بخفايا الأمور، وإن تعدَّى باللام لطيف لهم، فهو بمعنى: الإحسان بجلب المطلوب، ودفع المكروب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] هذا قول يوسف عليه الصلاة والسلام؛ يعني: ومن لطفه أن يسَّر الاجتماع بكم بعد الفراق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالحاصل: أن اللطيف من أسمائه تعالى، وله معنيان حسب ما يتعدى به، إن تعدَّى باللام لطيف لما يشاء، فمعناه: الإحسان، وإن تعدَّى بالباء، فمعناه: العلم بالخفايا، فهو لكمال علمه لطيف، كل شيء يعلم به، وهناك معنى ثالث، ولكنه لا ينطبق على أوصاف الله، اللطيف هو الرقيق، عند الناس يقولون: فلان لطيف؛ يعني: رقيق حسن الخلق، وعندي أن هذا داخل في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يعني: يتعدى باللام فمعناه: الإحسان، فإن الإحسان أخص أيضًا من حسن الخلق؛ لأنه يتضمن الإنعام على من لطف له.

وأما قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ والخبير هو: العليم ببواطن الأمور، وهو مع اللطيف كالمؤكد له، وسُمِّي العلم ببواطن الأمور: خبرة مأخوذ من الخُبار؛ يعني: الأرض الرخوة، فهو خبير سبحانه وتعالى عالم ببواطن الأمور، ومنها: هذه الحبة التي من خردل تكون في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض.

ثم قال عز وجل: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

هذه أربعة أوامر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الأول نهاه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ نهي، ثم تحذير في قوله: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾، ثم بعد ذلك أمر ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية؛ يعني: معناه: أزِل الشوائب، ثم ائتِ بالمكملات، وقوله هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر بإقامة الصلاة، ومعنى إقامتها: أن يأتي بها الإنسان تامة بأركانها، وشروطها، وواجباتها، ومكملاتها، وقوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شامل للمفروضات والنوافل. ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أين مفعول ﴿وَأۡمُرۡ﴾؟ محذوف، والتقدير: الناس أو غيرك، وأْمُر غيرك بالمعروف؛ أي: بالقول المعروف، والفعل المعروف، والمعروف: ما أمر به الشرع، هذا المعروف؛ لأن ما أمر به الشرع قد أقرَّه الشرع، وأقرَّته الفِطَر السليمة، فالمعروف إذن كل ما أُمِر به شرعًا، سواء ما يتعلق بحق الله أو بحق العباد.

وقوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المنكر: كل ما أنكره الشرع أو نهى عنه، سواء ما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق العباد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هو واجب عيني، أو هو واجب على الكفاية؟ واجب على الكفاية، لقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إذا جعلنا (من) للتبعيض، أما إذا جعلنا (من) لبيان الجنس، فالمعنى: ولتكونوا أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فإنه يكون فرض عين، ولكن الصواب: أنه فرض كفاية، وأن المقصود به: إصلاح الغير فإذا حصل إصلاح الغير بغيرك حصل المقصود، أما إذا لم يحصل فإنه يجب أن تأمر، فإذا وجدنا تهاونًا من الناس في هذا الأمر وتكاسلًا صار فرضًا علينا، أما إذا رأينا أن الناس قد استقاموا على هذا، وصاروا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فإنه يكون في حقنا فرض كفاية.

وقوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ حتى والديك تأمرهما بالمعروف، وتنهاهما عن المنكر؛ بل إن حق الوالدين أعلى من حق غيرهما؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحسان للمأمور والمنهي وليس إساءة، فإذا كان كذلك فأحق من تحسن إليه والداك.

ذكرنا فيما سبق أن المراتب ثلاث: بيان ودعوة، وأمر ونهي، وتغيير، فالبيان والدعوة واجبان

على كل أحد، كل أحد يجب عليه أن يُبيِّن إذا دعت الحاجة إلى البيان، أو سُئِل عن العلم، وكل واحد عليه أن يُبلِّغ إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك، وأما الأمر فهو أخص من الدعوة؛ لأن الأمر أن توجِّه أمرًا إلى شخص معين، فالبيان أن تقوم في الناس وتقول: هذا حلال، وهذا حرام، هذا يعتبر موعظة، وأما التغيير فأن تغيِّر بيدك، تأخذ هذا المنكر تكسِّره مثلًا، أو تقول بلسانك إن عجزت عن الفعل تغيِّر باللسان، إما برفع الأمر لمن يستطيع التغيير، وإما بالانتهار والتوبيخ والزجر حتى يحصل التغيير، فإن لم يحصل لا هذا ولا هذا فيكون التغيير بالقلب، وهو الكراهة، وهذا في الحقيقة ما يحصل التغيير المطلق؛ يعني: بمعنى: أن المنكر لا يتغيَّر بقلبك لا يزول، لكن هذا أدنى درجات التغيير، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عن ذلك: «وَهَذَا أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(١).

ومن الشروط أيضًا: أن لا يخشى ضررًا محقَّقًا، لو خشي ضررًا في ماله أو بدنه لم يلزَمه، فإن خشي الأذيَّة لزِمَه؛ لأنه لابد من أذية، لكن أذية ما فيها ضرر، ولهذا قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ هذا تمهيد، كأنه يقول له: إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر فلابد أن يحصل لك أذية فاصبر على هذا، وهذا هو الواقع، فإن الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر غالبًا يؤذى، إما بالقول، وإما بالسخرية، وربما تصل الحال أن يرموه بالحجارة أحيانًا، وربما تحصل الحال إلى أن يُخرِّبوا سيارته، أو يكسروا بابه، أو ما أشبه ذلك، لكن الأخير هذا ضرر بالمال، ولكن لا بد أن يكون أمرًا محقَّقًا، أما إذا كان وهمًا عن الضرر فليس بشيء.

وقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الأمور الأربعة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [أي: معزوماتها التي يُعزَم عليها لوجوبها] ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ بمعنى: الشئون والأخبار، والعزم هنا مصدر بمعنى: اسم المفعول؛ أي: معزوماتها التي يعزم عليها؛ لأنها واجبة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تحريم طاعة الوالدين إذا أمرَا بالشرك، لقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ويُقاسُ على ذلك: كل معصية أمرا بها فإنهما لا يطاعا، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»(٢).

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن فسوق الوالدين وكفرهما لا يسقط حقهما من البر، من قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فإنه أمر بمصاحبتهما معروفًا مع أنهما كافرين، ويأمران

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (٣٩/ ١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بالكفر.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب اتباع سبيل المؤمنين، لقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم مرجعهم إلى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الحكم بين الخلق إلى الله، لقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فإن تقديم الخبر يدل على الحصر.

٦- **ومنها:** إحاطة الله تعالى بكل شيء علمًا، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن الإنباء بما نعمل لا يكون إلا عن علم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الكلام لله، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ والإنباء: إخبار.

٨- **ومن فوائدها أيضًا:** تحذير الإنسان من الأعمال السيئة، فإن قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ يفيد التحذير، حتى لا نقع في أمر حرمه الله علينا.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: بلوغ الغاية في البلاغة في القرآن الكريم، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقل: فأجازيكم، وذلك أنه قد يُنبَّأ الإنسان أحيانًا بما عمِلَ، ثم يُغفَر له، فذكر الله الإنباء؛ لأنه مؤكَّد، أما المجازاة فإن الله تعالى قد يغفر عن المذنب بذنوبه.

وهل يؤخذ من الآية الكريمة: وجوب طاعة الوالدين في غير معصية الله؟ الآية سكتت عن ذلك، حرَّمت الطاعة في المعصية، وسكتت عما عدا ذلك، لكن قد يقال: إن قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يدل على وجوب طاعتهما في غير معصية؛ لأنه لا شك أن مصاحبتهما بالمعروف امتثال أمرهما، وعلى هذا فقد يُستدلُّ بعموم قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على وجوب طاعتهما في غير معصية، ولكنه سبق لنا أثناء التفسير أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: تجب طاعتهما فيما فيه نفع لهما ولا ضرر عليه فيه، أما ما فيه ضرر عليه فلا يجب عليه الطاعة، ولهذا لما ذكر أهل العلم أن للأب أن يتملَّك من مال ولده ما شاء، قالوا: بشرط ألَّا يضرَّ الولد، فإن ضرَّ الولد فإنه ليس له أن يتملَّكه؛ بل قالوا: بشرط ألَّا يضره وألَّا تتعلق به حاجته، فإن تعلَّقت به حاجته فليس له أن يتملَّكه، وحاجته هنا حاجته الخاصة؛ بمعنى: أنه مثلًا ما يجد غيره، لكن سريَّة يحتاجها ما نقول للأب: أنت تتملَّكها؛ لأن هذا يُفوِّت على الابن حاجته واستمتاعه بها.

ثم يقال أيضًا: لكل مقام مقال، فمثلًا: إذا كان الوالدان يتبجَّحان بالكفر ويفتخران به، فلنا أن نعلن هذه البراءة والعداوة والبغضاء، وإذا كانا ساكتَين مُسالِمَين فنحن لا نتعرَّض لهما، ولكن نتبرَّأ على صفة العموم مما هما عليه من الدين، وهنا يقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ أما فيما يتعلق

بالدين فلا تصاحبهما معروفًا أبدًا، فما يتعلق بالدين يجب أن تبتعد عنهما وتعاديهما.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾.

١- من فوائد الآية: أن فيها تحذير الابن من المخالفة، لقوله: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ فلا تخفى عليه ولا تفوته.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علم الله عز وجل وتمام قدرته، من أين نأخذ العموم؟ لأنه يقول: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والذي يكون باديًا عن الأرض وليس في الصخرات من باب أولى، فيُستفاد منه: عموم علم الله وإحاطته وتمام قدرته أيضًا وذلك بالإتيان بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ وإثبات ما تضمناه من الصفة.

٤- **ومن فوائدها:** أن السموات متعددة، لقوله: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعددها معروف وهي سبع، وأما الأرض فلم تذكر مجموعة في القرآن، كل ما في القرآن من ذكر الأرض فإنه بالإفراد، ولكن الله تعالى أشار إلى أنها جمع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن قوله: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ يُراد المثلية في العدد؛ إذ إن المثلية في الكيفية مستحيلة، فلزمَ أن تكون مثلية في العدد فقط.

ثم قال تعالى من بقية وصايا لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن ينبغي للآباء أن يوصوا أبناءهم بهذه الخصال الأربع: إقام الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الصبر على ما أصابهم.

٢- **ومن فوائدها:** أهمية الصلاة؛ حيث بدأ بها قبل هذا كله ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** توقُّع العداء على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأنه لما قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أعقبه بقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن هذه الأشياء واجبة، لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ؛ لأن عزم بمعنى: معزوم؛ أي: موجَب، والأمور: الشئون.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للأب أن يقرن موعظته بالترغيب والترهيب، فإن قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تأكيد يحتم على الابن أن يقوم بهذه الوصايا الأربع.

٦- في كل هذه الوصايا: (يا بني، يا بني) يُؤخذ منها: تلطف الإنسان في مخاطبة ابنه، لاسيما في مقام الموعظة.

ويتفرَّع على هذا أيضًا: بيان سوء معاملة بعض الآباء؛ إذا أراد أن يعِظ ابنه أمره بالعنف والشدة وهذا خطأ، لقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»(١) فأنت إذا آمنت بهذا الشيء فإنك سوف تتعامل بالرفق؛ لأن الرسول أخبر أن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فإذا كان يحصل لك مقصودك بالعنف، فإن حصوله بالرفق من باب أَولَى، وعلى هذا فينبغي الرفق في الأمور، لاسيما في مقام الوعظ لهؤلاء الأبناء الذين لا يفيقون علمًا لما هم عليه، أما المعاند والمستكبر فهذا له حال أخرى، لكن كلامنا في مقام الدعوة وفي مقام التوجيه والإرشاد فإنه ينبغي التلطف وعدم العنف.



قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٨، ١٩]

التفسير

﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ فهي إذن من وصايا لقمان لابنه، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ [وفي قراءة: (تُصاعِر)] ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول المؤلف: [لا تُمِلْ وجهك عنهم تكبُّرًا] التصعير: هو الإمالة، ومنه الصَّعَر في الوجه، وهو المراد؛ بحيث تكون العنق ملتوية تميل إما يمينًا وإما شمالًا، وقوله: ﴿خَدَّكَ﴾ أي: وجهك، فهو من إطلاق البعض وإرادة الكل.

وقول المؤلف: [تكبُّرًا] نعم، هذا محط النهي، أن يفعل ذلك على سبيل التكبر، أما لو فعله على سبيل الإعراض عما لا يجوز النظر إليه، فمال وأعرض فإنه لا يدخل في الآية؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وأما إذا صعَّرت وجهي أو خدي لأجل ألَّا أرى شيئًا محرمًا فإنه لا يدخل في هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ اللام هنا هل هي للاختصاص على أصلها، أو أنها بمعنى: عن؟ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: عنهم، وتميل عنهم تكبُّرًا، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عام يشمل المؤمن والكافر، ولكن الكافر لا يعامَل كما يعامَل المؤمن في مثل هذه الأمور، وقد يقال: إن شرعنا ورد بخلافهم، وأن الكافر يُصعَّر له الخد، ويعرَض عنه، وقد يقال: إن الكافر إذا جاءك مقبلًا فأقبل عليه، فإن هذا من باب التأليف على الإسلام، وأما إذا أعرَض فأعرِض.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ هذا مجزوم بحذف الياء، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض، ﴿مَرَحًا﴾ قال المؤلف: [أي: خيلاء] المرح: بمعنى: البطر والأشر، والخيلاء من ذلك، فلا تكون متبخترًا في مشيتك، متعاليًا في نفسك، ولكن امش مشية المُتذلِّل الخاضع لله عز وجل الغير متعالٍ على عباد الله.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٣/٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ذكر هنا ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فالأول في معاملة الناس ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، والثاني: في هيئته في نفسه ألَّا يمشي في الأرض مرحًا، وإنما يمشيَ كما يمشي عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلامًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إن الله لا يحب كل مختالٍ متبخترٍ في مشيه، فخور على الناس ﴿مُخْتَالٍ﴾ أي: فاعل للخيلاء، و﴿فَخُورٍ﴾ أي: مفتخر بنفسه، والفرق بينهما: أن الاختيال يكون بالنفس، والفخر يكون بالقول، فهذا الرجل عنده خيلاء في نفسه، واختيال على عباد الله، وعنده فخر بلسانه يفخر بنفسه، ويقول: أنا فلان بن فلان، فيمتدح نفسه، ولكن هذا -كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد- ما لم يكن في الحرب، فإن كان في الحرب فلا بأس أن يفخر الإنسان، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ»(١)، ورأى بعض أصحابه يمشي مشية المتبختر، فقال: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوطِنِ»(٢)، ففي باب الحرب يجوز للإنسان أن نفتخر ويجوز أن يتعاظم بنفسه؛ لأنه أمام أعداء الله الذين ينبغي إذلالهم.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [توسط فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينة والوقار] ﴿وَاغْضُضْ﴾ [اخفض] ﴿مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ [أقبحها] ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [أوّله زفير، وآخره شهيق].

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ القصد معناه: الوسط في الأمور، القصد في الأمور معناه: أن الإنسان يكون وسطًا في مشيه بين الذي يمشي مسرعًا والذي يمشي مُتباطئًا، والقصد في كل شيء: الوسط، ولهذا ورد في الدعاء المأثور: «وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى»(٣) معنى القصد: التوسُّط في الأمور ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [توسط فيه بين الدبيب والإسراع، وعليك السكينة والوقار] يعني: لا تدبُّ دبيبًا وأنت تمشي، ولا تسرع سرعةً تُخِلُّ بالمروءة، ولكن ليكن مشيك وسطًا بين هذا وهذا دالًّا على القوة وعلى النشاط، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل في مشيه.

﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (من) هذه للتبعيض، ما قال: اغضض صوتك؛ بل قال: ﴿مِن﴾؛ وذلك لأن الإنسان لا يُحمَد على رفع الصوت جدًّا، ولا على خفضه جدًّا، والناس منهم من يكون عالي الصوت إذا دنى تكلم وإذا هو كأنما يتكلم مع جماعة بعيدين، ومن الناس من يكون بالعكس يكلمك ربما لا تفهم منه إلا الكلمة بعد الكلمة، كل هذا ليس بجيد؛ ولهذا قال: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ ولم يقل: اغضضه كله، فلا ينبغي هذا ولا هذا؛ بل يكون أيضًا قصدًا بين رفع الصوت والإخفات.

وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ المراد: عند المخاطبة، ثم إن (من) هنا تفيد التبعيض في الكيفية، وكذلك في الكمية، في بعض الأحيان يكون الأفضل أن ترفع صوتك؛ أليس كذلك؟ افرض أنك تنادي قومًا بعيدين مترامي الأطراف، تريد أن تحثهم على القتال أو ما أشبه ذلك، يجوز رفع الصوت أو لا؟ يجوز،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (٧٨/ ١٧٧٦) من حديث البراء ﵁.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في سيرته (٤/ ١٣) وفي سنده جهالة.

(٣) صحيح: أخرجه النسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر ﵁ وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

ولهذا العباس بن عبد المطلب في غزوة ثقيف لما انصرف الناس أمره النبي عليه الصلاة والسلام أن ينادي، فقال بأعلى صوته: يا أهل الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة [1]، بأعلى صوته، وهذا لا شك أنه ليس غضًّا من الصوت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ فصار الغض من الصوت باعتبار الكميات وباعتبار الكيفية، كيف ذلك؟ إذا كنت تخاطب من إلى جانبك لا ترفع الصوت ولا تخفضه بحيث لا يسمع، هذا باعتبار الكيفية، باعتبار الكمية؛ يعني: أحيانًا ربما تضطر إلى رفع الصوت، ولهذا قال: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يعني: أحيانًا، ففي بعض الأحيان تستدعي الحال أن ترفع صوتك بقدر ما تُسمِع.

ثم علَّل سبحانه وتعالى، أو يكون من كلام لقمان؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام لقمان؛ لأنه الأصل، ويحتمل أن يكون من كلام الله ختم الله به الآية، فقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ يعني: أقبحها وأبشعها، وليس أعلاها، لكن أنكرها؛ لأنه يوجد في الحيوانات ما هو أعلى من صوت الحمار، لكن في القبح ليس فيه أقبح من صوت الحمير.

وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ الجملة هذه مؤكدة بمؤكدين، وهي: إن، واللام، ووجه ذلك ما ذكره المؤلف: أن أوله زفير، وآخره شهيق، ما الفرق بين الشهيق والزفير؟ الشهيق: يكون باطنًا في الصدر، والزفير: يكون خارجًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال في آية أخرى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧] فذكر الله تعالى للنار شهيق وزفير، كما أن لساكنيها أيضًا زفيرًا وشهيقًا.

انتهت الوصايا النافعة التي هي من الحكمة التي آتاها الله تعالى لقمان.

الفوائد:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** ذم هاتين الخصلتين: تصعير الخد للناس تكبُّرًا وتعاظمًا، والمشي في الأرض مرحًا، وقد دلَّت الآيات الأخرى على أنهما من المحرمات، كما في سورة الإسراء.

٢- **ويستفاد من هذه الآية أيضًا:** أنه ينبغي للإنسان عند محادثة غيره أن يكون مقبلًا إليه بوجهه؛ لأن النهي عن تصعير الخد يدل على الأمر بضده، فيكون مقبلًا بوجهه.

٣- ويستفاد منها: أنه ينبغي في المشي أن يكون كما قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الله يحب، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ووجه الدلالة: أن نفي محبة الله لهؤلاء يدل على ثبوتها لغيرهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الاختيال والفخر؛ لأن الله نفى محبته لهما، وقد سبق الفرق بين الاختيال والفخر؛ الفخر بالقول والاختيال بالفعل.

---

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٦٧) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وسنده صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يكون مشيه قصدًا لا إسراعًا مخلًّا، ولا دبيبًا متباطئًا، فالإسراع الذي يسبب التهوُّر والعجلة والطيش مذموم، والتباطؤ والدبيب مذموم، فيستفاد منه: أن يكون الإنسان في مشيه قصدًا بين الإسراع والتباطؤ.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن يقال: إذا كان هذا في المشي الحسِّي، فليكن كذلك في المشي المعنوي، من الآداب والأخلاق، لا ينبغي أن يسرع الإنسان سرعة مخلة، ولا أن يتباطأ تباطئًا يفوِّت المقصود، أما الإسراع إلى الخير فقد أمر الله به، ولكنه لا يتجاوز الحد؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا سَمِعْتُمُ الأَذَانَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا»[1].

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أنه ينبغي للإنسان أن يغضَّ من صوته، لقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وذكرنا أنه يشمل الكمية والكيفية، وأنه في بعض الأحيان ينبغي رفع الصوت، كما في الأذان والخطبة، وما أشبهها.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن رفع الصوت في غير محلِّه محرم، لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فإن هذا التشبيه يقتضي التنفير منه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ»[2].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم أصوات الحمير، لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وهل يؤخذ منها: أن للجار أن يطالب جاره إذا كان عنده حمار نهَّاق مزعج، ببيعه، أو لا؟ نعم؛ له أن يطالب بذلك، إذا كان نهيقه غير معتاد؛ لأن بعض الحمير كثير النهيق، فعلى هذا له أن يُطالِب، مثل ما قال الفقهاء رحمهم الله: إن له أن يمنعه من الرحاء التي يطحن بها دائمًا، كل ما يؤذي الجار فلجاره أن يمنعه منه، فإذا كانت قد وصفت أنه منكر بأنه أنكر الأصوات، فإن له أن يُطالب، فيقول: بعْ هذا الحمار، وإلا اجعله في محل آخر حتى لا أتأذى به.

٦- **ويستفاد من الآية السابقة من وصايا لقمان:** ما أعطاه الله تعالى من الحِكَم، فإن كل ما أوصى به ابنه كله حكم موافق للعقل، والشرع أيضًا يؤيده.

٧- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الله عز وجل إذا قصَّ علينا نبأ أحد، فإن كان ذلك خيرًا فإنه يريد منا أن نفعله، وإن كان غير ذلك فإنه يريد منا أن نتجنَّبه، لما قص علينا قصة قارون، وذكر الله قول قومه له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٦- ٧٨] قص ذلك علينا لنحذر ونخاف، ولأجل ألَّا نسكت على من رأيناه يُفسِد في الأرض، وهنا قص علينا قصة لقمان من أجل أن نعتبر بهذه الحِكَم، وأن نقتدي به في نصيحة أبنائنا وأهلينا.



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ
النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)
۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٠-٢٥]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله تعالى مقرِّرًا ما أنعم الله به على عباده: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ [تعلموا يا مخاطَبين] ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [من الشمس والقمر والنجوم لتنتفعوا بها] ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من الثمار، والأنهار، والدواب] ﴿وَأَسْبَغَ﴾ [أوسع وأتَمَّ] ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ [وهي حُسن الصورة، وتسوية الأعضاء، وغير ذلك] ﴿وَبَاطِنَةً﴾ [وهي المعرفة، وغيرها].

يقرِّر الله تعالى في هذه الآية ما أنعم الله به على العباد، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وإنما قلت: يُقرِّر؛ لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على (لم) أفادت التقرير، فينقلب الفعل المضارع إلى مؤوَّل بماضٍ، مؤكَّد بقد، فمثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رأيتم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا لك صدرك، فيكون معنى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رأيتم، ولهذا في سورة ألم نشرح لك صدرك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وبعدها ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فعطف فعلًا ماضيًا على ما سبق؛ لأن ما قبله ما هو فعل ماض.

وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ سخر بمعنى: ذلل، ذللها لكم أي: لمصالحكم ومنافعكم ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قال المؤلف: [من الشمس والقمر والنجوم] وهذا على سبيل التمثيل، وإلا فإنه سخر لنا أيضًا الرياح، وهي بين السماء والأرض، وسخر لنا السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فهو لكل ما سخره الله تعالى، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من الثمار والأنهار والدواب] وغيرها أيضًا حتى المعادن وغيرها سخرها الله لنا وذلَّلها لنا، كل ما في الأرض مسخر مذلل، لكن بعضه مسخر بطبيعته، وبعضهم مسخر بواسطة، فالحديد والمعادن وما أشبهها مسخرة لكنها بواسطة، والدواب والأنهار والأشجار مسخرة بدون واسطة، يجدها الإنسان مهيأة كاملة.

وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ فسرها المؤلف بأمرين: بالسعة، والإتمام، أي: أوسع، وأتم، ومنه: إسباغ الوضوء

على المكاره؛ يعني: إتمام الوضوء، فمعنى أسبغ؛ يعني: أوسع وأتم، أما أتم فمثالها ما ذكرت: إسباغ الوضوء على المكاره، وأما أوسع فمنه قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعًا سابغات واسعة، ومنه أيضًا قولهم: ثوب سابغ؛ يعني: واسع، فيدخل فيه الإتمام أيضًا، فالمهم أن الإسباغ يتناول شيئين: إتمام الشيء، والثاني: توسيعه، والنعم التي أنعم الله بها علينا شاملة للأمرين؛ فهي واسعة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وهي أيضًا تامة ليس فيها نقص، كل ما يحتاجه الإنسان في حياته؛ بل كل ما يحتاجه في دينه فإن الله قد أتمّه والحمد لله.

وقوله: ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فسَّر المؤلف الظهور بأنها الحسية الظاهرة، والباطنة [هي المعرفة، وغيرها].

النعم جعلها الله تعالى ظاهرة وباطنة، ظاهرة للعيان، وذكر المؤلف من الظاهرة: حسن الصورة، واستقامة الخلق، وما أشبه ذلك، والباطنة يقول: هي المعرفة، فهو في القلب هذا معلوم، وهذا لا شك أنه تفسير ناقص جدًّا، والظاهرة الصواب أنها أعم من ذلك، فالنعم إما ظاهرة لكل أحد، وإما باطنة لا يعلمها إلا الإنسان، هذا واحد، وإما ظاهرة أيضًا؛ بحيث كل يعرف أنها نعمة، وباطنة بحيث لا يرى أنها نعمة إلا من آثارها؛ يعني: بعض الأشياء حين وجودها لا تظن أنها نعمة لكن إذا عرفت آثارها وجدت أنها نعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن الإنسان أحيانًا يصيبه ما يصيبه من قضاء الله وقدره فلا يرى أنها نعمة حتى يعرف آثارها فيما بعد، والمهم أن النعم - والحمد لله - ظاهرة بيِّنة للعيان عامة شاملة للخلق، وشيء باطن لا يعرفه إلا من أنعم الله به عليه، أيضًا شيء واضح ظاهر أنه نعمة، وشيء باطن لا يتبين أنه نعمة إلا فيما بعد.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ (من) للتبعيض، وقد اختلف المُعرِبون في (من) التبعيضية هل هي اسم بمعنى: بعض، أو أنها حرفٌ دالٌّ على هذا المعنى؟ وعلى هذا الاختلاف ينبني الاختلاف في الإعراب؛ فإذا قلنا: (من) اسم بمعنى (بعض)، فإننا نقول: من مبتدأ، و (من يجادل) خبرها، وإذا قلنا: إنها حرف، فإن (من) حرف جر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و (من يجادل) مبتدأ مؤخر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ قال المؤلف: [أي أهل مكة] بناءً على قاعدته رَحِمَهُ اللهُ، أن كل السور المكية يحمل فيها العموم في مثل هذا السياق على الخصوص، وهم: أهل مكة، والصواب: أن ذلك عام؛ يعني: من الناس من أهل مكة وغيرهم.

﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المجادلة: مأخوذة من الجدْل، وهو فتل الحبل بإحكامه، ومنه: ما يسمى جدال المرأة؛ أي: فتل رأسها وإحكامها، وهذا معناها في اللغة، لكنها في الاصطلاح المجادلة هي: الممانعة؛ بمعنى: أن كل واحد من المتناظرَيْن يُحكِم الحجة من أجل إفحام خصمه، فهي إذن إحكام الحجة لإفحام الخصم وتعجيزه، والمجادلة إن كانت بعلم وحكمة فهي ممدوحة بلا شك، وقد تكون واجبة أحيانًا، كما

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإن كانت بغير علم فإنها مذمومة، فمن يجادل لإيراد الحُجَج والعلل الواهية لإفحام خصمه ونصر قوله ولو بالباطل، فهذا من الأمور المنكرة المحرمة ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ يقول: [أي: أهل مكة] ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ هل المراد في ذاته سبحانه وتعالى، أو المراد في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، أو أحكامه وأفعاله؟ الجواب: يشمل كل هذا، فمن الناس من يجادل في ذات الله، وينكر وجود الله وحده، ويجادل في هذا، ومن الناس من يجادل في وحدانيته، يُقِرُّ به لكن ينكر الوحدانية، ومن الناس من يجادل في ألوهيته؛ أي: في تفرده بالألوهية، ومن الناس من يجادل في أسمائه وصفاته، وأكثر ما وقع فيه الجدل بين المسلمين في باب الأسماء والصفات، لكن المسلمون الذين ينتسبون إلى الإسلام ويسمون أهل القبلة، هؤلاء كثُر الجدل بينهم في باب أسماء الله وصفاته كذلك من الناس من يجادل في أحكام الله، وما أكثر المجادلين في أحكام الله، تجده يجادل تقول: هذا الشيء حرام، ثم يأتي ويجادلك: أي شيء حرمه؟ وهات الدليل، وهذا الدليل منقوض، وهذا التعليل باطل، وهكذا بغير علم، أما إن كان بعلم فليس فيه ذم، لكن بغير علم.

كذلك من الناس من يجادل في أفعال الله - والعياذ بالله -، فيقول: لماذا أنعم الله على هؤلاء الكافرين بالنعم الكثيرة ومن المسلمين من هو في جهد شديد، ومرض وفقر وجهل، وما أشبه ذلك، هذا يجادل في أفعال الله، كذلك يجادل في أفعال الله في مسألة القدر، ويقول مثلًا: إما أن يكون الله قد قدَّر على الإنسان عمله أو لا، فإن كان قدَّر عليه عمله فكيف يعاقبه؟ وإن لم يقدر عليه عمله فمعنى ذلك: أن الإنسان مستقل به، فيكون منفردًا بالحوادث ومشاركًا لله فيها، وما أشبه هذا من الجدل الذي يكون بغير علم، ولهذا ينبغي للإنسان في مسائل الشرع وفي مسائل القدر أن يستسلم لما دل عليه الكتاب والسنة، وألَّا يجادل؛ لأنه إن فتح على نفسه باب الجدل ما يستقر له قدم أبدًا، ولهذا قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : إن المسائل العقلية ما لها دخل في الأمور القدرية، وأنا لو أردنا أن نُحكِّم كل هذه الأمور على العقل، فإن العقل قد يُجوِّز ما كان ممتنعًا شرعًا غاية الامتناع، كما أنه قد يمنع ما هو جائز، والمراد بالعقل: ما ادَّعى صاحبه أنه عقل، أما العقل الصحيح الصريح فإنه لابد أن يوافق النقل الصحيح، وإذا شئتم أن يتبيَّن لكم هذا فقرءوا كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية المسمى بكتاب «العقل والنقل» أو «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول».

ثانيًا: أن الجدل بابه واسع، والكلام هنا في المجادلة المذمومة، وهي المجادلة بغير علم بغير دليل، إذن ﴿في الله﴾ في ذاته، ربوبيته، ألوهيته، أسمائه وصفاته، أحكامه، أفعاله.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ يعني: ما عنده العلم ذاته، ولكن مكابرة ومعاندة، ﴿وَلَا هُدٗى﴾ [من رسول] يعني: ولا عنده اقتداء بغيره، فهو ليس عنده علم في نفسه يقتدي به، وليس عنده علم من غيره يهتدي به ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي: ولا كتاب منير [أنزله الله تعالى؛ بل بالتقليد]، هو ما عنده علم، ولا اهتداء بهدي رسول، ولا

كتاب أنزله الله فيهتدي به، إذن بماذا يجادل؟ يجادل بالباطل، وقال المؤلف: [بالتقليد]، لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الذي أوجب المؤلف أن يقول: [بل بالتقليد] يعني قال: لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿قِيلَ﴾ هذه مبنية للمجهول، فمن القائل؟ الله، الرسول، المؤمنون، كل هذا يمكن أن يكون، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، والنبي عليه الصلاة والسلام يحث الأمة على اتباعه، والمؤمنون كذلك يدعون الناس إلى اتباع ما أنزل الله، فيكون هنا حذف الفاعل لإرادة العموم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ هذا أعمُّ مما لو قال: وإذا قال الله لهم، أو وإذا قال لهم الرسول، أو وإذا قال لهم المؤمنون، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ يكون أشمل.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَآ﴾ مفعول ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، و ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ما المراد به؟ القرآن لا شك؛ لأن الله أنزله، والسنة ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] قال العلماء: الحكمة هي: السنة، إذن ما أنزل الله من القرآن، ومن السنة أيضًا؛ لأن السنة وحي، إن كان الله أوحاها إلى رسوله، وإلا فإقراره سبحانه وتعالى إيَّاها بمنزلة الوحي، لذلك قال العلماء: إن إقرار النبي ﷺ بمنزلة قوله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي أو الانتقالي؟ الإبطالي؛ يعني: بل لا نتبع ما أنزل الله، وإنما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، معارضة حق بباطل؛ لأنهم الآن عدلوا عمّا أنزل الله عز وجل إلى الآراء فقط والأهواء ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان شركًا؟ نعم، ولو كان طاعة؟ نعم، ولو كان طاعة، فيكون اتباعهم لما عليه آباؤهم لا لأنه شرع، ولكن لأن عليه آباءهم، وحينئذٍ فلا يكون اتباعهم آباءهم على هذه الحال اتباعًا للشرع، ولا اتباعًا محمودًا.

وعلى هذا فنقول فيمن دُعِيَ إلى الكتاب والسنة، وقال: أنا أريد أن أتبع فلانًا، الإمام الفلاني، أو العالم الفلاني مع بيان السنة ووضوحها، يكون مشابهًا لهؤلاء المشركين؟ نعم، يكون مشابهًا لهم.

قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ هذا استفهام يتلوه حرف عطف، وقد تقدم لنا مرارًا وتكرارًا بأن حرف العطف إذا وليَ الاستفهام، ففي إعرابه قولان: أحدهما: أن همزة الاستفهام دخلت على محذوف عُطِف عليه ما بعد حرف العطف، ويُقدَّر هذه المحذوف بحسب السياق، وعلى هذا فهمزة الاستفهام في مكانها، والمستفهَم عنه محذوف.

والقول الثاني: أن الواو حرف عطف والمعطوف عليه ما سبق، ومحل الهمزة بعد حرف العطف، وقلنا: إن هذا أهون من الأول، الأول أبلغ في التقعيد، وهذا أسهل، ووجه سهولته: أن الأول قد يخفى على الإنسان ماذا يُقدِّره، وربما يصعب أحيانًا تقدير شيء مناسب، وأما هذه فلا تحتاج إلى تقدير، تكون معطوفة على ما سبق، أما المؤلف فمشى على أي القولين [أيتبعونه ولو كان الشيطان]؟ على الأول؛ أن حرف الاستفهام دخل على شيء محذوف، وأن حرف العطف عاطف على ذلك الشيء المحذوف.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [أي: موجباته؟ لا] يقول الله عز وجل: أيتبعون آباءهم فيما أنزل الله حتى في هذه الحالة، وهو أن الشيطان يدعوهم، يدعوا آباءهم أو يدعوا هؤلاء؟ أظنها تشمل هؤلاء والآباء ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: إلى ما يوجب عذاب السعير؛ من أعمال الشرك والكفر، وغيرها.

الاستفهام ظاهر كلام المؤلف أنه للإنكار والنفي لقوله: [لا]، ولكنه للنفي فيه إشكال؛ لأنهم لا شك أنهم يتبعونه، أما للإنكار فنعم، يكون الله عز وجل أنكر عليهم أن يتبعوا آباءهم، والشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

وقوله: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو عذاب النار.

وقوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [موحِّد] ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (من) هذه شرطية، جوابها: قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾، وقُرِن الجواب بالفاء؛ لأنه اقترن بقد، والجواب يقترن بالفاء إذا كان أحد أمور سبعة:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّسْوِيفِ

وهذا اقترن بجوابه قد، فوجب أن يُقرَن بالفاء.

وقوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني معناه: ينقاد له تمام الانقياد؛ بحيث يُسلِمه إليه، وهذا غاية ما يكون من التذلُّل والتوكُّل ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: لله؛ لأن قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أبلغ؛ كأنه أعطاه الله عز وجل، وبلغ غايته في الوصول إلى الله.

وقوله: ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ المراد: وجهه؛ يعني: وجه قلبه، أو وجه بدنه؟ المراد: وجه قلبه؛ يعني: اتجاهه، فهو من الوجهة؛ أي: من يتجه إلى الله قصدًا وتوكُّلًا واعتمادًا.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الجملة هذه حالية، حال من فاعل يسلم؛ يعني: والحال أنه محسن، والمراد بالإحسان، يقول المؤلف: التوحيد، ولكن الصواب خلاف كلامه؛ لأن التوحيد مفهوم من قوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكن قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: محسن باتباع الشريعة شريعة الله عز وجل، فيكون في الآية إشارة إلى الركنين الأساسين في العبادة، وهما: الإخلاص والمتابعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: في اتباع الشريعة؛ يعني: متبع لشريعتهم على وجه الإحسان.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ بمعنى: تمسَّك، لكنها أتت بهذه الصيغة استفعل للمبالغة في التمسك؛ لأن استمسك بكذا أقوى من قولك: تمسَّكَ به؛ لأنهم يقولون: إن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فلما كثُرت حروف استمسك صارت أقوى في معناها من: تمسَّك.

وقوله: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه] الإنسان عندما يتمسَّك بالحبل، فتارة يتمسك به بطرفه وليس له عروة، وتارة يتمسَّك به بطرفه وهو معقود، وتارة يتمسَّك به بطرفه وهو مثنيٌّ كالعروة، أيهما أبلغ؟ العروة أبلغ؛ لأن الإنسان إذا

تمسك بطرفه ربما يسقط، وكذلك بطرفه معقودًا ما يتمكن كما يتمكن بطرفه إذا كان عروة، والوثقى مؤنث أوثق؛ يعني: العروة التي هي أوثق شيء، ولا ريب أن من أسلم وجهه لله وهو محسن فإنه سينجو من كل مكروه، ويفوز بكل مطلوب؛ لأن هذا هو الطريق الأمثل الذي يوصل إلى الله عز وجل، أن تسلم وجهك إليه وأنت محسن.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لما بيّن أن الذي يُسلِم وجهه إلى الله وهو محسن أنه مستمسك بالعروة الوثقى، وأن الإنسان في حال الإسلام إلى الله والإحسان قد يعتريه أمور يشك هل هو مستمسك بالعروة الوثقى أم لا؟ مثل: أن يتخلف عنه النصر في يوم من الأيام وما أشبه ذلك، فيخشى أن يكون على غير حق، فبيّن الله تعالى أن عاقبة الأمور إلى الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١] لأن الإنسان قد يقول: ما قيمة هذه الأشياء بالنسبة للقنابل والصواريخ، وما أشبه ذلك؟ فبيّن الله تعالى أن عاقبة الأمور لله، فأنت ما دمت قمت بأسباب النصر التي بيَّنها الله لك فلا يخدعنَّك ما أعطي أعداء الله تعالى من القوة المادية؛ لأن هذه القوة المادية تتضاءل بكلمة من الله عز وجل، إذا أراد الله عز وجل أن يخسف بهم جميعًا الأرض، أو يفسد عليهم معداتهم، قال: كن، فيكون، ولهذا أعقبها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ حتى لا يستبعد الإنسان نصر الله عز وجل بسبب ما أوتِي أعداؤه من القوة؛ لأن العاقبة لله عز وجل، هذه مثلها أيضًا، يُسلِم الإنسان وجهه إلى الله وهو محسن وينتابه بعد الآن شكوك، وهل هو على حق أو على غير حق، وهل هذا الاستمساك حقيقي أم لا، فبين الله تعالى أن عاقبة الأمور إلى الله، وأنك متى أسلمت وجهك إلى الله وأنت محسن فلابد أن تنجو.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (إلى) تفيد أي شيء؟ تفيد الغاية؛ يعني: غاية عاقبة الأمور إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يدبر الأمور كيف يشاء حتى تصل إلى ما يريد سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ جمع أمر، واحد الأمور؛ يعني: الشئون، كل الشئون الدينية والدنيوية، العامة والخاصة كلها عاقبتها إلى الله، هذا قسم من الناس الذي أسلم إلى الله وجهه وهو محسن.

الثاني: الكافر، قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [يا محمد] ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ [لا تهتم بكفره] ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى آخره.

قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ (من) هذه شرطية، وفعل الشرط كفر، وجوابه: قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ وقُرِن بالفاء؛ لأن الجملة اسمية.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذا عام من الأقارب والأباعد؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يحزن بكفر الكافرين، سواء كانوا أقارب له، أم أباعد.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ [يا محمد] أبان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ لمن؟

للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون موجهًا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكل من يصح خطابه ممن شأنه أن يحزن إذا كفر عباد الله، فيكون على هذا المعنى أعم مما قال المؤلف.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ما هو الحزن؟ الحزن هو: ضد السرور، وإذا قيل: حزن وخوف صار الحزن على الماضي والخوف في المستقبل، وقد يطلق الحزن على الخوف؛ كما في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] يعني: لا تحزن؛ أي: لا تخف فإن الله معنا، على أنه يحتمل أن المعنى: لا تحزن على ما فعلنا من اللجوء إلى هذا الغار، فيكون على بابه على الأصل.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ قال المؤلف: [لا تهتم بكفره] وظاهر كلامه: أن الحزن هنا بمعنى: الاهتمام بالشيء، لا يهمنَّك أمرهم، ولكن الحزن أخص من الاهتمام، فإبقاء الآية على ظاهرها، وهو أن الرسول يحزن إذا كفر الناس، وكذلك من كان ناصحًا لله ولرسوله يحزن إذا كفر الناس، أقول: إن حملها على ظاهرها أَولى، وفعلًا الإنسان الناصح يحزن إذا كفر الناس، يحزن لأمرين: أولًا: رحمة بهؤلاء الذين كفروا، والثاني: حزنًا على ما فات الإسلام من كثرة مُتَّبعيه؛ لأن كثرة متبعي الإسلام عز للإسلام؛ وما هو الدليل على أن الكثرة عزة من القرآن؟ في القرآن آيتان تدلان على أن الكثرة عزة؟ قال شعيب لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال تعالى ممتنًا على بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] فالكثرة عز بالدليل الشرعي والواقع، الآن الصين الشيوعية بالنسبة للقوة الصناعية ما تقارَن بالروس ولا بأمريكا، ومع ذلك يهابونها؛ لماذا؟ للكثرة، وأعداء المسلين الآن يحبِّذون المسلمين أن يقللوا النسل، فتارة يقولون: إذا كثَّرتم النسل ضاق الرزق، كقول الكفار الذين يقتلون أولادهم خشية الإملاق، وتارة يقولون: إذا كثرت الأولاد عجزتم عن تربيتهم إساءة ظن بالله عز وجل، وتارة يقولون: إذا كثر الحمل ضعفت المرأة ولحقها الضعف، وهذا لابد منه، لا بد أن تضعف المرأة، كما قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والحاصل: أن كثرة الأمم تكون عزًّا لهم.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جملة خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر ﴿إِلَيْنَا﴾ يعني: نحن إلى الله عز وجل، لا إلى غيره، وقوله: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مصدر ميمي، أي: رجوعهم إلى الله عز وجل لا إلى غيره، وهو الذي يحاسبهم على أفعالهم، ولهذا قال: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (ننبئهم) نخبرهم، وإذا أخبروا بذلك يُجازَون عليه؟ نعم، الكافر لابد أن يُجازَى على ذنبه، ولكنه يُجازَى بالعدل، ولهذا كانت النار دَرَكات بحسب جُرْم الكافرين، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

فقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي: نخبرهم على سبيل التوبيخ والإهانة، ثم نجازيهم بما يستحقون، قوله: (إلينا، فننبئهم) هذا ضمير جمع، لكن المراد به: التعظيم لا شك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا تكميل للتهديد؛ يعني: أن الله عليم بذات الصدور، وما هي ذات الصدور؟ ذات الصدور هي القلوب؛ لأنها فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فمعنى ذات الصدور؛ أي: صاحبة الصدور، وهي: القلوب، وقال: ذات الصدور، دون

القلوب؛ لأن ما كان داخل الصدر محجوب عن الخلق لا يعلمه إلا الله عز وجل، فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وفي قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليل على أن الكافر يحاسب على عمل القلب، وهو كذلك، فإن الكافر يحاسب عليه؛ لأنه لولا أنه يُحاسَب لم يكن في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبير فائدة.

ثم قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ يعني: نجعلهم يتمتعون، يأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما شاءوا، ويركبون ما شاءوا، ويسكنون ما شاءوا، ويتنعمون بكل نعيم الدنيا، ولكن هذا قليل، وقليل، وقليل، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] خير من الدنيا من أولها إلى آخرها، من الدنيا وما فيها، هؤلاء - والعياذ بالله - يتمتعون قليلًا، وما أقل الدنيا ومتاعها، كل ما مضى من الدنيا إلى ساعتنا هذه كأنه لم يكن، يعمر الإنسان فيها ما يعمر، ومع ذلك يوم يرون ما يوعدون كأن لم يلبثوا فيها إلا ساعة من نهار، فهم يمتعون قليلًا، والقلة هنا باعتبار نوع المتاع، وباعتبار زمنه، فنوع المتاع بالنسبة لما في الآخرة قليل أو كثير؟ قليل جدًّا، ولا يُنسَب، قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، كذلك بالنسبة للزمن، الزمن قليل؛ أليس كذلك؟ ولا يُنسَب أيضًا، لا يُنسَب إلى زمن الآخرة الأبدي ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى صفته هذا التمتيع، فقال جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، هذا صفة هذا التمتع، شهوانيين ليس لهم إلا شهوة البطن وشهوة الفرج، كما تفعل الأنعام تمامًا.

وقال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ يعني: بعد هذا التمتع القليل ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [وهو عذاب النار، لا يجدون عنه محيصًا].

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ يعني: نُلجِئهم، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] يعني: فمن أُلجِئ، وهذا أصله مأخوذ من الإلجاء إلى الضرر؛ لأن اضطر أصلها: نضطر، فلهذا كل شيء يُلجِئ الإنسان يسمى: ضرورة؛ لأنه يلجئه إلى هذا الشيء.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لأنهم هم لا يريدون النار ولا يريدون هذا العذاب، لكنهم يُجبَرون عليه والعياذ بالله؛ لأنهم عملوا أسبابه.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ [في الآخرة] ما المراد بالآخرة؛ هل ما بعد يوم القيامة، أو حتى القبر؟ حتى القبر، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر: كل أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كله من اليوم الآخر، فهم بعد هذا المتاع يلجئون إلى العذاب والعياذ بالله.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ﴾ العذاب: العقوبة، ﴿غَلِيظٍ﴾ يقول المؤلف: [إنه عذاب النار]، وأي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

شيء ضد الغليظ؟ ضده الرقيق، وغلظ عذاب النار في كيفيته وفي نوعه - والعياذ بالله -، أما الكيفية: فإن الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، ويقول فيما يُعذَّبون به: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] والعياذ بالله، هذا في كيفيته، أما نوعه فإنه لا يحصل ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥] إذا استغاثوا وماتوا من العطش وطلبوا الغوث، يغاثون بماء كالمهل، وهو: الرصاص المُذاب - والعياذ بالله - ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] إذا أقبل على الوجه شوى الوجه، فإذا نزل إلى الأمعاء ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ وأحيانًا يُسقون من ماءٍ صديد ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] هذا العذاب - والعياذ بالله - بأنواعه الشديدة العظيمة يستحق أن يوصف بأنه عذاب غليظ، ليس فيه رِقَّة؛ بل هو غليظ.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١] هكذا في القرآن؛ يعني: لا يجدون مفرًّا ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣] بل إنهم - والعياذ بالله - يأتون إليها وِردًا عِطاشًا وتمثَّل لهم كأنها سراب ماء، والعطشان إذا رأى الماء ولو كان سرابا يظنه ماء من شدة تلهفه إلى الماء، فيردونها على هذه الحال - والعياذ بالله - ويتساقطون فيها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ لام القسم، مقرون بماذا؟ بـ(إن) الشرطية، حُذِفَ جواب الشرط، أم جواب القسم؟ حُذِف جواب الشرط، وبقي جواب القسم، أين الجواب؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقد مر علينا قول ابن مالك:

واحْـذِفْ لَـدَى اجْـتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَـسَمِ جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَم

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو من يصح خطابه؟ يحتمل هذا وهذا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو صيغة السؤال، من خلق السموات والأرض؟ هل خلقها اللات، العُزَّى، مناة، هُبَل، من؟ الجواب: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هم يعترفون بأن خالق السموات والأرض هو الله عز وجل. وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسم، حُذِف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، والواو الثانية لالتقاء الساكنين، أصله (ليقولونَّ) لأن هذا فعل مضارع من الأفعال الخمسة لابد فيه من الواو والنون، فنقول: (ليقولون) وعند توكيد المعنى (ليقولونَّ) اجتمع عندنا الآن ثلاث نونات كلهم زيادات، إن حذفنا نون الرفع بقِيَت نون التوكيد، وإن حذفنا نون التوكيد بقيت نون الرفع، فأيهما نحذف؟ نحذف نون الرفع لسببين: السبب الأول: أن نون الرفع اعتِيد حذفُها فيما إذا كان الفعل منصوبًا أو مجزومًا؛ بل إنها قد تُحذَف في غير حالتي النصب والجزم؛ تحذف للتخفيف، كما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»، «لَا تَدْخُلُوا» هذه ما فيها ناصب ولا جازم حُذِفَت للتخفيف،

وأصلها: (لا تدخلون) فحذفت النون للتخفيف، وتحذف النون أيضًا مع نون الوقاية كثيرًا، إذن فهي أحق بالحذف، فتبقى نون التوكيد؛ لأننا لو حذفنا نون التوكيد فات المقصود، ونحن نريد أن نؤكِّد الفعل، وتأكيد الفعل هنا واجب، أم ليس بواجب؟ واجب؛ لأنه مُثْبَت بقسم مستقبل غير مفصول لم يُفصَل بين لامه وبين فعله فيكون توكيده واجبًا.

فإذن نُبقي النون، فإذا قالت نون الرفع: أبقونا جميعًا، (ليقولونن) نقول: ما يمكن؛ لأن نون الرفع زائدة، ونون التوكيد زائدة، فلا يمكن أن يجتمع عندنا ثلاثة حروف في مكان واحد، يمكن أن نتحمَّل حرفًا أو حرفين، إذن نقول: لابد من حذف نون الرفع، فهي أَولَى بالحذف، اجعل الواو مع نون التوكيد، الواو هنا ساكنة ونون التوكيد مشدَّدة، فالحرف الأول منها ساكن، اجتمع ساكنان ما يمكن أن يجتمع ساكنان، وما هو السبب؟ لأن السكون والحركة نقيضان، فلا يمكن أن يجتمع شيء ساكن وساكن، فإذن لابد من أن نعمل عملًا يمكِّنا من اجتماع الساكنَيْن، ما هو العمل؟ العمل: إن كان الحرف صحيحًا الذي قبل الساكن نكسِره، وإن كان الحرف غير صحيح حرف لين فإننا نحذفه، قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق ... وَإِنْ يَكُنْ لينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

فهنا الساكن الأول: الواو حرف لين أم صحيح؟ لين، إذن نحذفه، فتلتقي اللام مع النون (ليقولن)، فصار عندنا الآن في هذا الفعل حذفان: حذف النون لتوالي الأمثال، حذف واو الرفع لالتقاء الساكنين، وعلى هذا يقول المؤلف: [حُذِف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الضمير لالتقاء الساكنين].

ما إعراب قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾؟ فاعل لفعل محذوف، والتقدير: خلقهن الله، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ فذكر الله تعالى الفعل، فهنا المحذوف الفعل، هل يصح أن نقول: إن المحذوف اسم، والتقدير: هو الله؟ يصح ولكنه خلاف الأَولى؛ لأن السؤال مُعادٌ في الجواب، والسؤال بلفظ الفعل: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فيقتضي أن يكون الجواب كالسؤال بالفعل خلقهن.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: إذا أقرُّوا واعترفوا قل: الحمد لله، الحمد: مبتدأ، والله: خبره، الحمد لله على أي شيء؟ على ظهور بيان الحُجَّة، وظهور المحجَّة.

الآن هم اعترفوا بماذا؟ بأنهم على ضلال في شركهم، فالحمد لله هنا على بيان الحجة وإظهارها، وأنهم خُصِموا بذلك؛ لأنهم إذا اعترفوا وأقرُّوا أن خالق السموات و الأرض هو الله وأن هذه الأصنام لا تخلق، فقد أقرُّوا على أنفسهم بأن هذه الأصنام لا تستحقُّ العبادة، ولهذا قل: الحمد لله، كما أن الحمد هنا يمكن أن نقول مع ذلك: الحمد لله على خلق السموات والأرض، أنه يُحمَد على أنه الخالق عز وجل دون غيره، ويُحمَد على ما له من صفات الكمال، ومن جميل الأفعال.

يقول المؤلف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [على ظهور الحجة عليهم] (الحمد) تقدَّم لنا مرارًا وتكرارًا بأنه هو: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق والاختصاص،

الاستحقاق: بأنه هو المستحق للحمد، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»[١] ثانيًا: للاختصاص؛ لأن الذي يستحق الحمد المطلق هو الله عز وجل.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي، فهو انتقال مما سبق للتسجيل عليهم بالجهل التام، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وجوبه عليهم] يعني: التوحيد، وإنما نفى العلم عنهم؛ لماذا؟ لانتفاء فائدته، والشيء قد يُنفَى لانتفاء فائدته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٢١] يسمعون بآذانهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفى السمع عنهم لانتفاء فائدته بالنسبة إليهم، فقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى العلم عنهم وإن كانوا مُقرِّين بأن الله هو الخالق، لكنهم لم ينتفعوا بهذا العلم، وأيهما أشد قبحًا؛ جاهل لا يدري، وعالم لم ينتفع؟ الأخير أشد وأقبح؛ لأنه جاهل مركَّب، وذاك جاهل بسيط، ولأنه مُعانِدٌ مستكبر، وذاك غير معاند، والجهل المركب أشد قبحًا، والعناد عن علم أشد من العناد عن جهل، يقول الشاعر:

وَمَنْ رَامَ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... يَضِلَّ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ

وَتَلْتَبِسِ العُلُومَ عَلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الحَكِيمِ

توما جاهل مركب يسمونه: الحكيم، لكن بمجرد أنه سمى الحكيم، بدأ يفتي في كل شيء، حتى أفتى بأنه من تصدَّق على إنسان بابنته فإنه يدخل الجنة، ، قال:

تَصَدَّقَ بِالبَنَاتِ عَلَى رِجَالٍ ... يُرِيدُ بِذَاكَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

قال حمار الحكيم توما:

لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَبُ ... لأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ

فالحمار يقول: إنه جاهل بسيط، وصاحبه توما جاهل مركب، الجاهل هو الذي لا يدري أنه جاهل، هذا مركب، والبسيط الذي يعلم أنه جاهل، ويتضح بالمثال: لو قال لك قائل: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: لا أدري، فما يسمى هذا؟ يسمى جهل بسيط، الإنسان لا يدري وعرف أنه لا يدري، وقال رجل لآخر: متى كانت غزوة بدر؟ قال: الحمد لله الذي فتح على الجاهلين، كانت غزوة بدر في جمادى الآخرة في سنة تسع من الهجرة، الآن هو جاهل وهو لا يدري أنه جاهل، لذلك استفتح بقوله: الحمد لله الذي فتح على الجاهلين، فيقال: إنه ما فتح الله عليك؛ لأنك جاهل، مركب من جهلين: جهله بالواقع، وجهله بالحادث.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾.

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده بهذه النعم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٤/ ٤٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يحب أن يتنزَّه بما أسدى إلى عباده من النعم، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الله تعالى سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وهو ظاهر، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

٤- **ومنها:** جواز استخدام ما في هذا الكون في السموات والأرض لمصالحنا؛ لأنه مسخر لنا، فإذا كان مسخرًا فلنا أن ننتفع به بما أحل الله لنا، فلو قال قائل مثلا: هل لنا أن نأخذ المعادن الجارية والجامدة؟ نقول: نعم، هل لنا أن نحاول الصعود إلى الكواكب والنجوم لنرى ما فيها من الآيات، وكيف سخرت لنا؟ الجواب: نعم، ولكن على كل حال إذا كان هذا يكلف نفقات باهظة أكثر مما نستفيد منه، فإن الحكمة تقتضي ألا نفعله؛ لأن الآن هذه المحاولات يكون فيها من نفاد الأموال الشيء الكثير، فإذا قدر أن ما فيها من نفاد الأموال أكثر بأضعاف وأضعاف مما نستفيد منه فإن العقل يقتضي إلا نفعل؛ لأن هذا من السفه والتبذير، والإنسان العاقل لا يبذل المال إلا وهو يرى أنه ينتفع بأكثر مما بذل، أليس كذلك؟ لو فرض أنك بذلت مالًا قدره ألف ريال لتحصل على منفعة تساوي ألفي ريال، محمود هذا أو لا؟ نعم؛ وبالعكس لو أنك بذلت مالًا يبلغ ألفي ريال لتحصل على منفعة بقدر ألف ريال، هذا مذموم؛ لأنك الآن أضعت ألف ريال بدون فائدة، فيكون هذا من باب إضاعة المال والإسراف.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نعم الله عز وجل وافرة؛ يعني: كثيرة كاملة، لقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن نعم الله عز وجل نوعان: ظاهرة، وباطنة، سواء فسَّرنا الظاهرة بالأمور المحسوسة، والباطنة وبالأمور المعنوية، أو فسَّرنا الظاهرة لكل أحد، والباطنة التي لا يعرفها إلا صاحبها، أو فسَّرنا الظاهرة بما هو عام يعم جميع الناس في المطر والخصب، والباطنة بما دون ذلك، على كل حال النعم وافرة وسابغة من كل وجه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** ذم الجدل بغير برهان لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

٢- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الجدل بالعلم والهدى والدليل من القرآن أنه جدل لا يُذمُّ صاحبه؛ لأنه حق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمجادل أن يكون له دليل من العقل أو من النقل، لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهذا العلم الذاتي الذي يكون بطريق العقل، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العلم المكتسب، الهدى من الرسول، والكتاب المنير: القرآن.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء المجادلين ليس عندهم سوى التقليد،

لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم من خالف الحق لاتباع الآباء، لقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذا الحق ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم التقليد مع ظهور الحجة، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أيًّا كان المقلد إذا بانت الحجة فإنه لا تقليد، ولكن تُتَّبع الحجة.

٤- **ومن فوائدها:** أن التقليد يسمى اتباعًا، لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والمعروف المشهور بين أهل العلم: أن الاتباع يكون عن دليل، فيقال للرسول عليه الصلاة والسلام اتبعنا الرسول، والتقليد هو الذي يكون عن غير دليل، لكن هذه الآية تدل على أن كل من تابع أحدًا فهو متبع له.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء المخالفين كان عندهم علم بالحق، لقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فيكون هذا أشد في ذمهم.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: ظهور العصبية في هؤلاء، لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهذا تعصُّب للآباء، والتعصب للآباء والقبائل من شأن أهل الجاهلية.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مخالفة الدليل للتقليد من إجابة الشيطان، لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن مخالفة ما أنزل الله سبب لدخول النار، لقوله: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن وسوسة الشيطان التي يلقيها في قلب بني آدم من الدعوة، لقوله: ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ إذ إن الشيطان ليس يمثل أمامهم ويقول: اتبعوا كذا، ولكنه يوسوس في صدورهم حتى يتبعوه، وهكذا الشيطان يأمر بالشر.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر من وساوس الشيطان؛ لأن قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ هذا للتوبيخ والإنكار.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء يُوجِبُ العُقوبة فهو من تلبية طلب الشيطان، لقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فمثلًا لو أراد الإنسان أن يسرق، أو أن يزني، أو أن يشرب الخمر، أو أن يقتل نفسًا محرمة، فإن هذا من الشيطان وتلبية لطلبه؛ لأن الشيطان هو الذي يدعو إلى عذاب السعير.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الشيطان له عقل وإرادة وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] الشيطان له إرادة، وله تزيين، وله تلبيس، ولهذا يجب الحذر منه غاية الحذر.

١٣- **ومن فوائدها:** أن من دعا إلى ما يوجب العقاب فإنه شبيه بالشياطين؛ بل لنا أن نقول: إنه شيطان، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في الذي يُمانِع إذا منع من المرور بين يدي المصلي قال: «فَإِنَّ

أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** الفائدة العظيمة في الإخلاص والمتابعة؛ الإخلاص من قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾، والمتابعة من قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن من لم يكن كذلك فهو هالك لا متمسَّكَ له؛ لأنه رتَّب الاستمساك على هذَيْن: إسلام وجهه لله مع الإحسان، وعلى هذا فمن لم يأتِ بهما فليس له نجاة.

٣- **ومن فوائدها:** أن أوثق ما يستمسك به الإنسان للنجاة هو الإخلاص والمتابعة؛ لأن كلمة ﴿الْوُثْقَىٰ﴾ اسم تفضيل، فهي مثل أوثق في المذكر.

٤- **ومنها أيضًا:** فضيلة الإحسان، لقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقد سبق لنا أن الإحسان يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عواقب الأمور إلى الله عز وجل، فهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، وكم من إنسان يقدِّر، ولكن أمر الله يأتي على خلاف تقديره، والدليل قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه ينبغي لمن أسلم وجهه إلى الله وهو محسن أن يصبر؛ لأن العاقبة له، لا يتعجَّل، أو يستبعد الفرج، أو يستبعد النصر؛ لأن الأمور كلها ترجع إلى رب العزة سبحانه وتعالى.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يستطيع أن يُدبِّر في الكون، من أين تؤخذ؟ من تقديم الخبر الدال على الحصر.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزن لكفر من يكفر، لقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ فإن قال قائل: هذا ليس بصريح على ذلك، قلنا: إذا لم يكن صريحًا فإنه يدل على أن ذلك متوقَّع من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لو لم يكن موجودًا أو متوقَّعًا لكان النهي عنه لا فائدة منه، وقد قال الله عز وجل في آية أخرى ما يدل على أنه كان يحزن، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وما أشبه ذلك مما يدل على أن الرسول عليه الصلاة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩) ومسلم (٢٥٨/ ٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والسلام كان يحزن لكفرهم.

٢- **ومن فوائد هذه الآية المترتبة على ما ذكرنا:** شدة حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، لكونه يحزن لمن لا يؤمن، مع أن عدم إيمانه لا يضر الله ولا رسوله شيئًا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يحزن لكفر من كفر؛ لأن الأمر بيد الله، وكونك تحزن هذا مما يشغلك عما ينبغي أن تقوم به من العبادات الخاصة، أنت عليك أن تبذل وتنصح فإذا رأيت «هَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَوَامِّ»[1].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد الكافرين، لقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مرجع الخلائق إلى الله وحده، يستفاد من تقديم الخبر الدال على الحصر.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الكلام لله، لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٧- **ومنها:** أن كلامه سبحانه وتعالى بصوت مسموع، لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ لأن ما لا يُسمَع لا يكون فيه إنباء، فلا إنباء إلا بصوت مسموع، وهذا الصوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو أعظم وأجل، ولهذا إذا تكلَّم الله بالوحي صعق أهل السموات وارتجفت السموات، ومعلوم أن صوت أحد من الخلق لا يحدث منه هذا الشيء، ولكن الله عز وجل أعظم وأجل.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** التخويف من مخالفة الإنسان باطنًا، لقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإياك والمخالفة في الباطن، لا تقل: إنني لم أُظهِر ولا أحد يعلم، فإنه وإن لم يعلم الخلق فالله تعالى أعلم، مهما تكتم الشيء فإن الله تعالى يعلمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان مراقبة الله عز وجل دائمًا، لقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولهذا جاء في الحديث: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[2] لأنك إذا علمت بذلك وأيقنت به أوجب ذلك لك المراقبة مراقبة الله عز وجل، والرغبة إليه، وأن تكون همتك دائمًا في طلب ما يرضي الله سبحانه وتعالى، إذا كان الإنسان يؤمن بهذا الأمر وبمراقبة الله عز وجل لما في قلبه، فإنه لو هم بمعصية في أخفى ما يكون من الأرض فسيردعه ذلك الإيمان عن هذه المعصية، ولهذا حماية الإيمان بما يوجه إليه أعظم بكثير من حماية السلطات بما توجّه إليه؛ أليس كذلك؟ الشعب المؤمن ما يحتاج إلى مراقبة سلطات؛ لأنه يعلم أنه مراقَب من قِبَل من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لكن إذا ضعف

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤١) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

الإيمان احتاج إلى قوة السلطان، فإن ضعف الإيمان والسلطان فسدت الأديان والبلدان، فإذا اجتمعت القوتان: قوة الإيمان، وقوة السلطان فهذا هو الكمال، وإن ضعفا جميعًا فهذا هو الهلاك، وإن ضعُف أحدهما دون الآخر، ففيه حياة وموت.

ثم قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾، ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ الضمير يعود على الكافرين.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الكافر قد يُمتَّع في الدنيا أكثر مما يمتع المؤمن؛ أليس كذلك؟ قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ وهذا هو الواقع، فإن بعض الكفار يكون أشد تمتعًا في الدنيا من المؤمنين، ولكنه كما قال الله عز وجل: ﴿قَلِيلًا ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التمتع في الدنيا قليل في زمنه ونوعه، أما زمنه فظاهر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وأما نوعه فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عذاب الكفار عذاب غليظ، لقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

٤- **ومنها:** أن الكفار يُضطَرون ويُلجئون إلى دخول هذا العذاب، لقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾ واعلم أن هذا الاضطرار يكون عند خروج الروح، ويكون كذلك في الآخرة، أما عند خروج الروح فإنه قد ورد في حديث البراء الطويل أنه إذا حضر الموت إلى هؤلاء الكفار، وبُشِّرت روحه بالغضب من الله تعالى فإنها تتفرّق في البدن تتشبَّث فيه حتى ينتزعوها من البدن كما يُنزَعُ السَّفُّود من الصوف المبلول؛ يعني: بشدة، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ﴾ يدل هذا الأمر على أنهم كانوا أشِحَّاء في إخراجها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ إلى آخره، هذا معنى قوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾، وقال تعالى في الآخرة: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣] يُدعُّون بعنف حتى يدخلوها - والعياذ بالله -.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

١- **في هذه الآية الكريمة:** دليل على أن الكافرين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يُقرُّون بربوبية الله، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾.

٢- **وفيها:** أن هذا التوحيد لا ينفع من أقرَّ به؛ لأن هؤلاء المشركين انتفعوا بهذا الإقرار أم لا؟ لا؛ بل لابد من أن يُضافَ إليه: توحيد الألوهية، والأسماء والصفات.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن خالق السموات والأرض هو الله عز وجل، فإن قال قائل: هل المخلوق يخلق؟ نقول: لا، المخلوق لا يمكن أن يخلق، وخلق المخلوق إنما هو تحويل شيءٍ إلى

شيء، يجعل الخشب بابًا، ويجعل الحجر بيتًا، وما أشبه ذلك، لكن هل يخلق خشبة ليجعلها بابًا؟ لا، ولا يخلق حجرًا ليجعله بيتًا، فكل ما في الإنسان من مصنوعات ومبتكرات ومبتدعات إنما هو تغيير وتحويل من شيء إلى شيء، أما إيجاد ذوات الأشياء فهو إلى الله عز وجل، وبهذا يتبيَّن معنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلا فالإنسان يخلق، ولكن خلقه ليس معناه إبداع وإيجاد بعد عدم، ولكنه كما أقوله وأكرِّره حتى يتبيَّن لكم معنى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فأثبت أن مع الله خلقًا، لكن هذا الخلق ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تحويل وتغيير لبعض الأشياء حسب ما أعطاه الله تعالى من قدرة ذهنية وبدنية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن السماء متعددة، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بُيِّن في آية أخرى أن عددها سبع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٧].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن اعتراف الإنسان بالحق مما يُحمَد الله عليه، لقوله للرسول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإنه لا شك أن إقرار الإنسان واعترافه بالحق إظهار للحجة، وإذا ظهرت الحجة كان في ذلك من الثناء على الله ما هو خيرٌ لهم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر هؤلاء المعاندين والمشركين كانوا لا يعلمون؛ إما للجهل، وإما لعدم الانتفاع بعلمهم، لقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي تأكيد الكلام في موضع التأكيد لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ فأكَّد الله عز وجل أنه سيقولون ذلك لئلَّا يقول قائل: هل هؤلاء يُقِرُّون بتوحيد الربوبية أو لا يُقِرُّون؟ فبيَّن الله أنهم، يُقِرُّون به وأكَّد ذلك، حتى لا يقال: كيف يقرون بتوحيد الربوبية ثم ينكرون توحيد الألوهية؟



قال الله تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٦ - ٢٩].

التَّفْسِيرُ

الجملة هنا خبرية ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وفيها حصر، وطريقه: تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: لا لغيره؛ بل له وحده سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: من كان فيها، والأرض كذلك، وأتى بـ (ما) التي لغير العاقل؛ لأنه يُراد بها: ملك الذوات والصفات، وإذا أُريد ملك الذاوت الصفات أُتِيَ بـ (ما)؛ لأنها أكثر، فإن كل ذات لها صفة، وليست كل الذوات عاقلة؛ بل الدواب والبهائم وغيرها من قسم غير العاقل.

وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المؤلف: [ملكًا، وخلقًا، وعبيدًا] الملك يشمل ملك الذوات والتصرف في هذه الذوات، ولهذا قال: [وعبيدًا] والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة دون الخاصة؛ لأن العبودية الخاصة تختص بالطائعين الذين تذلَّلوا لله سبحانه وتعالى طاعةً بالمعنى الشرعي، وأما العبادة العامة فهي تشمل كل الخلق؛ لأن جميع الخلق متذلِّل لله عز وجل باعتبار القضاء والقدر، ما أحد يستطيع أن يُعارِض قضاء الله وقدره، لكن الكفار يستطيعون أن يعارضوا إن شاء الله، ولهذا عارضوا وأنكروا الشرع، واستكبروا عن الحق.

قال: [وعبيدًا، فلا يستحق العبادة فيهما غيره] في السموات والأرض ما يستحق العبادة إلا الله؛ لأنه بمقتضى العقل والفطرة أن المالك الخالق المُدبِّر يجب أن يكون هو المعبود، ولهذا يستدل الله عز وجل على وجوب العبادة بماذا؟ بالربوبية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ومر علينا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهذا ظاهر أن من له الخلق يجب أن تكون له العبادة وحده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [عن خلقه] ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ [المحمود في صنعه] الجملة هنا استئنافية لبيان ما لله عز وجل من هذين الاسمين، وما تضمَّناه من الصفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الضمير ضمير فصل، ولضمير الفصل ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التوكيد، الثانية: الحصر، والثالثة: التمييز بين الخبر والصفة، فإذا قلت: زيد الفاضل، فزيد مبتدأ، والفاضل يحتمل أن تكون صفة لزيد، وأن الخبر لم يأت بعد، وأن التقدير: زيد الفاضل محبوب مثلًا، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، يحتمل أن يكون صفة أو لا؟ لا، يكون خبرًا، ولهذا سمي ضمير فصل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ قال المؤلف: [عن خلقه]، وهو كذلك غني في نفسه، غني عن غيره، غني في نفسه لكثرة ما عنده؛ لأن كل شيء هو لله عز وجل وهذا تمام الغنى، وغنيٌّ عن خلقه فلا يحتاج إلى أحد، والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أما من سواه فإنه مُفتقِرٌ إلى الله عز وجل قبل كل شيء، ثم إن الناس بعضهم مُفتقِر بعضهم إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي

ﱫﭐ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﱪ [الزخرف: ٣٢] الناس بعضهم إلى بعض في حاجة؛ بل في ضرورة أحيانًا، والجميع إلى الله في حاجة وضرورة، أما الرب عز وجل فإنه في غنى عن غيره، كما أنه غني بنفسه أيضًا، إذن غناه يتضمن شيئين: الغنى الذاتي؛ بمعنى: كثرة ما يملكه سبحانه وتعالى؛ إذ كل شيء فهو ملكه، الثاني: الغنى عن الغير؛ بحيث لا يحتاج إلى أحد، وغيره محتاج إليه.

وقوله: ﱫﭐ ٱلۡحَمِيدُ ﱪ قال المؤلف: [المحمود في صنعه] فقصَّر في التفسير من وجهين: أولًا: قال: الحميد؛ بمعنى: المحمود، والصحيح: أنها بمعنى: المحمود والحامد، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله عز وجل، وهو كذلك محمود على كمال صفاته، وتمام إنعامه، محمودٌ على أمرين: على كمال صفاته، وعلى تمام إنعامه.

الوجه الثاني مما قصَّر فيه المؤلف: أنه قال: المحمود في صنعه، والصواب: أنه محمود في صنعه وفي شرعه أيضًا، فإن شرعه سبحانه وتعالى أكملِ الشرائع وأنفعها للعباد، ومن ثَمَّ للخلق طريقًا تستقيم به أمورهم، فهو أهل للحمد، الآن لو أن أحدًا دلَّك على طريق بلد في سفرٍ واحد من أسفارك تحمده أم لا؟ نعم، تحمده، فكيف بمن دلَّك على طريق الآخرة بكل ما تحتاج إليه، فالصواب: أن حميد بمعنى: حامد ومحمود، وحميد في صنعه، وفي شرعه، فصنعه الذي هو الخلق يُحمَد عليه سبحانه وتعالى؛ على إيجاده، وعلى إعداده، وعلى إمداده، وهو أيضًا محمود في شرعه يُحمَد عليه لما في شرعه من العدل، والحكمة، والرحمة التي لا نظير لها، وما أعظم الفائدة في اقتران الحميد بالغني؛ لأنه كما مرَّ علينا أسماء الله تعالى كلها حسنى وتدل على معنى أحسن، لكن قد يدلُّ الاسمان على صفة ثالثة حصلت باقترانهما، فالغنى مع الحمد يزداد كمالًا؛ لأنه قد يكون الغنيُّ غنيًّا ولكن غنى لا يُحمَد عليه؛ مثل: البخيل، فالبخيل الغني غني لكن لا يُحمَد على غناه؛ لأنه لا يُستفاد من ماله، وقد حرم نفسه من مصلحة ماله، لكن الله عز وجل له الغنى المقترِن بالحمد لكمال إحسانه على خلقه من هذا الغنى.

ثم قال عز وجل: ﱫﭐ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ ﱪ.

(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط محذوف؛ أي: ولو ثبت أنما في الأرض من شجرة إلخ، و(ما) اسم موصول بمعنى: الذي، وﱫﭐ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﱪ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول؛ يعني: لو أن الذي استقر في الأرض، وﱫﭐ مِن شَجَرَةٍ ﱪ جار ومجرور بيان لـ (ما) الاسم الموصول؛ لأن الاسم الموصول مُبهَم يحتاج إلى بيان، فـﱫﭐ مِن شَجَرَةٍ ﱪ بيان له؛ يعني: لو أنك تعرف من الشجر.

وقوله: ﱫﭐ أَقۡلَٰمٞ ﱪ خبر (أن)؛ يعني: ولو أن الذي في الأرض من الأشجار كان أقلامًا يُكتَب بها.

ﱫﭐ وَٱلۡبَحۡرُ ﱪ يقول: عطف على اسم (أن) ﱫﭐ وَٱلۡبَحۡرُ ﱪ، وفي قراءة (والبحرُ)، (والبحر) إذا كانت بالرفع فهي مبتدأ، قال ابن مالك:

وجائز رفعك معطوفًا على ... منصوب إنَّ بعد أن تستكملا

وألحقـــت بـــ (إنَّ) لكـــن وأن ....

قال: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ عطف على اسم إنَّ فتكون بالنصب، ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أين الخبر؟ الخبر محذوف، قدَّره المؤلف بقوله: [مدادًا] يعني: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، وما فيها من البحار مداد؛ يعني: حبرًا يُكتَب به، جواب الشرط: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المعبَّر بها عن معلوماته، نفد بمعنى: انتهى، ما نفِدَت كلمات الله الكونية والشرعية، السبب: لأنه سبحانه وتعالى لم يزَل ولا يزال متكلِّمًا، والخلق له بداية وله نهاية؟ لا، الخلق ما له نهاية؛ لأنه إذا دخل الناس الجنة أو النار، ماذا يكون؟ سرمدي أبدي، فإذن كل شيء يخلقه الله فإنه يخلقه بكلمة كن، فيكون، إذا كانت المخلوقات لا تنتهي، وكذلك أيضًا أفعال الله عز وجل في الأزل ما لها نهاية، فإنها لا يمكن أن تنفد أبدًا حتى لو فُرِضَ أن البحر ومن بعده سبعة أبحر تُمِدُّه، والشجر كل الشجر الذي في الأرض أقلام، وصار يُكتَب بها، فإن كلمات الله لا تنفد، ووجه ذلك واضح؛ لأن المخلوقات لا تنفد، وكل مخلوق فإنه يكون بالكلمة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] إذن يتبيَّن لنا وجه كون هذه الجملة الخبرية صدقًا محضًا، وهي صدق لا شك، كلمات الله خبر الله صدق، لكن قد يقول القائل: كيف وجه هذا ؟ نقول: هذا وجهه؛ إذ أن الإنسان قد يستعظم أن تكون البحار البحر المحيط ومن وراءه سبعة أبحر تكون مدادًا، وما في الأرض من شجرة أقلام يُكتَب به، ثم لا تنفد الكلمات، قد يستعظِم هذا الشيء ولكنه إذا عرف كمال قدرة الله وعظمته ما استعظم هذا.

وقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، قال: [المُعبَّر بها عن معلوماته بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد، ولو بأكثر من ذلك؛ لأن معلوماته تعالى غير متناهية] عفا الله عن المؤلف، هذا تحريف، عبَّر يقول: المراد بالكلمات: المعلومات معلومات الله؛ يعني: ما نفد ما يعلمه، لكن هذا تحريف ظاهر للقرآن، الله يقول: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ والكلمات تكتب، أما المعلومات فقد تكتب وقد لا تكتب، فهل كل المعلومات تكتبها؟ لكن كلماتك إذا أردت أن تعبر عنها للغير تنطق بها وتكتبها، فالمعنى: ما نفدت كلمات الله؛ أي: كلماته بالحق كلماته الحقيقية لو أُمليَت على أحد وصارت البحار مدادًا لها، والأشجار أقلامًا لها ما نفدت، ووجه ذلك ظاهر، وهذا يدل على عظمة الله عز وجل، وكمال قدرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [لا يعجزه شيء] ﴿حَكِيمٌ﴾ [لا يخرج شيءٌ عن علمه وحكمته] قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ يقول: [لا يعجزه شيء] وأحيانًا يُعبِّر المؤلف نفسه فيقول: عزيز لا يغلبه شيء؛ وذلك لأن العزة كما سبق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر ، والثاني: عزة القهر وهو الغلبة، والثالث: عزة الامتناع، وهي أنه سبحانه وتعالى لا يناله شيءٌ بسوءٍ أبدًا، ممتنع عن كل سوء لقوته سبحانه وتعالى، وأما قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو هنا قال: [لا يخرج شيء عن علمه وحكمته] ففسَّر الحكمة بالعلم، وقد سبق لنا أن الحكيم مشتقة من الحكم والحكمة، فهو حكيم لا يخرج عن ملكه شيء وحكمه، وحكيمٌ لا يخرج عن حكمته شيء، إذن هو حاكم مُحكِم، كلها تؤخذ من كلمة حكيم، وفي قَرْن العزيز بالحكيم فيها إثبات صفة ثالثة غير العزة

والحكمة، وهي: أن عزته عز وجل مقرونة بالحكمة، فتكون عزَّة أكمل، وتكون حكمة أكمل، وذلك أن العزيز من الخلق قد تأخذه العزة بالإثم، فلا يكون حكيمًا في تصرُّفه؛ أليس كذلك؟ بلى، لكن الله عز وجل عِزَّتُه مقرونةٌ بالحكمة لا يمكن أن تخرج أفعاله عن الحكمة التي هو موافقة الصواب.

ثم قال عز وجل مُبيِّنًا كمال قدرته بعد أن ذكر عموم ملكه وكمال كلماته، قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [خلقًا وبعثًا؛ لأنه بكلمة كن فيكون] يعني: معنى الخلق والبعث، ما خلقكم جميعًا إلا كنفس واحدة، وما بعثكم جميعًا إلا كنفس واحدة، إذن الكثرة لا تعجز الله عز وجل؛ لأن الكثرة عنده والقلة على حدٍّ سواء، الكل تتعلق به القدرة، وهو كله سهلٌ عليه؛ لأنه يكون بأي كلمة؟ بكلمة (كن)، فالله عز وجل لما خلق السموات والأرض هل احتاج إلى عمَّال وعوامل؟ لا، يقولون: إذا كان البناء واسعًا كان أشد، وإذا كان ضيِّقًا كان أهون؟ لا، إنما هو بكلمة: كن، وما كان بكلمة كن فلا فرق بين أن يكون كثيرًا أو قليلًا، ولهذا قال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يعني: بل هي أقرب من لمح البصر، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] هذا غاية ما يكون من السرعة والإنجاز، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] كل هذا يدل على كمال قدرته عز وجل، فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا خلق السموات في ستة أيام؟ هي مخلوقة بالحكمة؛ لأن هذه القدرة أو هذا الخلق يحتاج إلى أشياء مقدمات وأسباب يحصل بها كمال الخلق، أليس الله قادرًا على أن يخلق الجنين في بطن أمه بدون أن يتناولها الرجل؟ بل؛ كما حصل في عيسى، ومع ذلك فإن الله قد جعل لهذا أسبابًا؛ اتصال الرجل بالمرأة، ثم بعد ذلك الجنين يتطوَّر شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية، ثم إذا كان قابلًا أن يخرج إلى الدنيا خرج، ثم مع ذلك ينمو شيئًا فشيئًا ما يأتيه العقل كاملًا دفعةً واحدةً، ولا يأتيه النمو دفعة واحدة، ولكنه على وفق الحكمة، فيكون هذا جواب عما يرد في الذهن، أو يورَد على المرء لماذا خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ولماذا يخلق الله الجنين في بطن أمه لمدة تسعة أشهر، وما أشبه ذلك؟ فالجواب: أن أفعاله مقرونة بحكمة، وأنه سبحانه وتعالى جعل الأسباب مربوطة بمسبباتها، فلابد أن يكون هناك سبب ينتج عنه مسبب، ولابد أن يكون هذا السبب مطابقًا وموافقًا حتى يأتي.

﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [يسمع كل مسموع] ﴿بَصِيرٌ﴾ [يُبصِر كل مُبْصَر، لا يشغله شيء عن شيء]، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ تقدَّم أن السميع ينقسم قسمين: قسم بمعنى: مجيب، وقسم بمعنى: سامع؛ يعني: مدرك للأصوات، فالسميع الذي بمعنى مجيب؛ مثل: قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مجيبه، ومن المعلوم أيضًا أنه لا يجيبه إلا بعد أن يسمعه سمع إدراك، ولكن الفائدة من الدعاء هي: إجابة الداعي، أما مجرد أن يُسمَع دعاؤه فلا فائدة له من ذلك حتى يُجاب، وتقدَّم أن سمع الإدراك ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ما يفيد التهديد، وما يفيد التأييد، وما يفيد سعة سمع الله سبحانه وتعالى وإدراكه لكل مسموع.

فمما يفيد التهديد: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] هذا يفيد التهديد، وما يفيد التأييد: قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] ومما يفيد الشمول شمول سمع الله عز وجل كل ما يُسمَع؛ مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] ولهذا قالت عائشة: تبارك الذي وسِعَ سمعُه الأصوات؛ إني في طرف الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها، والله عز وجل من فوق سبع سموات يسمع هذا الحديث كله، لم يفته سبحانه وتعالى شيء.

أما قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ بمعنى مبصر؛ أي: مدرك ببصره سبحانه وتعالى، فلله تعالى بصر يبصر به المبصرات، كما جاء في الحديث الصحيح: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١)، وقد يكون البصير دالًّا على العلم؛ مثل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣] أي: عليم به، وعند الناس الآن إذا قالوا: فلان بصير بالأشياء؛ أي: عنده علم بها وخبرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ إلى آخره.

الهمزة هنا للاستفهام التقريري، فمعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: قد رأيت، فهو يقرر سبحانه وتعالى هذه القضية المشاهدة المعلومة لكل أحد، والخطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ إما للرسول عليه والصلاة والسلام، أو لكل من يصلح له الخطاب، والمعنى الثاني أشمل وأعم، فتكون شاملة لكل من يصلح له الخطاب، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرائي المخاطَب ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخِلُ الليل في النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يدخله في الليل، وهذا الإيلاج والإدخال لا يكون إلا بقدرة عظيمة، وكيف الإيلاج ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هل المراد: إقبال الليل وإقبال النهار؛ لأنك ترى الليل إذا أقبل يدخل سواده في النهار، يدفع النهار ويطرده، وكون النهار أيضًا إذا أقبل يلج في الليل فيطرده، فيكون هذا عبارة عن تقرير طلوع الفجر، وإقبال الليل، وقد أقسم الله تعالى بذلك في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤] يكون معنى الإيلاج: إدخال الليل في النهار أو بالعكس؛ متى؟ عند كل صباح، وعند كل مساء، هذه واحدة، أو أن المعنى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: أنه يزداد النهار مدة حتى يدخل في الليل، ويزداد الليل مدة حتى يدخل في النهار؛ يعني: يطول النهار فإذا طال أخذ من الليل فيكون قد دخل عليه، ويطول الليل حتى إذا طال أخذ من النهار فيكون قد دخل عليه واختلس منه، هذا أيضًا معنى لكلمة الإيلاج، وكلاهما معنى صحيح، ففي إقبال الليل وإدباره آية عظيمة من آيات الله، وفي كون هذا يزيد وهذا ينقص آية من آيات الله عز وجل؛ لأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن يأتوا بالليل في النهار أو النهار في الليل ما يستطيعون، لو اجتمعوا كلهم على أن يزيدوا في النهار دقيقة واحدة أو في الليل دقيقة واحدة ما يستطيعون، مهما أوتوا من قوة، إذًا فهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل.

ثم إن في إيلاج الليل في النهار - على المعنى الثاني - وبالعكس فيه دليل على رحمة الله؛ لأن في اختلاف

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣/ ١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الليل والنهار بالزيادة والنقص فيه مصلحة عظيمة؛ لأن الليل إذا طال حصل البرد والشتاء، وظهرت آثار الشتاء، وماتت الحشرات التي قد يكون بقاؤها ضارًّا للإنسان والنبات، وكذلك إذا ازداد النهار ازداد الحر، فمارت السماء وزال البخار من الأرض، وماتت بذلك حشرات كثيرة من أجل الحر لو أنها بقيت لأضرَّت بالناس، فيكون هذا أيضًا فيه دليل على كمال الحكمة والرحمة مع القدرة.

يقول المؤلف: ﴿يُولِجُ﴾ [يدخل] ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يدخله] ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ سخر الشمس والقمر؛ أي: ذلَّلهما؛ لأي شيء؟ لمصالح العباد، والدليل على ذلك: قوله تعالى في الآية العامة الشاملة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ كلمة ﴿لَكُم﴾ إذن كل ما ذُكِر من تسخير في الكون فهو لبني آدم، ولهذا يقال في بعض الآثار: يا ابن آدم خلقتُك من أجلي، وخلقت كل شيء من أجلك، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما لمصالح العباد، وذكر الشمس والقمر بعد ذكر الليل والنهار؛ لأن الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٢] وهو: القمر ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ ولذلك القمر ما فيه نور، إنما يستمِدُّ نوره من الشمس، كلما قابلها ازداد نوره، فإذا تمَّت المقابلة بينه وبين الشمس في ليالي الإبدار كمُل نوره، ثم كلما ضعفت المقابلة ضعف نوره.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ﴾ [منهما] ﴿يَجۡرِيٓ﴾ [في فلكه] ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [وهو يوم القيامة] هذا التنوين الذي في كلمة ﴿كُلّٞ﴾ عِوَض عن كلمة؛ يعني: كل واحد من الشمس والقمر يجري إلى أجل مسمى. رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الشمس والقمر يجريان في فلكهما في النهار، ويجريان في فلكهما تحت الأرض في الليل، وهذا يدل على أن ابن عباس يرى أن الأرض كروية؛ لأنه إذا صار يجري تحت الأرض، فمعناه: أنها كروية، وهو كذلك؛ لأن الشمس والقمر في الليل يجري تحت الأرض، كما قال رحمه الله؛ يعني: أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض، ألم تر إلى البيضة فيها القشر الأعلى، ثم القشر الثاني الذي يليه البياض، ثم البياض، ثم القشرة الرقيقة، ثم الأصفر، والأصفر أيضًا طبقات، الأرض مثل البيضة هذه، كذلك أيضًا السموات نفس الشيء طبقات مُكوَّرة[1].



(١) بقية الآيات غير موجود تفسير لها؛ نظرًا لتعذر الحصول على المادة الخاصة بها.

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

❁ **قال الله تعالى**(١):

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَٰتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ٩ـ١٣].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ إذا مشينا على ما قال المؤلف ففيه إشكال كبير، وهو: أنه يقتضي أن تسوية آدم بعد جعل السلالة من ماء مهين، وهذا هو الواقع أو خلافه؟ خلافه؛ لأن تسوية آدم قبل أن تكون سلالته من ماء مهين، فما هو الجواب عن هذا؟ الجواب من أحد وجهين: إما أن يقال: إن قوله: ﴿جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هذه جملة معترضة لبيان أن آدم الذي كان من طين كان نسله من السلالة، ثم عاد إلى آدم فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، وإما أن يقال: إن هذا من باب الترتيب الذكري وليس من باب الترتيب المعنوي أو الوقتي، والترتيب الذكري موجود في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد من بعد ذلك جده

---

(١) تفسير الآيات من (١ ـ ٨) غير موجود فيما لدينا من مصادر المادة العلمية.

والترتيب هذا على خلاف الواقع، هذا أحد الوجهين.

أما إذا قلنا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: النسل ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كما قاله بعض المفسرين، فالآية على الترتيب، ما فيها إشكال.

لكن هذا القول فيه إشكال في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ فإن هذا الوصف خاصٌّ بآدم، كما قال موسى له وهو يُحاجُّه: «أَنْتَ الذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيْكَ مِنْ رُوحِهِ»[1] فظاهره أن هذا خاصٌّ بآدم، ولهذا الوجه الأول أولى من هذا الوجه، وإن كان هذا الوجه له قوة من حيث الترتيب بـ (ثم)، لكن من حيث أن نفخ الروح ما كان إلا في آدم، وفي عيسى كما تعرفون، فإنه يدل على أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ المراد به: آدم، ويكون عودًا على بدء.

قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كلمة ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ مضافة إلى الله، وفيها إشكال؛ إذ إن ظاهرها أن آدم فيه شيء من روح الله فيكون جزءًا من الله، وهذا شيء ممتنع مستحيل، فما معنى الإضافة إذن؟ نقول معناها: أنها إضافة خلق وتشريف، كما قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ وهل الكعبة بيت لله يسكنه؟ لا، لكنه بيت أضافه الله لنفسه على سبيل التشريف والتعظيم، وكما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، وكما قال الله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣] هذه الإضافة على سبيل التشريف والتعظيم لهذا الشيء ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [أي: جعله حيًّا حسَّاسًا بعد أن كان جمادًا] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا التفات من الغَيْبة إلى الخطاب، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ فهذا غيبة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ هذا غيبة ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ هذا غيبة ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا خطاب.

والانتقال أو الالتفات يسميه البلاغيُّون: الالتفات، له فائدة؛ بل فوائد: منها: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على وجه وتيرة واحدة ما حصل تنبُّه، لكن إذا اختلف يحصل التنبُّه، سواء اختلف بأوجه الضمائر؛ كالانتقال من الغيبة إلى الخطاب أو بالعكس، أو اختلف بشدة الصوت، عندما يكون الإنسان كلامه هادئًا على وتيرة واحدة ما يكون هناك انتباه، لكن لو أتى بزجر في بعض الأحيان يحصل انتباه، فالالتفات أو تغيير الخطاب كل يحصل به الانتباه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ قال: [أي: لذريته] فالخطاب لا شك أنه للذرية كما قال المؤلف، والفائدة الثانية حسب السياق؛ إما مثلًا زيادة توبيخ، أو زيادة في بيان نعمة، أو ما أشبه ذلك، حسب السياق و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ قال المؤلف: [بمعنى: الأسماع] لماذا أوّلها إلى أسماع؟ لأن ﴿لَكُمُ﴾ جمع الخطاب لجمع، وإذا كان الخطاب لجمع لزِمَ أن يكون السمع لكل واحد فيكون جمعًا، قال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (١٣/ ٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أهل اللغة: وإنما أفرد السمع وجمع الأبصار؛ لأن السمع مصدر، سمع يسمع سمعًا، والمصدر لا يُجمَع ولا يثنَّى، وإنما يبقى مفردًا، ويكون مرادًا به الجنس، والأبصار جمع بصر، وهو القوة الباصرة، وليس مصدرًا؛ لأن المصدر إِبصار، أبصر يبصر إبصارًا، فلهذا جمعها، هذا مما أراد به الجنس.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئدة يعني: القلوب، فذكر الله سبحانه وتعالى طريق الفهم ومكان الفهم، طريق الفهم هو: السمع والبصر، ومحل الفهم والوعي هو: القلب ولهذا يكون السمع والبصر كقناتين يصبَّان في القلب، يتلقيَّان ما يُسمَع أو يبصر ثم يصبَّان في القلب، وهو محل الوعي والإدراك، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني: القلوب، لماذا لم يذكر الشم، والذوق، واللمس؟ لأن الاتعاظ بالآيات يكون بالسمع والبصر، وبدأ بالسمع؛ لأنه أشمل وأعم؛ لأنك تسمع ما لا تراه، ولما كان أشمل وأعم كان الابتلاء به - والحمد لله - أقل، لو نسبت الصُّمّ إلى العُمْي لوجدت النسبة قليلة؛ لأن الصمم أشد، فوجود السمع أهم، وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول المؤلف: [ما زائدة مؤكدة للقلة] ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وقليلًا ما إعرابها؟ مفعول مطلق؛ يعني: تشكرون شكرًا قليلًا؛ يعني: مع هذه النعم التي ساقها الله عز وجل من ابتداء خلق الإنسان إلى انتقاله في الأرحام إلى خروجه بالسمع والبصر والقلب، مع هذه النعم العظيمة فالشكر قليل، أي: تشكرون شكرًا قليلًا، وما هذه يقول: [زائدة لتأكيد القلة] وهذا معروف حتى في الأساليب العُرفية الآن تقول: قليلًا ما؛ يعني: توكيد لهذه القلة، فما زائدة والله أعلم.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ قال المؤلف: [أي: منكروا البعث] قالوا موردين هذه الشبهة: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المؤلف: [غِبْنا فيها بأن صِرنا ترابًا مختلطًا بترابها]، هذا معنى ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: غِبنا فيها وصرنا ترابًا كسائر التراب، أئذا حصل ذلك ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكار؛ يعني: أنكون في خلق جديد بعد أن أكلتنا الأرض وضللنا فيها، والاستفهام هنا إنكاري؛ يعني: لن يكون ذلك، هذه الشبهة هل هي حجة أو غير حجة؟ الجواب: ليست بحجة؛ لأننا نقول: أنتم خُلِقتم من تراب، والذي خلقكم أولًا من تراب قادر على أن يعيدكم ثانيًا من تراب، ولهذا جاءت هذه الآية بعد ذكر خلق الإنسان من طين، لما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ هذه شرطية، فأين جوابها؟ جوابها مفهوم من الجملة بعدها؛ يعني: أئذا ضللنا في الأرض أنُنشأ خلقًا جديدًا؟

وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ يعني: أيتأكد أننا في خلق جديد، ولهذا لو قال قائل: إذا كانت الجملة الاستفهامية هنا للإنكار فكيف تأتي اللام الدالة على التوكيد ﴿أَءِنَّا لَفِى﴾؟ نقول: المراد:

ينكرون أن يتأكد ذلك؛ يعني: أيتأكد أننا في خلق جديد بعد أن تأكلنا الأرض، كقول إخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ فالمهم أن هذا التأكيد كأنهم ينكرون ما أُكِّد من كونهم يرجعون.

قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ هل الخلق هنا بمعنى: المخلوق؛ يعني: أئنا لنكون في أمة جديدة، أو إنه مصدر بمعنى التقرير؛ يعني: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ أي: لأن يخلقنا الله؟ يحتمل المعنيين وكلاهما صحيح ولا يتعارضان؛ يعني: أنكون في خلق جديد في أمة جديدة، أو أنُخلق خلقًا جديدًا بعد أن ضللنا في الأرض وكنا ترابًا؟ والجواب: نعم، تكونوا في خلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز، فالذي أنشأكم من التراب قادر على أن يعيدكم منه، حتى لو فني الإنسان كله مع أنه ورد في الحديث أنه يفنى كله إلا عجْبَ الذَّنَب، فإنه منه يخلق الإنسان كالنواة للشجرة، ويُستثنى من ذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وهذا دليل على قدرة الله عز وجل، وإلا فالأنبياء بشر، من أين هم مُكوَّنون؟ خُلِقوا أصلًا من تراب، لكن الآن من لحم وعظم وجلد كسائر بني آدم، ومع ذلك الأرض ما تأكلهم ما تأكل منهم شيئًا أبدًا، أما غير الأنبياء فإنها تأكلهم، لكن قد يحمي الله عز وجل بدن بعض الناس لا تأكله الأرض على نوع من الكرامة.

قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين في الموضعين] بتحقيق الهمزتين في الموضعين فيُقرأ: أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق، هذا التحقيق، أما إدخال ألف بين الهمزتين المحققتين: آئذا ضللنا في الأرض آئنا لفي خلق جديد، هذا إدخال ألف، تسهيل الثانية: أيذا ما تجعلها محققة اجعلها بين الهمزة والياء بدون ألف، بألف: آيذا ما تظهرها أيضًا، اجعلها بين الهمزة والياء، فالقراءات أربع، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [بالبعث كافرون] يعني: أن بل هنا للإضراب الإبطالي أو الانتقالي؟ الإبطالي؛ يعني: بل الأمر ليس كما شبَّهوا ولبَّسوا، فهم يعلمون قدرة الله لكنهم جاحدون ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بكافرون، وكافرون خبر مبتدأ هم؛ أي: بل هم كافرون بلقاء ربهم؛ أي: بملاقاته، ومتى تكون الملاقاة؟ تكون بالبعث، ومن كفر بلقاء الله فقد كفر بالبعث، ولهذا قال المؤلف مفسرًا لها بالمراد لا بالمعنى قال: [بالبعث] وإلا فهي أخص من البعث، اللقاء بمعنى: الملاقاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦] الإنسان أي إنسان ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ إلى آخره، يعني: هؤلاء الكافرون بلقاء الله؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ومن لم يؤمن بالبعث لم يؤمن بلقاء الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [لهم] ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [أي: بقبض أرواحكم]

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبضكم، كما تقول: توفَّيت حقي من فلان؛ أي: قبضتُه، وكذلك استوفيته؛ أي: قبضته على سبيل الوفاء، وهو الكمال، فمعنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي: يقبضكم، والمراد: قبض الأرواح.

وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ ملك مفرد ملائكة، أو مفرد أملاك، وهو مشتق من الألوكة بمعنى: الرسالة، وعلى هذا فأصله مألك، ثم حُوِّل فقُدِّمَت اللام وأُخِّرَت الهمزة فكانت ملئك، ثم خُفِّف فحُذِفت الهمزة فصارت ملك، ولهذا إذا جمع جاءت الهمزة، فقيل: ملائكة ولا يقال: مئالكة؛ لأنه صار فيه إعلال بالتحويل؛ يعني: بتقديم وتأخير، وهو من الألوكة أي: الرسالة، فملك الموت معناه: الذي أُرسل أرسله الله عز وجل لقبض الأرواح، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١] وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أضيف إلى الموت؛ لأنه يميت الناس بإذن الله، فسمي: ملك الموت، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، ولكنه لم يصح عن رسول الله ﷺ، وقد سبق أن الذين صح أسماؤهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنة، منكر ونكير فيه بعض الشيء بعضهم أنكر هذا، أما عزرائيل ما ثبت عن النبي ﷺ على الرغم من أن هذا الاسم أشهر أسماء الملائكة عند العامة، وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ من الذي وكَّله؟ وكَّله الله عز وجل، وهذا التوكيل ليس توكيلًا لحاجة، ولكنه توكيل سلطان وعظمة؛ لأن الرب عز وجل لا يحتاج إلى أحد يعينه، كل من وُكِّل من الملائكة بشيء فليس ذلك على سبيل الحاجة، أنا إذا وكَّلت أحدًا قد أكون محتاجًا إلى هذا؛ لأني لا أستطيع مباشرة العمل، لكن الرب سبحانه وتعالى لا يحتاج، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، لكنه يوكِّل ذلك توكيل سلطان وعظمة لبيان سلطانه وعظمته، وأن كل شيء في خدمته وفي عبادته، وقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكَّله الله، إذن الله وكيل وموكل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١] وموكِّل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩] وهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولكن ليس كونه وكيلًا بمعنى: أنه متوكل لغيره، والموكِّل أعلى منه، كما هو معهود، ولكنه وكيل بمعنى: رقيب على عباده مهيمن عليهم، وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هنا مفرد، وفي آية أخرى في سورة الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] فجمع، وفي آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ في الزمر، فكيف نجمع بين هذه الآيات الثلاث؟ جمع أهل العلم بينهن بأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ هذا هو الأصل أن المتوفِّي هو الله؛ لأنه مُدبِّر، والمُدبِّر للشيء فاعل له، كما تقول: بنى الملك قصرًا للحكم، يعني: ذهب أتى بالزنبيل، وأتى بالمسحاة، وأتى بسطل الماء، وربَّع الطين، وقام يحمل على متنه ويبني، الملك؛ ليس الأمر كذلك، إذن معنى بناه؛ أي: أمر ببنائه، لكن لما كان هذا البناء لا يتم إلا بأمره أُسنِد إليه، فالله تعالى يتوفى الأنفس ما يكون توفيها إلا بأمره، فأُسنِدت الوفاة إليه، أما قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ فإما أن يقال: إن ملك الموت هنا مفرد مضاف فيعم ملائكة، وهذا له وجه في اللغة العربية لكن ليس

بصحيح من حيث الواقع، ولكن الواقع أن ملك الموت له أعوان قبل قبض الروح، وأعوان بعد قبض الروح، أعوان قبل القبض يسوقون الروح من البدن حتى تصل إلى الحلقوم، ثم يقبضها، وأعوان بعد ذلك إذا قبضها فهناك ملائكة الرحمة تنتظر هذه الروح بالكفن الذي من الجنة، فلا يدَعُونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ويجعلوها في ذلك الكفن، وإن كان الإنسان بالعكس فعنده ملائكة العذاب معهم كفن من نار لا يدَعُونها في يده طرفة عين، يكون هنا المراد الجمع بينهما: أن إسناد الوفاة إلى الملائكة وهم جمع؛ لأنهم أعوان ملك الموت فكان لهم نوع مشاركة في هذا الفعل، وملك الموت هو الذي يقبضها إذا بلغت الحلقوم، وبهذا الجمع يزول الإشكال، ونحن قد بيَّنا كثيرًا أن القرآن والسنة ليس فيهما تعارض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] وأنه إذا رأيت في شيء منهما تعارضًا فاعلم أن ذلك من سوء فهمك، أو قلة علمك، فتدبر وتعلم حتى يتبين لك الأمر.

وقوله: ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [أي: بقبض أرواحكم] يعني: لم يوكل بنا في كل شيء، ولكنه وُكِّل بنا في قبض الأرواح فقط، لكن هناك ملائكة موكَّلون بنا في حفظ أعمالنا، وفي حفظنا أيضًا، وكذلك ملائكة موكَّلون في أعمالنا يجوبون الأرض وينظرون مجالس الذكر فيجلسون فيها، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [أحياءًا فيجازيكم بأعمالكم] يعني: بعد الموت يرجع الإنسان إلى ربه، فيجازَى بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ثم قال تعالى: [﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مطأطئوها حياءًا يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ ما أنكرنا من البعث ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ إما إلى الرسول ﷺ، وإما إلى كل من يتوجه إليه الخطاب، وهذا المعنى أعم والأخذ به أولى لعمومه إلا أن يمنع منه مانع، ولهذا الخطابات التي تأتي للمفرد في جميع القرآن الأولَى أن تُحمَل على العموم، وأن يراد بها: كل من يتوجه إليه الخطاب إلا إذا منع من ذلك مانع، فتكون خاصة بالرسول ﷺ، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ لو هذه شرطية، ولو الشرطية تحتاج إلى جواب؛ يعني: إلى شرط، وإلى جواب الشرط، فالشرط قولهم: ﴿تَرَىٰ﴾ والجواب محذوف التقدير: [لرأيت أمرًا فظيعًا]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ إذ هذه ظرف؛ يعني: لو ترى ذلك الوقت الذي فيه المجرمون على هذا الوصف لرأيت أمرًا فظيعًا، المجرمون: مبتدأ، وناكسوا: خبره، وأين النون التي في ناكسوا؟ حُذِفَت لأجل الإضافة، ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [أي: مطأطئوها] يعني: يخافون هكذا - والعياذ بالله -، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند الله عز وجل وهم بين يديه يوم القيامة، ولكن ﴿نَاكِسُوا﴾ يقول المؤلف: [حياءًا] وفي النفس من هذا التفسير شيء، والظاهر أنهم ناكسوها ذلًّا وخضوعًا لسلطان الله،

بدليل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ أما حياءً فالحياء محمود لكن كونهم ينكّسونها ذلًّا هذا هو الواقع، ناكسوا رءوسهم عند ربهم ذلًّا، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ فجملة: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ مقول لقول محذوف تقديره: يقولون، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ يعني: يا ربنا، ونادوا الله باسم الربوبية؛ لأن الغالب أن الجمل الدعائية تأتي مصدَّرة برب؛ لأن الرب هو المالك المتصرف.

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ قال المؤلف: [ما أنكرنا من البعث] هذا ما قاله المؤلف، وعليه فيكون مفعول أبصرنا محذوف، التقدير: ما أنكرنا من البعث، ويحتمل أن أبصرنا هنا أي: حضرت أبصارنا وبصائرنا، ويكون أعم مما قدَّره المؤلف؛ يعني: صِرنا ذوي بصرٍ وبصيرة الآن، فيكون أعم؛ يعني: كأنهم يقولون: آلآن صرنا ذوي بصر وبصيرة، وهذا المعنى أعم وأبلغ.

وكذلك ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ يقول المؤلف: [سمعنا منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه] لأن الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ولكن أيضًا هذا الذي قال المؤلف لنا فيه وجه أحسن مما قال، فيكون معنى سمعنا؛ أي: كنا ذوي سمع الآن، ولهذا يقولون: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ يعني: كما نرى ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أما في يوم القيامة فيقولون: نعم، الآن صرنا ذوي بصر، وصرنا ذوي سمع، ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ﴾ ارجعنا إلى الدنيا وهو فعل طلب؛ أي: دعاء، وليس فعل أمر؛ لأن المخلوق لا يوجِّه أمرًا إلى الخالق.

وقوله: ﴿نَعۡمَلۡ﴾ هذا جواب الطلب جُزِم بجواب الطلب؛ يعني: إن ترجعنا نعمل صالحًا، وقوله: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ يعني: عملًا صالحًا، والعمل الصالح تقدَّم كثيرًا أنه ما جمع شرطين، هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ، هذا هو العمل الصالح، [﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن فما ينفعهم ذلك ولا يُرجعون]، معلوم ما ينفعهم إذا شاهدوا العذاب فإن الإيمان لا ينفعهم، كل من شاهد العذاب فإنه لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤﴾ [غافر: ٨٤]، قال الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٥]، وما أحد نفعه إيمانه بعد العذاب إلا قرية واحدة قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] ليس له توبة؛ فقد شاهد العذاب فلا ينفع، ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر عمره قبل أن يحل به أجله فلا يستطيع الخلاص.

وقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أتوا بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ متى؟ الآن، لكن ما ينفعهم، لكن ما رأيكم لو رُدُّوا فماذا يكون

الأمر؟ ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] هذا خبر الله عز وجل الذي لا يُخلِفه.

يقول المؤلف: [وجواب لو: لرأيت أمرًا فظيعًا] يعني: جواب محذوف، إذا قال قائل: ما هي الحكمة في حذف الجواب، ولماذا لا يذكر من أجل أن لا يكون هناك اختلاف، وما هي الحكمة في الإبهام في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، ولماذا لا يذكر لأنه أبين؟ الجواب: أنه في مقام التهويل ينبغي الإبهام، لأجل أن يذهب الذهن كل مذهب في تعظيم الأمر وهوله؛ لأنه إذا ذُكِر الشيء قد يهون، لو أقول لك: والله يوجد سبع عظيم يأكل الناس ويفعل ويفعل ويفعل وهُول لديك وأنت ما رأيته يكون عندك رعب، لكن ربما لو رأيته يهون عليك الأمر، كذلك مثل هذه الأمور العظيمة إذا أبهمها الله فإنها أعظم وأوقع في النفس، وأشد وأعظم، ولهذا حُذِف الجواب، وأبهم الغاشي في قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] وأبهمت الحاقة والقارعة في مثل: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة:٣]، ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة:٣] كل هذا من باب التعظيم والتهويل.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [فتهتدي بالإيمان والطاعة باختيار منها].

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الضمير يعود على الله عز وجل، وأتى بضمير الجمع تعظيمًا، فإذا قال النصراني: الآلهة ثلاثة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ونا للجمع، أين الدليل الذي يخرج هذا اللفظ عن معناه؟ وإلا فالصواب معنا، وأنتم أيها الموحدون على ضلال، وإلا لقال الله: ولو شئت، فالجواب: أن هذا من باب التشبيه والتلبيس، وإلا فارجع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] كم يصير؟ واحد، فيكون: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ من باب التعظيم، والله تعالى عظيم بصفاته، كل صفة من صفاته تقتضي عظمةً غير ما تقتضيه الصفة الأخرى، وباجتماع هذه الصفات يكون هناك عِظَم أعظم وأجل ﴿لَآتَيْنَا﴾ هذا جواب لو ﴿لَآتَيْنَا﴾ أعطينا، ولهذا نصبت مفعولين؛ المفعول الأول: كل نفس، والثاني: هُداها، والهدى بمعنى: الدلالة والتوفيق، ولهذا قال: [فتهتدي بالإيمان والطاعة] ولو شاء الله تعالى لفعل، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] فالله تعالى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الإيمان والتوحيد والاستقامة، ولكن حكمة الله تأبى ذلك، لأسباب كثيرة؛ منها: أنه جل وعلا قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهذا

قسم وتعهُّد من الله عز وجل للنار أن يملأها ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد صدَقَ هذا أو ما صَدَقَ؟ ما صدق، فإذن لابد أن يصدق، ثانيًا: لو كان الناس على أمة واحدة على التوحيد هل يتميَّز المؤمن من الكافر؟ كلهم واحد، ما يوجد امتحان واختبار، ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد لانسدَّ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما السبب؟ ما في منكر يحتاج إلى نهي عن منكر، ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد لبطل الجهاد، من يُجاهد؟ ما في أحد، المهم أن هناك حِكَم كثيرة في كون الله عز وجل جعل الناس إلى قسمين، ولهذا قال هنا: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ حقَّ بمعنى: وجب وثبت، و﴿الْقَوْلُ﴾ فاعل و﴿مِنِّي﴾ متعلق بمحذوف حالًا من القول، ولكن حق القول صادرًا مني، ما هو القول؟ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ [الجن] ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الفعل مؤكد بالنون، واللام، وبالقسم المقدر، والتأكيد هنا واجب من الناحية النحوية؛ لأنه في قسم مثبَت مستقبل لم يفصل بينه وبين لامه بفاصل.

وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ جهنم هذه اسم من أسماء النار، قيل: إنها عربية والنون فيها زائدة وأنها من الجهم أو من التجهُّم، وهو الظلم، وقيل: إنها اسم معرَّب، ما هو عربي لكنه معرب، وعلى كل الأقوال فالمراد بها: النار ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ الجِنَّة: الجن، والناس: بنو آدم أجمعين، تُملأ من هؤلاء وهؤلاء، أيهم أكثر؟ الله أعلم، لكن ظاهر القسمة أنهم سواء، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل الجن فهمنا من هذه الآية، أو من آية أخرى أنهم يدخلون النار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ يدخلون النار، وهذا بإجماع المسلمين أن كافر الجن يدخل النار، مؤمن الجن هل يدخل الجنة، أو لا؟ اختلف فيه العلماء والصواب: أنهم يدخلون الجنة، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ممن؟ من الجن والإنس، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن:٤٦] ثم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخاطب من؟ الجن والإنس، فهذا دليل أيضًا على أنهم يدخلون الجنة، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦)﴾ [الرحمن:٥٦] يدل على أنهم يدخلون الجنة، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل العلم، وقال بعضهم: إنهم لا يدخلون الجنة؛ لأن الذين ولَّوا إلى قومهم منذرين ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف:٣١]، فهل قال: يدخلكم الجنة، فهذا دليل على أن المؤمن منهم يُجار من العذاب الأليم فقط، فيقال: إن

هذا استدلال بنصٍّ وترك نصوص، وما هكذا حال الإنسان الذي يوفِّق بين الأدلة، ثم إن مقام هؤلاء القوم مقام إنذار وتخويف ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ دون مبشِّرين، فهو مقام إنذار وتخويف، وهم إذا استقاموا وخافوا فإنه لا شك أنهم يدخلون الجنة؛ لأن من أُجِير من العذاب الأليم من المُكلَّفين فلابد أن يدخل الجنة؛ إذ أن مآل الورى إلى الجنة أو النار، وهذا القول هو الحق أن مؤمنهم يدخل الجنة وكافرهم يدخل النار، والثاني بالإجماع ما فيه خلاف؛ لأنه نص القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (١).

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** كمال خلق الله تعالى؛ لأنه أحسَنَه.

٢- **ومن فوائدها:** أن كل مخلوق خُلِق على ما يناسب حاله، وجه الدلالة من الآية: أنه لو لم يكن الأمر كذلك لما كان إحسان خلقه، إذا كان هذا هكذا، وضممته إلى سورة طه وهو قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] يعني: خلقه المناسب له ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: هداه لمصالحه المناسبة له، أليس كذلك؟ أعتقد أن البقر لو خرجت مسابقة في وظيفة تذهب تسابق؟ طبعًا لا، ما هو من شأنها، لكن لو ألقي علف في زاوية من البيت تسابق إليه؟ نعم، تسابق إليه؛ لأن الله هدى كل مخلوق لما يناسبه.

٣- **ومن فوائدها:** تكذيب النظرية الكاذبة وهي نظرية داروين الذي يقول: إن الخلق نشأ بالتطور وأن أصل الإنسان قرد، ثم صار على طول الزمن إنسانًا، وعلى قاعدتهم ما ندري ماذا سيكون الإنسان على طول الزمن، ولا شك أن هذه النظرية باطلة وكفر بالله عز وجل، نأخذها من قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ ما أصدق من هذه الآية شيء.

٤- **ومن فوائدها:** تمام قدرته سبحانه وتعالى؛ حيث خلق هذا الإنسان العجيب في خلقه وفهمه وتدبيره وذكائه من هذا الشيء الجماد، وهو الطين.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات أفعال الله الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، من قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾ فإن البدء يكون عن عدم.

٦- **ومن فوائدها:** أن الإنسان حادث بعد أن لم يكن، لقوله: ﴿وَبَدَأَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾.

١- من فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان الذي خلق من الطين له نسل، جعل له نسل من أجل أن يبقى هذا النوع من المخلوقات، لقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإنسان يُخلَق من المني، لقوله: ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ﴾ والسلالة هي

(١) هذه الآية تفسيرها غير متوفر لدينا.

الخلاصة، والماء المهين هو المَنِيُّ، وعلى هذا فهو مخلوق من مني الرجل لا مني الأنثى؛ لأنه هو الماء المهين.

٣- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل في هذا الماء؛ حيث جعله على هذا الضعف وعلى هذا النوع من أجل حفظ الحيوان المنوي؛ إذ لو كان سائلًا سيولة الماء ما احتفظ بهذه الحيوانات، ولو كان غليظًا أثخن من هذا لكان منه ضغط على هذه الحيوانات فربما تموت، ولكن الله عز وجل جعله على هذا الوضع المناسب.

ثم قال: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أكمل خلق الإنسان، لقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:٤]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإنسان جسم لا يكون إنسانًا إلا بالروح، لقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

٣- **ومنها:** وليس بذاك القوي أن الروح جسم؛ لأنها تنفخ في هذا الجسم البائد وهو كذلك؛ لأن الروح جسم لكنها جسم لطيف لا يُرى، مع أن الملائكة تقبضه وتجعله في الحنوط، وتصعد به إلى السماء، لكن نحن لا نراه عندما تخرج روح الميت فنحن عنده لا نرى شيئًا.

٤- **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله عز وجل على الإنسان بجعل السمع والأبصار والأفئدة التي بها إدراك المعقول وعقله، إدراك المعقول بالسمع والبصر، وعقله بالقلب ووعيه.

٥- **ومن فوائدها:** أن الإنسان قليل الشكر، لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما أن الشاكر قليل أيضًا، والقائم بالشكر على الوجه المطلوب قليل، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣] الشاكر قليل يعني: معناه: من حيث الأفراد والأشخاص، واحد في العشرة هذا قليل، ونفس الواحد هذا أيضًا شكره قليل، الشاكر قليل، وشكر الشاكر أيضًا قليل، فقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا باعتبار شكر الشاكر، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ باعتبار الأفراد الشاكرين.

٦- **ومن فوائدها:** ذمُّ من لا يشكر، لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٧- **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يكون شكره على حسب النعمة؛ ففي السمع يستعمل السمع في ما يُقرِّب إلى الله، ويمنعه عما حرَّم الله، وكذلك في البصر، أما القلب فنعَم يجب عليه أن يُعرِض بقلبه عما كل ما حرم الله، وأن يُقبِل بقلبه على كل ما أمر الله به.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** توبيخ هؤلاء المنكرين، كما جاء في خطاب الله عنهم: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين كانوا شاكّين في قدرة الله، لقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا﴾، ويحتمل أن يكون ذلك منهم مُكابَرة وأنهم عالمون بقدرة الله ولكن يُكابِرون، ويؤيد هذا قوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: الأمر واضح لكن هؤلاء كفار.

٣- **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله عز وجل بإعادة الأموات بعد أن غابوا في الأرض واضمحلُّوا فيها يُنشئُهم الله تعالى خلقًا جديدًا.

٤- **ومن فوائدها:** إبطال قول من يقول: إن البعث إيجاد من عدم؛ لأن هناك من يقول: إن الخلق يُعدَم بالكلية، ثم يُنشَأ من جديد، وهذا القول باطل؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الثواب لمن لا يعمل، والعقوبة على من لم يعمل، لو قلنا: بأنه يُعدَم بالكلية، ثم ينشأ خلق جديد ويحاسب، فهذا الجديد ما هو موجود في الأول، فيكون معاقبًا على ما لم يفعل، ومثابًا بما لا يفعل، والله تعالى قد بيَّن أن الإنسان نفسه هو الذي يُعاد، فليس يُعدَم ثم يُخلَق من جديد، ولكنه يُعاد ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، ما قال: نخلق غيره، الشاهد: قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول: كيف بعد ما نغيب في الأرض ونكون ترابًا كيف نُبعَث؟ فدلَّ هذا على أن البعث هو إعادة ما سبق، وليس ابتداء خلق جديد.

٥- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المنكرين للبعث ليس عندهم حجة إلا مجرد الكفر، لقوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات ملاقاة الله عز وجل يوم القيامة، لقوله: ﴿بِلِقَآءِ﴾، ومثله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الذي يتولَّى قبض الأرواح ملك الموت، لقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الملائكة، لقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، والملائكة عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعلهم من السامعين المطيعين له، وأفطرهم على فعل المأمور، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦]، فيه كمال الامتثال، وكمال القدرة.

٣- **ومن فوائدها:** تمام تنظيم الله للأمور وإحكامه لها، لقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فإن كل ملك مُوكَّل بشيء من الأشياء، لتمام النظام، وإحكامه، وإحسانه.

٤- **ومن فوائدها:** عظمة سلطان الله، من قوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فقد سبق لنا أن هذا التوكيل ليس عجزًا من الله عز وجل، ولكنه لبيان سلطانه وعظمته.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الرجوع إلى الله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، ويؤخذ منه: إثبات الجزاء؛ لأن هذا هو المقصود من قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

١- في هذا: بيان فظاعة ما يحلُّ بالكافرين يوم القيامة، من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ والمقدر جوابها: لرأيت أمرًا فظيعًا.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المجرمين المستكبرين في الدنيا الرافعي رءوسهم ستكون حالهم في يوم القيامة على العكس من ذلك، لقوله: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ المؤلف يقول: [حياءً]، والصواب: أنه ذلًا وعارًا وخزيًا - والعياذ بالله -.

٣- **ومن فوائدها:** أن المجرمين يوم القيامة يُقرُّون بالحق، من قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ولكن هل ينفع هذا؟ لا، بعد أن شاهد الإنسان العذاب أو الجزاء ما ينفع الرجوع.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء يطلبون الرجعة إلى الدنيا، لقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

٥- ويتفرع عليها: أن الآخرة قد يكون فيها شيء من العبادات؛ لأن الدعاء من العبادة، وهم يدعون الله، وعليه فمن نفى أن الآخرة دار تكليف أو دار عمل فإن نفيه على سبيل العموم فيه نظر ظاهر، فإن الآخرة قد يكون فيها تكليف ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ هذه تكليف، أو لا؟ تكليف، فالآخرة قد يكون فيها تكليف.

٩- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يُوقِنون بالآخرة، لقوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** إقرارهم على أنفسهم بأن عملهم السابق ليس بصالح، من قوله: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ كأنهم بالأول لا يعملون صالحًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** إثبات مشيئة الله، لقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** تمام سلطانه، لقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

٣- ومن فوائدها أيضًا: إثبات حكمته؛ حيث لم يؤتِ كل نفس هداها، وقد سبق لنا شيءٌ من الحِكَم في اختلاف الناس إلى مؤمن وكافر.

٤- **ومن فوائدها:** الرد على القدرية، وهم الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ما لله

تعالى فيه تقدير ولا خلق، يشاء بنفسه، ويفعل بنفسه، وليس لله تعلُّق بفعله، هؤلاء هم القدرية، فقوله: ﴿وَلَوْشِئْنَا لَآتَيْنَا﴾ يردُّ عليهم، ولكن هل في الآية دليلٌ لمذهب الجبرية؟ ظاهرها، إلا أن الآيات الأخرى تدل على أنه لا حُجَّة فيها لهم؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان قدرة واختيارًا، ونحن معشر أهل السنة لا نأخذ ببعض الكتاب وندَعُ بعضًا؛ بل نأخذ بالكتاب كله، فنؤمن بأن مشيئة الله فوق كل شيء، ونؤمن بأن للإنسان مشيئة، وإرادة، وقدرة على العمل، وأن يسهل الفاعل، وليس الله هو الفاعل.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات كلام الله، أن الله يتكلم، لقوله: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن كلامه سبحانه وتعالى بحرف؛ لأن قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروف أم لا؟ حروف، فكلام الله تعالى بحرف.

٧- **ومن فوائدها:** الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس؛ إذ لو كان كذلك لقال سبحانه وتعالى: ولكن أردت أن أملأ، ولم يقل: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات النار، لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله جل وعلا أوفَى المعاهدين، أنه وعد النار أنه يملأها فوفى لها بما وعدها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أن الجن يدخلون النار، من قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩] وهل يدخلون الجنة؟ تقدم أن في ذلك خلافًا، وأن الصواب: أنهم يدخلونها، وبيَّنا الأدلة على ذلك من القرآن.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤-١٧].

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ المؤلف يقول: [وتقول لهم الخزنة إذا دخلوها] ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾، ولننظر في كلام المؤلف هل يوافق ظاهر الآية: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ هل يناسب أن يكون القائل الملائكة، وأن الملائكة تقول: إنا نسيناكم؟ لا، من القائل إذن؟ الله، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فصار أن هذا القول من قول الله عز وجل، يقول لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا، يقول: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ فالأمر هنا ليس للإكرام ولا لمجرد الأمر، ولكن للتوبيخ والتقريع والإهانة ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال المؤلف: [فذوقوا العذاب] أفادنا بهذا التقدير أن مفعول ذوقوا مفعولًا محذوفًا تقديره: العذاب، ويحتمل أن لا يكون لها مفعول، والمعنى: كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] يكون المراد مجرد التوبيخ والإهانة، قال: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [أي: بترككم الإيمان به، والعمل له]، وأفادنا بقوله: [بترككم] أن (ما) مصدرية، وأن ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى: تركتم، وهو كذلك، فإن (ما) مصدرية؛ أي: بنسيانكم، والنسيان هنا بمعنى: الترك، وليس النسيان الذي هو ذهول القلب عن معلوم؛ لأن النسيان المعروف هو ذهول القلب عن معلوم، ولهذا لا يعاقب عليه الإنسان، ويُطلَق النسيان على الترك وهو الذي يُعاقَب عليه، والدليل على إطلاق النسيان على الترك: قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وهذه الآية: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ بمعنى: تركناكم، وليس معناها: ذهول القلب عن معلوم، لقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]، النسيان المنفي عن الله غير النسيان المُثبَت له، النسيان المُثبَت له هو الترك، والنسيان المنفي عنه هو الذهول عن الشيء، ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ تركتم لقاءه، المراد: تركتم العمل له والإيمان به، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم في العذاب، تركهم الله عز وجل، هو ما نسيهم لا يزال يعلم بهم جل وعلا، ولكنه تركهم، وقال لهم بعد المراجعات: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، هل يتكلمون بعد ذلك؟ أبدًا؛ لأنهم في الآخرة ما يقدرون يخالفون، لما قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤهم من كل رجاء - والعياذ بالله - وأيسوا من كل خير.

وقوله: [﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم في العذاب ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الدائم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب]، هذا تكرار للتأكيد، وبيان أن ما ذاقوه لا يمكن أن يزول عنهم، مع أنهم قالوا فيما سبق: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فقال: ما في رجوع.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ يعني: العذاب الدائم، وهذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه، أو على تقدير (في) للظرفية؛ يعني: عذاب في الخلود، وعلى كل حال هو عذاب دائم، ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (ما) هنا يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم في الدنيا تعملونه، ويحتمل أن تكون مصدرية، ولكن ظاهر تفسير المؤلف أنها اسم موصول.

ثم بيَّن الله عز وجل مَن المؤمن حقًّا، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [القرآن] ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ (إنما) أداة حصر حصرَت الإيمان في الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا سجدًا، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: [القرآن] وعلى هذا فهي الآيات الشرعية، والصواب: أنها عامة، حتى الآيات الكونية كمن ذُكِّر بما يفعله الله عز وجل بالمكذبين والمجرمين، فإن ذلك داخل في الآية ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقوله: [القرآن] يقتضي أن هذا القول خاصٌّ بهذه الأمة ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنهم هم أهل القرآن، ولكن الأَولى أن تؤخذ على سبيل العموم حتى فيمن سبق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ٱلَّذِينَ﴾ [الإسراء:١٠٧].

يقول: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ (الذين) ما إعرابها؟ فاعل ليؤمن؛ يعني: ما يؤمن إلا الذين، والمراد: الإيمان الكامل، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ [وُعِظوا بها] أي: جُعِلت موعظة لهم، وبُيِّنَت لهم الآيات، فإذا وُعِظوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ خروا: جواب إذا ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ الخرور يكون من أعلى إلى أسفل، ومنه خرور الماء من فوق إلى تحت، ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ من القيام ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حال السجود ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ هذه الآية أورد عليها بعض العلماء إشكالًا، وقال: هل كل من ذُكِّر بآيات الله يسجد، أم ماذا؟ هل أنتم الآن ما يكون الإنسان مؤمنًا إلا إذا قرأتَ عليه آية سجد؟ أو إذا وعظته بموعظة سجد؟ ليس كذلك، إذن ما الجواب عن هذه الآية؟ قال بعضهم: المراد: إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سجدًا في موضع السجود؛ يعني: خرُّوا سُجَّدًا إذا مرَّت بهم آية سجدة سجدوا، أما إذا ذُكِّروا بآيات ربهم بدون أن تمر بهم آية سجدة فإنهم لا يسجدون، ولكن الصواب خلاف ذلك، الصواب: أن المعنى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ إنقادوا لها، وخضعوا لها، ولا يلزم من ذلك أن يكون السجود مباشرًا للتذكير، إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سجدًا حتى في المستقبل، فلا يلزم أن يكون الجواب مباشرًا للشرط؛ يعني: لا يلزم أن يكون جواب الشرط مباشرًا له، وما يقتضي الترتيب من الحروف أو التركيب قد يراد به: الترتيب في موضعه، في كل شيء بحسبه، ولهذا لو قلت: تزوج زيد فوُلِد له، الفاء للترتيب والتعقيب، ومن المعلوم أنه لا يُولَد له فور عقد النكاح له، هل يُولَد له بمجرد ما يُعقَد له الزواج؟ لا، إذن الفاء للترتيب والتعقيب، نقول: ترتيب كل شيء بحسبه، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، وهل المطر إذا نزل وصار الصباح فإذا هي مخضرة؟ لا، ولكن بعد مدة تخضر، وبعد مدة يولد لهذا المتزوج، فكذلك هذه ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ﴾ ما يلزم من ذلك أن يُباشِروا مجرد التذكير يخرُّون؛ بل المعنى: أنهم يلتزمون بذلك ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ التزموا بذلك بالسمع والطاعة فسجدوا في موضع السجود، ولم يوجد منهم استكبار، وعلى هذا فلا إشكال في الآية.

وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا حال من فاعل خرُّوا، ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ معطوف على خروا، ومعنى سبَّحوا؛ أي: نزهوا، فالمفعول محذوف، والتقدير: وسبحوا ربهم، أو سبحوا الله، وقوله: [متلبسين بحمد ربهم] أفادنا المؤلف أن الباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أن الباء للملابسة؛ يعني: معناه: أن التسبيح مقرون بالحمد، ولو أنه ذهب إلى أن الباء للمصاحبة وسبَّحوا تسبيحًا مصاحَبًا بحمد ربهم لكان أولى، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [أي: قالوا: سبحان الله وبحمده] هذا معنى ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾، ويحتمل ألَّا يكون المراد بالتسبيح والحمد: تسبيح اللسان وحمده، وأن المراد: نزَّهوه بقلوبهم وحمدوه بألسنتهم، نزَّهوه بقلوبهم عما لا يليق به، وحمدوه بألسنتهم بما يستحق، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الجملة حال؛ يعني: والحال أنهم لا يستكبرون عن الإيمان والطاعة؛ بل ينقادون ويخضعون.

ثم بيَّن الله تعالى من صفاتهم ما ذكره بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتبتعد أيضًا؛ لأن المجافاة: الإبعاد، ومنه: كان النبي ﷺ يُجافي عضُدَيه في السجود [1]؛ يعني: يبعدها عن جنبيه، فمعناها إذن: الإبعاد والارتفاع، والارتفاع يستلزم البعد، ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ المضاجع جمع مضجع، وهو مكان الاضطجاع، والاضطجاع هو النوم، يقول المؤلف: [مواضع الاضطجاع بفرشه لصلاتهم بالليل تهجُّدًا] ما ينامون ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فلا ينامون، ولكن هذا مقيد بما جاءت به السنة أنهم يتهجَّدون ليس كل الليل، ولكن الزمن المشروع التهجُّد فيه، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ [من عقابه] ﴿وَطَمَعًا﴾ [في رحمته]، ﴿يَدْعُونَ﴾ هذه الجملة حالية من فاعل تتجافى، أو من المضاف إليه بجنوبهم؛ أي: حال كونهم يدعون ربهم، دعاء مسألة، أو عبادة، أو الأمرين؟ يشمل الأمرين؛ يدعونهم دعاء مسألة وعبادة، ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقاب الله عز وجل، وطمعًا في رحمته، لكن ما الحامل على الخوف والطمع؟ إذا نظروا إلى تقصيرهم، وعظمة الله، وشدة عقابه، غلب عليهم جانبُ الخوف، وإذا نظروا إلى سعة رحمة الله وعفوه، وأنهم قاموا بما ينبغي أن يقوموا به، غَلَبَ عليهم جانبُ الطمع، فهم يسيرون بجناحي الخوف والطمع، ولكن أيهما ينبغي أن يُغلَّب؟ فيه خلاف، قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف قنط من رحمة الله، وإن غلَّب جانب الرجاء أَمِنَ مكر الله، ولكن يكون بين بين، نقول: الصحيح يُغلِّب جانب الخوف، والمريض يُغلِّب جانب الطمع؛ يعني: عند الموت يُغلِّب جانب الطمع والرجاء، وفي حال الصحة يُغلِّب جانب الخوف، وقيل: إن فعل الطاعة فليُغلِّب جانب الرجاء، وإن همَّ بالمعصية أو عمِلَها فليُغلِّب جانب الخوف.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [يتصدَّقون] (من) هل هي لبيان الجنس، أو أنها للتبعيض؛

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٩٠٠) من حديث أحمر بن جزء رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

يعني: بعض ما رزقناهم ينفقون؟ إذا قلت: إنها للتبعيض صار من يبذل كل ماله تقربًا إلى الله صار مذمومًا، وإن قلت: إنها لبيان الجنس وأنهم ينفقون مما رزقناهم، فإنه لا يقتضي أن يكون من بذل ماله كله مذمومًا، فالمراد: بيان الجنس، فيشمل القليل والكثير، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء؛ هل يبذل الإنسان كل ماله في طاعة الله، وفي سبيل الله، أو يقتصر على بعضه؟ والصواب: أن ذلك يرجع إلى حال الشخص، وإلى الأسباب التي بها يدفع الضرورة عن نفسه وأهله، فإن كان الإنسان ضعيف التوكُّل، أو ضعيف القدرة على التكسُّب، فالأفضل أن يُبقِيَ شيئًا من ماله، وإن كان الأمر بالعكس فله أن يتصدَّق بجميع ماله، كما فعل أبوبكر، أما أبو لُبابة لما نذر أن ينخلِع من ماله صدقة لله ورسوله، قال له الرسول ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»[1] ، فجعل من الخير له أن يمسك بعض المال، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق: البذل.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي نفس تكون؟ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذا نفيٌ لعلم الحقيقة لا لعلم المعنى، فإن المعنى معلوم فيما أخفى الله من قرة الأعين، لكن حقيقة ذلك الشيء مجهولة، ولهذا قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، نعلم أن في الجنة نخلًا، ورمانًا، وفاكهة، ولبنًا، وعسلًا، وماءً، وخمرًا، وطيرًا، وما أشبه ذلك، نعلم هذا، لكن حقيقة ذلك الشيء مجهولة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ أي: حقيقة ما أُخفِي، وليس معنى ما أخفي، فالمعنى معلوم، وقوله: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تَقَرُّ به أعينهم، قرَّت عينه؛ بمعنى: جمدت، وقرَّت عينه؛ بمعنى: سكنت، فعلى الأول تكون من القُرِّ وهو البرد، ولهذا يقال: إن دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ولهذا قال: قرَّت عينه إذا سُرت، أما إذا كانت من القرار، وهي: أنها لا تلتفت إلى سوى ما هي تنظر إليه؛ يعني: أن أعينهم قارَّة لا تلتفت إلى سوى ما هي عليه، وكلا المعنيين صحيح، فإن معنى قرَّت عينك؛ أي: بردت، فلم يلحقها حرارة الحزن، ومعنى قرَّت عينك؛ أي: سكنت، فلا تنظر إلى شيء سوى ما هي عليه، وهذا يكون معناه غاية الأمنية.

قال المؤلف: [وفي قراءة بسكون الياء مضارع] أُخفيَ هذه فعل ماضٍ، أُخفِيْ فعل مضارع، فلا تعلم نفس ما أخفيْ لهم أنا؛ يعني: الله عز وجل من قرة أعين، أما ما أُخفيَ لهم فهي فعل ماض مبني للمجهول، وفاعله مستتر جوازًا، أو وجوبًا؟ إذا كانت أخفيَ فهو مستتر جوازًا، إذا صارت أخفيَ فهي فعل ماض، وفاعله مستتر جوازًا، وإذا كانت أخفيْ بالسكون فهي فعل مضارع وفاعله مستتر وجوبًا تقديره: أنا، والمعنى على كلتا القراءتين صحيح، فالله هو الذي أخفاه حتى على البناء للمجهول: ما أُخفِيَ، فإن المُخفِي هو الله ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جزاء مفعول من أجله، ولكن هل المفعول من أجله عامله أُخفِيَ أم قُرَّة؟ الظاهر أنها قرة؛ يعني: قرة أعينهم جزاءً،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٥٣/ ٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

وليس المعنى: أخفي لهم جزاءً؛ لأنه قد يقال: إن الإظهار أبلغ في البيان، لكنها ﴿مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كانوا يعملونه في الدنيا من طاعة الله، فإن قلت: هذا يدل على أنهم يجازون بعملهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١)، فما هو الجمع بين هذا الحديث وبين هذه الآية وأمثالها؟ قال أهل العلم: إن الجمع بينهما باختلاف معنى الباء، فالباء التي للسببية هي الموجودة في مثل هذه الآية: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟﴾ أي: بسبب ما كانوا يعملون، والباء التي للعِوَض هي المذكورة في قوله: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»؛ أي: عِوضًا عن عمله؛ لأننا لو أردنا المعاوضة والمقاصَّة لظهر العامل مغبونًا مطرودًا، لو طلبنا المُقاصَّة والمعاوضة كان العامل مهما عمل من صالحات فهو مغبون، نعمة واحدة من نعم الله عليك تستوعِب جميع الأعمال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن التعصُّب في التقليد ليس من طريق المؤمنين، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويوجد في المتعصبين بالتقليد من يستكبر على الحق، إذا عُرِض عليه أبى.

٢- **ويستفاد من الآية:** ذمُّ من أصرَّ على رأيه بباطل، من قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ من الناس من إذا قال قولًا لا يمكن أن يتنازل عنه ولو بان الحق، وهذا نوعٌ من الاستكبار، الواجب أن تعرف نفسك وأنك بشر، وأنه يفوتك العلم؛ إما نسيانًا، وإما جهلًا، ويفوتك أيضًا الوصول إلى الغاية، قد يكون عندك علم لكن ينقصك التفكير، والتأمُّل، والجمع بين الأدلة، وما أشبه ذلك فتحتاج إلى أن توفَّق.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** فضيلة قيام الليل؛ لأن الله تعالى ذكره في سياق المدح، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكن هذا الإطلاق مُقيَّد بما جاءت به السنة؛ يعني: بأن لا يكون جميع الليل تتجافى جنوبهم عن المضاجع في حدود ما جاءت به السنة، وبهذا نعرف خطأ ما يوجد في كتب الوعظ من أن فلانًا صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة؛ يعني: أنه ما نام الليل يقوم الليل، هذا خطأ، هذا يتبرأ منه الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال في الجماعة الذين قال أحدهم: أنا أقوم الليل ولا أنام، قال: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٢)،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٧١/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (٥/ ١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

لكن مشكلة هؤلاء الوعاظ الذين يكتبون هذه الكتب يريدون أن يُرغِّبوا الناس لكن يرغبوهم في الباطل، ولو أن الناس اقتُصِر لهم بما صح عن النبي ﷺ من التبشير والإنذار ومن الأعمال الصالحة لاستقاموا، لكن عندما أسمع هذا رجل يُثْنَى عليه من أربعين سنة صلى الفجر بوضوء العشاء، أين أنا من هذا؟ إذن أبقى على ما أنا عليه، وأصلي سنة العشاء ركعتين، والوتر أقله ركعة أصلي ركعة، ولا يجب إلا قراءة الفاتحة أقتصر على الفاتحة، ولا يجب إلا سبحان ربي الأعلى مرة في السجود، وسبحان ربي العظيم مرة في الركوع أقتصر عليها أيضًا، لكن لو أن الناس بُيِّنَت لهم السنة حقًا لكفى بها واعظًا.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة الدعاء، لقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعي والعامل العابد أن يكون دعاؤه وعبادته بين الخوف والرجاء، لقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** فضيلة الإنفاق مما رزقك الله، لقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على حسب التفسير الذي ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١- في هذه الآية: دليل على عِظَم نعيم الجنة، من قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأن هذا لا شكَّ أن الإبهام يدلُّ على التكثير، كما قلنا في التفسير.

٢- **ومن فوائدها:** أن في الجنة من قُرَّة العين في المأكول، والملبوس، والمنكوح، والمسكن ما لا يخطر على البال؛ لأن كل هذه الأربعة تقرُّ بها العين، قال الشاعر:

ولَبْس عباءةٍ وتقرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لَبْس الشُّفوف

٣- **ومن فوائدها:** فضل الله عز وجل على العباد المؤمنين، فضله السابق واللاحق، السابق: أن وفقهم للإيمان والعمل الصالح، واللاحق: أن جعل هذا الجزاء على عملهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كأن هذه النعم التي في الجنة كأنها جزاء على عمل لهم؛ بل هي حقيقة جزاء على عمل لهم، لكن فيها أن الفضل من الله عليهم، كأنه فضل منهم على أنفسهم، لقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مثل قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠] إحسان العمل بإحسان الجزاء، ومنه: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان:٢٢] يمُنُّ عليهم بالسعي الحميد، ثم يشكرهم عليه، يمُنُّ عليهم هنا بالتوفيق للهداية، ثم يقول: أُجازيكم على عملكم، وهذا لا شك أنه من تمام نعمة الله عز وجل.



قال الله تعالى:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٢].

التَّفسِيرُ

وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ المراد بالفسق هنا: الفسق الأكبر المخرِج عن الإسلام، وليس الفسق الأصغر الذي يبقى فيه الإنسان مؤمنًا ناقص الإيمان، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الجواب: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ وانتبه أيها القارئ أن يقِف على قوله: ﴿فَاسِقًا﴾ فإن كثيرًا من القراء يقرأ يستمر ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ما يصح هذا، كمن كان فاسقًا، لا يستقيم، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ قِف، ثم قل: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ هذا الجواب جواب من؟ جواب الله عز وجل، الله تعالى استفهم وأجاب نفسه، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أجاب ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ أي: المؤمنون والفاسقون.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا﴾ وهو ما يُعدُّ للضيف ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أما: هذه حرف شرط وتفصيل، وتفيد مع الشرط والتفصيل: التوكيد، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] هنا ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ تكون فيها ثلاث فوائد: شرطية، بدليل أنها أتى لها جواب ﴿فَلَهُمْ﴾ تفصيلية؛ لأنها أتت بقسمين: أما الذين آمنوا، وأما الذين فسقوا، توكيدية؛ لأنه لا شك أن هذه الصيغة تفيد التوكيد، ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ﴾ هذا جواب الشرط ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ الجنَّات جمع جنة، وهي في اللغة: الحديقة الكثيرة الأشجار، وسُمِّيَت به؛ لأنها تُجِنُّ من فيها؛ أي: تستره لكنها في الشرع: الدار التي أعدَّها الله تعالى لأوليائه، فهي أعلى مما يدور في الخيال، أو يخطر على البال.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ يعني: التي هي مأواهم لا يبغون عنها حِوَلًا، ولا يتحوَّلون عنها،

فهي مأوى، كما أن الجحيم مأوى الكافرين لا يتحوَّلون عنها، فالمأوى مكان الإيواء؛ أي: أنها هي جناتهم التي يأوون إليها، ولا يخرجون منها.

وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ يقول المؤلف: [هو ما يُعدُّ للضيف] وعلى هذا فتكون مصدرًا في موضع الحال؛ يعني: أنه يُعدُّ لهم هذا النزل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الباء هنا للسببيَّة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ - والعياذ بالله -، مأواهم؛ أي: مرجعهم النار، هل يخرجون منها؟ لا، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ يُمنَّون بالخروج، ترتفع بهم إلى أن يقرُبوا من أبوابها، ثم بعد أن يتمنَّون الخروج ويريدونه يُعادُون فيها، وهذا أشد - والعياذ بالله - في التعذيب، لو فرضت أنك محبوس في مكان، يقول لك: تعال تعال، كلما قربت من الباب ردك، أيُّ هذا، أو أن تبقى في حجرة الحبس؟ أيها أشد؟ أن تبقى في الحجرة أشد؟ أمن أن تقرب إلى الباب ثم إذا أراد أن يخرج قال له: ارجع؛ لأنه - والعياذ بالله - إذا فُرِض هكذا صار كأنه يحبس عدة مرات؛ لأن من أشرف على الحياة ثم عاد إلى الموت صار ذلك موتًا آخر، تكون عودته إلى محبسه تكون حبسًا ثانيًا، هكذا أهل النار - والعياذ بالله - يُمنَّون الخروج، وكلما أرادوا أن يخرجوا أعيدوا فيها، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أيضًا توبيخًا ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيجتمع عليهم - والعياذ بالله - العذاب الجسمي والعذاب القلبي، الجسمي من النار ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ والقلبي من هذا التوبيخ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ بماذا يحس الإنسان عندما يقال له هكذا؟ ألا يتحسَّر ويقول: يا ليتني ما كذَّبت، كيف أكذب ويتمنى، يكون هذا فيه من التوبيخ والتنديم، وإدخال الحسرة ما هو ظاهر، ولهذا قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧] الآن نحن إذا فاتنا شيء في قضاء الله وقدره، وهو مما يسُرُّنا ممكن الإنسان يندم؟ يندم، ويقول: ليتني فعلت، وليتني فعلت، مع أنه منهي عنه؛ لأن هذا يفتح عمل الشيطان، يفتح باب الندم، أو الاعتراض على القدر، ولهذا نهى الرسول ﷺ عنه، فالمهم أن هذا التوبيخ يكون عذابًا قلبيًّا، وأما كونهم يُردِّدون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فهو عذابٌ جسميٌّ بدني، فهم دائمًا في عذاب، وحسرة، وندم ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزُّخرُف:٧٥] دائما وأبدًا ما في فترة راحة، ولهذا يقولون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر:٤٩] انظر - والعياذ بالله- الخزي والتقاصُر، ما قالوا: ادعوا ربكم يرفع العذاب، قالوا: يخفف فقط، ولا قالوا: يخفف دائمًا، قالوا: يخفف يومًا، وهذا يدل على شدة يأسهم؛ لأنهم أُيِّسُوا من الرحمة، يتمنون ولا لهم وجه على الله أنهم هم الذين يسألون، يطلبون من خزنة جهنم أن يشفعوا لهم إلى الله أن يخفف عنهم، لا يرفع، يومًا لا دائمًا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكن ماذا تقول لهم الخزنة؟ تُوبِّخُهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ

تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيقولون: ﴿بَلَىٰ﴾ ثم يقولون: إذن نحن برءاء منكم، ما نتدخل في شأنكم فادعوا أنتم يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر:٥٠] ما ينفعهم، ولهذا إذا ألحُّوا على ربهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ انظر التضرُّع ﴿رَبَّنَا﴾ والاعتراف ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ هم حكموا على أنفسهم، وكل هذا من باب التضرُّع؛ لأن الإنسان إذا اعتبَر بإساءته فإن هذا مدعاة لرحمته، إذا جاءك واحد يعتذر بذنبه ويعترف بذنبه، هذا يُوجِب أنك ترحمه، فهم يعترفون لعلهم يُرحمون، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧]، قال الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ذُلُّوا وكونوا حقارى، ولا تكلمون بأي كلمة، حينئذٍ - والعياذ بالله - ييأسون من كل خير.

ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ هذا فعل مُؤكَّد بالنون واللام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ تأكيدًا وجوبيًا؟ نعم؛ لأنه مُثبَت، مُستقبَل بجواب قسم، غير مفصولًا من لامه، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا؛ بالقتل، والأسر، والجدب سنين بالأمراض ﴿دُونَ الْعَذَابِ﴾ [أي: قبل ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من بقي منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان]، هذا وعيد من الله عز وجل أنه يذيقهم العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، وهو: عذاب الآخرة لعلهم يرجعون، لعل للتعليل، ولكن هل رجعوا؟ منهم من رجع ومنهم من لم يرجع، فإن قريشًا أصيبوا بالجدب، وبالسنين، والقتل ببدر قتل شرفائهم، والأسر أيضًا، ومع ذلك رجعوا أم لا؟ منهم من رجع، ومنهم من لم يرجع، فمن أراد الله له النجاة أحيا الله قلبه بهذه المواعظ فرجع، ومن طَبَع الله على قلبه بقِيَ على ما هو عليه ولم يرجع.

قال الله تعالى: [﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين ﴿مُنتَقِمُونَ﴾].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أفادنا المؤلف بقوله: [لا أحد أظلم] أن الاستفهام هنا للنفي؛ أي: لا أحد أظلم منه، والظلم سبق لنا عدة مرات أن المراد به: النقص في الأصل، كقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص، والمراد به: نقص الإنسان فيما يجب عليه فيدَعه، أو نقصه فيما مُنِع منه فلا يمتثِل ويرتكِب المحرَّم، وقوله: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرسول ﷺ لأجل أن يشمل كل مُذكِّر؛ لأن بعض الناس قد يخضع لبعض المُذكِّرين لكونه فلانًا، وهذا ليس خاضعًا للآيات، إنما هذا خاضع للأشخاص، تجده إذا ذُكِّر بهذه الآية إن ذكَّره فلان قَبِل، وإن ذكَّره آخر لم يقبَل، يوجد أناس إذا أمرهم الإنسان بأمر معروف ما همُّوا؛ بل ربما يستهزءون به، وإذا أمره به آخر امتثل وأظهر الموافقة، ولهذا قال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ لئلَّا يتقيَّد بمُذكِّر

معين، أي مذكِّر يكون.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قال المؤلف: [المراد به: القرآن] والأصح: أنه أعم من القرآن، ويشمل حتى من ذُكِّروا بالتوراة في زمن التوراة، ومن ذكِّروا بالإنجيل في زمن الإنجيل، وبالزبور في زمن الزبور؛ لأن هذا حكم عام، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتى بالربوبية المقتضية للانقياد؛ لأنه ما دام التذكير بآيات رب لك فأنت مربوب عبد، والمربوب في تدبير من ربِّه.

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ والفرق أنه في الآية الأخرى ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أنه بادر بالإعراض ﴿فَأَعْرَضَ﴾، الثانية بعدما فكَّر وقدَّر في هذه الآية أعرض، والناس هكذا منهم من يُعرِض لأول وهلة ولا يلتفت ولا يفكر، ومنهم من قد يفكر ولكن في النهاية يُعرِض.

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجملة استئنافية لتهديد هؤلاء المعرضين وبيان أنهم من المجرمين، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهو إظهار في موضع الإضمار، والأصل: إنا منهم، لكن أظهر في موضع الإضمار للسببين السابقين اللذَين أشرنا إليهما وهما أنه من أجل أن يحكم على هؤلاء المجرمين، ولأجل أن يكون الحكم عامًا لكل مجرم فيهم، وفي غيرهم، والإجرام بمعنى: الإثم، فالمجرم هو: الآثِم الذي ارتكب ما لا يحل له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفِّفين:٢٩]

قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جمع ليُطابق المبتدأ، أين المبتدأ؟ ﴿إِنَّا﴾ اسم (إنَّ) يعني: أصلها: إننا لكن حُذِفَت النون الثانية تخفيفًا، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ والجمع هنا وفي كل ما يضاف إلى الله يراد به: التعظيم، وقد سبق لنا أن النصراني لو استدلَّ بالجمع على التعدد قلنا له: أنت من أصحاب الزيغ الذين يتَّبعون ما تشابه منه؛ لأنك لو رجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]زال عنك هذا الاشباه.

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤] فكلمة: ذو انتقام تعني أنه: صاحب انتقام؛ يعني: ممن يستحقه، وهنا: ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مقيدة منتقمون من المجرمين، وبهذا نعرف أن المنتقم ليس من أسماء الله؛ لأن الاسم من أسماء الله يكون مطلقًا دالًّا على المعنى الأحسن على كل تقدير، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كل كلمة تحتمل هذا وهذا فإنها لا تكون من أسماء الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والانتقام لا شك أنه حسن في محله، وعليه فلا يصح أن يُوصَف الله به على سبيل الإطلاق، وهو معدود من الأسماء الحسنى المشهورة، ولكن هذه الأسماء الحسنى المشهورة - كما قال شيخ الإسلام وغيره من أهل التحقيق -: ليست ثابتة عن الرسول ﷺ؛ لأن فيها أشياء من الأسماء لا تصح اسمًا لله، إذن هل يُوصف الله بالانتقام مطلقًا، فيقال: المنتقم؟ الجواب: لا؛ لأنه ما ورد إلا مُقيَّدًا، وورد ذو انتقام نكرة في سياق الإثبات فلا تدل على العموم؛ لأن النكرة في سياق

الإثبات - كما هو معروف - لا تفيد العموم إنما تفيد العموم إذا كانت في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام الإنكاري كما ذكره أهل الأصول.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾.

١- **في هذه الآية:** تقرير أنه لا مساواة بين المؤمن والكافر، وأن هذا أمر لا يمكن ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٦] هذا من السَّفَه ومن الخطأ في الحكم أن نجعل المسلم كالمجرم، أو الفاسق كالمؤمن.

٢- **ومن فوائدها:** أن المؤمن خير من الفاسق ولو كان الفاسق أعظم جاهًا في الدنيا عند الخلق، وتُؤخذ من العموم ﴿ أَفَمَن﴾ (مَن) هذه اسم استفهام، وأسماء الاستفهام من صيغ العموم، لا يمكن لأي فاسق أن يكون كالمؤمن، ولو عظُمَ في الدنيا، ولو نال من الدنيا ما ينال فإنه ليس كالمؤمن تمامًا.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن المؤمن لا يُساوِي الكافر لا في عمله، ولا في جزاءه، أما العمل فظاهر هذا مؤمن وهذا فاسق، وأما الجزاء فبيَّن له الفرق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ وأولئك مأواهم النار، وفرقٌ بين هذا وهذا.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، لقوله: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلا يكفي مجرد العقيدة؛ بل لابد من عمل صالح.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الجنة، لقوله: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ لكن هل هي موجودة، أو توجد يوم القيامة؟ موجودة، لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣] وأعد فعل ماض.

٤- **ومن فوائدها:** طِيب منازل الجنة ومقرِّها، لقوله: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ يعني: الجنات التي لا يتمنَّى الإنسان إلا أن يأوِي إليها ﴿الْمَأْوَىٰ﴾ كل أحد يتمنَّى هذا المأوى لكن لا يناله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٥- **ومن فوائدها:** أن أهل الجنة يُكرَمون بما يُنعَّمون به، كما يُكرَم الضيف بضيافته، لقوله: ﴿نُزُلًا﴾ وتعلمون ما يجده الضيف من السرور في نفسه إذا أُكرِم بالضيافة، بخلاف الذي يقدم له الطعام عاديًا، الذي يُقدَّم له الطعام عاديًّا يرى أنه شيء معتاد ما له أهمية، لكن الذي يُقدَّم له كضيافة وكأنه رجل مكرم ومحترم يجد في نفسه مع تلذذه بالطعام تلذذ جسدي، يجد تلذذا وراحة نفسية وإكرامًا، ولهذا سماه الله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾.

٦- ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١- يستفاد من الآية الكريمة: أن الفسق نوعان: فسق أكبر، وهو: الكفر، وفسق دون ذلك، وهو: المعاصي.

٢- ومن فوائدها: أن الكفار مأواهم النار، لقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ هنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، ولم يقل: فلهم نار المأوى، الفرق: لأن النار كل أحد لا يحب أن تكون مأواه بخلاف الأول، الجنة كلٌّ يحب أن تكون هي المأوى، وأما هذا فلا، وإن كان هذا الفرق قد يختلف في بعض الآيات؛ مثل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤١]، لكن لكل مقام مقال، هنا المسألة المقام مقام معادلة وموازنة، فلهذا فرَّق بينهما، قال: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أما هناك فليس هناك معادلة؛ يعني: ما ذُكِر أن قومًا يدَّعون لأنفسهم الإيمان الحق فأنكر الله ذلك.

٣- ومن فوائدها: إثبات النار، لقوله: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن، والدليل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٤- ومن فوائدها: شدة عذاب أهل النار لكونهم يُمنَّون بالخروج ويُرفَعون يرتفع بهم اللهب حتى إذا ظنُّوا أنهم يخرجون أعيدوا فيها، يقول: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

٥- ومن فوائدها: أن أهل النار جُمِع لهم بين العذاب الجسمي والعذاب القلبي بالتوبيخ، يقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: بيان حكمة الله عز وجل فيما يبتلي به من المصائب، تؤخذ من قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا كقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن عذاب الدنيا لا يُنسَب إلى عذاب الآخرة؛ لأن بينهما من الفرق العظيم، فهذا أدنى وذاك أكبر؛ يعني: كلاهما في طرفي نقيض؛ لأن أدنى اسم تفضيل، وأكبر اسم تفضيل، فإذن هل يُنسَب أدنى شيء إلى أعلى شيء؟ لا نسبة، ولهذا نقول: يستفاد من الآية الكريمة: الفرق العظيم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

٣- ومن فوائدها: قبول التوبة من الكافر، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٤- ومن فوائدها: إثبات حكمة الله، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأن لعل للتعليل، والتعليل:

هو الحكمة.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات العذاب في الآخرة، لقوله: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فإن المراد به: عذاب الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن من كان على هذا الوصف فهو لا يكون أحدٌ أظلم منه، لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهاهنا مسألة، وهي: أن مثل هذه العبارة جاءت في غير هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهنا نحتاج إلى الجمع بين هذه النصوص، وفي السنة: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[1] فكيف نجمع بين هذه النصوص؟ ذكرنا فيما سبق أن الجمع بأحد وجهين: الوجه الأول: أن نقول: إن الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا تفيد أن الظالم لا يوجد له مشارك أو مساوٍ لهذا الظلم، وإنما نقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾ اشترك بماذا؟ بالأظلمية؛ يعني: هذا أعلى ما يكون في الظلم، هذا وجه، والوجه الثاني: أن نقول: عن الأظلم بالنسبة لما تحته من نوعه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني: هذا أظلم ما يكون من المُذكَّرين، بخلاف من ذُكِّر ثم أعرض عن البعض، أو ما أشبه ذلك، يصير هذا الأظلمية بماذا؟ بالنسبة لما تحته من نوعه، ﴿و وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا أحد أظلم في منعِ شيء من الأشياء ممن مَنَع مساجد الله، وعلى هذا فقِسْ، فصار الجواب بأحد وجهين: إما أن يقال: في الآية الكريمة وجوب القبول على من ذُكِّر بآيات الله، نأخذه من المعنى في الإعراب.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإنسان يجب أن يقبل التذكير من أي من ذكَّره، يُؤخَذ من بناء الفعل للمجهول ﴿ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرسول، أو ذكَّره فلان أو فلان، إذا وقع التذكير، أو أتاك التذكير من أي جهة فالواجب عليك القبول.

٣- **ومن فوائدها:** أن الإعراض بعد العلم أقبح منه هذا الجهل؛ لأن الله تعالى جعل هذا أعظم الظلم، أن تُذكَّر ثم تُعرِض، لكن من أعرض بدون تذكير فهو أهون.

٤- **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها إجرامٌ، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** جواز إضافة الانتقام إلى الله مُقيَّدة، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني: الإخبار عن الله بأنه منتقم لكن مُقيَّدًا بقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (١٠١/ ٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات عظمة الله، لقوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فإن الجمع هنا للتعظيم.

٨- **ومن فوائدها:** بلاغة القرآن وأنه في أعلى ما يكون من البلاغة، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يقل: إنا منهم، من أجل أن نستفيد فائدتين: الفائدة الأولى: أن هذا مجرم، والفائدة الثانية: أن الحكم يعمّهم وغيرهم من المجرمين.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ آتينا بمعنى: أعطينا، وهو إعطاء شرعي قدري، وقوله: ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ موسى مفعول أول، والكتاب مفعول ثان، و(ال) في قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ للعهد الذهني؛ لأنه ما سبق له ذكر حتى يُحال على المذكور، وليس شيئًا حاضرًا حتى يقال إنه عهد، إذن فهو عهد ذهني؛ يعني: الكتاب المعهود المعروف، وهو: التوراة، ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ [شك ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾، ﴿فَلَا تَكُن﴾ الخطاب هنا على ما مشى عليه المؤلف الخطاب للرسول ﷺ، والضمير في لقاءه يعود على موسى، والمعنى: فلا تكن يا محمد في مرية؛ أي: في شك من لقاءه، لقاء من؟ لقاء موسى؛ يعني: فإنك ستلاقيه، قال المؤلف: [وقد التقيا ليلة الإسراء] هذا ما ذهب إليه المؤلف، وذهب إليه كثير من المفسرين أيضًا أن الخطاب للرسول ﷺ، والضمير يعود على موسى، والمعنى: لا تكن يا محمد في شك من ملاقاة موسى، فإنك ستلاقيه، وقد لاقاه في ليلة الإسراء، قال المؤلف: [الإسراء] لأن الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَا تَكُن﴾ خطاب لموسى؛ يعني: آتينا موسى الكتاب قائلين له: لا تكن في مرية من لقاءه؛ أي: لقاء الجزاء عليه؛ أي: على الكتاب، والمعنى: أن هذا الكتاب الذي آتيناك إياه لابد أن يحاسب عليه من نزل إليهم حتى يلاقوا جزاءهم، ويحتمل أن المعنى: فلا تكن في مرية من لقاءه؛ أي: لقاء موسى، أي: لقاء مثل ما لقيه، من أي شيء؟ من الأذى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: لقاء ما لقيه موسى من الأذى فإن موسى أُوذِي، وقال النبي ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(١)، وهذا أيضًا معنى حسن، إن المعنى: أن ما آتيناه وآتيناك أيضًا، وأُوذي فستؤذى فلا تكن في شك من هذا،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٠) ومسلم (١٤١/ ١٠٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا هو الواقع، فإن الرسول ﷺ لقِيَ من الأذى الشيء الكثير، وكل من تبع شريعته وانتهج منهاجه في الدعوة إلى الله والعمل في شريعة الله فسيلقَى الأذى، ولكن الشأن كل الشأن هل يلزم من الأذى الضرر؟ ما يلزم، ولهذا يصح أن نقول: إن الله يؤذى ولا يتضرَّر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[(١)] ، مع أنه قال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[(٢)] ، فلا يلزم من الأذى الضرر، ها نحن الآن نتأذى برائحة إنسان أكل بصلًا، أو ثومًا ونتضرَّر؟ ما نتضرَّر، فلا يلزم من الأذى الضرر، والرسول ﷺ لا شك أنه أوذي ولكن ما ضره ذلك والحمد لله، صار الأمر والعاقبة للرسول ﷺ، وأما قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فالمعنى: أنهم لن يضروكم أبدًا ولكن أذى، ولهذا قالوا: إن الاستثناء في هذه الآية منقطع.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جعلناه الضمير يعود على الكتاب.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** إثبات رسالة موسى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتأكيد هذه الرسالة، لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأن الجملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدَّر.

٢- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام رسولٌ حقًّا لا يجوز الشك فيه، لقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني: أن هذا حق لا تكن في شك من أنه حصل لموسى هذا الذي حصل، وهذا على التفسير الذي ذكرنا، أما على ما قاله المؤلف فيستفاد منه: أن محمدًا ﷺ سوف يُلاقي موسى.

٣- **ومن فوائدها:** أن التوراة كالقرآن هدى، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ لكن هداية مخصوصة بمن؟ ببني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي لنا أن نطلب الهدى من التوراة، لقوله: ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أما من بعد بعثة الرسول فالهدى لهم هو: القرآن.



---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢/ ٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٤-٣٠].

❁ التفسير ❁ (١)

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** فضيلة الصبر، نأخذه من الجزاء عليه، من كون الصابر يكون إمامًا، وهذا دليل على أن الصبر محبوب إلى الله يُجازي عليه بهذا الجزاء العظيم.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة اليقين، لقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** نيل الإمامة في الدين بهذين الوصفين، وهما: الصبر، واليقين.

٤- **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما صبروا وأيقنوا صاروا أئمةً يُقتَدى بهم، كلما أصاب الإنسان شيء قال: لقد أُصيب فلان فصبر فيصبر، كلما وردت عليه شبهة، قال: لقد كان فلان موقنًا فأنا موقن، فيكون الإنسان بذلك إمامًا.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الآيات لله؛ لقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه لا حاكم في الآخرة إلا الله، تؤخذ من ضمير الفصل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ هو وحده يفصل، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وقال تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

٢- **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة، لقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) هذه الآيات المادة الصوتية الخاصة بتفسيرها غير واضحة، أما الفوائد فواضحة.

٣- **ومنها:** أن الله تعالى يحكم بين المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيقول: أنتم على حق، وأنتم على باطل، وهؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، أيهما الغالب؟ المؤمنون أو الكافرون؟ المؤمنون، والدليل: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، قاضي يعلن الحكم بين الخصمين، ويقول: أنت الغالب، فيعلن بالحكم قبل القضية، يجوز هذا أو لا يجوز؟ في حق الله عز وجل لا شك أنه جائز، فالآن نحن نقول: نحن نتخاصَم مع الكافرين، ولن يكون لهم علينا سبيلًا.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا وِفاق بين المؤمنين والكافرين، ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأي إنسان يحاول يقارب بين الإسلام والنصرانية، أو بين الإسلام واليهودية فإنه أراد أن يرُدَّ اللبن في الضرع، ممكن أم لا؟ هذا غير ممكن، كل كافر مهما كان سواء انتسب إلى الإسلام أم كان كافرًا مُعلنًا بكفره فإنه لا يمكن أن يتوافق مع المؤمنين أبدًا، ومن زعم ذلك فقد أبعد النَّجْعة وحاول شيئًا مستحيلًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** استعمال ضرب الأمثال، يؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: فإذا كنا أهلكنا مَن قبلهم فسنُهلكُهم إذا كانوا مثلهم، ولهذا قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾. [يوسف:١١١].

٢- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالشيء المحسوس على الشيء المعقول، لقوله: ﴿يمشون في مساكنهم﴾، أو بعبارة أخرى: الاستدلال بعينِ اليقين على صدق علم اليقين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ هذا علم اليقين، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليقين.

٣- **ومن فوائدها:** جواز المشي بدار المُعذَّبين ومساكنهم، تؤخذ من قوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هل ذكر الخبر عن الشيء يفيد حِلَّه؟ لا، ما يفيد؛ يعني: كون هذا هو الواقع أنهم يمشون في مساكنهم ما يدل على أن هذا المشي مأجورين فيه، أخبر النبي ﷺ أن الظعينة تمشي من حضرموت إلى صنعاء لا تخشى إلا الله [1]، والظعينة وحدها حرام أن تمشي، والرسول قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» [2]، وهذا حرام أو حلال؟ حرام، فالإخبار عن كونهم يمشون في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٦/ ٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مساكنهم لا يدل على أن المشي حلال، لكن هل يدل على أنه حرام؟ لا يدل على أنه حرام، لا على أنه حلال، فنرجع إذن إلى الأدلة الدالة على ذلك؛ على التحليل أو التحريم، نجد أن الأدلة تدل على أن السير فيها جائز، وأما السُّكْنى فلا تجوز، ومع ذلك فقد قال الرسول ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1]، فالإنسان الذي يقصِدها نقول: لا تدخلها إلا باكيًا، وأما الذي يمُرُّ بها مرورًا فله أن يمر ولكن يسرع، كما أسرع النبي ﷺ، أما الذهاب إلى هذه المساكن من أجل أن يتفرَّج، ويقول: ما شاء الله! والله حضارة عظيمة هذه، انظر الحضارة القديمة؛ هل يوجد حضارة جديدة مثلها؟ ويُشَمُّ من كلامه تعظيم هؤلاء، هذا من السير في الأرض المنهي عنه؛ لأننا كوننا ندخل على هؤلاء نتفرَّج مُنبسِطِين مُنبهِرين بقوتهم مُتناسين ما وقع بهم من العذاب لمخالفتهم أمر الله ورسلهم، هذا مذموم وليس محمودًا ولا مأمورًا به، وعليه فنقول لكل من أراد أن يذهب إلى هذه البلاد: إذا كنتم فعلتم ذلك على سبيل النزهة فهذا حرام عليكم، أما على سبيل الاعتبار والاتِّعاظ بما جرى لهم من العذاب والنكال، وأن تتأثَّروا بذلك حتى تبكوا فهذا جائز، وإلا فلا تدخلوا لا تعرضوا أنفسكم للعذاب.

٤- ومن فوائدها: أن في إهلاك الأمم عبرة وآية، لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فهو آية لكون الله تعالى أخذهم وأهلكهم مع قوتهم، وهي عبرة أن الله أخذهم؛ لماذا؟ لمخالفتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ كل هذا يفيد بأنه يجب علينا نحن أن نعتبر بهذه الآيات وأن نخاف.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية: وجوب النظر في الآيات؛ لأن الاستفهام هنا للتوبيخ ولوم من لم ينتفع بذلك.

٢- ومن فوائدها: إثبات أفعال الله الاختيارية، تؤخذ من قوله: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾.

٣- ومن فوائدها: بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يسوق الماء جوًّا أو برًّا إلى هذه الأراضي الخالية الميتة الهامدة فتُنبِت، لقوله: ﴿الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

٤- ومن فوائدها: أن الأصل فيما نبت من الأرض: الحِلّ، من قوله: ﴿أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ فالأصل فيما نبت من الأرض أنه حلال حتى يقوم دليل على التحريم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٥- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله عز وجل بإحياء الأرض بعد موتها قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أعلى درجات اليقين، وهي: حق اليقين، من قوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فهم لا ينظرون إليه فقط، ولكنهم يأكلون منه، وهذا هو حق اليقين.

٧- **ومن فوائدها:** الحثُّ على النظر والتبصُّر، وهذه تؤخذ من من قوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات المُلك للأنعام، لقوله: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ والإضافة هنا إضافة ملك، ولكنه سبق لنا أن كل ملك يأتي للإنسان فهو ملك لله لكنه مُلك مُقيَّد، فالإنسان لا يملك الشيء ملكًا مطلقًا يتصرَّف فيه كما شاء وإنما يملكه مُلكًا مُقيَّدًا في تحصيله، وتمويله، وتصريفه، مُقيَّد بالتحصيل ما تحصله إلا على الوجه مشروع، وفي تمويله يعني: الاتجار به، وفي تصريفه لا تصرفه إلا مقيدًا، فهل بعد هذا يكون الملك حقًّا أو حقيقيًّا؟ لا، إذن مُلكك بالأشياء حتى ملكك الخاص؛ كالبيت والسيارة والثوب ليس ملكا مطلقًا فهو ملك مقيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١- في هذا دليل على: سفه هؤلاء المكذبين وحمقهم، لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والاستفهام قلنا: إنه للاستبطاء والتحدي للرسول ﷺ ومن كانوا معه.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحكم بين المؤمن والكافر من الفتح؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فأقر هذه التسمية.

٣- **ومن فوائدها:** بيان عُتوِّ الكافرين وإجرامهم، لكونهم يتحدون الرسول ﷺ والمؤمنين، يقولون: متى هذا الحكم بيننا إن كنتم صادقين.

١١- **ومن فوائدها:** أن العذاب إذا نزل لا ينفع الإيمان، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أنه إذا نزل العذاب فلا إنظار، لقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** أن العذاب قد يُؤجَّل قبل نزوله؛ لأنه يقول: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فظاهر الآية أنه لو كان هذا الإيمان قبل نزول العذاب فإن الله تعال يرفعه بالإيمان، ولهذا أمر النبي ﷺ عند الخسوف بالصلاة، والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والتكبير من أجل أن يُرفع العذاب الذي هذا إنذار به؛ لأن الكسوف إنذار بالعذاب، هو نفسه ليس عذابًا، لكنه إنذار بأن يُعذَّب الخلق، فإذا فزعوا إلى الصلاة وإلى الذكر والدعاء والاستغفار رُفِع عنهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن المُكابِر يُعرَض عنه ويُترَك حتى ينزل به العذاب، فإذا رأيت من يُكابِر تأمره بالحق، ولكن يكابر ويجادل ويعاند فاتركه؛ لأن بقاءك معه لا يُجدِي شيئًا،

فالإنسان المكابر الذي يقول: هذه ليست بشمس ولكن هذا قمر، تقول الآن: نحن في النهار في الضحى انظر الشمس، قال: لا، أنت مُخطئ، نحن الآن بعد صلاة العشاء، وهذا الذي ترى إنما هو القمر، تتكلم معه؟ أبدًا تطلب من يقرأ عليه، أو من يداويه؛ لأنه مجنون، كذلك من تريه الحق مثل الشمس، والحق أبين من الشمس، ثم يقول: لا، هذا غير صحيح، فإن هذا ينبغي أن يطلب له من يداوي عقله قبل فكره، هذا مُكابِر ليس هناك فائدة في الكلام معه، ولهذا يقول الشاعر:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

٢- **ومن فوائدها:** أن المكذب لا ينتظر بتكذيبه إلا العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، وأما تفسير المؤلف: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [أن يحِلَّ بك هلاك أو نحوه]، فهذا فيه نظر؛ بل يقال: إنهم منتظرون للعذاب، بكونهم استمروا على كفرهم فهم كالمُنتظِر لما ينزل بهم، وقد يقال: إن الآية تشمل المعنيين جميعًا؛ يعني: هم ينتظرون أن تموت، وينتظرون عذابهم باستمرارهم على المعصية، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣٠، ٣١]، نسأل الله العافية، هم ينتظرونه، سواء أحسوا بذلك، أو لم يحسوا؛ لأن مآلهم إلى العذاب، ولهذا إذا مات الكافر يُعذَّب بلا شك؛ بل هو يُحاسب بالعذاب في حال النزع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] وقال الله ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

تم بحمد الله تفسير سورة السجدة

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم